



الإبداع العربي
رواية

الشارع

خيرى شلبى



الهيئة المصرية العامة للكتاب



الإبداع
العربي
رواية

الشارون

إهداء 2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية

السطار...

خيبر شكري



١٩٩٩

إهداء

الى مصر ٠٠ محاكاة لهزلياتها التاريخية الرائعة

خيرى شلبى

جبلت وابناء جنسى على مطاردة الذئاب والثعالب واشباهاها ،
لكننى تعلمت فى هذه المدينة وفى صحبة صاحبى أن أقوى الذئاب
وأخطر الثعالب هم من بنى البشر • الا أننى لا أتنازل ولا أملك
التنازل عن جبلتى ، فما أن يجلس صاحبى فى مكان حتى أتركه
وأجلس بعيدا ثم أعود فأجرى نحو الجالسين معه فأتشهم رائحتهم
واحدا وراء الآخر ، أنفر من بعضهم وأنجذب الى البعض الآخر ،
أجرى الى الخلاء المحيط فأحدده بقفزات فى كل اتجاه ، أبول هنا
قطرات وهناك قطرات وأكمل البول فى المنافذ المفتوحة ، لاكون
بذلك قد أعلنت عن وجودى فى المنطقة لاي حيوان تسول له نفسه
اقتحامها ، فمن أى اتجاه يجرى سوف يشم رائحة بولى فيتردد كثيرا
قبل اقتحام المكان •

فى البداية كنت دائم النباح اذ النباح هو الصوت الوحيد الدال
على الانتماء • لكننى بمضى الزمن وجدت ألا داعى للنباح باستمرار
فليس من غريب ، فزبائن صاحبى معروفون ، هم ، هم يزيد عليهم
أفراد فى صحبة الزبائن الأصليين ، كنت أنبح فى وجوههم أول
الامر ، ولكن سرعان ما تبينت ان هؤلاء مثل أولئك زبائن كرماء
قصدوا الى محلة صاحبى كحكوح طلبا لمزاجهم •

لله ما أغرب هذا المزاج • يجلسون جماعات أو فرادى ، أمام
كل منهم « ورقته » • أعرف ان الورق هو ذلك الذى تكتبون
عليه وتطبعون ما يسمى بالجرائد تفتون بها جثث القتلى فى
الطرق • أعرف هذا فعشرات الصفحات قرئت على فى تكسية
صاحبى كحكوح على انفسام كركرة الجوزة • كانوا يفرقون فى
الضجيج وأنا وحدى الذى اتفرج واتشأب من فربط الملل والقرف ،
حتى لقد صرت كلبا عبقريا وبعضهم يلقبني بالفيلسوف كلما رآنى
غير مندفع نحو المهاجمة أو غير مرحب بالدخول فى حملة تمزيق لحم
وهلهلة ثياب ، فان هم تناولوا كشرت لهم عن اثايى وزارت زارة
واحدة أشم على اثرها رائحة الخوف تتصاعد من جوفهم • انهم عندى

بكل ثريتهم وثقافتهم وقلحسانهم كالورق الذى يتصفحونه أو
يحبرونه أو يشربونه فى غرزة صاحبي كحكوح ، اتصفحهم فأشعر
بالملل والقر ٠٠ لهذا ولغيره فانا مثلهم فى النهاية كلب مثقف
ولكن رغم ثقافتى لا أعرف ان كنت مثقفا لاننى كلب من بنى الازرق
أم اننى كلب لاننى مثقف من بنى الازرق ؟ ٠٠

أما الورقة عند صاحبي كحكوح فهى قطعة من الخشب
المستطيلة مدقوق فوقها عشر مسامير بارزة الرأس فى صفين
متقابلين فى كل مسمار يلبس حجر ٠ والحجر - وانتم سيد
العارفين - هو حجر الجوزة ٠ فوق الحجر دخان معسل ، وفوقه
ذلك الذى تشربونه ليل نهار وتخافون من ذكر اسمه ، مثل عشرات
الآلاف من الاشياء التى تقومون بفعلها وتستنكرون اسمها وفعلها ٠٠

ليس الميلاد ان يهبط الكائن من بطن أمه الى الارض ، انما
الميلاد الحق هو ابتداء لحظات الوعى بالمكان فى المكان ٠ وهكذا
فاننى مولود فى غرزة صاحبي كحكوح ومنطقتها ٠ وهكذا فانى
احببت هذه المنطقة برمتها فصرت اعظم مواطن على متنها ، وأظن ان
الكلب هو اعظم مثل على المواطنة الحققة ٠ اما طفولتى الحقيقية
الأولى فلسست اذكر منها سوى ذلك المشهد الكامن دوما فى ذاكرتى ،
أتذكره الآن ربما لانه حدث فى مكان كهذا ، وربما لاننى اشم الآن
رائحته ، وربما لاننى عدت شريدا كما كنت من زمن طفولتى
البائسة ، ان يؤس الطفولة لا يقاس بعدد سنوات الشقاء ، بل ان
الطفولة كالثوب الابيض ربما افسدته بقعة سوداء واحدة وان كانت
صغيرة ٠٠

فوق مرتفع جبلى كهذا كنت ، بكل السعادة ، اصارع أمى
صراعا حاراً - كده وكده - هى تقتل انها عدو يهاجمنى ، أنا ارد

الهجوم ، لا يعجبها ردى ، تفعل أمامى ما يجب ان افعله ، وحدها ،
ثم تعود فتنبض على حتى لاتصور انها ستفقد عيني بأصبع قدمها
او تمزق انفي بأنيابها ، وهى فى الواقع تقدم لى طريقة الهجوم
والتصدي بالذروة التى احس عندها بالوقوع فى الخطر الحقيقى
فيصبح الفعل المضاد بعض سلوكى كنت فى لحظة نشاط وزأططه لم
أعدها فى طفولتى من قبل ، وكنت قد اكتشفت اننى استطيع فعل
أشياء كثيرة يهتز منها بدن العدو أيا كانت قوته ، كما اكتشفت
اننى استطيع - وهذه حكمة أمى بنوع خاص - أن استخدم النباح
والزمجرة بدقة مجسوبة يضاعف من قوتى . يومها رحت اترك امى
متعبة من مزاحى الثقيل ، فأتبخرت بعيدا عنها منتصب الذيل مرفوع
الاذنين ، اتفافز فى الهواء ثم اهبط عليها من عل ، أو اصعد اليها
من اسفل ، فاذا بى اسمع صراخا تمزقت منه احشائى ، كانت امى
لحظتها مضروبة بنبوت فوق دماغها المحدث الجميل ، وشال من الدم
يلفع رقبتها ودماغها . كانت هى قد اشتمت رائحة العدوان وكنت
أنا أيضا قد شممتها . أجزم اننى رأيت فزعه امى لبرهة وجيزة
لكن الضربة فاجأتها قبل ان تتحرك ، فأخذت هى تجرى فوق المرتفع
الموحش صارخة عاوية وبسرعة جنونية ، تقع فتندرج قليلا ثم
تتماسك فتنهض مستأنفة الجرى كالهواء . صرت اجرى خلفها فوق
شريط من دمها ممتد كجبات عقد منثور ، لحظة أوشكت على اللحاق
بها كانت هى قد صعدت فوق قمة عالية ثم اختفت فى الحال من
فوق القمة تماما كأنها ذابت فيها . جذبنى شريط الدم المرتبط
بأنفى حتى أوصلنى الى نفس القمة فاذا بى ارى فى القاع مستنقعا
متراعى الاطراف يمتلئ بأعشاب وحلفاء ، وأمى تنحدر اليه متدحرجة
ثم تغيب فى القاع .

ستر ربنا اننى اوقفت اندفاعى مرة واحدة ثم ارتددت الى
الخلف بقفزة عالية . كان شريط الدم قمينا يجذبنى الى القاع لولا
ان رائحة المستنقع كانت اقوى من كل رائحة ، فاستدرت عائدا

أتابع شريط الدم حتى انقطع ، فأخذت أهوى وأصرخ وأنشال
وانحط فوق الأرض الى أن هدنى التعب وكرهت أولئك الذين
يتميزون عن جنسنا بكونهم يمشون على قدمين اثنتين ، كرهت
بياض بشرتهم وسمرتها على السواء بل كرهت رائحتهم ، وقررت
من غرط الغضب والخوف أن امزق لحم أول من اشم رائحته منهم .
ثم اذا بى اشم الرائحة بالفعل فأتأهب للانقضاض واكتشف أن
بداخلى قدرة كبيرة على الزمجرة . لكننى لأمراً لست أدريه على
التحديد لم انقض بل لم اتحرك ، انما ركبتى الرعب فجأة ثم انكمشت
على نفسى أوصل العواء الواهن من دماغ يكاد يختفى فى الجسد . .

خيراً ما فعلت . فذلك الذى يمشى على قدمين كان وباللعجب
تفوح منه رائحة الود . نحيف القوام كالمسلة ، ليس بالقصير
ولا بالطويل ، استطيع الالام بوجهه كله فيما أنا مقع فى مكانى
لا أرىم . وجهه ملىء بالاخايد الباسمة يعانى من جفاف مزمن .
اسمر البشرة أصفر الاسنان يرتدى سروالا فوقه جلباب فوقه
بالطوكال عرفت فيما بعد أنه كان يرتديه كولونيل المانى فى الحرب
العالمية الثانية قبل أن ينتقل الى هذا الجسد عبر عدد من تجار
الروبابيكيا . لم يكن يحمل نبوتا ولا شيء يضربنى به ، بل كان
بيده ارغفة ساخنة تعطر الهواء برائحتها . كان يمشى فى حالة غلما
حاذانى نظر فى مبتسما كأنه يحيينى . .

تسللت وراءه لأرد التحية بأحسن منها . اتراقص حوائية انشم
ثيابه ولحمه ، يهوشنى تارة ويزجرنى . أخيراً امتدت اليه فاقتطعت
لقمة كبيرة من الرغيف الساخن ورمت بها تجاهى فسقطت اللقمة
بين فكى مباشرة . من شدة فرحى بها لم اشأ زلظها فى الحال دفعة
واحدة ، ظلمت محتفظا بها بين فكى فيما أنا منساق وراء الرجل ،
حتى دخل منطقة بها بيوت وناس كثار وضجيج وزلزلة . صرت
أرسم الطريق فى عيني قطعة قطعة . دخل حارة ضيقة مليئة بالدكاكج
والصناديق وأبناء جلدته ذوى القوام المسنون والوجه الأسمر

الطحيلى . . دخل بابا خيل الى انه باب بيته فتوقفت برهة كانما
انتظر ان ياذن لى بالدخول ، فلما رايتة يواصل السير مضيت
وراءه من جديد فاذا بنا فى حارة جديدة أضيق من السابقة وفيها
هدوء ، وكنت اتراقص من البهجة واطوح ذيلى ، فما أدرى الا قطعة
الخبز قد انسحبت من بين فكى بكل بساطة ، سحبها كلب عتل .

سقط ذيلى فالتصق ببطنى وتسلفت جريا وراء ذلك الرجل
وخيبة الرجاء تذلى حتى رايتة يصعد سلما ضيقا عجوزا مبنيا من
الاسمنت لكنه متآكل الدرجات . صعدت وراءه مسرعا وأنا اظنه
قد دخل داره ، لكننى عند الدرجة الاخيرة رايت تلة منبسطة عليها
عديد من البيوت والدكاكين والمرات القصيرة الضيقة . توقفت
برهة والدموع تقح الصهد فى عيني فابتلعها . فى الباب المواجه
دخل الرجل ثم اختفى . أخذت اتشم الارض ، لوقت طويل ثم
اننى استرطيت بقعة حامة انطرحت فوقها ورحت ارقب الطريق
مستعمدا للهيب والانتفاض . كان الملل والجوع يفقدانى كل حماس
ويقعدان بى ، الا ان الحماس كان يذب فى كلما لمحت ظلا يخرج
من أى باب ، الى أن فوجئت بذلك الرجل يخرج الى ثانية ويقبل
نحوى فى ود حاملا وعاء به طعام وضعه أمامى ، فاخذت ارقص
حوله مثيرا ضجيجا هائلا فضربنى الرجل ببوز حذائه فى فمى
ضربة آلتنى . لكن هذه البقعة - مع ذلك - أصبحت مرقدى
ومربطى .

وبذلك صرت واحدا من بنى الأزرق بل صرت ازرقيا أكثر من
بنى الأزرق ، وقرأت كل تاريخهم واستمعت الى آدابهم وأساطيرهم ،
حتى ذلك الكتاب الفخم المشهور بين المثقفين منهم ويتحدثون عنه
دائما دون أن يقرأوه ، قدر لى ان أقرأه ، اسمه (الزرقانة) وهو عبارة
عن سجل فنى يحفل بكل صغيرة وكبيرة عن بنى الأزرق وان كان على
هيئة قصص وحكايات مؤلفة ، ان أردتم له شبيها فى دول أخرى فيكون
من اشباهه (الف ليلة وليلة) فى الديار المصرية المجاورة و

(الشهنامة) فى بلاد الفرس و (الألياذة) فى بلاد اليونان حسبما
أذكر . فان شئتكم تعريفا جيدا جامعا شاملا لبنى الأزرق فائنى
أحيلكم على مقدمة (الزرقانه) حيث يقول مؤلفها المجهول :

(بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فيقول الراوى أنه لما
كانت القصص والنوادر موضوعة لافادة الناس وتسليّة الخواطر
لا سيما قصة بنى هلال وما جرى لهم فى سالف الأجيال من الوقائع
والأحوال التى يشيب لها الأطفال . . فقد رأينا أنه من الأوفق لنا
ولبنى جلدنا ان نتتبع أمر أولئك الأطفال الذى شيبتهم الأحوال من
كثرة الترحال فى الخيال . . فاذا بهم قد صار لهم شأن غريب فى
أحوالهم ، حيث تكونت عندهم حصانة ضد الأحوال امتلعت الى ما
لحقهم من أجيال فصار الشيب يولد مع الأطفال ، وصار الطفل
يأتى ليكافح الأحوال فلا ينتصر عليها بحال ، ورغم ذلك لا ينشغل
له بال ولا يصيبه بلبال ، ولربما أطال للأمور الحال ، فقد علبوه
فى النوادر والأمثال ان احتضان الأحوال من شيم الرجال . .

» ثم انه تكونت من هؤلاء الأطفال قرية كبيرة كبيرة ، لها فى
كل شىء تعويذة وشعيرة ، يقال لهم بنو الأزرق الملاحين . شعارهم :
ولا الضالين أمين . يجرى بين ظهرانيتهم نهر خصيب ، لكنه عجيب
غريب ، حيث أصبح - وهو العملاق - رخوا فى يد الحسيب
والنسيب . ويقولون ان واحدا من قدامى الفراعين ، حلاله ان يفعل
فيه الافانين ، حول ماء الى موج سجين ، فصار النهر الى عنين .

» ولما كان بنو الأزرق قد دربوا على الأحوال من قبل ان
يولدوا ، فانهم الى الأمان والهدوء أخذوا . فجاءت صيرتهم سيرة
ظريفة مشتملة على نوادر وأخبار ظريفة تقلد بسماعها النفوس
والاذان والله المستعان .

» وهؤلاء القوم يعشقون النوم وتخلو حياتهم من الغوم . غير اننا
نحب ان نوجه ملحوظة غير مملوذة . فبعد ان انتهينا من كتابة هذه

التفريية الغربية ، فوجئنا بظاهرة عجيبة ، وهى ان بعض المدن فى المناطق والىول القريبة لها أسماء تتشابه مع أسماء مدن هذه التفريية . . فقد سمعنا ان الديار المصرية مثلا - وهى دولة على حدودنا الامامية والخلفية - فيها هى الأخرى مدينة تسمى القاهرة . . فنحن اذن غير مسئولين عن هذه الظاهرة ، فالله يخلق من الشبه أربعين ، وكل مدينة لها قرين . . والدليل على ذلك ان هناك مدنا كثيرة على خريطة العالم تسمى الاسكندرية ، ومع ذلك فلكل مدينة تاريخ وشخصية وهوية .

« فان اكتشف القارىء الجليل انه يعرف مدنا بنفس الاسم الذى يطلق على بعض مدن حكايانا ، أو ظروفًا تتشابه مع نفس الظروف فليس ذلك ضمن نوايانا ، وليس هو هدفنا وليس مرمانا . فنبدعوا الله العلى العظيم ان يكون من الشر ومن خسيس النوايا - قد وقانا ، .

ولست أحب الاسترسال فى قراءة (الزرقانه) فهى طويلة وليست فى ذاكرتى كلها . انما أحب القول باننى أحببت بنى الأزرق منذ اوضح لى اننى فى الأصل منهم غير انى من فصيلة الكلاب ، لى أولئك الذين انحصرت مهمتهم فى الهوة على الآخرين بأمر الأسياد من شاكلة صاحبه .

الباب الكبير

● ما كان من أمر صاحبي كحكوج :

١

كنت أرافق صاحبي كحكوج ، حيث نغرق في شوارع المدينة
وحوارها الضيقة ، لنعود بعد وقت يقصر أو يطول . الغريب
إن صاحبي لم يكن يشعر بوجودي الا وهو عائد ، إذ أراه يتلفت
حواليه وخلفه كثيرا فأعرف أنه في قمة الخوف وعدم الاحساس
بالأمان فأطلق هوة صغيرة أطمئن بها فؤاده ، وكان يبدو منبسطة
الاستاءير ضاحك السن ، أقلم يأخذ هو الآخر مزاجه كما ينبغي
لقد ظل طوله النهار يبيع الحجارة للزبائن ويقبض منهم جنيهاً
وفي مقتبل الليل يدخل بيوتا غلبانه القلب كله .

أدخل وراءه ، فتمر على أسر بكاملها تطل من غرف متجاورة ومتقابلة لتتوقف عند إحدى الغرف وتدخل دون استئذان أو نحيحة . نرى سريرا ملفقا ، يجلس عليه رجل وحوله مجموعة من رجال محترمين جدا يلبسون الجلابيب الصوف والبلاطي الجوخ رغم منهم يدفع عشر عشرات من جنيهات ويأخذ ثلاث برشامات صغيرات واحدة اسمها رتيالين واثنتان اسمها ماكس فورت ، ولوح زجاج وقطعة حديد ، بهذه القطعة فوق اللوح يطحن البرشامات حتى تصير مسحوقا ناعما يملا علبة كبريت ، يفرغ منها على اللوح الزجاجي ويبرم ورقة سميكة يجعلها اسطوانة ، يضع طرفها في طاقة أنفه والطرف الآخر فوق البرشام المطحون ، يشفط بأنفه جاعلا طرف الورقة الاسطوانة يزحف على الزجاج ليلتقط أى شعره سارحة . يحمر وجهه وينتفخ بالصحة والعافية وتجحظ العينان في بهجة بلهاء .

٢

يفعل صاحبى هكذا مرة كل يوم ويدفع ثلاث ورقات بثلاثين جنيهها أخذها معه تموين بقية الليل . واذ نعود الى محلنا آراء طول الطريق يبرطم بكلام أعرف منه ان فلانا وعلانا من بائعى البرشام كانوا صبيانا لديه يضربهم على أقفيتهم قبل ان يصبحوا مليونيرات تسكن في كهوف ، ذلك ان قرص البرشام الذى يباع له ولغيره بمشرة جنيهات ثمنه فى الصيدلية داخل علبته قرش تعريفه أى خمس مليات ولكن الصيدلية لا تبيعه أبدا بل ينظر لك الصيدلى فى استهكار اذا سألته عن هذا الدواء ببراءة ويقول من بين أسنانه : « حطوه فى جدول المخدرات » ، ومعنى هذه العبارة فى الواقع انهم وضعوا هذا الدواء فى جدول المخدرات التى لا يبيعها سوى التجار سزا فى الشوارع الخلفية وفى الحوارى . أما كيف يصل البرشام الى هذه الكهوف وامثال هؤلاء الناس فذلك أمر - كما يقول صاحبى - شره يطول .

كل الأمور في نظر صاحبي شرحها يطول . لذا فهو قد أخذ على عاتقه ان يظل العمر يشرح ويشرح حتى دون ان يطلب منه ذلك ، يشرح أى شيء لأى ناس فى أى مكان فى أى لحظة . لسكن لحظات الشرح تكون مجلوة ومبهجة فى مطرحه ، حيث يجيء له الولد بزجاجة البيرة ليكرعها فى ثلاث جرعات فيما هو واقف على درجة عظيمة من التحفز والجدية ، بقامته القصيرة وعوده الرقيق وعمامته المصرية المملوكية الكبيرة والبالطو .

ينثال حديثه الخطابى مصحوبا بتعبيرات من وجهه ويديه فتجس كأنه متحف شخصيات فى شخصية واحدة : على الكسار . . واعظ من قدامى وعاظ المساجد . . محام فى الأرياف . . شيخ طريقه . . ابن بطوطه . . رمسيس يخطب فى امبراطوريته . . دجال طلى الحديث يبيع شربة الدود أو تذكرة داوود . . هو كل ذلك حين ينخرط فى الحديث أمام جمهوره الغفير . جمهوره ليس سوى زبائنة من أهل المزاج الذين يتابعونه بجدية ودقة عجيبتين ، يرسلون الضحكات الصاعقة من منطقة المتداخل وعباراته الفصحى لابس له ثوب العامة أو التطجين العامى لابس له ثوب الفصحى ، حذقة وضبط مخارج ألفاظ ليست تنطق هكذا . . وعلى كل حال فصاحبي قارىء نهم للصحف كأنها تصدر له وحده .

٣

أول شيء يفعله عند خروجه من البيت ظهرا شراء الصحف والمجلات كافة ، يصعد بها الى ربوته ، يفرش الجوال على الأرض الرطبة واضعا فوقه مخدة مصنوعة من القش ثم يضطجع ويفلى الجرائد والمجلات فى صبر خرافى . عند منتصف النهار يجيء الصنایعية واحدا وراء الآخر أو قد لا يجيء منهم أحد . فان جاء رايته دبلان الجسد والوجه يجز ساقيه ضائقا بحمل رأسه . يبدأ من فوره فى تنظيف الحجازة وتحصيتها وتعسيلها . وان لم يجيء

فلا بد انه تعب من الفرح الذى استأنفوا فيه سهرتهم بالأمس حتى الصباح ، أو لابد انه قد أمسكتة الشرطة للتحرى ، أو لابد انه سلم نفسه للجيش هربا من جريمة ، أو لابد ضبطوه متلبسا فى قضية سرقة .. حتى الزبائن هم الآخرون لا يتخيرون عنهم ، من يجىء من الزبائن يجىء ومن لم يجىء .. ، انهم جميعا أحذية فى قدمى البسها وأخلعها وقتما أشاء ..

يقول هذا - وفى ود عجيب - للزبائن أنفسهم الذين يجلسون بجواره على الكراسى القش .. فيهزون رؤوسهم بالموافقة والتأييد كأنه يعنى أناسا آخرين ! .. ثم انه يستأنف قراءة الصحيفة غير عابئ بوجودهم ثم ينفجر ضاحكا ضحكة سوقية حافلة بالغمز واللمز معلقا على خبراً وعلى شخصية .. تدهش ان يستطيع رجل مثله ان يلتقط مثل هذه الغمزة الزكية المثقفة التى تدل على انه يفهم ويتابع الوضع الانسانى فى أنحاء الكرة الأرضية انت فى لحظة النفور منه تفجأك لمحة تذيبك فيه - يصيبك تعليق من تعليقاته فى الصميم يناصرك فى موقفك الذى لم تحكه له ولم تشركه فيه ولم تعرف كيف استشف انك محير فى موقف : عراف قديم منحوت الملامح يسلط فيك عينين كخرزتين زرقاوتين كقصعين من فيروز أغبر ، يلخص لك أنماط المشاغل والمشاكل والمقلقات الانسانية التى لابد تكون قد مررت بمثلها فى حياتك ، يعطيك بطاقات علاج ، عبارات بليغة مشبعة بالحكمة تتجسد فيها شخصيات عمر بن الخطاب مع عمر الشريف وعلى بن أبى طالب مع على أمين وأقوال الأئمة والسعرة وحكماء الطب القديم مدخولا عليها أسماء أدوية حديثة ، لا ينسى وسط ذلك ان يعزم عليك بتلقيمة من دخان المدفأة حين يخرج العلبة ويأخذ منها وريقات مع قطعة من ملح المطرون يضعهما تحت لسانه ويظل يمضغ ويصق لوقت طويل .. فلان أخذ وعلان جرب وترتان آدمى ، هكذا يقول لك عن اناس مشهورين جدا فى دوائر المجتمع ولهم أسماء كالطبل ، فلا يدهش المستمعون لأنهم كثيرا ما يفاجأون بأحدى الشخصيات المشهورة داخله محاطة بهالة ذاتية ، بل انهم هم

انفسهم من المشهورين وانصاف المشهورين والنكرات ، شلة فلان معظمها من الصحفيين والفنانين ، شلة اعلان من موظفي التأمينات ، شلة ترتان من المحاكم والمحامين ، من اصحاب البازرات ، من ومن ومن ، لكنهم جميعا قد رخصت شهرتهم وتضاءلت نجوميتهم في غرزة صاحبي اذ استلبها منهم اعلام جدد لا يعرف احد ما نوع عملهم بالضبط ولا حتى اسماءهم الحقيقية لكنهم يدفعون البقشيش خمس جنيهات للولد الذي يسقيهم ، بينما صاحب المطرح نفسه قد لا يزيد حسابه عن جنيهين وربما نصف جنيه . الاولاد يعرفونهم ويتبارون في خدمتهم وباقي الزبائن في انتظار دون ان يجروا احدهم على الجار بالشكوى - صاحبي تطلع زرابينه فيعلو صوته المشروخ على الدوام لاعنا آباء الحوارى والسجون التى قذفت بهم اليه يأمرهم بالحد والمصلحة ، ان يعاملوا الزبائن بنمة واحدة والا يكون البقشيش على حساب وقت الآخرين . لكن دافع البقشيش سوف يتلقى ابتسامة عريضة واعتذارا عميق الأسف اذا ما ترك له مهمة دفع البقشيش بمعرفته .

تاريخ صاحبي أو ماضية ليس هو فى حاجة لأن يسرده عليك . انه تاريخ ثابت وماض قائم لا يريم - كل ما فعله صاحبي فى أزمنه بعيدة لايزال يفعله ، وكل ما ألم به مسبقا يلم بنا ونحن معه جلوس .

فى الأصل كان تاجر مخدرات ولا تعرف ان كان قد تاب حقا أم ان السوق هى التى لفظته لفظا . وكان صاحب مدرسة للنشل هو ناظرها ومدرسوها ومدربوها . نعم فهو ليس واحدا فى التدريس أو التدريب انما هو عشرات . يدربك على طريقة فلان وعلى طريقة اعلان من المشاهير فى دنيا النشل ومن قابلوه فى السجن ، ويدرس لك أشهر « الضربات » وأقواها . كيف تمكن الولد فلان من نشل كذا فى الظروف الغلانية وفات بها من الفقر ولم يكتشفه أحد حتى الآن .

وصحيح ان صاحبي قد تاب واغلق مدرسة النشل ولكنه نقل

نشاطه الى مرحلة متطورة . يقول لك بنفسه - لكى يقرب الصورة
بعبارات تستخدمها الجرائد على الدوام :

لقد افتتحت مكتبا استشاريا . وانت تراه جالسا فى ركن
بعيد وبجواره لقيف من ذوى ، المعاطف والوجوه انقائية والساعات
الغالية الثمن والخواتم الذهب يشربون بشراة ويكرعون البيرة
ويبعثرون على الاولاد بضع عشرات من الجنيهات ، فاذا ما انصرفوا
عاد هو اليك ولسانه يشيعهم بالتحيات ، فما تكاد رؤوسهم تختفى
فى المنحدر حتى تنقلب عبارات الترحيب الى سب فاحش وبرطمة
غير مفهومة . يجلس بجوارك ، يعيد عليك « تلخيصا » للقصة
ربما استغرق أضعاف ما استغرقته القصة نفسها من زمن
وجهد وانفعال . هكذا هو كائى فرد من بنى الأزرق ، يعيش القصة
الواحدة أو الحدث الواحد مرتين وربما عشر مرات فى اليوم ، المرة
الأولى هى لحظة حدوث الفعل بالفعل ، الثانية حين يحكيه حتى لو لم
يطلب منه أحد بل حتى ولو كان المستمعون قد شاهدوا ما حدث
وشاركوا فى حدوثه ، يعيد على الأسماع ما حدث : قلت كذا فقال
كذا ففعلت كيت . . وبعد وقت يقصر أو يطول يخيل اليه انه لم
يعش الموقف أو الحدث أو القصة كما ينبغي ، فيعيد حكايتهما
مرة ثالثة ورابعة وعاشرة .

٤

لصاحبى تاريخ ذو وجهين تستطيع ان تختار أيهما أنتسبح فيه
الى ما لا نهاية . ان اخترت وجه السوابق وجدت ألف سابقة وسابقة
دونتها محاضر البوليس ووقف بشأنها أمام النيابة والمحاكم
واستأنف فيها واستؤنفت فيه . أما ما لم تدونه المحاضر فحدث
ولا حرج . وان اخترت وجه العز وجدت ما لا يصدق . فقد جاء
حين من الدهر كان صاحبى يمتلك هذا الشارع بأكمله وهو أهم
شوارع فى المنطقة إذ تتركز فيه تجارات لا حصر لها ، ويتدفق فى

هذا الشارع وحده من الأموال ورؤوس الأموال ما يصلح ان يقيم دولة عظيمة لكن الذين يملكونه أوباش لا يهمهم سوى المكسب فحسب .

« الى جه بلاش يروح بلاش » هكذا يقول المثل الشعبي على لسان صاحبي ، فمثلا جاءت هذه الممتلكات الى حوزة صاحبي انسحبت من بين يديه بنفس المنطق الذي أخذها به .

٦

من بلدة أو نجع في الصعيد الجواني أقبل الى العاصمة . السبب هو فقيه كتاب النجع . ضربه علقه ساخنة فشاله وهبده في الأرض ثم انطلق يجرى قاصدا العاصمة التي التجأ اليها عشرات الهاربين فاحتوتهم وقدمت لهم خبزا وماوى . ظل يرتع في شوارعها سنوات الصبا ، يفعل أى شئ مقابل الحصول على القرش ، يمسح الأحذية ، يعمل شيالا ، خفيرا ، نفسرا في الفاعل ، يمرح بعربة بطاطا ، يجرى وراء السياح قائلا : « جيت بقشيش » كان متكلمي لطيفا ، كان مخلوقا آدميا صنعه ، يلفت الانظار ، كان أيضا جكيما في سلوكه أمينا ولكن كصفقة يستر بها عريه مؤقتا .

من كثرة التجوال في شوارع المدينة استيقظت في نفسه مشاعر جديدة مغامرة ، تيقن خلالها من أشياء وفقد الثقة في أشياء . تذكر ان له عما مجاورا في الجامع الأزرق . سأل حتى توصل اليه في مسكنه ، كان العم - شأن كافة المجاورين المغتربين - قد منح غرفة ذات رقم في حارة ضيقة فوق ربوة عالية اسمها الزقاق تميزا لها عن الشارع الاصلى الكبير الذي لا تتفرع منه أى أزقة أخرى .

دهش العم يومها من رؤية ولد أخيه الجريء الشقي وتركه يعيش معه في نفس الغرفة بين زملائه المجاورين في الغرف المجاورة . في نفس الليلة علم ان هذه الربوة كلها والزقاق كله تابع لشيء .

يسمونه وزارة الأوقاف ، وكان الزقاق كله مؤجرا غرفة غرفة للطلبة المجاورين بما فيه البيت الممتد فى الشارع الكبير مساحة كبيرة . فى الليلة التالية استكتب عمه ورقة موجهة الى المسئول تقول ان ابن أخيه كحكوح قد أصبح هو الآخر مجاورا فى «الأزرق» وينبغى ان تتكرموا عليه بغرفة يسكنها أسوة بزملائه المغتربين . ولما عجز عمه عن توقيع الورقة بخاتم الأزرق أخذها هو بعد ان قلوظ نفسه بعمامة ملفقة وجبه أصلها قفطان ، ثم دخل على المسئول والتقى عليه التحية كأنجب الطلاب وأكثرهم لباقة . اسمعه عبارات من التبجيل كبيرة لا يستخدمها سوى الوجهاء وعلية القوم ، فوقمها المسئول فى الحال وختمها ووثقها ورمى بها اليه فى عظمة تليق بعبارات التبجيل المرسلة اليه .

٧

منذ ذلك التاريخ وضع صاحبى كحكوح بذرتة فى هذه المنطقة ليصبح مؤثرا فيها وفى تاريخها بشكل أو بآخر . احتجز لنفسه غرفة . وان هى الا شهور قليلة حتى كان يملك فى يده مفاتيح كل الغرف . هو بطبيعته ثرثار وكان الصبية يلتفون من حوله طلاب حفظه تنثال الريالة على داقهم ليل نهار . خلافاتهم صغيرة لكن فضها يحتاج لعقل جبار . نقودهم قليلة بل معدومة ويطونهم تحتاج الى معين لا ينضب . غرباء مكبوتون وفى أعماقهم نفوس تهفو الى التحرر والانطلاق ، فمن يدبر لهم كل هذا سوى هذا الولد السفاة العجوز ؟ الطبخة يطبخها لعمه بملايم ويوزع بقاياها على الآخرين بقروش ، من لا يملك قرشا يدفع جلبابا أو وسادة أو بطانية أو يدفع مفتاح غرفته عند الأجازة . ذلك ان القروش تكثر وتكثر فى ذمهم خاصة بعد ان صار يستقضى لهم دخانا يشربونه ، ونشوقا يستفيقون به وعجوزا تغسل لهم الثياب . طيبون هم وسيماهم على وجوههم ، يضع صناديق خشبية مستطيلة كل صندوق مفلق بقفل مسوجبر ومتقوب فوق سطحه ، يوزعها عليهم ثم يوزعهم على الأماكن

والنواصي الاستراتيجية : « تبرع يا أخى لبناء بيت من بيوت الله بيت تقام فيه الصلاة » . وفى آخر المساء يتربع كحكوح ، وبلجنة فوق العادة مكونة منه وحده يفضض شمع الصناديق ويفرغها فى جنيبه ويكافئ كل واحد على قدر ما جمع ، موهبا إياهم بأنه يفعل ذلك لحساب إحدى الجمعيات الخيرية السرية ، وكل القادمين من القرى تسحرهم كلمة الجمعية السرية ويتطوعون للعمل بها حتى ولو كانت وهما لا يعرفون عنه أى شيء .

لا أحد يسأل كيف آلت كل هذه الغرف لصاحبى كحكوح ولكنه ورثها كلها . هو نفسه لا يعرف كيف تم هذا . لكن ساكنى هذه الغرف انهموا حياتهم الأزهرية وانهموا علاقاتهم بالأزهر وتفرقت بهم السبل ، وكلما فرغت غرفة سارع هو بوضع يده عليها وشغلها بأسماء وهمية لا وجود لها بين المجاورين ، حتى لقد جاء بأمه وأبيه وأخوته وأسكنهم جميعا فى غرف مستقلة ذات مميزات ، ومنح نفسه حرية التعديل والتجديد كما يهوى ، فغرفة تفتح على أخرى وسطح يزحف على الآخر ليجمع بينهما جدار ، وهكذا تكونت لصاحبى امبراطورية خاصة . أما كيف استمر هكذا يفعل ما يريد فى غير ملكه فان المسألة - يقول صاحبى - مسألة أوقاف ، أى انها املاك لا صاحب لها : ان كل هذه الاملاك فى حقيقة أمرها مجرد أوراق لا قيمة لها تدخل مكتبا لتخرج منه الى مكتب آخر وقد تدخل ولا تخرج وقد تخرج فلا تدخل ، ان القائمين على شئونها ليسوا وحوشا وليسوا يعملون المشائق ، ان هم الا بشر مثلنا يحتاجون الى المزيد والمزيد فوق رواتبهم الضئيلة .

٨

الحظ أيضا شيء يؤمن به صاحبى إيمانا مطلقا ، ويؤمن فوق ذلك انه حظ أعنى بالفعل يمكن للمفتح ان يقوده حينما شاء . فلقد حدثت انقلابات متعددة فى تاريخ وقف هذه المباني . تغير المسئولون

وانتقلت مهمة الاشراف على المباني من ادارة لأخرى ومن ناس الى آخرين وفي كل انتقاله يكتسب صاحبه تشبيها جديدا بكونه الشاغل الاصلى للعقار . ايصالات النور والمياه والايجار الرمزي التافه لعبت دورا كبيرا في خلق واقع قائم وراسخ منذ سنوات لصاحبه .

٩

بنقود الخلوات وايجار غرف الوقف اشترى صاحبه غرفه على الناصية الاخرى للزقاق تطل على نفس الشارع ، ثم افتتحها مقهى يخلب الأبواب ويلعلع فيه الراديو والجرامفون وشاعر الربابة ويؤمها التجار المغتربون ومشايخ العرب والدجالون والمهربون والنصابون . كائنا من تكون على درجة من انثريث والكتمان لابد أن تتوسم في صاحبه خدوما ينفعك في الزنقة . النصابون يميلون عليه فيقترضون منه مبلغا يجهزون به صفقة نصب فيها لقمة عيش . يعطيهم وعند الحساب يأكل هو لقمة العيش كلها ويعطيهم نصيبا ضئيلا . تاجر المخدرات مزنوق في تكملة المبلغ ليتسلم البضاعة يعطيه ، ولكن تبقى البضاعة نفسها في حوزته الى ان يدبر لها سوقا يبيعها فيه بمعرفته .

١٠

اصطفاه المهربون فاتخذوه حلقة وصل وفصل - كدبرياج السيارة - بينهم وبين التجار . يرى العينة فحسب ، يبيع منها من اقة الى ما تشاء من الأطنان . هات فلوسك ايهذا التاجر . . . خذ ياعم . هات بضاعتك ايهذا المهرب . . . البضاعة في المكان الفلاني . لا التاجر يرى المهرب ولا المهرب يرى التاجر ، وما بينهما مساحة هائلة هي المساحة التي تحتلها شبكة صاحبه المطروحة لاصطياد فروق الأسعار وما أفدحها من فروق .

بات لصاحبي رجال وصبيان يعملون في كل مكان لحسابه .
الشرطة ليست نائمة في العسل . تعال ياعم ، ما هذا الذي تفعله ؟
هو أيضا حريص مثلهم على الأمن القومي وعلى ان تؤدي الشرطة
واجبها . . المهربون والتجار لا يستأهلون الشفقة ينشرون السموم
وواجبه ان يسلمهم للشرطة وسوف يفعل دون ان يكلفوه ، هكذا
يلتزم هو ولن يكذب ، بل سوف يقوم بنفسه بتسليمهم للشرطة
يدا بيد . اى نعم ، فالأمر لا يخلو من مهرب سفاح يريد التخلص
من صفقة مخدرات مضروبة أى مفشوشة . يعرفها صاحبي من
منظرها قبل اختبارها بالتفحص والشم والقضم وما الى ذلك من
اختبارات لا يمارسها سوى الغشيم . كل شيء يبين بالنظر
الا الحشيش يبين على الحجر ، مثل يؤمن به صاحبي أشد الايمان
ويطيقه حين يشتري ويحرق له مائة حجر على ذمة العينة والاكتشاف ،
لكنه عندما يبيع يسب هذا المثل ويعتبره مدخولا . كل بضاعة لها
سعر حتى البضاعة التى ينوى صاحبي ان يسلمها للشرطة . الأمر
لا يخلو كذلك من تاجر جشع متعب فى دفع الحقوق أو على درجة
من التفتيح والوعى تهدد صاحبي ومركزه . يستدعيه صاحبي
فيعرض عليه لقمة عيش طرية . يدفع التاجر ثمن الصفقة الا قليلا ،
وحين يرسل صبيانه لاستلامها يكون صاحبي قد أبلغ الشرطة التى
تذهب وتمسك بالمتلبسين . يزداد عدد القضايا المضبوطة بازدياد
عدد المرشدين ، ويرتقى الضابط فيرتقى معه المرشد التاجر
أو التاجر المرشد .

هكذا تصبح أمجاد صاحبي مرآة لنذالته . لكن « بيت النشاش
ما بيعلاش » ، كما يقول صاحبي عن نفسه . فلقد انسحب عنه
المهربون وأضر له التجار العداوة والبغضاء « كله على الصرمة

القديمة ، يعلنها صاحبي صريحة منوية فى وجه الجميع وهو يعنيها بالفعل . فطالما ان مباني الوقف قائمة تحت سيطرته فلن يجعل خده مداسا لأحد .

١٣

لطالما سألت أنا وطقست عن مباني الوقف هذه ، من أوقفها ولماذا ؟ فما علمت سوى ان أصحابها الأصليين كانوا يخشون من أولادهم الأشقياء ان يضيعوا ما بناء الآباء بشق النفس فأوقفوها ، أى تركوا لوزارة الأوقاف مهمة الاشراف عليها وحمايتها من أى بيع أو تبديد لتكون ذخرا للأولاد يستر عريهم ويؤمنهم من تشرد ، فإذا لم يعد لصاحبها الأصل وريث شرعى آلت ملكيتها الى وزارة الأوقاف تؤجرها وتستثمر ريعها أو تنفقه فى وجوه الخير المتعددة التى يأمر بها الشارع الدينى .

وهذه المباني التى خصصتها وزارة الأوقاف قديما لسكنى المجاورين لا أحد من زبائن صاحبي - على وجاعة مراكزهم - يعرف ان كانت موروثة لها أو هى من منشأتها ، كما لا يعرفون جميعا أكثر من انها « تبع الوقف » ولكن ما أظن انها أوقفت لمثل صاحبي كحكوح .

١٤

كان يجلس على منصة المراكات يدخن النار جيلة ولا يتلقى من المراكات شيئا يذكر . أين ذهب طوفان المراكات المنهال على المنصة حتى انه كان لا يجد وقتا لمراجعة المراكات على محتويات الصواني فى يد الجرسون . حتى الراديو لم يعد يشجيه صوته . ليكن . فبالأمس جاء له أحد تجار المنطقة الطالعين وسأومه على تأجير واحدة من هذه القاعات المطلة على الشارع وبالفعل أجراها وغدا يسأومه فى بيعها بخلو رجل كبير .

قاعة وراء قاعة وراء قاعة امتلأت جيوبه بأوراق البنكنوت وصار من جديد ينفق عن سعة فلما لم يعد عنده غرف تقبل على الشارع لم يعد في جيوبه نقود تطل على المستقبل . جبال الكحل تفنيها المراد . أن الاوان ليستخرج « كيفه » من عمليات جانبية سريعة . لا بأس من السماح لبعض التجار الكحيانين الصغار من الجلوس في مقهاه للتشاور أو للمساومة أو المعاينة أو حتى التسليم . يصبح في جيبه تموين أيام وثمان حريقه .

بقدر اقبال الدنيا يكون ادبارها . ما الدنيا سوى باب كابواب جحا ان فتحت لا يأتي من ورائها فتح وان أغلقت لا تحقق أى احتجاج ، تفتح على الفراغ وتغلق على الفراغ ، لكن ظل الباب هو خير ما فى العملية كلها اذ فيه يستظل أقوام .

الدنيا ادبرت عن صاحبي كحوح لتقبل على أهل الشارع برمته لا أحد يدري كيف . فجأة انفتحت أسواق التجارة وكثر عدد التجار وحتى الاولاد والصياع والمتشردين أصبحوا سمسرة يسكون النقود الكبيرة ويركبون عربات تسمى التماسيح والخنازير والخنافس ويبحثون عن دكاكين يشترونها ليته أبقى على الغرف المباعة اذن لقبض فيها أضعاف أضعاف ما قد قبض . وهو يعرف ان الذين اشتروها تكفلوا بحل أى مشاكل يمكن ان تنشأ بينهم وبين الوقف ، وتمكنوا من تثبيت أنفسهم تماما ، وتكومت الأموال أمام محلاتهم زكائب وباللات وصناديق لا حصر لها ، وبين يوم وليلة أصبح أبناؤهم ضباط وامناء شرطة ووكلاء نيابة ولم يعد من الممكن مهاجمتهم من قبل أى قوة . ليصرف النظر اذن عنهم فلن يستطيع استلاب شئ جديد منهم . ماذا يفعل اذن وهذا الولد الصايع يوسطه فى البحث عن مطرح ؟ لم يعد سوى المقهى . لو كانت فى حوزة أحد غيره غي موقمها هذا لصارت جنة تباع فيها الجلسة بأموال طائلة ، لكنها فى حوزته هو تكلفة مصاريف العمال ووجع الدماغ .

فى المساء كان دماغه قد صار بلقعا وشعر انه بحاجة الى
 الشم عشرات الأدوار ، حتى يعمر دماغه وترن فيه الأصوات والأفكار .
 لذا فقد فوجيء الولد الصبايع الثرى بان المقهى صارت ملكه
 فيما لا يزيد عن دقيقتين . كانت هذه ضربة معلم من صاحبي لأن ،
 الصبايع الثرى أعمته المفاجأة فقام فى الحال واحضر المبلغ المطلوب
 قبل أن يرجع صاحبي فى كلامه وكان مبلغا حسبه صاحبي فوجد انه
 يوازى ثمن منطقة المشهد الأزرقى كلها من جبل الحواوشى حتى ميدان
 العتبة الزرقاء فيما قبل عشر سنوات على الأكثر . وفى الساعات
 الأولى من صباح اليوم التالى كان صاحبي عائدا من لندن الشبهامين
 ملتهب العينين طائر الرأس فى الهواء ، فحود على المقهى كالعادة
 ليفتحها ولكنه تظن فاعتدل مبتسما ببرارة واتجه الى الربوة فصعد
 اليها ، وجلس على دكة فى المر وقد شعر انه سيمكث ها هنا وقتا
 طويلا جدا .

١٥

باع المقهى ولكن بعض الزبائن لازالوا يبحثون عنه . انه لا يزال
 مفيدا . المر موجود والعدة موجودة والقعدة جاهزة . واحد يجيء
 بواحد وهذا يجيء بشلة تتبعها شلة فى أثر شلة . صارت الجوزة
 عشرا والحجارة آلافا والفحم جوالا . جرت النقود من جديد فى يد
 صاحبي . صار يتباهى : لم يعد للنقود قيمة . ما نشترىه اليوم
 بواحد نشترىه فى اليوم التالى باثنين وربما بثلاث . « كانت أيام » ،
 كلمة صرنا نقولها كل يوم عن اليوم الفائت مباشرة . الباكوات
 والأرانب أرقام يتعامل بها الصبايع فماذا جرى للعدينا ؟ يأنف
 المتعاملون من قولة الآلاف والمليون لأنهم من فرط ثرائهم لا يستخدمون
 الأعداد المفردة ومن فرط سخريتهم بالأرقام الكبيرة يطلقون على
 الآلاف باكو وعلى المليون أرنا دلالة على انه سريع التوالد والتكاثر .
 اذا قلنا انهم ينهبون فان نهر النيل نفسه قمين بالنفاد . الشوارع
 الخلفى وحده يحفل بآلاف الصبايع الأثرياء ممن ليس لهم محلات

ولا وظائف مفهومة ولا مسالك معلومة ولا شخصية محددة . فقيم يتاجرون اذن ومما يكسبون لا أحد يدري . هذا ولد يبلغ فى اليوم الواحد بثلاث جنيهات برشاما مخدرا ، وياكل بثلاث أو أربع ، ويحشش بخمس ، ويتنقل فى المواصلات باثنين على الأقل ، بله ان يسكن أو يلبس أو يعول أو يعالج فمن أين يأتى بهذا ؟ هاهو ذا أمامك فاسأله : ما هى مهنتك على التحديد يا أخ يسألك البيك ؟ لا شىء طبعا ، لن يقول لك لانه ربما كان لايعرف ما هى مهنته على وجه التحديد .

١٦

قامت الغرزة وسهلت . ولأنها فى موقع حساس وهام فقد صار يؤمها نماذج من الزبائن قلما توفرت فى غرزة أخرى . انها نماذج تتمثل فيها شخصية المكان ، فحيث يتواجد الخواجات السياح مع العرجية مع التجار مع المثقفين مع السماسرة مع المتسولين مع اللصوص المقنعين والمجرمين والهاربين من طائلة العدالة التى لا تقطول أحدا ، حيث يتواجد كل هذا الجمع فى مكان واحد وزمان واحد تنشأ غرزة صاحبى كحكوح .

كان قد قرر ان يتفرغ لأولئك الصياح المليونيرات ليصبح مثلهم ، هل هم أجدع منه كلهم نخالة سقطت من مناخله على مدى الأيام . يعرف أصلهم جميعا دون ان يكلفه ذلك جهازا يعمل أو رجالا تسهر فى الخفاء ، كل ما عليه فحسب ان يحسن الاصغاء لما يدور حوله . ان قصص الناس وهمومهم - يقول - تتدفق فى نهر الشوارع كل لحظة وبلا كلال . يضحك حتى يشغل طاقم الأسنان فى حنكه ، تتلوى ملامحه وتكتسب مع الاستفراق فى الضحك لمحة جنونية مخيفة كحيوان شرس .

المدحش كيف ان صاحبى وهو يبذل كل هذه الجهود فى الكلام والانفعال والعراك يتابع مع ذلك أخبار الزبائن وهمومهم ودواخل

حياتهم . أنا الوحيد الذى كنت أراقبهم جميعا فيما أنا منطرح على الأرض ممدود الاماميتين مسندا رأسى عليهما فى ارتياح بالغ أنقل البصر فيما بينهم حيث ينقسم جدار الظلام بضوء خارج من الباب الجانبى أرى على هديه المجاميع على الصفين وصاحبى يتنقل بينها ليعلق أو يستحث على الاسراع أو يتلقف حجرا من حشيش اشتم رائحته الجيدة . ثم انه يتوقف بجوار الحشيشة الجيدة ليلقى خطبة فى الأخلاق ، تتصور وهو يبدوها شخصية الشاعر البحترى الموهوب يحوب سوق المدينة يمتدح الباعة بقصائده من در وياقوت فى مقابل أوطاية أو حزمة فجل ، لكنك سرعان ما تباريه فى ضحكة الصاعق حين تكتشف بعد برهة انه قد شرع يهاجم الأخلاق الدافلة التى بدأت تسرى فى المجتمع هذه الأيام والتى يبدو ان هؤلاء الذين يشرب حشيشهم الآن ، منهم ، نعم فلقد ضربوا المثل فى سوء الأخلاق وانحطاطها ياسيد . يثور أحدهم ثورة مسرحية بغية اشعاله أكثر . لكن يثور على من ؟ فمن ذا الذى سيعطيه الفرصة ليثور أو حتى يشرع فى التعبير عن ثورته حتى ولو كانت مسرحية .

صاحبى يرعد فيه رعدة واحدة : « اسمع ياسيد - ويلوى شفثيه ويجعلهما كفتحة كيس نايلون مربوط بعقدة وشنيطة - اسمع يا هذا .. كلنا أصبحنا بلا أخلاق .. لا تعارض .. ولد الاسلام غريبا ويعود غريبا .. هكذا قال الرسول .. وها هو عاد غريبا .. فمن الذى جعله غريبا ياسيد ؟ أنا ؟ أم أنت ؟ تكلم ياسيد .. لكن قبل ان تتكلم ياسيد دعنى اتكلم أنا .. انت ياسيد تجلسون الآن وتمتتون أدمغتكم الخربة بتسخين الحشيش الذى تشترونه وزن القرش تعريفه بأربع وعشرة يا سيد .. عشر جنيهات وفوقها أربع .. ثم انت ياسيد تصرفون على حريقه الشئ الفلانى .. اليس هكذا ياسيد ؟ .. رد على .. رد .. ها انت ذا لا تريد ان ترد .. نعم .. لأن الحقيقة أخرجلتك ياسيد .. حقيقة ماذا ياسيد .. من أين لك هذا ؟ لو كنت رجلا قل .. الداهية ان تقول انك ابن باشا سابق أو مليونير حالى .. غنى حرب حضرتك ياسيد ؟ .. طول عمرك مثلنا فقير

حرب ٠٠ الا تعرف الحرب ياسيد ؟ ٠٠ حرب الحبش ها ٠٠
شف ياسيد ٠٠ حرب العالم ، حرب فلسطين ، حرب السويس ،
حرب الفلاء ، حرب الحرب كلها حرب ياسيد ٠٠ انت ياسيد كنت
تجلس عندى منذ نومة أظفارك ٠٠ الداهيه أيضا ان تكون نسييت ٠٠
كنت تشرب الخمسة وتجرى ٠٠ الآن تدفع خمس جنيهات بقشيشا
وهى كانت مرتبك فى الشهر منذ سنين قليلة ٠٠ لكن انت تعرف
اننى أحبك من زمان وأسعد بلقائك ٠٠ بالمناسبة أين فلان الفلانى؟
الم تعد تراه الآن ؟ ،

وهكذا كم انهارت فى انظار الزبائن - لا فى نظرى - شخصيات
منجصصة فى أبهة ، وكم تضاءلت شخصيات نظيفة كل ذنبها ان
سقط منها سر فيما هى مندمجة فى الشرب ، لا تدري ، وكم تصافقت
شخصيات تعرف عن نفسها ان فاخر الثياب وأثمنها لا يستر عريها
ولا يستطيع .

١٧

أكاد أتكلم مثل صاحبى كنفس النمط . لكن عذرى اننى
أصبحت أحمل ملامحه ، صرت أشبهه تماما فى كل شيء . مثلما
لا يقبل ان يسأله أحد عن شيء أو يستفسر منه أحد عن شيء هكذا
أنا الآخر فيما يبدو . انما أنا من ذوقى أقول لكم دون ان تسألوا
ان شيئا من كل مايدور أمامى لا يدهشنى ، لا انهيار المنهار يدهشنى
ولا انكماش المذنب المجروح يعضنى ، ولا صفاقة المتعاقبين تؤذى
سمعى ٠٠ ذلك اننى أرى كل ذلك قبل لحظة صيرورته الى ذلك ،
نعم أرى الانهيار والانكماش والصفاقة والمداينة والمالاة وكل ذلك
داخل الناس قبل ان ينزاح عنها ستار السلوك ، اننى باختصار
أشهما ، أكثر من ذلك أشم رائحة العدوان فى الشخص تجاه الآخر
بل وتجاهى أنا بنوع خاص فى بعض الأحيان ، لكننى لا أعمل عقلى
بعقولهم ، ولأننى أعرف ما هم فيه من بؤس ودوافع فاننى أتفاضى

عن ضربة في جنبى موجعة أو في ظهري غادرة • ولقد حسبتها مبكرا ، منذ أن تعودت على أن أشم رائحة الحسة في صاحبي ، منذرا فقتة في مشاوير ينثال منها الشر ليغرق أبرياء ويلسع أصفياء ، وكنت ملزما بالنباح والزأر وعمل اللازم على أكمل وجه كلما رأيته متكعبلا متعثرا في شر أعماله ، ولم يكن يكافأني بأكلة سمينة ولم يكن يحنو على سوى الزبائن بالفاتق من طعام يشترونه وهم جلوس • فلما ان تفاضيت عن عدوان صاحبي وهو غريب تفاضيت عن كل عدوان •

١٨

الا ذلك العدوان الذى يكنه صاحبي لزوجته ، لا أغفره له أبدا • وقد اكتشفته مبكرا جدا فحققت على صاحبي قدر ما أحببت صاحبتى •

سمراء هيفاء حلوة التقاطيع تشبع العين لمن يفهمها ويقدرها • بقدر ما فيها من انوثة طاغية فيها من مقومات الرجولة ما يفترق اليه صاحبي ، بل أكاد أجزم ان شخصيتها كانت. هي الرجل الحقيقي فى شخص صاحبي ، فكل تصرف رجالي متزن وكبير أفلت من سملوك صاحبي أحسست بشخصية صاحبتى فيه واضحة جلية ، هذه الكلمات الشهمة الأصليلة التى تنفلت على لسانه دون قصد منه تكون هي الشحنة الجميلة التى ظلت صاحبتى تعبأه بها طوال السهرة منذ ليال مضت فيما هو يستمع اليها فى امتثال طفولي وخجل غريب وفى عينيه ضراعة لو كان رجلا حقيقيا ما احتاج اليها •

صاحبتى كانت ملكة غير متوجة وصاحبي صعلوك ضئيل الجسم يصلح لأن يسرح بقرد فى الحواري والقرى أو يكفيه شكله يستطيع ان يقف فى أى باحه ليتفرج عليه الخلق ويدفعون نقودا وسوف يدفعونها عن طيب خاطر اذ هم سيضحكون حتى النخاع وبصفاقة •

فى أخلاق صاحبتى كما فى جسدها نبالة لا يخطئها البصر كأنها

أميرة اسوانية نوبية فرعونية ضلت طريقها فوقعت أسيرة في قبضة هذا الشرس الشبية برأس فجلة شائخة . لولاها لعاش صعلوكا حقيرا يبيع نفسه بمليم رغم كل مواهبه . ذلك انه ذا معدن رخيص . كانت هي تدخر له من مصروف البيت ما ستر كثيرا من فضائح جنونه المتواصل في الصرف والبيع والشراء والاتفاق على دماغه بسفه خرافي . وكانت تتوسم فيه طيبة القلب والطوعية فلم تتمخض الأيام الا عن نذل جبان . جرد حقير هكذا قالت له مرارا .

ويومها كان نشوانا بفضل الشم والاستحمام في النذالة فرغح حاجبيه قائلا لها : « انت حشرة دنيئة » ، وكانت تعرف انه قالها واقفا على الشعرة الفاصلة بين الشجاعة والجبن حتى لقد تكتك طاقم الأسنان في فمه ، فما كان منها الا أن بصقت في وجهه بصقة كالقذيفه ، بكل هدوء مزيف مسحها عن وجهه بمنديل اظنه بلاطة قديمة منزوعة من أرض ، الشارع ، ثم قال في برود : « برضه حشرة دنيئة » ، فشييعت الى وجهه بصقة أخرى أشد من السابقة ، وكانت شرسه كاحدى بنات جنسى الشريدات في الثغابات والاحراش لا يعرفن عشرة الانسان . هذه السيدة الوديدة الرقيقة السمراء الحمراء كطمي النيل وعينين كلون البحر الازرق والحبثان شمندورتان . كيف انقلبت هكذا فجأة الى فهد يهم بالانقراض .

الخوف يليق بصاحبى . لكنه البخت الاسود وزلاقة اللسان وانفلات العيار . انزلت الكلمة عن لسانه كان شخصا آخر نطقها : « فاجره ، عاهره » ، ربما كان يقلد بها يوسف وهبى ونجح في التقليد ، فما يدري الا وفردة الشبشب تصك أنفه وتكاد تفقا عينيه . اعتمته المفاجأة وافقدته الصواب فظل برهة طويلة تلفه الحيرة . حسمتها صاحبتى بأن أطبقت في خناقه كالفتوة ثم رفعته عن الارض كأنه السحلية تنتفض مخنوقة بين قبضتها ، الا أنه تمكن من ضغائرها فشدّها بغيظ اغاظها وألهب عينيه فأمسكته من أحليله وقرصت فضربها عدة بونيات في وجهها فضربته بالراس ضربة أسالت دمه والقت به على الارض فاقد الحيوية يعوى ..

وكننت أو اصل النباح لا ادرى لصالح من ولكننى نجحت فى
تجميع خلق كثيرين خبطوا على الباب وسألوا ما الحكاية . لحظتئذ
كانت صاحبتى قد تمكنت من سحب صاحبى من يديه الصغيرتين
وجرجرته على الارض ثم فتحت الباب وألقت بجثته على بسطة
السلم قائلا له على مرأى ومسمع من الجمع : « ما دمت أنا فاجرة
عاهرة دعنى واذهب الى الاطهار ، عدم المؤخذه يا أسيادنا » ، ثم
اغلقت الباب نصف اغلاق مجاملة للواقفين فاندفعت انبح فوق دماغ
صاحبى المجندل نباحا عاليا شرسا اشهد أنه كان لصالح صاحبى
هذه المرة لما وقع عليه من اعتداءات صارخة رغم يقينى أنه يستأهل
الضرب بأحق من هذا .

ما دريت الا بقبضة يده تدفعنى فى اسنانى وخاتم فى أصبعه
يكسر لى سنتى ، وكان أصبعه بين اسنانى ولم يطاوعنى قلبى فى
حرمانه منه ، فأخذت أعوى من ألم وهو لا يبنى يناولنى بالقبضة
فوق دماغى بغل شديد فيما أوصل الصراخ والفرع . لحظتها
انفتح الباب ثانية وخرجت صاحبتى مندفعة نحوه صارخة :
« ما تضربوش .. دا انصف منك وارجل منك » ، ثم احتضنتنى
وسحبتنى الى الداخل فضاغ كل ألم ، فلما اغلقت الباب اقعيت
أمامه وجاءت صاحبتى تستحثنى على تناول الطعام .

١٩

استشعرت خطرا يحرق بسيدتى فصرت انبح حتى ضاقت
بى ففتحت الباب فاندفعت اجرى وهى تشيعنى متحسرة : « تحن
اليه يا كلب ، فاستدرت عائدا اليها ورحت اتمسح فى اقدامها ثم
اندفعت من جديد اجرى الى غرزة صاحبى .

أخذت السلم الى الربوة فى قفزتين سريعتين وكانت المياه مرشوشة على الارض تصنع زلعا حلوا ، وصفرة العصارى مرشوشة على الجدران والوجوه . ثمة ثلاث أو أربع مجموعات من الحشاشين يجلسون فى تقارب وصوت الراديو يلعلع بنبرات أم كلثوم فيطغى على كافة الاصوات ويضفى على المشهد سحرا . سحب الدخان الازرق تسبح فى تهويمات كثيفة كأنها قدر مجهول يمضى الى مجهول . وكان صاحبي متربعا فى نهاية الممر شاحب الوجه ممصوص الدم . تبسم أول ما رآنى وسال على شذقيه تفاخرا جوف كانه يقول : « كان لابد ان ترجع لى » .

ثمة رجل اعرفه كان يجلس على كرسى بجواره واضعا ساقا على ساق ويجرع البيرة من زجاجة يضعها تحت الكرسى وبجوار صاحبي مثلها . فعرفت ان فى الأمر صيدا ثمينا يستحق ان يطرح عليه صاحبي هذه الشباك ، فان يأتى بزجاجة بيرة على حسابه لرجل ويجلسه بجواره هكذا أمر لا يفعله صاحبي الا اذا كان سيجنى من ورائه مكسبا كبيرا .

جاء الولد بالدخان فوضع الحشبة وانصرف . قال صاحبي : « رص يا أبو شافيه » . نزع الرجل من خاتمة قطعة حشيش وزن قرشا أو أكثر من النوع الفاخر الذى يسمونه « الهبو » تمييزا له عن نوع « الزيت » ونوع « البودرة » ، وصار يقطع منها ويضع فوق المجارة . رص الهبو يختلف عن رص الزيت يختلف عن رص البودرة . تميرة حجر الهبو تكون صغيرة جدا كحبة السمس لانه بطيء الاحتراق والتعميرة تصنع نفسا كثيفا جدا من الدخان الابيض كالجبر . أما تميرة حجر الزيت فقطعة مبططة فى حجم زرار القميص لانه أسرع فى الاحتراق ونفسه يحتاج الى شد قوى ليتكثف . أما تميرة حجر البودرة فقطعة فى حجم زرار الباطو لانه - أو

لأنها - تحترق برائحة النار مثل أقمشة البترو كيموايات ونفسها
فج مهلهل يتعثر في الخروج من طاقتي الأنف ويثير الكحة ويدوش
الدماغ بتهاول كثيرة لا أساس لها من الصحة .. هكذا تعلمت
من البيثة كلها ..

أبو شافيه يرص بسخاء وصاحبى يسرب النظر الى كل تعبيرة
تستقر فوق الحجر مع ابتسامة صفراء يقول : « نعمن يا أبو شافيه
داهبو ميحبش الكثرة » . فيhez أبو شافيه رأسه فى غير مبالاة .
يبرطم صاحبى من بين أسنانه : « الله يرحم ايام زمان كنت مش
لاقى حجر كبس ودلوقت بتلعب بالهبو لعب » ، ثم يستدرك بلهجة
أوضح : « يا اخى طب لما معاك حشيش كثير كده ما تجيب حته
ناشفه » . فيشوح له أبو شافيه فى استهجان . ثم انه امسك
بالبوصة وشغط نفسا كتبه فى انفه وقال : « تريد ان اتدخل بينك
وبين زوجتك .. ليست تنقصنى المشاكل يا كحكوح .. اخلعننى
من هذه الوساطة .. انت تعرف أنه كان بينى و .. » عاجله
صاحبى : « أعرف أنه كان بينكما استلطاف قديم ولهذا فقد اخترتك
لتصلح فيما بيننا لقد تعبت من النوم هنا وأحس برغبة شديدة
فى الاستحمام » . رد أبو شافيه ضاحكا : « الخوف ان تستحم
وتستريح قليلا ثم تفسد العلاقة من جديد .. أعرف طبعك ..
تأخذ غايتك من الشيء ثم ترميه بخسه كأنك لم تعرفه من قبل ..
من لا يعرف خستك يسألنى أنا » .

صاحبى تلقم حجرا . هو لا يستطيع الرد على ابى شافيه فى
هذا الامر . من هو الآن ليرد على ابى شافيه بنديه ؟ هذا حال
الدنيا . كان أبو شافيه شيئا وأصبح الآن شيئا آخر . هو الآن
معلم كبير يملك محلا على ناصية الشارع فى أهم ميدان سياحى فى
وسط المدينة ، ويملك عشرة مخازن على الأقل من بينها واحد فى قلب
غرزة كحكوح من الداخل ورجالا يسرحون فى القرى والبلدان
يجمعون لحسابه أنية نحاسية وفضية قديمة يبيعها المعوزون بتراب

الفلوس ، فيقوم هو بتنظيفها وترميمها وتلميعها وعرضها في المحل
يشتريها السياح بأموال صعبة • يصرف على دماغه وحده مائة جنيهه
في اليوم • علبة كبريت ملأته لتمها ببودرة الشم ، واخرى فضية
ملأته بالافيون الخام لزوم شد الاعصاب ، وثالثة ملأته بالحشيش
الهبو لزوم النفسين • يدفع للصبي خمسة جنيهات بقشيشا
ويستخدمه في مشاوير لا يقل ثمنها عن ألف جنيهه • يتصبر في
الظهيرة بكيلو كباب وأربع حمامات مشويات • كل مشاكلة تنحصر
في ان باعة الحشيش والافيون أصبحوا يغشون ضماثرهم !

ابتلع صاحبي كل مراراته ومال على أبى شافيه في ود مسرحي
متقن : « ليس أكثر من كلمتين اثنتين : العشرة والعيش والملح
ما يجب ان يكون بيننا أنا وهي » • شوح أبو شافيه في غضب
مصطنع : « شف لك غيرى يصلح لهذه المهمة » • وانصرف الى توليع
الحجر الذي هو في نظره انفع من وجود صاحبي برمته • لكنه كان
في أعماقه يتمنى ان يظل صاحبي متشبثا به في هذا الموقف
بالذات •

باب السلامك

● كيف قبل ابو شافية مهمة القيام بالوساطة :

١

« أبو شافية » محب قديم لصاحبتي فيما سمعت ، كان فتاها الأمل يوم كان صبي غرزة وصبي كل شيء .
كان طفلا يوم نسيته أمه في هذا الشارع الحافل منذ أربعين عاما ، ولم يكن متأكدا مما اذا كان قد تاه منها بالفعل أم انها نسيته عامدة متعمدة أم انه تركها تنسأه ؟ كل ما يذكره انه كان يمشي وراءها في الشارع بعد أن ضربته ضربا مبرحا لأنه عجز عن فعل ما أمرته به : أن يكون مسكينا مؤدبا وهو يطلب قرشا لله . ولم يكن يعرف كيف يمكن للانسان أن يرسم نفسه مسكينا وقتما يشاء ، فكان يتصدى للرجل الماشي أو للسائح الجالس على المقهى

او للبائع فى متجره قائلا بكل صراحة ووضوح : « هات قرشى ،
فواحد يعجب بصراحته فيعطيه وعشرة ينظرون اليه فى استغراب ،
وامه تنزوى به فى ركن قصى لتنهال عليه ضربا ..

يومها خفق قلبه خفقة سريعة موجعة وهو يتركها تفيب عنه
فى الزحام كأنه يجرب الاختفاء ، لم يكن يدري أن التجربة سوف
تنجح فتختفى أمه الى الأبد من حياته مثلما اختفى أبوه ، الذى
قيل أنه كان يشتغل فى القاعل فسقطت عليه السقالة ومات ..

٢

اختفت أمه فظل يبحث عنها سنوات طويلة ، وظل يبحث عن
الحجرة التى كانت تنام فيها أمه فى حارة سد فى حى يركبون له
الترام ثم الأتوبيس ثم الترام ثم الاقدام . أبدا لم يعرف كيف
يصل ، فظل يرتع فى هذا الشارع ، يجمع فى اليوم قروشاً كثيرة
يخترنها فى جوفه أكلا وشربا . وكان قد سجل فى دفتر السوابق
ما دمج ملفه فى وزارة الداخلية بأنه « خطر على الأمن » ، وذلك من
كثرة الامساك به والحكم عليه ثم الهرب ثم الايقاع به ثم الهرب .
على كثرة ما لف ودار عاشر أقسام البوليس وجرب نوم الحمامات
والخرابات وظل السيارات الراكنة والأرصفة لم يجد أحناً من هذه
الربوة العجيبة ربوة كحكوح العجيب أحدثك عن جمال الممر وكيف
انه شبكة للايقاع بالهواء المتجدد العليل على الدوام ؟ أم يحدثك
عن اكبر مئذنتين فى المدينة أقامهما اثنان من عتاة السلاطين المماليك
فى زمن مضى كورق النتيجة أو حركة الساعة ليس غير ؟ الممر كما
رسمه أحد رواده برزخ ينحدر من أول دور فى المئذنة هابطا الى الربوة
فى اتصال سلس ، من يجلس فى هذا الممر ذات عصرية لابد وأن
يعود للربوة مرة أخرى وثالثة ورابعة والى مالا نهاية .

لم يكن مقدرا لأبى شافية - أو الشحات فيما سبق - أن يصعد الى ربوة كحكوح فليس يعرف طريقها الا من بيده الجنيهاات الخضراء وهو لم يعرف بعد منسها . لم يكن يعرف الا ظل التخشبية والتشرد . للتخشبية فوائد جمه على أى حال ، أقربها انه تعرف فيها على ولد بلديات صاحبي كحكوح ومعروف لديه ابا عن جد ، قاده الى الربوة ليعمل صبيا فى الفرزة . كان ولدا حنو التقاطيع شحنته الليالى السود بأحلام ودودة دافئة ، وملاته الرياح الشريدة حبا فى دفء الأوراق الخضراء . الدرس الأعظم الذى تعلمه فى حياته ان القرش سيد الأخلاق حاكم بأمره وعلى الانسان أن يستحوذ عليه كيفما استطاع فالشطارة أن تكون معك النقود والخيبة أن تحرم منها . شىء من اثنين لا ثالث لهما فى هذه البلاد: القرش أو العدم ..

٤

كان الشحات ودودا . يضحك فى وجوه الزبائن ولا يدخر وسعا فى خدمتهم على الوجه الأمثل . يعرف خلة « الكيف » ويعرف له عليها بمهارة : النار القليلة المتوهجة والحجر المضغوط فى مكانه بتخشينة ثابتة والماء فى الجوزة يضرب فى نغم محسوب . أبخل الناس أكثرهم كرما فى هذه اللحظة خاصة عند دفع البقشيش . كحكوح مبسوط منه ومما يثيره فى الفرزة من جو نشط . كالنحلة لا يهدأ : يروح على النار ، يرش الأرض ، ينظف الجوز ، يسيخها ، يكرس الدخان فى الحجارة ، يخف لاستقبال كواكب الزبائن العتاة ، فليس غيره يصحو لهم ويملا دماغهم .

روح ياشحات تعال ياشحات هات ياشحات من فضلك ياشحات بات الشحات نجما لامعا فى ربوة كحكوح العجيبة . تكشف عنده قدرات هائلة ، خاصة قدرته على فض المنازعات بالحسنى مهما كبر

حجم المشكلة أو كبر أصحابها ، هو أحسن من يصلح اثنين -
مؤهبة تعلمها من التخشييات والأرصفة ، حيث يتعين عليك أن
تعيش فى غير أرضك وتعاشر غير أهلِكَ وتنام فى حضن شر مجهول
الهوية ..



لا مشكلة أظن من المشكلة القائمة دوما بين صاحبي كحكوح
وزوجته السمراء . دائما أبدا فى مشاحنات وخصام مجهول السبب
لهما فى الظاهر على الأقل . هى طبعا مشكلة تقوم على عشرات
الآلاف من الأسباب . كل يوم والثانى يبقى الشحات حتى آخر
الليل اذ هو معزوم على العشاء مع المعلم ، فى الحال يعرف الشحات
ان المعلمة متوقعة المزاج وانها لهذا خاصمت المعلم ولوت بوزها
شبران تقصد ان تذهب به الى السراية . يبدأ الشحات فى الحال
يدبر لدخلة مناسبة على المعلمة . انه يعرف وساخة المعلم وما عليه
هو الا أن يقوم بتغطية هذه الوساخة ببعض الزواق على حساب
المعلم نفسه : يستدرج المعلم فى الطريق شيئا فشيئا ، فما يدرى
المعلم الا وقد اشترى لحما وفاكهة وخبزا طريا .. دخلة تبش لها
المعلمة لابد ، ومن ثم تنشط لها . فهيا نريد أن نتعشى يا أم فلان
من يدك الكريمة الطيبة ..

تختلط رائحة المعلمة برائحة الطعام فتسلأ البيت أنسا
وبهجة . لا بأس أن يتحرك الشحات الى المطبخ ليشعل الفحم ويعد
الجوزة لحبسة المساء بعد العشاء . لا بأس فالدار داره وهو صبي
المعلم مهما كان . حركة الشحات مثل صوته مسموعة فى هذا الحيز
الضيق ، يعرف الشحات هذا جيدا فيجعل لكل حركة صوتا
يجسدها به ، حتى الغمزة بالعين يصوتها قائلا : هه بأقول ايه ..
أثناء تغيير الجوزة واعداد النار فى المطبخ يحكى لها قصصا
وحكايات من تاليفه الفورى مؤداها كيف انشغل المعلم بأمرها طول

النهار وكيف أنه يشقى ويجعل خدمه مداسا للذى يسوى والذى لا يسوى كل ذلك فى سبيلها وحق جلال الله ولو أنها تدرى مكانتها عنده لسأقت الدلال أكثر وأكثر ..

حيث تضحك المعلمة مجلجلة قائلة : « أما صحيح زى اللى بصحيح ميزة الواد الشحات انه بيقول بشكل يخلينى عايزه أصدقه » .
مهما يكن من أمر فإن الشحات حين ينصرف يبقى المعلم والمعلمة فى لحظة صفو تطول أو تقصر لا حديث لهما الا عن الشحات ، المعلم يحاول اقناعها بصدق قول الشحات والمعلمة تحاول اقناعه بأنها موافقة على اللعبة مادامت تنتهى هكذا .

٦

لكن الشحات اذا كان قد صار نجما فى الفرزة وفى الربوة بل وفى الشارع الحافل اذا مشى لا يكف عن القاء السلام ورد الفل والقشدة والتماسى على الوجوه المحيية .. فانه لا يصح أن يصير نجما فى بيت كحكوح أيضا . هذه كارثة . فلقد أفاق صاحبى ذات يوم فاكتشف ان الشحات ينام بينه وبين زوجته فى الفراش حتى وهو متمدد على الأريكة فى أى خرابة ..

الشحات الشحات الشحات ما الحكاية يا امرأة ؟ اتحبينه على ما يبدو ؟ نعم أحبه لا شك .. تحبينه يا امرأة ؟ .. وما العيب فى هذا ؟ .. أقصد هل تحبينه كما تحبيننى ؟ .. نعم بل و .. قولها بل وأكثر . حاولت المسكينة أن تشرح له أن حبها للشحات يخلو من الدنس العالق بدماعه لكنه لم يعطها الفرصة أبدا .

من صبيحتها خرج الشحات من الفرزة فلم يعد اليها لسنوات طويلة . ولما جاء البوليس فى العصارى ليهاجم الفرزة ويقبض على الشحات الهارب من كذا وكيت لم يجده ف ضرب كحكوح علة سائخة وتركه ومضى ، وحتى هذه اللحظة لم يعرف ان صاحبتي

المعلمة أرسلت للشحات طفلة صغيرة نادت عليه خلسة فذهب الى
المعلمة فأوصته بالفرار لأن زوجها جبيلته القدر ..

V

لم يحزن الشحات في حياته قدر حزنه على مفارقة المعشوقة
السمراء . لم يحزن على فراق امه رغم حبه لها قدر حزنه على فراق
« وديعة » زوجة معلمه كحكوج . ظل وقتا طويلا لا يعرف سر هذا
الحزن ، ومرت عليه خواطر كثيرة ظن مع كل خاطر منها انه سر حزنه
على فراق « وديعه » . قال لنفسه انه لما هرب من امه كان يهرب من
الفقر والتشرد ومن ألم القرص ووجع الكلام . ابدا لم يكن حزيناً
على امه مثلما هو حزين على انه لن يرى وديعة بعد الآن الا صدقه
وبين محاذير ..

لم يكن قد عرف في امه مثل هذا النبع الفياض بالحنان .
صحيح ان امه مسكينة وكانت تنتقم في شخصه الضعيف من نذالة
الموت وخسة البشر في المدينة . لكنه لم يعرف من قبل ابدا مثل
هذه المشاعر الطازجة الحلوة التي شعر بها منذ اول يوم زار فيه
بيت المعلم . احس لأول وهلة أنه آدمي ، انه امام انثى بكل معنى
الكلمة كل وظيفتها في الحياة ان تريك مالم تكن تراه في نفسك من
قبل ، أول شيء تريكه انك بالفعل رجل واى رجل ، لا تسيء فهم
كلامه من فضلك ، فليس يصور لك عاهرة داعرة تخون زوجها في
سياحة بين احضان الرجال ، لا والله ، لا . ان وديعة سيدة لا يمكن
وصفها بكلام ولا التعبير عن وقعها في النفس ، فمجرد ظهورها أمامك
للنظرة العابرة يوقظ فيك الاشياء الحلوة الطيبة ويشعرك فجأة انك
قادر على مواجهة الدنيا كلها بمفردك طالما هي معك ، فما بالك لو
نظرت اليك ، فكان العينين الكحيلتين لم يسبق لهما النظر الى احد
سواك نظرة كأنها الدنيا قد جاءتك مثلما تحكي الحواديت ، أليسوا
يهورون لنا الدنيا امرأة تقبل على الموعد لتسقيه التميميم بالهناء

والشفاء ؟ فمن تكون امرأة الحواديت سوى هذه ؟ ولئن كانت الحواديت تعود فتصم هذه المرأة بالغدر وادارة الظهر للانسان بعد طول عز فما ذلك الا دليل مضحك على هيافة البشر اذ هم يتصورون ان الدنيا يمكن ان تظل تعطيهم وجهها الصبوح على الدوام حتى ولو كانوا هم ملوثين غارقين فى الوحل والنذالة والسفه ، الدنيا - هكذا تقول نظرة وديعة ان طالتك - كالمرأة لابد ان تريك القبح الذى على وجهك ..

يقول الشحات لزملائه فى الغرزة حواديت يزعم ان امه كانت تحكيها له فى المساء لا لشيء الا ليدلل على انه كانت امه تحكى له الحواديت ، وكلها حواديت تدور حول اميرة سمراء وقعت فى قبضة صعلوك لا وزن له فانقلبت الاية واصبح الحسيس يتحكم فى الاصيل ويحبس حريته ، ولربما تكون امه قد حكّت له اطار هذه الحواديت فعلا ولكن كل اميرة فيها تمثلت مجسدة فى زوجة معلمة وديعة . وكل صعلوك شرير وكل سفاح وكل مسيطر متجبر تمثل مجسدا فى معلمه كحكوح .

٨

ابدا لم يكن الشحات يعرف انه واقع لشوشته فى حب وديعة وأن لوثة توشك أن تلطش دماغه . كان يقضى الساعات الطويلة شاردا مع أغاني ام كلثوم وينوب حرقه فيها ويضبط لها الراديو على الشعرة . لا حظ عليه الولد صديقه قريب المعلم انه قد تخلص من الهزل ومن أشياء كثيرة كانت فيه ، لا حظ عليه ايضا انه استقام بدرجة لا يصدقها الدماغ . ففجأة بعد ان كان الشحات ولدا مخربشا يزور تخشيبية القسم كل بضعة ليال ويقف مكلبشا امام النيابة كل بضعة اشهر ومخفورا بالقفص الحديدى امام القضاة كل سنة او اكثر ، صار رجلا بمعنى الكلمة ملء هدومة يعتمد عليه المعلم فى أخطر المسائل بل ان زبائن الغرزة يحترمونه أكثر مما يحترمون

المعلم ولا يصدقون الا كلمته ولا ياتمنون أحدا غيره على اسرارهم ،
 الا فطع من هذا ان بعضهم - وهم ذوى مراكز كبيرة وجاه اكبر -
 يشركونه فى همومهم ويتحدثون اليه بها أثناء قيامه بسقياهم ،
 الأغرب من الأفظع أن الولد بالفعل ماء من تحت تبن كما يقولون
 فى المثل ، لا يفشى سرا ولو قطعت رقبتة فان سألته عما كان يدور
 بينه وبين الزبائن من حديث وحلفته بالامانة ان يصدق لف ودار
 وحكى لك اشياء يحلف انها ما حدث ولكنها ابدا لا تكون ما حدث ،
 فكيف أوتى بكل هذه الكياسة والرجولة والحكمة وهما اخوة فى
 التشرذ من الطفولة . .

كان صديقة لا ينى يردد هذه الملاحظات على مرأى ومسمع من
 الجميع وفى مشهد مسرحى ضاحك والشحات لا يفعل ولا يزل بل
 يكتفى بأن يحصى عليه أموراً تثبت هيافته .



الواقع ان الشحات نفسه لم يكن يعرف سر هذه النقلة
 الخطيرة التى طرأت على شخصيته فكانه ارتكز على الأرض حقا بعد
 طول سباحة فى الفراغ . يقول لصديقه وقد لعب الحشيش برأسه
 ان فى نفس كل واحد خرابة عبارة عن هديم متراكم ، منا من اذا
 فحت فى داخله وجدت قليلا من الطوب والتراب فوق حجرات
 كاملة ومفروشة بالتمام . ومن ذا فحت فيه وجدت ماء مالخا ،
 ومن اذا فحت فيه وجدت الهديم بلا نهاية ، ومن اذا فحت فيه
 وجدت بواذر كنز وحينئذ تصبر عليه حتى تصل الى الكنز ،
 والحريف من يفحت بعناية وفن . الشحات أيضا يعرف «الفلسفة»
 التى يتشدد بها صاحبه مقلدا عواجيز السجن ولكنه لا يحب كثرة
 الكلام ووجع الدماغ ، ويعرف أيضا أن نفسه ان لم يكن تحت
 هديمها كنز فعلى الأقل لن يحوى الهديم ثعابين أو عقارب أو
 صراصير أو عفن الرائحة ، فما الذى يريد أن يقوله صاحبه من
 وراء هذه التريقات المتواصلة عليه أمام الناس ؟ .

هنا قال صديقه المخربش رد السجون : « أنت تحبها ، وكل ما تغير فيك تغير بسبب حبك لها ٠٠ أنت ولد نمس ٠٠ قررت بينك وبين نفسك أن تجعلها تحترمك وتثق فيك ٠٠ أتعرف ؟ هي الآن تضع ظفر قدمك في كفة ورقبة المعلم في كفة ، »

الاشراقة التي سطعت بداخله لحظتها كانت ساحرة ولم تفقد بريقها أبدا .

١٠

حين هرب الشحات من غدر صاحبي كان قد تعلم من غرخته درسا ما فتىء على مر الأيام يزداد غموضا كلما ازداد تواجدا في دماغه ، ففرزة صاحبي كما تعلمون يؤمها تشكيلات عجيبة من مثقفين وسوقه وتجار وعلى كل لون . وقد فتح مخه وأذنيه لكل ما يصدر في الجلسة من أحاديث تتنوع من مجموعة لأخرى وهو صامت حتى ليكاد يباريني في الصمت المشغوف يختطف هنا ورقة وها هنا ورقة . من مجموعة تجار الشنطة يخرج محملا بكافة المشاكل التي يصادفونها ويعيشون نيرها فينسى النير ويتذكر ما في أيديهم من أموال طائلة ٠٠ الى مجموعة من المثقفين يحمل معهم همومهم وبالفهولة مثلهم يفهم قضاياهم حق الفهم لولا انه لم يؤت قدرتهم على التعبير والكلام والمنطق ٠٠ الى مجموعة من الصياغ والمتشردين يقف معهم على آخر ما ابتكر في أساليب النشل والغش والنصب والاحتيال ٠٠ الخ .

علما انه كان يتلصقا عند كلام المثقفين فيتعلم منه الكثير ، وإبلخ درش تعلمه وصار يكتشف على مر الأيام جلاءه هو أن أربح تجارة في البلاد هي المخدرات والسياسة ، فبعد أن كان في البلاد عسكري وجند وخفراء صار فيها ما لا حصر له من أنواع العسكر

والحكام ، أما السياسة فليس له فيها واما تجار المخدرات فانهم يرتعون في البلاد وقيّمون العماثر ويفنى النجوم فى أفراح أبنائهم، انهم باشوات هذا العصر دون منازع ، يتمركزون فى حارات وأحياء مغلقة ويدخلون مع العسكر فى حروب ومناورات ومخططات ، يحاربهم العسكر لاعتبارهم أفراد يسهل القبض عليهم بل باعتبارهم مؤسسات تقوم على عائلات متشابكة متعددة المصادر والمنابح والشخصيات ، لكل شخصية عدة أسماء يشتهر بها للتضليل على سجلات الحكومة ، مهاجمتهم أمر تهرع له الصحف بمصوريها حتى لتنشر الصحف ذات يوم ان الهجوم على احدى هذه الحارات كان عبورا ثانيا .

١١

يوم الهرب قصد الشحات من فوره الى مقهى مرخص فى الحى المتاخم . صاحب المقهى يتجاوز الحدود قليلا اذ ان ابن أخيه يعمل مخبرا سريا ويبلغه أولا بأول مواعيد الحملات ، فيسمح لذلك بشرب الحشيش فى مقهاه ولكن على « البورى » هربا من مظهر الجوزة ، فالبورى - أو الشيشة فى الأصل - قد يوهم المشاهد أن الشرب دخان معسل فحسب .

جلس الشحات وطلب شايًا ثم انه قام وفعل عدة حركات على النصبه وحوض المياه أفهم بها المعلم انه صنايعى وابن كار ، وبهذا قدم نفسه لصاحب المقهى فتركه يتعاضد فى خدمة الزبائن . وفيما هو يخدم زبونا همس فى اذنه سائلا عن احد يبيع الحشيش فأوما الشحات برأسه هامسا : « أنا أجيب لك عايز آيه ؟ » . منظر الولد يفرى بالثقة ، فشكله أقرب الى نظافة الزبون منه الى غبار الصنايعى . نفحه الزبون ثلاث جنيهات وطلب قطعة من الهبو المعتبر ..

اختفى الشحات فى احدى الحارات . ولو تابعناه لوجدناه قد دخل آخر بيت فى الحارة وصعد سلم الدور الأرضى ثم طرق على باب الشقة الأولى على اليمين ثم تمر برهة تظلم خلالها العين السحرية فى الباب ثم ما يلبث الباب أن يفتح . . فيسلم الشحات كائى ضيف ثم يدخل الى حجرة صالون مجاورة للباب مباشرة وقبل ان يدلف اليها تكون همسته قد دلفت هى الأخرى الى اذن من فتح الباب : « ربيع » ، فبعد برهة طويلة جدا يدخل عليه الشخص بما طلب ، من حسن الحظ - كما تمنى - فتحت له « البتعة » بنفسها .

جلست بجواره قائلة : « خير يا شحات ؟ » قال : « خير . . عايز ربيع » قالت بابتسامتها العريضة : « لك ولا حتشربه ؟ » قال باسم : « لى » قالت وقد ظهرت أسنانها اللولى : « يعنى حتاكل فيه عيش » . قال ببسمة مرتعشة : « عليكى نور » . برمت كفها حول رأسها : « انت سبت كحكوح » . حكى لها الشحات ما حدث بالتفصيل ، حتى أسراره وحبه لوديعه كاد يندب ويحكيه أيضا كجزء من المشكلة . هى الأخرى تابعت بكل انفعال وهدوء ، فلما انتهى من كلامه قامت وغابت فى الداخل برهة عادت على أثرها وغمرته فى كفه بقطعة حشيش كبيرة طيبة الملمس ، حجمها لا يقل عن ربيع أوقية ، أى ما يباع بأكثر من عشرين جنيه هذا الصنف بالذات . . فهل يمكن ان تكون الغازية أو الراقصة أو احدى عوالم الفرح رقيقة وانسانة بهذا الشكل ؟ الغريب انها ردت اليه الجنيهات الثلاث ، وقالت له : « ربما وجدت لك لقمة عيش بجوارى » .

١٢

موهبة من الله ان تكون قادرا على فض المنازعات بين البشر . بهذه الموهبة وحدها كبر الشحات فوق عمره الحقيقى أضعاف أضعاف ، وأصبح يمشى بين رجال من عليا القوم كأنه مثلهم بل

المفضل عليهم ، وقد تعود الناس في الحي كله ألا ينظروا الى ملبسه أبدا ، بل يتعلق بصرهم بوجوده لأن وجوده سوف يحل كثيرا جدا من المنازعات صحيح أنه يفضلها بطريقة تبدو لك بعدها غاية في البساطة ويستطيعها كل انسان ، لكنك لا تستطيع ان تقول هذا على سبيل الاستنكار لانك لن تكون في مثل شجاعته عند النطق بقول يحسم المسألة .

من ثم لم يمد بحاجة الى العمل كصبي في مقهى ، لكنه بحاجة الى مقهى يجلس عليها وتكون مركز مملكته الخاصة . وقد وجدها ، ظلت ملكا لصاحبها لكنه قام بترميمها وتجديدها على حسابه وجلس يستقبل فيها عملاءه وزبائنه ، ومن وراء ظهره طائفة من صبيانها يبيعون بالقطاعي ، ولد يمسك شكارة يستقبل فيها النقود ، ولد آخر يمسك ميزانا صغيرا ، ولد ثالث بيده الحشيش يقضم ويزن ويقبض ليدفع الى الشكارة ، حتى اذا ما امتلأت الشكارة أستدار الولد في عتبة الدار التي يقفون أمامها ثم صعد الى حجرة قريبة حيث يفرغ الشكارة في صندوق وينزل مسرعا . كوكبة الصبيان هذه تبيع في اليوم الواحد بعشرة آلاف جنيه على الأقل .

١٣

فوجيء أهل الناحية كلهم ان البتعة ، لم تعد تستقبل احدا من الزبائن أو الزوار في صالونها العتيق الانيق الثمين . لم تكن تستقبل سوى الشحات . واذا بدأت الانواء تلوك سيرتهما فوجيء الجميع بأنهما قد تزوجا . واذا بدأ الطامعون فيها من قديم يرفعون رهوسهم كان الشحات قد أصبح قادرا على شراء الأمن بأعلى ثمن ، كما أصبح أحد كبار الاعلام في المنطقة برمتها .

١٤

الخزيرة - أي العربية المرسيدس ٢٠٠ - تفاجئك وأنت

تدخل الحارة ، واقفة في راحة على قدمها كأنهما فضلت لها ، صفراء في لون الكتاريا . تدحش كيف لمثل هذه السيارة ان تتواجد في مثل هذه الحارة السائجة في الوسخ والقذارة . لو ان عرق التكاثر وحده يسيل بكثافة السكان لاغرقها الى شوشتها ، فما بالك بمياه الغسيل والاستحمام والمجازى ؟ كل ذلك متروك لشأنه في الحارة الطويلة المتعرجة .

١٥

كنت اقول لنفسي كلما دلفت الى هذه الحارة : من ذا الذي يهتم بتنظيفها وكل من فيها من السكان لا يشعر انها له . ساكنو البيوت من موظفي الدرجة الثامنة او حتى الثالثة او الاولى ، اولادهم يتقاسمون المرتب بالقسطاس ويذهبون الى المدارس والكلليات شبه حفاة يسخر منهم بقية السكان من الحرفيين والصناع .

يسيطر على الحارة عدد مهول من تجار المخدرات يملكون في المنطقة دورا ودكاكين ومقاه وعائلات كالفل أفرادها . نصف الحرفيين تركوا حرفهم البطيئة الكسب وانضموا الى الصياغ وأصبحوا صبيانا وناضورية لدى تجار المخدرات . من كان منهم قوى النية ينتمى الى عائلة كبيرة من الناس او عائلة كبيرة من السوابق افترش لنفسه بقعة واحتلها بكرسى وترايزة ترتص فوقها أصناف الحشيش والافيون وأكوام الفلوس الفكّة . أما ان كنت من أهل البلاد فانك بقدره قادر تتحول في هذه المنطقة الى شيء من اثنين : اما سائح واما قطعة عاديات تمشي على قدمين يتفرج عليها السياح الأصليين وربما وساوهم على بيعها أحد كبار النصابين وما أكثرهم في الحارة .

تستطيع أن تدلف من سوق الحيط الى سوق الحميم الى سوق النحاس الى سوق الخضار الى سوق الحشيش ، حيث تتراص

الترابيزات في الشارع وتلمع في الجو أسلحة المطاوى الشهيرة ، كل واحد من هؤلاء يقيم لنفسه احتياطات أمن مشددة ، اليشتري يحتمل أموالا ٩٠ كل من يشتريها هنا يحمل لفة أو حقيبة أو جوالا فهو غلى الأرجح يحمل بداخلها نقودا أو محددات ، حتى هذا الرجل الغلبان صاحب الغرزة المتقلبة مشكوك في أمره من قبل الرواد المشترين لمزاجهم . حرفوش هو يلبس الجلباب المشمر من فتحة جانبية ، في يمينه صينية كبيرة ، وفي يسراه أخرى ، الأولى عليها الوابور مشتعلا وفوقه البراض بحامل يحميه وحوله ععدد من الكنكات مختلفة الأحجام وعدد كبير من الاكواب النظيفة وابريق كبير مملوء بالماء النظيف كل ذلك معد في ربطة واحدة . الصينية الثانية عليها جوزة وبرطمان وكومة حجارة ووجاق نار وطبق دخان معسل ، يمر في الشارع دونما هدف بعينه ، يناديه صاحب دكان أو فاكهي أو خضري سريع أو زبون خرمان اشترى الحشيش لتبوه ، فيستوقفه كما تستوقف ماسح الأحذية ليمسح لك الحذاء واقفا في الطريق العام ، فصاحبنا يضع على الفور عدته على الأرض ويفاجئك بأن معه حجارة مرصوفة أربعة وعشرين قيراطا وما عليك الا أن توقع عليها بامضاء الحشيش من يدك الكريمة فيما يكون هو قد انتهى من صحن النار في المصفاة واعداد الجوزة ثم . . .
قل بالصلاة على النبي .

تشرب لك العشرة أو العشرين فيما لا يزيد عن عشر دقائق . فان داهمكم البوليس فان ألف ناضورجي يكونون قد ارسبوا الاشارات فحدثت موجة من الذعر تختلط فيها الأشياء ببعضها وتقلب ، يجري ناس وتطلق أبواب ويزوغ المخربشون ويقع في القبضة الابرياء والضعفاء وابناء السبيل . كم من اصحاب غرز متقلبة اتضح انهم من البوليس فماتوا من الضرب ولم يعد اهل الحارة يسمحون لاحد بممارسة أى عمل في الحارة ما لم يكن معروفا لديهم أو من طرف احد المعلمين الكبار . أعرف صاحب

غرزة متنقلة من هؤلاء تعب من الغرزة المتنقلة على كثرة ما اكتسبته ، فافتتح لنفسه بنكا في الحارة أسماء بنك الفكة ، عبارة عن نصف دكان هو في الأصل جزء من مدخل عطفة صغيرة حوطوا عليه بالبناء ثم ملأه بثلاث بنوك صغيرة من الخشب الحبيبي المغلف بالفرومايكا الانيقة ، ولبس هو جبة وقفطانا وجلس على كرسي خاص في المدخل ، ولديه ستة من اولاده في عين العدو أربع صبيه وبنيتين ، هما والولد الصغير وراء البنوك الثلاث ، والثلاث اولاد الكبار يتجولون بالدراجات في أسواق البلد وحاراتها ليل نهار يبيعون الفكة لمن يحتاجها نظير عمولة صغيرة ، في حين يجلس الاب طول النهار والليل يستقبل الفكة من تجار المخدرات ليجمدها لهم في أوراق كبيرة نظير عمولة قدرها واحد في المائة ، حيث يجيء صبي التاجر بالشكارة البلاستيك الكبيرة فيفرطها على البنك معلنا قدر ما فيها ، وتتولى البنت بهدونها العظيم تصنيفها ثم عدّها لتتولى البنت الأخرى صرف المتجمد وتتولى الولد توزيع الفكة وربطها وتغليفها في وحدات وتدوين الحسابات هنا وها هنا . هذا الرجل - على فكرة - أحد زملاء صاحبي في جلسات الشم رغم انه حج سبع مرات ويذبح في مولد الحسين بن علي وحده ثلاث أو أربع عجول يوزعها على أهل الله ، وإن أبدت عجبك من تضييعه لخمسين أو ستين جنيها في جلسة شم واحدة ، رد عليك أمثال صاحبي في استنكار بانه يملك نهرا من الفلوس فليزفه نفسه ، وربما أضاف بان الله يحب هذا ويحضر عليه : ان الله يحب عبده النزيه ، وويل للذين يكتزون الذهب والنفضة .. الخ .

بقدر ما في هذه الحارة من فقر مدقع وعوز يوجد فيها من الاموال ما يفوق المحر لو انك عدت الى الجرائد التي قرئت على في غرزة صاحبي كحكوح عن الايقاع بصفقات مخدرات وبكبار تجار

ووجدت أن أخبار عالم المخدرات نشرة يومية حافلة فسوف تقول في نفسك : أي خيال هذا . فماذا أقول أنا الذي درجت في الجارة متهدل الاذنين منكس الذيل من كثرة ما رأيت من ظلم وابهة ، أبهة عالية ، بقدر علوها تخفى في أحشائها فاقة وكدرا .

على ناصية الحارة دكان أنيق مصروف عليه ثقله ذهباً ، تحار في ماهيته بالضبط ماذا يبيع أو ماذا يشتري أو ماذا يفعل لا أحد يدرك على الإطلاق ، لكن ألفا وألفان يتطوعون قائلين لك إذا ما سألت وفي استنكار : « انه محل الحاج عثمان كزبره » . فمن هو الحاج عثمان كزبره ؟ هكذا تسأل انت في سلامة نية . حينئذ ربنا يستتر ، قد تنال صفتين على قفاك أو بوكسين في بطنك أو زغدتين في جنبك . فمن انت حتى تسأل عن الحاج عثمان كزبره كأنك لا تعرفه ؟ لابد أنك مرشد بوليس أو مباحث ، لا بد أنك مبعوث غشيم يستحق الأدب والدرس القاسي ، أو لا بد أنك غريب عن الحي لا تعرف لمن الخضوع والخشوع ها هنا ، فهناك الاجابة . .

ان جنب شكلك احترامهم وهذا ما ندر عندهم عدم المؤاخذه - فسوف يصيح بك جالس على المقهى المواجه : « اتكل على الله ياستاذ ربنا يهدينا ويهديك » . فان تنحنت قليلا وادرت الثأر لكراحتك عن هذه الاهانة صاح بك آخر في هدوء ينذر بالعاصفة « نهارك أبيض يا أستاذ . نهارك أبيض بالصل على النبي » . ستأخذك الدهشة البالغة لا بد ، اذ لم تكن تتوقع ان هذه الثياب الفاخرة التي سبق ان رأيتها على أجساد نجوم السينما العالمية محشوة بهذه الاجساد الشرسة المسككة بالمطاوى قرن الغزال .

تغير أن الأرض لابد أن تنشق عن رجل طيب أو سيئة طيبة تميزك في جنبك وهي تمشي هامسة لك : « امشي يا ابني ربنا يكفيك شرهم » . ولا بد أن تمشي في النهاية وأنت صاغر . سوف تعرف بعد طويل بحيث وتردد على هذه الحارة ان الحاج عثمان كزبره مهرب كبير وان دكانه في الظاهر دكان مقاولات صحيح

ان شكل الدكان لا ينبئ عن هوية معينة ولدن هكذا يقولون .
هو يملك ثلاث عتبات في غرب المدينة كل منها عمارة فارغة ولكل
ولد من اولاده سيارة بيجو خاصة وعمارة خاصة ورصيد خاص
ومشروع استثماري خاص .

١٧

تجار في هذه الحارة أيهم هو الأكبر . فكلهم كبار وكلهم
فل . أقام أحدهم فرحا لابنته نظمه له الحاج « سالم زغاليل » وهو
من زبائن صاحبى الاصلاح . في هذا الفرح رقصت وغنى كل نجوم
التليفزيون والاذاعة والسينما . حتى ليقول من شاهد الفرح أن
صاحبه أكثر رأس في البلاد ، حيث سد شارع الأزرق من العتبة
الى القرافة ، وامتنع تدفق السيارات على الميدان الا سيارات
المهنيين والمشاركين حيث تمرق بسرعة في زوبعة من الصباح المرح
وقد زينت السيارة بالورود ، وكانت أصوات الكلاكسات هي
الايقاع الأعلى ، فلما أقبل موكب العروس يزحف على مهل تزفه
أكبر راقصة في البلاد وتتابعه كاميرات السينما والتليفزيون خيل
لبعض المثقفين المشاهدين انهم يشهدون فرح قطر الندى على صورة
عصرية ، وها هو ذا الموكب يسرى الى مستقر له ولكننا نعتطف
يميناً على مدخل الحارة الملاصقة للأزرق الشريف حيث انتصب
الفرح سرادقا يمتد على مساحة نصف فدان ، على الجانبين مجموعات
تبدأ بكبار تجار المخدرات في المنطقة كل منهم يمتشق سلاحه
الذي يبدأ بالسدس وينتهى بالمدفع الرشاش ولكل منهم تابع يحمل
الذخيرة ، ثم تمتد صفوف المجموعات على الجانبين فترى كافة
نجوم السينما والتليفزيون منهمكين في غوغاء المزاج يشربون
ويكحون ويتمخطون ويمعمون ، في الوسط بقية المدعويين وصاحب
الفرح بجلبابه الملدى وطاقيته وبلفته البيضاء ممسك بالتخيزرانة

وينهال ضربا على المتطفلين لابعادهم وينحشر فى جولات رائحا
جائيا يلقي على كل ترابيزة بقطعة حشيش كبيرة يحيى بها
المدعويين .

الذى لا يعرف يقول عدسا ، والمشاهد الفشيم يقول لدى
رؤية كل هذه الالبهة ان الحاج كزبرة هو اكبر شخص فى عالم
المخدرات ، ولو تماشى مع الأيام لكشفت له أن هذا بكل ضخامته
مجرد صبي يموله فلان . أنت حشاش اليس كذلك ؟ اذن فأى
نعميرة تدفع فيها دم قلبك مهما علت أنفاسها اذا قلت متفاخرا
انه امن فلان فلا بد ان يفاجئك أحدهم بأن الأعلى عند فلان . فمن
هو فلان هذا الذى لم اسمع به من قبل رغم اننى لفاف وأعرف كل
باءة المخدرات فى كل الأحياء ؟ .. هكذا تقول أنت لنفسك ، فاذا
بفلان هذا أشهر من نار على علم واذا به اسطورة جديدة عليك
قديمة على الأقدم منك .

شارب الحشيش يعرف كل يوم الجديد والجديد عن غفلته .
لكن آخر ما سيعلمه - رغم انه معلوم وبديهى من الأصل - انه
مثلما لكل محافظة محافظ ولكل بلد حاكم ، فلكل حى فى المدائن
تاجره الأسطورة أو تجاره الأساطير ، الذين يتضح انهم بدورهم
أكبر من ناس وأصغر من ناس آخرين .. ناهيك عن قرى بأكملها
وعزب وكفور تعتبر مجرد مخازن لرهوس فى عالم المخدرات لا يفوقها
حصر ولا تقاومها اباداة .

١٨

ربما لم يكن الشحات أكبر اسطورة فى الحازة لكنه بالتأكيد
أشهرهم وأذكاهم . فلعلة اول من أقام للبيع طابورا كطابور الجمعية
الاستهلاكية أو أشد كثافة . يشجع أحد الناديين الكبيرين ويرسل
الهدايا للملاعبين وينفق على شرفهم بشكل جنونى حتى لقد أصبحت

شهرته توافى شهرة النادي نفسه وأصبح كبار المشجعين يتجاهلون مهنته إذا ما وردت في الحديث قائلين مع هزة يدهم نحو رؤوسهم : « معلش مالناش دعوة » يصادق نجوم الفن ويجاهلهم بالهجو الفاجر ليبيع لهم الجلة الناشفة بثمن فاجر .

الشحات لا يقبل المنافسة ولا يقبل اللعب في السهل الرخيص . فامسك عن البيع وأعلن توبته عن الاتجار في الصنف نهائيا ، والدليل على ذلك هذا المحل الذي اشتراه في أكبر ميناء في وسط العاصمة الكبرى . لا لم يكن ذكانا واحدا وإنما هو براح يعرض ثلاث عمارات كبيرة ملتصقات لمالك واحد تطل على نواص أربع . كان صاحب العمارات الأصلي قد أعده في الزمان الأول لمبيت سيارات السكان باعتبارهم جميعا من أصحاب السيارات أيام كان القرش غاليا تدفع فيه عرقك ومعاناتك ، لكن الزمن جاز فجأة على السكان واعتبرهم - دون منطق مفهوم - من درجات دنيا من البشر لا يستحقون رافة ولا شفقة ، في حين رفع شأن الرعاع والنصوص وتجار المخدرات والسموم والآلام فأصيب عليه القوم من السكان بأحقر الملاك . ولما كان سكان هذه العمارات كلهم من ذوي الشأن فإن مالكها توقفت به قدرته على الانتقام عند حرمانهم من الاسانسيرات وامتناعه عن ترميم أى تلف وحرمانهم من أى امتياز ، ولهذا أيضا فإن تاجر المخدرات حين وافق على شراء العمارات برمتها كان الثمن الذي طلب منه لا يوازي في نظره ثمن الدور الأرضي وحده وهو ما يريد منها .

الناس في الشارع تفتح أفواهها دهشة وذهولا عندما تسمع الرقم المدفوع في حظيرة السيارات . ماذا بها لو سمعت الرقم الذي ضُرف على الحظيرة لتصبح هكذا مدينة تتلألا بالاضواء والجدران الرخامية والأسقف والمرايا . المؤكد أنهم يقعون من طولهم إذا تحيلوا الرقم الذي سيحتل به هذا المحل على هيئة بضائع ، هي على التحديد

سيارات المرسيدس ، ذلك أن الشحات الشهير بأبي شافية استصدر
لنفسه توكيلا من مصنع سيارات المرسيدس ليصبح ممثلا لها في
وسط المدينة .

١٩

لأبي شافية - الشحات سابقا - دكان آخر بعزاء أشهر
مسجد في المدينة يبيع العاديات والآثار . رغم ما في محل السيارات
من أبهة وجلسة مخصوصة صممها لسيادته مهندس أجنيبي ، ورغم
ما في محل العاديات من جلسة عتيقة في الأبهة والزخرفة والراحة
إلا أنه لا يحب هذه ولا ينجذب إلى تلك : إنما ظلت جلسته المفضلة
ذلك الكرسي القش يضعه على الرصيف وحوله طقوطة عليها براد
الشاي والاكواب وأمامه ويده مبسم الشيشة . كل الصفقات
وأخطر اللقاءات عقدها على الرصيف على الناصية يأمر وينهى وينادي
ويبعث ويشخط وينظر ويكح ويبصق أطبانا من البلغم الأزرق
المتكتل . لكنه بعد أن كان صبيانه ورجاله في معية المخدرات
يلبسون الجلابيب البلدى ويربون شواربهم ولا يعرفون الرحمة
أو الرقة فضلا عن استعدادهم المطلق لتلقى الشلايت والزغد
بسن المطواة والبصق في الوجه ، أصبح صبيانه ورجاله في معية
السيارات والعاديات والآثار أفندية متعلمين يحملون البكالوريوسات
والليسانسات والدكتوراه ، بل فيهم البكوات من ركاب سيارات
أفخر مما يباع في محله ، محاسبون ومهندسون وأداريون وخبراء
وخفراء وعمال نظافة وحراس لسيادته .

لم يعد لديه - إذن - من يخلق شتائه وبصقائه ومن أمر
بجوهره وضروري لاستمرار المعلمة . كيف هذا ؟ لكن هكذا الدنيا
تغير ، فخير له أن يعترف وأن يتزن قليلا . النتيجة : قادة على
امتصاص غضبة وامتاعه رغم بلوغها الخمسين أو أكثر ورغم سباحته
المتواضعة بين النساء اللاتي هن - كما يقول - لكس من الهوى على

القلب أى انه مسكين يحمل قلبه هموم كثيرة لا يباريها فى كثرتها سوى كثرة النساء اللاتى يرتمين على قدميه كل لحظة ..

ربما كان أبا شافية صادقا فى المقطع الأخير من جملته ، فهو جدير حقا بأن ترتدى على أقدامه النساء . القوام الرجولى الفارع ، مع الأناقة والرشاقة ، الوجه المستدير كالقمر ، يبك الدم ، الشارب خنفسة جميلة كأنفاس بيضاء متجمعة تحت طاقتى أنه المستقيم المتمد الى حاجبين كثيفين يزخرهما نفس البياض حتى ليزداد سواد عينيه الواسعتين الشهوائيتين .

من حيث المظهر والمسلك يدين بأخلاق فرسان النساء كما يدونها قاموس العامة فى بلادنا ويستنكرها الخاصة وان دانوا بها فى الخفاء : شمام حشاش أفىونجى مسنود بالغذاء الدسم والتمرينات الرياضية التى دأب على ممارستها حتى يحتمل جسده قدرة الدفاع عن النفس فى كافة المعارك . مهما يكن من أمر فان سمعة أبى شافية فى هذه المسألة لا تحدها حدود . يقولون أنه رافق على أعلى مستوى . يقولون ان البتة تعرف كل شئ وتتجاهل كل شئ . طالما أنه يأوى اليها فى نهاية المساء . يقولون - فى المقابل - ان نقطة الضعف فيها عدم أهليتها للانجاب ، كما قال أطباء العالم الذين عرضت عليهم .

يحلو لأبى شافية دائما ان يحكى لجلسائه كيف عرضها على الأطباء الأجانب ومتى . الامارة عنده ان فتانا كبيرا أو لعله سياسى قديم فيما يذكر او فيما لم يعد يذكر ظلت الجرائد تستنزل له الرحمات وتستنهض عواطف المسئولين كيما تتاح له فرصة العلاج فى الخارج ، وانه بجلالة قدره وصل الى نفس المستشفى التى نزلت فيها ، البتة ، فخاف أن تنصرف جهود الأطباء الى هذه الشخصية الخطيرة القادمة من الدولة الازرقية تحفها زفة قسومية كبيرة ، ففوجئ بأن الأطباء لا يعرفون شيئا عن هذه الشخصية ولا يعززون

لاسمها ، بل لا يعرفون سوى « البتة » التي تعيش المستشفى في
خيرها .

يقول وهو يضحك في سخرية مزوجة بالمرارة :
« ما خالصنيش قلت لهم دا برضه راجل بلدياتي وكان في يوم من
الأيام له شنه ورنه .. شوفوا الى هو عايزه وعلى حسابي أى وحق
رسول الله » . حتى هذه الأحاديث لم يعد يجد من يستمع اليها
بشغف . الواقع انه لم يعد يجد أحلى من القعدة على المقهى بجذاه
المسجد الشهير وكل بضع ساعات يدلف الى حارة الشمامين
فيتمون ، أو الى صاحبي كحكوح ليتزود بحجرين .

٢٠

تطول الجلسة في غرزة صاحبي كحكوح وتتعدد وتشابه
حتى لا عجز عن التحديد في أى جلسة حدث الشيء الفلاني أو قيل
الكلام الفلاني . هي على الأصح جلسة واحدة تتخللها فترات غياب
منه أو مني ، لكنني كلما أضأت نور الذاكرة وجدته في نفس
هذه الجلسة ويدور بينه وبين صاحبي نفس الكلام . أما الكلام
عن صاحبتى فقد كان لا يزال حديثا . ولقد انشغلت عنهما قليلا
فلما اتنبهت وجدت صاحبي يقول لأبى شافية في ضراعة : « شوف
بقي مفيش حد غيرك حيحل المشكل ده .. أنا تعبت خليك ذوق
بقي . كفاية .. أنا لسه ممكن انفع برضه .. ولا الصبيان
اما بيكبروا بينسوا ؟ » شوح أبو شافية : « يا عم سيبينا في
حالنا » . ثم يبدو أنه أشفق عليه اذ انبسطت ملامحه فجأة وقال
له كالمعتذر : « على العموم ربنا يسهل ياكحكوح » فصاح صاحبي :
« أمتي ؟ » قال أبو شافية : « فى أقرب فرصة .. سيبيها
بظروفها .. حامر عليها وأكلمها وأصالحك عليها .. اطمئن
وسيبنى بقي أشرب الحجريين فى أمان الله » . فرد صاحبي من

بين أسنانه : « اشرب شا الله تشرب آخر زادك » . فرغدهم أبو شافية
زغدة قوية عوى لها صاحبي ثم اتضح انه يمزح .

رغم أن الراحة هبطت على جسد صاحبي كحكوح وأحاطت
بكل أطرافه إلا أن بريقا مخيفا لمع في عينيه الضيقتين ، قال :
« تشكر يا عم كثر خيرك » . أنا وحدي الذي فهم سر هذه النظرة
في عينيه . نظرت في عيني أبي شافية فوجدت أن النية عنده قد
صدقت في القيام بمهمة الصلح بين صاحبي وصاحبتي بل قرأت
في صفحتي عينيه ما سوف يقوله لصاحبتي : كلمتين حلوتين عن
الغشرة والعيش والملح الذي لا ينبغي أن يهون إلا على الاخساء ..
فوجدتني أثار بشدة مركزا النظر في عيني أبي شافية مكشرا عن
انيابي كأنني انذره وأحذره من أشياء لا أعرف كنهها .

راح كلاهما يشخط في بعنف ويهوشني ويقذفني بالطوب .
رغم أن طوبة أبي شافية كانت أقوى وأصابني بالصدفة دماغى إلا
أن طوبة صاحبي على صفرها وخفة وقعها المتنى ، فأنقضضت على
صاحبي - ربما لأول مرة في حياتنا - وهوشته حتى بال من
الرعب على نفسه وكانت أسناني على وشك أن تقبض على منطقة
البول برمتها ، لكنه عاجلنى بضربة خوف حادة في بطنى فابتعدت
عنه وانطلقت أجرى بلا توقف حتى وجدتني أمام بيت صاحبتى
جالسا استكن من الألم .

باب الحرم لك

● هل أتاك حديث البتعة ؟

١

لرنتها البعيرة التي نسيت شكلها والطريق إليها ، صغيرة متاخمة لمدينة اقليلية كبيرة تقع على ضفاف النيل الأزرقى . مدينة يعرفها كحكوح وصاع فيها سنوات كما يقول دائما . أهلها يقولون : كلهم مراكبية وصيادين ومع ذلك ترى فيها شوارع للنحاسين والقرانين والقماشيق ، ومع ذلك فهي مشهورة أيضا بأن كل نسائها يشتغلن فى نفش صوف الاغنام ولذا قطعامهن مشوب دائما بخيوط الصوف .

تضحك « البتعة هانم » من هذه المزحة الثقيلة وتهز كتفها

فى لا مبالاة حيث تتذكر قريتها البعيدة • كانت أجمل بنت فى
القرية لا يعيبها سوى فقر والديها • الكل من كبير لصغير ومن
محترم لهزأة كان ينحنى بل ينذهل لجمالها مسبحا بحمد الخالق
العظيم ، مصليا على النبى بجميع الانعام والمشاعر ، لكنهم يا ألف
حسرة لا يحترمونها ، هم يعترفون به فحسب ولكن لا
يحترمونه لانه غير محترم ، يلبس ثيابا لا تستر عريا ، يهان فى
عمل وضيع • كانت - كما تحكى لمن لا يستحق أن يكون محل بث
للشجون - تندهش وينعقد لسانها من الدهشة حين ترى النظرات
الدنيئة الشرسة فى عيون العمد والمشايخ وتجار المواشى والفلاحين
والبقالين والطلبة بل وبالأخص الطلبة وكل من قابلتهم من الذكور
منذ تكور التفاح على صدرها وأحمر على خدودها - بدأت تكتشف
انها دون بنات القرية ونسائها مباحة لكافة النظرات • فى الخطوة
الواحدة أو اللحظة الواحدة تتسلقها النظرات وتعريها وتنتهك
كافة استارها • النظرات النهمة الشرسة القاسية تطاردها فى كل
مكان • ليتها كانت نظرات أعجاب واشتفاء فحسب اذن لتاهت
بها بين الأهل والخلان ، لكنها نظرات اتهام شديدة القسوة • كل
عين تنفرد بها تثقب نفسها بسنان حداد ولا تريد أن تتنازل مطلقا
عن يقينها واعتقادها بأنها عاهرة • • مجرد عاهرة • •

حتى امها ، هى الأخرى قذفتها بنفس الاتهام عشرات الآلاف
من المرات بسبب وبلا سبب • كانت دائما تصرخ فيها : « انتى
إيه الى فيكى يا بت • • انتى مش طبيعية أبدا يا بت • • بتتقصى
كلهم ليه • يا بت • • بت • • أنا حاقتلك وأشرب من دمك يا بت »
هى نفسها لم تكن تعرف انها اكتسبت حركات جديدة لم تكن فيها
وهى طفلة ، فمن كثرة ما صدت وزاغت من هجوم نذلى مفاجئ
ومن فرط ما استرحمت للعفو عنها ومن طول ما راوغت وتهربت
من حوارات لا ترغب فيها يجرها اليها ناس ممن تقابلهم أصبحت
بالفعل « مش على بعضها » ، عصبية ومتوترة على الدوام •

كان أبوها - كما تقول أمها وأهلها - قد مات في حرب الحاج
 محمد هتلر الذي قيل انه أسلم ووجب على مسلمي مصر أن يحاربوا
 في صفه . لا هي ولا أمها ولا أحد من أقاربها ولا حتى عمدة بلدها
 يعزف لماذا ولا كيف مات أبوها وهل لموته صلة بالحاج محمد بن
 عبد الله ، لكن أباهما كان في الجهادية مجتهدا أثناء ما كانت هي
 طفلة غريرة تصحو في المساء من ليالي متباعدة شاحبة على صوت
 يقبلها وأذرع تحتضنها وتقول لها : « بوسه لبابا قبل ما يسافر » .
 وكانت تسر غاية السرور من ذلك اللباس الأصفر الذي يرتديه
 وهو مسافر - آخر ما تذكره في طفولتها عن أبيها أن أمها كانت
 تبكي بين جمع من أهل القرية وهم يقولون لها في انشغال بال :
 « هتلر نفسه اختفى من على ظهر الأرض » ، وهكذا أعفت أمها
 نفسها من وقع الصدمة حين أدركت بينها وبين نفسها ان زوجها
 ليس أحسن من هتلر حتى تفجع لموته . .

بموت أبيها عادت البضاعة - أمها - الى أهلها ، أى الى خالها
 المتيسر ، لتصير هي وأمها خادمتين لأهل الدار . يوكل اليهما
 تلصيق الجلة وحلب الماشية وغسل الثياب وغسل القمح في الترعة
 وحمله الى ماكينة الطحين ، ناهيك عن الخبز والعليق وتوصيل
 الغداء للأنفار في الحقل وملء المياه من الترعة بالبلاص كل يوم في
 المصارى . .

على قدر ما أهيئت في كل هذه الأعمال والمشاغل التي وصلت
 الى حد السخرة تألقت وسطع جمالها وخب الألباب . زهقت وزهق
 خالها وأمها من تجريب الثياب المحتشمة دون جدوى ، لم يستطع

أى نوب فى الدنيا كما لم تستطع أى قوة منها أو من غيرها فى إن
توقف صدرها عن الاهتزاز النافر المواج أو تخفى حركة عجيزتها
التي تنحت لنفسها ظلا حاسما تحت أى ثياب . ولقد تركت وجهها
بلا غسيل وأهملت شعرها وتركت الكشف يتراكم على كعبيها ،
ومن فرط الفجيجة المستقرة فى عيون أهلها تجاهها كرهت أى
نظافة وأى ثياب وكرهت أن تكون جميلة فتركت نفسها جربوعة
وقذرة . لكنها لم تعد تعرف ان كان الخطر كامنا فى عينيها هى أم
فى عيون الآخرين ؟ انه شئ نارى كالقذيفة كاندلاع الضوء كاندفاع
السهم يدهمها بمجرد ما تقع عيناها على عين أى ذكر حتى لو كان
طفلا . جربت أن تكسر عيناها فلا تنظر الى أحد ، ولكن كل ذلك
لم يعفها من حكم أصدرته ضدها محكمة مجهولة وأبلغت به جميع
البشر يفيد بأن هذه البنت عاهرة ولا يمكن أن تكون الا عاهرة .

٤

كانت أمها لاتزال فى عز شبابها وكانت تتعشم فى عريس
يجى به المستقبل ولكنها لم تكن تحسب أن أمها أكبر وأقوى
منافس فى الوجود ، وهكذا كرهتها أمها وكرهت هى أمها ومع
ذلك لا جاءها العريس ولا جاء لأمها . ثم ان الجحيم بدأ يرتفع أواره
فى الدار بسببهما مما كلبؤتين شرستين ، والحال قد أصبح من
فرط ذلك فى عار مقيم ، وصار يتمنى زوالهما من الوجود بل صار
يصل على الأقل لزوالهما من وجهه هو .

سمى لتزويج البنت بفارغ الصبر وعلى أى وجه . ذلك أن
مجرد وجودهما فى منزله بات ينذر بالكوارث ، حيث تكرر صراخ
البنت وصياحها فى ساعات معينة من ليل أو نهار فلما يدركها
أجدهم على مضض يكون واثقا انها ستتهم أحد أولاد خالها أو ضيوفهم
بالتهمج عليها أو قرصها فى فخذه أو القبض على ثديها ، وكانت
هى من كثرة ما صاحت وصرخت واتهمت قد أصبحت مهياة لهجوم

حقبقى غادر يجهز عليها اعتمادا على كثرة ادعاءاتها ، فكثرة الادعاء تورث البطلان التام كما قال لها فقيه الكتاب ذات مرة . اما هي فقد بذلت مجهودا عنيفا في الدفاع عن نفسها ، عن ذلك الشيء الذي أن نجح أحدهم في خرقه واسالة دمه فقدت هي شرفها ومستقبلها . مع ذلك ظلت تحس رغم حمايتها لذلك الغشاء الحقيق الذي يلف البكارة انها لم تستطع أن تحمي شرفها من الانهيار اذ أن ثمة اعتقادا بين الجميع بما فيهم أمها بأنها غير شريفة .



حتى ذلك الذي تزوجها لم يستطع أن يخترق غشاء بكارتها لهزال أصاب أوصاله هي غير مسئولة عنه . نعلها كانت حملا ثقيل جدا يثقل نفسه . لعله انهزم قبل أن يصبح قيد خطوة من التهامها وحده . لعله تقزز من سمعتها . لعله خاف . لعله كان مريضا عينا . لكنها ظلت شهورا لا تستطيع رفع عينها الى أحد من أهل الدار أو من الضيوف .

هو كذلك - زوجها - لم يستطع . أهلها المبعجلون فسروا انكسار عينيها بالحياء لا من العجز ، وفسروا انكسار عينيها من الشعور بالاثم . كان العريس ولدا وكان طيبا جدا وكانت تحبه كل الحب لولا ضعف شخصيته الى حد الانعدام . كان وحيدا لأبوين فقيرين ، أولاد سوق ، يبيعون الخضار أحيانا . لكن مهنتهم الأساسية هي لم البيض ، فكان عليها من الشهر التالي للزواج أن تحمل السلة في ذراعها مثل أمه وأبيه ومثله تجوب حواري البلدة صائحة : « ياللى حداها بي ١٠٠ بيض » فتخرج اليها النساء بما حوشته من بيض دجاجهن لتشتريه منهن بالعقد الخمس بيضات بتعريفة خمس مليمات تدفعها من صرة معقودة في كفها ثم ترصه في السلة ، حتى اذا ما تجمع منه الكثير عبأوه في أقفاص كبيرة

وسرحوا به فى الأسواق يوردونه لتاجر كبير ولتعهدي مزارع
الدواجن ..

مهنة لم تحبها أبدا اذ عرضتها للمضايقات وهزات كرامتها على
نواصى الطرقات والحوارى وأمام الدكاكين . اكتسبت خلالها لغات
جديدة وقدرة على الشتم بقواميس البلطجية والسوقة ، جرت على
لسانها ألفاظ لا تعرف الحياء أو الأدب ، صارت تشخر وتفعل من
بذئ الحركات ما لا يخطر على البال دفاعا عن نفسها ضد المضايقات
التي باتت تتجسد لها فى كل شئ وفى كل خطوة ، وبجراة منقطعة
النظير كأنها صيد ثمين مستباح ..

٦

شئ واحد أحبته فى هذه الحياة اذا كان قادرا على تسليتها
وجذبها حيث لم يكن اختراع الراديو قد وصل بعد الى دار زوجها
« هريدى » ذلك هو الرباب الذى وجدته ملفوفا فى ثوب قديم
ومعلق على مسمار فى الحائط فى القاعة بجوار السرير الحديدى
العمدان والعساكر النحاسية ، تعرف ان السرير والدولاب اللذان
تجهزت بهما سبق أن تجهزت بهما أمه وتنازلت عنهما له كما تنازلت
عن الحلة النحاس والطشت الكبير وبقيّة الأواني .. أما هذا الرباب
فلا تعرف لمن هو فى الأصل ، ومن أوائل أيام الفرح لم يكن قد امتد
بينهما جبل سوى جبل الحديث عن هذا الرباب ..

أبوه كان يسرح به فى شبابه بين القرى والعزب فيضرب عليه
سيرة الهلالية وعنترة وحمزة البهلوان . فلما أصبح ذا تجارة تغنيه
عن كثير من اللف احتفظ بالرباب لم يفرط فيه أبدا ، فكل شئ فى
نظره قد يزول وينقرض الا نغم الرباب، نعم هكذا يعتقد أبوه ويقول
مرارا وتكرارا أن التجارة ورأسمالها قد يزول فجأة لسبب من الأسباب
فلا ينقذه سوى الرباب ، يستأنف حمله ويتشكل على الله ومطرح
ما يضرب الوتر يجيء الرزق مدرارا بلا شك ، أنه - والقول لأبيه -
لا يذكر أن انكسر خاطر النغم أبدا ، لم يحدث أن ارتد اليه النغم
كاسف البال دون مقابل .

لما كان الابن يرث فى العادة بعض مواهب أبيه فان « هريدى »
لم يرث من أبيه ذكورة ولا فحولة ولا صلابة يكافح بها الزمن ، انما
ورث عنه شيئا واحدا هو حبه للرباب وحب الضرب عليه فى الليالى
المقمرة فى وسط الدار .

الشيء الجميل الوحيد فى حياتنا خلال زيجة الأشهر القليلة
كان يتم لحظة أن ينغلق باب الدار بالسقطة وتجيء القمره عبر
السطح والسلم الطينى لتفترش وسط الدار والحصير والمساند
الصلبة ، حيث يكون أبوه وأمه قد أويا الى الفراش فى الغرفة المظلة
على الحارة ، ويبدأ « هريدى » فى الضرب على أوتار الرباب وأبوه
يحيه من داخل القاعة صائحا : « يا حلاوة يا حلاوة .. بس آه لو تقوم
تنام بقى ، لكن « هريدى » أبدا لا يحب أن ينام ، لا يحب أن
يفعل شيئا سوى السير فى دروب أوتار الرباب التى توصله الى كل
الغايات ..

انها وقد حرمت من تمام الدفء فى حضنه تحس كأن الرباب
حظن آخر يحتويها ويبعث فيها كل دفء وكل راحة . كان « هريدى »
يحدثها عن حلم غريب يحبه ومع ذلك لا يجروء على تنفيذه : أن يكون
له فرقة وبطانة تسنده وهو يغنى فى الموالد والأفراح والليالى الملاح ،
أن يكون صبيتا مثل أولئك الذين يستقدمونهم من بلاد أخرى
يلبسون القفاطين الشاهى ويمدحون النبی بنغم وصوت أعذبين ،
كى يحلم بذلك لولا أن أباه قد سعى بالفعل لدى بعض المسئولين لكى
ينزله خفيرا نظاميا يقبض راتبا شهريا وقد لا تقبل الحكومة أن
يشتغل خفيها صيتيا وقد لا تقبله خفيرا أصلا .

فى المرات القليلة التى استمعت فيها الى صوته يؤذن او يستغيث
للفجر أو لصلاة الجمعة استطاعت ان تعطيه الحق فى هذا الحلم .

لكنها أبدا لم تكن تشاركه نفس الحلم . لقد انسلخ كل منهما
فى فلك وحده من اول لحظة . لم تشعر انها تشاركه اى حلم . هى

صحيح تحبه ، اى لا تكرهه وانما تشعر تجاهه بحنى شديد يشعل الغضب نارا فى عروقها كلما تذكرته ، فيضعفه وفقدانه الرجولة حجب دم بكارتها عن الظهور فباتت فضيحتها مؤكدة وباتت اللسن تلوك سيرتها متسائلة كيف تأخر ظهور الدم البكر ، ثم تقادم الأمر فأيقن الكافه انه لم يكن فى الامر بكارة أصلا . منذ الشهر الأول وهى لم تستطع الاندماج فى البيت ، لم تذب فى محتوياته ، لم تتوزع اشيائها على دولاى وادراج واماكن فى الغرفة . انما كان لها دائما صرتها الخاصة التى تحتوى على أشياء تخصها : خلخال فضى تمردت قدماها عليه ، مكحلة ، زجاجة ريحة اهديت لها من ولد تلميذ ، قسيمة الزواج الذى لم تحبه ، فرع من الكهرمان الأصفر تنازلت عنه أمها لها ، خاتم فضى رخيص اشترته من المدينة المجاورة فى أحد موالدها ، قميص نوع شفتشى يكشف عن أسرار الجسد اشترته لها حماتها فلما لبسته ليلة الدخلة شعرت بالفضيحة الهائلة وتحملت الشعور بالعرى ومع ذلك لم يحدث شئ يستكن له البدن فنبذته ولكن لا تعرف لماذا ادخرته بين أشيائها .

هذه وأشياء أخرى تافهة وغريبة هى كل متاعها . اما الصرة فكانت فى الأصل نصف زنبيل يستخدمه حموها فى سرحاته بالرباب وكانت لا تزال نظيفة متينة فيها خروم مبطنة بالمعدن وحبال متينة . لقد وضعتها بكل هذه الأشياء فى قاع الدولاى .

٧

لم تكن تحس انها تنوى أمرا ، بل لم يكن يخطر على بالها . لكنها كانت سباقا دائما الى مشاوير الأسواق . يوم السوق تصحوا له قبل الفجر ويدب فيها نشاط وتفتح كل منافذ خيالها وتضحك فى تودد واضطراب ولهات .

ينفتح السوق أمامها عالما واسعا يؤكد لها أن الدنيا واسعة والبشر أكثر بكثير مما تصورت . وكانت دائما تكتشف أن صرتها

الخصوصية جاءت معها صدفة مخفأة في الأقفاس ، وهي التي تخفيها جيدا كأنما تخشى عليها من أهل الدار . أجمل سوق هو سوق المدينة المجاورة . وجوه لا تعرفها لا تعبأ بها لا تنظر إليها لا تعريها لا تتهمها بالعهر ظلما وعدوانا ، كل في حاله ان انتبه اليها أحدهم ونظر في عينيها صدفة انبثق في عينيه الشعور بالفرح والابتهاج ، وما أكثر ما شعرت في النظرات من شبق ورغبة ، وما أكثر ما شعرت فيها من حب ومن اشفاق ومن حسد ومن براءة لكنها لا تحس فيها أبدا بالالاتهام ، نادرة هي نظرات الاتهام التي صادفتها في عيون المدينة وان حدثت فهي نظرة شك أو جرأة عابرة لاذعة لطيفة حلوة .

الى أن دهمتها نظرة الاتهام ذات يوم في المدينة ، فلما استبدت بها الدهشة والصدمة أفاقت على أن تلك الأنظرة لم تكن من المدينة بل من قرينتها هي . كان ولدا تلميذا يصرف عليه اهله في مدارس المدينة . تعرفه جيدا كما تعرف أباه . هو ابن أحد الأعيان الموسرين وولد تملأه العجرفة والكبر بشكل فاق كل أفراد عائلته المشهورة بالكبر والعجرفة والقسوة . تجار حبوب وماشية وبذور من سنوات بعيدة . ابنهم هذا يقولون انه واصل الى التعليم العالي وسيصبح لا تدري ماذا ؟ وأهل البلدة يتملقونه كلما رأوه يعطونه لقب البيك والاستاذ والباشمهندس ويدعون له بمزيد من النجاح وهو يتقمط بالبذلة والطربوش ويكاد ينفجر من النفخة والكبر . هذا الولد بالذات كثيرا ما عاكسها وهي تملأ البلاص من الترفة أو تفسل القمح على الموردة ، بل كان يتعقبها ويتلفظ في أعقابها بألفاظ جارحة سمجة ويعرض عليها الغرام الفاسق مقابل فلوس وعطايا يعدها بها ، فكان يشعل النار في جوفها ، ولولا خوفها من أهله ومن مركزه لضربته بالصرمة وبصقت في وجهه ..

زوجها الأهلل يوافق دائما على ارسالها الى دار هذا الولد لتمطيعهم بيضا أو تشتري منهم حبويا . هي تخشى دائما أن تقول :

لا: اذ هم سيقولون لها : لماذا ؟ فان قالت : لأن ابنهم يعاكسنى
ويضايقنى ، سيقولون لها : كدابة . انه ولد مؤدب وعلى خلق
ومصروف عليه فى المدارس فهل ينزل بمستواه اليك أنت
يا جربوعة ؟ ابن المدارس يعاكسك أنت أم يعاكس الهوانم من
زميلاته ؟ انت أصبحت مريضة بالمعاكسة ، . وهكذا تضطر الى
الذهاب وأمرها الى الله ولكنها لن تتركه يتمادى فى قلة حياته . هو
فعلا والحق يقال طيب الأخلاق لا يرفع وجهه فى السماء ولا يعلو صوته
على من هو أكبر منه ، ويصلى الفرض بفرضه ، ودون أبناء الأغنياء
يمشى فى اتزان واستقامة وأدب . وينجح على الدوام والجميع يحلفون
بأدبه وأخلاقه . لكنه هكذا فى الظاهر فحسب . أما فى السر فهو
ابليس ، مخيف ، لم تصادف جرأته فى أحد ، يفعل أفعالا يخجل
من فعلها أكبر قليل أدب فى الدنيا ، مرة لم يكن فى الدار سواء
وقال انه سوف يكيل لها القمح أو الذرة الذى تريد ، دخل بها
المخزن يرفل فى أدب جم ، فما أن انفرد بها فى المخزن حتى شمر
ثوبه وأمسك بيدها ووضعها فوق عضوه ، فشدت نفسها مذعورة
وخرجت صائحة ، فلما خرجت أمه من داخل الدار وجدتها تنتفض
أمام المخزن باكية فى حين كان ابنها بكل أدب يكيل الذرة كأن شيئا
لم يكن ، فسلفتها الأم بنظرة ونبتت عليها بعدم المجيء ثانية .

غير أنها دائما كانت تضطر الى المجيء . فاذا كان المجيء يعرضها
للفضيحة فعدم المجيء يعرضها للفضيحة أكثر . مرة ثانية مشى
وراءها ينظر حواليه كلكس ، كانت سارحة بالفداء للأنفاس وظل
يلاحقها حتى اذا ما وجد الفضاء خال من كل ظلال حاذاها وتحسس
مؤخرتها ، فاهتز جسدها كله وكادت تقع بالفداء فانبرى لسانها
يشيع الشتائم الحائقة والبكاء الحارق المر . .



هذا الولد المؤدب الأخلاق المعلوم الحياء فى نفس الوقت ، يسكن

فى المدينة حيث يتعلم • يكترى له أبوه شقة فى الدور الأرضى
 بشبابيك على الشارع ليتسنى له مراقبته من بعيد بمفاجأة • تقيم
 معه لتخدمه وترعاه أم أمه وهى عجوز مشدودة الحيل • كثيرون من
 أهل القرية يتفاخرون حين يتقابلون فى سوق المدينة بأنهم يعرفون
 سكن الأستاذ مختار أو مختار بيه • هل كان اسمه مختار حقا ؟
 الواقع انها لا تذكر ، ولكن لماذا مختار بالذات هو الاسم الذى يقفز
 الى ذهنها كلما تذكرت هذا الولد ؟ حتى ملامحه لم تعد تذكرها بل
 انها لم تعد تتذكرها فى يوم من الأيام ربما لأنها كانت دائما تخشى
 النظر فيها ولا تحب رؤيتها • كل ما تذكره منها ومن شخصه
 أنف مسحوب وعينين فيهما نظرة ميتة لا تعبر عن شيء • حتى أبوه
 عمرها ما عرفت اسمه الحقيقى على التحديد أكثر من أنه الحاج •
 عائلته هى الأخرى كانت أعزب عائلة • لها أسماء عديدة •
 رجال كثيرون لهم دور وغيطان فى البلدة ومن حبههم فى « المهيسة »
 ينسبون أنفسهم الى كثير من العائلات •

٦

لا تدري ان كان ذلك من تدبير أحد أم أنه قدرها الاسود على
 الدوام • يقام فى المدينة واحد من أكبر الموالد فى البلاد • يؤمه
 أشكال وألوان من الناس والطرق الصوفية والملاهى • شهر بأكمله
 تقريبا تتحول المدينة فيه الى نهر يتدفق بالبشر والتجارة والملاهى ،
 يصل كل شيء الى ذروته فى أسبوع الليلة الكبيرة •

حين أخبرها زوجها « هريدى » انها سيذهبان هذا العام الى
 مولد سيدى « اسماعيل البسيقى » كادت تطير من الفرح ، وكانت
 تعرف انها لو لم تكن عروسا جديدة لما اصططحها معه فى هذا
 المشوار ..

أعدت العدة من عيش وقرص وجبن قديم يكفيهما لبضعة أيام •

فى قعر القفه وضعت - كالعاده - صرتها التى تحوى أشياءها
الخاصة . عند ركوبهما القطار وسط رهط كبير من أبناء بلدتهم
تفاخر زوجها « هريدى » قائلا أن الباشمهندس قد نبه عليه بضرورة
أن يزوره اذا نزل المدينة فى المولد لكى يبيت عنده بدلا من المبيت
فى صحن الجامع . ارتجف صدرها وقالت لنفسها انها سوف لن تمكن
هذا الولد الأفندى منها ، انها لاتزال بكرا ، ومادام زوجها قد عاف
بكراتها فهى لا يصح أن تقدمها لأحد لا تحبه ، نعم لن تسلمها
لمغتصب ، لا ولا لواحد ممن يتهمونها ويعتبرونها عاهرة . . حتى
لو أصبحت عاهرة فهى لا تطيق العهر مع واحد من هؤلاء . .

كيف لم تنتبه الى أن « هريدى » قد أحضر معه الرباب ؟ كيف
غاب عن بالها ذلك رغم أنها كانت تحملها معها فى القفة طوال
الطريق . . ما أن نزلا شقة الباشمهندس - الذى رحب بهما ترحيبا
هائلا دهشت له جدته أيا دهشة - حتى فرطوا برام الارز وتعمشوا
معا ثم نهض « هريدى » ساحبا الرباب وقفزت هى فى أثره لا تلوى
على شئ .

ابتلعهما الزحام الكثيف الدافىء الساذج الجميل . بعد زنقات
لا حصر لها وعثرات عرف جسدها خلالها عينات من الأحضان فيها
الحياة الحقة لمجرد اللمس فما بالها بالارتواء فيها ، ونادت عليه ونادى
عليها عدة مرات . ثم أن حائطا من الكتل البشرية زحف بينهما
وظلت دوامات الحركة تطيح بكل منهما فى اتجاه حتى اختفى كل
منهما عن الآخر تماما . غير أن نفس الدوامات عادت بعد جهود مضنية
فجمعت بينهما فى ميدان الجامع حيث تصطف على جميع الجهات
سرادقات مزخرفة بالأضواء الملونة على واجهاتها ميكروفونات ولوحات
تحمل صوراً للنساء جميلات بل حوريات يبتسمن فى سعادة نصف
عاريات ، صنوف من صورهن ومثلها لرجال حليقي الذقون مصففي
الشعور فى أناقة تطفح البراءة من وجوههم ، أسماؤهم - هذه الكتابة
لا شك - تسطع حولها كوكبة من الأضواء ، الميكروفونات لاتنى تردد

أسماءهم وتعد المتفرجين بالخير والنعيم كله مع الراقصة اللولبية
محاسن فؤاد ومطربة كل الأقطار سلمى البرانية والمونولوجست
العالية فسفوسة ونجم الحفلات شاكر الطنطاوى وابن النكتة خفيف
الدم والروح عشاوى والثنائى الصعيدى صفوان وبخيتة وأشياء
وأشياء ودنيا أخرى لم تكن تعرف انها موجودة فوق هذه الأرض من
قبل .

يزحف بها صف الصور من سرادق الى سرادق وتستعيدها
الميكروفونات الى حيث كانت ، ترى الناس من فرح ومن بهجة يقطعون
تذاكر من شخص واقف بالباب ثم يدخلون الى حيث توجد صفوف
من الدكك متجاورة ، وفي الصدارة مسرح خشبي كبير . أحست
بأن أبوابا حديدية قد انفتحت أمامها على الدنيا . ظلت حائرة فى
دوامة الأضواء فى ميدان المسجد حتى رأت جمعا كبيرا يأخذ فى
التزايد وتتصاعد منه صيحات الابتهاج زاعقة مدوية . زحفت
نحوه مستثارة . دفنت نفسها بين الزحام ، وقبل أن تنجح فى
اختراقه تنهى الى سماعها صوت الربابة ، حزينا ناطقا بأصوات
يقشعر منها البدن ويقف شعر الرأس ، فى أعقابها صوت
« هريدى » . . . يقطعك يا هريدى هل انت موهوب الى هذا الحد ؟
هل أنت فى صنعتك فاجر كل هذا الفجر ؟ . .

اخترقت بقية الزحام فى عنف شديد بعد أن اعتقلتها دوائر
كثيرة عامدة . كادت ترتدى عليه صائحة فى مرج : « يقطعك
يا هريدى دانت بمب خالص ياوله » . لكن جسورا متطوعة من
الزحام حالت بينها وبينه فى جد وصرامة حيث وسعت له دائرة
صغيرة تائق هو فى وسطها فلم تجد مفرا من الوقوف والانصات
مثلهم . حاولت ارسال عينيها الى عيني هريدى ، وخبطت الأرض
بقدميها صائحة كما يصيحون فى اعجاب وتأثر : « ياسلام . .
ياسيدى ياسيدى كمان والنبي كمان » ، وهو ينبرى بصوت بربرى

رائق شجى لاذع : الله الله يابدوى • فيردون جميعا وفي نفس واحد ملتئم ساخن : « جاب اليسرا » • لحظتها لم تكن تعرف هل هي في مولد البدوى أم الدسوقي أم القناوى أم المرسى ، انما هي تحاول رفع صوتها فوق صوت المجموع لكى يتميزه فيرفع عينيه الى عينيه • وهو منفصل عن الوجود كله ، مسبل العينين ذابت ملامحه في صوته في حركة ذراعيه في يديه في أصابعه في صوت الرباب ، والقوس فرس يتقاذز راقصا فوق الرباب ••

من أين جئت بكل هذه الموهبة بكل هذه الأدوار ياهرىدى ؟ آه كم تحبك ياهرىدى • هل كنت ياهرىدى فاقد الرجولة أم أن رجولتك عافت جمالها المبتذل ؟ • كانت هذه هي الشوكة هي السكين المنغرس في قلبها لحظتها • فجأة توقف هريدى والعرق يتدفق منه فيما هو يبتسم في سعادة لا حد لها • ثم ان الدائرة تكسرت باقتراب ناس وجهاء يصيحون : « لابد له من الراحة •• ولابد من العشاء ليسند قلبه •• اننا بشر •• قم بنا ياشيخ العرب لتأكل لقمة وتستريح وتشبعنا قولا وانشادا » ثم ارتفعت أصوات عالية : « عندى •• بل عندى أنا •• لا عندك ولا عنده •• عند فلان •• لا والله •• وهكذا تبارزت الأصوات والأيمان المغلظة حتى تقدم الأقوى فحوط كتف هريدى واختطفه اختطافا كريما مهذبا سلم به الجميع في أريحية وتبعوه وهريدى يبتعد عن ناظريها في تواضع وقد كبر حجمه كثيرا جدا • لم تفق الا وهى تصيح من فزع ومن لوعة : « استنى ياهرىدى » ، ولكنها تعثرت في أقدام ومجموع غاشمة •

١١

هل سمعها هريدى وتجاهل صوتها ؟ هل كانت راغبة في أن يتجاهل وجودها ؟ أن يلقي بها في بئر العدم ؟ ماهى واقعة منه انها لم تفكر في الهرب أبدا • انما ظلت تبكى لساعات طويلة فيما هي تذرع الشوارع والساحات والميادين باحثة بين كل مجموع عن هريدى ، فلم تسمع للرباب صوتا • قادتها قدماها الى السراقات

من جديد وراحت تعاود الفرجة عليها الى أن فوجئت بمفاجأة مذهلة ، حيث كانت واقفة أمام برواز بجوار باب السرادق تتأمل في وجه شاب حلو التقاطيع غزير الشارب ملفوف الشعر من الجنب الأيمن أحمر الحدود كابن ناس أصيل ، يطل من عينيه ومن ملامحه ذكاء وخفة دم . وكانت قد أطالت التأمل في الصورة وما أن رفعت وجهها عنها واستأنفت السير حتى فوجئت بنفس الصورة واقفة بجوارها بلحمها ودمها . فارتعدت وظلت تقارن بين الوجه والصورة لتتأكد في كل لحظة أن الأصل أحلى من الصورة بكثير ..

سألته في انبهار : « انت .. انت ؟ » ضحك في صفاء قائلا : « نعم . أنا وأشار الى البرواز - أنا - وأشار الى نفسه » . قالت « تغنى ؟ » . ولحظتها أيقنت أنه قد وقع غريبا في عينها الى الأبد . قال وهو يذوب رقة : باغنى حلو قوى .. غنا شعبي يمجبك . وكان يرتعش كأنه يخاطب أحد الحكام . قال : « لازم تتفرجى على » قالت « ممعيش فلوس » أضاء وجهه وصاح : « على حسابى .. تعالى » وبرفق شديد سحبها من يدها بقبضة واهية مرتعشة . عند قاطع التذاكر وقف وقال له : « ادخل الأنسة على حسابى » . أعجبته كلمة الأنسة ..

عالم جديد جميل ساحر . « النمر » تتوالى والبهجة تعم الجميع والاعجاب يستبد بهم فيصفقون ويصيحون صيحات فرح . كل من غنى أطربها ونش بين مشاعرها بأعواد رقيقة لذينة . الراقصات أخذن بلبها . طول عمرها لم تر راقصة . تذكر أنها رأت « الغازية » تجوب القرى فوق حمار هزيل وتحتها خرج ومعها طبلجى وزمار وضارب رق ، فى العادة تكون عجوزا تلبس فستانا مهلهلا من جوانبه ، لتتمايل فى رقاعة تكشف عن سيقان خشبية تحتاج لسنفرة ، ويطن ضامرة ، وصدر أعجف ، ترتدى على أى رجال يجلسون ، ما أن ترى جمعا أمام دكان أو على مصطبة حتى توقف حمارها وتنزل وينبرى الزمار والطبال والرقاق عزفا ، فيفيق الجميع

على نفسه وقد اندمج فجأة في ايقاع راقص بهيج بصرف النظر عن
الطرباء التي تتلوى وسطهم ، لديها حاسة التقاط الرجل عامر الجيب
بين الجالسين لتركز عليه وحده في ضرب جسده بصدرها أو
عجيزتها ، فينبعج هو ويلصق على جبهتها أو على بطنها ورقة مالية
صغيرة أما بقية الجالسين فمن ملهم وطالع وقد تجمع بدل النقود
كيزان الذرة ، حفنة القمح والارز ، والبصل ، ثم تشرع في الانصراف
مستحثة حمارها بخيرزانة صغيرة قائلة بعهر عجوز سمج : « حا ،
ولهذا يسخرون في بلدتها من الرجال الخرعين حين يضربون أبناءهم
برقة فيقولون : « فلان هذا لا يربى ابنه جيدا » . بل يضربه ضرب
الغازية لحمارها ، الغازية أيضا كانت في العادة بلا حياة لكنه عدم
حياة يقبل عادة من العجائز المتبرجات ، تهتز وتتملق الجلوس مخنية
بصوت أعجف قبيح : « ومحفظته قد كده » وتشير بيديها محددة
حجم المحفظة ، أو : و « . . . » وتذكر عضوا من أعضائه الواجب
سترها - قد كده - وتشير بذراعها محددة حجم هذا العضو المحترم .
أما هذه التي تراها الآن تتشخلع على المنصة العالية فهي شيء جميل
كل الجمال ، جسد حلو التقاطيع تنثال عليه صفوف الترتير اللامعة
كانها ترتدى جلد ثعبان بديع ، الرعشة والدفقة والحركة شيء يضير
منه اللب ، أنهار من الفرح تتدفق في صدرها وفي كل كيانها ،
لكأنها هي التي تقوم بكل هذه الحركات البديعة وكل هذه الجماهير
تتفرج عليها هي وتعجب كل هذا الإعجاب ، تلعب هكذا بالصاجات ،
كان كل هذه الأنغام والابقاعات تنبعث من حركات جسدها وحده ،
يالها وهي تنهال راقصة رقصة الحتام اذ تصير كالبطة تنفخ جناحيها
بعد هبوط ذكر البط عنها ، ان لرقصتها هذه لرائحة تنعشها وتؤكد
لها انها قبل هذه اللحظة لم تكن تحيا ولم تكن تعرف بشرا
ولا ناسا . .

ثم ان الصدور هبطت باختفاء الراقصة وأعلن الميكروفون أن
النمرة القادمة يؤديها مطرب الراديو والاسطوانات ونجم الأفراح لدى
الأسر الكريمة « عتتر كبايه » ضحككت ضحكة مسرعة بسبب طرافة

الاسم ، حتى ضحك الجميع لضحكها ، فأعجبها ذلك فاستطردت :
 معلقة . : « كباية ولا كوز » فانفجرت عواصف الضحك من صدور
 صافية وقلوب رائقة . أحست بنشوة خارقة كالنشوة التي أحست
 بها لحظة تصورت نفسها مكان الراقصة البديعة . انفرج الستار عن
 فرقة موسيقية أكثر اتزاناً وبها عدد كبير من أفندية محترمين
 يسكرون آلات ذات شبه كبير بالربابة . ثم ان الأنغام تنائرت
 شاردة ثم تجمعت والتأمت ثم دخلت الطبلية ومن خلفها الرق في
 ضرب ساحر خلفه أنغاماً تستقيم وتتداخل وتصعد الى ذرى الانفعال
 وتهبط الى مهاد النشوة البالغة . ثم ان بصرها الملتاث توقف عند
 شاب يقف في خجل جميل وأناق فاذاً به الشاب الذي عزمها على
 الفرقة وأحبته .

رأته عند الباب يبعث البصر في كل اتجاه باحثاً عنها ، لكنها
 اغرقت نفسها في الزحام خوف الوقوع في الفتنة . لكن الزحام
 نفسه كان الفتنة بعينها ومع ذلك تحبه ، لقد صارت تحب الغزل
 الجماعي بنوع خاص ، فهو عادة غزل مهذب يجتمع على كلمة ذات
 أوجه متعددة ، غزل الجماهير وسع من ادراكها لجمالها ، بفضل الغزل
 الجماعي عرفت عبقرية جمالها وعرفت في المقابل أن الخشية كلها من
 الغزل الانفرادي اذ هو ينضج بوساخة النفس وسوء نيتها . .

غير انها في نهاية المساء أو مع تباشير الصباح واجهتها حيرة
 فادحة اذ أحست بضرورة أن تعود الى مكان تريح فيه جسدها وتؤكد
 من جديد أن لها أهلاً وناساً . وجدت نفسها سائرة الى شقة . .
 فليكن اسمه مختار بيبك طالما أن هذا الاسم هو العالق بذهنها . .

١٢

كان واقفاً في الشباك يتلصص فعرفت انه في انتظارها وأحست
 أن هريدى لم يعد . مع ذلك طرقت باب الشقة فانفتح في الحال
 قبل انتهاء الطريقة . قالت : « تصبح بالخير . . هريدى وصل ؟ » .
 قال وعلى شفثيه ابتسامة لزجة : « وصل - اتفضل » . دخلت
 فأغلق الباب في هدوء . . تحركت في الشقة وجلة حيرى . أشار

لها الى الحجرة الداخلية فاتجهت نحوها وهو خلفها . قال : « ادخلي » ، فدخلت فلم تجد سوى الفراغ فارتدت مستديرة فاذا به يسد الباب في وجهها ويدفعها الى الداخل ، ثم ارتسى على صدرها كالخرقة كمسحة البلاط تشر ماذا قدرا : « عشان خاطرى أنا فى عرضك اعملى معروف أبوس رجلك » ولا فائدة . لهاته يفيض بريالة وعرق ذى رائحة كريهة ، وهى بكل قوتها تدفعه كل دفعة ودفعة كأنها تقذف بكرة من المطاط ، يرتد عائدا اليها مهيض الجناح بحركات أكثر جراءة ونذالة كأنه يرحب بالمهانة مقابل أن يمسك ثديها بقبضة عنيفة لبرهة أو يتحسس مؤخرتها . شعرت بغاية القرف كأنه حشرة البق تصر على السرحان داخل الجسد . أصرت على ألا تستسلم له . ضربته بالكف على وجهه . هددته بالصراخ وطلب الحكومة . لشدة عجبها لم يفعل بل نظر اليها قائلا فى قوة زائفة : « طب امشى بره مع ألف داهيه » ، ثم أشار لها الى الباب فتقدمت تفتح به بحدز فاذا به يطوقها من الخلف بقوة شديدة كالجنازير الحديدية كالقبر ، وكان قد استقر تماما فى قناة ظهرها فصارت بكل تقزز تنتفض صائحة وهو يرتفع وينخفض معها كجرادة علقت بها لا تبغى انفصالا ، ثم اذا به يذوب ينثال فوق الأرض تاركا فوقها لزوجته القدرة . فاستدارت اليه كلبوة شرسة فصارت تبصق فى وجهه وتضربه بقدميها ويديها وهو يدافع عن نفسه كحيوان أليف . هبت الجدة مذعورة تجرى وأخذت تحاول إبعادها عنه بكل قوتها الواهنة ، فضربتها هى الأخرى ودفعتها بغيظ حاقده فوقعت فوق ابن بنتها . فما أن اعتدلت وتماسكت حتى بصقت فى وجهه ورفسته بقدمها فى اشمئزاز ، ثم دفعت بها الى الحلاء لاعنة أباهما والذين خلفوها .

عادت من جديد الى ساحة السراقات وموطن الاحتفال بالمولد فما وجدت سوى جموع الفلاحين تمشى كالبهائم مبهورة مذهولة تصيح فى لغو غير مفهوم ، يختلسون اليها نظرات فيها شتائم واتهامات وقلة حياء . وكانت تحس أنها تكزهم ولا تطيقهم .

لكنها كانت تبحث بينهم عن هريدى . سألت عنه فى مطرح الأمس :
الجدع بتاع الربابة ده - الى كان بيغنى هنا ليلة امبارح .. تعرفوش
راح فىن مع مين ؟ ..

على ان كل الذين سألتهم شيوخا كانوا أم شبانا تركوا مهمة
الاجابة عن سؤالها وراحوا يتفرسون جمالها وينبهرون ويكشفون
عن نواياهم السيئة . قابلها ناس من أهل قريتها تعرف بعضهم
ويعرفونها وتعرف بعضهم ولا يعرفونها والجميع عاكسوها كأنها
غريبة عنهم وتأمروا على اصطياها كغريسة شاردة وحدها ..

تفتقت مشاعرها عن حيلة ذكية مأكرة نفذتها فى الحال ، دخلت
الجامع واندست بين النساء العجائز واستغرقت فى نوم هنىء رغم
الضجيج الهائل . فلما استيقظت التف حولها بعض العجائز العليات
وسألنها عما بها فقالت لاشء فقلن لا فقالت ماذا رأيتم ؟ فقلن فتاة
مسكينة منطرحة تهذى طوال يومين بلبيلتين فهبت مذعورة فأمسكتها
وقلن اسمعى تعملى فأين تذهبين ؟ قالت أنها تذهب لزوجها
هريدى . قالوا هو زوجك اذن ؟ ولكن ماذا فعله بك ذلك المدعو
بالباشمهندس وما دخل البوليس وحضرة الضابط عنتر كبايه ؟ ..

ضربت صدرها بكفها : « يا خرابى .. بوليس .. عنتر ..
دى خطرقة جامده قوى » . قلن نعم هى خطرقة لا شك ولكن فى
الأمر ضابط اسمه عنتر كبايه تريدينه أن ينتشلك من قبضة نذل
يدعى الباشمهندس البيك .. قالت فما كنت أقول عن هريدى ؟
قلن كنت تنادين عليه فحسب والظاهر انه لم يكن يسمع . لم تجد
مفرا من أن تحكى لهن ما قد حدث على وجه الدقة والتفصيل ،
فمصصن شفاههن فى اشفاق شديد فيه الامومة الحقة . الا أن ما هز
قلبها بقرصة جادة هو أن بعض هذه العجائز كن رغم أمومتهم وحبهن
الشديد لها يخفين خلف نظراتهن خبثا عميقا يتهمنها بأنها لابد هى
السبب فيما حدث ولا بد انها تمشى بالاغواء بين البشر ، فعادت
وكرهتهن بعد أن كانت قد أحبتهن .

عندما نهضت واقفة لتسأل عن هريدى أوقفنها ثانية وقلن لها
إذا لم تجدينه فعودى إلينا لتحرسك عناية الله وعنايتنا . فقالت
لهن انها طبعا سوف تجي . . لكنها كانت قد قررت ألا تعود اليهن
مهما كان الأمر .

١٤

عند خروجها من الجامع واشرافها على ساحة السراقات خيل
إليها انها تخرج من جب عميق وأنها كانت قد ماتت سنوات طويلة ،
الصور تستيقظ فى دماغها شيئا فشيئا وببطء شديد . كل شيء
تراه كأنها تراه على حق هذه المرة اذ تراه فى صفاء .

كان الليل لا يرال وليدا فخطفت الطريق الى بيت الشؤم
تسأل عن هريدى هل جاء أم لم يجي . أصلا . كانت الشقة لا تزال
مضادة كلها والشبابيك مفتوحة وأصوات قرعتها كلها تخرج منها .
بصوتها الناعم الذى يزجرونها بسببه دائما ويقولون انه عورة ،
نادت : يا جماعة ياللى هنا . فأطل لها هذه المرة رأس غليظ تعرفه
هو رأس الحاج والد الباشمهندس . ما ان وقع بصره على وجهها
حتى اكفهر واربتت ملامحه وصاح فى قسوة مريرة : « هو انتى ؟ »
عايزه ايه يابت . . جايه هنا ليه يابنت الفرطوس . . انتى حطيتى
عينيك م الولد ولا ايه ؟ . . لا . . دانا اسجنك واخلى سنة أبوكى
سودة وزى القطران .

بصوتها ذاك وقد بكت بحرقة خرجت الكلمات منه بصعوبة :
انا جايه أسأل على جوزى هريدى . . فرد بجميره الذى تشتهر به
أسرته : « جوزك حييجى هنا ليه يا صايحه يا بنت الكلب . . امشى
انجرى . . اياك أشوف وشك هنا تانى . . وانت يا ابن الكلب تعالى
هنا - ثم جر ابنه - تعرف البنت الصايحه دى ؟ أيه اللى خلا جوزها
بيجى هنا ، ثم انهال عليه ضربا بالأكف والشلاليت حتى أوشك أن
يقتله . الطريف انها صوتت ونسبت ما لحقها ، فلما التم قالت
باكية : « حوشوا الراجل حيقتل ابنه - المجنون ، . .

فنظروا اليها ساخرين وأغلقوا الأبواب . وارتدت هي الى
ساحة المولد تدفن في زحامها دموعها . وأحزانها التي بلا نهاية .

١٥

ظلت تسير في الساحة رائحة غادية ووجوه الناس والشوارع
والليل كل ذلك يزداد شحوبا . أبدا لا يريد هريدى ان يخرج من
ماقيها فهو في دماغها وقلبها وهو الضوء والظل وهو الباب والحائط ،
لقد خلصها على الأقل من شراسة أعدى أعدائها - أمها ، كذلك
خلصها من وجه خالها المكفهر على اللوام ، ومن صفاقة أبناء خالها
صبيانا وبنات . .

في السراى سالت عن « عنتر كبايه » الذى هشر لها وفتح
ذراعيه فى سعادة كبيرة حانيه . وكان شيئا فى ذراعيه المفتوحتين
أرغمها على الارتواء فى صدره فطوقها وربت على كتفها فكانها تحس
بدبيب الحياة فى أوصالها لأول مرة ، ووجدت نفسها تبكى ، ووجدت
فى قربه راحة كبيرة . اذ وجدت فى نهاية الأمر من يقول لها
بصدق : « مالك » . أخيرا وجدت من اذا نظرت فى عينيه لا تجد
طمعا ، لا تجد تلك النظرة الحيوانية المتنكرة ، فلما شرعت تحكى
قال لها : « مش وقته » ، ثم أجلسها فى مكان جميل .

تفرجت وأبتهجت وفرحت كأنها نسيت كل ما كان من أمرها ،
أحسنت كان ماضيها كله قد سقط فى بئر مظلم وكأنها بنت اللحظة .
أى رجولة تلك التى أظهرها عنتر كبايه فى تلك الليلة ؟ لم يفعل
شيئا مما خطر على بالها ، كل ما لم تكن تتوقعه فعلة ، فى جدية
شديدة سلم على زملائه واصطحبها وانصرف خلسة . جرى بها الى
محطة القطار وركب بها سيارة أجرة الى العاصمة فى الطريق حكى
له كل شئ عن قصتها مع خالها وأهل قريتها ، لكنها - المكاره -
لم تقل له انها تزوجت ، بل لم تقل له اسمها الحقيقى ، أما عن
الزواج فانها بالفعل لم تتزوج وان شئت فاكشف على وقد صدقت

فى ذلك بشكل ما ، ولكن بأى جراءة قالت له ان اسمها : « البتعة » .
 البتعة محمود الحليلي ، « تضحك فى شعور بالرهبة كلما تذكرت
 ذلك ، كلما تذكرت نفسها وهى تجاهد لتنسى اسمها الحقيقى ،
 لتتنسى : « بسيمه أحمد ربيع » ، تشعر بالرهبة كلما تذكرت عنتر
 كباية وهو يجرى من مكتب الى مكتب ومن قسم الى قسم يقابل
 ويرطل جنسءاء من أجل تستينها وعمل بطاقة شخصية لها على
 أساس انهم ناس يقضون عمرهم فى سفر بعيد لآحياء الحفلات
 والأفراح وهم أحوج الناس الى البطاقة الشخصية . حتى الآن
 لا تدرى كيف تمكنت من نسيان اسمها الأصيل والتعلق باسمها
 الجديد كأنها ولدت به ، غير أنها لا تنسى مطلقاً لحظة جلوسها أمام
 المأذون للمرة الثانية حيث ناداها باسمها الجديد ودونه فى القسيمة
 ودون بجواره أنها قد وهبت نفسها لعنتر كباية على سة الله
 ورسوله .

١٦

شقة جميلة واسعة يسكنها فوق جبل الحواشى وبجذاء ، مقابر
 كثيفة . كانت جثث الموتى تدفن فى البيوت المجاورة باعتبارها
 أحواش معدة للدفن . كان ذلك يصيبها بكثير من الانقباض فى أول
 الأمر ، لكنها بين جثث الموتى تعلمت كيف تدب الحياة فى جسدها
 كأنشط وأنقى ما تكون ، كيف تتخاطب كل عضلة فى جسدها مع
 الرائي . أكثر من هذا تعرت على كبار المهربين والأشقياء والعظماء
 والوجهاء . .

كان عنتر كباية يعرض عليها جرائد ومجلات كثيرة كل يوم
 ويقول لها : « أترين هذا ؟ » ويشير الى صورة شخص مهيب مفرد
 على الصفحة . تتأمله لبرهة صائحة : « انه فلان . . يوه يقطعه . .
 الذى فعل كنا ، » وتحكى كيف كانت تقوم بالأعداد لسهرة مخدرات
 كبيرة كان من بينها هذا الزبون وانه تقياً وخطرف وشخ على روحه . .
 المخ : فيذعر عنتر كباية ويصيح واضعاً كفه على فمها : « شى شى

ش .. يخرّب بيتك .. انه كذا وكذا وكذا ، . ويصدع رأسها
 بالقاب وأشياء لم تسمع بها من قبل ولا تفهم لها معنى ولكنها
 تلخصها في ذهنها بأن تلك شخصية كبيرة في البلاد ، وإن هذه
 شخصية أكبر ، وإن شقتها في الواقع ليست شقتها بل هي وكر
 لاجتماع هذه المجموعة الهائلة من شخصيات تراهم في الصحف
 وتسمع أسماءهم في الراديو .

١٧

حارت في أمر « عنتر كباية » ولكنها كانت تحبه ولا تتوقع
 منه العيب أبدا . يوم دخلتها عليه اكتشفت لماذا هي جميلة ولماذا
 يحب الناس الجميلات ، كما اكتشفت أشياء كثيرة جميلة لم تكن
 تعرف عنها شيئا . فمئذ أن وقفت أمام امرأة التسريحة رأت أمامها
 سيدة أخرى لا صلة لها ببسيمة بنت الحقول وتلصيق الجلة والتشرد
 بين دروب المهانة ليل نهار ..

رأت نفسها سيدة كالسنيرة التي تراها في المجلات
 والتصاوير المعلقة ، أمام عينيها دفع « عنتر كباية » في الفستان
 الواحد جنيهاً تصلح مهرا لابنة العمدة ، وقال ضاحكا إن ثمن
 الفستان الواحد يقبضه من صاحب السيرك طوال أسبوع المولد ،
 فلما سألته من أين تجيء بالباقي يا عنتر يا حبي ؟ قال إن ربنا
 يرزق الدود في بطن الحجر فقالت نعم ، ولم تعد تسأله بعد ذلك
 عن شيء من هذا أبدا ، لكنها من فرط الشعور نحوه بالشكر والحب
 وطننت النفس على الا ترفض طلبا له مهما كان الأمر ..

لكنها فوجئت أن الشقة ليست مجرد شقة بل مدينة ، ولم
 تكن لها وحدها بل لعشرات من الأفندية والبكوات والسيدات اللائي
 كن يفرن منها ويحببنها في نفس الآن إذ يتطوعن بتعديل ثيابها
 وتلقينها أصول اللبس والا عيبه ومغزاه . لم تقلق من هذا الزحام
 بل أنصت اليه فأدخل على قلبها الونس ، ولم تشعر بثقله لأن

عنتر كباية كان يملك الزمام ويستطيع اخلاء الشقة من كل
زوارها فى لمح البصر ونهياتها لزوار جدد أو لها هي وحدها لإيام
طويلة . فى الواقع لم تكن تفهم من ذلك شيئا ولم تكن فى الحق
تريد أن تفهم طالما انها ترتع فى نعيم مقيم وتستحم بالكولونيا .

١٨

الانسان لا يستطيع ان يفلق عقله بإرادته ، ولم يكن قد
بقى فى ذهنها من ماضيها سوى كلمة قالتها حماها السابقة أم
هريدى : بنت الأصول تعيش مستورة ولا ترى الفقر أبدا لأنها
تستر على زوجها وعيشها فلا تفتش وراء الرزق من أين جاء ولا
كيف . . . والبتة ، أو الست بتعه هانم ترى وفودا تحب القمار
فى شقتها حتى مطلع الفجر . رجال كبار ذوى مهابة ينحنى لهم
حتى أولئك الذين يفلبونهم ويسحبون نقودهم .

المجنون أوراها صورا فى الجرائد لرجال يلبسون اللباس
العسكرى والجماهير تهتف لهم وتلتف حولهم . أشار لها على صور
أخرى تبدو فى منتهى الجدية والقوة مع انها تراهم فى الشقة بلا
جدية وبلا أى قوة على الإطلاق بل تراهم فى ضعف شديد يهزءون
بعضهم بعضا بشتائم قبيحة مخجلة . قال عنتر كباية لقد أصبح هذا
مديرا لمكتب هذا ، وأصبح ذاك مديرا للجهاز الفلانى وما أخطره
من جهاز ، وأصبح ذاك مسئولاً عن كذا فى البلاد . . . الخ . .

ثم قال أيضا انه يعرفهم منذ سنوات بعيدة حيث كان كل
منهم زميلا له فى شيء ، فى الكتاب أو المدرسة أو الحارة أو النادى
أو هواية الفن أو الصعلكة أو حب النساء أو المقامرة . قال لها
كذلك انهم سوف ينسحبون عن عالمه شيئا فشيئا وسوف لن يرفعوه
الى مصافهم أبدا ، انما سيظل فى نظرهم دائما « صبي العوام »
الفاسد الذى لا يحتاجونه الا فى مسائل لا يجيدون الاتصال بها ،
فالواحد منهم مهما كبر أو عظم فان أشياء فيه تظل كما هي لا يمكن

ان تتغير أبداً وان تغير شكلها فالمصائب بداء الحشيش كالمصائب بداء النساء كالمصائب بداء الأفيون كالمصائب بداء الرشوة كالمصائب بداء السرقة كالمصائب بداء الكذب كالمصائب بداء التملق .. محسوبك عنتر كباية تربية الدرب الأزرق وحارة الجوانيه وجبل الحواوش كنت أصادق وأزامل أولاداً من كل مكان .. حكم البلاد ياتبعة لا بد له من ملك يرث العرش أباً عن جد . ولكن مادام لم يعد هناك ملك يتسلم ارثه ، ومادام عرش الحكم في البلاد قد أصبح مباحاً لعامة الشعب فان الأمر يجب ان يتاح لمن كان أجده وأعدل ، عنتر كباية مثلاً ، خيره على الجميع وخدماته تفرق الجميع وشهامته مشهورة ولكن هل يجيء له عرش البلاد ؟ لا طبعاً ، فللدنيا أحوال غريبة . تزحزح عرش البلاد حركة فيقع في أيدي بعض من كانوا يشربون ويتصعلكون ويتصيدون النساء معه .

تضحك البتمة من كلامه وتنحاز الى صفة على اعتبار ان الأمر برمته من قبيل الأساطير ، فهي تصدق أن يجور الزمن على كل الناس الا على الملك ، وأن ينهزم كل الناس الا الملك ، وأن يتسامح كل الناس ويتنازلوا عن حقوقهم تجاه الآخرين الا الملك لا يتسامح في ملكه أبداً ولا يتنازل عن عرشه الا اذا كان والعياذ بالله قد أصابته جنة . صحيح انها رأته صوراً وكلاماً منشوراً في الصحف ولكن أليست هذه الصحف يطبعها ناس ؟ ربما لم يعلم الملك بها أو بهم والا فانه لا بد أن يعاقبهم على نشر هذه الأكاذيب عنه ..

لقد ظلت « البتمة » تنتظر زمناً طويلاً ان يصل خبرهم الى جلالة الملك وتسمح ان المساكين الهجانة قد جمعتهم - كما يحدث في قريتها - وضربتهم بالكرابيج على مؤخراتهم تأديباً لهم . لكنها فوجئت بأن الشعب كله يتحدث عنهم والراديو يذيع أصواتهم تتكلم في حماس وانفعال غريبيين لا تدري ما المبرر لهما ، والجميع يهتف .

ثم انها بدأت تلاحظ ان الشقة فرغت فجأة الا من ناس بلا

شان • كان عنتر كباية يجلس امامهم متباكيا يذيع اخبارا غريبة يزعم انها حدثت على يديه فى هذه الشقة وبين هذه الجدران التى لو نطقت لأيدته بلا جدال ، من قبيل انهم ضحكوا عليه وأكلوا الكوسة فوق دماغه • ألم يحتفظ لهم فى هذه الشقة بأسلحة ومنشورات ؟ ألم يختبئ فيها ناس منهم أياما بلبايلها • ولا يقولون له عن السبب ؟ ألم يستخدموه فى نقل رسائل شفوية وكتابية لناس غريبى الأطوار لا يعرف كيف كان من الممكن أن تنشأ بينهم وبينه صلات ؟ • هو حمار وابن كلب من الأساس ، كان يجب أن يدس أنفه فى كل شئ ويعرف حقيقة هذا الذى يشارك فيه ، لكنهم طول عمرهم هكذا يعرفونه « ليستكردونه » وهو من طيبة قلبه يطاوعهم ويفعل ما يطلبون منه دون مناقشة حتى لا يخلون عليه بصداقتهم ، كان يخشى ان يناقش أو يشير وجع الدماغ فينصرفوا عنه وهو فى الحق يتشرف بصداقتهم ويستفيد من وراء معرفتهم ••

مرة أخرى تضحك « البتعة » من طيبة قلبه وتشفق عليه ، خاصة حين كان المستمعون اليه يفرعون من كلامه ويصيحون : « ما توديناش فى داهيه يا مجنون » • العجيب انهم جميعا راحوا فى داهية بعدها بأيام قليلة •

٢٠

كانت أياما سوداء • جاء رجال عند مطلع الفجر واقتادوا عنتر كباية بشباب نومه الى حيث لا تعرف • ظلت تنتظره أياما وأسابيع وتسال عنه فى الأقسام والمستشفيات دون جدوى • كل من قابلتهم فى تلك الرحلة المضنية ظهروا كأنهم يعرفون حقيقة الأمر وكان بإمكانهم احضار زوجها من تحت طقاطيق الأرض • تحصل على مواعيد بشأنه لتجده نفسها محاصرة فى شقة أو فى كازينو أو فى أى ورطة سوداء تلجأ فيها الى الصراخ والفضيحة فى طلب الخلاص • كان بعضهم من معارف زوجها الذين انقطعوا عن زيارتها

يلتقون بها صدفة فيهمسون لها بوصايا غريبة : « أتعرفين فلان
الفلاني الشهير بكذا : » فتقول نعم كثيرا ما ناولته الخذاء بيدي .
فيقولون لها : في يده الخلاص » . لكن آخرين همسوا لها محذرين :
« بل فلان هو الأهم » .

ولقد تذكرت هذا الأهم ، كانت تظن انه ولد تلميذ يشبط
في ذيل أقاربه الكبار حين يذهبون الى مشوار ، كان بكل نشاط
وحوية يتطوع عند احتدام السهرة بالقيام والذهاب الى المطبخ
ومشاركتها في شغله ، كما يقوم بتوضيب الجلسة ، ان كنتوسا
فينظفها ويهيئ الثلج فيها وان حجارة فينظفها ويكرسها ويرصها
نارا . . أفيكون هذا الجذع قد أصبح في هذه الأملة التي يحكون
عنها ؟ . والله لتذهبن اليه وتضع عينها في عينيه ، ان نسيها فما
مداعبات المطبخ ببعيده ، وتحككه فيها وتماديه في ذلك تشهد بهما
صيحتهما الملوية التلقائية التي أسكنته وأضحكت عليه من انتبهوا
لنواياه الحبيثة وراء تطوعه بالخدمة . .

منذ تذكرته تذكرت ما كان يسطع في عينيه من نظرات حاقدة
ضاغطة ، نظرات لم تكن تستريح لها مطلقا . لهذا ترددت في
الذهاب اليه . شجتها على مزيد من التردد همسات الشعب في
أذنيها واذن غيرها ممن فقلن أزواجهن بأن تريخ نفسها بدلا من
الجرى وراء السراب فقد وقع زوجها في قبضة الطاغوت والحلم بعودته
سراب . لكن انذارا من صاحب البيت وصلها يأمرها بمغادرة الشقة
في أيام قليلة . وكانت قد أصبحت وحيدة تماما حتى جدران الشقة
التي أيقنت من أن لها بالفعل آذانا أصبحت شاهدة على اغترابها .
لكن أين تذهب وهي على الأقل جدران تسترها . .

لبست هدومها الأنيقة الثمينة وأغلقت الشقة وركبت عربة
اجرة وأعطت للسائق ورقة فيها العنوان . اضمحل الشبق في عيني

السائق وآب غزله البهيح الى شعور فاذح بالخوف كأنما انطلقا فيها
البريق الحلو الى الأبد . ظل يمشى بها في توده ، ولا يدير رأسه
نحوها حتى وصل الى العنوان فنزل وفتح لها الباب قائلا : « اتفضل
يا أننم » . فأعطته الحساب وهي تكتم ضحكة جذلة من رفضه
للحساب . ثم انها كافاته بترك بقية الفكة .

كأنما في عينيها ووجهها وكيانها سرا يقول للرجل : - قف .
فيقف . ان تكن قد رأيت بسبب تشردها كثيرا من الانواء فانها قد
رأت بسبب جمالها كثيرا من الأسرار والأخبار . طلبت من البوابة
المحاطة بالعسكر والشارات الحمراء مقابلة الاسم المدون في البطاقة .
فاقتيدت في الحال اليه ، ولا بد ان هيبة جمالها قد صادرت فيهم
كل الأسئلة . اذا به خفا كما يقولون مهم الى حد كبير جدا .
العشرات يحرسونه والمئات يطلبون مقابله ، وهو من فرط ذلك
في عز وبغدة كأنه ملك الملوك .

كانت في طريقها اليه قد عرفت ان كل ملك يظهر لها يتضح
انه مجرد بواب الملك آخر يتضم هو أيضا الى جموع الواقعين في
عرضه .

ما ان رآها حتى حب في استقبالها كأن الدنيا نفسها قد
أقبلت عليه بالسعد وان ظهر خلف نظراته الولهي شعور غامض
بالخوف والتوجس . أجلسها أمامه على كرسى وثير في حجرة وثيرة
فشعرت بالابه وبدا في ناظرها رجلا سامقا من علية القوم ليس
فوقه حاكم آخر . غير انه صفر في ناظرها بعد برهة حين انتفض
واقفا كأي خادم مذعور حين رن له جرس فوق دماغه مباشرة . ثم
اندفع يجرى تجاه باب خفي ودخل مهرولا ثم ما لبث ان خرج مهرولا
يتعثر ، وصار يبحث عن أوراق يأخذها ملهوبا عاد بها الى الداخل
فغاب قليلا ثم خرج يمسح عرقه ، ثم تلثم في أذنيها والمهانة واضحة
عليه محاولا افهامها بأنها ارتكبت خطأ لا يقتفر بحضورها اليه وان
عليها بالانصراف حالا ولسوف يلقاها في الحلاء ويعرف ماذا تريد ، وعلى

الغُصوم فإن كانت تريد في أمر عاجل فإنه سوف ينتظرها الليلة
في هذا العنوان ، وسحب بطاقة دسها في يدها خلسة .

لم يزعجها من ذلك شيء سوى ورود كلمة « الليلة » في
الحديث ، فلقد باتت تكره هذه الكلمة لأنها تكشف لها دائما عن
نوايا سيئة ..

٢٢

لكنها ذهبت اليه . في المساء استقلت عربة الى منطقة سكنه
وصعدت عمارة عالية وطرقت باب شقة افتتح لها عن أضواء كابية
وأثاث عريق . كان في استقبالها وحده وبشيابه المنزلية ولا أحد
في الشقة غيرهما والشيطان ثالثهما .

اقتادها مباشرة الى طريقة مستديرة تشرف على بار أنيق .
فاذا بالماكولات مرصوفة جاهزة للأكل وإذا الكنوس مهية للشراب .
صعد الى كرسي وأشار لها على المواجه فصعدت هي الأخرى بقليل
من الارتجاف . تناول كأسا وعلقه في الهواء قبلتها صناجحا :
« كأسك » فتناولت هي الأخرى واحدا رفعته مثله فلطمت كأسه
فأحسنت بسعادة فاققة رغم محنتها الفاتكة .

كان القلق واضحا في محياها فقال لها : « اشربي » فلما
ترددت هبط عن كرسيه وجذب التليفون وادار قرصه ثم صاح
في عشم قليل الأدب : « آيه ياد يا .. انتوا دايرين تمسكوا الناس
عاطل مع باطل ولا آيه . فيه آيه بالضبط .. هيه .. هيه ..
هيه .. طب المسكين عتتر كباية ده .. ماسكينه ليه ؟ بالزمه مش
مكسوفين ؟ .. يا راجل بلاش عبط امال .. تقارير آيه وبتاع آيه ؟
تقارير خايبة زى الى عاملينها والى مصدقينها اسمع .. الراجل
ده أنا سمعت انه على علاقة بفلان وفلان .. يا ترى ده صحيح ؟ ..
مانا ما أعرفش بصراحه طب ما تقولي يمكن أنا مغشوش .. آيه
علاقته بيهم بالضبط ؟ .. آه .. آه .. آه .. آه .. أنا معلوماتي

انه واد ارتيست على باب الله . نمره فى شارع الغرام فى مولد
فى كازينو فى فرج .. آه هو لسانه طويل شويه .. طيب ..
اوكى .. اوكى .. سلام ، ..

ثم وضع السماعة وصعد اليها وكانت تتابعه فى انبهار
شديد ، فلما واجهها ركز فى عينيها نظرة تنم عن رجولة مبهرة
ثم قال بثقة : « كان من المفروض ألا يخرج عنتر كبايه من
المعتقل مدى الحياة .. ولكن .. اكراما لخاطر عينيك العظيمةتين
.. فسوف أفرج لك عنه .. ولكن .. ما الأمر بالضبط ؟ ماذا كان
بينه وبين فلان ؟ .. اشربى من فضلك .. هل فلان هو الذى عرفه
بفلان ؟ .. اشربى يابطة .. وهل لاحظت شيئا ؟ من الذى كان
يخسر فى القمار لمن ؟ هل كان يخسر عن جدارة أم يخسر عن عمد ؟
.. عنتر كبايه منذ متى تعرفينه ؟ هل كان واسطة بين فلان وبين
أقاربه فى الصعيد ؟ هل تكلّموا أمامك عن أسلحة ؟ هل جاء بسيرة
فلان ؟ - ذعرت حين نطق فلان هذه المرة دون ألقاب كأنهما صديقان -
وهل ؟ وهل ؟ وهل ؟ .. ، ..

وهكذا شعرت بالهلهلة ، ثم بالخناق يضيق حول رقبتها وبأنها
يجب أن تنصرف فوراً . فلما شرعت تهىء نفسها للانصراف جاءها
احساس بأنها هى الأخرى قد دخلت السجن المؤبد . أرادت أن تجرب
امكانية الخروج فنهضت واتجهت الى الباب مستأذنة لمشاغل
وراءها كثيرة . لكنه سد الطريق بنظرة من عينيه أفهمتها ان ذلك
مستحيل الا اذا أذن لها فى لحظة صفر معينة ..

« لسه بدري يا هانم .. الحديث لسه ما انتهاش ، ثم شرب
جرعة أقشعر لها وجهه . رغم احساسها بالفجعة جلست اجلالا
لكلمة يا هانم وحدها . وضعت ساقا على ساق لتليق جلستها بهانم
حقيقة . ضحك هو اذ اكتشف فى جلستها هذه شخصيات كثيرات
من هوانم السهرة فى شقة عنتر كبايه . أشار لها الى البار فاعتذرت
بأن الحمر بجميع أنواعه يجلب لها المرض وانها جاملته بكأس دليل

مميزته عندها • وكان هو قد أتى على نصف الزجاجة فقام إليها في
الأنثريه وجلس بجوارها فنفذت الى خياشيمها رائحة الخسة •
بنظرات خوف تأملت وجهه ورقبته ، كل ملامحه ، فتأكد لها انه من
أصل غير ملوكي ؟ بل انه من غير أصل ، انه لا يختلف عن ذلك
الذى رسخ في ذهنها باسم « مختار بك » وهو ليس بمختار ، في
عينيه نفس الضعف الذليل ونفس الخسة ونفس الرغبة في
المساومة والتنازل الى أبعد الحدود مع فارق بسيط هو أن هذا أكثر
سيطرة على نفسه من ذلك المدعو مختار ، صبي هو في ثياب رجل ،
خسيس في موقع كرم ، نذل في اهاب سلطان : الضعفاء والأخساء
أعداء من يكتشف حقيقتهم ، وهكذا لانت ملامحها قليلا وأظهرت
مدى سعادتها بمعرفة سيادته ••

راح يلتقي على سمعها كلاما أغرب من الخيال ، منه أنها هانم
محترمة وابنة ناس كما يبدو فكيف قدر لها أن تقع في قبضة متشرد
مثل « عنتر كباية » ؟ ومنه ان « عنتر كباية » قواد تزوجها لبيع
جسدها بأغلى ثمن • ومنه ان « عنتر كباية » كما تقول التقارير
الرسمية يعمل جاسوسا لصالح العدو الاسرائيلي ؟ هبت واقفة من
فرط الذعر وقالت له بكل انفعال ان عنتر كباية لم يبع جسدها
لأى أحد • فقال لها انه يبيعه دون أن تدري هي ، اذ أن عمل
« القوادة » قد تقدم هو الآخر وصار اللحم البشري يباع بالجملة ،
أى أن القواد نفسه قد يعمل قوادا دون أن يدري لأن هناك قوادا
أذكى منه وأوسع خبرة وحيلة واتصالات يسيطر عليه من خلال
موضوع آخر • كذلك اللحم الذى يباع ، الأجسام الحلوة الطرية مثل
جسم سعادتك تنطرح بكل براءة على أسرة الفسق موهومة بحب
أو بمصلحة أو قضية ، وواقع الأمر أن هناك من قبض الثمن لتدور
هذه الدائرة حول هذا المركز ••

لم يستطع عقلها الصغير أيامها ان يستوعب معنى كلامه وان
حفظته جيدا • خبطت الارض بقدمها صائحة بأن عنتر كباية لا يمكن
ان يكون جاسوسا لأحد ، هي لا تعرف ما هو العدو الاسرائيلي

ذاك ، ولا تعرف ما الذى بيننا وبينه أو بينه وبيننا ، وكذلك لا تعرف ان كانت محل اقامة العدو الاسرائيلى ذاك فى القاهرة أم الشام أم لبنان أم فلسطين من هذه البلاد التى تسمح عنها كثيرا ، هى لا تعرف أى شيء عنه ولكنها تسمع الراديو وترى فى ذلك المسمى بالتليفزيون الموجود حديثا عند الجيران ، فلا تفهم من قول المذيعين شيئا ، لكنها قد لخصت لنفسها المسألة بدون وجع دماغ فى أن ثمة شخص اسمه العدو الاسرائيلى يناصرنا العداء لله فى الله ويتربص بأمة محمد ويلقى لها الرعب والفزع فى الشوارع والحدارات وقد يجد الانسان قطعة ذهب أو جواهر ملقاة فى الأرض فلا يقربها خشية أن تفصح عن قنبلة تنفجر فى وجهه . . فان يتضح أخيرا أن عنتر كباية جاسوس لهذا العدو معناه انها كانت متزوجة من هرم الجيزة الأكبر . .

ضحك ذلك الذى أسمته بمختار الثانى وهو ليس بمختار ، ووقف متقدما نحوها فى مرح طفولى ووصفها بالطيبة الشديدة فيما يضع كفه على ظهرها فأحست بقشعريرة كأن لزوجة علقبت بها ، ثم عاد فاستغرق فى ضحكة مفتعلة ثم تصنع انه داخ لكى يريح رأسه على كتفها . ظلت واقفة مسمرة فى مكانها لتكتشف نواياه الحقيقية . كانت أنفاسه الساخنة ذات الفحيح النتن تكاد تصنع قربة فى رقبتها ، ثم اذا بقطعتين من النار تلسعانها فى رقبتها فتشمد نفسها مذعورة وشفتهاء كبوز خنزير يلاحق جيفة . أبدا لن تكون جيفة لتدع هذا الخنزير يلتهمها . هى واثقة من انه نصاب كبير . لقد حكى لها عن عالم القوادة المتقدم وكيف يكون . وهى مستعدة الآن لتحكى له عن عالم النصابين وكيف يكون ، لتبين له كيف انه نصاب ومنسوب عليه دون أن يدري . .

دفعته برفق فتمايل مترنحا فأسندته فركبته عظمة مفاجئة . حتى انها انفجرت رغما عنها ضاحكة من لغد العظمة الثابت تحت ذقنه أدوارا تحت بعضها ، ومن تكشيرة ملكية لا أساس لها من الصحة تعلى حاجبيه ، ومن نظرات احتقار تحتقن منه الجفون تكاد

تنفجر • ضاحكة أجلسته على الكنية المريحة وفكت له زرار المنامة •
ثم سحبت حقيبة يدها وتأبطتها كالبهائم ، ثم رتبت على ذقنه في
مذاعة مشفوعة بابتسامة تأمن بها شره ، ثم أنها مسته بالخير
واتجهت الى الباب مثللكأة غير واثقة من أحقيتها فى الخروج • فلما
وصلت الى الباب ووضعت يدها على المقبض استدارت ناظرة اليه
فوجدته منتصرا فى مكانه يشتمها بنظرة احتقار بالغة الحقد ، فألقت
بالمذاعة الأخيرة : « العظمة لله وحده » ، فتحت الباب وأغلقتة فى
الحال وزادها • ثم وجدت نفسها فى الشارع منطلقة بكل حرية
تتقافز كغزال يريد أن ينفذ عن نفسه ثياب المدينة • وكانت قد
قررت أن تختفى عن هذه الوجوه الى الأبد ، ليذهب الجميع الى
الجحيم بما فيهم عنتر كباية ، لو لم يكن يستحق الجحيم ما ذهب
اليه بقدميه ، لكل انسان عمله ، ومعرفته بهؤلاء الناس الشياطين
هى عمله غير الصالح •

٢٣

جمعت عزالها وسلمت مفتاح الشقة لصاحبها الجديد الذى
تكفل بدفع قيمة الايجار المتخلف ومبلغا كبيرا لها ومثله لوالكها
الأصلى • كان واحدا من المترددين على الشقة فى حضور زوجها ،
وأغلب الظن أنه واحد من المهمين أو خدمهم أو المنتمين اليهم بأى
سبب • هى الأخرى لم تقل له أين ستذهب رغم الحاجة فى السؤال
واصطناعه البراءة • الواقع انها لا تدري ان كان امتناعها عن ذكر
عنوانها الجديد له خشية منه لاتصاله بالناس اياهم أم لشعورها
بالخجل من سوء المستوى الذى آل اليه حالها ؟ •

مهما يكن من أمر فقد خدمتها الظروف بولد حليوه فى عينيه
غلب شديد وحب للحياة أشد • كانت تعرف أنه بعض نقاية ماضى
عنتر كباية ، حيث كان يتردد عليه باعتباره نجما فى عالم الغناء
وذا صلات واسعة يمكن أن يأخذ بيده ويعرفه بأحد المسئولين •
وكانت تلاحظ ان « عنتر كباية » يعامله بقسوة ولا يطبق رؤيته
الألفتة محدودة • لم تكن توافق « عنتر كباية » على هذا بل على
العكس ترى انه ولد منكسر يستحق الشفقة والاحسان ، ثم انه

نظيف المظهر لا يجلب المعرة • الا أن عنتر كباية كان يخلق باب الحديث عنه دائما • ثم ظهر كأن قلبها قد صلق حين اختفى عنتر كباية وراء حجب الغيب فلم يسأل عنها أحد سوى هذا الولد الحلوة هاوى الغناء ، الذى هو من نفس حارة عنتر ويعرف أهله كلهم ويعرف الكثير عن ماضى عنتر كما يصرف كل الذين يعرفونه ويعرفونه •

انفض الكل عنها بالخوف أو بالنفالة لا تدرى ولكن الولد الحلوة « سعد القيم » هو الذى بادر بالاتصال بها • كان هو الوحيد الذى اعتمدت عليه فى أشياء كثيرة ومشاورير طويلة ومهام شاقة • كان يخدمها بكل تواضع وحب ولا ينصرف الا حين تأمره وتغلق خلفه الباب والنور لتنام • فما ان علم بموضوع الشقة حتى انطلق يجرى وبعد أيام قليلة جاءها بخبر العثور على حجرة بمنافعها فوق سطح عمارة كبيرة فى كفر العوالم بحى الحواوشى •

برغم استقلال الحجرة وانعزال كل شقة عن الأخرى فانها أحست بالعمى • فحيث تصبح العماثر المعجزة والبيوت الكالحة مجرد جدران متخالكة تفصل بين كتل من اللحم البشرى يصبح لا بد لكل امرأة مثلها من غطاء تستر به جسدها الفتى وترد به غائلة الفتنة والأعين المتلصصة والألسن المتتبرأة من نفسها • بحثت فى محيط حياتها وفيما حولها من شقاء ، فلم تجد أصلح من « سعد القيم » ، فما ان فاتحها فى الزواج على استحياء حتى وافقت • ورزقه ورزقها على الله •

٢٤

لم يكن الا نصابا عريفا يختفى عمره الحقيقي خلف وجه لا ينبئ عن عمق زمنى • اتضح لها انه متعهد حفلات على قد حاله • يقاومك على فرح لك فيجىء بفرقة قوامها ثلاث كمنجات وعود وناي ورق وطبلة وراقصة كل ذلك كوم وهو ، وحده كوم آخر ، انه مهرج الحفل الذى يتلقى « النقوط » ويردد أسماء أصحابها زاعقا بطلب السلام الى مالا نهاية ، أو زاعقا بموال أحمر ينساب منه الى أغنية

يا حاسدين الناس ينساب منها الى أغنية يا امة القمر ع الباب ، كل
أغنية قد تتعاشق فى الأخرى وتكملها كله ماشى طالما انه يثير ضجيجا
ويصنع جوا ويحييه ترديد الأسماء فى الميكروفون بالطبل والبروزة ،
دائرة معارف هو يعرف أسماء نجوم الاحياء ومعلميها الكبار ..

٢٥

صبى العوالم المعجوز البسها فاخر الثياب ليضمن ولاهما ،
وعلمها الكفت . كانت راغبة فى أن تتعلم الرقص حتى النخاع ،
كان ثمة جبال من الآلام فوق صدرها لن يذيبها سوى أن تظل
ترقص الى آخر لحظة فى عمرها .. ترقص للرقص وحده وليس
لشيء آخر .

مع ذلك فقد كان صعبا أن تصبح راقصة لولبية ، وكان
يائسا يقول لها انها لو نسيت حياء الفلاحة وكسوفها فسوف تكون
أعظم راقصة . ثم انه اضطر الى الامساك بالكرباج واظهار العين
الحمراء ، بهذا وحده اتقنت تحريك كل عضلة فى جسدها كما
اتقنت توظيف كل حركة فى مدلول جنسى واضح يشيب له
المحتفلون فيتصايحون ، يصعدون الى خشبة المسرح ليلصقوا ورق
البسكنوت الاحمر والاخضر على جبهتها وعلى بطنها .

٢٦

جمع صبى العوالم ثروة هائلة لكنه صرفها على زوجانه
السابقات وعلى الشم والتحشيش واكتشاف الفتيات الضالعات .
كان يعرف « كحكوج » ويتردد عليه دائما اذ يستخدمه فى توصيل
بعض الطلبيات فى القرى والمحافظات المجاورة . يضع البضاعة
فى علبة الكمان أو علبة الاوكورديون أو فى احشاء الطبله . وفيما
هو متوجه لاهياء الفرح بفرقة يكون التاجر قد حضر كمدعو فى

الفرح ويصعد بنفسه لعمل الواجب بتقديم « النقوط » لأهل الفرح
ثم ينزل وقد جسر البضاعة في عبه وجيوبه أو رماها لأحد صبيائه
قائلا : « سخنوا الطلبة دى على النار شوية » أو : « شوف نجار
يفتح علبة الكرديون المزرجنة دى » ..

بدورها قامت البتعة في توصيل الطلبات خير قيام . كانت
هى التى تحتضن آلة البضاعة وتبقيها فى حوزتها طول الطريق بل
وتقوم هى بتسليم الحمولة فى لمح البصر . أما صبي العوالم فجيان
خواف ما عليه الا أن يقبض من جميع الأطراف ويضع فى جيوبه
وما عليها حين يداعب خيالها فستان جميل الا أن تنكد عليه
عيشته أياما طويلة وتصلحبه عنوة لشراء ما تهوى .

آخر ما زهقت منه عاكسته فعاكسها فتنكر لها ظانا انه بذلك
يكسر كيدها مؤقتا . لكنه من سوء حظه وقعت فى يد كحكوح الذى
دخل ليصلح بينهما من طرفه فأجاد كحكوح المهمة وقام بإصلاح
الوضع من أساسه اذ دبر لها شقة صغيرة فى منطقة انظف قليلا .
وكانت تجيد ملاحظته ، ترخى له حبل الأمل فيها ثم تشده وترخيه
بدرية فائقة حتى استفادت منه قدر الامكان . قدمها لأحد كبار
المهربين على مادبة العشاء فى ليلة بارقة . كان المهرب شرقاويسا
قوى الشخصية لديه رعب وحساسية من النساء خاصة الحلويات
منهن ، وقد تعلم ان النساء فى جانب والشغل فى جانب آخر ،
واى نساء فى حياته لا بد أن يكن من خارج اطار العمل ، مهما كان
جمالها عظيما ، اذ هو كما يقول دائما يلعب بالنار والنساء دائما
هن مصدر الاشتعال .

ليلتها لم تفكر فى تسليم نفسها له ، ولكنه والليالة لما تكد
تنتهى وثق من نقاء سريرتها ومن أنها ليس من طبعها القدر . فى
اليوم التالى بعث بها فى مهمة ادتها بنجاح . كان عليها أن تذهب
فى عربة أجرة الى حى المعدية وتقابل رجلا فى العنوان الفلانى الذى

سيعطيها ثلاث أطقم « بستم » ، قالت له ما هو البستم ؟ قال لها انه طاقم يركب فى موتور السيارة ، ثم أمرها أن تحضر بالاطقم الثلاث اليه فى موعد غايته منتصف الليلة التالية فى مقهى بميدان المشهد الأزرقى .

٢٧

ما أن انفتح باب شقة المعديّة أمامها حتى تسمرت فى مكانها ذاهلة ، فقد امتلأ الباب بشخص تعرفه جيدا ، وأنه فى شقة عنتر كبايه أكثر من مرة . كان على ما يبدو شخصا غاية فى الأهمية ولذا فهو لا يعرفها اذ هو لم يجلس فى شقتها طويلا ومن ثم لم يرها الا لماما وللحظات خاطفة عابرة . قال لها : « أهلا وسهلا .. تفضلى » ، ولم يبد عليه أنه عرفها . فدخلت تتعثر فى الخجل والاضطراب جلست حيث أشار لها قرب مدخل الباب ثم اختفى داخل الشقة ، وقالت هى لنفسها ان هذا الشخص - على ما تذكر - هو مدير مكتب أحد رجال الثورة الأزرقية وهو على الأرجح ذلك المسئول عن الجيش أو المسكر والله أعلم ، انها لا تحبهم ولا تحب أسماءهم ولا تحب تشغل نفسها بالتمييز بين هذا وذاك لانهم جميعا طينة واحدة : جوف صلب ووجه مشدود العضلات يهدد وينذر بالوعيد وسلام خشن وضحك أفضل منه البكاء ..

عاد من الداخل يبتسم وفى يده كوب شاي يرشف منه ، قال لها : « تفضلى هنا » ، فتبعته حتى الحجرة الداخلية فمرت على الحمام والمطبخ والانتريه وتأكد لها ان الشقة خالية تماما الا منها وتأكدت كذلك ان الشقة لا تعيش فيها امرأة . الحجرة الداخلية عبارة عن قعدة شرقية ، الشلت والبقات واللوحات الزيتية على الحائط . جلس فوق حمار خشبى مسروج وجلست هى على آخر فى مواجهة فصار منظرهما صبيانيا مضحكا الى حد كبير . نهض ثانية وعاد اليها بكوب شاي ثم جلس تأملته ونأمنها ،

تأكدت انه هو نفسه الشخص الذى سبق ان زارها فى شقة عنتر
كباية وتأكد هو انها ابدا لا يمكن أن تكون صبية مهرب ، انها
ليست أقل من سيدة مجتمعات محترمة جدا تلبس فاخر الثياب
وتترك شعرها العظيم كشلالات النهر ، ومع لهجتها الفلاحية وما فيها
من براعة يستطيع هو أن يعتبرها ابنة ناس طبيين ذوى أملاك فى
القرية ..

بعد آخر رشفة من الشاى قالت انها من طرف فلان الفلانى
فقال انه يعرف وأن الأمانة هى هذه الصناديق الكرتونية الثلاث
المتراصة بجوار الباب ؟ وهى مغلقة بشمع بلادها ، ثم انه قال
لها فور ذلك : « ولكن ما هى مهنتك » . تلعثت ، قال : « ليس
معقولا أن تكونى من أتباع صاحبنا فحسب .. هل أنت متزوجة » .
قالت بسرعة : « «طلقة » » . قال : « اليس لك مهنة معينة ؟ » .
ألا تحملين شهادة ؟ خجلت ان تقول انها راقصة ، فقالت : « أنا
.. مغنية » صاح : « مطربة ؟ » . ردت فى خجل شديد : « نعم
.. ولكن على قدى » قال : « هل تغنين فى الاذاعة ؟ » . ابتسمت ،
قالت : « أقول على قدى » . قال بكل بساطة : « ولماذا لا تغنين
فى الاذاعة ؟ » قالت : « اهى سهلة هكذا ؟ » . قال بنفس البساطة
« اذا كان صوتك جيدا .. يمكنك الفناء فى الاذاعة » . نكست
راسها لبرحة . قال لها : « تاهت واقيناها .. اسمعيني صوتك ..
ان اعجبني .. سأجعلك مطربة فى الاذاعة » .

رفعت وجهها اليه وتأملته جيدا فلم تجد للهزل مكانا فى
وجهه أو عينيه أو صوته . ارتعش بدنها . قال لها : غنى ..
هل لك اغنيات خاصة ؟ قالت : « سأغنى أغنية لصباح .. زنوبة » .
فتهلل وجهه بالبشر والفرح وصاح : « ما أجملها » ، فصارت
تتحم بشفتيها وتوقع بأصابعها وقدميها ، ثم انطلق صوتها فلاحيا
رائقا واضحا كالشمس كجريان المياه فى القنوات ، وانطلق هو
معهما مرددا فى مرج : « زنوبة .. زنوبة .. حلوه وخفه وحبوه

.. شوبس يا حبايب زنوبة .. زنوبة ، ، كان من الواضح ان
 صوتها قد أعجبه تماما ، ولا تدري هل لحلاوتها تأثير ام لا ، لكنه
 - صاحبنا - هب وافقا واندفع نحوها فاردا ذراعيه وطوقها بسرعة
 وقبلها فانفضت بين يديه وانزعجت واصفر لونها من الاضطراب .
 وركزت في عينيه نظرة حادة فيها شعور بالقرف والاحتقار ، اعتذر
 لها قائلا : « اسف .. انتى زعلتى ؟ .. انا ما اقصدش » ، ثم
 اخرج حافظته وفتحها فرفعت يدها نحو حافظته فى شعور بالمهانة
 صائحة . « من فضلك .. انا خدت حسابى خلاص مفيش لزوم
 » ، فنظر اليها فى امتنان وتقدير وحول اصابعه من فتحة النقود
 الى جيب صغير نزع منه بطاقة وقلما ذهبيا ، وكتب على البطاقة
 بضغ كلمات ثم وضعها فى مطروف صغير بلله بلسانه واصقه ثم
 كتب عليه اسما ، ثم قدمه لها قائلا : « من غد تذهبن الى مبنى
 الاذاعة فى شارع الحسينين .. تسالين عن هذا الاسم .. تقدمين
 له البطاقة .. ينتهى كل شىء .. تصبحين بعدها مطربة فى الاذاعة
 » أشياءنا تحمل دائما اشعاعنا وبصماتنا ورائحتنا . فى الخطاب كما فى
 لمس هذا الرجل رائحة طيبة ودودة وغير ثعبانية . مع ذلك لم
 تثق فى لعبة البطاقة واعتبرتها مجرد شرك ينصب لها ، لكنها -
 احتراما للرجل فقط - وضعت البطاقة فى حقيبة يدها ثم نهضت
 وسلمت عليه فتقدمها نحو الباب ثم فتحه وصاح مناديا : « عبد-
 الودود » . فجاء البواب يجرى فقال له : « وصل الهانم بالصناديق
 لحد ما تركب تاكسى » . فشعرت نحوه بتقدير كبير ، وحمل البواب
 الصناديق الثلاث فاذا بها ثقيلة حقا ، ونزل امامها . وفى الشارع
 اوقف لها تاكسيا ووضع لها الصناديق بجوارها واوصى السائق
 ان يساعدها فى انزالها عند آخر المشوار . فوعده السائق بذلك .
 وانطلق الى ميدان المشهد الازرقى .

مهمة في اثر مهمة ، استاجرت شقة خطيرة في رحاب مولانا
 الازرقى شخصيا وتجمع في كيسها ثمن الشقة في خلال شهر
 قليلة وفاض ، افتتح لها حسابا في البنك وكانت قد اعتزلت مهنة
 الافراح تماما بل وتكرت لها . وكانت ذكية الى حد كبير جدا ،
 اصطلت سيدة عجوزا اسمها « ام جابر » كانت رغم كبر سنها
 فتية قوية جادة مخلصه ككلب امين مثلنا ، اختارتها رفيقة لها في
 الحياة لا تفارقها ليل نهار . اغدقت عليها من الخير والنعيم ما لم
 تكن تتوقعه في حياتها ، فبالمقابل اصبحت « ام جابر » هي وبناتها
 وازواج بناتها واولادهم خدما مخلصين غاية الاخلاص في معية
 « البتة » ، كانوا جميعا يتطوعون بحراستها وحمايتها من اى
 طفيل وكانت تفرقهم بالهدايا النافعة مثل القمصان والبنطونات
 الفاخرة والاحذية فضلا عن الانفاق الدائم . ولو ان عائلة البتة
 التى هي من صلبها كانت تعيش معها لما اعطتها الشعور بالاسرية
 مثلما اعطتها اسرة « ام جابر » الغراء .

كانت تنقل اشيائها الصغيرة من حقيبة يدها القديمة الى
 حقيبة جديدة غالية الثمن ، ففتشت كل الجيوب بحثا عن شئ فوق
 المظروف في يدها . فخفق قلبها لبرهة وجيزة وبرق في عينيها ضوء
 ساطع . هزت المظروف في يدها باستهانة وقال صوت في نفسها :
 « ما أنتى مبسوطه كده وآخر فل .. بس ربنا يديمها نعمة ..
 سيبك من الناس دول .. لا يرحموا ولا يخلوا رحمة ربنا تنزل .

لكنها مع ذلك وضعت المظروف في حقيبة يدها الجديدة
 بعناية ، ثم اصاغت السمع الى صوت آخر في نفسها : « ولكن ..
 مطربة في الاذاعة . ذلك شئ عظيم .. يفنيك عن هذه البهدة

واللعب بالنار .. ما كل مرة تسلم الجره .. تقولين - مثلهم جميعا -
هى ضربة كبرى أو ضربتان كبيرتان أتوب بعدهما عن الكار وأستقر
فى عمل مشروع ، ولكن العادة ان من يذوق حلاوة المكسب السهل
السريع لا ينساها مطلقا الا اذا كان معتوها أو نبيا .. جبرى
يا بتعه فلن تخسرى شيئا .. خذوها حلوانه فى سلوانه .. مم
تخافين ؟

وهكذا أوجدت نفسها بكامل فاخر ثيابها وأعلى أنواع عطورها
ركبت عربة من عربات الاجرة التى تمتلكها ويقودها زوج ابنة أم
خالد ، وذهبت الى مبنى الاذاعة فى شارع المحسنيين حيث سألت عن
الاسم المدون على المظروف ، فلدهشتها اقتادها أفندى محترم الى مكتبه
الكبير جدا .

هب ذلك المسئول الكبير واقفا وخرج من مكتبه ليلتقى بها فى
منتصف الطريق والخطاب فى يده . سلم عليها بحرارة ونصف
انحناء قائلا : « اهلا يا أفندم .. اهلا اتفضل » فجلست على الكرسي
الجلدى فجلس أمامها قائلا : « احنا فى الواقع زادنا شرف .. هو
كان المفروض ان تسمك لجنة معينة لكن ما دام الرضا موجود
يبقى احنا تحت الامر » . كادت تنسحب من لسانها وتساله عن
طبيعة هذه الشخصية التى تحمل البطاقة اسمها ، هل هو حقا من
رجال الثروة أم من اتباعهم أم من خدمهم أم من المنتمين اليهم بأى
سبب ؟ فالحق انهم ازدادوا كثرة بل يتضاعف عددهم كل يوم فى
كل مكان ، فمن شركة الى حى الى بيت الى شارع تجدد من يريد
ارهابك بأنه سيادة الرئيس شخصيا ولكن على صورة اخرى .
لكنها بدلا من ان تقول هذا قالت : « تحب تسمع صوتى ! » . قال
الرجل : « هه ؟ » ثم خلع منظاره السميك ودبّع فى عينيه وبدأ عليه
كان الاقتراح اعجبه بل اراحه ، قالت « يمكن ما يعجبكش صوتى » ،
ثم أضافت بسرعة : « الاحسن اسمك صوتى » ، اعتدل قائلا :
« يا ريت » ، فانطلقت فى الحال مرددة فى صوت مفتوح كأنما

تهياً ليطلع الجبال ويتسلق اعالي النخيل ، لولا بحه قابضة على صفائة وخنقة مصدرها الكسوف الفلاحي المتوارث لكان صوتها من الدرجة الاولى ، كانت تغنى : « والنبي يا جمل ودينى .. على منى وجبل عرفات » . فتح الرجل فمه فى بلاهه وصاح : « ما شاء الله ما شاء الله .. لا تمام تمام .. داحنا سعداء خالص بصوتك » .

هنا انفتح الباب ودخل أفندى وجيه فى الخمسين من عمره طويل السوالف أصلح كأنما اختط فى رأسه طريق طويل لولبى تمتد على جانبيه غابات شعر تيكور فى حلقات بيضاء سمراء متداخلة . وعلى انفه الطويل منظار سميك . هب المسئول الكبير واقفا يصيح : « اهلا عبد القوى بك .. جيت فى وقتك » . قامت هى الاخرى وسلمت عليه بالتبعية ثم جلست وهو يعربها بنظراته الذئبية خفيفة الدم ، من كل ثيابها .. قال لها المسئول الكبير فى هتاف : (هذا هو عبد القوى بك السعداوى الكاتب والأديب والصحفى والممثل والمخرج والموسيقى .. هو مجموعة مواهب كمال لك تسمعين به » . هزت رأسها موافقة ، تذكر أنها سمعت اسمه ولكن لا تدرى اين ولا بأى مناسبة . قال المسئول الكبير لعبد القوى بك : « هذه هى .. هى .. مطربتنا الجديدة .. ان شاء الله سوف تقدمها فى حفلاتنا وفى برامجنا .. ليتك تكتب لها أغنية » . وكان عبد القوى بك قد جلس فى رأسى المثلث وتحولت جبهته الى كتلة من التجاعيد تصعد وتهبط فى حركة شهوانية ناعمة . رد بصوت غليظ رصين : « طبعا .. طبعا .. احنا تحت الامر والاذن .. بس هى تأمر » . ابتسمت فى حياء ودارت وجهها بكفها : « متشكرة .. احنا مش قد المقام » . قال عبد القوى بك : « بالمناسبة اسم حضرتك أيه ؟ » . اسقط فى يدها واضطربت ، اذ بدا لها اسم البتعة بلديا سخيفا وغير مناسب . قال عبد القوى بك مسرعا : « مش مشكلة على أى حال .. اسمك مش مهم .. اذا كان ما هوش فنى .. مافيهوش رنين قابل للشهرة .. نختار لك اسما جديدا » . نظر لها المسئول الكبير منتظرا رايها بشغف صاحت هى من الفرح :

« يا ريت .. أنا اسمى - وضحكت فى خجل عذب البتة .. لكن لو غيرناه يكون احسن » . قال عبد القوى بك : « اسم جميل ومثير ولكن نغيره رغم ذلك .. ما رأيك فى اسم .. بسيمة .. بسيمه الخضرى ؟ » ..

شهقت من الفرحة ، ثم عادت فشبهت مرة أخرى من الشعور بالصدمة ، شهقتان فى شهقة واحدة كادت تتصدع لهما رأسها ، لكنها تماسكت قائلة : « بسيمة » ، ثم تأملت بكل دقة وتركيز فى عيني عبد القوى بك فلم تجد فيها أى خلفيات عكرة أو خبيثة فقالت : « بسيمه .. اسم جميل .. ولكن .. اشمعنى الاسم ده .. بسيمه ؟ » قال عبد القوى بك : « لانه يعبر عن وجهك خير تعبير ، فهو بسيم ، أى فى بسمة دائمة .. والخضرى ، لما فى عينيك من خضرة ساطعة » . ابتهجت وارتعش صوتها : « لكن .. بسيمه .. اسم فلاحى .. أليس هناك اسم جديد ؟ » . قال المسئول الكبير : « ما رأيكم فى اسم رشا ؟ .. ان رشا معناها انتى الفزال .. وأظن طبعاً - وأشار نحوها بكفه فى غزل واضح - هنا صاح عبد القوى بك : « ليكن .. رشا الخضرى .. اسم جميل .. وفريد » قال المسئول الكبير : « أول أغنية لرشا الخضرى ستكون من وضعك .. فمتى يتم ذلك ؟ » . قال عبد القوى بك : « أنا جاهر .. لقد تشكلت الاغنية بالفعل فى خاطرى .. وهى من وحي الأنسة رشا .. واستطيع فى المساء تقويمها » ثم انه نهض واقفا واتجه الى مجموعة التليفونات الموضوعة على ترابيزة ملحقة بالمكتب فأمسك احدها وادار القرص ثم صاح : « هاللو منزل الموسيقى سامى النهري ؟ » . أنا عبد القوى السعداوى .. معاكى .. مساء الخير يا سامى .. أنت آيه ظروفك اليومين دول ؟ .. عندنا صوت جديد حتقدمة الاذاعة فى حفلتها الجاية دى على طول .. واخترناك تعمل لها أول لحن .. الكلمات حاكتبها أنا .. طيب حافوت عليك بالليل أنا وهى .. شكرا » ، ثم وضع السماعة واستدار نحوهما ، فحياه المسئول الكبير بابتسامة وقال : « خير ما عملت .. وفرت

علينا جهود ٠٠ ودلوقت بقی ٠٠ حضرتك يا آنسة رشا ٠٠ فى
 عهدة عبد القوى بك لحد ما تخلصوا اللجن قبل الحفلة كده بيومين
 تلاته تكونى جاهزة ٠٠ ومكتبى مفتوح لك فى أى وقت » . ثم
 أحست أنه يريد ان ينهى المقابلة فنهضت فنهض عبد القوى بك
 معها . قالت : « أنا متشكرة ٠٠ اشوف حضرتك بخير » . سلم
 عليها هازا رأسه : « مع السلامة » . ومضت . صاح عبد القوى
 بك : « من فضلك يا آنسة رشا ٠٠ جاى معاكى » ثم سلم على
 المسئول الكبير وتبعها خارجا .

٣٠

أثناء خروجهما من مكتب المسئول الكبير اشار لها خلصة على
 بعض السيدات المحترمات والسادة المحترمين وهم جلوس يشع
 منهم السأم ، وقال لها ان هذا الرجل هو المطرب المشهور فلان
 وهذا هو الملحن الكبير جدا فلان وهذه اللابسة الفرو تعتبر من كبار
 المطربات فى البلد . قالت له فى اشفاق : « لماذا يجلسون هكذا
 كالغلابة المساكين ٠٠ هل هم فى انتظار القطار ؟ » . ضحك
 عبد القوى فبرطع صوته العريض فى المبنى ، وقال انهم بالفعل
 ينتظرون القطار الذى يوصلهم الى مقابلة هذا المسئول الكبير ، وهذا
 القطار هو مزاج المسئول الكبير . قالت له : « ولماذا لا يقابلهم ؟ »
 قال عبد القوى بك : « انه مسكين يكاد عقله يختل ، فكل يوم يجد
 نفسه مطالبيا بايقاف التعامل مع فلان والتقليل من حجم العمل
 لفلانه وهكذا . قالت : « مطالبا من من ؟ » قال ضاحكا : « من
 اسياده الحكام الذين تعرفينهم لا شك - أو لعله مطالب من نفسه
 فهو أيضا مثل كافة الموظفين المتسلقين الجبناء يدخل رغباته
 الشخصية فى رغبات اسياده وهكذا » .

أحست بالدوار اذ هى لم تفهم شيئا مما قال ، وخفق قلبها
 من جديد تلك الخفقة المذعورة ، لكنها هذه المرة كانت خفقة ذات
 صوت عال قال لها : « دبور زن على خراب عشه ٠٠ كنت مستريحة
 فى البعد عن الحكام والأسياد فما الذى دفعك الى أحضانهم مرة

أخرى ؟ » • لكنها وهى تمشي بجوار عبد القوى بك مثل الملكة غير المتوجه عادة فأحست بالابتهاج العظيم

٣١

• باصرار لم تملك له دفعا عزمها على الفداء فى فندق سميراميس • كان السائق فى انتظارها أمام المبنى ، فما ان ركبت بجواره حتى ركب عبد القوى بك فى الكرسى الخلفى صائحا فى غطرسة : « سميراميس يا أسطى » ، فنظر اليه السائق مندهشا • فعاجلته قائلة : « حضرته عبد القوى بك السعداوى • • الصحفي الكاتب الممثل المخرج الموسيقى » • قال السائق تحية للتبعة فحسب : « أهلا وسهلا سعادة البيه احنا زادنا شرف » • قال عبد القوى بك متوددا : « أهلا يا باشا » • وقالت التبعة : « وده بقى السواق بتاع العربية دى وقرىبى ابن خالتي » • حياه عبد التوى بك بسيجارة ، وبأخرى وهو يهبط عند باب سميراميس قائلا : « تعال اتفدى معانا • • ولا اسمع • • أقعد فى الاستراحة وأنا حابعت لك سندويتشات » ثم تركه ومضى مقدما التبعة عليه •

حفلت القاعة بهوانم كثيرات وبكوات كبار ، وسفرجية بطرابيش وطرايطر ومهرجان جميل • كذلك حفلت المائدة بعشرات الأطباق والأكواب والأطعمة • جىء بزجاجة الكونياك ثم جىء بعدها بالبيرة زجاجات ترمى بجوار بعضها عند فراغها ثم جىء بعدها بكتوس من الويسكى كل ذلك انصب فى جوف عبد القوى بك وحده اما هى فلم يسقط فى جوفها سوى لقيمات معدودة لانها كانت فى الواقع تتفرج على منظر عبد القوى بك الأكل والكاتب والمفكر معا فى لحظة واحدة • فالأفكار تبرز خلف نظارته وفى تجاعيد جبهته فيما هو منتفخ الشدقين يتلمظ أو يكرع أو يتجشأ ، ثم انه خلال ذلك يكتب ، يطوح فردة الحمام فى فمه ليتفرغ لكتابة سطرين أو ثلاث بقلم الفحم على منديل ورقى أو ظهر علبة السجائر ، ثم انه غادر

المائدة وعاد عدة مرات وفي كل مرة تراه متهللا فيجلس ويستأنف من جديد .

ثم أزيل كل ذلك عن المائدة ونظفت واعتلاها المفروش الأنيق ورجىء بالقهوة . وكان الملل قد راح يزحف نحو صدرها حين أقبل شخص طويل القوام رشيقا أسمر الوجه عرفته في الحال من صورته في المجلات . انه الموسيقار « سامى النهري » مقبلا نحوهما من عجب . نهضت لاستقباله وقد زایلها السأم وتجددت عواطفها ، ومشاعرها فانتعشت - سلمت عليه بحرارة - أما عبد القوى بك فلم يسلم عليه بل لم يهنم به حيث كان منهمكا فى شطب وتعديل وشرود . فلما جلس الموسيقار قال له : « أظنك عرفت ان دى هى الأنسة رشا الخضرى » . قال الموسيقار : « زادنا شرف » قالت هى : « متشكرة » . قال عبد القوى بك : « على فكرة سامى بيه معجب بكلمات الأغنية حيطير من الفرح .. وزمانه عمل الكروكى بتاع اللحن وهو جاى فى السكة قالت هى : « وعرفها منين ؟ » . قال : « بالتليفون .. كل كويليه كنت باروح أقرأه له فى التليفون » . من فرط اللهشة والعجب لم تنطق البتة . جاء الجرسون وقال لسامى بك مبتسما أن الزجاجة الخاصة به قاربت على الانتهاء ، فأعطاه سامى بك عشر جنيهات وطلب منه شراء زجاجة جديدة ، ثم انه طلب عشاءا . فقامت المائدة من جديد ، وانبرى عبد القوى بك يقرأ وسامى بك يأكل ويترنم ويتمايل ويكف عن كل ذلك لبرهة وجيزة يشرد خلالها موقعا فى الهواء نفما صامتا بيديه ورأسه .

لم تشعر بمرور الزمن حقا ، حتى السائق أمضه القلق فأورأها نفسه عدة مرات رائحا غاديا فى قلق ، فكادت تنبه عليه أن ينصرف هو ، غير انها استدركت وطلبت منه باسمه أن ينظر قليلا . هنا لاحظ « سامى النهري » وتذكر « عبد القوى بك » . فصاح : « ما تسببه يروح وأحنا نوصلك بعربية سامى بك » ، ورد سامى فى ترحيب : « طبعا طبعا ياريت .. سيبه يروح ان

ما كانش ده يدايك أو يدايقه » . قالت البتعة : « لا ده ابن خالتي
والعربية بتاعتنا وهو معاية ونس » . ثم تساءلت : هو .. ياترى
.. حتموزوا منى حاجة دلوقتى ؟ . قال عبد القوى بك : « تسمى
كروكى اللحن على الأقل » . فقال سامى النهري : لا ما أظنش
يا عبد القوى بك .. قدامى شوية شغل .. يوم ولا يومين وأشوف
الآنسة رشا .. ياريت بعد بكره نتغدى سسوا عندى . صاح
عبد القوى : « فى البيت ولا فى المدرسة ؟ » . ابتسم سامى وردد
مع دخان السيجارة : « اذا فى المدرسة حنشتري أكل من السوق » .
صاح عبد القوى : لا ياعم .. خلينا فى البيت وبعد الفدا ننقل على
المدرسة نكمل » . قال سامى : « لا بأس » ثم نظر الى البتعة :
« والآنسة رشا ايه رأيها ؟ » . قالت : (لا بأس) ثم كتبت الضحك
فى نفسها بشدة حيث انها نطقت الكلمة مثله تماما كأنها مثله
فنانة كبيرة . وبنت ناس طيبين كبار .

٣٢

قبل قيام الحفل بأيام قليلة جدا كانت « رشا الخضرى » .
بفضل عبد القوى بك - قد أصبحت وجها مألوفاً جداً فى أبواب
الأخبار الفنية فى كل الصحف والمجلات المصرية والعربية .

بدأ عبد القوى بك بمقال نارى فى يومياته بجريدة (الحرية ،
زينه بصورة كبيرة للآنسة « رشا الخضرى » ، وحين قرئ المقال
عليها ظننت ان كاتبه يتحدث عن شخصية أخرى غيرها سوف تكون
خليفة لأم كلثوم تتربع على عرش الغناء فى السنوات القليلة
المقبلة . ورغم صورتها وصورة سامى النهري واسمها وكلمات
الأغنية الموضوعة لها فانها ظلت الى آخر لحظة لا تعرف هل تشكر
عبد القوى بك أم لا وان شكرته فماذا تقول . ما أدهشها أكثر
وأكثر هو ان كافة الأخبار والتعليقات التى قرئت عليها بعد مقال
عبد القوى بك كانت حافلة بنفس المبارات والأصاف وتتوقع لها

نفس ما توقعه عبد القوى بك رغم انهم لم يروها ولم ترمهم على الإطلاق ..

٣٣

ما أعظمها من ليلة وما أعظمه من لحن . أما الكلام فلم يكن له أى معنى ولم تفهم منه شيئا ، انما اللحن كان حصانا جميلا ركبه صوتها وانطلق بدون فروسية سابقة يتراقص ويملا الحضور بهجة وهيجا ، وكان مقدرا له ربع ساعة ففنته فى ثلاثين دقيقة . شيعها جمهور العاصمة العظيم بعواصف من التصفيق سجلتها على شريط الأذنين .

حتى اذا ما ودعت خشة المسرح والموسيقيون خلفها مهنئين مادحين رأيت سائق التاكسى - زوج ابنة أم جابر - يشير لها على صفوف من الورود وسط دوائر من أقواس النصر ، ومن معها يقرأ لها أسماء مرسلها على بطاقات صغيرة تتوسط دوائر الورود . عرفت فيها أسماء المسئول الاذاعى الكبير وعبد القوى بك وسامى النهري وأسماء بعض المطربين والمطربات والموسيقيين اللامعين على الرغم من انها لا تعرفهم ولم تتشرف من قبل برؤيتهم أو التحدث اليهم . ثم ان السائق نقل لها بكل انبهار ما وصفها به مذيع الحفل من أوصاف يقشعر لها البدن ، وكيف انه بعد ان انتهى من وصف حتى فستانها وحركاتها استدعى الملحن والموسيقيين وأجرى معهم حوارا عن المطربة الصاعدة رشا الخضرى وعن خامة صوتها ، وكلهم تغزلوا فى صوتها وتوقعوا لها مستقبلا باهرا فى عالم الغناء -

٣٤

ليلتها تلقت أكثر من طلب فى المقابلة على انفراد وكلها من ناس كبار محترمين مثل المسئول الاذاعى الكبير وعبد القوى بك واحد الملحنين الكبار جدا جدا . فلما انفردت بكل منهم فى غرفتها

فى كواليس المسرح وساءلته عما يطلب صاح مستنكرا : « لا ليس الآن .. اننى أريد أن أتكلم معك على راحتى .. أطمح فى موعد فى أى وقت تحددين .. المسألة هامة جدا وتتعلق بمستقبل البلاد » . نشفت من فرط المفاجآت ، وكل الانتعاش الذى امتلأت به فى الحفل الناجح تبخر تماما أمام ناس يصعدون رأسها بكلام غامض لا تفهمه وكلهم يتحدثون فى عصبية وانفعال وبالفاظ قاسية وأحيانا نابية ولولا انها واثقة من انهم موظفى حكومة كبار لظنت انهم يطمعون فى حسنة أو مساعدة مالية ، نعم فقد كانت تحس من لهجتهم فى الحديث وزجائهم فى طلب المقابلة كانها شرطى أو صاحب فضل يخطبون وده ..

بقدر خيرتها كانت ذكية ، لم تطلب من أحدهم - على كبر مراكزهم - أن يزورها فى منزلها ، بل لقد تحاشت أن تعطى عنوانها لأى منهم ، حتى سامى النهى نفسه رغم ما أحاطها به من اهتمام صادق وما بثه فيها من يقين فى مستقبل جديد هو الآخر لم تشأ أن تعطيه عنوانها . لقد ورثت عن آبائها فى القرية اظهار الولاء للحكومة وأهلها دون اظهار الجفاء ، فهم دائما فى جانب ورجل الشعب فى جانب ، هم دائما خصوم ، لا يعرفون أباهم أو خالها أو جدما الا للأخذ منه أو تسخيريه أو تجنيده أو نفيه أو ضربه أو سجنه . هؤلاء مثل أولئك القدامى هم الكفرة الفجرة الذين يقصدهم سبحانه فى قرآنه الكريم ..

لكنها فى نفس الوقت كانت لا بد أن تستجيب لطلباتهم ، ليس لانهم سوف يتحكمون فى مستقبلها الفئائى بل لضعفهم واشفاقا على منظرهم وانتظارا لما سوف يقولونه أو يفعلونه اذا هم انفردوا بها كما طلبوا . أعطت لكل منهم ميعادا فى استراحة الفندق الذى اصطحبها اليه عبد القوى بك . فاذا بهم جميعا يستنكرون المكان وينفرون منه حتى عبد القوى بك نفسه نفر منه بشدة وقال انه ملىء بالواغش ، فلما سألته عما يقصده بالواغش قال انهم الصماليك النخراء والمخبرون والجواسيس والموسسات

والنصابون وتجار الآثار والعاديات . فتركت لكل منهم أن يختار المكان الذي يراه آمنا وصالحا لمهمة اللقاء . فاختار عبد القوى بك صناعى سیتی فى منتصف ليلة الأحد ، واختار المسئول الكبير أن تتناول العشاء معه فى منزله يوم الجمعة القادمة لكى تراها زوجها وأولاده وهم بها معجبون ، أما الملحن الكبير جدا جدا فقد اختار مقهى الأنفوشى فى ميدان المشهد الأزرقى فصرخت فيه مستنكرة فتعجب وأفهمها ان مقهى الأنفوشى مكان سياحى جميل وفى رحاب مولانا . . فقاطعته موضحة ان أقاربها كلهم يقيمون فى مولانا وسوف يفسدون عليهما صفو اللقاء ، فاختار أن يعزمها على الغداء فى عزبة أحد أصدقائه .

كان هو الوحيد من بينهم جميعا الذى رحبت باقتراحه دون مناقشة وفى حب لما شعرت به نحو الملحن الكبير من عاطفة جياشة لا تدرى مصدرها على التحقيق ، ان شكله الطيب المحمل بالمعانة وشحوب الآلام المزمنة ؟ أمن صوته الأجش الناقل رغم ذلك كل الأحاسيس بصدق وحساسية كبيرة ؟ أمن شخصيته الفنية الهادئة التى تحجم عن البدء بالشكوى وان صرخت بها مداعباته ونكاتة الحبيبة الضاحكة المبكية ؟

٣٥

ما قاله عبد القوى بك :

اسمعى لى يا آنسة رشا . . ان حال الصحافة فى البلاد لم يعد يسر عدوا أو حبيبا ، أنا مع سيادة الرئيس والمسئولين ان أهل الثقة يجب أن يسيطروا على كل شئ ، هذا مبدأ أقرهم عليه تماما . ولكن . . قد اختلف معهم حول أهل الثقة أنفسهم ، وأسألهم : من هم أهل الثقة ؟ هل هم الذين كانوا من قبل الثورة يعرفون رجال الثورة معرفة شخصية مثلا ؟ هل هم من أقاربهم ومعارفهم ؟ هل هم أولئك الذين يقدرّون على ركوب الموجة والهتاف وطلاء الوجوه ؟ فى رأى ان أهل الثقة الحقيقيين هم أولئك الذين فهموا

رسالة الثورة على حقيقتها ، هم الذين أيدها بالفعل والقول والتضحية ، هم الذين يحرسون على بقاء الثورة واستمرارها ثائرة عملاقة لا لمصلحة شخصية عابرة بل لمصلحة البلاد والأجيال المقبلة . هناك من كان يعرف قائلا أن رجال الثورة يجب أن يعودوا الى ثكناتهم وترك الحكم للمدنيين ويكتفيهم فخرا أنهم خلصوا البلاد من الطاغوت المستعمر وأذنا به المحليين . أما أنا فلم يكن هذا رأيي أبدا ولن يكون يا آنسة رشا . صدقيني . فأننى من أشد المؤمنين بأن هذه البلاد يجب أن يحكمها مستبد عادل يقهر الدهماء على احترام القانون والنظام ، ان البلاد مستقبلها مرهون باستتباب النظام ، واستتباب النظام مرهون بقوة النظام ، وقوة النظام مرهونة بتأييد الجماهير له ، وتأييد الجماهير مرهون بأفلام شريفة لم تملق الملك أو الاستعمار ولم يعرف عنها سوى الثورة الدائمة . لست أطلب مفعنا شخصا وحق الله يا آنسة . بل على العكس أنا أؤمن ان المسئولية غم لا غرم وتكليف لا تشريف ، ولكن ما يشغلنى هو أمن البلاد ومستقبل الرأى وحرية الصحافة وأمن الجميع لناخذ جريدة (الحرية) مثلا ، لا يحبون الثورة ، بل ان معظمهم واحد من اثنين ، أما ابن أسرة كبيرة معروفة بأن وجودها ضد مبادئ الثورة ولكنهم يظهرون التعاون مع الثورة للحفاظ على مصالحهم وأمنهم ، وأما ابن ناس فقراء ما صدق أن صعد الى طبقة جديدة فلم يعد مستعدا للنزول عنها درجة ولذا فهو يظهر التعاون مع الثورة حرصا على وظيفته وما هو فيه من أمله ، وكلاهما لا أمان له على الثورة يا آنسة . . . صدقيني . انهم فى أعماقهم يتمنون سقوط الثورة وعودة الملكية ونظام الأسر الكبيرة لعلهم يشكلون لأنفسهم أسرا كبيرة ، ان الثورة معناها ضبط المجتمع واخضاعه لنظم محددة فى الكسب والعمل المشروع ، وغدا أبشرك أن من تملكوا هذه المؤسسات سوف تشرب اليهم عدوى الشعور بأنهم يملكوا البلاد وسوف تكون هذه المؤسسات نفسها هى مصدرهم الوحيد للشراء ، سوف ينهبونها كل على طريقته ولن يجدوا فى النهاية المسئول من غير المسئول من فرط التسبب والضياع . ذلك لأن أهل الثقة

الحقيقيين أصبحوا كالعملة الجيدة التى تمكنت العملة الزديثة من
طردها من جنات النعيم • أن الأمر لا بد له من تنظيم يا آنسة •
لا بد له من غربة دقيقة • ان الصحافة غدت غابة تتناطح فيها
الوحوش والغربان بهراوة •

٣٦

ما قاله المسئول الاذاعى الكبير شedad النشرتاوى :

بصراحة يا آنسة ؟ لقد اكلت الحفل كله لحسابك • هـكذا
أم لا يا أولاد ؟ • • الواقع يا آنسة أننى أجعل من أولادى هؤلاء
مقياسا للحكم بنجاح البرامج والاغانى والالوان التمثيلية • ربما كان
فهمى فى الفنون قليل باعتبارى أحد رجال القانون ، ولكننى اعتمد
على ذوقى وذوق أولادى وذوق الجيران لانهم يمثلون الجمهور العادى
الذى نبث له فى نهاية الامر • لا تتصورين مدى سعادة الاولاد بك
يوم الحفل ومدى سعادة الجيران من اصدقائهم • هذه زوجتى كبيرة
وصغيرة كما ترين فى آن واحد ، كبيرة بحكم سنها ووضعها ومركزها
فى البيت ، وصغيرة بحكم مشاركتها للشباب فى أذواقهم التى تبدو
أحيانا متطرفة • وهذه ابنتى طالبة فى كلية الاقتصاد والعلوم
السياسية ولكنها قاموس فى الاغانى والالغان وأسماء الفنانين
واخبارهم • وهذا ابنى الاوسط وهو طالب فى كلية الطب لكنه من
هواة العزف على الجيتار وله ذوق شعبى أصيل • وهذا ابنى
الصغير ، طالب فى الثانوية العامة ، يفهم فى الفن أيضا ولكن
لا أحد منهم ينوى الاشتغال بالفن ، هكذا يقولون لى الآن ويعلم
الله ماذا سوف يقولونه غدا حين تنمو جراثيمة الفن فى نفوسهم • •

يسمع الانسان فى هذه الايام ما يشبه العجب • تصورى
يا آنسة ان هذا الرجل الحشاش الذى يصرف جل وقته وأمواله
فى قعدات الحشيش واللهو والمجون يشيع عن نفسه ان سوف
يكون مسئولاً عن التليفزيون ؟ • نعم نعم يا آنسة هو حشاش
لا أكثر • هو صحيح كان يعمل فى الاذاعة من قبل لسنوات طويلة
ولكنه لم يبرز فى عمل فنى أو حتى ادارى ، لكن يبدو أنه على علاقة
طيبة ببعضهم لدرجة أنه فى الايام الاخيرة بدأ يتردد اسمه وبدأ هو
يظهر كثيراً ويتقابل مع العاملين فى الجهازين ويقوم بعمليات مريبة
كأنه قد صار مسئولاً بالفعل • كم أنا حزين والله يا آنسة واخشى
ما اخشاه ان يتسرب الى صفوف الحقل الاعلامى ناس لا امان لهم
على الثورة ، انهم - أولئك المشكوك فى أمرهم يرهبوننا بقولهم
انهم أهل الخبرة وأهل الشأن فى الامر ، وواقع الامر أنهم يريدون
تحويل العمل الى كهنوت ٠٠

يقولون عنى اننى وافقت على منع الملحن فلان أو المطربة فلانة ،
وسمحت بمرور الممثل فلان والتقليل من عمل الممثلة فلانة ، ورغمت
أجر فلان ووضعت فلانة فى مرتبة النجوم ، واننى فعلت كل ذلك
بدوافع ذاتية أو لمصلحة شخصية • ولكن تعالوا نسال : من الذى
أثار مثل هذه الاقاويل وهى تبغنى أولاً بأول ؟ اليسوا هم الممثلون
والمطربون والملحنون والموسيقيون ؟ • انهم جميعاً عوالم فرح
والتعامل معهم يقتضى حنكه ، صحيح ان بعضهم لم يجرى من شارع
محمد على مباشرة ، وبعضهم ابن ناس حقيقى ، ولكن أخلاق
العوالم تسيطر عليهم جميعاً وتدمغهم بطابع واحد • عشت مسئولاً
قدر ما عشت لم تخب نظرتى فيهم أبداً • ويقولون اننى اغلق باب
الفرص على بعضهم واجبب الآخرين عن جمهورهم وما الى ذلك من
هذه الترهات ، وواقع الامر اننى لا أتخذ قراراً الا بعد دراسة
دقيقة له ولآثاره من جميع الوجوه • اشربى التمر هندى قبل ان
يبرد ، اقصد قبل ان يسخن ، سوف يعجبك • هنيئاً وشفاء ٠٠٠

كنت أقول ان الجهاز الذى اعمل على رأسه يحوى الكثير من الجيوب والمخايب، والدمايل ، لكننى متيقظ له غاية اليقظة . ان الجهاز لابد ان يتم تطهيره من المنحرفين والمنجلين وأعداء الثورة . تعال يا مبروكه ، على مهلك ، هات فنجانى هنا وضعى فنجان الهانم أمامها ولا داعى للصينيه ، اكملى التمر هندى يا آنسة رشا لكى تشربى القهوة ، على فكرة ، « مبروكه » هذه من أشد المعجبين بك ، ليلة الحفل كادت تطير من الفرح والانبساط ، لا تتأمل فيها هكذا يا بنت ، انها مخلوقة مثلنا ، مع السلامة أنت ، هى سوف تجيء كثيرا وسوف ترينها بعد ذلك كثيرا ، فى الحفلات طبعا ، وهنا كما تفضلت الآنسة وأعلنت ..

طبعا انت لست فى حاجة الى تنبيه ولكننى فقط ألفت نظرك الى الحذر من بعض المؤلفين الطالعين هذه الايام . فانا أخشى ان ارفض لك طلبا ، ولهذا عليك أن تكونى حريصة فى اختيار الكلمات المناسبة والملحن المناسب ، أفضل استشارتى قبل الاقدام على أى خطوة ، فانت قد التحقت بوسط يشبه الغابة المتوحشة ان لم يكن أكثر توحشا ، ولكننى بكل سرور اضع نفسى مشتشارا فنيا لك ..

٣٧

ما قاله الملحن الكبير جدا جدا الشيخ يحيى كامل :

هكذا أنا وهذه حياتى كما ترين يا آنستى : سهر فى الليل حتى مطلع الفجر بين هؤلاء الاصدقاء الابرياء ، هنا فى هذه العزبة أو فى منزلى بالعاصمة ، فى هذه العزبة يسكن أحد اقاربى الحاج « محمود صفوان » كان زميل مجاورا فى الازرق وكان أحد افراد بطانة الشيخ « شبكشى أمين » المشهور جدا ، الواقع كنت أنا وهو ضمن البطانة ، سلكت أنا سبيل التلحين ، وسلك هو سبيل الزراعة ولكن صداقتنا بقيت كما هى تنمو بنمو عمرنا المديد .

أحب الليل يا آنسة وأعشقه عشقى لعودى وأنغامى والحانى
عشقى لتلاوة القرآن واستجلاء معانيه العظيمة ، ولولاهما معا -
القرآن والليل - لما قدر لى ان اكون ملحنا أو موسيقيا أو أى
شئ ، فما أعظم تلاوة القرآن فى الليل حيث تتجاوب مع النفس
أصوات الطبيعية ليركب الحوار بينها فى تناسق وتناغم ، ان
أصوات الطبيعة بل ان الطبيعة نفسها هى التناغم ، هى سيمفونية
الاصوات ومعزوفة الخلود المتجدد ، لا يطفى صوت على صوت وليس
بينها صوت رئيس وآخر مرءوس وان كان هناك أصوات تمجد فى
صوت ولكن تمجد نفسها كذلك ، فدورها فى التمجيد هو معزوفتها
هو مقولتها فى حركة الوجود المتناغمة ، ليس فى الارض ما نسبه
بالديموقراطية مثل ديموقراطية الاصوات فى مجتمع الاصوات
الطبيعية . .

ليس فى المدينة ليل ، انه ايل صناعى كالمسلى للصناعى كالورد
الصناعى ككل صناعى لا صلة فيه ، ربما خيل ايك حسبما تقرأين
فى الصحف اننى ضد المجتمعات الصناعية او اننى عقلية زراعية
مضادة للعقلية الصناعية وما الى ذلك من هذا الحرف الذى تمتلئ
به صحافتنا ، بل اننى لا أومن بأننا مجتمع زراعى لا يصلح المعصر
الصناعى ، فالصناعة تطور يسرى من تلقاء ذات الانسان فى احشاء
كل الناس بصرف النظر عن طبيعة البيئة ، غير اننى لا أومن باصطناع
الأشياء الطبيعية ، انه منتهى السخف والضحك على الذقون وخداع
النفس ، ان نصطنع وردا جافا لا رائحة فيه ولا حياة . نفس الشئ
ينطبق فى نظرى على الالحان والموسيقى وكافة الفنون القولية
والادائية ، اننا حين نخلق الحانا وانغاما نقلد بها الغرب الوافد
علينا نصبح كمن ترك ماء نهره العذب ليشرب من ماء الطلمبات لمجرد
ان فى الامر فكرة الطلبة ، ان الانغام التى تسرى فى احشاء اى عمل
فنى لابد ان تكون ترجمانا للاحاساس الذى تكون فى بيئة معينة
وسط ظروف اجتماعية وكونية معينة .

أراك تستنكرين رؤيتنا الآن على هذا المنظر ، لكأنه شيء شاق بالنسبة لرجال مشهورين مثلنا ، ولكن ماذا فى الامر من غرابة ؟ ألم ترى قبلنا ناسا يحششون ؟ ٠٠ نعم هذا هو الحشيش ٠٠ اره لها يا حاج صفوان فهى بالقطع لم تره فى حياتها - خفق قلبها بشدة - ٠٠ ها هو ذا يا آنسة رشاً ٠٠ اسمه الحشيش مجرد نبات ربما كان للوهم دخل كبير فى عروقه ، لا أعرف كيف أعبر لك بالضبط ولكن ربما كنت اريد ان اقول ان الطبيعة نفسها زرعت الوهم فى ارضها فاكشفه الانسان واكتشف انه اذ يحرق هذا النبات ويتشرب انفاسه يصير فى حالة توافق تام مع النفس والمجتمع وهى كما تعلمين لحظة ندر ان تحدث للانسان فى حالة طبيعية خاصة اذا كان هذا الانسان فنانا ، الفنان لايمكن ان يتوافق مع نفسه ولا مع المجتمع والا فان توافق مع أيهما أصبح شخصا عاديا لا يرى مايراه الفنان ولا يحس بما يحس الفنان ومن ثم لا ينتج فنا ٠٠ هذا النبات الغريب يهئ لنا هذه اللحظة الكاذبة وهى ضرورية جداً لأن الفنان لا بد أن يعيش ولو للحظات بنفس الانسان العادى المتوافق مع نفسه ومع مجتمعه ، فهو فى مثل هذه اللحظات يلتقط بهدوء الحيوط التى توصله فى النهاية لبناء عمل فنى ٠٠

هم يقولون اننا منحرفون ، والذين يقولون هذا يقولونه فيما هم جلوس يحششون مثلنا أو يسكرون ٠ وهذا أمر لا يستأهل مشقة الرد عليه ٠ لكن ثمة أشياء أحب أن أقولها لمن يهमे الأمر ، اذا كانت الحشيشة هى كل خطيئتنا فما أهونها من خطيئة ، اننا نستعين بها على العناية وننسى خلالها مرارة العصور وامسياتها الكئيبات ، وليس ذلك هو الهدف والا فما كان أهونه ، انما الهدف ان تتمكن من فعل شيء طيب يبقى لنا ولل بشرية من بعدنا ، ان نترك فنا جادا تستفيد به الأجيال وتلجأ اليه عند القنوط ليملاها بهجة من جديد واصراراً على الحياة ٠ غيرنا يا آنسة - ولا داعى لذكر الأسماء أو التفصيل أو التفسير - يستهدف السهر للسهر وللسم ، وفى سبيل ذلك

ينفق الآلاف على موائد القمار فى الفنادق وعلى بطون الراقصات فى
شارع الهرم وصحارى سيتى ، وآخرون ينفقون كل ذلك فى
صفقات يعلم الله من الخاسر فيها بل يعلم الله من المباع ومن البائع
ليلو من كل واحد نفسه أولا ..

نعم لقد لمت نفسى وأشبعتها لوما على غير تهمة حقيقية واضحة ،
فلما شبت من اللوم وتعبت نبت السؤال فى داخلى : ما هى تهمتى
بالضبط ؟ فما وجدت تهمة . مع ذلك لا أزال أنهم نفسى بالغناء
والتخلف اذ هى عاجزة عن استكشاف تهمتها الحقيقية . كيف
لا أكون متهما بشئ وأنا قد عوقبت بمحو اسمى تماما من سجلات
الإذاعة ؟ لا أحد يكلفنى بتأحين ؟ وكل ملحن حتى أولاد أولادى
من الضعفاء والعجزة والمساكين فى عالم الغناء لهم أركان ثابتة على
الخريطة يملأونها بنى غناء ، وأما الغناء فمستبعد من القائمة ، حتى
الحانى الكبيرة التى سجلتها أكبر مطربة فى البلاد . حين لم يجدوا
مفرا من إذاعتها ترين المذيع لا يذكر انها من تلحينى ، هذا بالطبع
لا يهمنى لأن الإذاع العربية كلها نعرف بصمتى وتقرأ اسمى فى كل
نغم ولكن لماذا قلة الذوق والجليلة ، لماذا انكار أبسط حقوقى هكذا
بكل صفاقة وفتونة كأننى أعطيت الحانا لقيطة لا أب لها ؟ أليس
يكفيهم أنهم ضيقوا على الحناق ومنعوا عنى باب رزق فتحروه لكل
من هب ودب ؟ أليس يكفى اننى مستعد لقبول التلحين لأى حمار
نكير الصوت يفرضونه على ؟ ..

هم يزعمون ان التوصية بقطع الطريق على نزلت عليهم « من
فوق » ، وقد حرت فى معرفة من المقصود بفوق ولماذا هو حاقه على
وحدى ، أم تراه يكون على وجه الدقة واليقين ؟ الواقع لقد عجزت ،
وعادت كل وساطاتى الى كاسفة البال تقول وجوههم لأولادى ان
ميدان الفن والشهرة والفلاوس بالنسبة لكم ولأبيكم كان مجرد
اضغاث أحلام ، وان الأعمال التى تعب أبوكم فى بنائها وتبليغها
للناس دون مقابل ماذى يذكر قد انسييت تماما وكأنها لم تكن .

وأن الانسان - وليس أباكم وحده - يمكن ان يجتث من جذوره ومن ماضية ليصبح مجرد فرع لا قيمة له تذروه الرياح . مع العلم بأن هذا الانسان لم يخطئ في حياته ولم يرتكب اثما . لا يملك العقاب سوى الله عز وجل . وان قدر لبعض البشر ان يملكوا القدرة على العقاب فبأى ذنب يعاقب انسان مثلى ؟ لست سياسيا ولست أنتهى لأى حزب بل اننى كنت ولا أزال من أشد المؤمنين بالثورة المؤيدين لها ، وان كانت مخابرات الثورة قد أبلغت عني شيئا غير انوطنية الصادقة والحب الكبير للشعب وللثورة والمستقبل فانها تكون مخابرات مهيأة للنجاح فى مسابقات التأليف القصصى وائروائى ، واذا رجع المسئولون الى تقارير المخابرات التى وضعته عن المخابرات لوجدت ان المخابرات الفرعية ركزت خيالها على ناس يحششون ويتفنونون فى تحريك اعطاف الناس ، ونسيت ناسا يسكرون ويتاجرون فى مصائر البشر ، انما تعالوا ، الأمر ليس هكذا أبدا ، ان الرياح لا تأتى من هذه النافذة فيما أعتقد ..

الرياح تأتى من فوق الجبل الأعظم من « قمر » ، أعنى أكبر مطربة فى البلاد . سبحان من له القوة والسلطان والدوام . قامت على أساس متين من صنعنا . كل هذا المجد الشامخ صنعته ليالى أنا وزملائى وأصدقاؤى فى جلسات ضائعة كهذه التى تشرفيننا فيها الآن ، لحظات ضاعت على أولادنا واقتطعت من مستقبلهم ، فلو قضيناها فى جوارهم أو فى عمل يدر لهم دخلا ماديا لكان أفضل بكثير بالنسبة لهم ، لكننا وهم قد رضينا واستعذبنا هذه اللحظات التى نعانى منها نحن وهم ، أجل يا آنسه ، فأولادنا من قبلنا يستعذبون لحظتنا المشحونة بالعذاب والتوتر والفاقة لأنها لحظات نعمل فيها من أجل الجميع لا من أجلنا فحسب ، بل نعمل شيئا للآخرين ولا نعمل لأنفسنا أى شئ سوى النسب الشريف لهذه الأعمال . أكبر مطربة فى البلاد يا آنسه ، أضع النقط فوق الحروف ، هل أخاف ؟ ولماذا أخاف وحتى متى أظل أخاف ؟ .. بينى وبينها قضايا فى المحاكم والكل يعرف .

نعم أستطيع أن أقول لك الأسباب ، لقد لحت لها كل هذ
الألحان على مدى سنوات عشر هي أنضج سنوات عمرى وأحلى
ما أنتجت من فن ، كل لحن يناطح أخاه وينافسه فى حب الجماهير
الكبيرة ، كل لحن أقام حفلا من وراء حفل من وراء حفل حتى
امتألت خزائن القابضة وفاضت ، لكل لحن من تلك الألحان جذور
ممتدة ومتفرعة فى خزانة صاحبة الصوت الأعظم العجيب ، لكل
لحن درج حساب يقصب فى رصيدها بلا نهاية فكم أخذت أنا من
كل ذلك سوى بضع جنيهات قليلة الشأن لا تذكر لدى كل لحن ،
يكفى أن أجر اللحن لم يكن يكفى لكساء الأولاد فى صيف أو شتاء ،
ثم اللحن بكامله يكفى بالكاد لمشوتين وغدوتين وسهرتين نعانى
القحط بعدها ، فى حين ان اللحن لكى يصير لحنا ويستقيم على
صوتها وعلى الأوتار حدث ولا حرج عن معاناتى ، ربما انفقت ثلاث
شهور أو ربما عاما كاملا ، ليال متواصلة لا أكف خلالها عن مداعبة
الأوتار ونكش مدخراتى من الأحاسيس والمشاعر الصاحبة الساخنة ،
وأنفق على اعتدال المزاج والانتقالات والأعواد الموسيقية ما اقتطعه
من قوت أولادى ..

صاحبة الصوت الأعظم كبرياؤها أشد عظمة - العظمة لله
وحده - كيف أتجراً وأطالبها بإعادة التفاهم حول مسألة الأجر ؟
أراجعها فيما قدرت وتصرفت ؟ كيف ؟ .. كان المفروض ان أظل
أعمل بنفسية الأقدان والعبيد ، الانضواء فى ترس العمل حتى
فقدان الإرادة ، ان أظل ألبى الطلبات لمزيد من الأفلام الجديدة
والحفلات الجديدة تاركا مسألة الأجر تحددها كيفما تشاء وقتما
تحب ، ان أفاجأ بلقمة زائدة فوق إحدى الموائد فانتفض شاكرا
شاعرا بالامتنان لفضلها الكريم ، ان أتلقى من حين الى حين هبة
كبيرة أو صغرة ، ان أظل مجرد صفر مجرد ظل ، مجرد عامود
يندق فى الأرض خلفها ليعلقوا عليه مشعلا يلقي الضوء عليها ،
هى ، وهى فحسب .. انتى يا آنسة رشا - لا أقبل التعامل
بسياسة : جوع كلبك يتبعك .

كنت أظننى يا آنسة رشا حين اتخذت قرارى بالمواجهة قادرا على ذلك ، وأنا قادر بالفعل وهى لم تضع فى حسابها اننى صخر لم تضع فى حسابها أننى جئت من القرية مجاورا فى الأزرق وعشت قدر ما عشت بين رحاب الشهرة والمجد فلم أغير طبعى أو حياتى ولم تقبل الدنيا على بمادة يستتبعها تغير فى مستوى حياتنا الاجتماعى ونحن لسعداء بذلك اذ لن نخسر شيئا عند احتدام الصراع ، نسيت هى اننى سأصمد أمام انقطاع الأجور والمقاطعة .

وأما أنا فلم أكن بأقل غفلة منها ، اذ لم أضع فى حسابى ان خصمى وهو فرد يمكن ان يصبح دولة كاملة ، ان أحاصم شخصا فاذا بى مستهدف للخصام والمقاطعة من كافة الأجهزة . هل دالت دولتى كما يقول بعض الصحفيين المجاورين الذين امتلأت بهم صحافتنا الفنية والسياسية ؟ . لولا ان هؤلاء الذين تجلسين الآن بينهم من أصدقائى الخالص لقاطعونى هم الآخرين خوفا مما قد تجره عليهم معرفتى من مصائب والعياذ بالله . فانظرى يا آنستى كيف يتحول فنان مثلى الى منبوذ يمارس أحاسيس المجرمين المطاردين ؟ . آه .. أى امنهان هذا بحق الله ؟ ..



لم تشعر الآنسة رشا - أو البتة سابقا - بمثل ما شعرت به تجاه الملحن الشيخ « يحيى كامل » . طول عمرها تسمع اسمه ، لكن اسمه كان يتميز عن كل الأسماء التى تسمعا فى قريتها وفى المدينة بكونه ذى عمل واضح محدد ، كانت خزانة عقلها تحفظ بعديد من الأسماء تسمعا ليل نهار وتسمع عنها دون أن تعرف ماذا هى بالضبط وما عمل أصحابها ، أسماء غريبة تطفز على سطح دماغها كيفما اتفق وفى لحظات كثيرة . طالما سمعتها وتسمع عنها ولكنها لم تتوقف لتعرف ماذا هم بالضبط وماذا يعملون ولماذا هم دون غيرهم من الناس . أما الشيخ « يحيى كامل » فهو الاسم الوحيد الذى ان سمعته عرفت فى الحال انه الموسيقار الكبير الذى يلحن

الأغاني للمطربة الكبيرة « قمر » وغيرها من المطربات والمطربين ،
تعرف ذلك كما تعرف ان « أم كلثوم » مغنية ومحمد عبد الوهاب
مطرب وموسيقيار مثل الشيخ زكريا أحمد .

وساءلت نفسها : كيف يمكن ان يقع الظلم كله هكذا على
رجل كهذا ؟ . ركبها هم وغم شديد واقتشعر بدنها وأحست أنها
موشكة على الوقوع فى حفرة عميقة مظلمة وان ضلوعها سوف تتهشم
لا محالة . ارتفع صوت فى داخلها يسأل : أياكون الشيخ « يحيى
كامل » مذنباً فى حق الشعب مثل الملك السابق الذى طردوه من
البلد فى لحظة تسقط لها الجبلى ، من يدري ؟ هل كان يتصور أحد
أن الملك مجرم كبير يخطئ فى حق الشعب وهو ملك ابن ملك ؟
هل هو الزمن الذى يجوز على ناس وينحاز الى ناس ؟ أليس الزمن
يسيره الله ؟ اذن فالملك يستأهل ما جرى له ؟ ولكن ياربى هـى
لا تصدق ان الملحن الشيخ « يحيى كامل » يمكن ان يكون مجرماً
فى حق الشعب حتى يستأهل كل هذا الظلم . ربما أحست بشئ
من عدم الاهتمام تجاه « عبد القوى بك » والمستول الاذاعى الكبير
« شداد النشترتاوى » ، كلاهما لم تفهم من كلامه شيئاً وكانت كل
مهمتها فى اللقاء ان تصبر نفسها على احتمال الجلسة ، أما الملحن
الشيخ « يحيى كامل » فقد فهمت كلامه فهما جيداً كما أحست بأنها
لا تريد مغادرة جلسته . .

ثم ان السؤال الاكبر قام فى داخلها فجأة فانهارت له كل
قواها : لماذا يقولون لها هذا الكلام ؟ أترونهم يتصورونها رئيسة
الجمهورية ؟ هـى ليست ذكية حتى تعرف مقاصدهم على التحديد
وان حفظت كلامهم عن ظهر قلب وسجلته فى ذاكرتها كلمة كلمة ،
هـى كذلك ليست غبية ، فقد أحست كما لو أنهم يحثونها على تبليغ
هذا الحديث لأكبر مستول فى البلاد . ثم انزلت منها ضحكة مرة :
انها لا تعرف حتى أصغر مستول فى البلاد . كل ما نجحت فى
الكشف عنه طوال الأسابيع الماضية هو معرفة شئ واحد فقط عن
الشخص الذى كافأها ببقيشيش عظيم حين أعطأها بطاقته ، ذلك

انه شخص مهم جدا جدا ، فما هو اسمه على وجه التحديد ؟ هكذا سألت المهرب الذى أرسلها اليه ذات يوم لاستلام ثلاث صناديق فيها بساطم سيارات ، فمكر بها المهرب غاية المكر وظل برهة طويلة جدا يتصنع التذكر لكنه فى النهاية نصحها بعدم الاقدام على هذه المحاولة مرة أخرى والا تكون قد رمت بنفسها بين فكي المصيدة التى لا عودة منها مطلقا ، ثم أضاف بحنان حقيقى انه يقول لها هذه النصيحة حرصا منه عليها وحبا لها خاصة بعد ان فتح الله عليها باب العز والمجد والشهرة ، وكانت قد أطلقت بعض أتباعها فكلفوا بدورهم بعض معارفهم ليعرفوا اسم الرجل الذى يستأجر الشقة الفلانية فى البيت الفلانى فى الحى الفلانى ، فصرفت على ذلك مبلغا هوجعا ولكنها لم تتوقف عن مجاورة جمع المعلومات عنه الا يوم جاءها السائق زوج ابنة أم جابر ليهمس فى أذنها ملتاغا بأن المباحث قبضت على صديقه الذى ذهب يستعلم عن اسم ساكن الشقة لها ، سألته مذعورة واجفة القلب : كيف حدث ؟ ، فقال ان صديقه كان غيبا وهندفعا اذ تعرف على ابن البواب وسأله بشكل مباشر فاتضح ان ابن البواب أحد ضباط المباحث الذى اقتاده الى حيث لا يعرف أحد .

من يومها ظلت تتوقع الخطر بين لحظة وأخرى ، وكان القلق يفرى قلبها حتى كان يوم الحفل اذ فوجئت بالمستول الاذاعى الكبير « شداد النشترتاوى » يطرق عليها باب الكالوس ثم يدخل منحنيا ببطاقة ورد وخلفه شاب أنيق فيه وداعة الكلب البوليسى ونعومة ملمسة لكنك تحس الخطر كامنا فى جوفه الضريع . سلمت عليهما معا وأذنت لهما بالجلوس على الدكة الخشبية فجلسا ، وابتسم « شداد النشترتاوى » متمنيا حظا سعيدا ، ثم ابتسم مرة أخرى وقدم لها الشاب قائلا : « سيادة العميد شوكت الجزار » ، فبدا كل منهما فى عينها اثنين وكل شىء فى الغرفة ظهر له قرين حى ، وكادت المرأة الكبيرة التى تقف أمامها تميل عليها فصارت تعدلها وهى فى الواقع تحتاج لعدل نفسها ، وكانت من الذكاء بحيث دارت هذه

الرجفة فى بحث مصطنع فى حقيبة يدها فيما هى تقول : « أهلا أهلا .. تشرفنا .. ان شاء الله يكون لنا شرف حضورك الحفل » .
قال الشاب : « طبعاً طبعاً .. أمال أنا جاى ليه ؟ » . قال « شداد النشترتاوى » ان سيادة العميد جاء يستفهم منها عن بعض الأشياء .
قالت « خيرا » . قال الشاب العميد : « هل تعرفين سائق لورى اسمه عثمان المخصى ؟ » قالت : « أبداً .. عمرى ما سمعت بهذا الاسم .. ولست أعرف من السائقين سوى زوج ابنة أم جابر التى تخدمنى » . هز الشاب رأسه فى تأييد : « ولكن .. اليس من المحتمل أن يكون زوج ابنة أم جابر هذا قد كلفه بالبحث عن شىء ؟ » .
قالت بثقة : « لا يمكن .. انه مستقيم ولا يفارقنى وأعرف كل شىء عنه .. ما الأمر بالضبط من فضلك ؟ » . قال العميد : « لقد أمسكنا بولد مجنون يتجسس على عنوان أحد الملوك العرب اللاجئين فى القاهرة » . صاحت هى من الرعدة وشهقت : « أحد الملوك .. اذن فلا تتركوه .. أدبوه فهو يستأهل » . شوح العميد فى لا مبالاة : « لقد هشمنا عظامه وفى النهاية اكتشفنا انه قليل العقل ، ولم نقم وزنا لأى كلمة من كلامه سوى قوله ان حضرتك طلبت منه ذلك » . من فرط الرعب أطلقت ضحكة عالية هادرة كانت السبب فى ان يخبط العميد بيديه على ركبتيه ثم يقف مبتسماً : « هاهى ذى الشهرة تجيء وراءك بأضرارها من أول خطوة .. تمنياتنا لك بالنجاح » . ثم وقف « شداد النشترتاوى » وسلم عليها قائلاً : « اطمئنى .. كان سيادة العميد يريد أن يتعرف عليك بشكل طبيعى وبكل وضوح .. لأننى شرحت له وعرفته من أنت وبأوراق رسمية دامغة .. فهنئنا لك » . ثم خرجا معاً وتركاهما فى بلبلة نسيتهما فى تصفيق الجماهير وحرارة اللقاء بهم فى ذلك اللحن الجميل الخفيف، المبهج .

حارت ماذا تفعل فى هذا البحر الهائج الذى القى بها فيه ، لكنها فى النهاية قررت ان تترك نفسها للتيار يلعب بها كيفما شاء ولكن عليها ان تظل قريبة من الشطآن ، متيقظة للأمواج العالية .

أبدا لم يكن البحر هائجا كما تصورت ، ولم يكن ثمة أمواج عالية . ربما لأنها تعلمت السباحة جيدا وصارت في هذا البحر بلطية كبيرة ليس من السهل أبدا صيدها . عقدة ذنب صغيرة كانت تؤرقها فصممت على محو أسبابها . تلك هي البطاقة التي تسلمتها مطروفا مغلقا وسلمتها مطروفا مغلقا دون ان تكلف نفسها معرفة اسم صاحب البطاقة واسم المرسلة اليه البطاقة ، أما اسم المرسلة اليه البطاقة عرفته في أول خطوة وأما اسم صاحب البطاقة فقد ظل حتى الآن سرا مغلقا كلما تذكرته شبت النار في كيائها لبرهة ، حتى المهرب الشرقاوى لم يرسلها اليه ثانية ولم يرد له ذكر في حياتها بتاتا ، أما كانت تستطيع ، على الأقل ، فض المظروف وعرضه على من يقرأ عليها ؟ أم انها بمكر ريفي تكتمت الأمر وخشيت من فضحه خاصة انها لم تكن قد اقتنعت بطرق ذلك الباب ؟ ربما كان هذا هو السبب ولكنها صممت على معرفة القراءة والكتابة مهما كلفها الأمر ، انها على الأقل يجب أن تعرف كيف تقرأ رصيدها في البنك وكيف توقع على الشيكات وكيف تقرأ بنود العقود التي بدأت تنهال عليها من السينما والحفلات والمحلات الكبيرة ، يجب أن تقرأ ما تنشره الصحف عنها من أخبار متواصلة . وهكذا جرى لها بمدرسة فقيه كادت من فرط حبها له تمنحه جسدها لأكثر من مرة لولا تماسكها وتعففه . علمها القراءة والكتابة في خلال شهور قليلة فانفتحت أمامها الدنيا على الحقيقة ، واتسعت أمامها الأبواب والنوافذ وانفكت عشرات الرموز الغامضة .

فيلا «رشا الحضرى» فوق جبل الحواوشى أصبحت «محطة أتوبيس» يصبح عندها المحصل قائلا : « محطة رشا » . في حديقته المزهرة

تقف السيارة « الفولكيس واجن » ذات اللون الزهري مستعدة للذهاب الى المشاوير القريبة غير الهامة ، وفي حظيرة ملحقة بها تقف كالعروسة سيارة « بويك » مستعدة لمشاوير الاسكندرية والحفلات والأفراح واللقاءات المثررة .

علاقتها بالمهرب الشرقاوى لم تنقطع طوال ذلك ، بل تعمقت يقدر ما اتسعت وتنوعت . هذا الرجل لابس الجلباب الصوف صيف شتاء ، واللاسة البيضاء ، النظيفة دوما ، والحداء اللامع والصديري الشامى والخواتم الذهبية ، والهدوء والرزانة والعقل الواسع ، أبدا لا يجب ان تخدعك هذه الجلباب فتتصور انك جالس مع فلاح أو بالكثير عمدة ، انما أنت جالس مع ملك أو قائد كبير أو حاكم عظيم لا يرد له كلام ، مع انه بسيط وليس في مظهره أمر ولا نهى ولا صلف ولا غطرسة . فوجئت انه يرطن بعدة لفات وان خياله أوسع وأخصب مما تصورت . هو الذى فاجأها ذات يوم بأنه سيقوم لها حفلا فى بيروت . انتفضت من الفرح وعدم التصديق ، وظلت وقتا طويلا تردد : حفل فى بيروت ؟ ، الى ان فوجئت به بعد أيام يقول لها ان تذاكر الحفل قد نفدت عن آخرها لأن الاعلانات كانت على ما يرام . كيف اذن تملكك هذا الجبروت يا حاج « عطاطس » ؟ قال انه لم يفعل شيئا سوى الاتفاق مع شركة اعلانات ومكتب حفلات ، وليس مطلوبا منها سوى ان تكون جاهزة للسفر بعد شهر بأغنية أو اثنتين جديديتين . قالت ان التأليف والتلحين يتكلفان ، وسفر فرقة بحالها أكثر تكلفه . دفع لها برزمتين من الأوراق ، النقدية قائلا ان هذا من خيرها ، تنفقه على التأليف والتلحين والعازفين وبعد الحفل يكون له معها حساب ..

« سامى النهري » منتصب القامة الفنية على الدوام . الفنان الذى فيه ينتصب واقفا بمجرد لمس النقود . فتح درج مكتبه فأخرج ملفا به قصاصات ورق كثيرة انتقى منها واحدة ثم واحدة

قرأهما عليها فاعجبت بهما فقال انه اختارهما لأن لهما نبشا فى
أعماقه من سنوات .

٤٠

التصفيق موج فى أثر موج عال يرفعها على أجنحة سحرية
ويطير بها بين جبال لبنان العظيمة ، لا يريد تصفيق الجمهور فى
الحفل ان يتراجع أو يتباعد بل يرافقها فى كل خطوة ، تنداج
موجه التصفيق بعيدا فترفع بصرها خافقة القلب متهيأة لاستئناف
الفناء فلا تجد للجمهور أثرا ، لا تجد غير جمهور الكازينو المنحوت
فوق سطح الجبل والسيارات تسبح حواليه من كل ناحية كأنها
قوافل تتخبط فى متاهة دائرية لا تنتهى . الاستاذ «سامى النهري»
وقد أصر على مرافقتها فى الحفل يجلس فى جوارها ممسكا بعوده
يندنن أنغاما وافدة لا كلام لها . لقد اتفق على مجموعة ألحان لاذعة
بيروت واتفقت هى على أكثر من حفل جديد يلزمها أغان جديدة .
« سامى النهري » ليس يغلب طالما ان عوده معه ، أما الكلام فانه
دائما يصطحب معه « سمير بقلاوله » ، وهو شاب فى الخمسين كان
موهوبا فى التأليف ذات يوم لكنه لدناءة فى نفسه ابتذلت موهبته
وأصبح يعمل فى مرتبة صبى أو مرمطون للملحن «سامى النهري» ،
يشترى له الحشيش ويقوم بتوضيب السهرات ولف السجائر وشد
الأعواد ونقل الرسائل الشفهية بين سامى النهري والمطربات
الهاويات اللآتى ينتمين الى مدرسته ، عند الزنقة يكتب « سمير
بقلاوله » أى كلام وبالقطع سيكون موزونا ومستساغا وان فرغ
تماما من المعنى ..

الحاج « عطاطس » هو الآخر لم يضيع من الوقت ثانية ، كان
دائم الظهور فى محيطها والجميع يعرفه باعتباره سمسار حفلات
ناجح ويتملقونه سعييا وراء رزق يأتى من ورائه . وبالفعل -
وبفضله - تمكنت الفرقة من احياء سبع حفلات فى عشرة أيام عادت
بعدها « رشا » الى القاهرة بسيارة مرسيدس معبأة بالحشيش

والأفيون في كل أحشائها ابتداء من اطاراتها حتى كراسيها وفرغات الرافرف خلف الفوانيس . لم تكتشفها الجمارك بالطبع انما اكتشفت ان الراكبة هي المطربة الصاعدة « رشا الحضري » ، وتكفلت عينها بتحذير الجميع حتى قبلوا هداياها المتواضعة وتركوها تمر مشيعة بالتحية والاكبار ، وكانت قد أعدت حجة النجاة بأن السيارة لم تصبح بعد ملكا تاما لها وأنها تسلمتها هكذا دون فرصة لمراجعتها . ورغم أن هذه الحجة لم تكن صالحة للنجاة حقا الا انها كررتها . وكررت معها عشرات المئات من الرحلات المشابهة في مشارق العرب ومغاربها ، وتنوعت المهربات والمجلوبات ولم يكتشف أمرها . . . أبدا .

٤١

« رشا الحضري » نمرة ثابتة في الاذاعة والتلفزيون وأخبار الصحف ، وفي ليالى الأعياد يكافئون الجمهور باظهارها تتكلم وتقول له كل سنة وأنت طيب يا جمهورى العزيز .

٤٢

من كان يظن أنها وقد استمدت قوتها وسلطانها من شخصية شبه مجهولة تصبح هي نفسها ذات هيبة وسلطان ؟ . أما عن نفسها فشخصيا لم تكن تتوقع أى شيء مما حدث طول حياتها ولا تتوقع ماذا سيحدث لها فى قابل الأيام . انما هي كانت تخشى ان تجيء اللحظة الموعودة ، ان يكتشف الذين بثوها شكواهم انها ليست أهلا لذلك وانها لا تعرف كيف تخدم صرصارا . غير ان هذه اللحظة لم تجيء أبدا ، بل جاءت لحظات أحلى وأروع ، لحظات أصبحت هي فيها قادرة على أن ترفع سماعة التلفون وتطلب أى شخصية تشاء : أنا « رشا الحضري » . . فلا تواجه أى حواجز صناعية . وهكذا تقابلت مع شخصيات كبيرة ذات سلطان

كبير وجامنتهم فى أفراحهم بالمجان ، وتقربت الى شخصيات أكبر وجامنتهم بالهدايا وبذلك خدمت ناسا كثيرين وتوسطت لفض مشاكل كثيرة عويصة بين زملاء كثيرين من أهل الفن حتى مشكلة الشيخ « يحيى كامل » مع المطربة الكبيرة « قمر » استطاعت ان تساهم فى حلها وديا وان يتنازل الشيخ يحيى عن قضاياها فى المحاكم وان تتنازل « قمر » عن بعض كبرياتها فى سبيل أن تعود المياه الى مجاريها وقد عادت ولكن بشكل محدود ..

٤٣

ماللدنيا مقلوبة هكذا والجو مقبض وينذر برياح عاصفة .
 الصحف تجهمت فجأة ووجوه المذيعين والممثلين ووجوه البرامج كلها مرئية ومسموعة هى الأخرى تجهمت وتنكرت للهزل مرة واحدة . مقالات حماسية ورسائل موجهة من كبار الأدباء الى الرئيس الأمريكى ، وثمة من يطلب منها أغنية وطنية ، دهشت وقالت ما معنى وطنية ؟ قال لها مقدم برامج باذاعة صوت الأزارقة كلفة المسئولون بانتاج هذه الاغانى : « أغنية وطنية يعنى فيها غزل من أجل الوطن » ، فشردت لحظتها وقالت لنفسها ان الاستاذ سامى النهري يستطيع فعل كل شئ ، يستطيع الاتيان لها بشاعر يتغزل فى حب الوطن أو يتغزل فى حب الجبل ، فهكذا تريد الاذاعة وما عليها هى سوى الامثال غير ان مقدم البرامج الذى هو فى نفس الوقت له شركة انتاج سرية تنتج برامج منوعات هى خلطات متقنة من مختارات مما سجل على شرائط الاذاعة حيث يطلبها لعمله فى الاذاعة ثم يسربها الى الخارج لينتقى منها ما يريد ثم يرددها ، أولا يرددها والذى هو فى نفس الوقت أيضا مشرف على جانب كبير من الحفلات التى تقيمها الاذاعة حيث يتولى الاتفاق مع الفنانين ومساومتهم وملاعبتهم الخ - قال لها انه سيعفيها من مهمة الاختيار وسيختار لها ، ثم قدم لها أغنية سقيمة سخيفة عالية الصوت صاخبة ، من قبيل : « بلدنا مقبرة الغزاة .. » والى

يدخله يلاقى الموت حذاء ، • فغنتها ، ورغم ذلك لا تعرف ما الأمر
على وجه التحقيق ؟ •

مثلا تعودت - رمت وراء ظهرها بكل المقلقات ، اذ ما الذى
يقلقها ولماذا تقلق ؟ ان الله الذى أوصلها الى ما هى فيه الآن من
نعيم لن يقصد بها شرا أبدا ، على العكس لقد حماها من أبناء آدم
الذين قصدوا بها الشرور ، ها هى ذى ملكة غير متوجة لا زوج
ولا ابن ولا أحد يستأهل ان تقلق عليه ، انها لم تتعود ان تقلق
على أحد منذ ان سلختها أمها من جلدتها وباعها خالها بأرخص
الأثمان وهرب من وجودها كله زوجها هريدى •

لقد باتت اليوم تعرف من هو العدو الغاشم ، تعرف انه
ليس رجلا واحدا بل هو دولة يقولون انها صغيرة ولكن رشا
اكتشفت ان رمانة القبانى صغيرة كالكرة الشراب لكنها تزن
القنطار والقناطر المقنطرة ، وهى - رشا - تفتح أذنيها جيدا فى
سهراتها التى لم تخل أبدا من «عبد القوى بك» ، ومنه تعلمت الكثير
والكثير والكثير ، انها ان كانت تعلمت من الحياة كلها شيئا طول
عمرها فان ما تعلمته من « عبد القوى بك » وحده يفوق كل
ما تعلمته • كان اذ يجلس فى غرفة صالونها المطلة على حديقة
الفيلا فوق الحواشى العظيم يحس كأنه أخيرا قد وجد بيته وملأه • •
« أم جابر » وبعض أفراد عائلتها يظهرون فى الصالة ويبرزون
أصواتهم من حين الى حين ويقدمون لعبد القوى بك ما يحتاجه من
شراب أو مأكلا أو سجائر • أول من يجيى وآخر من ينصرف •
نضم السهرة فى العادة باقة ولكن غير متناسقة من الزوار : سامى
النهرى ، توتو الأبيض أشهر مقدم برامج فى التليفزيون ، علياء
المشهدى مقدمة البرامج الطرية العود والصوت ، حامد البحر
المحرر الفنى بمجلة النجوم ، سالم عقله مؤلف الأغاني المشهور
الذى كان فى الأصل حلاقا وتبنته رشا ، غير أن هؤلاء كانوا
ينصرفون قبل ابتداء السهرة الحقيقية التى تضم فى العادة أيضا

عبد القوى بك وسامى بك ومقدم البرامج بصوت الأزارقة وممثل مسرحى واذاعى كبير يمتلك هو الآخر شركة انتاج اذاعى خاص يبيعه لإذاعات الدول المجاورة من بطون بنى الأزرق ، حيث تمتد مائدة القمار تضيع فوقها الأموال والأهداف والنوايا الحسنة ويجلس الجميع كأننا تجمعوا لتعرية بعضهم البعض والسخرية من بعضهم البعض بعمق وحتى النخاع ، أحلى ما فيها خطب «عبد القوى بك» التى لايزال يرددها بمناسبة وبلا مناسبة . وإذا كان الجميع يضيّقون بهذه الخطب أحيانا ويسمعونها على مضض كانت هى فى أعماقها ترحب بها كل الترحيب لأن « عبد القوى بك » موهوب بالفعل يتحدث كأنه السحر المتدفق بلغة فصيحة كأنها لغة القرآن الكريم يتحدث عن العدو وخطره العالمى وما يسمى بالامبريالية ويتحدث عن الحكومة والشعب الذين هما معا نفس الطينة من نفس العجينة وكيف اننا جميعا نعطي مؤخرتنا للعدو وتتغاضى عنها فيما نحن منشغلون فى تحية المواكب والطواويس ، ثم ينهى حديثه باسماء حيث يشاركه الجميع فى نطق العبارة التى يحفظونها جيدا : « سوف تأكل الطواويس الطواويس » .

فى احدى الليالى - ولأول مرة - تخلف مقدم البرامج باذاعة صوت الأزارقة وطلب رأيها فى أمر هام . خيرا . قال لها انها حفل شديد الخصوصية أقرب الى حفل سمر على مستوى كبير بعض الشيء . قالت انها تحب مثل هذا النوع من الحفلات لأن جمهورها يكون خاصا ومؤدبا فى التعبير عن اعجابه . قال لها أما من حيث الجمهور فهو أكثر من خاص ، ولهذا فانها ستسلسطن على سبعة عشرة ، وان مناسبة الحفل وهدفها أكثر من خاص ولذا فهى لن تتقاضى عن الغناء أجرا ، بل ستكون متبرعة مثل رهط الفنانين الذين سيتشرفون بأحياء الحفل . انتفضت كل عروقتها واقفة كشعر القطعة المتحفة ، قالت أين العفل ومن صاحبها ؟ قال انه سيقام فى مدينة الحنافس على الحدود ، وفكرته اقترحتها صحيفة ناشئة نيابة عن أحد المراكز الثقافية الفنية المنتشرة فى الشرق الأزرق ،

على ان يقوم هو بتمويلها - ثم استبدرك منتبها - أقصد بصرف على نفقات الحفل التثريّة من طعام وشراب وكراسي وتقلات وما إلى ذلك ، والهدف من الحفل سام ونبيل : الترفيه عن رجال الجيش من حرس الحدود الذين كتب عليهم واجبهـم الوطني ان يعيشوا حياة جافة خالية من كل رفاهية وبما انهم مقبلون على معركة حامية الوطيس فالواجب الوطني والانسانى والقومى يحتم علينا ان نشارك فى هذه المعركة حتى ولو بمهمة الترفيه عن الجند . .

فى الحال قالت رشا انها موافقة وبكل سرور ما دام الامر كذلك . حينئذ اتسعت الابتسامة الشاحبة على شفتى مقدم برامج صوت الازارقة وارتعش شاربه الجميل فى بشر . ثم نهض واقفا وقال انه سوف يتصل بها خلال ايام قليلة ليبلغها عن موعد الحفل . ويوم الحفل سيتكفل ناس بامر انتقالها تحت الحراسة ، ووردها الى البيت تحت الحراسة ايضا .

٤٤

كانت تستعد للحفل المنتظر باغيتين قديمتين ، وكان صاحبنا قد تكفل باقناع الفرقة الموسيقية الكبيرة التى سوف تصاحبها وتصاحب غيرها طوال الحفل ، لا تدري كيف اقنعهم بالتبرع وهى تثق ان مسألة التبرع امر غير وارد فى قاموس حياتهم على الاطلاق ، لكنها لاحظت ان الفرقة تستجيب لطلباتها دون تنمر وتوافق على اجراء البروفة حسب مزاجها هى فى اى وقت تشاء . .

ولم يكن قد بقى على حفل الحنافس الا ايام قليلة حين طرق باب الفيلا من الخارج ونبحت الكلاب بشراسة ، ولم يفلح خفير الفيلا فى اسكاتها ، وكانت هى جالسة على مائدة القمار تطلق قهقهات عالية بلا معنى حين اقتحمتها اصوات الكلاب فاحست بانقباض فى صدرها وتسلسلت خارجة فاطقات انوارا كثيرة فى الصالون واغلقت باب الصالون بالفتاح وانطلقت فى الصلاة ومنها الى الشرفة المطلة

على باب الفيلا مباشرة فأضاءتها وصاحت بخوف : « فيه إيه يا عليوه » ، فصاح عليوه من بعيد مغليا على أصوات الكلاب قائلا ان سعادة البيك يريد مقابلتها لأمر مهم كما يقول فجاءها صوت مصقول مؤدب يصيح : « مساء الخير يا هانم .. أنا الرائد مجدى الصوفانى .. ممكن نقعد مع سعادتك خمس دقائق بالعدد ؟ » . قالت وقد أعجبها ان مثل هذا الرائد يستأذنها بأدب هكذا قائلا يا هانم : « بكل سرور . تفضل » . ثم دخلت ، مرت على الصالون ففتحته وأوصت بخفض الصوت تماما لأن ضيوفا أغرابا سيدخلون البيت . ثم أغلقت الباب بالمفتاح وأضاعت نور الانتريه واختفت بالداخل قليلا حتى تكفل الخفير بادخال الرائد مجدى وأجلاسه فى الانتريه ثم انصرف . بعد برهة طويلة دخلت اليه رشا تخطر كالبطة كأنها قائمة لتوها من حجرة النوم . وبعد برهة أطول دخلت أم جابر تحمل الصينية الفضية عليها زجاجة الكوكاكولا الثلجة والكوب الكريستال وضعتها أمام الرائد مجدى وانصرفت فقالت له رشا : تفضل ، وصبت له المشروب فى الكوب فصنع مظهرة لطيفة من الوشيش والطرطش . شغط رشفة مديدة ووضع الكوب فتلقفت رشا عينية قائمة كأنما من تحت اللحاف : « أهلا » . قال : « تشرفنا » . قالت : « خير » . قال : « الأمر بسيط .. سعادة مصطفى بيك يرجوك مقابلته لأمر هام وعاجل . شردت ثم قالت : « مصطفى بيك .. من هو عدم المؤاخدة ؟ » .

« مصطفى بك عصمت يا هانم الا تعرفينه ؟ » . هكذا صاح فيها الرائد بهدوء كأنه لا يصدق انها لا تعرفه . غير انها كانت بالحق لا تعرفه أبدا ، بل ربما كانت هذه أول مرة تسمع فيها اسمه . وقد راحت تنظر الى الرائد فى استقهام منتظرة أن يشفق عليها ويشرح لها من هو مصطفى بك عصمت ولماذا يطلبها على وجه الدقة ، لكنه لم يقتنع أبدا انها لا تعرفه ، ولهذا فقد انهى كوب المشروب ونهض واقفا وراح يكتب ورقة صغيرة قدها اليها قائلا : « للوعد غدا .. فى الحادية عشرة صباحا بمكتبه .. نرجو عدم

التأخير » • ثم سلم عليها بشئ وانصرف • وحين انصفق الباب منفلقا انكسرت في دماغها جدران زجاجية كثيرة واختلطت عشرات الصور ببعضها من كافة الأيام والسنين الفائتة كحلم ساحر ومخيف •

تهاوت جالسة على الكرسي وامسكت برأسها ونظرت في الورقة للمرة المائة محاولة استشفاف ما وراءها دون جدوى ، حيث لم يكتب فيها سوى : « مصطفى بك عصمت • ٤ حدائق اللبوة » • حتى الحى فكرت فيه وفيمن يسكنونه : حدائق اللبوة • • كان فى الماضى - كما تسمع اليوم - يسكنه الكبراء من الأسود فى عالم المال والاقطاع ، وكان أول من اتبنى فيه رجل يهوى تربية الأسود واطلاقها فى حديقته المهولة ، ومن بين أسوده كانت لديه لبوة تفعل الاعاجيب فى الحديقة ويتفرج عليها الناس بل يحجون اليها ، وقد جاورها عشرات الآثرياء بحدائق مثلها وأصبحت حيا كبيرا ينطق ساكنوه اسمه بكل تفخيم وتعظيم : حدائق اللبوة • كل ما تعرفه « رشا » عن الحى غير هذا انه حى قد أحيط مؤخرًا بالأسوار والحراس • كان بإمكان « رشا » ان تدلف الى غرفة الصالون وتستفهم عن حقيقة الأمر لينبرى عبد القوى بك شارحا لها كل شئ بأسهاب • لكنها أحبت أن تظل فلاحه مأكرة ، فلا داعى لاطلاعهم على هذا السر الذى يعد من أسرارها الخاصة •

٤٥

فوجئت بأنها فى نفس المنطقة التى سبق ان جاءت ذات يوم من أجل الاستفهام عن مصير عنتر كباية • أهذه اذن هى الحدائق • وهكذا زحفت سيارتها المرسيدس الفاخرة بكل ثقة ، وكلما نمهل فى طريقها حارس نظرت اليه نظرة تصرعه فى الحال قتिला ، فيزيح من أمامها المتاريس حتى وجدت ثمة سيارات راكنة فركنت بجوارها ثم نزلت وصفتت الباب خلفها ثم شرعت تخاطر كطائر

التورس فوق صفحة البحر . كان في استقبالها أكثر من واحد
يثبتن الزى الرسمي ويطلق على وجهه نظرة استنكار صارمة ولكن
مستعدة للمرونة . زحفت قصاصة الورق بأصابعها تجاههم فتلقفها
من يبدو انه كبيرهم ونظر فيها ثم انحنى لها باسماء وأشار لها ان
تتبعه . مضت خلفه . كان يبدو من ملبسه ومن خطوته انه صاحب
رتبة كبيرة ، يؤكدنا ان عشرات من الضباط كانوا يعظمونه طوال
الطريق . . .

خرجت من ممر طويل الى آخر أطول ثم الى ثالث أقبل طولاً ،
ثم حودت فإذا بها امام باب لم يكن يبدو انه باب الا حين فتحة
من يتقدمها . دخلت وراءه ، فوجدت امامها جدراناً منكسرة من
القطيفة الخضراء حودت من خللها فإذا بها امام حجرة مستطيلة
ملبئة بالاثاث الفاخر وفي نهايتها مكتب يجلس اليه عملاق كبير
يرتدي اللباس العسكري وعلى كتفيه نجوم وضيابير تفوق ما في
سماء قريتها ، وعلى ثديه شارات حمراء وزرقاء وخضراء ولا حصر
لها ، وفوق الرأس ذلك الكاب المخيف سقط قلبها في قدميها لبرهة
كما تعودت ، فطول عمرها لا يهزها في الدنيا شيء من الأعماق كما
يهزها اللباس العسكري ويلقى الرعب في قعر بطنها ، شعور
توارثته ولا تدرى له تفسيراً . . .

على انها حين تقدمت بضع خطوات منه كادت تتناثر الى فتات
تطاير في الهواء ورغم أن أجهزة التكيف كانت توحى اليها بوجود
رياح عاصفة في الخلاء فان جسدها كان مبتلاً بالعرق الساخن
كالبخار . نظرة واحدة نظرتها في عينيه ناكثت بعدها انه هو . .
نعم هو بعينه ذلك الرجل الذي اعطاها البطاقة ذات يوم لتكون
السبب في شهرتها الفاتحة والسنب في العز كله والهناء كله ، ها
هو ذا - أخيراً - صاحب البطاقة يظهر في حياتها من جديد وتراه
وجهاً لوجه مرة ثانية . بكل ما تبقى فيها من قوة وقدرة على
التماسك سلمت عليه ومنحته الكثير الكثير من الخشوع والشعور

بالامتنان فى ضغطة يد ، قال لها فى شعور حقيقى بالرضاء :
 « تفضلى » . الآن تأكدت بما لا يدع مجالا للشك انه هو ، نفس
 العينين نفس الأنف المستطيل المتأقف نفس الشفتين المطبقتين على
 شعور عميق بالخطر نفس اليد يلمسها نفس الصوت برنته
 وإيقاعه ، هى ليست تخيل أو توقع . لكن .. لم يتغير فيه سوى
 اللباس ، فحين رآته فى المرة الأولى كان باللباس الملوكى أفنديا
 عاديا . لم تسأل نفسها ما علاقته بالحاج عطاطس هل هى قرابة
 ربح أم قرابة دم أم قرابة طبع أم قرابة مصلحة ، كل ما يشغلها
 الآن شيء واحد راح دماغها يحدثها به فيما ينشغل عصمت بك فى
 توقيع بعض الأوراق : ها هو ذا الرجل الذى قدم اليك الجميل
 شرع يطلب أجره ، حقه ، كان من الواجب أن تسارع هى برد
 الجميل ولكنها سارعت ولم تفلح وهذه هى عصمتها عند اليوم ،
 ها قد آن الأوان لأن يأخذ حقه منها ، ترى أى ثمن سيطلب هذا
 العملاق ؟ هل تراه سيطلب صراحة أم سيسكت ويتركها تفهم من
 تلقاء نفسها ؟ أليس من المحتمل أن يكون انشغاله عنها هيبند
 اللحظات مقصودا به اعطاها مهلة للتفكير فى الأمر والتصرف
 بلباقة ؟ ولكن لا .. عصمت بك ليس هكذا أبدا ، لقد كان كريما
 معها فى أول لقاء ولا تظن أن الكرم صفة يصطنعها الانسان
 وقتما يريد ..

أخيرا أغلق أوراقه وأشار لمن كان حوله أن ينصرف ويغلق
 الباب تماما ، فحقق قلبها بشدة .. ثم ان عصمت بك أشعل قلبونه
 فى حماس مكشرا بين حاجبيه يشد النفس فى انفعال ، ثم قال
 نحوها قائلا : « رشا هانم .. احنا لنا عندك خدمة بسنيطة .. »
 خفق قلبها مرة ثانية واعتذلت فى جلستها وهزت رأسها موافقة :
 « وماله يا فندم .. احنا تحت الامر والاذن .. » ولو انى ما عدتش
 باسافر اليومين دول كثير .. تقريبا ما عدتش باسافر خالص
 لكن ما دام حضرتكم قصصوني فى حلقة اهلا وسهلا ..

ثم ارتعدت وصارت كالسمكة تنتفض في زيت مغلي .
 ادركت انها أخطأت بجهالة وغباء . ذلك أن عصمت بك نظر فيها
 نظرة جاحظة ذاهلة متشككة ، ثم أشعل غليونه مرة أخرى وشد
 الانفاس المتلاحقة وقال : « مش فاهم .. آيه دخل السفر هنا ..
 سفر آيه وبتاع آيه ؟ » . كانت ترتجف ، قالت وقد استتردت
 ذكائها ومكرها الريفي : « متأسفة .. افكرتها خدمة يعنى حفلة » .
 ثم أحسست ان اعتذارها غير مقنع على الإطلاق فابتسمت في ارتباك
 وقالت : « على كل حال .. الى تأمر بيه يمشى » . قال عصمت
 بك في جد كأنه قرر تأجيل الشك في ارتباكها هكذا : « الاستاذ
 عبد القوى بيسهر عندك .. طبعاً » . قالت بسرعة : « طبعاً ..
 مش هو لوحده .. دى مجموعة أصدقاء .. الاستاذ عبد القوى
 والاستاذ سامى وفلان وعلان » . قاطعها بكفه قائلاً : « مضبوط ..
 عايزين نعرف آيه الى بيقولوه .. الى بيعملوه احنا طبعاً عارفينه .
 مش مشكله .. بس آيه الى بيقولوه عن مشكلة الشرق الأزرق
 والسيد الرئيس والنظام وأوضاع المجتمع ، دى بصراحة معلومات
 تهمنا وعايزين نعرفها » .

اعتدلت رشا وتمطت بعض الشيء كأنها استراحت ، قالت :
 « هى دى المهمة الى سعادتك عايزنى عشانها ؟ » . نقر بأصبعه
 سطح المكتب : « عليكى نور » قالت فى براءة : « بس أنا مش ممكن
 أقدر أفكر أى كلمة .. من حيث الكلام أهم بيتكلموا .. زى كل
 الناس ما بتتكلم .. بس كلامهم بيبقى أعق شويه .. زى ما تقول
 أنهم عارفين حاجات كثير الناس ما تعرفهاش » . صاح عصمت
 بك وكاد يقف : « زى آيه .. أهو ده الى أحنا عايزين نعرفه ..
 آيه بالضبط الحاجات الى بيعرفوها ؟ .. قولى يا رشا ماتخافيش ..
 قالت رشا فى براءة : « لا مش قصدى .. قصدى أنهم .. اسمها
 آيه الكلمة الى بتقولوها على الناس الى عارفين ومتعلمين .. مثقفين

.. أيوه .. مثقفين ، . ضحك عصمت بك حتى دمعت عيناه .
 قال « على كل حال .. الخدمة الي تقديمها لنا بسيطة .. الرجالة
 بتوعنا حيزوروا الفيلا بتاعتك لمدة نص ساعة بس .. مش
 حيفتشوا على أى حاجة .. بس حيركبوا حاجة بسيطة كده فى
 الصالون . وبعد كام يوم حيروحوا يفكوها ويجيبوها لى هنا ..
 موافقة ؟ قالت وقد غرقت فى حيرة عميقة : « موافقة » .

ثم امتد بينهما الصمت لبرهة طويلة رد خلالها على التليفون
 مرة أو مرتين بسرعة . فلم تجد مفرا من الوقوف . واذ وقف هو
 الآخر ليسلم عليها ركزت فيه عينيها فلم يبد عليه مطلقا انه يعرفها
 من قبل أو رآها فى حياته . قالت له فى صوت مرتعش : « اظن
 سعادتك ماشفتنيش قبل كده ؟ » . قال بوجه مشدود وصوت
 حاد : « الحقيقة ما تشرفتش » قالت له : « من كام سنة كده ..
 مدة كبيرة ! الحقيقة .. كان .. كانت .. كنت » .. « آيه مالك
 .. مانمتيش امبارح كويس ؟ .. ما أعرفش ليه الناس بتخاف
 وتتربك أول ما تيجى عندنا .. يفقدوا القدرة على التركيز .. احنا
 بنخوف الناس ولا آيه ؟ » . اطلقت لضحكاتها العنان بعض الشئ .
 وقالت : « ما هى بصراحة حاجة تلخبط .. أصل سعادتك ..
 فى يوم من الأيام » . أرسل اليها نظرة شك قاتلة هذه المرة .
 شفعها بقوله : « تانى .. على كل حال أنا واثق انى ما تشرفتش
 برؤية سعادتك قبل كده » . فسلمت عليه بحرارة قاتلة : « على
 العموم فيه واحد يشبه سعادتك قدم لى خدمة كبيرة قوى قوى
 .. فحتى لو ما كنتش هو . قصدى لو ما كانش هو حضرتك ..
 برضه حاشكرك لانك شبهه » . فضحك عصمت بك عاليا وحز يدها
 كأنه يدفعها الى الخارج . فاستدارت ضاحكة وحيته بانحناءة
 قصيرة ثم انصرفت قاتلة فى نفسها : « وحق جلال الله هو بعينه
 مهما ينكر » .

حفلة مشنومة . باتت تكرهها كره العمى وترتعد كلما تذكرتها . كانت أول مرة ترى فيها مدينة الخنافس وهي مدينة على الحدود الشرقية لوادي بني الأزرق . ليلتها ما رأتها ولا غنت فيها . كان الحفل حافلا ، لكنه أبدا لم يكن لائقا ، ليلتها أسكروها رغما عنها فخرجت عن حدود اللياقة لتصير مثلهم جميعا ، وغنت حوالى ثلاثة أرباع الساعة وهي تنقص وتتلوى وتتوجع والجميع يتوجع معها ، كلهم رجال خشنون وغليظوا الطبع ويفترضون ان كل من عداهم هو العدو اللدود . دامت الحفل ليلتها حتى الصباح وبعدها بساعات قليلة اعترفوا جميعا فى الصحف والراديو والتليفزيون ان العدو قد دمر طائراتنا ودمر قدرتنا على التحليق والطيران .

كان عبد القوى بك يقول فى مرارة باكية : « الوطن .. الوطن .. فرطنا فيه » وكانت ترد قائلة فى نفسها : « ما الوطن .. ها هي الناس تعيش كما هي ولم يأخذ أحد بيوتهم ولا املاكهم ولا تعرض لهم فى ارزاقهم » ، وكان يقول : « الاستعمار .. الاحتلال .. » وكانت ترد قائلة فى نفسها : « طول عمرها وهي تسمح ان البلاد يحكمها الاستعمار الاجنبى .. وفي منتصف حياتها قامت ثورة ، ومنذ قامت وحتى الآن وهي لم تعرف على وجه التحديد ما هو الفرق بين حكومة الاحتلال الاجنبى وبين حكومة الثورة ؟ .. ان الجرائد والراديو يقولون ان الثورة خلصت البلاد من الاحتلال الاجنبى .. ومعنى ذلك انها لم تخلصها بعد من الاحتلال المحلى » .

ثم شجعت بيدها فى قروغ بال تحو عبد القوى بك فانزعج عبد القوى بك ورمى ورق اللعب من يديه واشعل سيجارة نفت ذخائنها فى شطور بالهم ، ووجه حديثه للجالسين قائلا : « الآن الآن فقط ، اقتنعت ان الوطن الحقيقى ليس هو الأرض أو العرض أو المكان أو ما الى ذلك .. الوطن الحقيقى هو الثقافة فى الوطن ، هو معنى يتعلمه الانسان ويتشقف به ، فبدون الاحساس بهذا المعنى

يصبح الوطن مجرد أرض ينتزعها الأقوى فلا بأس وعرضاً ينتهكه المتسلط فلا حول .. نعم يا خوتي .. ما أضيع الوطن بين يدي الدهماء ، وما أشقى أهله الواعين تحت أقدام المتسلطين .. ثم وجه الحديث نحوها - الويل لكم يا بناء بنى الأزرق الملاعين ما دام الوطن فكرة غائمة لا معنى لها في أذهانكم .. الذنب ليس ذنبكم على أئى حال بل ذنب آخرين لعلمهم المثقفون لعلمهم القادة لعلمه الاستعمار لعلمه الزمن لعلمه كل ذلك مجتمعا .. المهم انه شيء ليس يدعو للأسف فحسب بل يدعو - ولما أخذت يا سحت رشاً - الى الارتقاء .. ثم انه بصق في الهواء بقرف ونهض واقفا يلم سترته المترهلة ويصعد رباط عنقه الاثيق ، ثم انصرف صائحا كعادته فى مرح الصبيان وخفة المهرجين : « الى اللقاء غدا » - لكنه لم يطأ عتبة رشنا الخضرى من ليلتها ، بسبب بسيط وهو انه لم يعد يظهر على وجه الأرض بعدئها ..

٤٧

ركبها الهم والغم شهورا طويلة كانت فيها كالغريقة لا شيطان ولا بزور .. لا يمر يوم دون استدعائها الى مكان ما فى خدائق اللبوة ، ويوم لا يستدعيها احد يزورها آحاد بحجج مختلفة .. وكانت الحفلات قد توقفت تماما وعم البلدة كرب عظيم ، حتى الافراح التى دُعيت لاحتياها من بعض عليه القوم كانوا يقيمونها فى مسارح مغلقة ويقتصرون فى البهجة مراعاة لتأخر الموتى فيما أسموه بالنكسة وما أكثرهم ، نعم كانوا من الكثرة بحيث انها دهشت لأن يموت أو يتوه أو يتشرد كل هذا القدر من شباب بنى الأزرق فى ساعات قليلة من عمر الزمان .. شغل التهريب أيضا أصبح محاطا بالكدر مع أن أحجانه تزايدت وفرصه اتسعت اتساعا مذهلا .. سفرة فى السر أو سفرتين الى أوروبا فى حفلات وهمية لمدة اسبوع على الأكثر تعود منها محملة بالحقائب الخائفة بالثياب

أو الاماظ أو الدولارات أو علبا وصناديق مبهمة تتصاعد منها
عطور فاخرة ويتسللها في المطار ناس معينون .

الكدر لا يزال يغلف البلاد والجو لا ينبىء عن استقرار .
حتى لقد ضاقت بالحصار وفقدت أعصابها فباتت لا تنهأ بالنوم أو
الهدوء ، تبكى لاتفه الأسباب وتتنهد مصعدة عينيها الى السماء فى
ضراعة . أسود يوم جاءها آنذاك يوم استدعاء زوج ابنة ام جابر
الى الاحتياط ، وهو وعشرات الآلاف من الشبان الذين كانوا قد
أنهوا مدة خدمتهم فى الجيش وخرجوا لتوهم ، وظلت أم جابر
تملا أيامها وليلها بالعديد والبكاء الحارق ، وكان الليل على جبل
الحواوشى يريها مدينة العاصمة راكعة على قدميها كالبهيمة الفطسى .
ورغم كل هذه المحنة التى أحست بنفسها فيها لم يعاودها اللوم على
نفسها بسبب عدم ارتباطها بزواج يؤنس وحشة حياتها بولد أو
اثنين ، بل - رغم شعورها الفائق بالوحدة والخوف والضياع -
أيقنت من أنها كانت محقة حين لم ترتبط بأى رجل فى هذه المدينة
المنكفأة على وجهها ، فليس فيهم من يستطيع الحصول على ثقتها .
ليس فيهم من تستأمنه على ظهرها لحظة قصيرة واو فى الفراش . .
رن جرس الباب بعد شهور طويلة من الصدا ، وإذا بالقادم
رجل عملاق يلبس الحلة العسكرية ذات النياشين والضباير
والنجوم الصفراء اللامعة ، والكاب الأحمر . اعتقلت صرختها ونظرت
فى الخلاء فلم تجد أحدا سوى سيارة تعرفت عليها بسرعة ، ثم
اغلقت الباب وهى تقول لنفسها : « خير يا رب » . وكان الرجل
العسكرى قد جلس فى الانتريه وخلع الكاب وما ان رآها مقبلة
حتى زار فيها : « مساء الخير يا هانم » . فتسمرت فى وقفاتها
ترتمش : « مين ؟ » . قال : « اقعدى أحسن معنديش وقت » .
صاحت وهى تجلس مرتعدة : « معقول ؟ المعلم عطاطس ؟ » .
ابتسم : « براوه عليكى » . نظرت فى لباسه بكل ذهول ودهشة .
شوح بيده فى وجهها : « ما تاخديش فى بالك ثم مال عليها وهمس

في أذننا ان لديها غذا حفل في ضعيد الوادى في مدينة الأزرق
 سيشرفها بالحضور سيادة المحافظ ومدير الأمن ورؤساء المدن والقرى
 والهيئات الكبيرة ، والحفل سيكون كبيرا جدا وسوف لن تحصل
 على أجر لانه لصالح المجهود الحربى . قالت له : هل لك صلة
 بالجيش ؟ قال : لا . قالت : فلماذا ترتدى هذه البذلة اذن ؟
 قال ضاحكا انها ليست بذلة جيش انما هى بذلة بونيس . قالت :
 فما لك وللبوليس ؟ قال ضاحكا انه كان رتبة كبيرة فى الداخلية
 قبل ان يسوى معاشه ويستريح ويستقل وانه كثيرا ما يحن الى هذه
 البذلة التى ظل يحتفظ بها فيرتديها كل حين لدقائق معدودة يستعيد
 بها ماضيه المجيد ..

رشا لم تعد تهتز من هذه المفاجآت المذهلة ، فهى تعرف مقدما
 انها تعيش فى مدينة يسمونها أم العجب نسبة الى ما فيها من
 أعاجيب لا تنتهى . لهذا فقد انتقلت الى الحديث عن الحفل مباشرة
 كأن مفاجأة كهذه لم تحدث . أعطاهما مزيدا من التفاصيل عن
 الحفل . ثم أضاف باسم كعادته انه نظرا لكونها ستغنى فى الحفل
 مجانا فقد رأى أن يعوضها من ناحية مقابلة . قالت : كيف ؟
 قال أنها عند انتهاء وصلتها تقابل جماعة من العرب بعضهم غزائى
 وآخر بيروتى وثالث عمانى ورابع ألمانى ، سيصدقون اليها فى
 كواليس المسرح ويوقعون معها عقودا وهمية على حفلات تقيمها فى
 عدد من البلدان ثم تقبض منهم المبالغ المتفق عليها معهم ، وعاليها
 ان تورد هذه المبالغ اليه بعد عودتها من الحفل ليعطيها نصيبها من
 العمولة . قالت : اليس سأغنى ؟ قال : لا . هى تين أشييا
 بعثها لهم . ثم أضاف : ومن يدرى ؟ ربما أقاموا لك حفلات
 تغنى فيها بالفعل وحينئذ تحصلين على أجرىك .. والآن - ثم نهض
 واقفا - استأذنك فى أن أترك عندك أمانة لمدة يوم واحد حيث يمر
 أحد رجالى لاستلامها .. لا شأن لك بها .. سنضعها فى حجرة
 عليه ..

خفي قلبها . سألت متوجسة : « أمانة ؟ » . صباح :
 « لا تخافي .. هي ليست مخدرات .. انها .. انها بضائع ..
 ستلعب .. تعال وأمرى عليه بفتح حجرته » . ثم جذبها من يدها
 إلى الخلاء في الحديقة فصاحت : عليه . فجاء عليه يجري فقات
 له : افتح الحجرة التي نخزن فيها الكراكيب القديمة . فانطلق
 يجري خلف الفيلا حيث فتح الحجرة في البدروم أضاعها فظهرت
 الكراكيب والكراسي القديمة وظهر الغبار وظهرت الرطوبة . ودخل
 « عطاطس » وخلفه رجل يحمل على ظهره صندوقا من الخشب
 الإبل كاش الكبير مبرشم من جميع النواحي . ساعده عليه في وضعه
 وراح يعدله في ركنة مناسبة فما أن فرغ حتى دخل الشيبال
 بصندوق ثان ، ثم ثالث ثم رابع ، وكانت « رشا » تتابع ذلك في
 ذهول . فما أن شرعت تسأل كيف تم نقل هذه الصناديق سمعت
 مارشي سيارة نصف نقل . ثم رأت ظلالها تمرق إلى بعيد .. حينئذ
 جاؤت عطاطس وهبست في اذنه متوجسة : « آيه البضائع دى
 بالضبط ؟ » . قال المعلم عطاطس بكل بساطة انها مجموعة من
 الأسلحة لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة آلاف قطعة ما بين مسدس
 وبندقية وورشاش تسوقها سيادته من صعيد الودى بشق النفس
 وغالى الاثمان . قالت له : أهذه هي الصفقة التي سأقبض ثمنها في
 الحفل إذن ؟ قال نعم . ثم سلم عليها وانصرف مسرعا :

تركها واقفة على سلم الشرفة شاردة خائفة خوفا يشوبه بعض
 للذة . وكانت واقفة في سرها على ناس مجهولين لا تعرف من هم
 بالضبط . وكان عليه قد عاد ودخل حجرته المواجهة للشرفة تماما
 وأضاعها ففوجئت « رشا » انها أمام متحف شعبى طريف جدا وبهيج ،
 تصور لزميلاتهن وزملائهن من الفنانين منزوعة من المجلات الملونة
 وملتصقة بالحوائط كلها في تنسيق بديع ، وورق للراديو وآخر
 لأدوات الحلاقة وبعض البراويز المذهبة لصور أفراد أسرته .

وكانت ساعة الخائط الذهبية تعزف لعقاربها التي راحت ببطء وضعوبة تتسلق جدران الليل الموحش الكثيب ، وفرقة ثلاثى أضواء المسرح تتراقص على دق الطبل قائلة : « دكتور الحقنى المصص جوه فى بطنى .. أغلقت التليفزيون فى عصبية وتمددت ، فرن جرس التليفون فرفعت السماعة فى سأم : آلو . فجاءها صوت رقيق مؤدب « هاللو رشا هانم .. تسمحى لى بزيارة حضرتك خمس دقايق ؟ .. أنا « أحمد سليم » مدير مكتب مصطفى بك عظمة .. احنا لاتنين رتبة واحدة بس هو صاحب المكتب وأنا مديره هاما هاما .. حاكرون شاكر قوى لو حضرتك سمحتنى بالمقابلة .. الليلة ضرورى » . وافقت على الزيارة وانتظرت به قلق شديد ..

نفس الطابع كأنهم جميعا يصبون فى قالب واحد ، كل ما هنالك من اختلاف بينه وبين الآخرين ان اسمه « أحمد سليم » أهلاً وسهلاً . شرب الكوكاكولا ثم تلكأ حتى شرب قهوة ثم تلكأ حتى شرب كاسا من الويسكى ، والكأس يجبر أخيه ، وأخوه يجلب المزة ، والمزة تستدير العشاء . وهكذا سهر « أحمد سليم » سهرة خاطفة انتعش فيها وتعرف على نوع الويسكى وكم ثمنه فى داخل المطار وخارجه وكيف يششونه وكيف وكيف وكيف . كل ذلك ولم يعترف بهدفه من الزيارة المفاجئة ، فلما استحثته على ذلك أخبرها بشئ كثير وغريب من التشفى ان أمورا خطيرة قد وقعت فى الساعات القليلة الماضية : ثم رفع بصره واستقر به على صورة عبد الناصر داخل البرواز الذهبى الأنيق فارتسم على وجهه شعور كبير بالتقدير يشوبه شعور كبير بالخوف الغامض .. أحسنت رشا بذلك فابتسمت قائلة : « ما الأمر بالضبط ؟ » . قال لها ان مصطفى بك عظمة وقع فى الرئاسة واختلت الموازين فجأة بين

كافة الأصدقاء والاولياء فتفرقت السبل وحدث ما لم يكن يتوقعه احد ، اذ يجلس مصطفى بك عصمت الآن في منزله لا حول ولا طول بعد أن نزعته منه المسئولية . تنهدت رشا واستعادت بالله من شر النفوس ، وسألت أحمد سليم لماذا يقول لها هذا ؟ قال : « ظننت انك تمتين اليه بصلة قربي فاردت أن أنبهك لتأخذى جانب الحيطة والحذر ، فانهم لا يعرفون الله فى هذه المسألة . قالت له انها لم تكن تمت اليه بصلة . قال بخبت : ولا تورطت معه فى شيء ؟ . وجدت نفسها مضطرة الى أن تحكى له كل شيء عن المهمة التى ساعدت بها مصطفى عصمت . حينئذ هز رأسه فى أسف مصطفى قال انه من طينة مختلفة عن طينة هؤلاء الذين سيطروا على كل شيء بدون وجه حق ، وانه لهذا - جار عليه الزمن فمصريه مدير مكتب لأحد زملائه السابقين الذين كانوا فى الواقع أقل منه نبوغا ، وانه - لهذا ايضا - يشفق على الناس من ظلمهم البين الصارخ ، ولولا وجود أمثاله فى مركز كمركزه لما نجا أحد على الاطلاق من الأبرياء ، وانه - لهذا كذلك - أشفق عليها وعلى سمعتها وعلى مستقبلها مما يخبئ لها المستقبل ، ولما كان من المعجبين بصوتها فقد جاء يعرض خدماته ، ثم اختتم حديثه النشوان المتناثر مؤكدا لها انها لا يجب أن تخشى شيئا أو تقلق من شئ طالما هو يعيش على ظهر الأرض . ثم سألها : ألم يحدث لك استدعاءات كذا وكذا ؟ قالت نعم ، قال سوف لن تتكرر أبدا ، ولك مطلق الحرية فى أن تعيشين حياتك طولا وعرضا .

كانت تظن انها طرطشة النشوة بفعل الويسكى الجيد ، فاذا به يصدق فى وعوده ، واذا بها تعيش أسابيع فى راحة بال تخلو تماما من القلق . لهذا ألقت اليه بحبل الود متصلا ، فكان يزورها بين ليلة وأخرى ويقدم لها الخدمات والتسهيلات فى كل مكان ، وكان مجرد ظهوره معها فى بعض الأماكن يفتح أمامها أبواب الرزق بلا حساب .

وجدت نفسها تعيش معه أطول فترة ممكنة ، ووجدت انه
وقد عرف الكثير من دخالها وأسرارها • وشببت العواطف بينهما
شيئا فشيئا حتى اذا ما اشتعلت تماما قرر الاثنان استدعاء المأذون
بدون وعى • ولم تكن رشا لتدري انها قد وقعت عقد انعادهما عن
ساحة الفن تماما والى الأبد •

٤٩

لا تدري ان كانت الزواجع تقتحمها لتريها كيف تعصف
بالآخرين أم ان زوجها اللواء « أحمد سليم » هو الذى دأب على نقل
ما يحدث اليها أولا بأول ، فعلنا اليوم كذا ، فرضنا الحراسة على
فلان وذهبنا ووضعنا يدنا بالفعل على أموانه وثروته ، قبضنا على
فلانه ورحلنا فلانه الى دولتها الشقيقة ، التحقيق يدور مع الكاتب
فلان والممثل فلان والموسم فلانة لأنهم كشفوا عن تنظيم سرى
يمثلونه • كل ما تدريه رشا أن الواقع كان قد اختلط بالأساطير ،
هى لم تكن تعرف هذه الكلمة لكنها كانت تعرف ان الحوادث
التي استمعت اليها كلها لم تكن تخريفا من خلق خيال البشر ولم
تكن خيالا أبداً ؛ ، فها هى ذى نفسها قد طوردت من قريتها بلا ذنب
وألقي بها فى قلب المولد فاذا بها تصبح من أثرياء البلاد المعدودين
ومن المنع نجومها المعدودين وتجالس وتواخي وتتزوج حكامها وثوارها
الأشواوس ، هى ليست بدعا فى ذلك ، هى ليست البطلة الوحيدة
فى حوادث هذا الواقع ، فتمة ممثلة سينمائية صاعدة تزوجها
أحد كبار قادة الثورة ، وثمة مطربة كبيرة لها علاقات بغيره يعرفها
الناس من أقصى البلاد الى أقصاها وثمة ممثلة مسرحية ضربت
الرقم القياسى فى الصعود الى القمة ، هذا ما يردده الناس فى
الشوارع ولا بد ان ما خفى يكون أعظم بكل تأكيد ..

فرغ سوق المطربين والمغنيين تماما وخلا للمهرجين والمتزحلقين
على الجليد فى سخف • مطربة شامية رحلت وبيعت شقتها ، مطرب

شامى يهرب المخدرات ويتمكن من الهرب • رشا اكتفت بثروتها وحمدت الله على ما رزق ، والغناء •• على خفيف كما طلب زوجها « أحمد سليم » قالت : « يعنى حفله ولا حفلتين فى الشهر » • قال : « نعم لا بأس » • فلما جاءت الحفلات السرية كانت رشا تقتاد الى الحفل مخفورة بالحرس وتعود منه مخفورة بالحرس ، أحبت هذه المسألة فى بادئ الأمر ولكنها سرعان ما تأففت وتململت وأعلنت ضجرها ، خاصة ان الجمهور - كما بدا لها فى ذلك الوقت - كان قد مل هذا النوع من الغناء وباتت هى فى حاجة الى مسامرة ذوقه بأغان جديدة والحن جديدة كما يفعل البعض من المتربعين • ولكن زوجها • أحمد سليم كان يريد لها كما هى امرأة فحسب امرأة سرير على وجه التحديد لا أزيد ولا أقل ، ان هاتين العينين السميرتين - فيما شرع يقول لها - لا يجب أن يكون لهما مسامرا آخر سواء ، وهذا الجسد حرام أن تتناول عليه النظرات • وكن مصليا محترفا تقريبا ، كان حرفته الأصلية هى الصلاة والعمل شئ ثانوى ، وفى البداية كانت تحب فيه ذلك وتقدره حق قدره لكنها فوجئت بأنها كلما تعمقت المناقشة بينهما حول أمر من الأمور الجوهرية أو حول أزمة من الأزمات أجهز هو على كل شئ وشرع يقيم الصلاة ، وهكذا كم ضاعت أمور وحقائق ومصارحات وأشياء لاتجيد التعبير عنها ••

مع ذلك كان حيوانا جنسيا لا يشق له غبار • كان شيئا مروعا لم تسمع بمثله من قبل أبدا ، كانما دوره الوحيد فى الوجود هو المضاجعة ليل نهار دون توقف الا للحظات ضرورية ، حتى أجهدها تماما فى أشهر قليلة فأصابها اعياء وصداغ متواصلين ذهبت بسببهما الى أكثر من طبيب مشهور أجمعوا على ان الاجهاد ليس من هذه الناحية بل من ضغوط نفسية قوية ، عرفت لها فيما بعد ، حين كان يظل طول الليل يكشف لها عن أسرار يقشعر منها البدن ، ليس فى الدنيا شئ لا علم له به والعياذ بالله ، وكان

جسمها يغوص فى نفسه وتفيض الدماء فى وجهها كلما أمعن فى
الحكى عن أسرار البلاد والناس وما يفعلونه فى الخفاء حيث كانت
قد باتت تتوقع أن يخوض فى ماضيها هى الذى من المؤكد انه يعرفه .
كان بالغ القسوة ، يقطف الوردة وقبل أن يعلقها فى عرونها
يفحصها بكفه فيحولها الى هشيم ، ذابل . هكذا كانت تتصور نفسها
فى أعماق الليالى ، حيث تكون قد فقدت كل رغبة فى الجنس بل
وكرهت وجودها وصارت مجرد خرقه كالشاة لا يفيد سلعها بعد
ذبحها ، حتى الآن لم تجد تفسيراً لهذه العادة الحيوانية ، أن يقبل
عليها ليتناولها بعد أن تكون قد أصبحت جثة هامدة ، كيف كان
يجد شيئاً من المتعة ؟ ..

لا تنسى ليلة القميص الاسود ، ذلك الذى غواه فاستراه بها
من حر ماله وألبسها اياه ، ولما نظرت نفسها فى المرأة وجدت
نفسها غزالا أسود البطن والكتفين أما الوجه والذراعين فجاج مبهر .
وكانت قد أرغمته - لكى تلبسه بنفس - على الموافقة بأن تشرب
كأساً من الويسكى . وكانت واضحة ساقاً على ساق أمام مرآة
التسريحة فى يدها الكأس الخامس عشر وعلى السرير يتمدد زوجها
بساقيه الرفيعتين كارجل الماعز وكرشه وتدييه البارزين ، وكان
يضغط ساقيه فى بعضهما بعصبية فى انتظار أن تفرغ هى من
شرودها أما هى فكانت فى دوامة شديد العنف صنعتها كلمة قالها
عفوا : « رأيت اليوم اسمك فى كشوف الحراسات .. وبحثت
فوجدت عشرات من التقارير فى غير صالحك » . ظننته يمزح
فضحكت ، لكنه بكل وجه جاد وصارم كرر الخبر ، فبرقت فى
خيالها فكرة شريرة توعد إليها بأنه يسمى لغرض ، لكنه انفرط
نائماً فوق السرير كالواقع فى خطر حقيقى . سألته بجذ وخوف :
« وما العمل ؟ » . فسألها بجذ وخوف هو الآخر : « ما العمل
بالنسبة لى أنا .. كل خوفى الآن اننى قد صرت فى مواجهة
الريح .. يبدو ان الأمر ليس حراسة فقط بل يبدو أن ثمة

تحقيقات واتهامات و .. و .. و .. وربما اعتقالات ، ثم انه
- وبكل بساطة - جلس فأكل كالعادة حتى تكورت بطنه وتجشأ
كطائرة نفثة . الادهي من كل ذلك انه ينتظر أن تقوم اليه
وتواقعه .

بعدها لم يهدأ خاطرهما ولا استقر . لقد فوجئت به في خوف
حقيقي حتى لقد هزل جسمه وبرزت عضلات وجهه واختفى كرشه
وانصدت نفسه عن كل شيء فجأة . أشفقت عليه وأحست انها
تتحمل مسئوليته حيث انه كان دائم التردد عفوًا : « لست
أعرف ما الذي أخذوه عليك في تقاريرهم .. انهم جميعا وهم
زملاء يرفضون اطلاعي على أي شيء .. الغدر في عيونهم ومن الواضح أن
وراءك قصصا وقصصا » فكانت تعجز عن الرد ، فيستدرك قائلا :
« هناك من يهمس في أذني بأنك كنت على صلات واسعة جدا
وعلاقات عميقة ، وإن إشارة منك توظف شخصا أو تفصله وانك
كنت تقومين بتعين هذه السلطات وتقبضين أجرها غاليا والا ما تكونت
هذه الثروة من الغناء وحده ، وانك متهمة بأساءة استخدام العلاقات
والمتاجرة بأسماء مسئولين كبار .. الخ » . يقول ذلك وهو يكاد
يبكي والدموع في عينيه . من فرط الشعور بالاشفاق والمأساة
قالت له : « اسمع يا أحمد .. إذا كنت خائف من ارتباطي بك
طلقني .. ولي رب اسمه الكريم .. الحمد لله اننا لا عيل ولا تيل ..
من حسن حظك ما باخلفش » . عند ذلك انتفض واقفا كأنها قد
طعنته في شرفه ، صاح بكل شهامة : « أطلقك ؟ .. ازاى .. والله
لو حطولي الدنيا في كفه وانتي في كفه ، ما أطلقك أبدا .. ده حب
مش لعب عيال .. وأنا مستعد لأي تضحية في سبيلك .. انتي
فاكراني من اياهم ولا ايه .. لا يا هانم دانا راجل قوى .. دانا
فلاح صعيدي أفدى صديقي بروحي .. فما بالك بالحبيب ؟ »
فوقعت في متاهة . وسألت وما العمل ؟ قال ان قرار الحراسة
قد صدر بالفعل وانه بحكم مركزه بين زملائه استطاع - فقط -
أن يحملهم على تأجيل التنفيذ لساعات قليلة لعل وعسى .

سقطت مغشيا عليها . انقطعت الصلة تماما بينها وبين الحياة لمدة تو شك أن تكون دهرا ، لكنها حين آفاق من تلك الغيبوبة وجدت نفسها ممددة فوق السرير ووجدت فوق بلاطها أثار لهان جنس حقير فاشمأزت ولكن الكارثة عادت فدهمتها من جديد . فتأوهت بحرارة ، فزحف هو من المطبخ قادما يحمل كوبا من الشاي الاسود يغب منه بشراة ، وضعه على الكروميدينو وانحط جالسا يقول : « سلامتك يا حبيبتي » . نظرت له مهمومة تردد : « وبعدير يا أحمد ؟ » . قال بعد تفكير قليل : « مالكيش قرايب يعزو عليكى ؟ » . قالت : (لم ؟) . قال « الحل الوحيد الى حاقدنر أقدمه انك تكتبى كل ممتلكاتك باسم واحد قريبك ، بتاربع قديم ، تيجي الحراسة تحرس ماتلاقيش » . تنهدت قائلة : « ماليش حد فى الدنيا غير ربنا وانت » . قال : « ونعم بالله » . تكتبى باسمى ؟ أنا موافق » . نظرت فيه قائلة : « تفكر ؟ » . قال : « اذا كنتى بتثقى فى » . قالت : « ربنا يعلم » . قال : « إسألينى أنا عن الحراسة وشئون الحراسة والى بيحصل من تحت راس الحراسة .. مافيش حاجة تتحط تحت الحراسة وتنفج بعد كده ، لازم يخيب أملها .. و .. » . فقاطعتة قائلة بكل صدق وبراءة : « على كل حال الى عندك أحسن من الى عندهم .. أنا حاكتب لك كل شىء عندى وحاعتبر انى عينتك حارس عليها .. عزنها حراسة عائلية مننا فينا .. زيتنا فى ديقنا » . تجاهل معنى هذه السخرية العميقة وقال : « خلاص .. مفيش وقت .. اكتبى لى عقد بيع وشراء بتاريخ قديم .. أهو مجرد ورقة تبقى فى أيدينا يمكن نقدر ننقذ بيها الثروة .. وخلي بالك ان الحراسة مادام اتوضعت يبقى الأمل فى رفع الحراسة ضعيف .. مش جايز تتأم ؟ .. يلا يلا نروح للمحامى يكتب لنا العقد » . وكانت لا تزال تتلكأ فى النزول معه الى المحامى ، حتى اضطر الى فقد أعصابه فأخرج لها القرار من جيبه ودفع به فى وجهها قائلا : « جايز تكونى مش مصدقة .. أدى صورة القرار » .

فقرأتها بلهفة وكادت تقع مغشيا عليها للمرة الثانية ولكنه أسندها وراح يقرأ القرآن فى سرعة ولهوجة .

مر بها على ادارة الحراسات وطلب مقابلة ناس فلما قابلوه راحو يبدون أسفهم على صدور القرار ويوصون الهانم بالصبر . فقال لهم فى نبرة انتصار عالية ان الهانم اتضح انها لا تملك شيئا اذ كانت قد باعت ما تملك منذ وقت طويل . ثم انه أخذها وانطلق الى المحامى ، الذى أعد لهما عقدا محكما لا يخر الماء من بين بنوده . فلما وقعت على العقد وانتهى كل شىء استدرك المحامى فتقدم لهما بنصيحة ضرورية حتى تنجو هذه الثروة حقا من براثن الحراسة . قال معا : « ما هي ؟ » . قال المحامى : « الطلاق » . صرخ كلاهما : « الطلاق ؟ » . رد المحامى فى هدوء فولاذى : « وما المزعج فى هذا ؟ .. انه طلاق صورى .. فسخ أوراق لا أزيد ولا أقل .. وبما أن أحمد بك رجل مؤمن يخاف على سمعته عند الله فليصبر على الطلاق الجنسى بعض الوقت . أى انه طلاق مؤقت حتى تنجلي الأمور فتعود المياه الى مجاريها » . غرقت هى فى ذهولها أما هو فصار يقف ويقعد ويصيح : « كيف .. لا .. لا أطيق أنبعد عن رشا ولو لساعة واحدة .. طلاق ؟ .. لا ياعم .. هات عقد البيع . فلتأخذ الحراسة كل شىء وتبقى زوجتى أرى حضنها كل ليلة .. لا لا أنا لا أوافق على هذا المقترح القاسى » . وهكذا راح المحامى يتحايل عليه ويرجوه أن يتعقل وأن يضحى وأن يتحمل فى سبيل نجاح المشروع فانهم ليسوا يلعبون انما هم يقومون بتهريب ثروة لبعض الوقت من وراء ظهر الحكومة . وأخذ المحامى يستميل رشا فى صفه ويقنعها ويحسددها على حب زوجها لها الى أن انضمت اليه فاخذت ترجو زوجها أن يوافق على فكرة الطلاق وهو مؤقت . فى النهاية وافق على مضض . وجيء بالمأذون فطلقها طلبة بائة وخرج محملا بالنقود والهدايا ..

ليلتها عادت الى البيت فوجدت نفسها - برغمها - ترتدى

القميص الاسود ثم فوجئت بطرق على الأبواب ، فنهض زوجها
أحمد سليم وخرج الى الشرفة فتسللت خلفه من وراء ستار فرات
مجموعة من الضباط والعساكر يقفون الى بعيد وأحدهم يقف في
مواجهة زوجها الذي راح يقول في لهجة رسمية حاسمة :
« يا حضرة الضابط أنا قلت لسعادتك رشا الخضرى مش هنا ..
طلقتها .. وأدى وثيقة الطلاق » . ثم اختفى قليلا وعاد حاملا وثيقة
الطلاق فقرأها الضابط ثم قال : « بس الفيلا دى أصلا بتاعتها ..
ملكها » . فصاح زوجها باسمها فى سخرية : « لا ده كان زمان ..
الفيلا دلوقت ملكى أنا .. تحب سيادتك تشوف وثيقة البيع مفيش
مانع بس يعنى حضرتك لازم تقدر الظروف عشان ما ندخلش بيوت
ناس ونقعد نفتش ونبهدل فى أهلها بذنب ناس تانيين .. رشا
الخضرى مطلقة .. واذا كنتوا عايزينها فى حاجة أنا أجيبها لكم ..
حاتصل بيها وأخليها تيجى تقابلكم .. فى حدود يوم ولا يومين
بالكثير » . فرضى الضابط بهذا الكلام وحياء شاكرا ثم انصرف .
فلما انفردت بزوجها قال لها ان هؤلاء ليسوا تبع الحراسة
انما هم زوار الليل ومعنى قدومهم للسؤال عنها انها مطلوبة للتحقيق
فى أمور جد خطيرة قد تستغرق أياما . ثم أضاف بأنه أنكر
وجودها الآن لكى تذهب هى اليهم معززة مكربة بدلا من ذهابها فى
عربتهم كالمتهمة العادية ، ثم ليعطى نفسه فرصة التوصية عليها
بين المحققين حتى لا يرهقونها بالأسئلة .

السيارة المرسيدس هى الأخرى لم تعد ملكا لها ، فلقد وقعت
على عشرات الأوراق ولا تعرف هذه الورقة من تلك . وفى الصباح
كان عليوه - الذى أصبح يتلقى أوامره من سيده الجديد - قد فتح
غرفة المرسيدس ونظفها ولعبها . وهبطت رشا مرتدية البالطو
والفراء وغطاء للراس من القטיפه الثمينه وترتدى كذلك معظم
حليها ، وفوق عينيها نظارة سوداء . حودت الى الغرفة كالعادة
ودلقت الى المرسيدس فأدارتها وأشعلت سيجارة أمريكانية وراحت

تنفث الدخان فى سأم وقد امتلأ الفراغ أمامها بضباب كثير غامض
وامتلأت نفسها بهجوم ثقيلة غامضة ، وسخت السيارة بما فيه
الكفاية ، ولكنها كانت تحس برعشة فى ساقها وتسهل فى
الطلوع بالسيارة كأنها ستنفذ من جاذبية الأرض الى الخلاء
المجهول الشرس .

زحفت السيارة خارجة من غرفتها ثم حوت فوق الزلط الى
الباب المواجه . لكن السيارة أوقفت زحفها فجأة اذ انشقت ارض
عن أفندى متين البنيان نصف أنيق ونصف مهذب يشير بأصبعه
أمرًا للسيارة بالتوقف . ثم مال نحو الشباك : « رشا هانم ..
ضيوف بره منتظرين سعادتك » . نظرت فيه بأنفه واشمئشاط :
« مين سيادتك ؟ » . تجاهل ذلك ببرود : « أنا .. أنا الخدام
بتاعهم .. قالو لى انده لسعادتك » . أدركت على الفور ، ثم فكرت
نفخت من الفيظ ، ثم نزلت وهبذت الباب وراءها ، ثم تقدمته
خارجة فرأت سيارة كبيرة تثقف الى بعيد وبدخلها رجال . نزل
أحدهم واستقبلها باسم : « أهلا رشا هانم .. اتفضلى » . ثم
فتح باب السيارة المجاور له . قالت : « الى أين ؟ » . قال باسم :
« كلمتين صغيرتين وترجعى » . دارت بها الأرض ، تذكرت عثر
كبايه وعبد القوى بك وغيرهما ، تذكرت المعلم عطاطس ذا الوجهين ،
تذكرت مدراء مكاتب كبار القادة والمسئولين تذكرت عصمت بك
وأحمد سليم وتذكرت طفولتها البعيدة وحين صفقت الباب بعد
ركوبها سيارة الشرطة أيقنت انها هى الأخرى .. لن تعود ..

٥٠

أشهورا كانت أم دهورا ؟ والله انها لا تدري : غير أنها لن تنساها
مطلقا . منذ دخلت بها سيارة الشرطة ذلك المكان البعيد جدا فى
حدائق اللبوة ثم عادت بها فى المساء وسط كتل الظلام فى سيارة
مغلقة الى مكان ما على النوافذ ، مجرد حجرة بها سرير رخيص .

فوق هذا السرير وفي هذه الحجرة عاشت أسود أيام حياتها على الإطلاق ، تظل طول الليل تبكى وتصرخ وتندق الباب والجدران والأرض بقدميها وتمزق فى نفسها بأظافرها ، ولما انفتح الباب قليلا اندفعت الى الخارج صارخة صائحة مطالبة بمعرفة تهمتها على وجه التحقيق ولماذا هى هنا . كل بضعة أيام يحضر لها أحدهم ويلقى عليها بسخفة فى هيئة أسئلة لا حصر لها عن أشياء لا حصر لها لاتعرف عنها أى شئ ، عن أناس تسمع أسماءهم لأول مرة ، عن أماكن لم تسمع بها طول حياتها ، عن وقائع وأشياء لم ترد فى كتاب حياتها ، العجيب انهم لم يسألوها مطلقا عن مسائل تخص التهريب أو الاتجار فى المخدرات وكانت تظن ان هذه هى التهم الرئيسية ولكنها اكتشفت ان التهم أشكال وأنواع منها ما يمكن ان يكون كلاما غير مفهوم ولا معقول بالمرّة .

فى سبيل ان يعرفوا منها أشياء لاتعرف ما هى أوصلوها الى حافة الجنون خدشوا مكنون سرها فاندفعت تنتقم بشراسة ووحشية تضرب أى أحد فى «واجهتها بأى شئ تطله يدها ، حتى عرضتهم لفضائح واسعة ، فنقلوها الى المستشفى . وحين هدأت أعصابها قليلا طلبت ان تكلم أحد أفراد أسرتها . جاءوها بالتليفون سرا فطلبت نمرّة بيتها فى الحواوشى فظلت السماعة ترن فى دوى متصل ، حتى يشمت فتنازلت عن هذا الطلب مرة أخرى . ثم بعثت فى طلب زوجها - تقصد طليقها أحمد سليم فجاءتها من مكان عمله - ومع مخصوص على حسابها - أغرب مفاجأة يمكن ان تتوقعها ، حيث اتضح لها ان زوجها المحترم كان قد سرح من عمله قبل ان يتزوجها بشهور طويلة !!

لم يعد لها ملاذ سوى البكاء الغزير الساخن . فلما ذبلت العينين وانطفأ الجمال فبهما اكتشفت ملاذا أعظم هو الصلاة . . . فطلت تشغل وقتها ليل نهار مصلية متهجدة رافعة كفيها الى السماء ضارعة .

فاجأها الراديو ذات مغربية مشثومة بخبر موت الزعيم وبعدها
انشرخ الجو وانشقت الأرض وتزلزلت الجدران . وبكى وادى
الأزرق بكاء لا يذرفه الا نهر كنهـر النيل على زعيم كعبـد الناصر
أو سعد زغلول . وادى الأزرق مثل وادى النيل مثل وادى حلفا
مثل وادى الأردن ولذلك بكى بنو الأزرق كأنهم كل هؤلاء . وظل
البكاء والحويل يملأ سماء المنطقة أياما وينقله الراديو مشبعا بالكآبة
والمأساة السوداء . الى ان جاء يوم استلانت فيه الجدران كوجوه
السجانين .

٥١

شكرت الله ان سائق الاجرة لم يتعرف عليها ، ثم استرقت
نظرة الى مرآة السيارة فوجدت امامها وجها لا تكاد تعرفه ولا يمت
لها باى سبب . ولم يكن قد بقى فى حقيبتها حلى أو نقود بل لم يكن
قد بقى لها حقيبة من الأصل ، وهى فى الواقع ليست متأكدة مما اذا
كانت قد تركت حقيبتها فى السيارة المرسيدس ساعة نزلت لتقابل
أولئك الذين أسروها أم انها سلمتها فى الأمانات وادعوا انهم
لم يتسلموا شيئا ؟ . الظلم حرام وهى ليست متأكدة .

عند فيلا رشا بالخواوشى توقفت السيارة الاجرة ونزلت رشا
قائلة للسائق : « لحظة واحدة » . فقال السائق : « عايزه رشا
الخضرى ؟ » . « أظنها باعت الفيلا من زمان » . فاستدارت اليه كأنها
لا تعرف ، وبقلب مشقوق من الألم صاحت : « صحيح . وهى فى
عنوانها ما تعرفش ؟ » . قال السائق : « الحقيقة ما أعرفش . .
انتى قلتى لى فيلا رشا . . لو قلتى انك عايزه رشا نفسها كنت
قلت لك . . لكن والله ما أعرف عنها أى حاجة . . ربنا يعلم » .
كادت تبترسم وتكشف عن هذه اللعبة السخيفة ، لكنها قالت :
« طب خمسة بس وحارجع تانى يمكن تودينى مشوار » . وسربت
يدها من خصاص باب الفيلا ففتحته وصارت الكلاب تنبح فى

استقبالها بسرور حقيقى . ما كادت تصعد سلم الشرفة حتى انفتح الباب وخرج لها شاب رقيق وظهر خلفه فى الصالة أم متهتكه وثلاث بنات عرائس وطفلين وخادمة . شعرت بتقزز . قال الشاب : عايزه مين حضرتك ؟ . قالت : مش ده . منزل . . مدام رشا . . قصدى الأستاذ أحمد سليم ؟ . قام الشاب : لا يا أفندم . . لا ده ولا ده . . أى خدمة ثانية ؟ . أحسست ان شررا يتطاير من عينها . قالت : غريبة . زحفت نحوها الأم كأنها تريد معالجة الموقف بشكل أحسن قائلة : حضرتك مين ياسست هانم ؟ . قالت : أنا مدام رشا الخضرى . قالت السيدة كأنها لا تعرفها على الاطلاق : أهلا وسهلا بيكي ياختى عايزه مين حضرتك ؟ . قالت رشا وهى تسند قلبها وتبحث عن ريقها : « امال فين الأستاذ أحمد سليم . . ده بيتى . . وهو ز . . » . قاطعتها السيدة : « انتى بقى صاحبة البيت الى اشتراه منك ؟ . . على العموم أنا الست بتاعته أم الاولاد » - وأشارت الى الاولاد حولها ، ثم أضافت هامسة فى اذنها : « هو بصراحة ماهش هنا . . مسافر بلاد بره بقى له كام شهر » . قالت رشا محاولة إيقاف دموعها : « بيعمل ايه فى بلاد بره ؟ » . قالت السيدة : « الله أعلم يا اختى . . يوم ما سافر قال لنا مشوار صغير وراجع بعد اسبوع . . فات ييجى عشرميت اسبوع وماجاش . . والآخر سمعنا انه مش ناوى يرجع خالص . . أصله يا اختى زى ما تقولى واقع مع النظام والرياسة » . قالت رشا باكية : « وما بيتصلش بيكم » . قالت السيدة : « أبدا . . احنا كمان سبناه على راحته . . الحمد لله ربنا غانينا عنه . . ماتفضل ياختى نعمل لك فنجال قهوة ؟ » . قالت رشا من خلال غصه : متشكرة خالص . ثم نزلت تجر ساقها . .

رجت السائق أن يوصلها الى ميدان الجامع الأزرقى حيث توجد شقتها القديمة فى رعاية أم جابر ، الشى الوحيد الذى أخفته عن زوجها هو هذه الشقة ولم تكن تفتحها الا لتخزين شىء هام أو للإفراج عن شىء هام ، خيرا فعلت حين استجابت لنصيحة المعلم

عطاطس وأم جابر وغيرهما بعدم تفكيرها فى بيع الشقة فالأيام غير مضمونة ، هاهى الحكمة تتحقق بالفعل ، وها هى ذى تطرق باب نافذة غرفة أم جابر المظلة على الحارة وكانت تظن انها لن تجدها وانها لابد ان تكون قد فنيت فى الطوفان أو جرفتها رياح التغيير التى هبت على كل شىء فغيرت حتى معالم النفوس وجعلت الناس تفقد حيائها تتأجج وتتصافق وتستعد للخناق دونما سبب معلوم . . ولكن ، وكالعادة جاءها صوت أم جابر متحشرجا منسلتا من فوق الحصير عبر عشرات الكراكيب : « مين » . قالت رشا « أنا رشا صاحت أم جابر : « رشا ؟ » . قالت رشا : « ايوه - البتة » . قالت أم جابر من قلب كلیم : « قلب أمك . . جيتى يا اختى ؟ » ثم فتحت النافذة وتطلعت فى وجهها ، ثم اختفت وفتحت الباب وخرجت تحتضنها وتبكي . قالت رشا وهى تربت عليها فى حنان كبير : « هاتى مفتاح الشقة » - دخلت أم جابر وعادت فأغلقت باب غرفتها وتقدمتها صائحة : « تعالى يا اختى » ثم وصلت الى الشقة ففتحتها وصارت تنظفها . لكن رشا ما ان دخلت ووجدت كل شىء على ما هو عليه دون خدش دفعت بنفسها الى غرفة النوم وارتمت على سريرها القديم وشرعت تبكي بحرقة لكنها كانت تحس براحة عظيمة تتمشى فى أوصالها ، فها هى ذى فى النهاية تجد لنفسها ملاذا يثبت ان الله لا يزال معها .

شىء عجيب . كأنما عادت الى قوقعتها الأصيلة ، كأنها كانت شريذة طوال السنوات الماضية وعادت أخيرا الى شاطئ الأمان . هذا السرير الذى لا يصح أن يقارن بسرير فيلا الحواوشى ، وهذه السجاجيد دبرت ثمنها بشق النفس وحتى هذه الجدران نفسها كل ذلك بدالها رشيقا دقيقا متصاعدا الى أعلى بقناة تشق الظهر فاصلة بين ضلعي نفسها : « شكرا لك يا رب . . لقد أعطيتنى الدرس وقد وعيته . .

أنا في هذه اللحظة يارب قد فهمت لماذا فعلت بى هكذا في هذه المحنة الثقيلة .. نعم عرفت السبب وأنت محق تماما فيما فعلت بى .. فهذا طريق ما كان يجب ان أدخله من الأساس .. لكنه الشيطان .. زين لها كل شيء وقادها مخمورة فى طريق خلاص أفاقت منه وقد خسرت كل شيء .. هذه البنت التعيسة يارب هى أنا .. وانت يارب قد أكرمتها وحفظت لها ملاذا تبين فيه يستتر عرضها من الوحوش السامة .. رشا الخضرى .. هم .. نجمة صاعدة .. متألقه .. صور .. حفلات .. رقص .. حكمتك يارب ان رشا الخضرى لم يعد منها الآن أى شيء ، كل صورها فى الجرائد والمجلات استهلكتها جبال الفول والطعمية والترمس التى لا تنفد وأكلتها الحيز فى خرائب العاصمة ومزابلها التى لا تحصى ، وكل أغنياتها بضع شرائط فى مكتبة الاذاعة سقطت فى حفاثر النسيان منذ أفل نجمها .. حتى باروكات الشعر والفساتين والأحذية ضاعت وانتفع بها غيرها .. هذا الاسم يا رشا - أقصد يابته - يجب ان يسقط هو الآخر والى الأبد ، هى واثقة ان أحدا فى اذاعة بنى الأزرق لن يذيع اسمها أو صوتها أبدا طالما هى لم تتقابل ولم تلح ولم ترسل الهدايا والمجاملات .. رشا الخضرى اسم لمع وانطفأ وسوف تخدم ذبالتة ، وشخصية التبستها لسنوات وقد خلعتها .. من فات قديمه تاه .. الآن هى البتة .. من فضلك وحياة النبى عندك يا أم جابر ساعدنى على نسيان هذه الانسانيه .. هى لم تكن أنا .. أنا الآن لست هى .. هل أنا الآن أشبهها ؟ انظرى هاك وجهى هل هذا الوجه الطبيعى البائس الهادى هو وجهها الذى كان مجرد لوحة تلعب فوقها الفرش والألوان والمساحيق ليل نهار ؟ .. لا أظن يا أم جابر ان شبيها بيننا سوى العيينين ، ولكن عيني سوف تعودان شيئا فشيئا الى صفائهما القديم .. فى عرضك .. اذا سألك أحد عن رشا الخضرى التى كنت تخدعهمينا من قبل فقولى لهم اننى احدى قريباتها من بعيد وقد ورثت هذه الشقة أما هى فمنذ اختفت يعلم الله وحده أين مكانها ..

وكانت كلما جرت الدماء فى وجهها واستعادت ملامحها ذلك
الهدوء القديم نظرت فى وجه أم جابر باسمه وتساءلت كيف استطاعت
ان تقنع الناس ان البتعة ليست هى رشا الخضرى . لكن أم جابر
ابتسمت عن فم خرب لطيف وقالت فيما يشبه الفحيح انها لم تقنع
أحدا ولم تتكلم مع أحد فى هذا الشأن أبدا لأن أحدا لم يسألها
ولم يبد على أحد انه يعرف شيئا عن أى شىء !!

بل ان البتعة دهشت غاية الدهشة من ان أحدا فى الحارة
أو الحى أو فى المنطقة لم يلاحظ الشبه بينها وبين رشا الخضرى
المطربة المشهورة التى كانت نجمة قبل شهور ، الكل قد عاد من جديد
ينظر فى عينيها ولا يشغلهم سوى شخصية عينيها . كثيرا ما تمشت
فى سوق الخضار لابسة فستان المنزل ممسكة حقيبة الخضار
بيمنها ، غلبانة تيمسة منكسرة الى ان ترفع عينيها فكانما رفعت
خنجرين ماضيين . الوحيد الذى لاحظ الشبه بينها وبين المطربة
رشا الخضرى هو صاحبى الملعون كحكوح ولم يكن يعرف من قبل ان
« رشا الخضرى » هى « البتعة » حبيبته القديمة ، فهو لم يلتق
بالمعلم عطا طس من يومها الا لما ذلك ان رشا قد أغنته عن الاحتياج
لمثل مستوى كحكوح . وكان صاحبى كحكوح - ويا للعجب - من
أشد المعجبين بصوت « رشا الخضرى » وكان يروج له فى غرخته
ويقرا أخبارها وصورها ، ويقول معلقا كلما تمنع فى احدى صورها
المنشورة بالألوان على نتيجة حائط أو هدية مجلة : « باقولكو بنت
بلد مصفيه .. وحياة النبی جمالها ده ما تلاقيه الا فى البيوت
الأصيلة .. ثم يواصل بصوت أخف كأنه يوحى اليك بالخنف
انه يقول أشياء لا يضح التصريح بها - آ .. آ .. يوه .. دى مطربة
مسنوده يا آبا .. يقولوا خالها فلان الفلانى عضو مجلس قيادة
الثورة كان رئيس وزرا وكان وكان .. آمال .. بس بينى وبينك
صوتها مش بطل .. هو مش حلو قوى يعنى بس مش وحش ..
نص بلدى على نص أفرنجى » . وهكذا لم يكن ليخطر على بال صاحبى
كحكوح أبدا ان تكون « رشا الخضرى » هى نفسها بلحمها ودمها

« البتعة » فلما رآها ذات يوم تسير فى حى « القلليہ » وقف مسمرًا فى مكانه جاحظ العينين لا تكاد ترى له فما أو شفتين أو خدين، مجرد عينين صغيرتين تحت عمامة مملوكية كبيرة يشع منهما ضوء أزرق ساخر ذاهل معا . كانت فى الواقع تريد ان تتجاهله ولكن طلقة ضوء من عينيه العجيبتين فى عينها أجبرتها على الابتسام فى قليل من الحياء ، فتجراً فى الحال واقتحمها هامساً من بين نواجذه : « ايه الصدف السعيدة دى يامرہ .. كنتى فىن من زمان يابت: ٠٠٠ » احمر وجهها وجاهدت طويلا لكى تتخلص من رقة النجمة اللامعة ، وكان عليها أن تعقل ذلك بسرعة ، فزغدت تحت ثديه بقوة حنونـة وقالت : « اتاخر بس كده » ، ودفعته الى جوار الحائط بعيدا عن الجمهرة ثم قالت : « ازيك ياكحكوح .. ايه أخبارك واحشبنى » . قال بغبطه « انتى الى فىن ؟ » قالت متجوزه .. ومحصلش نصيب كل واحد راح لحاله « ثم ابتسمت حين رأت معالم التصديق على وجه كحكوح . ثم انه قال : « ولسه فى الكار ولا .. ثم بلهجة ذات معنى - هبرتى لك قرشين منه واتكلتى على الله .. ياترى كان سعودى ولا كويتى ولا بحرينى .. أنا شامم ريحة البترول يامرہ .. هو مش باين عليكى صحيح لكن ريحته باينه » . قالت متجاهلة كل ذلك « انهو كار تقصد ؟ » . قال كحكوح : « العشرة البلدى على واحدہ ونص » . قالت : « لا .. أنا نسييت الشغلہ دى خالص .. ولسه على باب الله » . قال كحكوح بجرأة من يخاطب البتعة : « ماتعميلك دولاب كده على الضيق زباين نضاف .. تقطعى لك فى اليوم عشر أوقيات يكرمك الله من ورائها بمائة جنيه على الاقل » .

رغم ان الفكرة ضربت فى رأسها كالفانوس المشتعل الا انها ابتسمت فى استنكار قائلة : « هه .. ع العموم ربنا يسهل .. عن اذنك » . ثم سلمت فى سرعة ومضت .

اختلت بنفسها وقلبت الفكرة فى رأسها ، هى تريد نقودا على وجه السرعة لتعيش منها هى وأم جابر . حاولت الاتصال بالمعلم

عطاطس فى بعض النمر السرية التى كانت تكلمه فيها ، فرد عليها أحدهم فى احدى النمر وطلب منها المجيء لمقابلته ، فذهبت اليه فاذا بها فى شقة محترمة فى ضاحية عريقة وامام شاب ظل يتفرس فيها طويلا واخيرا قال لها : « فيه ناس كتير بتسأل عن المعلم ده فى التليفون ده مع انه مش معروف لنا خالص .. ايه الحكاية مين هوه الاسم ده ؟ انتى اول واحد يقبل ويتفضل بالمجيء ، فارجوكى ان كنتى تعرفى حاجة عنه قوليهيا » .

وكانت نظرات البتعة قد تجولت فى انحاء الشقة فرأت صورة بالحجم الكبير فى برواز للمعلم عطاطس بذات نفسه ولكن فى لباس أنيق ، البذلة ورباط العنق على سنجة عشرة . فقالت للشباب : « تقول انك تريد ان تعرف شيئا عن المعلم عطاطس .. واسمح لى اسألك لكى أجيبك فيما بعد .. هل تعيش فى هذه الشقة منذ مدة طويلة ؟ » . قال : « لا .. منذ ان جئت لالتحق بالجامعة .. ومن قبل كانت بمثابة استراحة لخالى .. سالم بك الكردي » . أشارت الى الصورة الكبيرة « اهو ذلك الذى فى هذه الصورة ؟ » . قال : « نعم .. هو بعينه » . تأملته طويلا ثم قالت بسخرية عميقة : « يا جمال .. ايه الابيه دى كلها » . قال الشاب : « هو الآن يقيم فى باريس بصفة نهائية وان كانت هذه الشقة وغيرها لاتزال باسمه » . قالت « ماذا يفعل فى باريس .. يتاجر فى الأسلحة ؟ » . ضحك الشاب فضحكت هى الأخرى ، اذ ان الجرائد كانت لاتزال تنقل أخبار أحد قادة الجيش الذى هرب الى باريس من عشرات التهم وأقام هناك يتاجر فى الأسلحة . قال الشاب مستدركا : « لا .. خالى صاحب شركة ملاحه بحرية .. عنده أسطول كبير فيه حوالى خمسين ستن سفينه كبيرة شغالين فى أعالي البحار .. وكان عايز السفن بتاعته تحت العلم الأزرقى وتكون عاصمتها مقره الرئيس ، لكن الذين بيدهم الأمر وضعوا أمامه عشرات العراقيل حتى يبز باكر . قدر ممكن من العمولات .. على انهم لا يعرفون خالى .. عمولات من خالى ؟ .. ان حياته كلها قامت على العمولات وتكونت ثرواته

من العملات فكيف به هو نفسه يدفع عملات ؟ هو الآخر كان ابن هرمة ، بدا هو : لاتفاق بأن طلب العملات لنفسه من دولة الأزرق مقابل وضعه للعلم على سفنه . . .

رغم المأساة وتمزق نياط القلب ضحكت البتعة مع الشاب حتى قالا معا : اللهم أجعله خيرا . . واستطرد الشاب : « فما كان من خالى الا ان وضع سفنه تحت العلم اللبناني وجعل باريس مقره الرئيسى ، وله مكاتب فى أثينا والمانيا وجميع أنحاء العالم من أقصاه الى أقصاه » . دموع الضحك استدرت دموع البكاء فصارت تبكى بعنف وتنتفض وتوشك ان تقع فريسة اغواء لا نهائى . قال الشاب فى ذكاء برىء : « لقد فهمت . . لابد انك كنت على علاقة به ذات يوم ؟ » . قالت وهى تنهض مستعدة للانصراف : « لا . . لا اظن اننى رأيته من قبل ابداء » . نهض الشاب هو الآخر منزعجا : « ولكنك لم تخبرينى عن حقيقة المعلم عطاطس » قالت بصعوبة من بين دموعها : « انه رجل لاتعرفه . . يبدو انه كان ضيفا على هذه الشقة ذات يوم فأساء استغلالها . . أرجوك لا تسألنى عن شيء أكثر من هذا » ثم تقدمت نحو الباب ففتحتة وألقت بنفسها فى الشارع ثم فى عربة أجره وكان رأسها يدور بعنف .

نزلت فى ميدان المشهد الأزرقى واخترقته فالتقت بصاحبى كحكوح ذاهبا يشم . ازيك وأهلا ورايح فىن تعالى بس . مشيت بجواره دون حرج فاذا به يرتد بها قائلا : « بنت حلال . . فيه واحد صاحبى عايز مخزن . . ايه رأيك . . أهو قاعد عندى فوق . . الليلة بخمسة جنيهه للاقة ، حيخزن قولى عشرين آفة يعنى بميت جنيهه فى الليلة وعداد بيعد . . الكمية الى ياخذها تنخصم ويجي غيرها وغيرها وطول ما ربنا ساترها اهي فل » . راقت لها الفكرة . غمزته قائلة : « طب أنا مروحة . . هاته وتعالى ورايا » .

بعد ساعة جاءها كحكوح ومعه رجل رفيع كالسفاية ممصوص الدم رغم احمرار وجهه . من أول نظرة قدم لها عقدا شفويا غير

منطوق مفاده انه رجل لا باع له فى أمور النساء وانه دينه وديده العمل والأمانة وانه ملك لمن يصون الأمانة ناسف لمن يخونها فزغده كحكوح بعشم وقال له : « افق يا هذا : ان من يعاشر البتعة لا يسلوها أبدا .. اسألنى عنها هى تربية يدى » ، ثم أضاف وهو يشعل سيجارة : « أصل دى كمان ماهش شغلتها دى هواية عنده .. شغلتها الأصلية مغنية أفراح .. بزمتى ودينى شبه رشا الخضرى وتضربها بالصرمة صوتا وشكلا .. غير شى الدنيا هى الى حظوظ .. لكن معلش .. المهم الأصل والأمانة .. ست بتعة الحقيقة ما تتكلمش انت بخصوصها .. أنا المسئول .. فضحك الرجل السفاية ناظرا الى كحكوح نظرة ذات معنى كأنه يقول : « وانت من يضمنك يا جربوع ؟ لكنه اذار وجهه ناحية البتعة مشوحا بذراعه قائلا : « على بركة الله .. البضاعة حتوصلك .. » ، ثم نهض وهمس فى أذنها مكمل ان البضاعة ستكون عندها غدا فى الثانية عشرة ظهرا مع امرأة عجوز تحمل سلة على رأسها وتمشى تبيع الفجل منادية : « فىن أكالك ياورور » وعلى البتعة حين تسمعها ان تفتح باب البلكونة وتناديها قائلة : « ورينا كده الى معاكى يا-اجة » فتصعد الى الشقة وتدخلها لتترك البضاعة وتخرج فى دقائق معدودة ثم ان الرجل السفاية قال لها : « عايزه فلوس ياست بتعه ؟ » ثم أخرج رزمة كبيرة من عشرات الجنيهات وعد لها عشرةا سلمها لها مطبقة قائلا : « ليلتك فل » ، فأخذتها ووضعتها بجوارها فى اهمال قائلة : « طب المخزن وخلصنا منه .. افرض انى عايزه اشتغل قطاعى » . توقف ممتعضا : « لا بقى .. يادى .. يادى .. » . انصحك ما دام حتشتغلى مخزن بلاش تقطعى » . هزت كتفها قائلة فى ثقة وقد برقت الفكرة فى رأسها : « الللى بيشيل قربة مخروء ، بتخر على دماغه .. وأنا حاشيل القربة .. أنا حره .. يمكن عندى الى حيخزن والى حيبيع .. مالكش دعوه انت » . توقف الرجل السفاية حائرا لبرهة كأنه تورط . مرة أخرى زغده كحكوح فى جنبه : « اتكل على الله واسمع كلامها ميهمكش .. دى ست انما

دماغها كبير قوى قد مليون راجل .. صدقنى .. هز الرجل السفاية رأسه موافقا : « خلاص قطعى .. قطعيلك وقه .. وسهرها حسب السوق وأقل شوية عشان خاطر عيونك .. بس انتى تخلى بالك من نفسك » . قالت : « اطمئن » . فسلم عليها وانصرف .

٥٣

.. يوم اقتحمها الشحات لشراء ربع القرش لأحد الزبدان كانت قد مضت عليها مدة من الاستقلال تبيع لحسابها الخاص ويمولها مهرب كبير . ولانها سيدة جميلة وناعمة فزبائنها من الصفوة ولذا اختصها بأجود أنواع الهبو الذى لا يفهم قيمته الا كحشاش صاحب مزاج ، يدفع فى زنة قرش تعريفة ، خروم أربعين جنيها أو أكثر مع انه قد يحصل على نفس الكمية بجنيهين وربما بجنيه ونصف .

يومها دهشت حين رأت الشحات وابتسم وجهها . على غير العادة دخلت وراءه مباشرة وجلست بجواره قائلة : « خير يا شحات » . قال لها : « عايز ربع قرش » . وسرع الثلاث جنيهات فى وواجهته . قالت بابتسامتها العريضة : « لك ولا حتشربه ؟ » . قال باسم : « لى » . قالت : « يعنى حتاكل فيه عيش » قال ببسمة مرتعشة : « تقريبا » . قالت : « انت سبت كحكوح ؟ » فحكى لها الشحات ما حدث بكل دقة وصدق . نهضت وغابت داخل الشقة ثم عادت وأعطته قطعة سائبة - أى غير ملفوفة فى ورق سلوفان - تزن أكثر من نصف قرش بالراحة ، وقالت فى حنان عظيم : « خذ يا شحات » . فانبسطلت ملامحه من الفرح وناولها الجنيهاات الثلاثة مبرومة وفردتها وانتزعت منها جنيها أعطته له قائلة : « ده عشانك .. وكل ما تعوز حاجة تعال » . فشكرها ببسمة حيية وطلب ورقة سلوفان فلم يجد فنزع من علبة سجائره ورقتها واقتسم القطعة ولف أحد القسمين لفة جيدة واحتفظ بالنصف الآخر لنفسه ، وعندما صار فى بشر

السلم لف القطعة الأخرى وقرر ان يبيعها أيضا بثلاث جنيهات
لـيون آخر .

منذ ذلك التاريخ صار الزبائن يعفون أنفسهم من مهمة المغامرة
بمقابلة تاجر المخدرات وجها لوجه اذ يتكفل الشحات بتسليم
الصنف لهم فيما هم جلوسى على المقهى . جرى القرش فى يده وكان
وفيا للبتعه لا يعتمد على أحد غيرها كمصدر ، وكانت هى سر غايه
السرور وهى ترى الطابور يمتد حتى قرب شقتها ، فلما صار
الشحات هو كل شئ فى حياتها اراحت نفسها وانتهزت الفرصه
وتزوجته على سنة الله ورسوله وتسع البيع وعظم التوريد وقامت
لهما فى الحارة مملكة أى مملكة .

الباب العتيق

● عندما خطر لأبى شافية أن يسترد الوديدة

يرجع مرجوعنا لأبى شافية - الشحات سابقا - وكيف قبل مهمة القيام بالوساطة بين صاحبي كحكوح وزوجته . وكان أبو شافية قد أنبأ صاحبي كحكوح أن لديه مشورا ناحية بيتهم وسوف ينتهز الفرصة ويمر على الست ليعالج الأمر . فانطلقت أنا أجرى بلا توقف حتى وصلت الى صاحبتى .

لم أجدها بالمنزل . فنزلت أشم اثر خطواتها على الطريق فكلما امتلأت خياشيمي برائحتها أمعن فى المسير حتى وجدتها بلحمها سائرة فى شارع المصاغة مرتدية الملسى والحبرة والحذاء ولا يظهر من وجهها سوى عينيّن متلصصتين . قفزت أمامها وصرت

أشب واحمحم واطوح ذيلي وهي تكاد من فرحها تحتضنني على البعد
وتصيح قائلة : « طب تعال ورايا .. تعال » .

تبعتهما كظلهما حتى فوجئت بها تحود على دكان « شفيق »
الصائغ وخصم من ثمنه ما خصم على ذمة ما يسمونه بالتمغات
على أصبعها وانها - لهذا فقط - تريد بيعه . وزنه « شفيق » ،
الصائغ وخصم من ثمنه ما خصم على ذمة ما يسمونه بالتمغات
حتى يشمت صاحبتى فأخذت منه ما تبقى وانصرفت .. فعرفت
أنها بتبيع ما يصلح للبيع لتحمي بثمنه مالا يجوز بيعه ، فاعتظت
وحنقت من كثرة الاشفاق على صاحبتى . غير ان التوتر العصبي
ركبني فجأة فوقفت جحافل الشعر على جلدي كالاسلاك المدببة وصرت
أنبح فى عصبية نباحا متواصلا وصاحبتى تقول : « مالك .. ياترى
فيه ايه » . وحقيقة الأمر اننى كنت أشم رائحة كل من أبى شافيه
وصاحبى فى نفس المكان ..

حين تأكدت ان صاحبتى دخلت البيت بالفعل اندفعت أجرى
بأقصى سرعة حتى وصلت البيت منساقا وراء الرائحة وقد صدق
أنفى ، اذ لمحت صاحبى كحكوح يحوم حول البيت ويحاول الاختباء
منى . فرابطت أمام الدار واقفا على مؤخرتى منتصب الاذنين
متوفرا . ان هى الا برهة وجيزة حتى أقبلت صاحبتى تحمل بيدها
بعض اللقائف . فقممت بمناورة درت فيها حول صاحبتى دورتين
وحول منطقة البيت ثلاث مرات وحول المنطقة كلها أربع مرات ثم
استدردت عائدا فلحقت بصاحبتى على السلم . فتحت الباب بمفتاح
مربوط فى ضفيرة شعرها ثم أشارت لى فدخلت فلحقت هى بى
وأغلقت الباب . ما كادت تتخفف من أحمالها جتى طرق الباب
فاندفعت أنا أجرى تجاهه وهى فى اثرى قائلة : « مين ؟ » ، ثم ام
تنتظر ردا ففتحت الباب فاذا بأبى شافيه نفسه يكاد يسد فراغ
الباب قائلا : « مسا الخير عليهم » .

شبهت صاحبتي وضربت صدرها بيدها صائحة : « الحاج ؟ » ،
ثم ارتبكت قليلا ثم قالت : « اتفضل يا حاج » ، ووسعت له ، فتقدم
داخلا على استحياء وهو يقول : « أيوه الله حق الله » ، ثم تنحى
شأن الرجال المحترمين يحذرون النساء من ظهور صوت رجل غريب
فيحتشمن ، اما هي فكانها الرجل الذي خف لاستقباله .

١

لحقت به ففتحت باب غرفة الجلوس حيث الكنبتان البلدي
بفرشهما النظيف المغطى بكسوة الكريتون المزهزة الالوان :
« خطوة عزيزة يا حاج شحات ٠٠ والله زمان ٠٠ ايه الحكاية
ياترى » . وكانت الفرحة تطل من عيونها وأعطافها واردافها ،
ليقينيها أن الشحات لم يأت الا لمصلحة هامة وانه غير طامع فيها
اذ ما الذى يصيب رجلا ثريا كهذا بالخبل فيجعله وهو يقتنى
أجمل زوجة فى المنطقة يفكر فى مطاردة واحدة مثلها لا هى هنا
ولا هناك ٠٠ حينئذ فقط أدركت ان الزمام قد أفلت وانتهى الأمر
٠٠ فاقعيت أمام ابى شافيه مهمل الاذنين ضائق النفس
فيما اختفت صاحبتي داخل المطبخ .

صاح أبو شافيه : « ما تعمليش حاجة ٠٠ أنا والله شارب
كل حاجة تتصورها ٠٠ فضى نفسك وتعالى بس دول كلمتين
صغيرتين أحسن ما ورايش وقت » . فصاحت بدورها من داخل
المطبخ : « جرى ايه يا حاج و ده يليق برضه ٠٠ دانت بقى لك
سنين ما دخلتش بيتنا » .

تقلصت ملامح أبى شافيه فجأة وراح ينظر حواليه متلصصا
كأنه ينوى القيام بسرقة ، بل انه مط رقبتة كثيرا لينظر فى الصالة .
فلما اطمأن أخرج علبة النشوق الفضية خلصة وفتحها وسكب منها
مسحوقا أبيض فى راحة يده ثم شدّها بطاقة أنفه ، ثم كرر ذاك

فى الطاقة الثانية ، ثم أعاد الكرة مرة ثانية ثم دس العلبة فى جيب الصديرى وراح يدعك فى أنفه بلذة لا مثيل لها .

دخلت صاحبتى جاملة صينية ذات أبهة عليها كوب ذو أبهة عرف أبو شافيه منهما ومن الصينية ان صاحبتى سافرت الى بورسعيد أكثر من مرة ، فابتسم حين تذكر ان مثيلات هذه الأوانى فى منزله ترد من لندن وباريس على متون الطائرات محشوة بالحشيش الخام . جلست صاحبتى فى مواجهته على الكنبه الأخرى قائلة : « والله سلامات يا حاج . . عاش من شافك » . اعتدل أبو شافيه فى جلسته وتأهب للحديث فأخذت أنا أنبح بشدة ، فنظر الى فى قرف فظلمت أوصل النباح فقامت صاحبتى لتهشنى، ورأيت عيون أبى شافيه وهى تتصعلك فى نهم مروع على عجيذة صاحبتى التى لم تكن بالكبيرة ولا بالصغيرة بل كانت كخيوط وهمى يحدد بروزا رنسيقا دقيقا متصاعدا الى أعلى بقناة تشق الظهر فاصلة بين ضاهى الفستان المحتشم .

مالت صاحبتى لتحضننى كى اكف عن المهاترة ، فاندلقت نظرة أبى شافيه الى مقطع الفخذين بالساقين بسمانتى القدمين ، الكعبان ريلات من الفضة . احمد وجه أبى شافيه وبدأ انه قد وقع من طوله ولا يستطيع ضبط أعصابه . كانت رائحة الصابون الطيب تنبعث من صاحبتى . وفيما أنا أحول الزوغان منها داخلا الى القاعة استدارت هى بميلها متشبثة بى فاندلق صدرها فوق دماغى واذا بيدى تذبذب فى صدر صاحبتى مباشرة ولكن بحجة انه يخلصنى منها لتتفاهم معا باعتبارنا ذكورا نفهم بعضنا . نهشت يده بأطافرى وتركته يتأفف وجلست فى ركن وصاحبتى تؤنب فى وهو يتوعدننى ضاحكا .

ثم انه تخلص من الحذاء فى الأرض وربع ساقيه كفقيه سيقرا ربع قرآن ، لكنه بكل بساطة أخرج ربع الحشيش من جيبه وفركه فى كفه ثم أخرج سيجارة من العلبة فارتبكت يده فسقطت العلبة

فقامت صاحبتي وتناولتها وأخرجت السيجارة وتولت بنفسها
فركها بين راحتيها حتى تساقط نصف ما فيها من دخان ثم قدمتها
الى أبى شافيه . ملأ فراغ السيجارة بالحشيش مع قليل من حبات
الدخان كالقليل من الصودا على كأس الويسكى . ثم أشعل
السيجارة فتسلقت رائحة الحشيش كافة النوافذ صارخة صادحة
بما فى هذه التعميرة من بهجة وانس نادرين .

رشتته صاحبتي بنظرة من عينين كأنهما فجوتين ينحتون
الكحل منهما فلا تنفذ قالت : « أظن وجبت القهوة السادة » . ففوج
رأسه فى اغتباط طفولى وقال : « يا عينى » . فهبّت واقفة كالشهد
ومضت تتبخر كأنها ليست مجرد جسد كأجسادنا ملفوف فى
ثياب أنيفة ، إنما كل شيء فى جسدها له شخصيته البارزة القوية .
فكان جسدها مجموعة شخصيات جمالية تحرك بعضها فى اتساق
كان الطبيعة تتدلل وتتفنن فى برجلة عقول الرجال . اختفاؤها فى
المطبخ لم يقطع نظرة أبى شافيه التي كانت قد دقت بمسامير فى
نفس الاتجاه . أخرج من جيب الصديرى ورقة سلوفان فتحها
وقضم منها سنة أفيون كبيرة وصار يتلهظ . وكانت عينه نقول
بكل وضوح ان قوة فى الأرض لا ينبغي أن تحرّمه من « ودعة » ،
نعم انها ودعة فى هذا المكان وتحت سيطرة هذا الجبان حتى يجىء
هو ويستردها ، ولسوف يستردها ، فليس أحق بها سواء . سواء
هو وحده ، هى تحبه من قديم ، ما أحلى تلك الذكرى ، ما أحلى
القديم اذ يضئ لنا مسلكاً جديداً ، هى له وليذهب كل شيء الى
الجحيم ، اذا كان الله قد وهبته النعيم على يدي « البتعة » فانه
سيهبه الجنة على يدي « ودعة » . « البتعة » . انسانة طيبة أى نعم
وارجل من الرجال هذا صحيح وجميلة بلا شك ، لكنهما - عدم
المواخظة - كانت مجرد وسيط هياه الله له لكى يصبح فى هذه
الأملة ويجىء فى النهاية لينقذ « ودعة » من وساخة كحكوح ،
وله الحق كل الحق فى هذا فهو يفهم الاثنين ويشهد أمام الله ورسوله
ويقلب المصحف على عينيه انها ملاك يعاشر حيواناً زنديقاً سافلاً .

يكسب ثوابا لاشك من يتيح لهذه الحورية فرصة الخلاص من هذا القحف فهذا الجمال لا ينبغي ان يهان أبدا ، ان الحكومة كما قرأوا عليه في الصحف قد جندت البوليس الدولى كله ليساعدها فى البحث عن لوحة مسروقة من قصر لايدرى من ، وهى لوحة غالية الثمن فيما يقولون لأنها بريشة لايعرف من ، فاذا كان هناك من يدفع مثل هذه الآلاف المؤلفه فى لوحة رسمتها يد بشر مثلنا ، واذا كانت كل هذه الدول تهرع للمشاركة فى البحث وضبط اللص ، فما بالك بهذه التحفة الرائعة التى رسمتها ريشة الله سبحانه وتعالى ؟ المؤكد انها آية من آيات الله فى الخلق مجسدة فكيف يجوز امتهائها ؟ من رأى منكم منكرا فليغيره بيده وهذا منكروا وسوف يقوم بتغييره بيديه ، سوف ينفق عن سعة الى آخر قرش يملكه حتى يخلص وديعة من كحكوح الى الأبد .

حين دخلت صاحبتى بالقهوة فوق الصينية ومالت لتضعها أمامه كانت ابتسامة عريضة بلهاء قد حلت بشفتيه . تساءلت صاحبتى عما يضحكه فقال انه تذكر حدوده الشاطر حسن وست الحسن والجمال ، ثم ضحك بصوت عال فشاركته فى جذل وصوت ضحكها كرنين المعادن والأواني الأصيلة فى بيوت السلاطين، يطير منها لب أبى شافيه ، تؤكد له دقات قلبه انها هى الأميرة وهى القصر وهى الملكة بكامل هيأتها .

جلست صاحبتى على الكنبه المواجهة من جديد ورفعت ساقا لتضعهما على الأخرى فتحركت معها كل الأشياء فى عيني أبى شافيه . قالت صاحبتى : « لعله خير يا حاج » . قال أبو شافيه وهو يلوك الأفبونه ويرشف القهوة ويتردد : « الحقيقة كنت عايز أقول .. كحكوح .. » . ردت صاحبتى مشوحة : « قطع ولا كان » . وقرأت فى عينيها ان هذه العبارة مجرد عبارة تعبر بها - كذبا - عن صمودها وعدم رغبتها فى الاستماع الى سيرة الأبعد . وقرأت فى

عينى أبى شافيه انه قرر فجأة ان يغير من دوره وينفى الغرض
الاصلى من الزيارة ، قرر أن يصدق عبارة « قطع ولا كان » .

لكنها عادت فسألت : « هو قالك حاجة ؟ » . ضحك ابو
شافيه وهو يتذكر دوره القديم أيام كان صصبيا فى الفرزة .
نضحت عينه بما يعتمل فى نفسه من ان كل هذه السنين لم تغير
شيئا من وديعة ولم تضيف الى صفحة وجهها أى ظلال ولم تصب
جسدها بأى ترهل ، وانفتحت البلاد وسقطت الجسور بينها وبين
رأس المال الأجنبى ، واصطلح بنو الأزرق مع أعدى أعدائهم وكل
هذه الأحداث بكل هذه السنين لم تغير من وجه وديعة أو من طبع
زوجها كحكوح ، كل ما فى الأمر ان كحكوح تقلبت به الأوضاع
وانحدرت من سىء الى أسوأ بسبب طققان مخه .

فتح أبو شافيه فمه ليتكلم ولكنه أبقاه مفتوحا فى ذهول .

نكس أبو شافيه رأسه فى الأرض وراح يرشف بقية القهوة
ويلوك الأفيون ثم قال فجأة « تصورى انك ما اتغيرش فيكى أى
حاجة ؟ » . قالت وهى لاتخفى سرورها بهذه الملاحظة : « ما خلاص
.. راحت علينا يا حاج » . قال أبو شافيه بصدق : « لسه بدرى
قوى » . قالت صاحبتى : « بدرى من عمرك .. ادينى قاعدة اهه
مفيش اتعس منى » . وكانت هذه الجملة الأخيرة قد حملت شحنة
من الحزن لاقبل لبشر باحتمالها ، حتى ان دهوعا ساخنة فرت من
عينى صاحبتى وتناثر رذاذها كليمونة تنعصر بقوة . ثم حاولت
ان تطفى ضعفها فمسحت عينيها بمنديل صغير ثم فردت على وجهها
ابتسامة عريضة ساحرة وقالت : « ما قتلتيش .. كحكوح

قال لك ايه ؟ » .

- « سيبك منه بلا كحكوح بلا بتاع » ..

- « يعنى انت مش جاي من طرفه ؟ » ..

- « لا .. أنا بصراحة جاى أعرض عليكى عرض ياريت تقبليله » .
- « خير يا حاج .. »
- « تعال نتزوج .. »
- « ايه ؟ .. »
- « نتزوج .. »
- « ولكننى متزوجة كما تعلم .. »
- « نطلقك منه .. »
- « كيف ؟ .. »
- « بأى شكل .. بكل وسيلة .. أنا أعرف ازاي أرغمه على الطلاق .. »

- « مفيش داعى يا حاج .. بلاش .. »
- « كجكوح أنا عارف داؤه .. الفلوس .. الفلوس داؤه ودواه .. »

راقبت صاحبتى جيدا فى هذه اللحظة . رأيت الشمس تطلع فى عينيها لبرهة وجيزة ثم يسدل عليها ستار الجفون . ثم كان الصقيع قد حل فجأة باختفاء الشمس ، اذ أسندت صاحبتى رأسها على كفها وغابت فى شرود طويل . لم أكن فى حاجة لأن أقرا على صفحة وجهها ما يدور فى خاطرها ، انما أستطيع السباحة فى خواطرها .. اراها تسرح الآن بخيالها الشفيف ، السفينة التى تركبها ترسو بها أخيرا الى شاطئ النعيم والأمان ، الفراغ اللانهائى انفسح فى دماغها فجأة ، تتسع مساحاته كمحيطات كانت متراكمة داخل نفسها من سنوات الفراغ والجذب والجفاف ، الفراغ بحر لجى هائل ، على البعد أمواج تتلاطم فى عنف وتندثر بالخطر ، لكن واديا من الأشجار الخضراء المحملة بالزهور والثمار والعطر يقبل نحو السفينة ، زهور أخرى من الأضواء تكشف عن قصر زاخر وحدائق تحفل بالأبقار والجواميس والماعز والأغنام ، رجال ومحاريت ، وعربة من معرض قصر النيل تقف فى الانتظار ..

الشحات لا يزال رغم ما يلقيه فى جسده من سموم يتمتع بكامل الشباب والقوة ، ياكل فى الطقة الواحدة ديكا روميا وبجواره طبق بيض وكبد وفواتح للشهية ، يحلى بصينية بسبوسة ينهض بها وحده . تسأل نفسها خوف توقع السراب : أمعقول أن يكون قد أحبها مثلما أحبته ؟ أمعقول أن يكون قد ظل طوال هذه السنين يفكر فيها حتى لم يعد قادرا على الانتظار فجاء يطلب يدها من يدها وهو يعلم أن رقبتها فى يد شخص مورتور لا يرجى من ورائه أى خير .

رحت ازأر بعنف هادى أو بهدوء عنيف لأوقف أبا شافية عند حده ، إذ رأيته يتحفظ للتقدم نحو صاحبتى التى بدا أنها غابت عن الوعي تماما . الملعون نهض بالفعل غير عابئ بزئيرى وتقدم فى ثبات فجلس على الكنية بجوارها ووضع يده على ظهرها فى رفق قائلا وقد ارتعش صوته : « وحدى الله . . مالك » . لم تتحرك صاحبتى من مكانها . هو أيضا كان يريد أن يربت على كتفها عدة مرات لكن يده توقفت ثم استرخت بجواره ثم انه غرق فى صمت عميق تهدلت له ملامحه ، واعتلاها شعور بالخل والخيبة شديدين . بعد برهة رفع وجهه تجاه صاحبتى وقال بلهجة فيها التقديس كله كأنما يخاطب آلهة الأحلام : « ست ودیعة . . ست ودیعة » .

لو كان جبلا لاهتز من هذه النبوة وهذه الضراعة . فما بالكم بصاحبتى وهى ارق من الرقة . قالت له من خلال شرود وتهديج : « نعمين يا حاج ؟ » . أخرج طرف لسانه ومرره على شفتيه الجافتين ثم حاول ابتلاع ريقه فلم يجد سوى عصا صلبة تقف فى حلقة : « انا طلبت منك طلب محدد . . أرجوكى ياست ودیعة . . ردى عليه بجواب محدد » . تنهدت صاحبتى فارتفعت أنا معها عن الأرض وهبطت ثانية على أحر من الجمر . صار أبو شافية ينقر بفص الخاتم على ظهر التراييزة صائحا كالمنذر : « ست ودیعة انا باعرض عليك الزواج . . موافقة ولا مش موافقة ؟ » ، ثم تعلقت عيناه

بشفتيها وهو يلهث ويفتح فمه كأنه يريد ان يتكلم نيابة عنها .
كنت أعرف بسيدتى منها ومنه . سيدتى ليست تصدق مطلقا ان
طاقة القدر يمكن ان تنفتح بهذه السهولة الخارقة اليست تصدق
انها فى اليوم الذى لجأت فيه الى الجواهرجى لتبيع خاتمتها العزيز
لتأكل منه جاءها البشير بأنها تنتقل من وجع الدماغ الألى والضنك
المستحكم والعذاب والشجار الذى لا ينتهى الى زوجة للشحات
تصبح ملكة متوجة على عرش هذه الأموال كلها ؟ ..

قالت أخيرا : « موافقة طبعا بس .. » هكذا اطلقتها . من لى
بكلمات تصور الهدوء العظيم الذى أغرق أبنا سافية وذلك الشرود
المنذهل الذى حط على صاحبتى ؟ لكن صفحة الهدوء تشابهت مع
صفحة الذهول فى ان ثمة شمس أضاءت خلفهما فكان كلاهما يرى
نفس الحلم المتلألئ بالبكارة يتحقق فى لمحة .

فى هذه اللحظة ارتعدت فرائصى وانتفضت ، اذ رأيت وجه
صاحبى كحكوح يطل من شباك فى الحجرة مطل بدوره على المنور .
أجزم أنها لم تكن أول طلة ، اذ ان بدنى قد اقصهر عدة مرات لبرهة
سريعة . لكنه ما ان رآنى فى مواجهته حتى اختفى وجهه فى الحال
قبل ان أنبه الى وجوده . أعرف كيف صعد من المنور الى شباك
الشقة فى الدور الثانى فهو لص قديم محترف . لكننى أعرف أيضا
ان رؤيته لكل شىء لا يختلف عن عدم رؤيته لأى شىء فكل شىء فى
نظره سواء ، ما ليس سواء حقا هو ما لا يتفق ورغبته الشخصية
وما لا يكسب من ورائه لقمة العشاء الهنى .

هكذا صاحبى وأنا أعرفه ، أكبر جبان . ان كنت مثلى قد
أعجبتك كلمة رعديد رغم عدم تبين معناها على الوجه الدقيق فان
صاحبى يمثل لك معناها على الوجه الأدق ، والإفمن غيرى يستطيع
الفهم فى هذه المسألة ؟ أليست الرعدة هى الشىء الذى تتعامل
به نحن بنو الكلاب الاصلاء مع بنى البشر وبنى الخليفة كلها ؟
ان أول شىء نشمة فى المخلوق هو رائحة الرعدة حتى ولو كانت

خلف مظهر جليدى أو برونزى أو نحاسى أو ذهبى أو حجرى كله يستوى عندنا فنحن فى الواقع قد لانرى من الأصل هذا الهيكل .

رائحته الكريهة لاتزال تنطبع فى أنفى . أفقت على مشهد مروع . لا أدرى ، كيف حدث هذا فى لمح البصر ، ولا كيف انتقل أبو شافيه من مكانه أو انتقلت هى من مكانها ، ولا كيف زحف بهما الوجد والاشتياق المعتق فتلاقيا عند الباب على هذا النحو ، حيث التحم الجسدان وصارا جسدا واحدا يلف فى دوامة كما فى الأفلام تماما ، كطفلين غريرين كريشة فى مهب ريح كطائرة من ورق احتفت بها الريح المواتية فى قمة سامقة وصار خيطها بلا زمام . أخذتنى الدوامة بدورى فرحت ألف معها أحاول التمييز بين الجسدين وقد تعطر أنفى برائحة هى مزيج من الانوثة والذكورة فيالها من نشوة يهتز منها الحجر فكيف لا اهتز ؟ .

أخذت أعوى وأحجم تمجيذا لهذه اللحظة العبقرية ودعوة لاستمرار هذا السموق الى ما لا نهاية . لكن آه من رائحة القلق ، كل الروائح محتملة الا هى تسم البدن والعياذ بالله . عيني على مصدرها بين درفتى الشباك المطل على المنور . وجه صاحبي يهوى فى الفراغ كاختفاء وجه الارجوز . ثم هوت الطائرة الورقية فى لمح البصر لا أدرى كيف . ما ان ودع طرفى وجه الارجوز وارتد متحفزا حتى رأيت الجسدان قد صارا حطاما على الأرض واختلطت الاشلاء ببعضها . قالت صاحبنى كأنها تدرأ خطرا داهما خوف الوقوع فيه وهى الراغبة : « لازلت فى عصمة زوج وشرفه أمانة .. هو صحيح انسان بلا شرف ولا يؤتمن .. ولكن شرفى انا يوجعنى ان فرطت فى أمانة استود عينها ذات يوم » . وقال أبو شافيه انه لهذا الأمر وحده سوف يخترق اليها كافة الحواجز والحجب مهما كانت صلابتها . ثم جمع نفسه وبقاياه وتهايا للانصراف والعرق الساخن ينثال فى أنحاء جسده . رمقته هى بنظرة يا الهى خفف على البشر وقع سحرها ، تودعه وتستبقيه فى نفس الآن ، حزينه

حتى النخاع فرحة حتى النخاع . قال انه عائد اليها لا محالة
عن قريب ، لكنه لن يعود الا وقد هيا لها خلاصا تاما من برائن
كحكوح .

في تلك اللحظة كنت أعوى ذلك العواء الحزين الزاعق الذي
ان سمعتموه قلتم اننى شاهدت عزرائيل وتشاء متم بكل ما فى
أعماقكم من فزع . ازداد هياجى وغيظى من الجميع . حينئذ طرق
الباب عدة طرقات متوالية فانزوى ابو شافية وردت صاحبتى :
من ؟ فجاءها صوت آبر خشن : « افتحى يا امرأة » . رايت الدماء
تتساقط من صفحة وجهها ككرات حمراء مضيئة انطفأت كنجوم
تتهاوى فى الافق ذبالات . لم تملك صاحبتى الا أن تفتح الباب .
فاذا بالحكومة تسد فراغ الباب وتنحدر على السلم . خبطت على
صدرها وطار فى الهواء وجهها كزنبقة صفراء ذابلة ، ثم انها شهقت .
لكن الضابط ببذلته السوداء وأزرارها اللامعة اندفع داخلا وبصحبته
اثنان من أمثاله وخلفهم رهط من المخبرين . قال الضابط : « أين
وديعة البصل ؟ » . قالت صاحبتى مثيرة الى نفسها فى حياء :
« أنا » . قال الضابط : « أين الشحات خميس الشهير بابى
شافيه ؟ » . جاء من ركن قصى صوت عجوز واهن تبينوا فيه كلمة :
« أنا يا أفندم » . قال الضابط للمخبرين : « امسكوهما » . وكان
الباب قد أغلق وقال الضابط : « أين الصفقة ؟ » . قالت صاحبتى
وأبو شافيه فى نفس واحد : صفقة ماذا ؟ . قال الضابط وفى
عينيه نظرة خبت ماكرة لن تقبل النزول عن مكرها الحشيش ياهانم .
اننى وأبو شافيه مهربين صفقة حشيش فىن هي؟ صاح كل منهما وهو
ينظر فى عين الآخر بتشكك وحيرة : « صفقة ؟ حشيش ؟ » . فأمر
الضابط بالتفتيش وتقدم نحو حجرة النوم فدخلها . رفع دائر
السريр الحريرى ونظر تحت السريр منحنيا الى أقصى درجة ثم رفع
رأسه وصاح : « تعال يا أبو شافيه طلع الشنطة دى » . فانحنى
أبو شافيه وسحب من تحت السريр حقيبة كبيرة ثقيلة أشبه
بصندوق مستطيل . وهنا انبسطت أسارير صاحبتى وقالت

ساخرة : « هـى » ٠٠ انها حقيبة الخردة نضع فيها أشياء لا نحتاجها
 ٠٠ حتى افتحوها ٠٠ لن تجدوا سوى كراكيب وأحذية قديمة
 وخلافه ٠٠ أنا واثقة ٠٠ هاهى » ٠ ثم تقدمت بكل ثقة وفتحتها
 ثم شهقت ، فقد كان فى الحقيبة جوال من البلاستيك السميك
 المغطى بجلباب قديم أمسكت به صائحة : « الفستان الذى اتهمنا
 بنت الجيران بسرقة » ، ثم فتحت الجوال فوجدت اسطوانات
 الحشيش ، صاح الضابط : « مبروك » ٠٠ حينئذ اندفع أبو شافيه
 يصرخ من أعماقه مؤكدا انه « مالوش دعوه » وانه تاب من سنوات
 طويلة فى حين تبكى صاحبتى منهارة مولولة مؤكدة ان الكلب زوجها
 هو الذى دبر هذه الوكسه لكنهما حين امثلا لوضع اليد فى
 الكلبشات لم يكن قد بقى فى جسديهما أى روح ٠

٢

أما روح أبى شافيه فانها لازمتة ثلاث سنين فى الزنازين قبل
 ان ترحمه من العذاب وتغادره الى غير رجعة ٠ واما روح صاحبتى
 فانها لاتزال ترافقها فى سجنها وتسقيها من العذاب ٠ هل يتصور
 أحد ان أبى شافيه كان من الممكن ان يدفن فى مدافن الصدقة
 لولا صاحبتى كحكوح ؟ ٠٠ نعم لقد بدا يومها رجلا غاية فى الشهامة
 حين استقبل جثمان أبى شافيه وزفه الى مثواه الأخير زفة لاثقة بعد
 أن جهز قبرا بجوار قبور الوجهاء شهد الجميع بفخامته كما شهدوا
 بهول الجنائز ، وتوجه له بعضهم بالدعاء ٠ ذلك ان صاحبتى كحكوح
 كان - بسبب ما قد حدث - قد استرد سطوته وسلطانه وأصبح
 أغنى من ملك وأقوى من ذى جاه وأشطر من ذى مركز وأقهر من
 جرذ وأوسخ من حشرة ٠

٣

السذج وحدهم هم الذين يندهشون من هذا ٠ وأكثرهم
 سذاجة من يتشدقون بكيف ويطالبون بمعرفة الحقيقة دون ان

يخوضوا بأنفسهم غمار البحث عنها فى واقعهم ، وكأنما الحقيقة مجرد سلعة غير متوفرة فى الدكاكين . الحقيقة ان عالم المخدرات لايعرف المنطق والاسانية ولا أى قانون متعارف عليه . ومهما استغرب المستغربون وتشدد المتشدقون فان ما حدث يحدث كل لحظة ويستوعبه الواقع دون ان تهتز فيه شعرة واحدة .



ما ان زج بصاحبتي وأبى شافيه فى السجن حتى كان هو القائم بأمره فى مملكة « البتعة » يستلب منها الاموال على ذمة المحامين والقضاة والضباط والكتبة ، وهى من فرط عجزها عن الرفض تعطى بوجه الأمل فى نجاة أبى شافيه وان كانت واثقة من غدر كحكوح ووساخته رغم انه أوهىها بما يقرب من الاقناع انه هو شخصيا برىء من تهمة تدبير الواقعة وان أبا شافيه كان بالفعل يقوم بالتهريب لحسابه الخاص من وراء ظهرها مستغلا طيبة زوجته وديعة . صاحبى كحكوح كالسوس ينخر فى عظام النفس مهما كانت صلبة فيخترقها ويتلفها - ولو ان أحدا مازح البتعة مجرد مزاح مذكر آياها بأنها ذات يوم ستكون تحت سيطرة كحكوح فانها على الأقل ستقطع علاقتها بهذا الأحد . كحكوح ؟ .. لم يبق الا كحكوح .. سلامات يا كحكوح .. فما بالها الآن وقد أصبحت تحت سيطرته بالفعل خاصة بعد موت زوجها فى السجن ولم يعد لها أحد يعاونها فى حماية هذه الثروة الهائلة وانقاذها من التبعر ، حتى أمام جابر مات ، كذلك مات زوج ابنتها وزملاؤه فى حرب الانتصار المجيد ..



ولكن أى ثروة ؟ .. لقد صودر معظمها ولم يبق منها سوى ما تمكنت - بفضل كحكوح والحق يقال - من تهريبه ومنازعة الحكومة على بعضه . يكفى معرض السيارات ومعرض العاديات . ضربت المسكينة أخماسا فى أسداس وجمعت فى دماغها ناسا على ناس وطرحت ناسا من ناس ، وضربت ظروفا فى ظروف فكانت

النتيجة النهائية ان لا مفر من قبول الزواج - مرغمة وأنفها في
الرغام - من كحكوج .

كان يبالغ في تدليلها والتقرب اليها ولثم قدميها بشكل
أذهلها . وكان جنونه الجنسي الاخرق يذكرها بايام الصبا اللذيذة
التي - رغم جمالها الفتان - لم تتمتع بها كما ينبغي . كان اهتمامه
بها وانصرافه التام الى مزاجه واليها قد عوضها عن اهمال
أبو شافيه لها في سنوات العز الأخيرة - لكنها مع ذلك لم تكن
تحتمل مرارته ، ولم تكن تستطيع نسيان دوره القذر في كل
ما حدث ، لكن ما جعلها تحتمله انه كشف لها عن ممتلكات
لا حصر لها كان يمتلكها زوجها دون ان تعرف عنها أى شئ مخازن
في حواري بعيدة وبضائع كبيرة لدى ناس في الأقاليم وقروض
وسلفيات لدى فلان وعلان كان المرحوم يحدثه عنها كثيرا لحظة
قيامهما بالشم معا .

باب الفتوح

● حضرة صاحب السيادة : الكلب الأجنبي

١

آه من ذلتي يوم اختفاء صاحبتى • لقد تشردت وراءها أسابيع طويلة حتى اختفت رائحتها تماما • ثم اننى تسكعت فى الشوارع بحثا عن يلمنى فلم أجد أحدا • بل اننى أفقت على حقيقة غريبة شرسة لم أكن متنبها اليها من قبل أبدا ، تلك هى انتشار أنواع وفصائل أخرى من الكلاب النظيفة المهيبة ذات الأسماء الرنانة ، تمشى خلف أصحابها فى تعاظم كأنها ملوك هذه الأرض ، تتبختر فى السلاسل المعدنية الثمينة يجرها أشكال وآلوان من بنى البشر والكلاب تبدو أكثر نظافة وأكثر جمالا بل وأكثر تحضرا منهم ، لست متعصبا لبنى جنسى ، أبدا وحق الله ولكن هذه الفصائل من بنى

جنسى ، تحكمها على الأقل قيم سلوكية عظيمة ندر ان تجدها بين البشر . . . أهنالك دليل على هذا أكثر من ان هؤلاء الذين اراهم قد طلوعوا فى اقتناء الكلاب الأجنبية أصبحوا يعملون خدما لدى هذه الكلاب ؟ أجزم ان الواحد منهم أحوج الى قطعة لحم يتبلغ بها أولاده بينما هو يتفاخر عند الجزار بشراء هذا اللحم للكلب ، والواحد منهم يستخسر الجنيه فى نفسه وأولاده ومع ذلك يدفع عشر أمثاله لمن يسمونه بالمدرّب ومثلها لمن ينظفه ومثلها لمن يطببه فى حين انه ربما تكاسل عن الذهاب الى الطبيب ليعالج نفسه أو أسرته .

حضرة صاحب السيادة الكلب الأجنبى قد صار يتربع الآن فى عظمة على كافة العروش ، وتلمح تأفقه وتقززه من وساحة المكان الذى كتب عليه ان يعيش فيه بعد ردهات القصور والحدائق الفناء .

لكنه الجبن الأصيل . لا يقتنى شرس الكلاب سوى اصائل الجبناء . . . أجزم ان بنى جنسى من الوولف والسلوق وغيره يحسون بمدى الانحدار الذى وصلت اليه مراكزهم فهم مثل بنى البشر يتحدد سعرهم واقدارهم فى الحياة بقدر ادراكهم لحقيقة أنفسهم ، وأول ما يدركونه عن حقيقتهم انهم خلقوا للقيام بأدوار هائلة لا لمجرد الزينة واكمال مظهر الابهة ، خلقوا لاصطياد الوحوش والفرائس الضالة واقتفاء أثر المجرمين والقبض عليهم ، لحراسة القصور من أمثال هؤلاء الأسياد الجدد يجلس على عرشها قيصر هو الآخر وملك فوق الملك ، أرقى اللحوم وأرقى المياه وأرقى شفاء ، وفوق ذلك لغة يتعاملون بها ، انهم – ولا أقول انها – لا يضيعون وقتهم فى حشو اللغات ورطانة اللهجات وجليطة العجماوات بل انهم لا يتعاملون الا بالشفرة ، ربما كانوا هم أساتذة الشفرة نقلها عنهم بنو البشر ، من ليس فى مستوى ذكائهم يفرضون عليه – فهم الاقوى – لغتهم فيتعلمونها ويستأجرون من يعلمهم اياها وهم ليسوا فقط صاغرين بل ومتفاخرين بأنهم أجادوا التحدث معنا والتفاهم معنا بلغتنا

الخاصة ، أبدا لم يخلق هذا الصنف الراقى من بنى جنسى لكى يتشرد هكذا فى الشوارع ، دعك من نزول مستوى الحياة ، دعك من شقاء الكلاب طول النهار وما يبذلونه من جهود ومناورات وتكتيكات كلما انتقل بهم أصحابهم الى مكان جديد أو بقعة جديدة وما أكثر ما يتنقلون بداع وبدون داع ، بل ربما أمضى الكلب منهم يومه كله فى هزار سمج سخيف مع أولاد خشنين وجيران وأقارب يجأرون بالضحك فى بلاهة يشمئز منها ابن جنسى •

دعك من كل هذا وانظر الى حسرة الكلب وهو يرى قيمته وقد اهدرت وكفاءاته وقدراته العليا عطلت وأعضاءه من سوء التغذية والجو والبيئة قد هزلت وتضعضعت ونفسيته الصافية من طول الكدر والسأم قد دمرت وجنسيته من فرط الهزء والاختلاط بالأوباش قد انحطت • فكلب عظيم النسل مهيب يضاجع كلبة جرباء سنكوحة وأخرى ثمينة تضاجع عجوزا مريضا • انهم على وشك ان يصيروا مثلنا جيفا تحرس جيفا •

٢

العشرة بالنسبة لنا خيوط غير مرئية ، حتى نحن لا نراها رغم أننا تفردنا فى نظركم دون كافة المخلوقات برؤية عزرائيل • يقسو علينا الصحاب مر القسوة لكننا سرعان ما ننسى ونهب لدى أى مكروه يصيبهم • أبدا ما كان لمسألة الأكل والشرب والايواء دخلا فى حفظنا للعشرة أو فى طلبنا لها ، فقطعة عظم ترضيينا وقد نكون حراسا على أطنان لحم ولحق زلطة يبيل ريقنا ، وكافة الأرض مباحة لايوائنا • وربما لهذه الأخيرة فقد نضرب المثل بأنفسنا فى المواطنة ، اذ ليس فى الدنيا مواطن فى عمق مواطنة الكلب ، ذلك أن غزو مرتبطه أمر دونه – كما تقولون فى اشعاركم القديمة – خرط القتاد •

عفوا ، أسمعكم تستخدمون جنسنا عند الشتم وتصفون بنا

حقراءكم .. كذبتهم والله ، وما يشهد بكذبكم سواكم ، وان شئتم
دليلا على ذلك فهاكم بقية حكايتي ..

٣

فيما كنت أتسكع ضائعا في حوارى المنطقة التى استوطنتها
فوجئت بأحد البكوات يمشى منقوخ الصدر وان كان بلا صدر ،
مرتفع الهامة وان كان بلا هامة رشيق القوام وان كان بلا قوام -
أقصد أن سعادة البيك الذى رأيته يسير هكذا يحاول اظهار
نفسه على هذه الصورة وليس فيه سوى ثياب فاخرة : جلباب من
الصوف المفتخر وعباءة من الجوخ وحذاء مستورد وعمامة بشال من
الحرير الخالص وعطر نفاذ . لكن كل ذلك لم يخفى رائحته الحقيقية،
فعرفت دون حاجة الى اثباتات أخرى أنه صاحبى (كحكوج) وقد لبس
بعد الضنى حريرا فى حرير .

لم أندعش مطلقا ، فصاحبى يستطيع أن يفعل ما يشاء فى
هذه البلاد دون أن يكون لديه من مقومات الفعل سوى ثمن المسئولية ،
فبالنقود يجد دائما من يدافع أو من ينافق أو من يتغافل أو من
ليس هو هويا سوى فى القبض . ظللت ألهث وراءه حتى حاذيته
ونظرت فى وجهه ورحت أطوح ذيلي بنشوة وأتراقص ، وهو ينظر لى
باسما فى تشف أو حقد لست أدري ، لكنه تركنى أسير ، حتى
رأيته يدخل شقة « البتعة » ، فتجرات ودخلت وراءه فاذا بحضرة
صاحب السعادة الكلب الأجنبى يفزع نابعا فى وجهى حتى ضعفت
قواى وتلاشت من الرعب مع أنه كان مربوطا فى جنزير من
الفضة ..

أخذ صاحبى و « البتعة » يضحكان من رعب ويشجعانه على
فينهشنى ويمزق أنفى ووجهى بأظافره ، وكنت أكتفى بالعواء الواهن
والصوات المتوجع . اننا معشر الكلاب مثلكم لا نخاف من شئ فى

الدنيا قدر خوفنا من بنى جنسنا الأقوى منا جسدا أو شكلا أو استنارة . وهكذا لم ينقذنى من خوفى سوى « البتعة » حيث أوصته بى خيرا وراحت تغذف له بالشيكولاته فى فمه . مع ذلك ظلمت أرتمش وأنا أتابعه يرتع فى فراغ الشقة رائحا غاديا فى هرولة متبختره واثقة متعالية ، كذلك أتابع (كحكوج) والبتعة وهما يتابعانه فى بلاهة منبهرة .

كنت قد أحسست براحة عظيمة اذ توصلت أخيرا الى صاحبنى القديم (كحكوج) ، فالواحد منا لا يحس بوجوده الحقيقي الا فى الزمن الذى يكون فيه مسئولا عن شئ ، نعم لابد أن يكون هناك ما أحرسه أو أدافع عنه أو أهووه لحسابه أو أعطيه الونس ..

على أن صاحبنى كحكوج وهو نذل كما تعلمون وزوجته البتعة وهى رقيقة كما تعلمون أيضا ، لم يسمحا لى بالانتظار . صاحبت البتعة فى أن أنصرف، فسقت اللكاعة طويلا، فصرخ كحكوج فيما يفتح لى الباب : « بره » ، فانكمشيت على نفسى وتمسحت فى قدميه لكنه صاح مناديا حضرة صاحب السيادة فجاء يجرى كالفهد ، وكنت أظنه مثلنا يقوم بالتهويش حيث لن يهون عليه لحمى يمزقه ، فاذا بظنى هذا وهم واذا بابن جنسى ينزع من عنقى هبرة كبيرة خلفت فيه عاهة مستديمة ..

نزلت أعوى ولم يعطنى الألم فرصة للعدو فمكثت تحت السلم طويلا لا نصير لى ولا عائل . فلما التام جرحى تبينت أن ألفة قامت بينى وبين المكان فظلمت لا أبرحه . وكنت قد تأكدت من أننى لكى يسمح لى باللجوء الى هذا المكان فان على أن أصير بدورى حارسا وخادما لصاحب السيادة الكلب الأجنبى . فمع أن سيادته لم يكن محتاجا لآى حراسة بل انه كان أقخم بكثير من حراسه وأوقع للرعب فى القلوب منهم ، الا أن وفدا من الخدم كان يصر دائما على مرافقته ولو بحجة الفرجة . ولأنهم ورثوا مشاعر الخدم وسلوكهم فان وجهاءهم

كانوا أسرع من فقرائهم فى اظهار التملق للكلب وابداء الرغبة فى الخدمة . . حتى أنا كنت أهرول خلفه وأتقافز متحمسا بالغ الحماس كأننى أشارك فى زفة عريس أو فى بيع تحفة نادرة .

٤

يعود كحكوح فى كل ليلة يتطوح ، حتى أن فوانيس السيارة المرسييدس التمساحة تصنع مقشة من الضوء فى يد طفل لا تكاد ترميها يميننا حتى ترددها يسارا . .

اذ يطفىء الأنوار ويوقف المحرك ويهبط ضاربا الباب خلف ظهره فى عنف لا مبال يقف ملقيا نظرة لا مبالية أيضا على السيارة فيجد أنها غير منضبطة فى ركنتها ، ويرى أن مؤخرتها لو حاذت الحائط قليلا لأصبح الشارع سالكا يسمح بمرور عربة مثلها ، لكن ذلك يقتضيه مجهودا . انه بالكاد يستطيع أن يقود السيارة فى شوارع العاصمة ، وبهلوانية عظيمة منه أن يدخل بها مجرد الدخول الى هذه الحارة فكيف يركن على الشجرة وما الى ذلك .

يعرف أن عشرات من السائقين والراجلين والمحسولين سوف يتوقفون عند سيارته حائرين لا يعرفون كيف يمرون . ويعرف كذلك أن شيئا لن يحدث على الإطلاق حتى لو انسد الشارع تماما ، حتى مجرد اللعنات ، حتى البرطمة ، حتى مجرد الشعور بالاشمئزاز ، حتى مجرد الاحساس بأن هذا خطأ ، أى شيء من ذلك لن يحدث مطلقا بل على العكس ربما تطوع واحد أو اثنين أو ثلاثة فعدلوا سيارته فى وقتها كيفما اتفق ، وان عجزوا عن معالجتها فسوف يعالجون وضعهم هم . يعرف كذلك أن كل التناقضات تتدفق فى شوارع هذه البلاد فى نفس اللحظة وتتعايش وتنكيف بل وتتألف بشكل مذهل حتى لتصبح عائلة متماسكة بمونة من أسمنت عجيب هو مزيج أعجب من الأخلاقيات والأخلاقيات ، من الكرم والحسة ، من البشاعة

والسلاسة من الدمامة والجمال من المראה والعذوبة من الصبر وعدم الاحتمال .. يعرف هذا الفيلسوف أو الجاهل الفيلسوف ان الشعب الازرقى قد أصبح هكذا لأنه فاق الحد في قدرته على تجاوز المشكلة وليس على حلها ..

فى الظهيرة وهو قائم يحشش فى بلكون الحجرة المظلة على الشارع يسمح ويرى من خصائص الشرفة كيف يختنق الشارع كله والمنطقة كلها بسبب الحارة التى تصب فى الشارع ويصب فيها والتى اختنقت بالسيارة التمساحة ، ومع ذلك يقول للولد الذى يسقيه : « أسرع بعشر حجارة أخرى حتى أنزل وأفتح لهم الشارع » . ومهما أسرع الولد فان اصطباحة المعلم كحكوح لن تنتهى قبل الثالثة ظهرا . ينزل بعدها لعمل مشوار أو مشوارين لدى أحد المهرين أو التجار أو أحد أقسام البوليس ، ثم يعود ليطبق فى صدر الديك الرومى أو ذكر البط أو الجدى الصغيرى المشوى .

فى الجيران رعوس كبيرة وعالية المقام لو سلمنا بالمنطق المفهوم للعقلاء ، وكلاء وزارات ، صحفيون ، مهندسون ، أطباء ، مشخصون وكتاب ، رجال من ذوى الرسمال المعتقد فى الكتمان ، تجار فول وطعمية وأغلاف يملكون العمارات فى ضواح بعيدة ، سماسرة وعربجية . تشكيلة عجيبة من السكان تحفل بها الحارة ولكن رأس كحكوح هى الأعلى وكلمته هى الأنفذ ورغبته هى القائمة . فالأمر فى هذه البلاد ليس لمن فى يده الأمر ، انما الأمر لمن فى يده النقود الكبيرة ، خذها حقيقة مسلما بها من كلب حكيم مثلى .

لا تنزعجوا يا أهل الدراما فلسنت براو للأحداث فحسب ، ورويدكم يا نقاد فانما أنا معنى بالحديث عن بنى الازرقى قدر ما أنا معنى بعرض سيرتهم . ولذا أقول بأن تاريخهم عهود وفترات وحقب منفصلة لا يربطها سوى الشقاء ، ومصدر البلاء كله ما استقر فى أرض الوجدان من بذور البذل والبر ، الأمر دائما معسكران حكام ومحكومون ، ولأن المعسكر الأول يعيش دوره حتى النخاع فان

المعسكر الثانى هو الآخر يعيش دوره حتى النخاع ، ولا معابر بين الاثنين سوى ما يلخصه المثل العتيق الشائع الدائم دوام الأبد في هذه الربوع : « الى تعرف دينه اقتله » ، وحكمة المثل أن لا شىء فى الدنيا بلا ثمن ومادمت تملك ثمن الشىء فادفعه دون تسويق تنج بنفسك وحياتك : ولهذا فبنو الازرق يمجدون الرسمال بصرف النظر عن مصدره ويرفعون قدر أهله بصرف النظر عن أصولهم وجوهرهم . فى مجتمع كهذا يصبح كحكوح حاكما بأمره . جميعهم يرى كل شىء لكنه يلغى من ذهنه كيفية استجلاب المال ولا يتذكر الا صيرورة حال ذوى الأموال .

آه لو ترون كيف تسير « البتعة » بضع خطوات فى الحارة لتصل الى باب السيارة أو باب البيت . تنفتح كل الشبابيك وتصبص العيون للفرو المنطرح على كتفيها ووهج الذهب المنتشر على صدرها وأذنيها وذراعيها ورائحة العطور النفاذة التى يقولون أن الزجاجة منها بألف دولار ، وتتناقل الشفاه من نافذة لبلكونة ومن بلكونة لمنور ومن منور لسطوح هامسة بأن « البتعة » - المضروبة - لاتزال صبية وصاحبة أرفع خصر ، وانها رغم ثرائها تجيئها كل هذه اللبوسات الفاخرة ذات الأذواق الملوكية هدايا من الأمراء والشيوخ ورجال المال الذين تعرفهم وتورد لهم الحب والليل الساهر البهيج . قد يظهر بعض الحقد على بعض الوجوه المتعالية أو بعض الاشمنناط فى الشفاه الممرورة ، ولكن الحظ منهم من اذا توقفت عنده الحاجة « بتعة » فهزت له رأسها بعواف أو تمسى بالخير ، يالها من فرحة تلك التى يرد بها ، مهما كان أفنديا محترما أو مثقفا فانه قد يعقب على رد التحية بمزيد من المجاملات والدعوات .

عجبت لها هى الأخرى تقترف الاثم وتفعل الثواب معا وينفس القوة . تتاجر فى الحرام وتنشر الممنوع ، وتحج كل عام ، وتنفق عن سعة فى سبيل الله ، صدقات ومرتبات سرية لرجال محترمين ، حفلات قرآن وزار ومداحين وموالدية ، هذه ليلة لأهل الله ، وتلك

فى رحاب السيدة وثالثة تقربا للحسين ورابعة على شرف لا أدري وخامسة تأييدا لمرشح المنطقة ، ومهما تنفق فى هذه الحفلات من أموال باهظة فإن ما يدخل إليها يصل الى عشرات الأمثال إذ أن رجالها يقومون بمزاولة نشاطهم الحقيقى وراء هذه المظاهر البريئة، وأخطر الصفقات وأحلاها ما جاء فى حفل تحرسه عشرات المظاهر والنفوس الفرحة .. ويد البتعة التى شبتت من تقبيل الشفاه الملاهة المحومة شبتت كذلك من تقبيل الشفاة الممتنة الشاكرة .

٥

لم يكن أحد ليتصور أن البتعة يمكن أن يصيبها العجز أو الشيخوخة أبدا ، فعشرات الأطباء تحت أمرها فى كل لحظة مع خبرات التجميل . لكن العيون لاحظت أن صحة البتعة فى النازل . الا أن موظفا فى هيئة التأمينات يسكن فى الحارة ويدمن قراءة الجرائد عرف أن أموال الحاجة بتعة قد وضعت تحت الحراسة، بأمر من المدعى العام الاشتراكي .. فكانت فرصة لأن يعرف الجميع مقدار ثروتها ، وكانوا رغم فداحة المبلغ يفتحون أفواههم صائحين فى بلاهة : « بس ؟ » ، ثم يتبعونها منبهرين : « يا .. دا مبلغ كبير قوى » . فلما تابعت الجرائد أخبار الموضوعين تحت الحراسة من تجار المخدرات تيقن الجميع أن البتعة لن تقوم لها قائمة .

ما أذهل الجميع أن قاضى نيابة الاشتباه ، أو محكمة القيم لا أذكر ، قد أفرج عن أموال البتعة . هكذا نشرت الجرائد والناس عادة يحتفظون بالجرائد ليس لحدث تاريخى هام بل لمناسبة كهذه . وهكذا قرأ أهل الحارة الخبر ودققوا فى الحروف عدة مرات واقتنعوا أن حيثيات القاضى قانونية تماما لا يأتيناها الباطل من بين يديها أو من خلفها ! وعلى الرغم من ذلك ظهرت البتعة فى نظرى مهمومة وليست على ما يرام !!

سميت أتمسح بين قدميها كأننى أقول لها : « مالك فيه ايه مزعلك ؟ » . لكنها لم تكن تحس بوجودى ، انما كانت تربت على ظهر الكلب الأجنبى قائلة : « لم يعد سواك مخلصا أميناً لى » . وكان الكلب الملعون بقوامه الأهيف يشب واضعاً ذراعيه على كتفيها كأنه يهم بتقبيلها فإذا هى تحوط عنقه وبنشوة بالغة تزحف كفأها على جذعه الناعم ورقيتها فى عنقه ورأسه وبنشوة بالغة تزحف كفأها على جذعه الناعم القطيفى . وكانت تبكى ملء المآقى ، وصاحب السعادة الكلب « ميشو » يشعر بالسأم والملل من البكاء ويتركها ويذهب الى بعيد ثم يجلس مريحاً خداه على أماميته .

قامت هى الى المطبخ وقمت أنا الى ميشو . تمسحت به ثم داعبته ببوزى فى كتفيه على استحياء وحذر . فنظر الى فصحت به فى غبطة : « هنيا لك ياعم » ، فأزاحنى ببوزه المستطيل بدفعة رمت بى الى بعيد ، فاعتبرتها مداعبة ودية وعدت اليه هامساً فى مسكنة : « ما الذى حل بسيدتى ؟ » . هو مثل كل من يوضع فى صف المستنيرين من الجنس الأرقى لا يحب كثرة الكلام ، فزومة واحدة أو زومتين ، وبنظرة ذكية ، غمزة لبقة أفهمنى أن النذل كحكوح قد خانها فى طفلة صغيرة على سريرها هى وأنها من طيبة قلبها سامحته فإذا به أول أمس يعزم أحد كبار رجال الأعمال على الغداء تتقدمه من رجل الأعمال هدية بسيطة تساوى مئات الآلاف من الدولارات ، فأقامت المعلمة عزومة هائلة لكنها فى النهاية فوجئت بأن الثرى الكبير ينتظرها على سرير نومها . فكيف أيها الكحكوح الحقى ؟ أتشتغل قواداً على زوجتك صاحبة الفضل العظيم ؟ .. هكذا راحت المعلمة تنشال وتنحط وتدمر كل ما تطوله يدها . وكانت تقصد تدمير رأس كحكوح لكنه زاغ منها بمهارة ..

هذه هى الحكاية اذن ؟ أى نعم ولها الحق فى ثورتها كما تعلم . هكذا رد صاحب السعادة الكلب ميشو بهزة من رأسه ، وكشأن الكلاب المستنيرة من الجنس الأرقى همس فى أذنى معلقاً بقوله :

« صحيح ان سيدتك لا مانع لديها من النوم تحت هذا الثرى الكبير ولكن ما أثار جنونها هو أن يكون ذلك عن طريق كحكوك بنفسه » .
قلت له : « وهكذا طرد كحكوك من الجنة » . قال : « وطرده معه الثرى الكبير شر طردة » .

ثم استأنف صاحب السعادة وقد أنس الى فقال انها فى اليوم التالى ثابت الى رشددها وأدركت مدى فداحة غلطتها ، وظلت تسأل نفسها فى ضيق واشمئزاز : كيف عاملت هذا الثرى الكبير بهذه المعاملة القاسية رغم أنه جاملها بهدية تساوى عمر مدينة بكاملها من مدن بنى الأزرق ؟ ان هديته لجديرة بالاحترام حتى ولو كان وراءها غرض ! ما الغرض يعنى ؟ مضاجعة ليلة أو بضعة ليال ؟ لقد سبق لها أن ضاجعت أصيغ مخلوقات الله بلا ثمن بل كانت تدفع الثمن .. رجل كهذا لم يكن ينبغي أن تخسره بهذا الحمق ، وقد كان هناك حلولاً كثيرة للانفلات من مأزق المضاجعة غير الذى فعلت خاصة وأنها خير من يخلص من مأزق كهذا دون أن تترك أثراً من الغضب على الطرف الآخر ..

ثم ان قلب سيدتك - يقول صاحب السعادة - خفق بشدة وكاد يسقط فى ساقيتها وهى تستعيد صورة الثرى الكبير لحظة دخولها عليه . دهشت لحظتها حين دخلت حجرة النوم لتحضر أشياء من درج التسريحة ففوجئت به فى مرآة التسريحة يجلس على كرسي بجوار السرير متخففاً من بعض ثيابه ، فتجاهلته وصارت تعبت فى درج التسريحة ولكن عيناها عليه من طرف خفى فاذا به يفتح فمه من فرط الدهشة والذهول والشبق بل والتحفز ، حتى خيل اليها أنه سيندفع نحوها وينقض عليها لثماً وتقبيلاً بل وتمزيقاً ، ولولا رعشة واضحة تملكته لحافت منه وفرت هاربة . على أن ذلك نفسه كان مثيراً للدهشة على أى حال ، فاطالت من البحث فى الأدراج عامدة الى التمعن فى عينيه فوجدت أن شرراً أحمر كان يتطاير منهما وآب الى سحابة من الدموع جافة وقاسية قسوة تمتد صلابتها فى

وجنتين بارزتين وفك مستطيل مطبق على أسرار كثيفة غامضة ،
وما بين الفك والوجنتين ظلال لا تدرى ان كانت لشعور بالقهر
أم بالفروسية أم بالصبر الحكيم ٠٠ وجه من عشرات الوجوه المألوفة
لديها من مئات الآلاف الذين قابلتهم فى مشوار حياتها ، يلبس فاخر
الثياب وأغلاها تقول من بعيد انها من أكبر محلات لندن وباريس ،
أكبر دليل على عراقته فى الثراء تهدل مظهره وخشونة الجسد المستور
بالثياب ، نفس مظهر الباشوات القدامى حيث كانت مثل هذه
الملاحظات لا تلغى أنه باشا ابن باشا ليكن فى الأصل من بيئة ضالة
شقية ولكن أصلك وقتك كما يقول المثل الحكيم الشائع ٠٠

واذ هى تستدير لحظتها لتخرج من حجرة النوم يائسة من العنور
على ما كانت تبحث عنه ناداها برجفة نابضة من فؤاد مكلموم :
« بتة هانم ٠٠ من فضلك يابتة هانم » . استشعرت فى صوته
نبرة كريمة تشعر بها البغى العريقة اذ ينثال فى هذه اللهجة رجاء
رخيص . فصاحت مشأطة متعالية : (لحظة واحدة من فضلك) ،
ثم خطت ، فلاحقها صوته فى شبق متعجل : « بس ماتغبيش على
والنبى » ، فاستدارت اليه عاقدة ما بين حاجبيها فى قرف لا يتناسب
مطلقا مع حجم العزومة أو حجم الهدية صرخت فيه كأنها تلعن أباه :
« ايه ده ٠٠ فيه ايه » . قال الثرى الكبير بجرأة وصفاقة : « ده كلام
برضه مش عارفه فيه ايه ؟ » . بنظرة احتقار شديدة راحت تشيله
وتحطه فى الأرض عدة مرات . نهض اليها واقترب منها وكان قوى
البدن كثور راسخ الخطو كجمل . أراد أن يسترضيها بطريقته فوضع
يده على خصرها قائلا : أنا مش قصدى أزعلك » ، فدفعته بعنف
وبصقت فى وجهه ، ثم اندفعت خارجة فى هياج الثيران الاسبانية
تنطج وتدمر وتزمجج ، حتى ان المسكين كحكoch لم يؤت الفرصة
لفتح فمه وكان من الذعر والغباء قد تلاشى تماما . فلما خرج كلاهما
مطرودا ظلت سيدتك تنتفض وتضع نفسها تحت اللش ساعات
طويلة وتفتح التليفزيون الملون ثم تغلقه وتدير الفيديو كاسيت
بعشرات من الافلام العالمية الشهيرة وبغيرها ٠٠

فلما تنفس الصبح زفرت عن صدرها كل المشاعر السالفة
وهيات صدرها لقليل من التروى ، وفكرت بهـوء : هذا الكلب
كحكوح كان من الممكن أن تقوى على تصحيجه بفضل رجل كهذا .
لقد كان راغبا فيها الى حد الجنون . انه صيد ثمن واعد بخير وقير
والغبية لم تحتفظ به على الأقل لاستخدامه كسند يعاونها على الخلاص
من كحكوح . ولكن - وبرقت في عينيها نظرة استبشار عريضة - انه
رغم سوء ما فعلت كان عند خروجه مطرودا لا يزال يحتفظ بابتسامته
اللبقة بل انه حياها قائلا : « اتمسى بالخير يا بتعة هانم » ، أى انه
يحتفظ لها بخط الرجعة ، فرجل كهذا يضحي بهدية كهذه لا يقطع
حبل الود بسهولة وهى على أى حال موقنة أن لقاء الأمس لن يكون
آخر لقاء . ثم قررت أن تنزل الشارع لترفه عن نفسها قليلا ، وأن
تستدعى الكلب كحكوح وتطيب خاطره وتدخله حتى تعرف منه
الكثير من المعلومات عن هذا الثرى الكبير الذى فاجأها به وكيف
تأتى له أن يتسلل داخلا الى حجرة النوم ، هل دخلها بناء على اتفاق
تم بينه وبين الكلب كحكوح ؟ أم أن الرجل داخ من الافراط فى
الشراب فأذن له بالدخول ليستريح بصفاء نية ؟ .

ثم انها شرعت تسوى الفراش وتغير طاقمه كعادتها كل يوم
ورفعت الوسادة فتطايرت بطاقة صغيرة سرعان ما انقضت عليها وقد
انبثق بداخلها فرح عظيم مصحوب دائما فى خيالها بصورة ذلك
الرجل الذى علمها القراءة والكتابة . وكانت نظرنها قد استقرت
منذ برهة على البطاقة « عبد الجبار » . شعرت بسخونة الغيظ من
نفسها تسرى من أسفل قدميها الى رأسها . لن تسمى البتعة بعد
ذلك ان لم تعده اليها راکما على قدميه . ثم ان سيدتك قلبت البطاقة
وجهها الآخر فوجست كلمة موجهة اليها ترجوها الاتصال به فى عنوان
عنوان كذا . ثم ان سيدتك من فرط البهجة صارت تداعبنى كما
رأيت وأنا لم أكن أهتم بمداعبتها ليقينى أنها تداعب فى شخصى
شخصا آخر أو أملا آخر .

ثم رمقني صاحب السعادة بنظرة ذات معنى وكأنه يؤكد لي بما
سوف يراه في صحبة سيدتي بعد قليل . لكن هذه النظرة هدمت
الحواجز الطبقيّة بيني وبينه فمنحت نفس حرية التعامل معه
كاصدقاء . فاندفعت أتسقلب أمامه بحركات هوجاء لطيفة تثير رغبته
في الضحك والشعور بالتفوق علي ، وانتهاز فرصة انبساطه فأنطحه
برأسي في عنقه أو أصعد فوق مؤخرته أهارشه وأتمسح فيه . فلما
استكن وأحسست انه قد تلقف جبل الود مني ، رجوته - كأخ
أكبر - أن يصطحبني معه في هذا المشوار فهو الوحيد الذي ان سكت
عني أعطاني شرعية المشوار . الحق لم يكسفني الأخ ميشو بل رسم
لي كيف أذهب ، سوف يفتح باب السيارة ليدخل سعادته فأتسلل
أنا دون شوشرة وأدفن نفسي في الفراغ بين الكراسي الخلفية والأمامية
وحين تكتشف سيدتي وجودي عند الوصول سوف تسلم به وأمرها
إلى الله .

باب الريح

★ عبد الجبار يأخذ غرضه من البتعة :

١

ظللت منطرحا على فرش السيارة لا أنبس بينت شفه . انما
أبصبص بعيني ، فلما وجدت أن البصبصة بالعينين يستتبعها تطويح
ذيل قد يفضحني أغمضت العينين تماما وكان صاحب السعادة الكلب
« ميشو » منجمعا على الكرسي الخلفي وحده كنجم عالمي مهيب
لا يابه بانبهار الاقوام ولا بتحاياهم . يتحرك من أول الكرسي الى
آخره ليسجل في كل اتجاه جلسة . وعندما نزلت سيدتي صاحت
في كثير من الابتهاج : « ينيلك . . انت جيت . . والنبي أهيل » ،
فقدمت لها ما يليق بها من قواعد البروتوكول الكلابي وجعلت أمسح
المكان في رحابها . .

إذا بنا فى ضاحية جديدة نوعا . « فيلا » من خمس طوابق غاية فى المهابة والآنافة ، تحوطها حديقة مزهرة وتقع فى نهاية سارغ متاخم للخلاء تحفه أشجار شابة صبية . على باب الفيلا لافتة نحاسية لامعة مكتوب عليها « فيلا عبد الجبار » ضفطت سيدتى فوق در على باب « الفيلا » فأضيئ النور فى عديد من الشرفات وارتفعت أصوات قبيلة كاملة من الكلاب اهتز منها صاحب السعادة قليلا لكنه اسوعب اللحظة ثم صار يطلق زئيرا يفع بانذارات حاسمة . وإذا بصوت ينبثق من ضلع باب الفيلا تبينا فيه صوت الثرى الكبير قائلا : « مين هناك » فقلنا جميعا فى نفس واحد : « احنا الحاجة بعه » . ثم بحثنا عن مصدر الصوت فوجدنا جهازا لاسلكيا يشبه جهاز الراديو الترانزستور مثبتا فى صدغ الباب الخارجى . هكذا عرفنى به صاحب السعادة ميشو وأضاف قائلا بابتسامة من يعرر أننى سأنبهر لابد : « أن الثرى الكبير يكلمنا الآن من فوق سريره عبر جهاز كهذا .. »

ان هى الا دقائق حتى افتتح باب الفيلا واقتادنا أفندى أنيق جدا ولكن العين لا تخطئ انه بواب حقير . صعدنا بضع درجات ودخلنا الى اليمين الى صالون يمتد كملعب ويحتشد بالأرائك والكراسى المطعمة بالأصداغ ، ترابيزات وطاقائق عليها غير ما على الحوائط تماثيل وأوان وقطع فنية نادرة لكنها رغم فخامة البيئة تبدو كأنها قطع من الحديد الحردة فى مخزن تاجر غشيم .

بعد أن قامت سيدتى بجولة بين كل هذه الأشياء وتفحصتها بعين واعية ، اختارت ركنا فى الصالون قريبا من الداخل ويتميز بأن محتوياته وكراسيه تأخذ الطابع الفارسى بالوان زاهية . ثم جلست . انبعثت رائحة العطور فى أنحاء المكان ولكنها عطور كما لو كان يشوبها شئ من العفن . فمال صاحب السعادة ميشو وهمس فى أذنى قائلا : « الرائحة الطيبة هى رائحة الأشياء المجلوبة الى هنا

وأما العفن فرائحة السكان ، • هزرت رأسى قائلا فى اعجاب :
« يالك من حكيم » •

دخل سفرجى يلبس لباسا أفخر من لباس الفنادق • وضع
أمام سيدتى صينية فضية عليها زجاج وكوب ودلو صغير من الفضة
يمتلئ بمكعبات الثلج • همس صاحب السعادة فى أذنى بأن هذه
الزجاجة اسمها شمبانيا وأنها من أغلى الأصناف وأجودها لكنها أبدا
ليست مشروب أهل هذه الدار • قلت كيف ياصاحب السعادة ؟ •
قال : « أصالة الشيء وأصالة استخدامه شيء آخر .. والشيء
الذين يفضح الدخلاء من سوء استخدامهم له » • قلت : « ما الذى
تريد قوله بالضبط يا صاحب السعادة ؟ قال ضائقا من غبائى :
« نحن باختصار أمام جسد من أصل دونى يتلف بثياب وأدوات
عالية المقام » • قلت وأنا أهز رأسى فى تشويحة تعلمها الأزارقة
« وايه يعنى .. المهم انه راجل جسد .. لو ما كانش جسد
ويسناهل النعمة دى ما كانتش جاءت له » • ثم استدركت قائلا :
« احذر أن تكون من اياهم » • قال : « من هم ؟ » • قلت : احذر أن تكون
شيوعيا فكلامك والحق يقال كلام الشيوعيين » • سلقتنى منه نظرة
احتقار شديد ، ثم برطم : « متخلف أنت كاهلك وأصحابك .. أن
الجسد الدونى اذا ما أدخل نفسه فى ثياب عالية المقام تتحول الثياب
الى كفن .. أن الابهة شيء لا يشتري أيها الغنى وان كان لديكم من
يشترى أدواتها مظاهرها جاهزة فانه يشتريها بثمن خرافى يفقد
فيه شرفه وانسانيته مقابل استمرار تدفق المال بين يديه لينفقه على
استمرار هذه الابهة الكاذبة .. والدليل على ذلك .. الدليل على
أن هذه الابهة ان هى الا كفن فخيم يلف جسدا متعفنا ، هذه الرائحة
الكريهة التى تطفى على روائح الأشياء الثمينة والعطور الراقية ..
انه جسد مات من زمن طويل وتعفن ولكن ماكينة الكسب التى
أنشأها اباؤنا لحياته لاتزال دائرة كما هى لا تكف عن صب النقود فى
الحزائن » • قلت : « ما الابهة الحقيقية اذن ياصاحب السعادة » • قال
انها تلك التى تنشأ مع الانسان ، فكل مخلوق فى هذه الدنيا مهما

غريزية لو أنه انتبه لها وفهمها لأصبح له فى الابهة أسلوبا فريدا يحتذى ، لكنكم - يقول سعادته - فى بلادكم تستوردون كل شيء حتى مظاهر الابهة وفى ظنكم انها تعطىكم الابهة بالفعل فى حين انها تحيلكم الى مسخ واذا لم يكن فيكم من يعرف انكم الآن فرجة العالم المتقدم وغير المتقدم تكونون اذن مسخا على الحقيقة والحلقة الالهية ..

ثم اضاف قائلا بالحرف : « العالم المتقدم - يابنى الازرى - قد اقام لكم خلا تنكريا ، ربما أنه يعرف شخصياتكم الحقيقية واحدا واحدا فانه يلذ له بالغ اللذة تجاهل شخصياتكم الحقيقية ومعاملتكم بشخصياتكم التنكرية ، بل انهم يمعنون فى انكسار شخصياتكم الأصلية والاعتراف بشخصيات الثياب التى البسوكم ، لأن الثياب التى ساعدوكم على التنكر فيها هى التى تحقق لهم مصالحهم الجوهرية بين ظهرائيكم » قلت له : « ولكن أصحاب الدار يبدو من العر انهم ناس طبيين » فشخ صاحب السعادة حنكه عن آخره وأطلق صحكا كالعواء أو عواء كالضحك ، ودفعنى بذيله علامة على الاسهانة بى والاستهجان لأفكارى ، ثم قال : « اسمع يا هذا .. انت وقومك ها هنا تؤمنون بخرافات لا يصدقها عقل .. فكل من يلبس لباسا فاحرا بعض الشيء أو يصرف عن سعة أو يستخدم أشياء ثمينة نصنعونه على الفور بأنه ابن ناس طبيين ، كيف بحق الله تقترون طيبة القلب والنبالة والطهارة بمثل هذا المظهر ؟ ألم يدر فى خلدكم وانتم تحكمون هذا الحكم أن اللصوص والمجرمين والقتلة . والسفاحين كلهم يلبسون فاخر الثياب وغالى الرياش وثمان الأشياء ؟ » قلت له مدبلا اذنى من الكسوف : « مضيفنا كبير المقام لابد » عوج شفتيه فى اشمناط : « لص ابن لص .. غير أنه لص عصرى ، آخر طبعة من طبعات اللصوص التى تتدفق عنها عبقرية المكان من ناحية وعبقرية الشركات الرأسمالية الكبيرة من ناحية أخرى ... انها شركات لا تعمل لحساب نفسها فحسب بل لحساب دولها بالدرجة

فرعا فى كل مدينة من مدائنكم ، فلا بد لها من وسيط حريف صايع ، ثم ثعاب وأصاف : « لعن الله بلدا تنتشر فيها التوكيلات .. »

زحفت ظلال شمعنا فى اثرها رائحة الثرى الكبير ، الذى دخل يرتدى الروب دى شامبر الأنيق فوق المنامة وخف من الجلد الطبيعى الثمين . عملاق ، وجهه المستطيل المسحوب فى صرامة ينتفض بالحيوية والدماء . وبالنشوة العظيمة ، كفارس اجتاز كل المتاريس وعبر الأنهار والبحار وما هو ذا أخيرا يشرف على شاطئ الفوز العظيم . انتفضت سيدتى قائمة وقد تحول وجهها الى بسمة عريضة نابضة ممتنة خجلة . لم يكن فى عينيه شيقا هذه المرة ، ولا تعجلا ، ولا أى أثر لشيء حدث من قبل . برصانة كبيرة مد لها يده الكبيرة ذات الأصابع المستطيلة ، فأطبقت بيديها عليها فى حنان ، فهز رأسه بابتسامة غفران ، فاهتز جسدها من الانفعال وارتجت على صدره باكية ..

كانت يده الكبيرة لاتزال مستسلمة ليديها اذ راحت ترفعها ونقلها عدة مرات والثرى الكبير يستغفر ولكن فى استمتاع دونى . توقفت نظرتها لبرهة سريمة خاطفة على خاتم فى اصبعه استغربت جدا لوجوده بين هذه الأصابع التى تفر ملايين الجنيهات كل يوم ، هو خاتم رخيص مما يباع فى أسواق القرى والموالد .. ثم انها انفجرت ضاحكة كطفلة غريرة ، فارتعش وغاضت الدماء من وجهه قليلا وقال : « علام تضحكين ؟ » قالت سيدتى انها تضحك اذ اكتشفت دليلا على طيبة قلبه لأنه وهو القادر على نبس الألباظ واللؤلؤ يتواضع فيلبس خاتما كهذا يجدر أن يلبسه واحد قرداتى . زام الثرى الكبير ثم عقب قائلا ان الخاتم دليل فعلى على طيبة قلبه اذ هو يمثل بالنسبة له ذكرى طيبة لا يجب أن ينساها ، ثم قال : « المهم لعلك بخير » قالت سيدتى انها آسفة لما حدث . قال الثرى الكبير : « بنبت حلال وحق الله » . أحسنت فى نبرته غمزة مخيفة ، قالت : « لعله خيرا » .

قال : « كلبك غير الأمين كان هنا بالأمس » . انتفض صاحب السعادة فغمزته قائلا ان الرجل تحفظ بقوله غير الأمين أى أنه يقصد كلبا بشريا . وقالت سيدتى للثرى : « أى كلب تقصد ؟ » . قال الثرى : « كحكوح » شهقت ، ثم اعتدلت جالسة تنتفض فى تحفز كبير ثم رددت : « الكلب .. كان عندك » ثم صاحت : « أحب أن أعرف علاقتك بكحكوح .. او علاقة كحكوح بك » ..

٢

لم تعد محتاجة لاقتناع بأن الثرى الكبير غير طامع فيها . بل لقد كشف لها عن رقة ودعائه لم تعدها من قبل فيمن عرفتهم . كان يكاد يرفع ذيلها عن الأرض ، ويقدمها على نفسه فى كل شئ . ويفرغ لها الشراب فى الكأس ، وبنفسه يهيم لها الطعام . وينتظرها فى الموعد على أحر من الجمر كمراهق كبير ، ومع ذلك لم يقل لها ماعلاقته بكحكوح بل لم يقل لها لماذا كان يزوره يوم قال انه زاره . كيف نسيت هى أن تسأله ؟ كيف اندمجت مع ائثرى فى حديث عن الفن وأمريكا ولعبة النساء والمخابرات الأمريكية ونظام البنوك ونظم القبض والصرف والبيع والشراء والتقدم ؟ عديد من المواعيد واللقاءات فى كل منها قررت أن تتفرغ لمعرفة علاقته بكحكوح ولكنها لا تتذكر شيئا من ذلك الا قرب قدوم مواعدها معه ..

أبدا لم تكن تعيش قبل أن تلتقى بالثرى الكبير ، كل ماضيها كان مجرد « بروفة » أو تدريب على حياة هى النعيم كما وصفه الله فى قرآنه العظيم ، الولدان المخلدون . والأرائك والزراوى المبتوثة والقطوف الدانية وأنهار العسل والحمر كل ذلك رأته البتعة فى قصور الثرى واستراحاته المتعددة التى تجى دائما وبشكل أو بآخر على ضفة النهر فاذا كان نهر بنى الأزرق يمتد فى أحشاء أراضيهم فانما لكى تقام على ضفافه مثل هذه القصور والاستراحات المبنية بالرخام والمعدن الثمين . كل ما يمكن أن يحلم به الانسان من جنان

باسقة رأته فى صحبته الا شيئاً واحداً لدعشتها العظيمة لم يحدث ولم يهم كلاهما بالآخر فى أى لحظة ، اذا كانت هى قد شغلتهما الجنة وأضواءها عن نداء الجسد فما الذى شغله هو ؟ هل ليثبت لها أنه ليس يسعى لغرض رخيص ؟ هى لن تصدقه مطلقاً اذ هى كأنثى تدرك من أعماقها رغبته الدفينة فيها ، تضبط نظراته المختلصة وتتجاهلها لعدم احراجة ولكن ياله من قوى ، آكان يريد أن يوصلها الى هذه الدرجة من الاشتياق حتى تقوم هى بالطلب والمحايلة ؟ لا تنكر أنها توشك أن تفعله بين لحظة وأخرى ولا يمنعها سوى اطمئنان كمن فى أعماقها بأن اللقاء الجسدى سوف يحدث .. سوف يحدث . وكانت هذه الموجات من اللفظ تضرب جدار ذهنها مبارية أمواج رأس البر حيث تقف الاستراحة مطلة على ذلك البرزخ الذى هو بينهما : ماء البحر وماء النهر .. فلا يغيان ، بل يحترم كل منهما الآخر ويمضى فى حدود نفسه كأنهما متوحدان منفصلان فى آن معا ..

وكان الثرى الكبير مشغولاً عنها لحظتها بشباب دميم الوجه متماسك الهندام مرن الهامة ، معه جهاز تسجيل وأوراق وأقلام . يقضيان ساعات طويلة فى الغرفة المطلة على الماء وهى مجاورة للشرفة التى تجلس فيها الآن ، مستجيبة لتنبيهاته بعدم اظهار نفسها للشباب أو لآى أحد من زوار مصيفه ، سألت نفسها كثيراً عما يشغلها هذه الساعات ، ولما خرج الشاب وعاد هو اليها سألته نفس السؤال فقال الثرى الكبير انه يكتب مذكراته لينشرها فى الصحف وفى كتاب .. أسوة بزمعلاء البلاد الذين دأبوا على كتابة مذكراتهم هذه الأيام ؟ .. هكذا سألته البتة مبتسمة فى برائة ، فصحيح لها قائل فى جدية وبساطة انه أكبر من كل هؤلاء .. هتفت واقفة وقد شعرت أنها فى مهب ريح قوية عاتية ، صاحت فى فرحة ساذجة : « أنت اذن عبد الجبار ؟ » قال بغضب حقيقى دفين : « أى نعم أنا هو .. ألا تقرأين الصحف أو تشاهدين التليفزيون ؟ » قالت انها تشاهد وتقرأ ولكنها دخلت اليه - على ما يبدو - من الباب.

الأقل ، فهي لم تكن تتوقع أن يتنازل عبد الجبار ويزورها فى منزلها المتواضع ، ذلك أبعد عن ذهنها صورة عبد الجبار وان كان الشبه واضحا بشكل حاسم . .

ثم انها استرخت فى كرسيها مستسلمة لحذر لذيذ سرى فى أعصابها كالنشوة البالغة ، هى لم تعد تستبعد أى شئ يحدث فى حياتها ، كل ما حدث فى حياتها كان من قبيل الأساطير .

مددت ساقها المرمرين وتركت الريح تنصب فوقها خيمة صغيرة من ذيل فستانها الأنيق الرقيق ، وقالت : « هل كنت تعرف أحدا من رجال الثورة الأزرقية من قبل الثورة ؟ » . شوح قائلا : « لا والله . . لكنهم فى النهاية بشر مثلنا ، كلهم أبناء يحملون بالمستقبل وبالبيت الملك والرصيد الذى يبيض كل يوم . ان الثورة لابد أن يتلم سلاحها اذا ما مر على هذه العضلة بالذات من عضلات الضمير ، فلا يحز فيها خاصة اذا كان الثوار أبناء ناس على قد حالهم ، هم صحيح عظماء وقاموا بثورة ولهم الشكر ولكن احلامهم الطبقيية والاجتماعية كانت أقوى من ثورتهم على الأرجح . هذه مسائل قد لا تفهمين فيها ولكنى سوف أدونها فى مذكراتى . انها شهادتى للتاريخ ، ومع كل ، فانا من ذوقى لن أقول هذا هكذا بل ربما أسفك على بعض الأحياء فيهم كما أتعفف عن تجريح الأموات . المهم . . » . ثم تعلقت نظراته فى شرود داخل الخيمة الصغيرة التى كانت الريح تزغرد داخلها وتصنع صوتا موسيقيا جميلا . ضاع منه خيط الحديث داخل الخيمة ، بل ضاع هو نفسه ، فهبطت هى بالكرسى فانفرشت الخيمة على صدرها وظهر وجهه بهورا مذهولا كطفل يرى العرى لأول مرة فى حياته ، ثم انها قربت وجهها منه فى نداء لاهب . فانقض على شفيتها وصار يأكل فيهما وقد احتواها بين ذراعيه فى قوة حيوانية كادت تحطم عظامها الرقيقة . حتى اذا ما وصل اشتعالهما أواره نزع نفسه باسمه فى لذة ، تاركا اياها كالسمكة تنتفض على صفيحة ساخنة ، قامت اليه فى ضراعة ، تجاهلها بنشوة ، وذهب يفرغ

لنفسه كامسا ويشعل سيجارة ، فلاحقته ولثمته فى كل مكان
فألهاها عنه بكأس قدمه لها ثم قطعة لحم مشوية ، ثم تركها وذهب
الى الشرفة وجلس يشرب ويتابعها فى لذة فيما هى تحاول تبريد
نفسها وكتمان غضبها بنكات قديمة غير مضحكة .

٣

أخيرا جاءتها الفرصة دون أن تسعى اليها ، اذ قال لها وهما
يجلسان فى استراحة قصر التيه : « ما أخبار كحكوح ؟ » أخشى
عليك من جنونه .. آفة الشم أنت على مخه تماما وهو يستطيع أن
يفعل أى شئ فى لحظة جنونية .. أنت طبعا تعرفينه أكثر ولكننى
أعرفه أعمق .. زوجك أبو شافية رحمه الله كان مظلوما ..

صرخت سيدتى : « حتى هذا الأمر تعرفه » . قال : « طبعا .
ولو قدر لى رؤيتك أيامها لقلت لك الحقيقة بكل حذافيرها ولأمكن
راجعة القضاء فى الحكم عليه » هبت سيدتى واقفة تصيح فى ألم :
ولماذا لم تتصل بى .. تقول انك تعرفنى من زمن طويل .. ولديك
معلومات عنى وعن زوجى .. فلماذا لم تبحث عنى ؟ » . قال
عبد الجبار : « مع الأسف الشديد لم أكن فى البلاد أيامها .. كنت
مسافرا سفرة طويلة وكانت الأنباء تتأخر فى الوصول الى ، فلما
عدت الى أرض الوطن عرفت كل شئ » قالت سيدتى : « وما الذى
عرفته عن أبى شافية .. قل أرجوك » . قال عبد الجبار باسم :
« عرفنى كحكوح بأبى شافية .. فتحملت سخط كحكوح وجنونه
من أجل خاطر أبى شافية .. كان فى الواقع يعاوننى فى شهامة
ورجولة .. وقف معى فى معركة مع أصحاب الحوش الأطرش حين
أردت شراءه منهم كحظيرة أخزن فيها سيارات النقل الخاصة
بشركاتى ، نعم ذلك الحوش الذى أقمنا عليه فيما بعد احدى شركات
المياه الغازية ، كانوا طامعين فى وكدت أستخدم العنف معهم لولا
تدخل أبى شافية فى الأمر لقد أثر عليهم وائر فى فاصطفيته ونفعته

من وراثي كثيرا والحمد لله ، وكنت أتابع أخباره أما كحكوح فانا اعرف كيف أسوسه وانتفع منه دون أن يدري وبرخص التراب » ..

ثم قدم لها قطعة حلوى وطوح بأخرى في فمه واستأنف يلوك الكلام : « زوجك يرحمه الله .. كان كحكوح قد رجاء أن يصلح عليه زوجته وكان في الأصل يريد التخلص منهما معا ليتفرغ لك و يرث أموالك وأموال المرحوم .. وكان قد أعد عدته .. وهذا الحشيش المضبوط تحت سرير زوجته صفقة سرقها من ولد غلبان وادعى له أن الشرطة هاجمته فتركها ونفذ بجنده .. فلما استجاب زوجك للمشوار حدثت الطامة الكبرى » .

توقفت أسنان سيدتي عن المضغ وبلعت اللقمة بدلا من بصقها . وأخذت تمسح دموعها المنهمرة مرددة : « الكلب .. الكلب » وصاحب السعادة الكلب ميشو يهدد بأزمة دبلوماسية كبيرة وأنا في السر أرجوه ضبط النفس وفي العلن أتضامن معه في نباح رقيق نوعا . قال عبد الجبار : « بتعة هانم .. أنت الآن في الأمان ولن تتوصل يد كحكوح اليك بعد الآن » . صاحت واقفة تدمدم من الغضب : « الطلاق .. الطلاق » . « قال عبد الجبار : « أنا كفيل بذلك » . قالت : « أينوى بى شرا ؟ » قال : « نعم .. مؤكد » . قالت : « هل كانت لهديتك وزيارتك لى صلة بهذا الأمر » قال : « ربما » . قالت : « كيف طلبت منه أن يوصلك الى ؟ » . قال : « لم أطلب منه ذلك » . شربت سيدتي جرعة ماء . قال عبد الجبار باسم : « كحكوح يعزمنى على الغداء منذ عشر سنوات على الأقل .. فلما وجدت الفرصة مناسبة لبيت له طلبه .. هذا كل ما في الأمر .. وأما الهدية فانا شخصا حين أدخل بيت أحد للغذاء فلا بد من هدية لاثقة » .

رددت من جديد : « الطلاق .. الطلاق » . ابتسم عبد الجبار وضغط على ذر ، فدخل أفندي يرتدى أفخر الأزياء ولكن العين لا تخطى أنه بلطجي كبير . شده عبد الجبار من أذنه وهمس طويلا ، فاختم

الذهبي ثم ذكرت له آخر رقم مالى صعد اليه ثمن كل محل من محلاتها . فرفع الثرى الكبير كل رقم ثلاثين فى المائة من سعره المقترح . ثم انه ضغط على زر فدخل اليه خادم فأمره باستدعاء محاميه ومحاسبه . وقامت هى وطلبت بالتليفون محاميه ومحاميه ومحاسبها .

ثم ساد هدوء شامل لبرهة كأنما لتفصل بين زمنين ، قطعها عبد الجبار قائلا : « والله سلامات » . قالت باسمه : « الله يسلمك » . فقال ان جيش الموظفين الحكوميين ينتظر ان تهديه الظروف بواحد مدان للحكومة حتى ولو على باطل ، لتدخل عليه جحافل فى منتهى الطيبة والمسالة غير أنها تريد أن تعيش بقية عمرها على حسابه ، بل ربما اعتمدت عليه فى تحقيق طموحاتها المادية وأحلامها القديمة ، ثم أضاف : « لقد عانيت منهم كثيرا ولكننى عرفت منذ البداية كيف أتصرف معهم وعلى أى نحو أعاملهم ، انهم بحكم البؤس الذى يعيشونه والراحة التى يعيشها غيرهم يتصورون - دون استعداد للتنازل عن تصورهم - ان الآخرين ينجون بل يفرقون من آبار الحرام .. ثم انهم يوازنون الأمر بينهم وبين أنفسهم .. هم طول عمرهم لا يحبون الحكومة ، لا يحبونها اذ هى فى نظرهم مصدر سخرة لا تعمل أبدا لصالحهم .. لظالما نهبت الحكومة من الخراج والضرائب لافندينا ولمحمد على وللعائلة المالكة ولكل الحكومات التى كانت تعتبر نفسها طبقة أعلى من الشعب والباقي مجرد خدم لهم .. الحكومة كانت دائما هى قبضة الملك المالك تنهب لحسابه وتفتك باسمه بكل الناس .. فى القديم كانت الحكومات تتكون من أهل الملك أنفسهم : أبناؤهم أعمامهم وأخوالهم وأصهارهم ، فلا يملك جهاز الموظفين الا أن يكون ترسا فى أيديهم .. أما الآن فان الحكومة فى وادى الأزرق تتكون من أعوان الحاكم والهييشة وخدمه الخصوصيين ، فحاكم وادى الأزرق ورث الحكم ولم يرث عراقة التقاليد ولا الثقافة ، ولذا فان أعوانه يديرون الجهاز لحسابهم الخاص فى مقابل تأمينه من أى طامع

فى السلطة أو من أية ربح تهب ، ووآء كل طفل تتنبأ العرافة بأنه يهدء عرش الفرعون ٠٠ الحكومات فى وادى الأزرق ، يا بتعة هانم انما جاءت لتخدم مصالح السادة ورفاهيتهم ٠٠ وقد ورث الموظف الأزرقى حقيقة عبرت عنها حكمته الشهيرة : آخرة خدمة الفز علقه ، الفز يعنى الاتراك ٠٠ يعنى السادة أصحاب الشغل والوظائف التى تسمى بالحكومية ٠٠ ورث حقيقة أنه مجرد خادم ، وأنه من ثم لن يكون محل ثقة من رؤسائه أبدا ، لتأكسه من أن رؤسائه أصلا ليسوا أهل ثقة أو ضمير ٠٠ لعل المثير للسخرية يابتعة هانم ان أبناء الشعب الذين ورثوا الحكومة بعد ثورتهم ورثوها كما هى بنفس المنطق ونفس المفهوم ونفس السلوك ٠٠ فتحولوا الى جهاز من الموظفين الفلابة يقف على اكتافهم هم من الفيلان والانتهازين !! » .

ثم فشخ حنكه عن أسنان سوقية الشكل والتكوين كأنها أسنان حيوان ، وكان صنبور الكلام الفارغ قد توقف فى فمه . فابتسم من جديد قائلا : « سوف أكتب هذا أيضا فى مذكراتى » .

٤

انعدت الجلسة فى الصالون الكبير بالدور الأرضى بقصر التية وتمت كتابة العقود وحصل كل من المحاسبين والمحامين على عمولته نقودا حية وانصرفوا جميعا وهم فى غاية النشوة . وتسلمت سيدتى شيكا بمبلغ امتدت أصفاره وأرقامه حوالى بوصة كاملة ، ثم قررت وهى تضعه فى حقيبة يدها انها من غد ستحوله الى شهادات استثمار تضعها فى خزينتها الخاصة بالبنك الأزرقى . أما عبد الجبار فقد أصدر أوامره بتشكيل وفد خاص لا ستلام الممتلكات . ثم انه - اكراما لخاطرها - قرر أن ينهى علاقتها بكحكوج فى أقرب فرصة .

٥

كانت الساعة قد لحقت بمنتصف الليل فى استراحة القناطر الأزرقية حين يجىء بكحكوج فى عربة جيب سريعة مصحوبا - أى

مخفورا - بثلاث مو سائقى اللورى ومقاوى الفواعلية العاملين
 باحدى شركات عبد الجبار . وكانوا قد تلقوا معلومات من قصر
 التيه أن « الرجل » على سهر فى انتظارهم بالاستراحة . فما أن
 وصلوا حتى اقتادوا كحكوح الى حجرة الصالون . حيث جلس
 وشرب الشاى ثم القهوة ثم التمر هندى ثم بدأ يرفع صوته
 بالاحتجاج فى زئير مكتوم يردد ألفاظا غامضة . فلما فوجئ
 بعبد الجبار يدخل عليه ابتسم وحول ضجره الى حركات فكاهية
 ضاحكة ، صار كالقرد تماما يتمسح فى عبد الجبار ويتراقص
 ويسلم ويسأل عن الصحة والأحوال كأنما عبد الجبار ابنه النلمبه
 العائد من المدينة . أجلسه عبد لجبار بضغطة رقيقة ضاحكة قائلا :
 « بطل غلبة ياد » ، ثم جلس قبالتة ومال نحوه فى ود كبير ،
 وبصوت يحمل شحنات دافئة جدا من الحب والأخوية والتواسع
 قال له : « قلبى معاك يا منيل على عينك . . ناوى تعمل ايه فى
 المصيبة الى حلت عليك دى ؟ » . انتفض كحكوح وقد اصفر وجهه
 كورقة شجر ذابلة ، ردد فى لعثمة : « خير ياسعادة البيه . . اللهم
 اجعله خير » . قال عبد الجبار كابن بلد مصفى ينشر ظله على
 أخيه فى شجاعة وإيثار : « أنا فى الحقيقة خفت عليك . . انت
 مهما كان بتنفع . وأنا زى ما انت عارف أخاف على رجالتى . .
 حتى اللي بطلوا يتعاونوا معاية بيفضلوا فى نظرى رجالتى برضه
 لانى يمكن فى يوم من الأيام احتاج لهم . . وباحتاج لهم . . .
 وعشان كده حببت أجيبك من تحت الأرض عشان أنبهك قبل ماتقع
 الفأس فى الرأس » .

استوعب كحكوح هذه العبارات جيذا وبرقت عينه من خلال
 السحب عدة مرات كالشرر المتطاير، وشد نفسا عميقا من السيجارة
 ابتلعه قائلا : « فيه ايه يا سعادة البيه » . قال عبد الجبار :
 « البتعة مقبوض عليها من ائمارح » . صاح كحكوح واقفا كأنه
 يبحث عن نفسه : « ايه » . واصل عبد الجبار : « مباحث أمن
 الدولة قبضت عليها . . أصلها كانت متزوجة واحد من الضباط

الكبار من حاشية رجال الثورة .. وكانت مشتركة معاه فى تهريب أسلحة وتجسس وتأمر على الحكم وبلاوى زرقه ، انحط كحكوح جالسا وقد انهارت كل قواه ، انطلقا البريق فى عينيه تماما ، وبكى ، وصارت قدمه الصغيرة تهتز بعنف وجسده كله كلعبة خشبية بزنبلك ، حتى دموعه كانت تبدو متدفقة من خزان فى دماغه . قال عبد الجبار فى حنان : ماتخافش يا كحكوح . أنا برضه حانقذك من الورطة .. أنا عمرى ما أفرط فيك حتى لو أنت ندل زى عوايدك .. امبارح كانوا بيدوروا عليك ، . صاح كحكوح : « فعلا .. فيه جماعة زى المخبرين كده سألوا على فى كل الحتت » . برق الذكاء فى عيني عبد الجبار ، قال : « طبعاً .. أنا عارف .. لو مسكوك اللهم انهم مش حيسيبوك مدى الحياة .. دا اذا ما كانش فيها اعدام .. أصلهم بيعتبروك شريك البتعة وانك واضع يدك على كل الأموال اللي هربتھا .. وبيتهموك بما هو أبشع .. بانك بتمول حركة متطرفة من الجماعات الاسلامية اللي طلعت لنا اليومين دول ، . انفجر كحكوح ضاحكا خلال السموع المنهمرة ، ثم صاح ياكيا : « أمول .. حركة اسلامية ؟ » . قال عبد الجبار : « أنا متأكد انك مش ممكن تمول نملة .. الكلب بتاعك أهه يشهد عليك طول النهار صايح وما صديق شافنا ماسبناش .. ثم انك لا تفهم لا فى الاسلام ولا فى دين .. انت تفهم فى تطليع الدين معلش .. لكن هما معتقدين كده وادى الله وادى حكمته .. شوف مين حيسمع كلامك أو يصمدقك قال كحكوح فى مراوغة مفضوحة : « مسكينة والله .. دانا من يوم مازعلت منها بطلت أوريبها وشى بس كنت مطمئن ان العمل بتاعها ماشى .. هى ما شاء الله كانت كل ساعة فى محل بتفتش ويتجرد وتراجع وتسمى على الرجالة .. دلوقت مين حيعمل لها ده ؟ » . انفجر عبد الجبار ضاحكا فى مرح وتشف خبيثين ، قال ، « أموالها ايه وأملاكها ايه ياعم كحكوح كل سنة وانت طيب » . هب كحكوح واقفا مرة أخرى : « ايه ؟ » . واصل عبد الجبار : « النهاردة استلمتها الحراسة خلاص .. ما عاдуш حد يقرر يتصرف فى أى مليم ولا هى نفسها » .

من بين سمحي كتيفة جمل يرقب عين كحكوح برقة سريعة خاطفه ،
ثم ردد كالغريق : « بلغنى .. تصدق انى بلغتنى حاجة زى كده؟ »
قال عبد الجبار : « بلغك ايه ؟ » قال كحكوح : « ناسى جم
قالوا لى فيه لجنة راحت دكان الآثار وطلبت الدفاتر ومفاتيح الحزنه
والدواليب ودنيا مقلوبة .. رحى معرض السيارات وبصيت من
بمعيد لقيت برضه حاجة مش طبيعىة .. دا حتى الرجالة بتوعك
جابونى من هناك وأنا عمال ألف حوالين المعرضين » قال عبد الجبار
وهو يكتم ضحكة : « لم يعد لدينا الآن سوى ان نفكر فى انقاذك ..
انت لن تستطيع الهرب مدى الحياة .. خصوصا فى قضايا أمن
الدولة .. كله الا هذه » صاح كحكوح وهو يهم بشق الهدوم :
« طب وأعمل ايه .. دبرنى » قال عبد الجبار : « بس بسيطة
ياحمار .. تطلق بتعة .. بس تطلقها بتاريخ قديم .. قديم
شويتين » قال كحكوح : « اطلقها غيايى ؟ .. طب ومين الزى
حيطاوعنى على التاريخ القديم ؟ » قال عبد الجبار : « مالكنى
دعوة .. ممكن اخدكم الخدمة دى على شرط تطلع راجل معاية مرة
واحدة .. مظبوط ؟ قال كحكوح : « أنا خدامك ياسعادة البيه »
قال عبد الجبار : « لن اطلب منك شيئا الآن .. فلست نذلا مثلك
ابيع خدماتى وأقبض فى الحال .. لا ... ولكن .. سادخر عندك
جميلا يحق لى أن اطلبه فى أى وقت أشاء » قال كحكوح فى صدق
حقيقى : « رقبتي لك ياسعادة البيه » صاح عبد الجبار : « اطلبوا
المأذون الخصوصى بتاعى » علق كحكوح فى سعادة : « ياسيدى
.. أهو كده » واستأذن عبد الجبار فى خمس دقائق . وجلس
كحكوح يفرك يديه ليهدى من الفوران الذى بداخله ، ثم أفرغ
مسحوق البرشام وشم دورين بسرعة مذهلة ، ثم حشر فى فمه
تلقية مدغة وصار يبصق فى منديله الجربان ..

ثم انه طلب قهوة فجىء بها ، وطلب سيجائر فانفتحت له
العلبة الصدفية على الترابيزة ، ثم فوجئ بشاشات متعددة فى
كافة أركان الغرفة وزواياها البارزة لتلفزيونات ملونة تعرض

الوانا شتى من المناظر فصلا ينحاز الى هنا تارة وها هنا تارة اخرى حتى نسي نفسه تماما في تيار من الصور الغارية يمضى في سباق وحوار حتى طار ليه من الفوران ووقف على حيله عدة مرات بدأ خللها كحيوان شرس محبوس في قفس ، ثم ان الشاشة انطفت فجأة وتركته محيرا لبرهة ، فلما عاد بصره يالفت المكان حوله وجده الماذون يجلس بجواره قائلا : « أهلا بك وسهلا » . انتفض كحكوح مذعورا : « أهلا » وسلم عليه بيده في تملق يخفى عدوانا غريبا . عزم عليه بسيجارة من اللعبة الصدفية وأشعلها له وبدا ان الماذون غير مدخن ، فصاح فيه كحكوح بغيظ مكتوم : « لما بتشر بشن بتاخدها ليه ؟ » ثم زام ، وضحك الماذون وقال انه لا يرفض الخير والا كان جاحدا ، فزام كحكوح مرة أخرى وقال بصوت مرور محزون : « تبقى حتوافق ! تبقى عمرك ما ترفض أى حاجة ! بشرة خير يامولانا ! ياريت لنا عندك حاجة أكبر » . ودخل عبد الجبار على عجل ، وقال كحكوح لنفسه ان الدقائق التي غاب فيها عبد الجبار كسب خلالها عشرات الآلاف من الجنيهاات لمجرد حضوره في بيع صفقة أو كتابة عقد ..

قال عبد الجبار لمولانا ان كحكوح - وهو أحد كبار رجاله - يريد أن يتخلص من زوجته اللعينة التي كانت شورتها هبابا في هباب . صاح مولانا قائلا خذوهن بالمعروف وطلقوهن بالمعروف . قال عبد الجبار : « اعمل انت المعروف وطلع ورقك » . فأخرج الماذون أوراقه وصار يكتب الصيغة المعلومة ، وعند التوقيع مال عليه عبد الجبار وهمس بالتاريخ المطلوب ، فتردد الماذون قليلا ثم منه ذقنه وسحبها عدة مرات في همسات طريفة مفضوحة الحوار ، أخيرا هز يده مع رأسه محددا بأصابعه الخمس أقصى مدى من الشهور يستطيع اللعب فيه ومعالجة وضعه ، فوافق عبد الجبار بهزة من رأسه فكتب الماذون ووقع كحكوح وجيء بسائق اللورى ومقاول الفواعلية فوقعوا شهودا على الطلاق . ثم أشير للماذون على مطروف أصفر منتفخ قليلا على الترايزة بين الأشياء فاخذ الماذون

ودسه في حقيته بلوتعاشة نشوانة ، ثم هب واقفا والقي السلام
ثم انصرف .

وحين هم سائق اللورى بالانصراف استبقاه عبد الجبار ، ثم
وجه الحديث الى كحكوح قائلا : « انت بقى .. يلزمك راحة شهرين
تلاتة كده تقضيهم بعيد قوى .. عايزك تختفى اليومين دول عن
البلد .. حط القسيمة في جيبك واتكل على الله .. اسمع ..
الاسطى حسنين يقدر يسفرك بلدهم في الفيوم ويستضيفك في
بيته شهر شهرين تلاتة زى ما انت عايز .. وخذ المبلغ ده معاك
اصرف منه لحد ما ترجع لمطرحك .. اى مزاج اى شئ الاسطى
جسنيين يبقى ياخذ هورك معاه في اى وقت » . ثم ربت على كتفه
في حنان كبير واستأذنه في الانصراف . ونظر كحكوح الى الاسطى
حسنيين وقال له : « بينا يا اسطى ناخذ التموين ونتكل على الله ..
أنا فعلا عايز استريح لى يومين .. أنا أعصابى تضبانة قوى يا اسطى
وخايف أموت عندك » . قال الاسطى حسنيين : « في بيتك
يا كحكوح .. يلا بينا » . وسحب من ذراعه في رفق ومضى .

٦

.. ذهلت البتة وهي تسمع نص ما حدث ، اى حواديت
واى أساطير يحدث فيها مثل ما يحدث الآن . وقال عبد الجبار
وهو يخلع سترته ويعلقها على حامل معدني انه لم يعمل حساب
الخطوة القادمة وهي ان كحكوح قد يكتشف وجودها عنده فيما
بعد فماذا يكون موقفه هو ؟ ثم قال وهو يتخاض من البنطلون
ان هذه مشكلة سوف يجد لها مخرجا لابد . ودس ساقه في
البيجامة ثم عاد فخلعها ورماها وارتنى الجلباب الحريري
الابيض .

ثم امرها عبد الجبار أن تقوم وتمد الطعام فنهضت كالفرزال
متجهة نحو المطبخ . مضى ورامها في طفيلية تكشف عن صايع

قديم • أحست خلفها بنظرات تطلق اشعاعا كريها • فلقد أصبحت من طول المراسى والتجربة ترى بظهرها ، فإذا كان المعجبون بجسمها يعتبرون ان ظهرها وجهها آخر لها أكثر إبهارا وجنونا من وجهها الأول ، فانها توقن من أن لوجهها الآخر عيون تبصر بها كل شيء ، وترى النظرة الشرهة وهي تتسلق قناة ظهرها البارزة صاعدة من مؤخرتها بعد طول تلكؤ ثم هابطة من جديد الى الساقين • ذلك الاشعاع الكريه الذى أحسته فيما هى متجهة الى المطبخ ذكرها بصور قديمة كريهة بل ذكرها بصور مطموسة من قريتها يفرج منها الخوف والعنف والغموض ..

انحرفت الى المطبخ فانحرف وراءها • قالت لنفسها : ليس بمعقول ان يطاردها هكذا كالطلبة الغريباء يلاحقون المرأة الفسالة فى المطبخ ، فى حين انها كانت شبه عارية أمامه منذ برهة • لكنها تجاهلته ، وصارت ترفع ذراعها لتحضر حلة أو لتفتح بابا فيمتطى جسدها ، ثم انه دخل دورة المياه وسمعت هى بعد قليل نثيت مياه الدش فوق جسده وسمعت وحوخته الطقيلية السمجة ، وأحست لأول مرة ان هذه النبرة الصوتية المعبرة عن النشوة الخائفة أو الخوف النشوان تعرفها جيدا حيث استمعت اليها من قبل ولم تحبها • ثم انها شرعت تعد الصحون وتسخن أطعمة كانت فى الثلاجة جاهزة ، فإذا بها تحس بصهد خلف ظهرها مصحوب بظل كثيف ثم اذا بجسم صلب يخترق عجيزتها فى سوقية ذعرت لها من أعماق أعماقها ، وكان رد الفعل المباشر أن تستدير اليه فتصفعه بالكف على وجهه أو تبصق عليه ، لكنها تذرعت بالهدوء وحاولت الابتعاد معبرة عن ضيقها ببسمة معوجة مرورة ، وكانت تنوى التفاضى عن مثل هذه الحركات البذيئة مثلما تفاضت من قبل ، حيث تبين لها على طول التنقل بين المجتمعات ان البذاءة والسوقية بين كبار القوم لا مثيل لهما فى الدنيا ، لكن صفحة من الماضى البعيد دفعت بها الريح أمام عينيها فكانها جدار ثقيل نزل بينها وبين عبد الجبار ، جدار ثقيل أسود فصل فى الخيال بين عهديه

حاسمين ، فقبل هذه اللحظة كانت قد اشتتهه أما الآن فهي واثقه تمام الثقة انها لن تشتهيه بأى درجة ، لقد أحست بصوت القرار فى أعماقها داويا لا رجعة فيه ، لهذا أعمت فى تجاهل عبد الجبار ، وبكل رزانة وثبات كأنها امرأة غريبة عن الدار أخذت تعيد ترتيب الأطباق والشوك وعلى وجهها كثير من الحرج والصلابة ، ما ان استقرت فى وقتها حتى شعرت بصهد الظل الكثيف يزحف نحوها ، فبعثت اليه من فوق كتفها نظرة استنكار تحمل كثيرا من التقزز ، فكان وجهه الغليظ المكبل بجلد طيلة مرتخية متكسرة يرسم عليها ما يشبه الابتسام الأبله ، ثم انها تذكرت هذه البسمة البلهاء الكريهة لكنها لم تتذكر بالضبط أين ومن ، لكنها تدرك انها تكرهها كره العمى . بثبات راحت تخرط الاوطة فى دوائر رقيقة ، فاذا به يلتصق بها دفعة واحدة ويطوقها بذراعيه لاهث الأنفاس يطلق فحيحا عميقا أجوف متدنيا . صارت تحرك نفسها بين ذراعيه بعنف وهو كالطود الراسخ حتى أنهكت وتركت نفسها بين ذراعيه كخرقة بالية ، فلما انتفض على ظهرها كالذبيح وتخلخلت قيوده حولها ردت اليها الروح ، غير ان لزوجة قبيحة بللت عجيزتها فشعرت بقرف حاد ، وكانت أنفاسه الكريهة لا تزال فى أنفها فتيقنت فى الحال انها تعرف هذه الأنفاس جيدا ولكنها لا تعرف أنفاس من على وجه التحديد انما تعرف انها تكرهها وتتمنى الموت لو قدر لها النوم لصاحب هذه الأنفاس .

استدارت اليه وقد تجمعت البصقة فى فيها ، لكنها تذكرت انها فى بيته وانه عبد الجبار صاحب وادى الأزرق وزعيم المنشئيين . فابتلعت بصقتها كارحة ، فانتابها غيثان ودوار ، سيطرت على نفسها حيث قررت فى نفسها أن تقاوم الفيوبة او الانهيار بأقصى ما تستطيع ، لكنها لم تستطع السيطرة على الغيثان ، فاتجهت الى حوض المياه وأماأت رأسها عليه وتهيأت لافراغ ما فى جوفها كله ، لم تكن تقصد أن ترسل عجيزتها الى بعيد وقد صارت شيئا منفصلا عنها متصلا بها عبر جسر من غدير ، ما لم تتصوره مطلقا

حدث ، فوجئت بالجسم الصلب 'يخترق' عجيزتها من جديد كغود من الحديد وفوجئت بحيوان ذى مخالب يتسلى ظهرها ليقبض على نديها ويفعصهما فى عنف شرس ، فانتفضت واقفة فى غضب شرس كفرسة جامحة ألقت به الى الوراء يضحك فى صبيانية بلهاء ثم نظرت فيه غاضبة حاقدة ، ثم اتبته بنظرة أخرى ، ثم استدارت من جديد الى الحوض ومالت نصف ميل وقلصت معدتها و ..

تقيأت ثم أفاقت لكنها تصنعت !التعب وتركت المطبخ متجهة الى حجرة النوم وارتدت فوق كتفيها سترة روب ، ثم جلست على كرسى مريح ، فجاء خلفها كطفل مذنب وضيق ، وجلس قبالتها ، قال بصوته المتحشرج : « مالك .. ما كنتى كويسة من دقائق .. حصل ايه ؟ » سألته بنظرة ، لكنه فلفص منها وقال : « أجيب لك دكتور ؟ » قالت بسرعة وحسم : « لا .. مفيش داعى .. أنا كويسة مفيش اى حاجة بس أعصابى مش مظبوطة » ، قام اليها فاستقبلته بنظرة استمناط ورفض واستياء .. جلس بجوارها فوق حافة الكرسى حاشرا الحافة بين ضلعي مؤخرته ، وطرح ذراعه حول رقبتها فنظرت اليه فى رجاء كأنها تقول : « اعمل معروف سيبنى دلوقتى » .. فوضع رأسه على عنقها كطفل مدلل وقال : « عايزانى أسيبك اقلعى الروب » .. فتهضت وخلعت سترة الروب ورمتها بعيدا ثم جلست على كرسى آخر فى ركن بعيد ..

اعتدل فى الكرسى واستلدار به فواجهها قائلا فى شيء يشبه التهديد انها اليوم غير طبيعية ، ثم أضاف بأنه الليلة على ما يرام ولم يشهد لمزاجه انتعاشا طول حياته مثلما يشعر الليلة ، نعم فلقد عاش السنين الفائتة كلها يعمل ليل نهار كالماكينة الالكترونية التى ضبطوها على حركة معينة فهى لاتنى تدور فيها بدقة محسوبة حتى الجنس لم يشعر له بلذة أبدا لانه لم يكن ملتفتا اليه فى شبابه وحين تزوج اختاروا له ابنة ثرى لم يشعر نحوها بالحب أبدا وان كان يشهد بطيبة قلبها وحسن أخلاقها وتربيتها ، وجودها فى حياته كإى شيء يقتنيه ، حتى وهى تسهر معه فى بعض

السهرات أو ترافقه في بعض المناسبات ، تسير تحت أبطله كشيء معلق في ذراعه لا تفار ولا تسأله عن خصوصياته ولا تفعل أى شيء من هذا القبيل ، بل هي في الفراش على جمالها الخارق ترتسى اليه كشيء يمتلكه ويمارسه وقتما شاء .. وقد أتيج له أن يرتاد مجتمعات الجنس وأندية العراة في شتى أنحاء العالم ، وانفتحت أمامه شقق وبيوت لا حصر لها تحوى نساء كالفاكهة الناضجة ، لكنها في النهاية لا تثيره ولا تمتعه لاحساسه القوى بأنها لم تنفتح له بل انفتحت لامواله ، ان أمواله تسبب له عقدة جنسية عويصة ، فكل النساء اللاتي أقبلن على فراشه طائعات كن بدافع من اثنين : اما رداً على هدية قيمة واما انتظارا لهدية قيمة .. وكان يمارس معهن الجنس أى نعم ولكن كنوع من الألعاب الرياضية المجنونة لا يحس بعدها انه قد اسنrach أو هدأت بأعماق صدره الجمرات المتقدة ، بدليل انه لم يكن يحس بالهياج الحقيقي الا حين يرى امرأة أخرى بعد انتهائه من المضاجعة مباشرة ، فما أن يقترب الى المرأة الأخرى موضع الاشتواء حتى تنكشف له أعماقها عن تاجرة جشمة ..

ثم ضحك عبد الجبار بصوته الأجش ضحكة لا معنى لها . طردتها البتعة من أذنيها ونهضت قائلة انها تشعر بالرغبة في العودة الى البيت لتنام شهرا بأكمله حيث كانت قد دهمتها جحافل من الصور القديمة الجديدة كلها ذات طابع مخيف حتى وان كان بعضها يأخذ سمة الضحك والمرح ، أشياء تكرهها وأشياء لا تعرف ان كانت تحبها حقاً أم لا ، أمها وهل لا تزال على قيد الحياة ؟ خالها وابناء خالها ومن عاش منهم ومن مات وماذا يا ترى حالهم ؟ عنتر كباية وهريدى وذلك الذى كانت تدعوه بمختار ، ورجال الثورة وحدائق اللبوة وجبل المقطم كل ذلك تداخل في بعضه وتناحر وتعارك وهد قواها فبذت مهزولة على غير ما يرام . اكتأب عبد الجبار فجأة وتحول وجهه المكبلظ الى عجيئة مفعوصة بقبضة يد ، وحين تأملت هي في ثقبى عينيه أحست بحقد دفين

يُخرج منهما وان اتخذت نظرتة شكل العتاب . بلع ريقه وزعم
ولشعل سيجارة ، وقال لها انه لا داعى لاي قلق ، وانها تستطيع
النوم فى هذا القصر كيفما شئت لاي وقت تشاء ، ثم ذكرها بانها
من المفروض ان نيابة أمن الدولة قبضت عليها فكيف يكون موقعه
لو ركب كحكوج جنونه وذهب يبحث عنها فى بيتها ليتأكد . .

انهارت بجالسة فى اعياء وقهر شديدين . نهض عبد الجبار
واتجه اليها فى جدية شديدة وفى شهامة ابن بلد ، ربت على
ظهرها فيما قصد أن يكون حنانا ، واعتذر عما يكون قد بدر منه
واساء اليها ، ثم قبل رأسها ورجاعا التهوض معه الى الشرفة فنهضت
مستسلمة ليديه . الشرفة تطل على حديقة بعيدة الغسور حافلة
بأشجار الموز الخضراء بأوراقها العريضة الهائلة المناسبة من أسفل
الى أعلى مثل أكف ضارعة ، تذوب فى الساق وتستقل عنه فى
نفس الآن . أشجار الورود منتشرة والزهر يتسلق افريز الشرفة
وعناقيد العنب تتدلى بداخل الشرفة فوق كرسى من خشب المامبو .

فوق هذا الكرسى المستطيل العريض الجميل جلست البتعة ممددة
ساقبها طليبا للاسترخاء والهسود . وعند نهاية قدميها جلس
عبد الجبار مكررا أسفه على ما حدث لها . ثم ضغط على ذر بجواره
فجىء بفداء جديد جاهز شهى ، أجبرت البتعة على أكله مع أقداح
البيرة المخبشة وظلت أقداح البيرة تزحف اليها فى صحتها حتى
انتعشت واستعادت حيويتها وصارت مستعدة لتقبل عبد الجبار
على علاقته ، بل ان نظرتها تغيرت فجأة من الحقد الى الاشفاق ورغبت
فى أن تعرف الكثير عنه منه هو نفسه ، فاعتدلت فى جلستها
وجرتة من جديد الى حديث الجنس فاذا به يقاؤها قائلا :

- . سوف أعترف لك بسر . .

أعطته كل انتباهها :

- . قل . .

فاندفع قائلا : - هل تتصورين اننى لم أشعر بالجنس

الحقيقي الا وصورتك في دماغى ؟ » قالت باسمه : « كيف ؟ » قال : « لا أدرى .. ولكننى طول عمرى ما حملت بذروة الجسر الا معك » قالت فى دهشة : « تقول طول عمرك .. أنت تعرفنى اذن طول عمرك ؟ » ثم ضحكت فضحك هو الآخر قائلا : « انصد من يوم ما عرفتك » قالت منساقة وراء المتتاليات الحوارية التى حفظتها من أفلام التليفزيون : « ومتى عرفتنى ؟ » قال ملوحا بكفه : « منذ .. منذ .. ثم ابتسم فى حيرة - منذ رأيتك تغنى فى فرج أحد أفقاري » - شحب وجهها : « أنت اذن تقصد رشا الخضرى ؟ » قال ملوحا بكفه : « يو .. و .. و .. ومن لا يقصد رشا الخضرى ؟ » - ثم بلهجة ذات معنى : « على فكرة كانت تشبهك » - حمدت الله وان كانت لم تحسب انه يجمل كونهما - رشا وهى - شخصية واحدة .

على أن عبد الجبار فى ذكاء شديد حاول أن يعطى لهذه اللعنة معنى فقال بلا معنى انه حين يرى رشا الخضرى فى التليفزيون كان يحتاج ، فقط لانها كانت تذكره بجسد معين لفتاة معينة كائنة فى أعماقه ، وهو لا يعرف بالضبط ان كانت هذه الفتاة الممثلة سبق ان رآها فى مراهقته او طفولته أم انها من خلق خياله ، ولكن هل ينجح الخيال فى أن يخلق صورة حية مجسدة الى هذا الحد ؟ ولماذا تكون على هذا النسق - أقصد نسق رشا الخضرى فلما رأيتك أول مرة - هكذا أضاف باسمه - أحسبتك لانك انقح « من رشا الخضرى جسدا وشكلا وروحا » تأملته بعينين فاحصتين باحثتين عن شئ يسمونه الحقيقة ، فلم تجد له عينين حيث أن عجيبة وجهه كانت فى حالة انفعال تقلصت معها وزحفت الأذنين فوق الخدين والتصق الخدان بالجبهة .. فضحكت بمرح رغما عنها ضحكا رنانا صافيا ، ثم ركنت رأسها ونظرت فى حوائط الغرفة وكانت نفس العجيبة المقعصة تبطل له من فوق حائل فاخرة وكانت هى تعجب كيف استطاع كل من عاملوه أن يتعاملوا مع هذه العجيبة الخمرقة على اللوام .. لكنها انفجرت تضحك وتضحك

وهو يتابعها مفصحا عن عينيه شيئا فشيئا وكلما ظهرت عيناه اكتست عجينة وجهه بتعبير ما ، ثم قال لها في تفاخر خجول بعض الشيء فيما يشير باصبعه الى الصور : « فعلت كل هذا لأتحدى أبى .. وأسعد لحظاتي هي التي أراقب فيها أبى حين يتفرج على مثل هذه الصور ، أحيانا كان من الفرجة يصيح ورائى كالطفل مطالبا بأن آخذه معى الى حفل افتتاح كوبرى أو مصنع أو مخبز أو فندق أو ماتش كورة .. وكنت أربت على ذقنه فى حنان وأتركه وأنصرف .. كان أبى تاجر محبوب ، وكان غنيا وكان بخيلا الى حد لا يطاق ، يكفى اننا تعلمنا أنا واخوتى دون أن نتكلف من ثروته مليما واحدا ، كلنا ذهبنا للشغل فى الوسايا وفى البلاد واقترضا من جدتى لأمى ومن اخوالى .. وكان يتلذذ كلما رأنا فى عوز . ويتشقى قائلا : سوف تعودون لى .. وان عدنا اليه سمم أجسامنا بقارص الكلام .. أنت يا ولده مكنة أكل ؟ يكفيك رغيف واحد .. وانت يا بنت مالك كالبقرة .. وانت يا امرأة - يقصد أمى - خفى عن العيال بدلا من الحشر حتى لا يمرضون ويكلفوننا أموالا ليست معنا .. لسنا نحب يا ولية ان نصرف من بتاع الناس .. وهكذا ظللنا أنا واخوتى نرتعب من بتاع الناس فتركناه للناس وبعثنا لأنفسنا عن بتاع نفقات منه وكله من رضا الوالدين أقصد رضا الوالدة فقد ماتت رحمها الله وهى تدعو لى ولاخوتى .. أبى الآن بكل هيله وهيلمانه وأمواله ينام فى البلدة على شاطئ الرياح الزرقانى مجرد واحد من الأعيان لا نحتاج اليه ولا يحتاج الينا .. بعض المتحفظين من قول كهذا يقوله انسان عن أبيه ، لكننى سأكتبه سأكتبه فى مذكراتى وسوف أخلق منه درسا لشباب البلاد حيث يتعين على كل منهم أن يتحدى والده ويخلق من نفسه شيئا كبيرا على المقام .. انها الأموال .. النجاح .. كم حققت فى حياتك من أملاك يافتى ؟ أكثر مما حقق أبوك ؟ أذن فأنت قد نجحت بمون الله وحسن اجتهادك . هل حققت أقل مما حققه أبوك ؟ أذن فأنت قد فشلت وضاعت حياتك هدرا ولا يد لك بليت بسخط الوالدين

أو بالضلال عن الهدى والحق . أما ان، حققت أقل من ذلك فانت غير جدير بالحياة .. هكذا الدنيا. .. لسنا لا سمح الله نقول انها غاية مليئة بالذئاب كما يقول الشيوخيون ، ولن نقول لك تذئب حتى لا تأكلك الذئاب .. حاشا لله .. انما نقول ان الحياة شطارة .. وهناك ناس تتبعثر الأموال حولها منادية بمن يستفيد بها وهم مع ذلك لا يرونها .. انهم اذن لغافلون .. وهناك شبان طلّعوا علينا هذه الأيام بتهمة التكفير يبعثونها في كل اتجاه ويعتبروننا نحن الاثرياء في ضلال عظيم ..

ثم اغتباط فجأة وصاح بغضب : « ليتنى أدركت جهاز التسجيل لأستطيع أن أقول هذا مرة أخرى .. هكذا يجب أن أدون في مذكراتي ولكننى دائماً أنسى اصطحاب جهاز تسجيل. فى مثل هذه اللحظات النادرة التى أرانى فيها مجباً للحديث عن نفسى وعن حياتى .. لقد داخ الولد المحرر معى فى الحقيقة .. طلبته فى أوقات متعددة وحالات نفسية مختلفة ولكننى عندما يحين الحديث ونفتح - الجهاز وهو يسدد لى نظراته البلهاء من خلف المنظار تجف ينباع الحديث فى نفسى ، وأرانى أقول كلاماً فارغاً ، أشرح فى أشياء فرعية ويبدو على اننى لست أعرف بالضبط ماذا أريد قوله . فحيث أريد أن أسجل قصة حياتى وكفاحى أرانى قد انحرفت فجأة الى الحديث عن مواقف مثيرة حدثت بينى وبين بعض الزعماء أو الملوك أو المسئولين الكبار الذين لم يعد لهم وجود فى الدائرة الضوئية ، فاذا بذكرهم يفريئنى بالاسترسال فى الحديث عنهم وكيف ساومونى على كذا وكيت وكيف عرضوا على الرشاوى وكيف وقفت وكيف دافعت وكيف تخلصت . ألاأنى فى أعماقى مولع بأن يقرن اسمى باسماء زعماء وملوك وأباطرة ؟ أم لأننى أريد بالفعل أن أفضى بأسرار يستفيد بها التاريخ وتنتفع بها الأجيال ؟ .. ولكن لا .. تعالوا هنا .. السننا الآن نريد أن نخدم التاريخ والأجيال ؟ حسن ، فلننسى قصة حياتنا الشخصية ونكتب فصولا

من مذكراتنا عن مواقف هامة عشتها مع رجال لهم أهميتهم في تاريخ البلاد ؟ .. ولسوف أسجل تاريخي من بينهم ، نعم فانا الذي استطاع أن يتجاوز معهم جميعا ويتجاوز كل قواهم القاشسة واحقادهم ويحتفظ الى ذلك بصداقتهم . سيقولون اننى أجرح الموتى وأنضح رائحتهم العفنة مع اننا كنا أصدقاء صداقة يضرب بها المثل .. وأقول لهم ان الحى أبقى من الميت ، واننى رجل أحترم حق الأحياء واحترم حق التاريخ فى أن يعرف ، انا هنا مجرد من الأهواء الشخصية ، .

ثم صب لنفسه كأسا من الويسكى ولها قدحا من البيرة المعبأة ، وقدم لها أصبح بطارخ التهمته كله وراء جرعة بيرة ، فالتقى واحدا آخر مثل خيارة لطيفة الحجم وقام بنفسه وهم بادخاله فى قمها لكنها اشاحت بكفها وهزت رأسها رافضة فتوقف ناظرا اليها كأنه يقول : عشان خاطرى .. فلم تعره التفاتا . فهم بادخاله ثانية فى قمها ، فمدت أصابعها السرحة الطويلة الأظافر وأمسكت اصبع البطارخ وجاملته بأن قضمت منه قضمة صغيرة أخذت تلوكها فى ملل . فجلس وقد أحس بقليل من الصدمة ، ودفع الى جوفه بكاس الويسكى دفعة واحدة ، ثم قال وقد بدا أنه يتذرع بالصبر : (أقسى شيء يمكن أن يقع فى حياتى هو أن يحبط مزاجى هذه الليلة .. هذا شيء لا أستطيع احتماله أو معاناة آلامه .. وربما انفجرت الى شظايا ان حدث لا قدر الله ما يعكثن على ويخمد جذوة اشتعال مزاجى ! .. أنا الآن لست عبد الجبار .. أنا ذلك الرجل الذى وجد أخيرا جزيرة وارفة الظلال فأب اليها بعد طول تشرد بين الأمواج والرياح ! .. لقد عشت كل هذه السنين الفاتئة أنتظر هذه اللحظة ، نعم هذه اللحظة ، حيث يتم اللقاء بينى وبين من ظلت مدى الحياة مصدر أحلامي الجنسية !! أنت هى !! أقصد انك أنت هى التى عاشت فى مخيلتى وأفسست على كل العلاقات مع الجنس الآخر !! لقد فشلت كل علاقاتى معهن شرعية

كانت أو غير شرعية - وكان فضلهما لحسابك أنت ! لقد كنت أظالمهن جميعا بأن يكن أنت وهذا مستحيل ! وقد غاب المستحيل عن دائرة حياتي فترة من الزمن غرقت فيها في تجميع كل هذه الأموال وتحقيق كل هذا الوجود العريض !! لكنه سرعان ما هب على أفق حياتي من جديد ، فحيث كنت أظنه مستحيلا إذا به أجده يتحقق في صورة رشا الخضرى ، فلما ضاعت رشا الخضرى تحت سناك المرتزقة من أعوان الثورة الأزرقية واندفنت تحت ركام الأحداث في كهف مجهول رأيتك فاذا المستحيل يتكرر ، ولكن كأنما ليقول نى ان هذه هي آخر فرصة لى معه ، ان المستحيل ان حدث فهو لا يمكن أن يتكرر ، هذه من مسلمات الدهر ، أما ان تكرر فلكى يبلغ هدفا أعظم أو رسالة عظمى ، وأنا قد تلقيت هذه الرسالة التى قالت لى : اغتتم هذه الفرصة لأنها لو ضاعت منك تظل بقية العمر تعاني حرارة الندم وحسرتة ، هذا ان بقى لك عمر بعدها) .

ثم صب لنفسه كأسا ، وأكمل لها كوب البيرة ، فهزت رأسها شاكرة فى رصانة وقد أحسست انها أكبر مما كانت تتصور وأضعف ، ثم شعرت ان هذا الاحساس لن يقودها الى شيء ذى بال فنبذته . ابتلعت نصف كوب البيرة ، وأشعلت سيجارة واعتدلت جالسة كأنها تعطيه الإشارة باستئناف الحديث ، ففي الواقع كانت قد بدأت - منبهة - تستلطف حديثه وحركاته وتلتقى معه عبر حديثه على عقد مشتركة وأشياء كثيرة مسموعة فى حياتها الخاصة ، نعم فهو يشبهها فى كثير من الأشياء وهى تشبهه فى كثير من الأشياء . شلت النفس واستحثته قائلة : « هيه » ..

وضع ساقا على ساق وجرع الكأس وصب غيره وأقم نفسه أصبح بطارخ ، وكانت الحيوية تندفق من عينيه على وجهه ، ويتحرك بنشاط ، ثم قال كأنه يبدأ حديثا جديدا : « لست أعرف ما سر هذه النشوة التى هبطت على الليلة .. أشعر الآن اننى شاب فى العشرين .. بل دون العشرين .. أنا الآن .. بالضبط بالضبط ..

طالب في « الثانوية التوجيهية » وفي حديقة منزلنا في البلد أو في
حجرة الحزين ، تتابى الآن نفس مشاعر تلك الفترة ، أشم رائحة
بيتنا القديم في البلد ، أشم رائحة الحبوب المخزونة ، أشم رائحة
محل الأدب ، رائحة السمن المقدوح ، أحس بخفقان قلبي على حق
ولأول مرة منذ ذلك الزمان البعيد ، خفقان نشوان إذ أن في انتظاره
الأنثى ، الأنثى التي هي • أسراب النمل الآن تمشي في عروقي ،
حتى انظرى ، ها هو الكأس يرتعش في يدي ، لا أدري ان كنت
غاضبا الآن أم نشوانا • أما كوني نشوان فهذا مالا جدال فيه ، وأما
كوني غاضب فهذا وارد ، لأننى أحس بالانفعال كالنواة داخل ثمرة
النشوة • ولكن لماذا أرانى أفعل ؟ ما السبب ؟ هل لأننى فى
أعماقى كما لو كنت أريد الانتقام من شيء ؟ ربما كان فى أعماقى
ثارات كثيرة مبيتة ولكننى لم أجرب لحظة الانتقام أبدا ، ولكن مم
انتقم ؟ لقد أساء الى زعماء كثيرين وأضربى قواد كثيرين ومع ذلك
لم أفكر فى الانتقام منهم بل اننى حين جاءت سيرتهم فى مذكراتى
تحدثت عنهم بكل حب ولطف وأمانة • وجدتها • وجدتها •
سر الانفعال الكامن فى شرنقة النشوة هو خوفى من فشل هذه
اللحظة التى أعيشها الان • انه وحده عذاب اليم ولولا هذا الويسكى
الأمريكى العظيم لهدنى ثقله • ان كان فى الأمر ثمة انتقام فيكون
فى شهوتى الجامحة ورغبتها فى الانتقام من الحرمان الكبير !! • •

ثم انه انتقل اليها بكأسه وجلس فوق حجرها واضعا رأسه
فوق صدرها والكأس فى حضن الشدين ، وكان ينتفض وتنبعث
منه حرارة كثيفة مخيفة ، لكنها احسست بضعفه الشديد فى هذه
اللحظة ، دفعها الاشفاق الى ابداء الرقة فهو مهما كان رجل كبير
الحجم قدم لها خدمة ويكفى انه نجاها من حقارة كحكوح وما كان
ينتظر لها بجواره من مصير ، ثم تذكرت فجأة بخفقان قلب انها بدون
رجل كهذا فى الحياة سوف تأكلها الذئاب ، وحسنت الامر فى نفسها
بأن رضيت ان يلعبها كلب من ان يأكلها ذئب ، ولكن ايها الذئب

وايهما الكلب : عبد الجبار أم كحكوح ؟ .. هنا لم تستطع الحسنة
برأى لكنها قالت ان تجربتها مع كحكوح تثبت انه اخس من رأت على
ظهر الارض .

وانتبهت فاذا بعبد الجبار قد أباح لنفسه اشياء كثيرة وافعالا
كثيرة دون ان تدري . اذا بها مضطجعة في مطرحها وعبد الجبار كله
داخلا في جوفها واذا بالكأس يندلق بين يديها فيفريقها قليلا ببرودته
واذا بعبد الجبار يلاحق الشراب المنسرب بين الشدين فيشربه ويمتصه
بنشوة بالغة . ولم تكن قد خلعت قميصها ولا هو . ولكنها
فوجئت بنفسها بين يديه كريشة في مهب الريح يطوح بها في كل
اتجاه ويضربها في سقف النشوة ضربات موجعة . ثور هائج يفع
الشرر من عينيه ومن الجنون والعبث مقاومته لكن جنونه كان أخرقا ،
كان يلعب بها كالبهلوان وكانت ترى نفسها معلقة في الهواء
أو منكفأة على وجهها وكانت توشك ان تلفظ انفاسها عدة مرات .
وكانت تبعث الشخير والهاث والاهات العميقة المسترحمة دون
جدوى ، ثم اذا بها تصرخ من اعماق جوفها المعبأ بالنار .

لمح الذعر في عينيه . انحنى فوقها وصار يقلبها فاذا بها
كالحرقة بين يديه لكنها جاحظة العينين تنثال فقاقيع الريالة على
شدقيها ويخلو وجهها من كل حياة . أمسك رسغها وجس نبضها
فلم يجد سوى خشبة أنيقة الصنع تركها فانهارت على الأرض .
وضع يده على قلبها ، لا نبض ، لا حركة ، لا حياة . مصيبة .
وضغط على شفتيه السفلى في غيظ . عاد يقلبها ، لا جدوى ،
مددها وعدلها وأسبل عينيها وغطاها ثم اندفع يهرول الى الداخل .
دخل تحت الدش مباشرة وظل يسلم رأسه لخيوط الماء ويفح ويفتح
عينيه ويهز رأسه ثم يتفكر ثم يعود للدش من جديد . دعك نفسه
بالماء البارد والساخن حتى يفيق . أخيرا خرج عن الماء وجفف نفسه
وخرج بالبشكير ملفوفا حول جسده وهو يتوقع أن يراها جالسة
معتدلة في رقدتها ، لكنه رآها من بعيد وقد تخشبت تماما ، ومع

ذلك اقترب منها وصار يهز رأسها ويدغدغ جسدها ولكن لا حياة لمن ينادى . . . وأدرك أنها ماتت ، فأنهار جالسا بجوارها خابطا رأسه بقبضته ثم خابطا الأرض بقدمه فى حقد جنونى ، ثم اسند رأسه بين يديه لبرهة طويلة افلتت خلالها من عينة بعض دموع ميتة باردة . ثم انه نهض فى حيوية مفاجئة ودخل حجرة النوم وأخذ يرتدى ثيابه . واذ هو يفك ربطة « الكرافت » ويميد ربطها بشكل أنسب لمخ الخاتم الرخيص فى أصبعه لمعة خادعة جعلته يوقف يده ويعيد النظر فى الخاتم ويتعجب فى نفسه من أن يكون للمعدن الرخيص لمعة البراقة حتى وان كانت خادعة ، ثم ان عجينة وجهه تقلصت ، فترك رباط العنق وهرب الى الشرفة من جديد ، وخلع الخاتم من أصبعه وألبسه أصبع البتمة ثم نظر فيه فوجده غير ملائم على الإطلاق ، لكنه تركه فى يدها وعاد الى حجرة النوم ووقف أمام المرأة يكمل رباط العنق .

باب الحرق

★ كيف عاد الجسد الغريب الى اصل غريبته :

١

فى تلك الليلة المشئومة كان صاحب السعادة الكلب ميشو لا يزال ينتظر صاحبه فى عربتها الخاصة - أقصد فوق العربة . فمئذ أن جاء أحد الخدم وفتح له الباب ليتهورى ظننت انه سيندفع الى الخلاه كما نفعل نحن ، اذ ما يصدق الواحد منا أن ينفتح أمامه باب حتى يندفع بأقصى سرعته ربما الى غير رجعة . ربما لشمورنا المتوارث بالخوف من السجن . ربما لأن كلاب بنى الأزرق يولدون وفى أعماقهم باب السجن الموصد على الحياة ولهذا فنحن مدربون على التسلق ونط الحواجز وقفز الترع والمصارف كما نحن متعودون على تلقى الضرب باستمرار ودونما سبب . . . أما صاحب السعادة

ميشو فانه حين انفتح له باب السيارة دلف خارجا في رصانة وهدوء
 كقيصر الروم ، ثم أخذ يحوم حول العربية ناصبا أذنيه شاهرا كل
 حواسه ، وكان عكر المزاج لحظتها حقا ، يتحرك في عصبية وينبح
 بصوت مهذب ثم آبت ثورته الى صمت دبلوماسي مريب ، وكان قد
 صعد الى مقدمة العربية واستراح فوقها كأنه يفكر بعق شديد في
 أمور خطيرة . أما أنا فان خصلة الصياغة والشمشمة بحثا عن الرزق
 وقتلا للفراغ قد دفعتني الى اقتفاء أثر سيدتي وقد نجحت في
 التوصل اليها بحيل يعجز عنها صاحب السعادة ، حيث شملت
 رائحتها في الشرفة المطلة على الحديقة فتسلقت جدراننا وأشجارنا ثم
 أقعيت على حافة الشرفة مباشرة فرأيت كل ما حدث وبشسكل
 تفصيل وقد اقشعر بدني وأمانتي الذعر في جلدي ، ولم يكن قد
 بقي في من علامات الحياة سوى الشعور بالحزن العميق الممض ،
 وتأكد لي أننا معشر الكلاب الضالة من بني الازرق نرى كل هذا
 الخرق لأننا كلاب ضالة لا قيمة لها ولا سعر حتى وان كنا مثقفين
 موهوبين ، الضلال في الحوارى كالضلال في القصور يفقد الانسان
 فيه كيانه ويتبدد من كثرة ما يرى - أقصد الانسان الكلب أو الكلب
 الانسان - ليست هذه تسمية من اختراعى ، ولكن الواحد منا يكون
 انسانا حين يملن احتجاجة وبكل قواه على كل ما يمكن أن يهدر
 انسانيته ، ويكون كلبا حين يصبح جزءا من الخرق لا يتجزأ ولكم
 سألت نفسي هل انسلخ الانسان في عن الكلب أم ضاع ولم يبق
 سوى الكلب ؟ لكنني لم أصل الى جواب حاسم ، ولولا وقوعى بين
 شقي هذا الصراع لما رويت لكم هذه القصة من الأساس . ومنشأ
 الصراع أنني دون معظم كلاب بني الازرق لازلت أشعر بالقدرة
 على عدم الاعجاب ، وعلى التصريح به فى أى وقت فى أى ظرف أمام
 أى أحد ، وذلك يسبب لى ضربات ببوز الحذاء وأحيانا فى بطنى
 وفى كل موضع مؤلم فى ولكنني منذ أن رأيت أمى تهبط الى
 المستنقع النتن مشجوجة الرأس دون ذنب جنته وأنا أدخر فى

أعماقي رفضا غامضا لكنه قوى مرذول ، وكلما تذكرت ذلك
المشهد البعيد تتيقظ في نفس عيون تريد أن ترى الكثير وإذان تريد
أن تسمع المزيد ..

كانت هذه الخواطر تآكل في رأسي كالسنة اللهب فيما أنا
مقع على حافة الشرفة ، حين تناهى الى سمعي صسوت صاحب
السعادة ينبج بقوة وانفعال مخيفين فنزلت أجرى نحوه لأحكي له
ما حدث ، ولكنني في منتصف الطريق بين الأشجار الكثيفة وأحواض
الزهور فوجئت برصاصة تنطلق من مكان مجهول وتصيب صاحب
السعادة في رأسه مباشرة ، فعوى مرتفعا في الهواء علو شجرة ثم
هوى فوق الأرض ينتفض . فتسمرت في مكاني ارتعد حتى رأيت
ولدا خشنا أغلب الظن انه بستاني يتقدم ويجر صاحب السعادة
من سلسلته المثبتة ، فأخذت أرقبه من بعيد فأريته يثيب صاحب
السعادة في حفرة عميقة ويهيل عليه التراب .. فعرفت ان نفس
المصير ينتظرني وأخذت أبحث عن وسيلة للخلاص دون أن يدري بي
أحد . لكنني ما كدت أندفع بحثا عن منفذ حتى تعثرت فوقعت
فانطلقت منى صيحة شدت انتباه البستاني اللهاد فنظر الى
باستهانة وصاح : « امشى » ، فتسمرت ثانية من الدهشة وقد
أحسست بأنني لا قيمة لي حتى يصبح لقتل قيمة ، ولعل البستاني
لم يتلق أمرا باغتيال أمثالي من الكلاب المنسحقة حتى ولو كانت
تعرف زبدة الأسرار ، ذلك ان السر ان لفظه شخص مهم صار
شيئا هاما وخطيرا أما ان لفظه ضال منسحق مثلي فهو تخريف عامة
وهو أنيميا وضيق أفق . لحظتئذ دهمني شعور قوى بأنني
يجب أن ألحق بصاحب السعادة فأشاركه نفس المصير ، وبأنني
يجب أن أعرض نفسي للقتل عامدا ، يجب أن أنبج وأثير في الكون
ضجيجا يفضح هذا الخرق العظيم ويشهد العالم عليه . وقلت
لنفسى : اننى اذن سأفضح المجتمع الازرقى وأكشف عن نقاط
ضعفه للعدو الذى يتربص به ليدرس كل صغيرة وكبيرة فيه .

وشعرت بكثير من العار يشتهد أواره فى صمدى ، ثم قلت اننى حين أصرخ لن يكون هدفى هو الفضح بقدر ما هو طلب للنجاة من كائن أقوى ، فحيث كان المفروض أن تقوم نحن بصنع النجاة بأنفسنا أصبحنا لفرط كلييتنا نطلبها . فلما شرعت أنبع لم أجد صوتى ، لم أجد الا صوصوة عاوية من الجوع والألم تطلب الطعام قبل أن تتمكن من طلب النجاة . ظللت مسمرا فى موضع عثرتى حتى رأيت البستاني اللحد مقبلا نحوى فأخذت أرتعش وأغوص فى الأرض دون حاجة الى حفرة ، فاذا بالبستاني اللحد يمر بجوارى غير عابئ بى فيدوس عفوا فى بطنى فأصرخ مدافعا بأنيا بى فيركلنى فى بوزى ركلة سريعة ثم يواصل السير بعيدا عني . . . فعرفت ان من حقى التجوال كيف أشاء . . . قطعت الحديقة جريا وهرواة واكتشفت ان لها عديدا من الأبواب السرية والسحرية واننا دخلنا من غير الذى دخل منه كحكوح ولهذا فان كحكوح حين كان هنا منذ ساعات قليلة لم ير سيارة البتعة ولا كلبها لأنها كانا فى الجانب الخلفى ، واستنتجت ان هذه الأبواب وهذه الزوايا أعدت لتسريب وفود من وراء ظهور وفود ، فقد يفضى بك هذا الباب الى طريق بينه وبين الطريق الذى يفضى اليه الباب الآخر عشرات الأميال .

وكنيت قد وجدت نفسى خارج باب يفضى الى طريق لم أتبينه جيدا ، فأخذت أحاول التعرف عليه فاذا بى أرى سيارة البتعة تخرج من أحد أضلاع الحديقة لتنتقل فى طريق عمودى يفصله عن الطريق الذى أشرقت عليه حقول عريضة ، كانت رائحة سيدتى تنبعث من العربة رغم سرعتها الشديدة ، فاندفعت أجرى خلفها مخترقا الحقول . أدركت استحالة اللحاق بها فاستدردت عائدا الى حيث يوجد جثمان سيدتى . ورأيت سيارة قادمة على الطريق الثالث المواجه للضلع الثالث أغلب الظن انها سيارة اسعاف كان الباب مغلقا لكننى تسللت من تحت الأسلاك الشائكة ودخلت فما

ان وصلت الى الساحة الخضراء حتى رأيت سيارة الاسعاف تزحف داخله ساحة الفيلا ، عرفتھا طبعاً من شكلھا ومن شاراتھا الحمراء والكتابة التي علیھا ، يقودھا سائق عجوز مرور مكود يرتدى كاب الاسعاف الأحمر وحلتهما الصفراء ، وبجواره الاسطى حسنین .

نزل الاسطى حسنین وراح السائق العجوز يعدل وضع العربة لتكون مؤخرتها في مواجهة باب البهو . واندفعت أجرى الى ان وصلت حافة الشرفة ونظرت فيها فوجدت ان جثمان سيدتى قد ارتدى ثوباً شديداً التواضع تفوح منه رائحة غريبة نفاذة لا أعرف ان كانت رائحة القندم أم رائحة العثة أم رائحة الخزین ، على طراز نصفه فلاحى ونصفه بندى ، فيه صدر مشغول بالترتر ، أما رأسها فقد التف بطرحة قديمة من الحبر الاسود ، فتغيرت معالم سيدتى تماماً وخيل الى انها الآن تستعد لتصوير لقطة جديدة فى فيلم نهايته الموت لحياة حافلة بالفرائب والمدهشات . ثم اننى تأملت منظرھا محاولاً تحديد شخصيتها فى هذا الفيلم فوجدتها شخصية « غازیة » من غوازی الموالد والافراح تعشمت على سفر فادركتها المنية . انفتح الباب ودخل الاسطى حسنین . وكان ضوء اللبة الصغيرة المنبعث من ركن مجهول يصنع أشباحاً ترسم أسراباً من النساء المتشحات بالسواد يلطمن الخدود ويصوتن فى حرقۃ . اخترق الاسطى حسنین ظلالها وتقدم نحو سيدتى فطرح علیھا ملاءة بيضاء لفتتها ثم حمل جثمانها على ساعديه واستدار خارجاً .

بقفزة واحدة صرت فى أرض الحديقة بين أشجار الموز النساء . هرولت نحو العربة فرأيت الهدوء الشديد يعم كل شئ وليس من أحد فى هذا السكون حتى السائق القابع خلف عجلة القيادة ينتظر فى الظلام لم يكن موجوداً . كان باب العربة الخلفى مفتوحاً . قفزت الى داخل العربة لأرى دكتين من الخشب المنجد متقابلتين ارتكنت تحت أحدهما ودفنت نفسى فى الصمت والظلام وبعد برهة زحف جثمان سيدتى يرتطم بأشياء فى العربة حتى تمكن

الأسطى حسنين من اراحته على احدى الدكتين ، ثم هبط الى الأرض وصعد مرة أخرى بحقيبة كبيرة لكنها قديمة وبالية ، حقيبة مر الجلد الطبيعي ذى الرائحة لكن جوانب الغطاء منفرجة والاقفال خربة ولذا فهي محزمة بدويار غليظ محكم ، أما اليد فمقطعة من الجلد ملفوف عليها عشرات الخرق المربوطة فى الحقيبة باحكام . وضع الحقيبة على الدكة الأخرى ثم هبط الى الأرض وأغلق باب العربـة وذهب الى كابينة القيادة فجلس بجوار السائق ، وسمعت خرخشـة ورق رصين وصوت السائق يقول : « ما هذا ؟ » ، وصوت الأسطى حسنين يردد فى عطف أخوى : « هدية من البك .. جزاء ما تحملت المشقة معنا فى هذا المشوار » . قال السائق فى غبطة : « أهذه التخانة كلها جنيهاات ؟ » ، قال الأسطى حسنين : « انها عشرات يا بقف .. سوف تعيش أياما طويلة فى بحبوبة » . قال السائق : « الله يكرمه .. ولكن لماذا كل هذا التعب ؟ » . قال الاسطى حسنين : « يا رجل يا طيب .. سعادة البيك حين يعطى لا يقل عن هذا ولا يصغر قال السائق فى امتنان : « ابن عز .. ابن أصول .. يشعر بحال الفقير .. اللهم أكرمه وزده من فضلك » ..

ثم ان السائق ادار « مارش » العربـة وعدلها ثم أضاء النور واندفع خارجا . وحين اعتدلت السيارة على الطريق الطوالى وأخذت سرعتها الرابعة أشعل السائق سيجارة روثمان وقال : « لكن ايه الحكاية بالضبط يا أسطى حسنين .. مالها الست .. حنوديهـا مستشفى ايه ؟ .. عشان لا بد أفوت أخذ زميلي من حقة قريبة » . قال الأسطى حسنين وهو يشعل لنفسه سيجارة هو الآخر : « شوف بقى .. لا مستشفى ولا يحزنون .. الحكاية باين عليها مش مستهلة .. حاكم الست دى والعايز بالله عندها المرض الى اسمه : الصرع ، زى الى كان فى تمثيلية القرين فاكره ؟ .. بعيد عنك تجيلها الحالة تفقد الوعي قول ساعة قول ساعتين (ثم هامسا فى لهجة ودودة) بينى بينك أصلها من قرايب البيك بس من بعيد

قوى قوى .. تقريبا أهلها كانوا يعرفوه وهو لسه فقير .. فلما
ربنا كرمه فضل يعطف عليهم .. الناس لمؤاخذه معندهاش مخ ..
ان كان حبيبك غسل ما تلحسوش كله .. ده راجل ماهش فاض
لوجع الدماغ كل ساعة والثانية .. هو قادر يطلب لها أجدع دكتور
فى البلد ، ولا يوديا أحسنها مستشفى .. لكن هو بينى وبينك
عمل بالعند المرة دى حلف ما هو عامل لها حاجة .. أصلها بقى
محترفة الحكاية دى .. بتستغل ضعفه وكرمه .. كل يوم والتانى
تيجى تعمل التمثيلية دى قدامه عشان يديها ثمن الدواء والعلاج
الذى منه .. داغير الى هى بتأخذه كل شهر .. هه .. ربنا
يستر على عبده ، وقال السائق العجوز : « بنى آدم عينه فارغه
ما يملهاش الا التراب .. أنا كنت ناوى أقوم أسعفها بأى حاجة
لكن مادام هى غاوية تمثيل سيبها بقى .. داهية تاخدها ، ثم
اندفعت السيارة تنهب الطريق نهبا .. »

٢

توقفت العربى بعد وقت طويل من السير . ونزل الأسطى
حسنين واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وفتح باب العربى
فازددت انكماشاً فى ظلمتى . فأنحنى هو ودخل فأخذ الحقيبة
ومضى فتسللت ورائه وهبطت فى أثره دون وعى منى . لم يرئى .
لأننى تسحبت الى بعيد كأننى من أبناء هذه المنطقة . رأيت الأسطى
حسنين يختار للحقيبة وضعاً مناسباً فى حوض مستطيل تبينت
فيه حوض ساقية قابضة تحت شجرة توت عجوز كبيرة ، ثم انه عاد
الى السيارة فغاب فيها قليلاً ثم خرج حاملاً على ساعديه جثمان
سيدتى ، ثم نادى بصوت ودود مرتعش صائحا : « يا جماعة يالى
هنا .. يا أم الخير » ، فزحفت الى حيث كان يقف مناديا فتبينت
فى الظلام بناء من أربع جدران بالطوب النيبى مسقوفة بجذوع
الأشجار . دخلتها فلم أجد بها أحداً على الإطلاق عرفت ان هذا

البناء هو ما يقيمه الفلاحون في الحقول ويطلقون عليه اسم (الطيارة) لكي تستريح فيها مواشيهم ودوابهم الشغالة ، وعرفت أيضا ان الأسطى حسنين يعرف انها خالية من السكان في هذه اللحظة وانه يموه على سائق العربى التى وقفت الى بعيد جدا بحيث حين ينحرف الأسطى حسنين الى الساقية لا يراه من يكون فى العربى . ثم ان الأسطى حسنين بعد أن نادى مرتين تراجع خطوة ووضع الجثمان فى حوض بئر الساقية مسندا رأسه على الحقيبة ثم وقف صائحا : « اتمسوا بالخير بقى .. لا والله ما أقدر أستنى ولا دقيقة .. تصبحوا على خير » ، ثم اندفع مهرولا حتى وصل الى العربى فركبها بجوار السائق . واندفعت العربى تفوص فى الظلام وعجلاتها تطلق صريحا ملتاغا ..

اندفعت الى جثمان سيدتى . صرت أنبح بكل قوتى . فلما لم يجاوبنى أحد رابطت فوق مدار الساقية بجوار رأس سيدتى مباشرة وأخذت انتظر الصباح .

٣

يبدو اننى غفوت قليلا أو كثيرا لا أدري ، لكننى حين فتحت عيني كانت الشمس تنوسط عين السماء وتصب قیظها فوق جثمان سيدتى الذى غطى بأشياء جديدة وبعشرات البشر رجالا ونساء وأطفالا وخفراء وشرطة . وكانت الحقيبة قد نزعّت من تحت رأسى سيدتى وانفتحت وراح رجال الشرطة يفرزون ما فيها فلم يجدوا سوى أشياء غريبة : خلخال فضى قديم ، مكحلة ، زجاجة عطر رخيص من نوع قديم جدا ، عقد من الكهرمان الأصفر ، قميص نوم مشغول بالترتر ، قسيمة زواج . تناولها رجل الشرطة بلهفة وانتصار كبيرين ووقف يقرأها ثم صاح معلنا ان صاحبة الجثمان هى : « بسيمة أحمد ربيع » - زوجة « هريدى خليل هريدى » .

هنا فقط اهتزت الأرض وارتفع اوارها بالصراخ والنحيب .
 الجميع تقرّيبا فيما عدا الشرطة يبكي بحرقه . نظرت فرأيت ثلاثة
 أجيال تبكي . صيحات تتعالى حول الجثمان : « أخيرا رجعت
 لبلدنا .. شوف الدنيا .. بعد هذا العمر الطويل تعودين
 يا حبيبتي .. قلنا أصابك العز وابتسمت لك الدنيا .. فين هي يدي
 زوجك وفين أيامه .. فين أمك يا حبيبتي » . هكذا كانت النساء
 تقلن . لكن أصواتهن سرعان ما انداحت في الأفق البعيد أمام
 أصوات رجال صاروا يصيحون في غضب : « ملعونة .. فاجرة ..
 زانية .. هاربة .. وهذه هي النهاية المحتومة » . ثم صاح أحدهم
 في غضب : « صاحب اللحم يلمه » . فصاح رجل الشرطة فيه :
 « صاحب اللحم يتقدم ليأخذه منا » . وكان من الواضح ان النياحة
 هي الأخرى موجودة ، اذ تلتقت عربة الاسعاف أمرا بحمل الجثمان
 الى الطبيب الشرعى فى المستشفى ..

وحين حملتها عربة الاسعاف بدونى صرت أعوى من كبد
 مسحوقة والناس ينظرون نحوى مشفقين قائلين : « دا باين عليه
 كلبها .. يا حرام » . وهنا ، أحسست برجل الشرطة ينظر لى فى
 تمنع ثم ينسانى ثم يعود فينظر الى مدققا ثم يمضى الى العربة .
 لكنه قبل ان يركب استدار من بعيد وأرسل الى نظرة كأنه يوشك
 بعدها ان يطلب بطاقتى الشخصية .



اهل البلدان الأزرقية لا ينبحون على أبناء بلدانهم المجاورة
 حيث هم أخوة فى النهر ، لا ينبح ولا يثير الضجيج والفرع سوى
 الكلاب الصائغة التى تتوهم انها قد وجدت لنفسها مستقرا هنا أو
 هناك ، فلا تجده لديها وثيقة واحدة تحميه بها سوى التباح القوى
 الأجش الأجوف لدى رؤيتهم لآى ظل وافد ، حينئذ تلتهم كل الكلاب

الصائغة دفعة واحدة لا بمشاعر الكتلة بل بمشاعر الجبن الفردى
يندفع مدافعا عن شيء استلبه . قصر الكلام اننى وقعت فى قبضة
الكلاب الصائغة ، فلم ترحمنى وشرحت جلدى ونهشت أنفى
وشفتى . لم ينقذنى من براثنهم سوى « مامون » وكان يعشى ورائى
منذ شرعت أمشى فى أرض لا أعرفها ولا يحمل أنفى أى ذكريات
فيها ولولاه ما دخلت البلدة ، اذ أنه - وكان يسير بين كوكبة من
صحابه عائدين من الفرجة على جثة الفقيده - رأيتهم جميعا
يبادلنى النظرات المتألمة الرصينة المستثارة ، فلما تسللت شخصيته
الحبيبة الى أنفى انتميت اليه فى الحال وأدبت رقصة الولاء حوله
وحله فارسل ابتساماته المشبعة بالامتنان والحب ثم أشار لى ان
أتبعه فتبعته ومضيت أستمع الى حديثه مع الصحاب الى ان فوجئت
بنفسى بين دائرة الفزع التى خرجت منها متنخنا بالجراح ، أكاد
التصق بذيل جلباب « مامون » كلما لمحت كلبا صائغا شرسا ..
فما ان أب المسير الى بيت صغير متواضع حتى راح مامون يطيب
جراحى بمادة حمراء ، وقدم لى الطعام من طبق كان يأكل منه معى
لقمته بلقمتى .

شاب فى العشرين من عمره لا يزيد . فقد ولد كما سمعته
يقول لصحابه فى العام الواحد والستين بعد التسعمائة بعد الألف ،
وكانت سنه حوالى ست سنوات حين كان دوى القنابل اليهودية
تشرح سماء قريتهم وتشرذ عصفائهم ومواسيهم ومشاعرهم . أيامها
- يقول - مات أخوه الطفل فى مدرسة القرية المجاورة
بحر البقر وكانت الطائرات اليهودية الصهيونية قد تبولت على
المدرسة قنابلها . يذكر انه ظل سنوات طويلة يرتعب كلما أقبل
الليل حيث كانت جثة أخيه الممزقة تطلع له فى كل ركن من دماغه
حتى لقد كانت أمه تولول قائلة : « واحد مات من القنبلة والثانى
حيوت من الخرعة » ، « وقد عاجلبنى قدر ما استطاعوا حتى كفت
عن الصراخ بلا سبب وكفت عن الرعشة ولكن هل تراهم عاجلبنى

من التذكّار ؟ ان صورة أخى سوف تظل تطلع لى فى الليل ولسوف
استطيع التهاور معها بكل اللغات والمشاعر ، ..

وكننت ليلتذاك أقعد أمامه على مصطبة الدار الخارجية والقمر
يواجهنا فوق شواشى النخيل البعيد القريب ، حين قطعت عليه
الحديث عجوز حيزبون يرتعد الانسان من منظرها المجرد شعوره بأن
هذا الجسد الموغل فى القسم لا يزال يحيا بكل حيوية ويعيش وجوده
كاملا ، امرأة لا يقل سنها عن الستين ان لم يكن أكثر دخلت -
أقصده خرجت علينا من الدار الى المصطبة - حاملة صينية الشاى
عليها براد وكوب نظيفين جدا ، ثم تمهلت ناظرة الى بود عظيم ،
استدارت برهة حيث وضعت الصينية أمام « مأمون » على المصطبة
ثم عادت ناظرة الى من جديد تتخايل على ملامحها العجوز المتكرمشة
أعمق أحاديده المودة ، فأحسست كأنها تريد ان تنفرد بى الى ما لا
نهاية ، فانتشيت وشرعت اؤدى رقصة الولاء لها ولكننى تذكرت
أننى يجب ان احترم جلسة مأمون ومالها من جلال فى نظرى فكففت
واكتفيت بالتثاؤب الماول من فرط اشتياقى للمعرفة ، فما ان أعطتنا
العجوز ظهرها ومضت تركض فى الداخل حتى أشار اليها مأمون
قائلا : « انها أم بسيمه » . هزرت رأسى فى ملل ثم رنت الكلمة
فى أعماقى فدوت ، فانتفضت واقفا منتصب الأذنين مرفوع الذيل
كأننى أقول له : « ماذا قلت ؟ » ، فاذا بابتسامة من الثقة تتسع
على وجهه ويكرر : « أم بسيمه أحمد ربيع .. صاحبة الجثة التى
آبت اليوم الى مسقط رأسها » .. لم أتمالك نفسى فاندفعت مهرولا
داخل الدار أنبج بصوت عال يقودنى أنفى الى مطرح العجوز ،
وكانت قد تكورت جالسة فى قاعة جوانية تحتلها مصطبة هائلة
بحجم القاعة كلها فيها فرن خبيز وحمام غسيل ، قفزت فوق
المصطبة أهوهو نحوها أكاد أرتمى فى صدرها ، الحق انها رغم قدم
جسدها تفوح منه رائحة جذابة للغاية ، رائحة تبقيك بجوارها وقتا
طويلا تتغنى خلاله أعصابك بالهدوء العظيم . ولما تحاسشت ان
المسها وصارت تهشنى بعيدا بغلظة مكشوفة أيقنت انها تريد الابقاء

على وضوئها لتصلى به فروض العشاء من ديون سابقة ، فارتدت عائدا الى مامون وقد أحسست ان الدار أصبحت داري ، اننى انتقلت فقط من دارنا التى فى القاهرة الى دارنا التى فى هذه القرية البعيدة ..

استقبلنى « مامون » فى مرح ثم أشار لى بالجلوس فجلست بجواره هذه المرة وقد انتابنى - لأول مرة أيضا - احساس الكلب الأجنبى الذى لا يطالب بالاحتفاظ بمسافة بين سيده وبينه ، الكلب الأجنبى يعامل كسيده هو الآخر وربما أفخم وأفخر ، وما انذا أحس ان مامون قد منحنى هذا الحق ببساطة . مدت بوزى نحوه فيما هو يداعبنى وفى عيني نظرة متلهفة تقول له : « ولكن ما علاقتك يا مامون بأم بسيمه ؟ » وكان على وشك ان يجيبنى لولا ان ظهر الاهتمام فى عينيه فجأة ، فنظرت فى مسيرة عينيه فرايت كهلا مقبلا نحونا محنى الظهر تحت جوال منتفخ . يمشى فى تؤده ولقدميه وقع صلب يهز الأرض . اقترب منا فاذا بوجهه رغم عينيه الصقرتين يقول انه قد تجاوز السبعين من العمر ، وتقول أطرافه وصلابة ملامحه انه يدخر فى نفسه عمرا جديدا يعيشه من أول وجديد .لقى السلام علينا ثم دخل وتباعلت هزة الأرض تحت خطوه الثقيل ، وحينئذ قال « مامون » مشيرا الى الداخل « انه جدى .. ووالد هريدى » ، ارتعلت فرائضى وانتفضت واقفا منتصب الأذنين كأننى أقول : « ماذا قلت ؟ » ، فاستطرد قائلا وفى عينيه نظرات جنونية جبية : « نعم هذا هو والد هريدى زوج بسيمه .. وهو نفسه حموها وزوج أمها وهو أيضا جدى أو والد والدتى .. ذلك ان بسيمه هى خالتى شقيقة أمى التى أنجبته أمها من والد هريدى زوج ابنتها بسيمه !! » .

فشخت حنكى عن آخره وصرت العق شفتى دهشة أو ابتهاجا لا أدري ، ومامون يضحك ويقول : « هو الآن يشتغل أشغالا كثيرة .. كان فى الأصل صيادا .. وحين أقول الأصل فانما أقصد

حدود عمرى فقط أما ما قبله فسيتمتع ان لجدى أصولا أخرى أبعد من ذلك بكثير ٠٠ فكلما كبرت ظهر لى أن هذه المهنة العريقة ليست مهنته انما مهنته الأصلية هى كذا ٠٠ ولو عددت له كلمة الأصلية فى مهنة لفاقت كل تصور ٠٠ هو الآن شغلته الصيد ٠٠ فى الظاهر صيد السمك بأحد القوارب التى يؤجرها ليوم أو يومين أو ثلاثة ، ليرسو بها على شاطئ « بور سعيد » ويفرش بأسماء طازجة ويعود بالقارب محملا بالبضائع التى يبيعها فى العزب والقرى لناس يعطونه فيها عرقه ويأكلون من ورائها عيشا ٠٠ هو أيضا يبيت كل يوم وقد تمشى أربعة وعشرين قرامطا ٠٠ ومع ذلك ٠٠ لا يرضى ولا تعجبه الأوضاع ٠٠ تنهال الفلوس بين يديه ويشتري مروحة بالكهرباء وثلاجة وغسالة وجهاز تسجيل ويلبس من شغل المكن الأجنبى ومع ذلك يشتم ويسب ويتهم زماننا بأنه خسيس قليل الخير بياع لكل القيم ٠٠ تسليتى الوحيدة هو فى هذه البلدة الهامدة الأمانة أمن الكلاب ، قاطعته قائلا : « لا تعب يامامون » ، لكنه تجاهل هو هوته قائلا انه يتسلى بجمده اذ يشاغبه بالحديث فى الليل حتى يثير تأثيره ، لكنه - مامون - يتجنب اثارته أكثر من اللازم اذا كان فى حالة سكر ، اذ هو يستحضر من «بور سعيد» أنواعا لا حصر لها من اللويسكى والكونياك يبيع بعضها ويجرع الآخر وحده ، فلما يسكر وحده يظل يبكى بكاء حادا صامتا لساعات طويلة كأنه يؤدي صلاة عجيبة ، وربما لهذا يتجنب السكر وحده ولكنه دبور كبير اذا انساق وراء نفسه أوقع بعشرات النساء من أى مكان يخطر على البال وهو مستعد لمضاجعتهم جميعا فى ليلة واحدة فى خيط واحد كأنه يريد انجاب بلد بأكملها من رجال غرنا وغير كل هؤلاء ، رجال كما يقول تجرى فى دماغهم أنهار الفيض لا تقف أمامها سدود الا فى حدود ، الطريف الطريف أن جمده الذى يقول هذا القول يعرف ان دماغه التى يدلفها فى النساء تضيق هدرا ، فالنساء الضائعات الضاللات لا يملن .

ثم ان مامون جرع كوبة الشاى على رشقات مسجوعة الصوت

فى لذة ، ونظر فى وجهى فأحس بأننى مشتاق لمعرفة الكثير عنه هو نفسه أولا ٠٠ فابتسم فى خجل كمن يقدم نفسه لأحد النجوم اللوامع ، وقال انه تخرج فى معهد الخدمة الاجتماعية ، ولكنه عين فى مدرسة فى المدينة مشرفا اجتماعيا وأميناً لمكتبتها ٠ ذلك أن مأمون يحب الكتب ويعشق الكلمة لكنه ضاق بالحياة فى قريته مع حبه الشديد لأهل قريته ، لقد اكتشف البراءة فى قصص الكابتن وفى حياة كل من جدته ووجه ، اذ هما يتحدثان عن كل شئ حتى أعدى الأعداء ببراءة تامة ، ولكن كيف اكتشف براءتهما ؟ لقد اكتشفها - ويسدد أصبعه نحو فمه - بالقراءة ، فحين قرأ عرف ان جدته ووجه وكل هؤلاء الناس لا يعرفون شيئا بل انهم يسلمون رقابهم للجزار دون أدنى خوف ، ان هناك ناس لا تعرف الخوف ليس لأنهم شجعان بل لأنهم من فرط جهلهم لا يعرفون ٠

ثم اعتدل فى جلسته قائلا كأنه يحدث صديقا أثيرا :

- « للعلم فان جدتى هذه لا تعرف الآن ان جثة ابنتها بسيمة قد عادت الى بلدتها بعد غيبة ما يزيد عن ثلاثين عاما ٠ لن يقول لها أحد ممن رأوها انهم رأوها ، لسبب بسيط هو انها قد أصبحت طرشاء لا تسمع شيئا على الإطلاق ولا تتذكر شيئا على الإطلاق ، ولست أعرف كيف نسيتم كل شئ الا آيات القرآن الكريم ٠ يحلو لى ان أجلس لأراقبها حين ترفع صوتها عفاً بالقراءة عند الصلاة ، فأجدها لا تخطئ فى حرف واحد وتنطق الألفاظ سلسه ٠٠ أما جدى فعلى شطارته فى أعمال الكسب والتهريب يحلو له ان ينسى كثيرا من الأشياء خاصة ما يتصل منها بالفائبين ، ان مسألة الغائبين فى نظره كلمة واحدة : مقدر ومكتوب ، كل من احتجزه ستار الغيب ، وكل غائب له الله ٠ هكذا يقول لك فان لم تفهم أشاح عنك الى حديث آخر أكثر وضوحا ٠٠ دع الغائبين وشأنهم وأبدا

معه أى حديث تشاء تجد سميرا لا نظير له ينضج حكمه وفلسفه ،
 أحيانا يخيّل الى انه هو الذى ألف سيرة عنترة والوزير سالم وذات
 الهمة والف ليله وليله ٠٠ ولقد فهمت جدى فهما عظيما فعرفت
 انه يسمع ما يحبه ويفلق أذنيه تماما عما دون ذلك ، لكنه يفعل
 ذلك بشكل عجيب وبهلوانى ٠٠ منذ بضعة ليال كنا نجلس أمام
 التليفزيون صدقه ، مجاملة لضيوف شرفونا بالزيارة من بلدة أخرى
 يدمنون مشاهدة تمثيلية الثامنة والرابع ٠٠ فلما جاء موعدنا خيل
 لهم اننا لا نملك جهازا ، فأشرنا اليه قالوا لا بد انه مجرد تحفه ،
 أوريناهم الفاتورة فقالوا لا بد انه خرب ، قلنا لا ، فقالوا كيف
 يكون لديكم جهاز ولا تفتحونه على التمثيلية ؟ قلت لهم اننى أكون
 أحمقا لو كان عندى رجل كجدى ثم أتركه وأنفجر على التليفزيون ٠٠
 فلووا بوزهم عجبوا وولوا وجوههم شطر الشاشة الصغيرة منجذبين
 الى هدير الاعلانات التى لا شك انهم سمعوها عشرات الآلاف من
 المرات فى نطاق زمنى قليل ، الأرجح عندى انهم لا يستمعون ،
 فهم كجدى تقريبا لا يستمعون الى ما لا يريدون حتى وان كان
 جذابا ، تراهم ان زاد الشيء عن حده انقلب الى ضده وأغلقوا عنه
 الأذن ، فطالما انهم لا يملكون ايقاف الاعلان فانهم يوقفونه من
 عندهم ٠٠ لله ما أفكه جدى لحظتنا ذلك : طلع علينا المشهد مثيرا
 مخيفا ، وجوه حمراء فى لون العدو ترتدى الكاب العسكرية ،
 ووجوه أخرى بيضاء فى لون الحملة الصليبية تضربها ، وصخرة
 تهبط فوق رهوس فتدمرها ليظهر وجه خواجه طرى الملامح والعود
 قائلا بلهجة أطرى مثيرة للشبق : « شوية شوية ٠٠ شوييس أهى
 جايه » ٠٠ حينئذ صاح جدى وقد وقف فى ابتهاج منبسط الملامح
 كأنه صغر خمسين عاما ، وارتفع صوته الشارخ : « مدد ٠٠ مدد
 يأكل من غابو الكيلا يقيب القمر » ٠ فضحكنا جميعا وقد ارتجفنا
 من المفاجأة : « ماذا يا جدى ٠٠ هل جاءتك الحالة ؟ » ٠ فأعاد
 الصيحة مركزة رصينة كأنها صوت الزمن الأبدى لا مجال لدحضه :

« هذا هو صوت الممد .. هذا هو صوت الأمل أخيراً نطق » ،
تبادلنا النظر فى توجس من ان يكون قد خرف بمعنى الكلمة .
« لحظتذاك أدركنا ان جدى فقد البقية الباقية من عقله ، لولا
اننا كنا ننظر فى وجهه فنجد علامات الجده الشديد طافحة عليه .
فيما يقول : شوية شوية القهس أهى جيايه !
ثم اذا بالتمثيلية تنتهى وتجيء الاعلان ورامها مباشرة ليضمن انه
حاصر المشاهدين دلالة على جلال الحدث الذى يعلن عنه . فرفعنا
صوت التليفزيون عن آخره ليسمعه جدى ، لكنه أبدا لم يستمع
الى كلمة شوييس هذه واصر على تعديلها بكلمة القدس فيا للعجب
العجاب منك يا جدى » .

ثم ان مأمون صب لنفسه كوب شاي جديدة بعد ان دلق بقايا
الأولى فى ركية النار ، وواصل الحديث لنفسه قائلا :

— « فهل ترانى بعد ذلك أقول لجدى ان بسيمة زوجة ابنه
هريدى وابنة زوجته هو قد عادت اليوم جثة متهتكة لا تحل من
متاع الدنيا سوى محتويات صرتها القديمة التى ذهبت بها ؟ هل
أقول له ان خالتي المسكينة قد عادت كما ذهبت مع تبديل واحد
فقط هو ان نصف الخرج التى كانت تصر فيها أشياءها قد صارت
الى حقيبة جلدية قديمة ؟ لكم أنا الآن مشوق لمعرفة ماذا سيطرأ على
جدى حين يعرف ان نصف الخرج لم يعد معها . لقد ظل جدى الى
زمن قريب يتحدث عن حسرته بضياغ الخرج الذى أخذته هى معها
لأنه كما يقول قد رافقه فى رحلات طويلة عاشره خلالها بالمعروف
الجميل فلم يذب أبدا ، يحشر فيه الرباب والعيش والحبوب
والفرش والغطاء ويركب فوقه ، حتى الآن لم يفرط فى الرباب
ولو كان الود وده لاحتفظ ببقايا الخرج الأصيل الى جواره . جدى
لم يكف عن الحديث عن نصف الخرج الضائع الا بعد أن طرا علينا
شغل البحر والبضائع المهربة .

رفعت راسى وأطلقت ثلاث هوهوات رقيقة خشنة معا كأننى
أقول له : « بالراحة شوية .. صبرك بالله قبل أن أموت فى يدك

من فرط الألم والدهشة أو أتحوّل الى أبله من فرط الذهول » .
فاحتوى فكى بيده وصار يربت بالأخرى على رأسى ويقول ضاحكا :
« حليمك انت على .. مانا لازم أتكلم .. هاموت لو ما اتكلمتش ..
مش لاقى حد أكلمه .. واحده طرشه والتانى حاطط مخه فى مخزن
والقفل مصدى .. ان شاء الله سنة ولا اتنين واخلص من مشكلة
الجامعة اللى أنا منتسب اليها وأنفرغ لكتابة القصص والروايات
.. بعد ما أتخرج من كلية الآداب حاقعد أكتب روايات للصبح ..
وساعتها أبقي لقيت اللى أتكلم معاه » . مددت رقبتى وفتحت فكى
عن آخرهما كأننى أعلن يأسى من فكرة الكتابة هذه ومن جدواها .
فأغلقت سراح رقبتى من تحت أبطه وشرع يواصل الحديث كأنه
يتمرن على كتابة رواية سوف يكتبها فى القريب العاجل .

باب القنطرة

★ الشعب الأزرقى وكيف يخرج من جلوره :

١

قال مامون :

— « العجيب ان غياب بسيمة لم يشغل البلدة يوم تخلفت
عن المجيء من المولد فى ذلك الزمن البعيد . وهكذا يقولون لى . ولما
رأيت ان البلدة كلها تحمل فى ضميرها حكاية بسيمة وهريدى لعدة
أجيال وجدت من العار الا أنشغل بها أنا الآخر ، فما ان شرع
الوعى يطاوعنى فى فهم الاسرار وجئت أسأل كلا من جدى وجدتى
فوجئت بأنهما يتعمدان أخفاء كل شئ عنى ، حتى لقد كدت أصاب
بالجنون ، كان ضميرى يحمل عدة حكايات مختلفة التفاصيل بطلاها

هما خالتي بسيمة وزوجها هريدى واختفائهما فى ظروف غامضة -
وكننت كلما سألت أحدهما عن تفصيلة غامضة تثير دهشتى وعدم
تصديقى أجاب اجابة أكثر غموضا لا أفهم فيها ان كان ذلك قد
حدث حقا أم هو من نسج خيال العامة ..

« غير اننى صممت على معرفة حقيقة التفاصيل أو يذهب عقلهم
من جنونى وان شاءوا فليقتلونى . العجيب يا جدد انهم ..
قتلونى ، تركونى اهذى بلا مجيب حتى فقدت السيطرة على عقل
بالفعل ، وابتعدت عنهم جميعا وعشت فى مدينة المركز وحدى
أنسى الهدوء بين كتب مكتبة البلدية التى استحضرها معى على عهدتى
وواقع الأمر اننى كنت قد بدأت أعانى الوحدة والفراغ والشعور
بالعار والجرح العميق ، حيث ملئت أسمى من انتظار أبى فدب فيها
الجفاف وظلت تكتم الحسرة فى قعر بطنها حتى توكلت على الله
وأسلمت روحها فى بداية النصف الثانى من يناير فى العام السابع
والسبعين ، كان معها الحق كل الحق فى أن تموت ليلتها ، ذلك
ان أبى الذى لبس فى الجهادية بعد زواجه من أسمى بشهور قليلة
مكث فى الجيش حتى العام السابع والستين ، ولما عاد إلينا كان
يحمل فى جوفه نصيبا عظيما من الانكسار والذلة ، لكن من حسن
حظنا وحظه ان عودته كانت مؤقتة فلم يقدر له أو لنا رؤية كلا منا
الآخر وهو على هذه الحالة من الشعور بالذنب والعار كان حبيبته
قد خائنه مع عدوه . وإذا به يواصل الخدمة فى الجيش ، وإذا
بنا نقيم الأفراح فى ليلة رمضانية مفترجة والبلدة تتحزم وترقص
على دوى القنابل والغارات ، نعم ترقص طربا كأنها أخيرا قد زفت
الى حلمها القديم ليس بتحقيق النصر وحده بل بخوض المعركة
ذاتها ..

« الا أن الطبول آبت الى اصدااء تتردد فى الأفق البعيد بايقاع
رتيب لا يتوقف برهة واحدة ، والرقص آب الى لعب على الحبال بدربة
ومهارة أو الى ركض متوجع ، واصدااء الطبول الجوفاء تحجب صوت

الأنين ، وكثرة اللامعين فوق الحبال على الهواء تحجب جحافل
المدهوسين . ثم ان سماء البلاد امتلأت بموجات صوتية تنبعث من
أجهزة بعدد الحصى فى الصحراء ، ولم يعد ثمة صوت منفرد على
الاطلاق . ثم ان صوت الانين انهزم شر هزيمة فارتد الى الداخل ،
كل واحد يثن على كيفه ولكن فى داخله ..

« كنت صبيا صغيرا وكانت وجيعتى كبيرة . فلما رأيت أمى
فى ذبول مستمر بسبب انقطاع الاخبار عن أبى قررت أن أستجيب
لرأى أهل البلدة وأكون رجلا أى - أذهب للسؤال عنه فى مايسمونه
بإدارة السجلات وبالفعل ركبت البيجو من أمام منزلنا هذا - شوف
التقدم - الى العاصمة الكبرى . وفى هذه الادارة استصغروا شأنى رغم
انى أخبرتهم من أول البوابة اننى ابن العريف محمد عكاشة النجار .
فلم يقل لى البواب الجندى حتى كلمة أهلا وسهلا ، بل هسنى
بيده الى الداخل ، وفى حجرة أخرى طرقت بابها فهب رجل يرتدى
الغانلة الكاكي والبنطلون يسرح شعره القصير قلت له : أنا مأمون
محمد عكاشة النجار . فقال هازئا بهزة من رأسه : أهلا ياخوية
قلت له : ابن العريف محمد عكاشة النجار . فقال بغلظة وهو
يزعنى بيده هناك هناك أجرى على الأرض الثانية .. يلا يا ولد .
فانهمرت الدموع من عيني بغزارة وأحسست اننى لن أصير رجلا
بعدها . قلت له : طب هدى أعصابك يا سعادة الكابتن . فنظر
فى كأنه يريدنى قتيلا برصاص عينيه . فغاب جسدى كله عن
الأرض وسمعت حشجرة تتعثر على لسانى وشفتى قائلة : متأسف .
ثم استندرت والدموع تقسم صور الاشياء كلها الى قسمين . اخترت
حجرة دخلتها ، فاذا بها عشرات الجالسين على المكاتب باللباس
المدنى يكتبون ويثرثرون ويتكلمون فى التليفونات ..

« وقفت بجوار أول مكتب على اليمين لانه كبير نوعا ، وشرعت
أستدر صوتى لأتكلم . فنظر فى الرجل الجالس قائلا : « مالك
يا شاطر ؟ » فقلت له : « بادور على أبويا » ومسحت دموعى فتزايد

هطلوها فصرت أمسح منطقة فمى على الدوام والرجل يبعد عينيه عن وجهي ، فإذا برجل آخر على مبعدة منه يصيح في قائلا برفق : « فيه ايه يا شاطر ؟ » • فدنوت منه أكاد أتعثر قائلا : « أبويا لسه ماجاش من الحرب والناس كلها رجعت » • فكسر عينه هو الآخر ناظرا في دفتر أمامه راح يقلبه قائلا من وراء عينيه : « سوف ياسيادة الرائد » • فصاح رجل يجلس في ركن بعيد دون أن ينظر الى : « اسمك ايه يا شاطر ؟ » • فدنوت منه أقاوم انهمار الدموع حتى أستطيع الكلام ، ثم قلت : « اسمي مأمون .. وأبويا العريف محمد عكاشة النجار كل الناس اللي كانوا معاه جم والى ماجاش اتعرف خبره الا هو دون عن أهل البلد بحالها » ، فصاح في بخشونة كأنه يحتج على البكاء : « في انهو وحده • فين البيانات بتاعته ؟ » • فأخرجت ورقة دائبة جئت بها معي كنا ننقل نصها على ظهر خطابات نرسلها لأبى • أخذها ونظر فيها ثم ردها الى مشبرا الى شخص آخر يجلس في نهاية الحجرة • فدنوت منه وقد جفت الدموع على خدى فأحسست بجلدى يكاد يتشقق من فرط الألم ، ولكن عيني كان قد عاد اليهما الصفاء • فلما وقفت أمامه أعطيتنه القصاصة فنظر فيها نظرة عابرة ثم سحب دفترنا فتحه على صفحة معينة ثم أرسل أصبعه زاحفا عليها ثم توقف فجأة ونظر في وجهي قائلا كأنه يوجه الى اتهاما خطيرا جدا : « كيف تقول يا ولد ان خبرا لم يصل اليكم هه » • فارتعدت الأرض تحت قدمي وقلت وأنا على وشك البكاء ثانية : « وكتاب الله ما نعرف عنه أيها حاجة » •

« فسلط عينيه في عيني بقوة وقسوة كأنها الطعنات • فعاودني البكاء من جديد ولكن بصوت عال فيما أقول بعبارات متقطعة : « و .. كتاب الله ما نعرف .. وأمى كمان عيانه عيا الموت عشان كده واذا ماكنتوش مصدقين تعالوا شوفوها • فانفض الرجل واقفا ضاربا المكتب بقبضته في قوة رهيبة صائحا : « كداب .. امشى انجر من هنا يا نصاب » • فلم أضل ان عفوا صدر عني ، فما كنت أستدير نحو الباب في ذلة حتى أرعدني

صوته : استثنى هنا .. تعال . فدنوت منه أحاول الضغط على شفتي السفلى والأرض تحت قدمي متضارسة . تساندت على المكتب ووجهي يرتد مرتعدا عن اليمين مرة وعن اليسار أخرى توقعا لصبغة مفاجئة تنالني لكن الرجل بلطف مفتعل قال : تعرف تقرا ؟ قلت : .. نعم . فلوى الدفتر العريض المستطيل نحو وجهي وجذبني من كتفي بأصبعين من كماشة حادة ، وصار يخبط بأصبعه فوق سطر معين ويقول : ايه ده ؟ اقرأ .. فيه خبر وصل لكم ولا لا ؟ ما تنطق . غير انني لم أنطق ، حيث كنت بالكاد قد بدأت أعرف قراءة الكلام المدون أمام اسم أبي . ولقد قرأته ، لكنني نظرت في عيني الرجل ، وعدت ونظرت في المكتوب ، وعدت من جديد امسح الحجرة بنظرة غائمة لا أدري ماذا أقول . وكان الرجل يصيح بلا توقف :

تاني مرة ماتبقاش تدعى .. مش أى واحد تطلع في دماغه كلمتين ولا دمعتين يبجي يعملهم قدأما هنا ؟ احنا جسيمنا طاب خلاص .. دأحنا جبال .. لو بنشيل في نفسنا كنا موتنا من زمان .. كل واحد يبجي يسأل عن قريبه ولا نسيبه ولا أبوه عايز يحصلنا مسئولية موته .. دا قدر .. استشهاد واحنا بنأدى عملنا على خير وجه .. وكفايانا حزن بقى من كتر الكتابة في الدفاتر دى لوحدنا .. على كل حال .. اتكل على الله روح انت وحتلاقي الجوابات مركونة في البوستة أو في أى حته .. املا الاستمارات الى فيها وابعثها لنا واحنا حنعمل اللازم .. مع السلامة ..

» اندفعت الى الطرقة العريضة فقفزتها ومنها الى السلام قفزا حتى ارتاب بعضهم في أمرى . ما صدقت أن صافحني هواء الشارع . وكنت لا أزال أجرى حين همت سيارة بضربي لولا أن فرملت بقوة أسقطت قلبي من جديد في ركبتى . تركت السائق يلعن أبى الشهيد بأقذر اللعنات ويصف أمى المسكينة بأثنع الأوصاف ، وأخذت أواصل الجرى أريد أن أضمحل تماما من هذه المدينة لا أعرف ان كنت نشوانا أو تعيسا ، فها أنذا أجرب لأول

مرة معنى أن يكون أبوك أنت بالذات شهيدا ، أن يموت في معركة
حربية دفاعا عن الوطن . لم يكن ذلك شيئا جديدا علينا . والحق
لقد كان لذيذا أن يقول المرء بثقة : لقد حارب أبى في النكسة ومات
في حرب رمضان وصوت النصر المدوى يقول الله أكبر . لكن ليس
لذيذا بالمرة أن يصير حالى الى ما قد صار عليه .

« المثير للدهشة اننى لم أجدنى محتاجا لبلاغ أمى نبأ
استشهاد أبى . لقد عرفت الخبر بمجرد النظر فى وجهى ، فانفجرت
باكيا وهى تقول لى : خلف لك طولة العمر ، ولم أكن أبكى على
استشهاد أبى بقدر ما كنت أبكى على ما لحقنى فى المدينة من
اهانات . وقالت أمى انها كانت واثقة من موته منذ أن رآته ذات
حلم فيما هى تركب بجواره على الدبابة التى يقودها حيث تمرق
الدبابة عبر المياه من شاطئ القناة الى شاطئها الآخر كأنها تقطع
أرضا صلبة ، ولكنه على الشاطئ الآخر حفر لها خندقا جميلا
معرشا بالنباتات وأوصاها بانتظاره ريثما يطمئن على أصدقائه
ويعود، وكانت الدبابات تبدو كأنها عربية ملاكى بدون فوهات مدافع
وكان يبدو ان الأرض الواقعة على الشاطئ الآخر جزءا من حديقة
غناء تحضنا فلهذا تركته يذهب لرؤية أصدقائه ، وكان ثمة احساس
فى داخلها يقول لها انه سوف يعود لها ومعه أكلة سمك طازجة
وبضعة أصدقاء يعزمهم عليها . وقالت أمى كذلك انها الآن تأكدت
انه لن يعود ولكنها لا تملك سوى الانتظار . وكانت قمينة بأن
تظل الدهر تنتظر أكلة السمك الطازجة تنبىء راحتها عن مقدم
العزیز الغالى ، لولا ان المجنون ، أعنى المرحوم الولد حسان أخى
الأصغر طالب الاعدادية وزفيقي الوحيد فى الحياة .. آه ماذا أقول
.. لا أعرف من ذا الذى دفعه الى موطن الخطر وهو الذى يمشى
بجوار الحائط كما علمناه وأوصيناه ، الولد المسكين ليس من أهل
التهافتات والمظاهرات ولا شأن له بشئ ، وكان يمشى فى حاله
قادما من المدرسة فى مدينة المركز ، وكان يعرف ان ثمة هتافات
وهياج كبير يجوب شوارع المدينة يجار بكلام منمق خطير ، لكنه

لم يكن يعرف ان ثمة جنودا قد نزلت الى الشوارع فى المدينة وضواحيها وقسمتها الى معسكرات شديدة الاستحكامات ، ولم يكن من ثم يدري ان أى خطوة يخطوها عفوا فى طريقه الصحيح تعد انتهاكا لمعسكر الجند ، فمشى المسكين بكل راحته كما يمشى كل يوم فاذا بقبلة مثيرة للدموع تعمى عينيه وثمة رشاش فى أثرها يصوب نحو أذنه ففقد النوازن والاتجاه وأخذ من حلاوة الروح يجرى خبط عشواء فاذا به يقع من آخر ضلع فى الكوبرى فيسقط فى قاع النهر ..

« لا تسئل عن يوم مجيء جثته • بالله من ذا الذى يستطيع احتمال هذا ؟ ان أمه لجبل قد تصدع من عنف الزلازل الموجعة • لقد نزعه من حضنها فى عنف وقسوة وحملوها الى سرير الدار ، وانها الرقدة التى لم تقم بعدها • ماتت فى عز شبيبائها النظر •

« أما أنا فقد ترسمت فى مواجهة المأساة خطى جدى • لقد أعجبتنى حكمته وقدرته على النسيان • عرفت ان سر تماسكه واحتماله للخوارق هو انه قرر ان يتحدى الحياة ويخرج لها لسانه قائلا : افعلى ما تريدین فأنا واثق من دنائتك وخستك ولن يزعجنى أى مسلك تسلكین تجاهى مهما عظم • وهكذا قابلت الحياة وجهها لوجه معلنا لها اننى غير طموح فى مصاحبتها أو كسب ودها ، ان هى الا بضى تعطى نفسها بسهولة لكل لص ونشال وقاطع طريق وليس شرفا بالمرة ان يكون موسرا • ليس من قبيل الغرور قولى بأننى قد نجحت فى هذا ، ولكن يكفى اننى قد صرت أعيش فى هذه الحياة وحدى وأصبح مسئولا عن جدى هذا وجدتى تلك • ولقد تسلمت جدتى ضده طوفان الأخبار المزعجة ناقلة العار فأصابته نفسها بالطرش ، وتسلم جدى فى مواجهة الحياة بأزميل حدة السخرية وحدة الآخر النسيان • أما أنا فقد تسلمت باحتقارى لكل هذه المنتجات والأجهزة والملبوسات التى يشتريها أهلنا بفادح

الأثمان ، وقديما قال أجدادى البلغاء : استغن عن الشيء تكن نده ،
واطلب الشيء تكن عبده .. ولسوف أكون ندا لأى شيء .

« ولئن كنت هكذا حقا فأننى لابد أن أظهر ذلك فى قصصى
سوف أكتبها وروايات سوف أولفها ، اننى أسافر كل يوم الى
عاصمة المحافظة حيث أحضر محاضرات الجامعة وأسترى بنصف
مرتبى كتبنا . تسحرنى قصص يوسف ادريس وتسكرنى روايات
عبد الرحمن الشراقوى وأحب الصعلكة فى حوارى القاهرة القديمة
مع نجيب محفوظ أتأمل فتواته وحرافيشه فتذهب نفس حسرات
على قوم يتجسد فيهم كل هذا الواقع المرير ويظل باقيا كل هذه
الدهور . أما احسان عبد القدوس فأننى أشكر له صنيعا جميلا
قدمه لى اذ كشف لى منذ وقت عن طبقة كاملة لم أكن أعلم شيئا
عنها فضلا عن ان تكون قائمة بين طهرانينا . وأما فتحي خانم فأننى
صديق لبطلة السرمدى يوسف منصور .. اننا دائما نتأثر بما
يحدث فى الديار المصرية . باعتبارها من أشد الدول المجاورة
تقدما وديموقراطية وحضارة ، ومثلما نتأثر بثوراتهم نتأثر بكتابهم
وفنانيهم وكل تراثهم قديمه وحديثه ، لكننا نظل محتفظين
بشخصيتنا الأزرقية وان كان بعض مؤرخينا يزعمون ان معظم سكان
الديار الأزرقية وافد من الديار المصرية أثناء سنوات القحط التى
مرت بها على امتداد تاريخها الطويل . ويبالغ بعض المتيمين بالثقافة
المصرية فيقولون ان الثقافة الأزرقية أصلها مصرى ، لكن ثمة أصوات
أخرى أكثر ارتفاعا وثقة تذهب الى ان العكس هو الصحيح وان
الثقافة الأزرقية هى الأصل فى كل حضارات المنطقة . وان سألتنى
عن رأى الشخصى فأننى أقول ما أقوله دائما : ان ثقافات المنطقة
كلها متأثرة ببعضها البعض ومن الصعوبة ان تفصل بين الأصل
وبين الفرع وبناء عليه فيكون أهل المنطقة كلهم كذلك سواء بمعنى
انهم يمكن ان يكونوا شخصية واحدة .

« ورغم اننى لست عضوا بأية جماعة أو تنظيم الا اننى تلاقيت

مع الجميع على شيء واحد هو الوطن ، لكننا اختلفنا كالعادة في معناه ، ليكون مفهومه غائما في أذهانهم لسبب أو لآخر لكنه في وجداني هو أبى الذى لم يعد من الحرب ، هو زوج جدتى الأول ، بل هو أيضا خالتى بسيمه وأخى من أبى - هريدى ، الوطن هو دم كل هؤلاء وذكرياتهم وبنائاتهم واشعاعهم ونمائهم فكيف يتسنى لى بيع كل ذلك بمغرم شخصى مهما كان ثميناً ؟ ..

٢

قال مامون :

« هذا ما كان من أمرى . أما ما كان من أمر خالتى بسيمه فان اختفاءها كما قلت لم يكن له صدى يذكر فى البلدة . انما انشغل الجميع بهريدى . فما ان انتهت أيام المولد وعاد كل الذين ذهبوا ما عدا هريدى وزوجته نشطت الألسن وقيل ان عصابة من قطاع الطرق اغتالوه ليحصلوا على بسيمه . ولم يجد لسان واحد عن هذه القرية أبدا ، بل تطوع بعضهم فأنشأ قصصا وحكايات تزعم انه قابل بسيمه فى البلدة الفلانية تمشى مع أحد البكوات ، ومرة مع أحد الفتوات ، وثالثة مع ولد تلميذ ابن ذوات ، ورابعة مع ولد صايح خريج سجون .. »

« لكن هريدى ما لبث ان عاد بعد سنين طويلة . وكان متخفيا يسأل بلهفة غريبة عن زوجته بسيمه . فقالوا له : أتسألنا ؟ نحن من يومها فى انتظاركما معا . فصفق كفا على كف وقال فى حزن شديد باك انه كان يتعشم ان يأخذها لتراققه فى رحلة حياة معذبة قدر له ان يعيشها ، وكان حريا بالآل يعيشها لولا انه دخل فى طريق لم يعد يملك الرجوع عنها ربما لأنه يجد لذة وممتعة كبيرة فى ذلك ، وربما لأنه لم يعد قادرا على جمع بصماته عن الطريق . وهذا الطريق يكلفه ما لا يطيق ، لكنه فى نفس الوقت يعطيه فيفقد

حين يعطى ، فهو فى معظم الأحيان تطارده مباحث أمن الدولة
فيختفى بعيدا عن الأنظار ، فيجد دائما أبدا من يأوى غربته
ويسترها بفيض من عطاء .. قالوا له : كيف يا هريدى ؟ وما
الطريق وما أمره ؟

فقال هريدى :

— « الحكاية يا نسيادى بدأت من لحظة ما اختطفنى جمع من
الرجال وأحاطونى برعايتهم وحبهم وتشجيعهم . أنا الذى لم يكن
يدور بخلدى أن اعجاب الجمهور سهل الى هذا الحد ، فوجئت بطوفان
من الحب يحتوينى ، حتى اننى فى نهاية الليلة بدأت أتذكر بسيمه
ولكننى لم أنزعج ، قدرت انها على أسوأ الأحوال سترتد عائدة الى
البلدة حين تياس من ملاقاتى . أقول الحق يا رجال ، لم أكن فى
أعماقى أحس برباط قوى بينى وبين بسيمه ، بدليل اننى لم أرها
جيда أبدا ولم يقم بينى وبينها لقاء أتذكره ، ولهذا استنام قلبى
فى لذة التوهج . فجأة صرت صبيتا محترما كأولئك الذين جاءوا
بلدتنا ذات يوم وسهرت بهم حتى الصباح وأغدقت عليهم .. هكذا
صرت يا رجال بدون أى مجهود ، والنقود تنهال على من كل اتجاه .
ثم اننى سئلت عن بلدتى فأجبت ، وعن مدى ارتباطى بها فنفيت
أى ارتباط — عامدا أو غير عامد لا أدري — لكننى انسقت وراء
التجربة وهى ساحرة .. »

« استوطنت شقة فى العاصمة الكبرى اهدانيها واحد من
عشاقى الأغنياء من عليّة القوم السابقين وتجارهم الحاليين ، تركها
لى ، فصرت ملكا غير متوج ، الشقة لا تخلو أبدا من زوار عشاق
على جميع المستويات ، منهم من يعنى بتنظيف ثيابى ومفروشاتى ،
ومن يعنى باحضار مكيفاتى من دخان وخلافه ، كل ذلك دون ان
ادفع شيئا ، كل مهمتى أن أغنى لهم فحسب ، فكنت كل يوم ألبى
دعوة جديدة فى شقة جديدة من جماعة جديدة سمعت عنى ومنى

فعمشقتنى وتقيم سهرة على شرفى أغنى وألعل وتنهال على
 البقشيشات من كل ناحية ، فى السر وفى العلن على السواء .
 الانسان ضعيف يا رجال خصوصا فى شيئين : المرأة والنعيم .
 وبعون الله نجوت من أسر المرأة لكننى لم أنج من اغراء النعيم .
 فنسيت كل ما كان من أمرى فى سنى العمر الفاتئة دون ذرة حزن
 واحدة . أعذرونى يا رجال ، قدروا موقفى ولا تحتقرونى ، فإو
 كنتم مكانى ورأيتم حلاوة كيف يتحقق الحلم هكذا فى لمح البصر
 لعذرتونى .

« غير اننى وقد هدأت كان لا بد وان أعرف لماذا يحببنى كل
 هؤلاء المعجبين فوجدت ان الحماس يزداد بهم نحوى كلما تصادف
 ان غنيت موالا فيه معنى تحكم الحسيس فى الأصل ، ففهمت
 ان الثورة الأزرقية تضاهل معناها فى نفوس الشعب الأزرقى الى
 مجرد احساس بأن الجاه والسلطان تم استلابهما من أولاد الاصول
 الباشوات والبكوات وانها قد أعطت السلطان لمن لا يتحملون
 مسئوليته من الدهماء . . فصرت فى كل حفل أضيف من عندى
 كلمات على الموال أو المديح أعرف انها ستعجب الناس . . وفهمت
 ان أشد ما يستولى على اعجابهم هو اننى أقول غناء يتكلم عن أشياء
 وبأشياء يحسونها ويريدون الكشف عن سرها . وبين يوم وليلة
 يا رجال وجدت بجوارى من يؤلف كلاما على أن أقوم بتلحينه وأدائه .
 وجدتها كلمات جميلة ورائعة ، فيه الدفء الذى نحسه نحن أبناء
 البلاد ، فيه المرارة والحُب والتحرير على الانتقام . لو لم تكن
 هذه الكلمات قد وفقت على فربما كنت فكرت فى الانسحاب من
 هذا الطريق . لكن هذه الكلمات ظلت تنهال على فلا أملك الخلاص
 منها وأجدنى ساهرا على تلحينها أنا الذى لم يكن يفكر فى ان يصبح
 ملحنا ، وتستبدبى النشوة من كونى استطعت تلحين كل هذه
 الأغنيات بهذه الحلاوة التى تغرى الجميع بترديدها ورأى وتسجيلها
 وترويجها فى كل مكان . . »

« القصد لقد أصبحت اسما ثابتا في كشور من يسمنهم
 باليساريين ، يقبض على من حين الى حين لاي سبب وبأي تهمة ،
 لا وضع في الزنازين عاريا . لكن الدفء يجيء دائما من خارج
 الأسوار ، فتمة دائما من يجمع لى النقود والدخان واللحوم ويوصلها
 الى خلف الأسوار بشكل أو بآخر . حتى الأغاني كانت تبلغني
 كلماتها من الزناينة المجاورة ، فتبلغها الزنازين الى الشوارع
 والنوافذ المجاورة ، فتصل الى أبعد ما يتصور الخيال . لا تدهشوا
 يا رجال فان أغنياتي التي هي من تلحيني وأدائي ومن تأليف
 صعلوك مثلي ، تطبعها شركات باريس على اسطوانات مغلقة بصورتي
 كأكبر نجوم السينما في العالم . أما أنا فقد حققت دخلا معقولا
 وفكرت في بسيمة وأشرفت عليها ولحنت من أجلها بعض الأغنيات
 ولكن ضميري ظل ينتح على فجئت أطلبها صاغرا لاعتذر لها طول
 حياتي عما بدر مني تجاهها ، وأقول لها ان هريدي القديم لم يعد
 منه شيء حتى اسمه لم يعد هريدي بل اشتهرت بسيف الموالدي ،
 ولكن صحابي وعشاقى تعملوا الخطأ وأشاعوه فأصبح اسمه « سيف
 الماوردي » ..

واستطرد مامون قائلا :

— « ثمة شيء أحببته في أهل بلدتنا هذه ولذا فأنني أحب
 المكوث فيها مهما كرهتها عنده الغضب . ذلك انهم كانوا يستمعون
 الى حديث هريدي الذي كان يعتبر لحظتها تصريحاً بتقديمه الى
 المشنقة ، ولو تسرب خبر وجوده في البلدة لنشط العسكر
 واقتادوه في الحال مكبلا بالحديد . كان لحظتها كما صرح لهم هاربا
 من أمر بالقبض عليه في تهمة قلب نظام الحكم وتهييج الجماهير .
 وكان أي صعلوك من الجالسين يستطيع الاسراع بإبلاغ الأمر الى
 الجهات المعنية ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . بل انهم كما كانوا
 يقولون كانوا يرفعون رؤوسهم وينظرون اليه باعجاب وتقدير اذ
 هو يتجراً على الحكومة الكبرى ويصارحها بأخطائها ويدعو الى اصلاح

جال الرعية ودفع ظلم الأقلية عن الأغلبية . بل ان ضابط نقطة الشرطة نفسه تنكر في زى مدنى وشخصية أخرى لا ليقبض عليه بل ليمتع نفسه بالاستماع اليه في حفل من الحفلات السرية العديدة التى دعى اليها . ولقد ترك هريدى بذرته في أطفال قريتنا فصاروا من يومها يؤلفون أغنيات على نسق أغنياته التى خرجت من السر الى العلن يسخرون فيها وبها من أشياء مثيرة فى بلدتنا .

« أمضى هريدى فى دايير الناحية ثلاث أسابيع تنقل خلالها بين عشرات الطوائف والجماعات والأسر والبلاد والقرى والعزب ، ثم لم يعد بعد ذلك ، وصرنا نقرأ أخبار القبض عليه فى الصحف ، ونتناقل أخباره من المسافرين والعائدين . ويبدو أن أيام سجنه كانت وستظل دائما أكثر من أيام حريته حتى انه لم يعد يملك المجيء اليها ثانية . ولم تكن نعرف هل التقى ببسيمة أم لا . لكننا اليوم علمنا ان أحدهما لم ير الآخر مرة ثانية .

٣

نهض مامون فى نصف جلسة . فلما انتبهت اليه سمعت صوتا عاليا يهدر فى داخل الدار تبينت انه صوت صادر من جهاز تسجيل ، وكان الصوت مجرد خرخشة عالية . اكتأب مامون : « الرجل المجنون حيمارس هوايته . . . حيسمع أغاني . . . اللهم ان صوت التسجيل حيطلفشنا من هنا » ثم قفز المصطبة مندفعاً نحو الداخل فاندفعت وراءه . دخلنا قاعة فيها سرير بعمدان نحاسية وناموسية حريرية مشغولة برسوم ، ودائر عليه أطفال بأجنحة محلقة فى الهواء ، وفيها دولاب كبير بأربع درف ذى طراز قديم ومتين ، وترايبزه مستديرة ، وبضعة كراسى خيزران . .

قال مامون :

كلما دخلت هذه الحجرة خيل الى ان أمى لا تزال راقدة على هذا السرير تنتظر عودة أبى ومن سخرية الدهر ان يرحل كلاهما

ولا يبقى على السرير سوى جدى يستببح لنفسه كل شئ فى هذه
الحجرة دون احترام لقداسة ذكرياتها ، أتراه فقد الاحساس
بالذكريات فينتهك قداستها باستخدام أشياء أصحابها أم تراه
غارقا فى الذكريات حتى أذنيه لا يريد الخروج منها ؟ يعلم الله ..

وكان صوت التسجيل أعلى من ان يسمح لمأمون أو غيره
باستمرار الحديث . أزاح مأمون طرف الناموسية فاذا بجده قد
تمدد على السرير واضعا مسندين خلف ظهره مستغرق فى النشوة
وقد تمكنت يده من ضبط الصوت تماما . وكان الجهاز موضوعا
بجواره على المخدة ، جهاز كبير فخم مما يسمونه ستريو ، وكومة
من الشرائط حوله . أزاح مأمون طرفي الملاءة الى بعيد وجلس
على حافة السرير فقفزت الى جواره . ثم مد أصابعه فخفض الصوت
جدا حتى صار بالكاد يبلغ الأذن . فانتبه الجد وفزع فاتحا عينيه ،
ثم هسنى ، فنبحت فيه بغلظة فأشاح عنى . ونظر فيه مأمون قائلا
مع ابتسامة حنون : « بالزمه أيه الى بتسمعه ده ؟ » ثم تجرأ
وأخرج الشريط من الجهاز ناظرا فيه صائحا بقهقهة عالية : (ظننتك
تستمع الى الشيخ عبد الباسط أو أم كلثوم أو عبد الوهاب وغيرهما
من مطربي الدولة المصرية الشقيقة .. كنت أظنك على الأقل
ستستمع الى شرائط ابنك هريدى .. »

ثم حول وجهه عن جده ناظرا الى ناس تخيل وجودهم ويقول :
« تصوروا ان هذا الرجل العجوز يدير شريطا لمطربة اسمها رشا
الحضرى .. رشا الحضرى ؟ أى ابتذال هذا بحق الله .. رشا
الحضرى هذه كانت ذات يوم مطربة درجة ثالثة وصعدت بها
الكوسة الى الدرجات العليا وكل الناس يعرفون ، لكن من يصعد
بالكوسة يهبط بالكوسة كان شيئا لم يكن ، أين هى الآن رشا
الحضرى ؟ .. ثم انها مطربة شبابية فى صوتها غنج أرادت أن
تدارى به بحة فلاحية فاذا بها تجسده شيئا يدير رأس المراهقين ..
فهل انت مراهق يا جدى ؟ .. من أين جئت بهذا الشريط ؟ .. »

قال جده بعد برهة كأنه يحلث نفسه انه اشترى مجموعة شرائط من ولد متشرد يبدو انه سرقهم ، ودفع له فى هذه المجموعة كلها ثلاث جنيهات وهى تساوى خمسين أو ستين . وقال أيضا انه سيجربها كلها فما يعجبه منها يحتفظ به لنفسه وما لا يعجبه سيبيعه بمكسب . وقال كذلك ان هذه المدعوة برشا الحضرى ليست رديئة فهو شخصا يحس ان صوتها أحد أقاربه ، وهذه ميزة يحسها مع كثير من المطربين والمقرئين ..

رد مأمون :

« عمري ما رأيتك تستمع الى شرائط ابنك هريدى .. اليس صوته أحد أقاربك ؟ » فلم يرد الجده كأنه لم يسمع ، وصار يعدت بالشرائط فى ابتهاج كما يفحص صفقة رابحة ، كل شريط عليه صورة مطرب أو مطربة أو مرقىء من المشهورين ، وقائمة بالأغاني التى يضمها الشريط . تناول مأمون أحد الشرائط عفوا وكان على علبته صورة المطرب محمد فوزى . فتح علبة الشريط وأخرج الشريط قائلا : « حلو .. أنا شخصا من عشاق محمد فوزى وأرى ان الأغنية العربية كلها لم تتجاوزه » ، ثم ثبت الشريط فى الجهاز وأداره فاذا بصوت رصين ينطلق قائلا : « الله الله .. الله يفتح عليك يا سيف يا مواردى » ..

سيف الماوردى ؟ هكذا صاح مأمون ثم هلل كالأطفال : « الحق يا جدى . ابنك هريدى له شريط أهه » ، واستخسر أن يتكلم مضيقا فرصة الاستماع لأن أغنية لسيف الماوردى انبعثت بايقاع مبتهج رصين راقص الاعطاف ، كلام حلو ونغم أحلى ، نفس كاريكاتير سيد درويش ، تريقة على ناس حكام ، وناس دلاديل للحكام ، تذكير بالوعود المكذوبة ، تجرى للمستمع على قذف النخيل العالى بالحصى ، أغنية تؤدى الى أغنية ، الكلام مألوف ، تقريبا هى نفس الأغاني التى كنا نردها فى بلدتنا من سنين ، مع اختلاف

كبير هو ان محتواها القديم التحم بمحتوى جديد بشبه تماما ويستفيد منه ويعكس عليه وهجا جديدا ، هكنا يجب ان تتطور اغنيات الشعب ، هكذا يجب ان يغنى الأولاد فى الشوارع . كنا فى طفولتنا نغنى : يا قمرنا يا هادى .. ويا طلع الشجرة ، واغنيات سيف الماوردى تكاد تكون هى نفس هذه الأغاني ولكنها تحتوى على أشياء تشغل بالنا جميعا ، وتذكرنا بأشياء نسيناها ، وتبث فينا الحماس للمطالبة بكذا وكيت وكيت .. عجيب أمرك يا سيف يا ماوردى وانت يا من تكتب له هذه الكلمات النارية يا من تسمى مراد الحلو وانت حلو بالفعل ، أقسمت انك تستطيع وحدك ان تكون جهة حساب عليا .. يه .. يه .. يه .. ما هذا .. تغنى عن طغيان عبد الجبار ؟ تسلقه بكلمات كالخناجر ؟ ، ورشا الخضرى أيضا تسلقها وتتساءل من هى وكيف كانت وأين اختفت من عالم الغناء والتهريب ؟ مجلس الشعب وأهل منزله ؟ كل شىء لم يسلم من لسانك يا مراد يا حلو ، والأحلى منك ومن كل شىء ان يكون هذا اللسان السليط الحارق لسان مغن يسلق بالغناء ويجعل من هو موضع السخرية يغنى هو الآخر على خيبته وخيبة الجميع ..

نفذ الشريط . نزع مأمون واختار غيره فاذا به لفريد الأطرش ، لولا ان أغنية الربيع كانت مكتوبة على الغلاف لما أدار الشريط . لكن الشريط ما ان دار حتى اتضح انه أيضا لسيف الماوردى . ما هذا ؟ استغفر مأمون فجرب كل الشرائط فوجد ان معظمها لسيف الماوردى ولكنها متكررة فى صور مطربين آخرين مشهورين ..

اعتدل مأمون وأمسك برأسه ثم نظر لجده قائلا : « قلت انك اشتريت هذه الشرائط من ولد متشرد سرقها على ما يبدو ؟ » فلم يرد الجلد وان بدا على وجهه تعبير الموافقة على ما قال . فقال مأمون : « اذن فان الولد يكون قد سرق هذه الشرائط من مكتبة واحد يسارى كبير ممن يحتفظون بشرائط سيف الماوردى

ويروجونها بينهم » . ثم هز يده بجوار رأسه فى دهشة قائلا :
« ولكن يا له من حب ، ان مؤسسات بكاملها قد لا تستطيع تنظيم
هذا التهريب الثقافى الفنى بهذه الطريقة الجهنمية ، ان الحب وحده
هو القادر على هذا ، حب هذه الأغنيات ، فان كانت الدنيا قد
أصبح فيها من يحارب حتى الأغنيات وشقشقة العصفير . فليعلم ان
قوة فى الأرض لن تستطيع اسكات صوت العصفير ، ان الفنون
تنمو جيدا فى درجات الحرارة العالية ، ولسوف تعبر العصفير
عن مأساة حرمانها من الشقشقة بالشقشقة ، شقشقة كل العصفير
أصبحت تعكس وأواة طفل وليد وصوصوة طائر حبيس وصهيل
فرس مكبل » ..

ثم صار ينقل البصر بين جده وبينى قائلا : « العجيب انه
لا يحب الاستماع الى صوت ابنه .. هذا الصوت الجميل المؤثر ..
يا أخى ان لم يكن يعجبك كصوت مطرب فلتحبه كصوت كلمة كنت
ولا تزال تحب ان تقولها .. أأست تحب ان تعود الى طفولتك
لتغنى هكذا ؟ .. الغناء ليس رشا الحضرى وأمثالها يا جنى
العزیز ، الغناء ليس هذرا تتسلى به فى أوقات الفراغ ، الغناء طقس .
تتحقق به أشياء وتظهر به نفوس ومجتمعات » ..

**وصمت مأمون وبدأ على وجهه احساس بأنه لم يكن ثمة داع
لهذه المحاضرة الغنائية . ثم ادار وجهه نحوى كالمعتل عن جده قائلا :**

— « انه خبيث ، ليثم ، يوهنا انه لا يستمع درأ لآى مهاجم
بسبب التحريم .. ها هو ذا كأنه لا يعرف ذلك المدعو هريدى او
سيف الماوردى ، كان صلة لم ولن تقوم بينهما ، ها هو ذا يفترض
ان كل كائن غريب عن عالمه ربما كان دسيسه او مخبرا او قادما بنبا
عظيم الخطر ، هو من ثم فى حالة تحصين دائمة ضد كل ذلك .. لكن
لو دققت فى الأمر ، لوجدت ان جلى الجالس أمامى هذا يحفظ
كل أغانى سيف الماوردى عن ظهر قلب ، يحفظها بنغمها ولحنها .

أما متى استمع اليها وكيف فهذا ما لا يستطيع أحد اثباته حتى نحن ٠٠ أحيانا أدير شريطا لسيف مما يصل اليها خلسة مع طلبة الجامعة القادمين من العاصمة الكبرى ، وأسرح أنا مع النغم وأنتبه اليه فجأة فأجده يردد نفس النغم بنفس الكلمات لا بشفتيه فحسب بل بكل جسده وكامل نفسه ٠٠ يكاد هذا الجذع العجيب يكون هو مشكلتي الرئيسية واسطورة حياتي ٠٠ يقول لك انه اشترى هذه الشرائط من ولد متشرد سرقها على ما يبدو ! ٠٠ ولست أذهب بعيدا ولا أكون مخرفا اذا قلت لك ان جدى هذا ربما كان هو الذى قام بتعبئة هذه الشرائط فى مكان ما من مصدر ما وجاء بها متكررة على هذه الصورة ! ٠٠ لم لا ؟ ٠٠ ان الشيء البعيد حين يصبح قريبا بنفس درجة ابتعاده يكون ذلك من علامات الساعة لست أقصد القيامة ، انما أقصد الساعة المعنية التى ظلت البشرية تنتظرها طوال القرون ٠٠ فلقد تداخل كل شيء فى كل شيء وأصبح الانسان محتاجا لاسلوب جديد فى المقاومة ، لم يعد الانسان مضطرا الى الاستعداد لمواجهة المسئولين أو الحكومات الظالمة أو الدول العظمى أو حتى مجلس الأمن على ضياع فى حقوق أو فى أعمار أو فى محاولات بتر من الوجود ٠٠ انما أصبح الانسان مضطرا الى الاستعداد القوى للتفريق بين الأشياء الصحيحة وبين الأشياء الكاذبة ٠٠ لم تعد الأصوات وحدها تكفى للتعبير عن نفسها . عليك ان أردت أن تفهم شيئا أو شخصا أو وضعا أن تدرس خريطة هائلة شديدة التعقيد فى علاقاتها المركبة المتناقضة فى تألف !! ، ٠٠

تململت فى جلستى ، أطلقت هوهوة أنبأت بها مأمون ان جده قد أخذ للنوم الهانئ اللذيذ . فابتسم مأمون فى سخرية اسيفه ثم جمع شرائط سيف الماوردى على بعضها وحملها تاركا بقية الشرائط قائلا : « لك ان تبيع هذه يا جدى ان أردت ٠٠ نشكرك على كل حال ٠٠ لقد أديت واجبك الذى لم يكلفك به أحد ، وبفضلك صرت أمتلك ثروة هائلة من الأغنيات المحاربة المعارضة المناهضة

أستطيع ان أعيش على حسابها حفلات لا تنتهى بين طلبة الجامعة
والثقفين والتجار المرورين والسياسيين المتقاعدين برغم أنوفهم
والثوريين المحبطين والأدباء المكبوتين ، هى الأخرى قوى متناقضة
لكنها - على هذه الأغنيات - يمكن ان تتآلف ويصبح شكلها جميلا
خلافا ، • ثم أرخى طرفى الناموسية وأسدلها على جلده ومضى ،
فمضيت على أثره لا أحيده •

٤

دخل مأمون فى سرداب يلتصق بظهر منزلهم ، فإذا بنا بعد
مسيرة طويلة بين بيوت من اللبن واطئة وبعضها جميل ، قد أشرقنا
على ترعة هائلة ذات جسر وقنطرة من الأسمنت والحديد ، على ضفتها
المقابلة مجموعة متناثرة من « الفيلات الأنيقة والبيوت المتميزة كان
ثمة مباراة فى التشكيل والتجميل خامت بين أصحابها • ولاحظت فى
ضوء القمر ان هذه التربة الكبيرة التى كان من المقدر لها ان تقوم
بأرواء عشرات الملايين من الأقدنة التابعة لدائر الناحية ، قد
زحفت عليها الطريق من الناحيتين وسقطت بها عشرات الأطنان من
بقايا تراب البناء وطوبه المتفتت • وأما الجسر فقد تأكل من كل
ناحية وتهدمت أفاريزه ولم يعد يسمح بمرور الأبقار والجمال
المحملة ، مع ذلك أدهشنى مأمون بقوله لما رأى أنامل وضعه فى
حسرة ان السيارات رغم وضعه هذا تمر فوقه بواسطة قضيبين
من الحديد المبسط باقيين من أساس الجسر القديم ، ينجح سائقوا
عربات الأجرة المنتشرة فى القرية فى ان تستقر كل عجلة على
قضيب وبدقة اذ أن عجلة لو انحرفت قليلا تهبط فى الفراغ •
أما القنطرة فبعد ان كانت بناء أنيقا متينا ذى باب حديدى بقفل
ومفتاح وخفير يفتحه ويفلقه كلما احتاجت القنوات الفرعية لماء ،
أصبحت مجرد باب غائص فى الأرض ، ويبدو ان الحاجة اليها لم
تعد ماسة بعد ان انتهى عصر الفيضان وأقبلت عصور التحاريق ،

وبعد ان تغير لون وجه النهر فصارت مياهه بيضاء فى لون السمك الميت ..

هرولت قليلا نحو جدار القنطرة الصغير المتآكل ، ورفعت اليمنى اليمنى وتبولت على الجدار ، وعدت الى مأون الذى جلس ضاحكا فوق حديد القنطرة . أحس بمدى الحزن فى عينى ، فرفع كتفيه ومد بوزه فى أسف كأنه يقول : « آدى .. الله وآدى حمكته » .. ثم قال :

— « لم يعد هناك من يشعر بمثل هذه الأشياء .. الكل ها هنا يريد ان يأخذ من الملكية العامة قدر ما يستطيع .. لا أحد يريد ان يعطى شيئا لآى شئ . الكل ينشغل بالبناء لنفسه فحسب ، وكل من ينسلخ من هذا السرداب الطينى ويبتنى لنفسه بيتا ها هنا يغلغ على أبوابه فلا يزور ولا يزار ، لأنه قد صار يخشى حسد الفقراء والنم والقر خاصة من أهله المعدمين .. فى هذه البيوت الأسمنتية الجديدة يسكن مجموعة من نماذج خارقة تنهزم أمامها قدرة أكبر روائى فى العالم .. بعضهم مدرسون سافروا بطريق الاعارة وآخرون أثروا من الدروس الخصوصية .. بعضهم من معاونى الجمعية الزراعية الذين اختلسوا عرق الفلاحين فى الستينات .. بعضهم من تجار الشنطة والبنائين .. وكل من يسكن فى هذه القرية الأسمنتية الجديدة يتنافر مع الآخر ويتعالى عليه ويتباهى بما عنده من أجهزة وأشياء .. آخر مباراة للتباهى الحاق الأولاد بالمدارس الأجنبية الخالصة رغم ما تكلفهم من مصاريف باهظة وشحطة لا مبرر لها ، أى ان المدارس الأجنبية التى تتسلم الطفل الأخضر فتدرب لسانه على أن تكون لفته الأصلية هى الفرنسية أو الانجليزية حسب جنسية المدرسة ، أصبح بين طلابها من يدعى معاطى وأبو سريع وبسطويسى .. أحلى مشهد نراه لو قدر لك حضور مناسبة عائلية اضطرت فيها الأسر الى التلاقى فى مكان ..

تري عجباً • تراهم يجلسون مسمرين لأنه في الواقع لم يعد بينهم وبين بعضهم أى شيء مشترك أو أى موضوع يتحدثون فيه معا . ولذا تراهم قد نسوا المناسبة التي جاءوا من أجلها ، ونسوا حتى شخصياتهم وأنفسهم وذابوا في لحظة انتظار لشيء واحد ، أى ابن من أبنائهم سيكون الأنجح في الرطانة بطلاقة ، والأم تقول بكل استمتاع خفى : لم أعد أقدر على التفاهم مع الواد ، يكلمنى بالفرنسية على طول الخط ، ولم يعد يتذكر أى لفظ عربى فهل يا ربى افرغ لتعليمه العربية من جديد ؟ اف • لو كان ذلك ينفع معه لفعلت • اف • وأف هذه هي نفخة المتعة التي تتمنى كل أم أن تقولها عن ابنها •• لقد حضرت بعض هذه المناسبات فكان النكد يحط على كالجيل ، وكنت أبكى من الاحساس بالاغتراب . ويعلق البعض على بكائي بأنى أستطيع السفر عاما أو عامين غير جوا ، ويعلق آخر بأننى يجب ان أتزوج لأنجب لى طفلا •• وتنساب بكرة التعليقات : العيال اليوم تكلف ، دفعت للولد مائة جنيه ثمن توصيل بالعربة فقط ، ابن أخى قدمنا له فى الليلية فامتحنوا أباه وأمه امتحانا عسيرا واضطرونا الى دفع رشوة لينجح الأبوان فى الامتحان !! •• وهكذا ترانى أعيش فى مجتمع من القردة يربى جيلا أجنبيا لينفصل عنه بعد ذلك تماما ••

ثم عجز مأمون عن ايقاف دموعه التي أخذت تنهمر بشدة - وشرعت انطق قائلا له فى أسى : ما لدموعك قريبة هكذا يا مأمون ؟ لكنه قال دون ان يجفف دموعه :

- « لم أعد قادرا على دفع البكاء باستمرار • أحس اننى لم يعد لى صديق فى هذه الديار •• الذين لازمتهم ولازمونى طوال سنين الطفولة والصبا قاطعونى رغما عنهم •• بعضهم سافر واستوطن بجنسية مستعارة •• بعضهم اشتغل سمسار عقارات وتأجير وبينغ شقق وأراض •• بعضهم ميكانيكى أو سمكرى سيارات •• بعضهم سائق عربة أجرة من المحطة الى القرية تجمع

فى اليوم الواحد مائة جنيه على الأقل . . بعضهم اشتغل مهربا
للبضائع من بور سعيد . .

أطلقت بضع هوهوات رقيقة ترسم على وجهى تقاسيم الاحتجاج
اللطيف كأننى أقول له : اخرج بنا من هذا الجو الكئيب . فاحتوى
فكى بيده الحنونة قائلا : هيا بنا .



فمضينا نحو الجسر فمبرناه فى بهلوانية فصرنا فى القرية
الأسمنتية الجديدة التى ابتناها أبناؤها . انعطف بنا مأمون فإذا
بنا أمام محل بقالة ذى رصيف عال بسلم أسمنتى صغير ، صعدناه
فى قفزتين ثم دخلنا الدكان : مروحة كبيرة فى السقف ثلاثة كبيرة
جدا وأخرى صغيرة . رفوف تزدان بمئات الأنواع والألوان من
المعلبات الأجنبية والصابون والحلويات وأشياء للأطفال لم يسمع
بها أطفالهم بعد ، والتى وقفت بتبيع كل هذه الأشياء عجوز عجفاء
لا تعرف أى حرف من أى لغة . طويلة كعمود النور صلبة ، بحنيه
كجنية عامود النور أيضا لسبب عملى وليس بدافع الشيخوخة .
ما أن رأتنا حتى افتر ثغرها عن ابتسامة عريضة هتاء لطيفة ،
ثم رفعت جزءا من البنك الخشبي وفتحت من تحته بابا صغيرا ،
دخلنا منه الى جوف الدكان نفسه حيث جلسنا على دكة خشبية
مستطيلة عليها بعض البضائع . ثم ان العجوز بنصف خطوة فتحت
الثلاجة وأتت منها بزجاجة شوييس - باعتبارها آخر ما أعلن عنه
حسب رغبة السكان هنا - فتحتها وقدمتها الى مأمون ، أخذها
قائلا : « شكرا يا مرات خال » . ولما لم يكن ثمة من زبائن فى
هذه اللحظة فانها وسعت لنفسها مكانا بجوارى على الدكة ثم جلست
وصرت فاصلا بينها وبين مأمون .

نظر لى مأمون قائلا فى مداعبة : « هذه عجوز أخرى كالتى
تركناها فى الدار لكن هذه أقوى وأعنى ، هى الجذع العتيق الحى

وباقى الأفرع لم يعد ينفع فى ارواثها ماء ، • داعبتها ببوزى فى صدرها وكتفها فدفعتنى عنها بخجل أنثوى أصيل ثم عادت فربتت على • وقال مأمون : « انها زوجة أخ جدتى ، يعنى هى زوجة خال خالتى بسيمة » • انتفض حتى الشعر فوق جلدى من الغضب والتحفز ، حيث تذكرت ما كنت سمعته عن هذه السيدة وكيف لعبت دورا فى تشريد طفولة بسيمة فقد سمعت انها لم تكتف بالاساءة اليها لتطفيشها هى وأمها من مملكتها بل عملت الى تسفية جمالها وتلطيفه فى أنظار أهل القرية حتى تبتعد أنظار العرسان عنها وتتجه الى بناتها هى ، ومن يدري فلعل مسيرة بسيمة فى الحياة كانت تغيرت لو لم يكن فى حياتها سيده كهذه ، ثم عدت فقلت فى نفسى ، هل يمكن ان يحاكم الانسان على ذنوب اقترفها من أربعين عاما أو أكثر مثلا ؟ وقلت على الفور ان هذا لا يجوز . لكننى أحس أنى سأظل غاضبا منها الى الأبد ..

ودخلت امرأة رقيقة تحمل على صدرها طفلا نظيفا جدا أغلب اليقين انها خادمتة • قالت : « مسا الخير يا خاله جل الخالق • مسا الخير ياس مأمون » فردا معا قائلين : « أهلا ياست الحسن » • أخذت أهوهو فى اتجاهها مرة وفى اتجاهها مرات وهما ينبهان على قائلين : « انها ليست غريبة • انها حماة توفيق أفندى البحرأوى المدرس الاعدادى » • وقالت العجوز دون مناسبة : « لولاها عليه • يتركأنها مسكينة كالخادمة ولا يعودان الا فى الليل من الدروس الخصوصية • ويتأمران عليها رغم ذلك » • وست الحسن تقول : « كله عند الله يا خاله جا الخالق وأنا أعاود النبأح أكثر احتجاجا كأننى أقول : لا شأن لى بهذا ، المشكلة عندى ان ست الحسن اسم مفهوم لدى ، ولكن ما معنى اسم جا الخالق ؟ مأمون بذكائه قرأ أفكارى • فمال على هامسا : أتدرى ما معنى هذا الاسم ؟ انه اسم جميل جدا وصحة نطقه : جل الخالق • فدار رأسى من العبث وقلت لنفسى ان أولاد النفط يحملون الآن أسماء

أجنبية لا يعرفون معناها وما هي ست الحسن وجل الخالق امرأتان
من عصور مضت لا تعرفان معنى أسميهما فالأمر اذن لتقديم ..

خرجت « ست الحسن » حاملة الصايون والزهرة ، وعادت
جل الخالق الى الجلوس بجوارى قائلة لمامون في ود عميق : « مارحتش
الفرح على طول ليه ؟ » أطرق مامون ثم شرب جرعة شويبيس ثم
قال : « ما أنا جيت أهه كفايه » . ضربت العجوز صدرها متنكرة :
« يا عيب الشوم .. لا .. لازم تروح الفرح » . ابتسم مامون :
« يمكن يطردوني » . شيق : « معقول ؟ » . هز كتفيه : « العريس
نفسه لم يدعنى وهو قطعة منى » . ملست العجوز على كتفيه :
« لهذا أنت في غير حاجة الى دعوة .. أنت الذى يدعو الآخرين بدلا
منه » . قال مامون : « لا يا زوجة خال .. انت لا تفهمين جميل ..
هو صحيح ابن ابنك ولكنك لا تفهمينه » . قالت العجوز جل
الخالق فى صلق : « جميل طيب وأبيض القلب كما عهدته .. لكنهم
الملاعين الذين سيطروا عليه فقلبوا مخه .. لا تفزك شدته فهو
يتظاهر بها لكى يرضى أصحابه أولئك » . قال مامون بأسف :
« الأمر ليس هكذا يا زوجة خال .. الأمر ان جميل جاد فيما يفعل
ويقول .. انه يعتبرنى أفنديا كافرا .. وكل شىء استخدمه وافعله
يراه هو كفرا وزندقة .. وهو يحرم على كل شىء ابتداء من البذلة
حتى الراديو والأقلام والكتب والمدنية كلها » ..

**زحف الهم الشديد على وجه الجدة جل الخالق وصارت تبلع
ريقها الجاف ثم تنهدت قائلة :**

— « معك حق يا ولدى .. لقد سمع عيشنا وأصبح مصدر
نكد لا ينتهى .. أبوه أصبح مهددا بالموت من جرائه .. انه
يقاطعنا .. لا يأكل الذبيحة الا اذا كان هو نفسه أو أحد صحابه
قد ذبحها .. أما غيرهم فغير مسلم فى نظرهم .. لحم الجزار يا بنى
لا يطبق وجوده فى الدار .. أبوه طول الليل يخرف فى حجرته
ويقول ليتنى أنجبت فتاة بدلا منه .. أبوه النى حج بيت الله أكثر

من مرة ، وفعل كثيرا من الخير لوجه الله ، يطلع الولد المفصوص عليه فيقاطع حياته ولا يأكل معه فى طبق واحد .. لقد علمناه يا بنى وكنا نريد الصرف عليه فى المدارس العليا ولكنه تخرج فى دبلوم الصنایع قسم الكهربا .. يقولون ان الكهربا تضىء ، فلما علمناه اياها أراد أن يضعنا فى الظلام .. أول شيء فعله يا ولدى ان قسم البيت الى قسمين بضلع وباب ، هذا للحریم وهذا للرجال ، ولا أحد من أهل هذا الباب يرى أهل هذا الباب الا من كان صاحب حق شرعى .. سمع عيشتنا يا ولدى وتسלט علينا وكلنا ضعاف أمامه فهو الكبير والوحيد .. لكنه طيب يا ولدى .. جميل ابن ابني طيب القلب فلا تضمر له فى نفسك شيئا .. أنتم أهل ودمكم واحد .. وغدا تحتاجه أو يحتاجك فيكون جسر الود قائما بينكما ..

استوقفها مأمون بإشارة من أصبعه ، قال مع ابتسامه :

— « والله وحق كتاب الله يا زوجة خال ما اضمر لجميل شيئا فى صدرى غير الحب والمهزة .. اننى منذ شهور قليلة مضت كنت لا أزال أتصور انها أزمة طارئة وانه سيفيق منها ويثوب الى رشده .. ورغم انك ، عدم المؤاخذه ، قد لا تفهمين ما أقول لكننى سأعيد عليك ما قلت له بالضبط .. لقد قلت له : اننا جميعا مؤمنون بالله والرسول عليه الصلاة والسلام ونؤدى كافة الفروض — والمسلم منا أثناء أوقات التعبد كلما كان شغافا كانت عبادته أعمق اذ هى توصله الى حالة من الوجد يقربه أكثر وأكثر من الله سبحانه .. ولذا فان الانسان الكامل ، المسلم الكامل ، هو الذى يؤدى عمله الحياتى بنجاح ، ويؤدى واجبه نحو الله بنجاح ، فتعال نتفق على ان جهود الشباب المثقف والمؤسسات الدينية تنصرف الى تثقيف المسلم الأمى ثقافة اسلامية تهدف الى تهذيبه وتمكين الصديق من نفسه حتى يصير بعد ذلك على قدر من الشفافية يفهم معها معنى فعل الخير فيكون نجاحه فى عمله رد فعل لنجاحه فى

أداء الفروض تجاه الله سبحانه .. هذا ما يمكن ان اتفق عليه معك يا جميل .. أما ان يتحول كل واحد منا الى مجاهد مستقل عفيف فمعنى ذلك ان كل واحد منا يريد ان يكون نبيا وحده .. وهل الجهاد ان نصادر الحياة والمخترعات والتقلى العلمى والتقنى ؟ .. هذا عمل يؤدى لو فعلناه الى تخريب الحياة والعيش من جديد فى الصحراء القاحلة .. فهل هذا يرضى الله سبحانه وتعالى ؟ أبدا أبدا يا جميل ان الله خلقنا لنعمر الكون ، وهو سبحانه يريدنا أن نسعى فى مناكبها ونأكل من رزقها أى نحصل على رصيد من الخبرة والمعرفة وانكشاف الأسرار .. وكلما اكتشفنا سرا جديدا عن الكون والحياة والانسان اقتربنا من الله أكثر يا جميل ، أى اننا سنفهمه أكثر ، ستتجلى لنا قدراته الفائقة فى كل نجاح تحققه سواء كان ذلك النجاح وصولا الى القمر أو الى طفل الأنابيب .. ان الله سبحانه يا جميل لن يتأثر من أفعالنا هذه لأنه سبحانه فوق ان يتأثر ، فكيف ينزعج شيوخ المساجد ويخطبون الناس بأن هذا كفر والحاد ؟ .. اننا يا جميل طول عمرنا مصابين بمن يحرم علينا شيئا من أدوات الحضارة ووسائلها ، وكان التاريخ بحركته الدافقة يهزمهم ويقوم الواقع بفرض الأداة أو تمكين الوسيلة .. اليوم خرجنا نحن يا أبناء البارحة يا من مات أبائنا وأخوتنا الكبار فى أربع حروب متواصلة ، فاذا بنا قد أصابتنا قوة سحرية تفرض علينا ان نقاطع أبناءنا وأخوتنا ومعلمينا وتراثنا وفوق ذلك كله ما اكتشفه الانسان على مدى التاريخ .. كان الواجب علينا يا جميل ان نفكر فى مستقبل بلادنا والى أين همى ذاهبة ، فى أمر مستقبلنا وعند من سنكون خدما .. كان الواجب ان نصحو لنعرف من نحن من العصر الحاضر ومن الأمم التى تسمى للسيطرة علينا وأبادة جنسنا المتخلف ، فمن بالله تراه المسئول عن بعثتنا هكذا ؟ .. اننا يا جميل لم نعد مرتبطين ببعضنا أو ببلدنا ، كل واحد الآن يرتبط ببلاده فحسب ويقول : يلا نفسى ، وهو لا يعلم ان الريح اذا اشتعلت فلن تبقى ولن تذر .. فلمصلحة

من يا جميل نرفع سلاح التكفير والتحريم ؟ ثم من أدراك أنت بالذات أو غيرك بالذات ان رأيك هو الصحيح الصائب ؟ هل معك توكيل رسمي من الله سبحانه ؟ من أنت حتى تحكم بتكفير هذا أو تحریم ذاك وانت غير ملم بالسرائر ولا بما يدور خلف الجدران وتحت الصدور ؟ .. هناك ظواهر عامة يتفق الجميع على سوءها وخروجها عن الحدود فلتعمل على محاربتها ، أما القطيعة فهي غابة العجب ، هل تقاطع مجتمعا برمته ؟ تقاطع الكون كله مثلا وانت جزئ منه لن يتحرك الا بحركته هذه في نفس هذا الاطار الذي ترفضه جملة وتفصيلا ؟ اننا لو سلمنا بقولكم هذا يا جميل لكان الخلاص من الحياة أكثر اسلاما وأظهر ايمانا ، فهو الحل الوحيد الذي يبقى روحك وجسدك طاهرين » ..

وجرح مأمون آخر رشقة ثم نحى الزجاجة بعيدا في مأمن .
وعلق فيما تتابعه العجوز جل الخالق بابتسامة بلهاء هتماء لطيفة
مبهورة :

— « هذه الزجاجة صنعها كافر .. ولكن الله سبحانه ليس يكره هذه الزجاجة وليس يكره صنعتها ولا انتشارها بين عباده المسلمين ، لأنها اختراع انساني والاختراع الهام .. والالهام من الله » ..

قالت العجوز جل الخالق :

— « كلامك حلو يا مأمون .. آه لو كان جميل مثلك » ..

ابتسم مأمون كأنه يتوقع منها هذا التعليق . ثم تهيأ لقول شيء عظيم الخطر ويدرك في نفس الوقت مدى ما سيكون عليه من سخف . فبدأ وهو ابن العشرينات عجوزا في الستينات ، جاف الوجه ضامر الخدين مجعد الشدقين . لففت أنا حوله ثم تسلفت ظهره ومددت بوزي بجوار رقبتة كأنني أقول له : مالك يا مأمون ؟ . فضغط على شفتيه في تفكير عميق أسيف ممض ، وسمعت رنين الخواطر في رأسه يقول : لقد كنت أبیت النية على حضور فرح

جميل ولهذا أطلت أجازتى حتى اليوم ، فإذا بى أرانى مضطرا للمجيء لا لكى أثبت له اننى علوت على الخلافات الشخصية فحسب ، بل وبالأحرى لكى أبلغه نبأ قدوم جثمان عمه أبيه ، جثة من صلبه ولحمه ، لقد صاح واحد من السابلة عند رؤية الجثة قائلا : صاحب اللحم يلمه .. كيف أنقل الى احساس جميل كيف مزقتنى هذه الكلمة فى كبلى ؟ .. ان الخبر لا بد أن يكون قد وصله بشكل أو بآخر فجميع أطفال العب كله كانوا يتفرجون ، والواضح حتى الآن ان جميل مشغول بفرحه ، فكيف أقنعه اننا مبدئيا علينا أن نبادر بلم لحمنا ، ثم ان الأمر يقتضينا - انسانيا - ان ندعو الى التحقيق فى مقتلها وفيما وراء عودتها هكذا ، وان نتابع القضية فى جهاتها المختصة حتى نصل الى الحقيقة ، انه على جميع المستويات يكون أمرا مفيدا وشريفا معا ، ليس من المحتمل - وهو وارد - أن يكون وراءها ثروة ما نستفيد بها كلنا ؟ أو سرا ما ينفعنا فى حياتنا ؟ أيا كان الأمر فأننى واثق من أن التحقيق فى مقتل بسيمة سوف يكشف عن أسرار هائلة ربما غيرت مجرى حياتنا . وواثق أيضا من أن سعينا وراء هذه القضية يكون عملا شريفا جدا ومشرفا جدا .. بالله كيف أقنعه ان الانشغال بالبحث فى قضية بسيمة والتحقيق وراء مقتلها وعودتها هكذا لهو أجلى بكثير جدا مما يفعلون أو يدعوننا الى فعله والا فلا نحن من صلبكم ولا أنتم من عصبنا ؟ هم يجعلون العمل استثناء والتعبد قاعدة . هم يدعون الى تفريغ الذهن على اللوام من كل مشغلة دينوية والتفرغ لتصور الذات الالهية وعذاب يوم القيامة .. أريد أن أقول له يا جميل ان آيات الله سبحانه مجسدة فى الواقع الذى تحياه معنا ونحياه معك وما عليك الا أن تستوعب كلام الله سبحانه ثم تلقى نظرة على الواقع لتستوعبه هو الآخر على مهل وبنفس هادئة ، لنكتشف كيف ان الآية القرآنية الفلانية قد تجسدت ها هنا حقيقة ، ان كتاب الله العظيم أنزله سبحانه علينا لا ليكون مجرد تمية نعلقها فى رقابنا وتحت رؤسنا انما اراده سبحانه أن يصبح لوحا محفوظا فى

سريرة كل آدمي منذ البداية حتى اذا ما شرع يمارس الحياة ويتصادم بنقائضها ومفاجأتها ينطق لسانه بالآية فيفهم مغزاها الالهى ومغزاها ان نتعظ أى نغير من سلوكنا الى السلوك الاقوم . . من شريعة الله أن نبحث فى قضية كقضية بسيمة على الأقل لنستوعب الآية الكبيرة التى ينطق بها لسان الحق فى أفئدتنا يوم نعثر على الحقيقة فيها . . قضية بسيمة قد تكون معقدة والبحث فيها شاق وعسير ومحفوف بشتى أنواع المخاطر ، وقد تضيق أعمارنا دون أن نصل الى جوهر الحقيقة كاملة ، لكن يبقى لنا شرف البحث فيها واعطائها حقها الشرعى من الاهتمام ، فمن المؤكد اننا بمجرد اهتمامنا بالقضية واتخاذ موقف ايجابى منها سوف نجد متعة فى البحث ، ان البحث فى قضية بسيمة هو فى حد ذاته عمل ثقافى كبير فضلا عن كونه شرف وحمية وصون للحم الانسانى . هو طريق من مضى فيه لا يكون خاسرا أبدا ، ان انشغالنا بقضية مقتل بسيمة وتاريخ حياتها ليس ترفا ثقافيا بل هى مسألة تخصصنا ، ولكن بالله كيف أنقل لجميل كل هذه الخواطر والأحاسيس وهو رافض للحواز معى أصلا ما لم ألتمز بتشريعهم فى سلوككانى جميعا .

ثم تنهد مأمون من كبد مسحوقه بالألم والمعجز والأسف . وقالت المعجوز جل الخالق وهى تنهى آخر طلب لزبون : « رحت فين . يا ولدنى ؟ » فلم يرد مأمون فجلست بجواره وربتت على ظهره : « طب قوم روح الفرح . . روح كده اسند قلبه قدام نسايبه . . دانتوا لحم والضمفر ما يطلعش من اللحم أبدا مهما كان » . قال مأمون بأسى واضح : « صح . . القضية فى أساسها هى قضية اللحم ، لحمنا نحن ، اننا نتألم حين نخلع ضرسا لنا مضطرين . أو حين نخلع ظفرا ، فما بالك ونحن نخلع جسدا بحاله من جسدنا ، نخلعه تماما ونتركه للكلاب تنهش فيه أماننا دون أن تصيبنا وخزة ألم . . نعم هى قضية اللحم يا زوجة خال » . وقالت المعجوز جل الخالق تخفى سسخرية قديمة بينهما :

« شاعر ربابة زى جذك .. صحيح العرق يمد لسابع جد .. جذك
ماجاش الفرح ليه ياواد وجاب الربابة معاه وعمل الشوية بتوعه ؟
.. مكسوف ولا مستعر ؟ ولا مستكبر ؟ .. ده أول فرح يتقام فى
دارنا بعد سنين طويلة .. »

قال مأمون بصدق : « معك حق يازوجة خال .. ما يحدث
اليوم يحتاج شاعر ربابة حريف يحكى عما حدث وحدث .. يعزف
على أوتار الألم كيفما شاء حتى يتمزق الناس من فرط الألم ..
لا بد من شاعر يرباب يعزف بالقوس على الرقاب .. »

وضحكت العجوز جل الخالق حتى صار فيها كفتحة الطلمبة
مفتوحا على الفراغ يصدر حشجة متواصلة ، ثم قالت : « كلكم
متعبون ان انت أو هو .. لسنا نفهم شيئا مما تقولون جميعكم
يا أبناء هذه الأيام ويبدوا اننا خلفنا أعداء لنا .. وهنا نهض مأمون
واقفا ، فهبطت ورامه .. قالت العجوز : « أذهب الى الفرح » قال
مأمون : « لا .. ذاهب الى الجناز » .. ضربت صدرها بيدها فى
خوف وذ هول « جناز .. تف من بذك .. يا ساتر يارب .. » قال
مأمون وقد غاضت السماء فى وجهه تماما : « يازوجة خال ..
أتذكرين .. بسيمة ؟ .. خالتي بسيمة ؟ بنت أخت زوجك .. »
صاحت كالماخوذة : « يوم .. قطعت ولا كانت .. مالها ؟ .. »
قال مأمون : « اليوم عادت .. ولكن جثة مقتولة ومعها .. »
صاحت بلهفة : « معها ماذا .. ثروة ؟ » قال بسيمة أسفة : « وجدوا
معها محتوياتها القديمة أتذكرين يازوجة خال ؟ تلك الأشياء التى
كنتم تتحدثون عنها ونحن صغار وتقولون كان معها خرج به كذا
وكذا وكذا .. العجيب يازوجة خال انها بعد الغياب هذه السنوات
كلها عادت لبلدتها بهذه الأشياء فقط ، كأنها كانت ثروتها الوحيدة
التي احتفظت بها فى بنك أمين .. »

شردت العجوز جل الخالق شرودا عظيما ، وصارت تبسم
وتحوّل وتردد ، أورادا وتعاويذا غامضة ، ثم قالت : « أين هي

اذن ؟ » • قال مأمون : « حملوا جثتها الى المشرحة ثم الثلجة » •
قالت العجوز بخجل سطحي : « كيف هذا ؟ » قال مأمون بخجل
عميق : « تصورى يازوجة خال .. لم يتقدم أحد من المتفرجين
وكانوا أمما ليقول انه صاحب اللحم .. حتى أنا يازوجة خال ..
حين أوشكت الفرصة ان تواتبنى فى الاقتراب من الشرطة للتحدث
باسم الفقيدة مندوبا عن أهلها كنت قد صغرت فى نظر نفسى فجأة
ووهنت قوى المعنوية تماما .. حيث كانت نظرات الواقفين جميعا
تسلفنى بلمعات السخرية والاشفاق والاستهزاء وما الى ذلك ..
وكننت أدرك ان بين هذه الأمم المتفرجة على الجثة لا بد واحد من
أهلنا له صلة قربي بخالتي بسيمة .. وحط على شعور بازدرأ
كان دفاعي الوحيد أمامه أن أتذكر لصاحبة الجثة وأدعى بأننى
لا أعرفها .. فانسحبت - تصورى - وعدت مع العائدين » •

وكانت العجوز جل الخالق تهتم بمقاطعته من حين لآخر تود
أن تقول شيئا هاما • فلما سكنت هجمت عليه وأسرت فى أذنه
بفجيج رهيب : « أوعى تجيب السيرة دى قدام جميل ولا حد من
زملائه .. اعسل معروف يا ابنى .. خالك الله يرحمها بقى ..
مفيش داعى نصحي الجروح القديمة يا ابنى .. اعمل معروف ..
احنا ماصدقنا الناس بطلت تجيب السيرة دى وطلعت أجيال جديدة
زيكم معندهاش فكرة عن الحوادث القديمة دى .. عشان خاطرى
يا ابنى سيب الطابق مستور .. اعمل كانك ما شوفتش
وما تعرفش .. كان بسيمة دى لا هى خالك ولا تعرفها .. انت
كنت شفتها ولا عرفت شكلها ولا هى كانت تعرفك ؟ .. اسمع
كلام جدتك العجوزة .. سيب الى يعرف يعرف وانت مالكش
دعوة .. ناس قليلين الى عرفوا .. شوية عجائز ما يجوبش كتر
الكلام حيسكتوا وتعدى الحكاية .. انما أنت لو فتحت السيرة
قدام حد حتفضحوا نفسكم من أول وجديد .. الناس حترجع تجيب
سيرتكم تانى وتحط راسكم فى الوحل وتعيشوا طول عمركم

مذلولين ومناخيركم في الأرض .. عشان خاطري يا ابني فضك
من السيرة دى واطلع جرى على الفرع ، . ثم قرصته قرصة صاح
متوجعا من ألها ..

ثم انه تأملها لبرهة غير وجيزة لكنه قال بعينيه أشياء كثيرة
ثم اعتقل ما في صدره وقال : « طيب .. اتمسى بالخير يا امرات
خال » . فردت صائحة : « على الفرع على طول يا ولد » . فhez رأسه
موافقا : « ماشى يا امرات خال » . ثم رفع البنك وخرج ، وخرجت
في أثره متجهين نحو الفرع »

باب الخدم

★ العطب لا يصيب البلور الفاسدة

١

قال « مامون » :

- « كان الحاج محمد عوضين النشترتاوى خال بسيمة يحمل هم
أبنائه البنات فى ظل وجود بسيمة ، وهم كرامته ، كشخص تخين
فقط وذى شارب ، فى ظل وجود أم بسيمة . ففى ظل وجود بسيمة
لن يتزوج من أبنائه أحد ، اذ أن سمعة بسيمة تشوش عليهم . وفى
ظل وجود أم بسيمة وهى امرأة شرقانة سوف تظل الألسن تلوك
سيرته فى الفاضية والمليانة .. »

« كان ذلك قبل الأربعينات بوقت قليل . والحاج محمد عوضين
فى الأصل برادعى . شغلته صنع البرادع للحمير ، وهى صنعة ورثها

عن أجداده ولذا فعائلته كلها تحمل لقب البرادعى وإن لم تمارس المهنة ، ولذا فهو أيضا صنايعى نظيف • يزور داره عليا القوم ممن لديهم الحمير الركوبة ، القادرين على تكليف بردعة منجدة بالقطيفة مثل كرسى الصالون تماما • وهو خير بأنواع الأقمشة والأحشية وأسعارها ولذا فيزور داره كذلك ناس من غير الموسرين ليصنع لهم برادع متوسطة القيمة لكنها جميلة رغم ذلك • وكان صاحب مزاج ، يهوى صحن حبات جوزة الطيب فى الهاون مخلوطة بالسكر ، ليسفها متلظا قبل شاي العصارى حيث يفرش الحصى أمام الدار ويكمل تنجيد بردعة ، مرتديا - امعانا فى المعلمة - كامل ثياب الخروج ، يبك الدم من وجهه المربع المكتنز المبتهج دوما ••

« الرجال الذين يزورونه من أجل برادعهم يأخذون معهم بعض أمزجتهم الخاصة لتحجته كى يوجد عملهم ، قطعة أفيون تخرج من جيب واحد يتم امتصاصها بالشاى فى القعدة ، وقطعة حشيش من جيب آخر يتم تدخينها على الجوزة • وبنات الرجل الثلاث يدخلن ويخرجن بالشاى ، ذلك أن الصبيان يساعدون أباهم فى نفس الجلسة • وكل الرجال شيوخا وشبابا كانوا ما أن يرون احدى بناته حتى يخرجون عن وقارهم مهما كان اتزان شخصياتهم ، فكلهم بنات ملونات مائسات القد كأنهن القشدة أو كوز العسل • وكان الحاج محمد عوضين النشترتاوى يجد لذة كبرى ومتعة فائقة حين يرى أن بنتا من بناته قد أوقعت هيبته رجل كبير أو أدارت رأس شاب • لكن الرجال جميعهم شيوخا وشبابا كانوا لا يتمالكون أنفسهم لدى رؤيتهم لحالتي بسيمة وهى تمرق داخلية أو خارجة ، مما يقبض قلب الحاج عوضين • وقد ظل شهورا طويلة ينتظر أن يطرق بابه خاطب لواحدة من بناته أو حتى لبسيمة ولكن دون جدوى ••

« فاصطاد جدى خليل ، وكان فى ذلك الوقت البعيد قد ترك شغلة الرباب بعد انتشار ما يسمى بماكينة الغناء ذات الاسطوانة

والنغير عند العمد والأعيان ، واشتغل غرابليا أى صانعا للغرابيل .
وواقع الأمر أنه كان يحمل اسم الصنعة فقط أما هو فقد كان منتميا
اليها بسبب واحد هو تسقط أخبار الحمير الميتة فى كل مكان حتى
يذهب اليها بسرعة ويسلخها ويدبفها ويوردها لأهل المهنة الذين
يقصونها فى خيوط رفيعة يصنعون منها الغرابيل الكبيرة . .

كلاهما - جدى خليل وجدى عوضين - يعيش على شرف
الحمير - أى أن القرابة بينهما أصيلة وواضحة ، فماذا لو دعمنا
هذه القرابة بعمل كبير يحفظها على الدوام ؟ . . هكذا قال جدى
عوضين لجدى خليل قبل ما يزيد عن أربعين عاما وكانا لحظتهما يشربان
معا سيجارة من البانجو فى مدخل دار جدى عوضين القديمة والقمر
طالع . فرد جدى خليل قائلا : « كيف ؟ » . قال جدى عوضين :
لديك عريس ولدى عروسة . . انت رجل غلبان وليس معك مهر
تدفعه لأى عائلة . . ولأننا أصحاب فقد رأيت أن أهديك عروسا
لابنك لا يحلم بمثلها . . انها بسمية ابنة أختى . . ونكون أنا وأنت
قد عملنا خيرا فى بنت يتيمة . . مامعك ادفعه واتكل على الله ، .
وكان جدى خليل يعرف أن دواعى النسب بينهما ليست مجرد
قرابتهم فى الحمير وانما هى سبب آخر تماما ، فالفلاحون فى القرية
لا يتزوجون من أبناء الغرباء وان استوطنوا القرية لأجيال ،
اذ مهما كان الواحد من الغرباء موسرا بصنعتة فهو ليس من البلدة
وليس معروف العائلة ثم هو معرض لمفادرة القرية ذات يوم ، فطالما
أنه ليس فلاحا يملك أرضا فى القرية فانه لا يبقى فيه فيها صنعة
ولا زوجة ، لا يبقى الإنسان مرتبطا بالأرض سوى الأرض نفسها
التي يرتبط بها ويملكها وتملكه كذلك لا يزوجون بناتهم لاجرى
مثل جدى خليل يعتبرونه - حتى ولو امتلك قصورا - شحاذا
بربابة . لكن جدى خليل لم يناقش هذا مع جدى عوضين ، بل لم
يضيع وقتا ، بالفعل اتكل على الله وبعد أيام قليلة جاء المأذون وعقد
جلسة ، ثم انتقلت خالتي بسمية الى دار جدى خليل زوجة لهريدى

الذى لم يكن وقتها سوى صبيا يصغرها بعامين وليس لديه خشونة الرجال . وقد ظهر لجدى بعد ذلك أن أحدا من العروسين لم يكن راغبا فى الآخر بل لم يكن راغبا فى البلدة كلها . اختفى الاثنان فى مولد ، حيث انفصل كل منهما عن الآخر فى الزحام ، فذهب كل فى طريق ..

« لم يحزن أحد فى الواقع لاختفاء بسيمة ، إنما الحزن كله كان على هريدى . وقد ظل جدى خليل يقاطع جدى عوضين ويعتبر أن الزيجة كانت تدير شؤم عليه أفقده ولده الوحيد . ولم يكن مقدرا للعلاقة بينهما أن تعود ثانية لولا أن المصائب تجمع دائما بين أبناء وبنى الأزرق ، ذلك أن زوجة جدى أم هريدى قد كتمت الحزن على هريدى فى قلبها فلم يمضى عام حتى ماتت ، فجاء جدى عوضين يعزيه ويحنو عليه شهورا طويلة حتى أحس جدى خليل أنه لم يعد يستغنى عن جدى عوضين . وفى ليلة كانا يسخنان حجرين من الحشيش فى دار جدى خليل ، فاذا بجدى عوضين يقول لجدى خليل : « تزوج يا خليل .. الزواج دواؤك .. أنت رجل مطرف وصحتك كالفرس » . جدى خليل ليس يضيع كثير وقت فى مثل هذه الأمور . ضربها حسبة فى دماغه فتيقن من وجاهة الاقتراح . فلما ألمح جدى عوضين الى نوع العروسة اللاتقة صار الاقتراح أكثر وجاهة بل صار مطلبا عاجلا .. وهكذا تزوج جدى خليل من جدتى معزوزة والدته خالتي بسيمة وحماة ابنه هريدى فى مطلع العام الواحد والأربعين بعد التسعمائة والألف . وكان جدى خليل قويا كالفرس ، فأنجب منها ابنته التى أسماها « وطنية » ، ويفسر ذلك قائلا أن البلاد يوم ولادتها كانت على مشارف الانفجار من الغليان وكانت الأحزاب والفرق قد انتشرت فى كل مكان ومن لم يتحزب يضيع دمه بين الأحزاب ، وبين قمصان زرق وخضر وحمرة وما الى ذلك من لعب العيال الذى تشكل فى ذلك الزمن فى فرق ضاعت البلاد بين نوازعها الشخصية الخاصة . وكان الكل يمضى الى عصبية عمياء تاكل فى بعضها البعض والعذر

المحتل يأكل فيهم جميعا بعد أن يكونوا قد طابوا وأصبح لحمهم مستساغا ..

« ويقول جدى خليل انه يوم ميلاد ابنته « وطنية » كان لظنتها لبعض المتحزبين الذين يدعون الى التخريب والتحريق : « يا عالم خلوا عندكم رحمة بالبلد شوية » . فقال أحدهم فى غلظة : « يعنى عندك وطنية قوى ياخى ؟ » . لظتذاك طب عليه خبر ولادة الطفلة فصاح قائلا كان حبل الحديث لا يزال متصلا بينه وبين الآخر : « نعم عندى وطنية .. خلاص ياولاد .. سموها وطنية .. أهى كلمة حلوه برضه .. الناس يقولولى روح يا أبو وطنية تعالى يا أبو وطنية .. »

« وطنية » هذه هى أمى ، التى خرطها خراط البنات فى سنوات قليلة ليجعل منها – كما يقول الجميع – صورة طبق الأصل من أختها بسيمة ، حتى ان جدتى معروزة كانت تنظر اليها طوال الليل وتبكي بلا سبب ، وفى النهاية قالت أن ربنا أعاد اليها بسيمة فى وطنية ، فكفت عن التفكير فيها ، وكفت كذلك عن الانجاب فلم تنفع معها بعد ذلك أى وصفة من الوصفات .

٢

وقال « مامون » :

– « يرجع مرجوعنا الى جدى عوضين ، حيث أوشكت بناته على البوار وهو مع ذلك لا يكف عن الانجاب والمقبرة لا تكف عن ابتلاع رؤوس متوالية . كان قد بقى لديه ولدان وثلاث بنات أكبر من عرايس . وكان أكثر أولاده معزة هو طاهر – والد صديقى جميل الذى نذهب الآن الى فرحه دون دعوة وربما كنا غير مرغوب فىنا – ومعزته كانت بسبب انه آخر العنقود حيث ولد فى العام الثامن والثلاثين ، وكانت بقايا قنابل الحرب العالمية الاولى قد استنفرت قنابل الحرب العالمية الثانية والجو مليء برائحة البارود ودخان الرعب والذعر ونكهة اللحم البشرى المحترق وقلة الخير .. »

« العادة في قرانا أن أعز الأولاد هو الذى يحظى بقسط من العلم ، يصرفون عليه فى المدارس ، وهكذا تشجع جدى عوضين والحق ابنه طاهر بالمدارس الأولية ثم الابتدائية ، ثم فاجأهم طه حسين بمجانية التعليم فانتشر اسمه فى شهادات الميلاد فى قرى بنى الأزرق وامتلات المدارس الابتدائية بالحفاة وأنصاف العراة والمقملين والمبرغتين ليحرزوا تفوقا غريبا فى الدراسة يتقدم بهم الى الثانوية ثم الجامعات . لكن عمى طاهر والد صديقى جميل كان تخين المخ الى حد كبير فلم يفلح فى الحصول على الابتدائية الا بشق الأنفس ، فألحقه أبوه بمعهد المعلمين العام فى احدى عواصم الديار المصرية المجاورة لنا تدعى « دحور » ، فمكث به عامين اثنين حصل فيهما على شرف كبير جدا هو عضويته فى أول بعثة تعليمية تخرج من القرية لتتعلم خارج البلاد ، الى جانب شرف الحصول على معلومات أكثر ومعاشرته لكثير من الأساتذة والمتعلمين ورؤيته للحياة والمدنية . كلف أباه باهظ النفقات وعاد الى القرية طافشا من المدينة التى اتضح له أنها يلزمها نهر فلوس ، ومن الدراسة التى اتضح له أنها يلزمها دماغ غير دماغه هو .. »

« لحظتذاك لم يستطع جدى عوضين كتمان الشعور بالحسرة . وكان لأول مرة فى حياته قد بدأ يتيه على أهل القرية زهوا وتفاخرا . ثم ان القرية كانت لأول مرة أيضا قد تنازلت عن معتقداتها القديمة تجاه الغرباء والحرفيين بل وتجاه كل شئ ، وبات أهلها ينظرون الى المتعلمين نظرة خاصة والى أهلهم نظرة احترام وتقدير ، وكان يسعده كما يسعد أهله منظر طاهر وهو يمشى بين صحابه المتعلمين مرتديا جلبابه الزفير المقلم ذى الياقة والأساور ويتناقش بعربية فصحي اذ أن المدارس تعلمهم اللغات الأجنبية وعلى رأسها العربية الفصحى ، بفضلها يصير الأولاد فصحاء وأذكاء واسعى الحيلة فى التفاهم والتخاطب ، ولكن يبدو أن اللغة العربية الفصحى تصيب من يتعلمها بداء الخطابة واستبدالها بأى فعل . لكن بفضل تلمذة طاهر اتسعت

دائرة علاقات الأسرة اتساعا جنيلًا حتى خيل لجدى عوضين أن الدنيا أوسع صدرا وأحلى مما كان يتصور ، وبدأ شبان كثيرون يحومون حول دارهم ويتقربون إليهم و « يتكلمون » على البنات ويقراؤن الفواتح . وهكذا أصبحت أسرتهن من علية القوم ، وكف أبوه عن شغل البرادع وافتتح دكان بقالة نظيف إلى حد يمتلئ بعشرات المئات من الأصناف ..

« ما يحدث في الدولة المصرية يتكرر عندنا في الحال ، إذ قامت عندنا الثورة الأزرقية التي تمثلت في أن يحكم الناس أنفسهم دون ملك ، وبعد دوامة طويلة في القرى من الترشيح والانتخابات ظهر أن الولد فلان بن فلان قد أصبح يجلس في مكتب يسمونه الاتحاد الاشتراكي ويساق إليه - حين يشاء - كبار القوم مخفورين بالمسكر وتهتز لخطوة الأبدان والأبواب ، وأثر ذلك قد يأمر من معه باقتحام الدكان وتوزيع ما فيه من بضائع بمعرفته .. وقس على هذا كثيرا مما حدث كتعبير عن الثورة الأزرقية الفراء المباركة ، ولكن يبقى لها الفضل في أنها غيرت الكثير جدا من مفاهيم بنى الأزرق وعدلت الكثير من علاقاتهم ومعتقداتهم .. »

« ذلك الزمان كان البداية الحقيقية الذهبية » لظاهر ، والد صديقي « جميل » .

« وكانت المقلقات قد تزايدت في نفس جدى عوضين لأن ابنه وكان اتصال طاهر بالمدينة قد ادخل في حياة الأسرة اختراعا جديدا من اختراعات الغرب اسمه جهاز الراديو ، يبت فيههم - من تلقائه - الأغنيات والاحتفالات بالثورة الأزرقية، والتمثيليات والمحطبات والنشرات وأم كلثوم .. هذا الجهاز الساحر كان بدوره مقلقا لجدى عوضين إذ هو لا يكف عن دلق الأخبار المتوقعة المهددة المنددة المتجددة باستمرار ، حتى خيل لجدى عوضين أن قد وقعنا في حرب مع الدنيا كلها حتى مع العرب ، حيث لا يكف الراديو عن شتمهم وتهزئهم بملوكهم ، وأنه قد يدفع ابنه ثمننا لهذه المهارات الثورية . ولو حدث

ذلك فان الدكان يغلّق أبوابه لأن طاهر لا يصلح للوقوف فيه
بائعا .

« وهكذا كان جدتي عوضين قد صلى الفجر في إحدى الليالي
متخلصا من هذه الأفكار بصعوبة ، وذهب كالعادة ليفتح الدكان
ويبخره ، ولأن الدكان لصق البيت والباب مجاور للباب فانه في
العادة يدخل البيت ليحضر المفاتيح ، فاذا به يدخل ويتمدد على
السريّر موصيا بالآل يصحّيه أحد . وحين طالت نومته اضطروا الى
إيقاظه لتناول الغداء فوجدوه ميتا . أه من تلك الأيام .
كانت جثة جدي عوضين وهي راقدة في النعش - كما
يقولون - تدفع النعش بحامله نحو قرية « الحصّة » المجاورة
ليزور عمه في العهد الشيخ رفعت الفرغاني صاحب الطريقة
الفرغانية . عبثا حاولوا عدل الجثة نحو مقابر البلدة . فذهبوا بها
راغبين الى مقر الشيخ الفرغاني ، الذي قرأ الفاتحة على رأسها وتمتم
ببعض التعاويذ ، ثم قال لهم احملوها ، فحملوها فامتثلت لأيديهم
ولكنها توقفت عند مقابر الفرغانية وصارت تترجرج وتهدد بالوقوع
حتى جاءهم أمر من الشيخ الفرغاني بدفنها في مقابرهم ، فدفنوها
في مقابر الفرغانية وعادوا يلهجون بذكر الحادث سنين طويلة بغيّة
اثبات طيبة جدي عوضين وكراماته . لكنهم وهم يقولون ذلك كانوا
هم أنفسهم في بعض الأحيان يسخرون قائلين ان الجنة كانت ذكية
اذ نجت بنفسها من مقابر الصدقة - حيث ان الأسرة لم يكن لها
مقابر وهذا دليل عدم أصالتها - الى مقابر الأولياء الصالحين ، أي
أنها جثة قد اغتربت هي الأخرى مثلما اغترب صاحبها ذات يوم ..

« .. ما أرجلها جدتي «مغروزة» هي أيضا مدربة على الاغتراب
مستعدة لمواجهة الحياة وحدها في أية لحظة . قامت بالدكان وحدها
بتببيع وتشترى وتذهب الى مدينة المركز لاستلام التموين وتبصم ،
وتجنيها عربات الجاز والدخان والكازوّة ، ولم تكن تجد غشاشة
في أن تقف إحدى بناتها لتبيع في الدكان وفي نفس الوقت تعرض

نفسها لمن يريد تأمل جمالها على مهل لعله يتزوجها . الا أن « طاهر » الذى كان مفقودا منه الأمل نشط وصارت له كلمة فى البلد . كانوا فى البداية يراقبونه فى سخرية وهو يتزعم ما أسموه بمنظمات الشباب ، ويمشى فى البلد بجدية يتكلم بطلاقة ويردد الشعارات التى يسميها فى الاتحاد الاشتراكي من المتكلمين باسم الثورة . فلما فوجئوا بأن طاهر وزملاءه قابلوا الزعيم الخالد ورأوا بأعينهم صورة طاهر يسلم عليه وضموه فى مصاف غنية القوم ، حتى ان أولاد الأعيان السابقين ومشايخ البلد والأغنياء الذين كانوا منذ زمن قليل يتأففون من طاهر وأمثاله من أبناء الأجرية أصبحوا يسلمون عليه فى احترام مشوب بالخوف ، بل انهم تلقوا توصيات من آبائهم وهم سياسيون قدامى وفديين وسعديين ودستوريين وما الى ذلك — بأن يتجنبوا طاهر ورفاقه الا بالحسنى والامتنال التام خوفا من أن يكتب فى أحدهم تقريرا يذهب به الى ما وراء الأفق غير المرئي ..

« طاهر » الذى كان ولدا لا تأخذ منه سوى الكلام الفارغ المنمق والفتنة ، أصبح نجما لامعا فى المنطقة المجاورة كلها . وقد استخدم قدرته على الكلام الفارغ ومحفوظاته من أشعار مجنون ليل والمتنبى ونثرات المنفلوطى فصار خطيبا مفوها . وأصبح « طاهر » بذلك اذا انفرد بجماعة من الشباب خلب ألبابهم وانتزع الهمم من حناجرهم . حتى الكهول من أهل القرى الذين عاشوا أجيالا طويلة لا يربطهم بالحكام والنواب والسياسيين سوى خطب فى اثر خطب من وراء خطب ، تكونت لديهم عادة التصفيق حتى وان لم يفهموا من الخطبة شيئا أى شئ ..

من خطبة هنا الى خطبة هناك أصبح مشيعا بالتصفيق والهمم أينما ذهب بأعوامه الثمانى عشر أو أزيد قليلا وقتذاك كان يبدو مبشرا بمستقبل باهر فى الأنظمة السياسية بل كان مؤهلا لأن يصبح رئيسا لأى شئ بدون انتخابات لولا أنه كان بلا محتوى سياسى وبلا مضمون وبلا تجربة انسانية وبلا رصيد ثقافى أصيل أو حتى

مستعار . كان فقط مليئا بالعقد والأحقاد تجسأ كل الموسرين
والناجين والأذكيا ، ثم انه كان هجاصا لا يتورع عن وضع رقبته
فى حبل المشنقة فى سبيل تعبير أحق يصفق له المتفرجون فى حق
أيضا ..

« فى كل يوم يسافر الى المحافظة ليعقد اجتماعات ويحضر
محاضرات ويلتقى بمستولين فى الحزب واللجنة المركزية . الشعب
الأزرقى شعب غريب ، انك مع ذلك ربما كنت معذورا أيها الشعب
الأزرقى ، اذ أنت تعلم أن السلطة هى كل شئ فى تاريخ هذه البلاد
وان من حصل عليها حصل على كل شئ ، وقديما كان ملوك أرضك
لا يتركونها الا مقتولين ، من يريد أن يصبح ملكا عليه أن يصحو
مبكرا قبل الملك الأصل حتى ولو كان أحد خدمه الموكلين بخدمته ،
هكذا دون محاكمة أو وجع دماغ ، وأنت تبارك كل ذلك ليس لأنك
بطبعك شرس مغرم بالظلم وحب الظالمين بل لاعتقادك الراسخ أن من
حصل على السلطة حصل على كل شئ وصار هو الأقوى بكل المقاييس
وانك صرت بالمقابل أعزل من كافة الأسلحة ، لأنه لا سلاح يجدى مع
التسلط القوى الا تسلط أقوى وأعتى ..

« المعروف أن خير سلاح فى مثل هذه الحالة المستعصية هو سلاح
المعرفة ، سلاح البحث والكشف عن اليقين فى الواقع اليومي ، أن
تبحث فى خطف طفل كل يوم ، أن تبحث فى تكاتف الثروات لدى
البعض دون مبرر منطقي معروف ، أن تبحث فى أخبار المختلسين ،
أن تبحث فى مظاهر الأبهة الزاحفة دوما على تجار المخدرات . على
أن الشعب الأزرقى لم يقدر لهم سلوك طرق مثل هذه الأبحاث منذ
قيام الثورة الأزرقية ، فدائما أبدا هناك قضية أساسية مطروحة على
موائد البحث السريع الحاسم من أجلها ننسى الغداء والعشاء والفقور
واللباس والايواء . ولهذا فان المناخ صالح دائما لأن يصبح أمثال
عمى طاهر ذاك من الزعماء والحكام ..

« لازلت أذكر حكاياهم عنه فى طفولتى . كيف كان يصحو من
النوم متأخرا والجماهير فى انتظاره فى المندره .. وكيف تقرب اليه

الأعيان فتزوجوا من اخوته البنات في خلال عام واحد ، حيث شهدت القرية ثلاث أفراح على مستوى العاصمة وليس المركز فحسب .
اذ شرف بالحضور رجال من نواب اللجان المركزية والتنفيذية وأميناء المراكز ورؤساء مجالس المدن والقرى .

« في غمضة عين أصبح عمي «طاهر» ذاك أمينا للاتحاد الاشتراكي عن البلدة . وكان بين أعيان البلدة كثيرا من المستنيرين وأبنائهم المتعلمين في رصانة وحسن ذوق ، يعملون في تجارة المحاصيل أو الأخشاب أو الأقمشة أو الأقطان أو يقرضون بالربا أو يشاركون في اقتناء الأبقار والماشية مع الفلاحين يستفيدون من لبنها ونسلها على الدوام . وكانوا جميعا في أعماقهم يحتقرون عمي طاهر ذاك . لكنهم مع ذلك - وبالله العجب - ساعدوه مساعدة جيزة في تصعيده من أمانة الشباب الى أمانة الاتحاد على مستوى القرية ثم على مستوى المركز . الأمر كما عرفت أنا باجتهادى الخاص لم يكن في حاجة الى العجب ، اذ أن هؤلاء الأعيان الأثرياء الذين ساعدوه بكل هذه الأموال والتهاتف والمعاودة ، لم يكونوا يفعلون ذلك عبثا ، بل هم على الواقع كانوا يصنعون لأنفسهم مطية يركبونها داخل عقر دار الحكومة الثورية الجديدة فما هو ذا أمين المركز من صنعهم ، بأموالهم وأصواتهم ووجودهم جلس على هذا المكتب ، لا لكي يمارس وضعه كأمين ينوب عن أهل الدائرة في مراقبة وصنع قرارات لصالحهم بل ليكون مجرد خادم لمصالح هؤلاء الذين صنعوه . وبالفعل حين اهتمت بالبحث في تاريخ عم طاهر السياسي وجدته مجرد خدمات استفاد بها الأعيان وحدهم ، اذ بفضلهم رفعوا أسعارا وأخفوا سلعا ووضعوا أيديهم على قطع أرض وأمكنة وبضائع وتموين وامتيازات ماكانوا يحملون بها . . . حتى أنهم فكروا جديا في ترشيحه لمجلس الأمة وامامه ليصرف من جنيته الى آلاف ، لكن ، تأتي الرياح دائمنا . . . بما لا يشتهي السفن . . . »

« فحيث كان قد أعد نفسه للترشيح بالفعل تصادف أن كان عبد الجبار في زيارة للبلدة . عبد الجبار هذا هو أحد أبناء بلدتنا هذه وأحد أساطيرها في نفس الوقت . أبوه وأعمامه لازالوا يعيشون في مساكن ملاصقة لبلدتنا أشبه بالمستعمرة يقيمون حول أنفسهم حالة من التقديس الكاذب . .

« لا أحد من جيلنا أو الأجيال السابقة علينا يذكر شيئا عنه . لكن أجيالا كبيرة تحكى عن ذكرياتها معه في المدرسة . هو الآن شيخ المهندسين وشيخ المقاولين وذو مناصب لا حصر لها . كان قد جاء الى البلدة في مناسبة كبيرة ليضع حجر الأساس في مبنى مركز ثقافي تبرع هو بإنشائه في البلدة على نفقته الخاصة . قبلها بيومين جاء الى عم طاهر واحد من الأعيان بليل وأمر في أذنه أن عبد الجبار قد أرسل رجاله فوضعوا أيديهم على قطعة أرض تصل الى عشرة أفدنة من أرض الحكومة في زمام البلدة وأنهم قد شرعوا في البناء عليها ، فهل ياترى كل هذه الأرض للمركز الثقافي ؟ . .

« لو ترك الأمر لعم طاهر لما توصل بذكائه الى أى شيء . لكن الواحد العين سرعان ما صار اثنين ثم ثلاثة ثم عشرة يجلسون مع عم طاهر تحت جنح المساء يتكلمون في حرقة وغيط منبهين الى أن ابن شقيقة عبد الجبار قد تخرج في كلية الزراعة وأن خاله عبد الجبار قرر أن يقدم له هدية النجاح مزرعة كبيرة حافلة ، وأن عبد الجبار قد وضع يده على قطعة الأرض بالمجان بحجة اقامة مركز ثقافي لا يحتاج لأكثر من فدان مثلا . ولم يكن عم طاهر قد تعود أن يراجع أحدا من الذين يرسلون له الهدايا سرا في لغائف مربوطة ومطاريف مغلقة . فلما أصبح الصباح ذهب ليتحرى فعرف أن الأمر صحيح مائة في المائة ، وفي اللحظة التي هم فيها بأن يامر شباب المنظمة بالتوجه الى قطعة الأرض المذكورة وايقاف البنائين فوجيء بأن الشباب يمتدحون له الفكرة بحماس كبير قائلين أن هذه المزرعة تعد مشروعا آخر فوق مشروع المركز الثقافي وأنها ستصبح مصدر إشعاع في

المنطقة تورد الطيور والدواجن والزهور والعسل وكل شيء ، انها ستصنع روجا في الناحية وتقوم بتشغيل الموظفين والعمال . كاد يجاريهم ويقتنع هو الآخر لولا أنه تذكر أولياء نعمته هو وكيف يكون موقفه أمامهم . . انه يعرف أن فريق الحكومة لابد أن يغلب ، لكنه يعرف أيضا أن فريق الأغنياء في بلادنا يكون الأغلب ولو على المدى الطويل ، انهم يستطيعون تغذية أى قوة ضد من لا يعجبهم ، ثم وطن النفس على فعل ما يستطيع فعله حماية لعلاقته بالأغنياء . .

» كان يوما مشهودا . جاء عبد الجبار تحفه مواكب الحراس والمرافقين والمسئولين على مستوى المحافظة . وأجريت مراسيم الاستقبال في أمانة الاتحاد بالبلدة وسط جمع غفير . وأوشك عبد الجبار أن يتقدم ليقص الشريط ويضع الحجر الذي نقشوا عليه اسمه وتاريخه وأفضاله ، لولا أن تمكن عم طاهر من هزيمة تردده وطلب الكلمة للاستفسار عن شيء فلما أعطيت له اذا به يحولها الى خطبة عصماء حافلة بالعبارات الرنانة الكبيرة ضد الظلم والتسلط والاستيلاء على أراضي الحكومة ، ثم ختمها بأن المركز الثقافي لا يتطلب أكثر من فدان أو فدانين على الأكثر فهل ياترى تدفع الحكومة ثمن مقر لمزرعة أحد المواطنين ؟ ان أرض الحكومة هي في الواقع ملك للاتحاد الاشتراكي وهو لا يفرط فيها الا لأغراض قومية وطنية . . الخ الخ . .

» وارتفع دوى التصفيق بشكل أرضاء وأثلج صدره تماما ، لكنه لمح في عين عبد الجبار نظرة حقد مسموم لبرهة عابرة فلم يعبأ بها . وتقدم عبد الجبار فشرح للجماهير كيف أنه أسف لاضطراره سحب فعل خير أراد أن يفعله . فقد كان ينوى إقامة مزرعة على نفقته الخاصة تكون مصدر رواج للمنطقة وخير لأهل البلدة . . وقال ان سيادة الأمين مادام قد اعترض فانه سينزل عند رغبته ويسحب المشروع . وهنا ارتفع نفس التصفيق ونفس الهياج مطالبا ببقاء المشروع هاتفا له . . فحينئذ تقدم عبد الجبار وخطب فيهم من جديد

قائلا انه نزولا على رغبتهم وهم أهله الأعزاء قرر الاستمرار فى دعم المشروع . ثم انهم وسعوا له فتقدم وقص الشريط ووضع الحجر فيما اخذ عم طاهر يفعل خطبة أخرى يعلن فيها سعادته بالامتثال لرأى الجماعة تمشيا مع الروح الاشتراكية الديمقراطية !! ..

« الطريف أن المزرعة أقيمت أما المركز الثقافى فلم يرد له ذكر بعد ذلك . لكن الأولاد كانوا يتندرون كلما مروا بمزرعة عبد الجبار فيشيرون اليها قائلين : المركز الثقافى . وواقع الأمر أن المركز الثقافى لفرط حب البلدة له ولاسه أطلقوا اسمه على منطقة المزرعة وظلوا يتمسكون به حتى الآن رغم أن المركز لم يقم بتاتا ..

« وفيما كانت جدران المركز ترتفع بسرعة كان عم « طاهر » قد سافر الى المحافظة ليعرف الأخبار حول اسمه المرشح للبرلمان فاذا به يفاجأ بمصيبة ، انه مطلوب لمقابلة مسئول كبير خطير فى المحافظة . فذهب لمقابلته يتعثر فى شكوكه ، فاذا بالمسئول الكبير يلقاه على غير العادة بوجه متجهم وعلى غير العادة أيضا يأمره بالجلوس ، ثم يأخذ فى استجوابه بعد مقدمة طويلة رهيبة عن الشخصية السياسية وسمعتها وما الى ذلك ، أبدا لم يكن عم طاهر يتوقع أن تجيئه هذه الضربة القاصمة من هذه النافذة التى كانت حتى وقتذاك مجهولة له تماما ، أو كانت بمعنى أصح غائبة عن وعيه . ذلك أن المسئول الكبير راح يستجوبه برهبة حول علاقته بابنة عمته بسيمة ؟ .. ابنة عمته بسيمة ؟ كيف .. من بحق الشيطان أيقظها من رقدتها فى جب النسيان العميق ؟ .. من يا ترى يكون قد رفع فى وجهه هذا المطن ؟ .. انه لا يكاد يذكر شكلها ، انه لم يرها أصلا ، لقد هربت قبل أن يعي الدنيا ، ثم أنه ليس مسئولها عنها ، انها بالنسبة له مجرد قصة حكاها الناس من حوله فاستوثق من صحتها من أبيه بعد ضنى شديد ، ثم نسأها ، وليس له أى علاقة بها ..

« عم « طاهر » أفرغ كل هذه الحواطر على مكتب المسئول الذى يعود أكثر بردوا فيقول له ماهى علاقتك بشغلها ، انها تعمل راقصة

في شارع العوالم في إحدى العواصم الأزرقية الكبيرة ، وفي الأفراح ، ولكنهما في نفس الوقت تعمل بالتهريب ، تهريب المخدرات وبعض الممنوعات الأخرى ، الحق ياطاهر أن وراءها أقاويل كثيرة ووقائع ثابتة وقد جاءتنا أوامر بالتحقيق مع كل أفراد عائلتها ، ولدى في الواقع أمر ب ٠٠ ب ٠٠ . وهنا عرف عم طاهر أنه قد تم عزله سياسيا ، وخشى أن يتطاول الشرر الى بعيد ، أن تفرض عليه الحراسة مدفوعة بأحد من سببين : ابنة عمته البغي المهربة وعمله كأمين للاتحاد الاشتراكي في دائرة صغيرة فكون ثروة كبيرة في أعوام قليلة . لكن المسئول رفع له قلبه الى موضعه حين طمأنه أن الأمر لا يتجاوز حدود العزل فحسب . . نطقها المسئول الكبير دون أن يسأل هو بشكل مباشر اذ أنه بخبرته في الثراء من خلال المنصب أدرك هموم عم طاهر ومشاغله المباشرة . .

« وهكذا انزوى عم طاهر الى ركن بعيد من الحياة واستهينت النسب والثراء المتزايد . فركز جهوده مستخدما علاقاته القديمة في التسهيل مقابل المنفعة المجزية ، فكان بذلك أول المنتقلين الى البناء في هذه القرية الإسمنتية الجديدة ببناء على الطراز الأجنبي محاطا بعديقة عجفاء . وكان قد تزوج ابنة أحد الأعيان السابقين ، فعلمته كيفية الحياة المدنية الرقيقة وأنجبت له في العام الثامن والخمسين بنتا ، ثم بنتا ثم ابنا هو صديقي جميل ، ثم بنتا ثالثة كانها صفة ورثها عن أبيه . .

« كأنما الظروف كانت تلعب لحساب عم طاهر من وجهه اذ قلبت له ظهر المجن من وجه آخر . . اذ ما كاد ينسى حلاوة الأضواء والتصفيق والتهنئة والسير بين الناس كمشروع زعيم من زعماء المستقبل ، اذا بأخيه عم صادق يموت في حرب السادس والخمسين وقد حزن الجميع على عم « صادق » الطيب الوديع الا عم « طاهر » فقد شغل في الجميع محذرا من الحزن على موت الشهيد ، وكان بصفق مع فايده كامل في نشوة بالغة مغنيا : عاد السلام يأنيل ياشعب حر أصيل . وحقيقة الأمر انه كان سعيدا اذ خلصه الله من مشارك له في الميراث . .

« لك أن تعجب حين تعرف أن بنات عم طاهر الثلاث وأخوهم جميل لم يكونوا يعرفون عن أمر عمهم « صادق » إلا النذر اليسير ، كان مجرد اسم يتردد فى بعض المناسبات » ..

« اتسعت تجارة عم طاهر فلم تلتفت اليه قوانين المصادرة أو التأمين ذلك أنها اتسعت فى الزمن الملائم حين زحف عقد السبعينيات مقتديا بالتقدم المصرى الهائل مهلا الحرية رأس المال والامتلاك ، يZF المللك والسماسة بموكب بهيج كأنهم الأبطال الفاتحون . وبعد أن كنا نعانى ضائقة مالية بسبب النكسة وتدبر أمورنا كيفما اتفق ، اذا بالأموال تخرج فجأة من تحت البلاط وترفع قامتها تريد أن تشم الهواء هى الأخرى بعد طول تكدس تحت العفن ..

« هكذا كانوا يقولون تعليقاً على أموال عم طاهر التى اكتشفت فجأة وتمثلت فى أراضى زراعية يشتريها ، وجارات وعربات أجرة ومحارث ومكن مياه . لكنهم - اسألنى عنهم - لا يصنون مايقولون أبداً ، انهم حين يقولون لعم طاهر : « طلع الى تحت البلاطة » ، فانما يقولونها بلهجة ذات معنى كأن عبارة « تحت البلاطة » هذه مجرد رمز للمصدر الذى جاءت منه الثروة أيا كان وضعه ، انهم لا يريدون أن يقولوا له أنت لص أو سفاح أو مكتنز ، بل يخلقون بديلاً لهذا المعنى فيقولون له أنت شاطر أنت جدع انت ناجح .. غير أن عقداً شفوياً مجهولاً تم توقيعه بينه - كأي ناجح من هذا النوع - وبينهم ، يقضى بأن يكون كل منا مقتنعا بزيف ما يقال ، يكون هو مقتنعا بأنه ابن .. قواد وأنهم منافقون جيئون لا خطر منهم ..

« لديه كما تعلمون ثلاث بنات يقلن للقمر : قم لنجلس مطر ح والعبج أنهم كن يعبرن بقرب الشبه بينهن وبين خالتي بسيمه ، ولكن سبب الغيرة كان هو نفسه سبب الفتنة . ثلاث أقمار فوق ثلاث أبدان منحوتة من القشدة تكاد الأعضاء البارزة تندلق أو تنثال على بعضها ثم تعود تفتنصل وتستقل استقلالاً فريداً ، حتى صفراهن ابنة الثانية عشرة من عمرها كانت تلهب فوق الشباب رجالاً فى

الخمسين . وبقدر ما كان يضرب بجمالهن المثل في البلدة كانت أحزان صديقي جميل ونحن في المدرسة الابتدائية اذ ينطوى هو على نفسه انطواء شديدا ، وكنت أضيطة متلبسا بالنظر اليهن تارة في حقد وفي انبهار تارة أخرى ، فلما يراني قد رأيته يكتسى وجهه بالدم ويزفر في هم مقيم ، فأقول له : مالك . . فلا يرد . . لكنني كنت أعرف سر أزمته ، انه يحبهن بشدة ويفار عليهن بشدة ، وينفر من الصداقات مهما كانت نوايا الأصدقاء تجاهه طيبة ، ظنا منه أنهم جميعا يصاحبونه من أجل البصبة لاختوته البنات ، وكان يريد أن يجنبهن فرصة أن يلوك سيرتهن أحد ، مع أنه كان من بين من يودون مصاحبتة أولاد أنقياء شرفاء قد لا يعرفون اختوته ، وكان يصدهم عنه في خجل وحياء وأدب . .

« أراحه أبوه من هذه الأزمة . وكان الأب - عم طاهر - قد توصل الى اقتناع تام بفسولة المتعلمين والجامعيين بل وفكرة التعليم من أساسها ، فماذا سيفعل الولد بالتعليم ؟ انه لن يوافق على توظيفه في الحكومة بسبعة عشر جنيها في الشهر ، هل يعلمه ليصبح شحاذا مرتشيا يعيش في الحضيض ؟ لا ، ان أعماله هو تحتاج اليه ، ومعظم أعماله آلات كهربائية ، وهو قد مال الى المتاجرة في الآلات الكهربائية الزراعية منها خاصة ، فليكن ابنه جميل مديرا لكل شركاته ، اذن فليدخل مدرسة الصنایع قسم كهرباء ليدرس الكهرباء دراسة تنفعه في ادارة شغله . . وبهذا لم يختلط جميل بأوساط طلابية عريضة أى أنه لم ير المجتمع الأزرقى على حقيقته . ثم ان عم طاهر قد تصيد تاجرا سعوديا كبيرا في الخمسين من عمره لديه أموال طائلة ، ما أن رأى البنات حتى تربح في جلسته وصار يفدق من العطايا والهدايا ما يفوق التصور ، وعم طاهر يبلغ بقوة الأرض الشراقي . . فلما سافر السعودى أرسل كل هذه الجرات هدية باسم احدى البنات - التى قدمت الطعام لهم - ثم تفاقم الشوق وتفاقم الاتفاق فحضر العجوز يطلب يد الفتاة بأى ثمن . . فطلب عم طاهر شركة باسمها وعمارة في المدينة وأرصدة في البنوك ووصايا

ففعل المعجوز كل ذلك دون مقاومة ثم أخذ الفتاة وحولها الى أميرة فاجرة عاهرة في الخفاء وربما العلن . وبفضل « سوسن » تعرفت اختها « ايفا » - شف الاسماء العجيبة - على أمير كويتى فتزوجته رغم عدم بلوغها السن القانونية ..

« بذلك أصبح عم طاهر يمتلك هذه القطعة كلها من أرض البناء التى كون بشأنها شركة بناء قامت بالتقسيم والبناء وادخال المرافق ، ولا تزال تمارس البيع والبناء فى أرض كانت للأسف من أجود الأحواض الزراعية وأخصبها فى البلدة كلها . وتحول عم طاهر الى امبراطور يخدمه عشرات الخدم ويتزلف اليه عشرات المئات من الموظفين الغلبة طالبى الشقق أو الحاجات . مع ذلك لم يبلغ دكان البقالة . بل تركه ليكون على الأقل مجرد مستودع لاحتياجات أسرته من المواد الغذائية ، فأحاله كما رأيت الى « سوپر ماركت » يدوس فيه الدهماء ويخرجون كما دخلوا فى غباء يستبشع أسعار الأشياء قبل أن يكتشف غرابتها ..

« غير أن العطب كان قد أصاب صديقى جميل فجأة وفور تخرجه من مدرسة الصنائع . هذا ليس تعبيرى ، انما هو تعبير أبية نفسه الذى صار يقوله فى حسرة ، انه ابنه الوحيد ، وأرث كل هذه الثروات ، يقاطعه ويعتبره كافرا ، ويزهد فى كل شيء ، ولا يستخدم من مقتنيات أبية أى شيء ، شاب يفعل هذا لابد أن يكون أصابه العطب ..

« وكان عم « طاهر » يسعى الى الانفراد بى فى ذلك الوقت على غير العادة وهو الذى كان اذا اضطر الى العطف على بهدية صغيرة يبعثها مع جميل أو مع جدتى معزوزة الى دارنا ، وكان يتحاشى الانفراد بى فلما منه أننى قد أطلب مساعدة - ألسنت يتيما وابن شهيد . فلما سعى هو الى الانفراد بى ما طلته وأعطيته ميعادا ثم ذهبت متأخرا . وحين دخلت عليه جلست دون استئذان ثم وضعت ساقا على ساق كائننى رجل ينادده . فراح يسألنى عن أحوالى

ومستقبل وأوضاعى المادية وما الى ذلك ، فأفهمته بلهجة مقتضبة ان كل الامور بالنسبة لى على خير ما يرام ، وليس من أى عائق يعوقنى فى الحياة سوى اضطهاد « بعض الجهات » لى ولكننى لا أعبأ بها ، وضغطت على عبارة « بعض الجهات » هذه كما كنت أسمعها دائما من بعض السياسيين الكبار ، لكى تصورنى فى نظره رجلا ذا رأى وعلى قدر من المسئولية ..

« كنت أعرف أنه كان يتمنى فى أعماقه لو ان ابنه جميل كان أعلى مستوى فى التفكير من مستواى ، وأنضج علميا ، بل كان يتمنى فوق ما يتمنى الا أكون أنا وأمثالى من حثالة القوم والمجتمع أصدقاء لابنه جميل . كان دائما يقرب ابنه « جميل » من أبناء ذوات القرن العشرين ، الملاك المسافرين دوما الى أوروبا للتفاوض على توكيلات ينهبون من خلالها دماء الشعب الازرقى . كما كان يثير قرفة من أشكالتنا ومصاحبتنا اذ نحن من أمثالى عيال فاقردين ليس وراءنا شىء نخاف عليه أما هو فوراؤه ممتلكات ومملكة بحالها تنتظره . .

« يحكى لنا جميل ما كان يدور بينه وبين أبيه من مناقشات حادة حول مطالب يفرضها عليه ولا تجد استجابة فى نفس جميل ، فحتى التوصيل بالسيارة الى المدرسة رفضه جميل فى أول الأمر درءا لسخرية الأولاد من أبيه البقال البرادعى الذى أصبح يصل الى المدرسة بسيارة .. ثم بعد ذلك جاءه الاقتناع الكامل بتكفير كل هذه الوسائل ومن ثم تحرير استخدامها ..

« أبوه لا يزال يتصور أن « جميل » فيه بعض الأمل ، وان الأمر كله يرجع الى ان « الولد » قد تربى تربية دينية - شوف الفجر - محافظة ، انه من نسل طيب ، أليس جده هو الحاج عوضين النشترتاوى البرادعى الذى اقتاد مشيمى جنته الى حيث أراد أن يدفن بجوار أعمامه الأولياء ؟ .. وكان الأب يتساءل من توتر أمام مبالغة

جميل فى اظهار التدين : آكان جرما ان ظلمت أحدك عن جسدك
البرادعى باعتباره أحد الأولياء ؟ اتراك تأثرت بكلامى عن جسدك
باعتباره وليا صالحا فازمعت توصيل الجبل بينك وبينه من جديد
لتصبح بدورك عما وحولك المريدون يأخذون العهد على يديك ؟
ام تراك تأثرت بذلك الشيخ الذى كان مسجينا باعتباره من الاخوان
المسلمين وأفرج عنه ليخطب فى المساجد مجرضا الجميع على كل
شئ يمت الى الثورة المدنية بصلة ثم جمع حوله رهطا من الشبان
الصغار وأنت منهم ؟ هل يأمرك الدين بأن تعصى والديك وتمتثل
لأمر رجل آخر كانه الله ؟ ..

« لكن جميل لم يكن يعبا بهذه الثورة أبدا . يقول كان يقابلها
بكل برود وتأكد للآب ان ابنه ليس فحسب عضوا فى إحدى
الجماعات الدينية بل هو ربما يكون قطبا صغيرا ..

« يعتقد اعتقادا راسخا اننى أصل البلاء فى العطب الذى أصاب
ابنه الذى لم يكن « له فى السياسة » أو فى مثل هذه المسائل .
واننى قد جرأته على ذلك وفتحت عينيه على كتب وروايات وطرق
مسدودة لا تؤكل عيشا أو تبني مستقبلا . كان دائما يقول ذلك
لجميل الذى ينقله الى ليستثيرنى فأبتعد عنه ، ويقول ان أباه لم
يعد يقتنع أن السياسة - ولو كانت صحيحة - هى الطريق
الصحيح الى أعلى المناصب فى بلد لا تعرف القراءة والكتابة ، انما
الطريق الوحيد الى السلطة هو التجارة ورأس المال ، ان رأس المال
يصنع لنفسه الحكومة التى تعجبه ، ان طاقم الحكومات فى السنوات
المقبلة سيكون من قلب التجار وأصحاب الشركات وخبراء
الاستشارات والمهربين ..

« المدهش أن « جميل » انشق على فجأة ونبذنى خوفا منى اذ
أصبح يعتقد اننى الشيطان مجسدا فى بشر ، ثم نبذ الجميع بما
فيهم أهله .

« يوم ذهبت الى عم طاهر حسب طلبه أراد أن يدخل في الموضوع ليعرف منى تقريراً غير مباشر عن أسرار جميل الخفية . فبدأنا بالحديث عن السياسة وأراد أن يوهمني بأنه متفق معى فى الأفكار الثورية » المتطرفة فقال دون مناسبة أنه شرع يكتب مذكراته ليظهر مدى الظلم الذى وقع عليه فى عهد الزعيم الخالد . فشخرت فى سرى شجرة ارتفع صوتها رغماً عنى غير اننى حولتها الى تسليك أنف ، وبصقت فى منديل بثقة وثبات . ثم اننى تجاهلت حديثه ذاك تماماً ، وقلت له اننى لست أعرف أى شىء عن جميل منذ تحاشى لقائى عن عمد ، منذ أن انذرني بالقطيعة فى رسالة ان لم أغير من كافة أفكارى وأعود الى « حظيرة الله طائعا مختاراً عبداً ذليلاً رافضاً لكل شىء انجبتة المدنية طوال تاريخها وأشياء أخرى غريبة . وقلت له أيضاً اننى لست عضواً بأى جماعة أو تنظيم أو حتى نقابة أو اتحاد . فاعتدل ساخراً قائلاً : فماذا أنت اذن ؟ فقلت ساخراً أيضاً اننى أنا أنا ولا شىء غير ذلك ..

« الليلة لا بد أن تكون أسوأ ليلة فى تاريخ حياة عم طاهر . اذ أن ابنه الوحيد جميل قد توج اعتاقه منه بالزواج ، من عروس لم يذهب أبوه لخطبتها بل لم يقبل أهلها ذلك ، عروس أنا لم أرها ولم تكن من جيلنا ولكنهم يقولون انها تشاركه نفس الاحساس ونفس المعتقدات ونفس الجماعة . ها هى ذى جدتى « معزوزة » تقول انه نائم فى البيت مريض ، وانه كان طوال الليل يهذى فليبهذى كيف يشاء ويمرض كيف يشاء فان جميلاً لن يعود اليه بعد الآن ..

٣

توقف مأمون عن الحديث . وكنا قد ودعنا مساكن القرية الأسمنتية ومضينا نحو غابة جميلة بحق مهيبة بحق ، شكلها ممتد فى رحابة ، والقصر ينتصب فى وسطها بسقف جملون على الطريقة

الأجنبية ، وثمة خفراء حوله يتجولون . ورغم ان الزمن الذي نعيشه هو نهاية القرن العشرين الميلادي الا أن منظر القصر كان ينقلنى الى أقدم العصور أمام قصر كاردينال أوربى ..

كل الخفراء الذين قابلناهم فى الطريق قالوا لنا فى ود : « أهلا سى مأمون اتفضل » ، وقال لهم مأمون فى أخويه : « عشت عشت » . ثم انه توقف بنا عند الباب الرئيسى . لا يوجد ما ينبىء عن وجود فرح . صفق مأمون بيديه وقال : « يالى هنا » .. احق بنا خفير يمشى فى سرعة قائلا : « سا الخير يا سى مأمون .. دا الفرح من الباب الثانى .. الى بيسموه باب الخدم .. الأستاذ جميل حلف مالوش دعوه بالابهة بتاع الجناح ده خالص .. ومانع أى طبل أو زمر أو كلام من ده .. أمه يا عينى وأخواته كلهم كاتمين الفرحة فى أنفسهم وكاتمين الحيرة برضه .. أصله ما عبرش أبوه خالص وقال اذا كان عاوز يحضر أهلا وسهلا مش عايز هو حر .. أبوه كمان حلف ما هو رايح ، واهو نايم فرق ومعاه الدكتور .. كل شويه أم الأستاذ جميل تتسحب من جنب الراجل وتنزل تبص على الفرح وتقدم للناس الشربات فى السر ..

فساله مأمون : « جميل موجود ؟ » ..

قال الخفير : الأستاذ فى صلاة العشاء .. أصلهم بيقعدوا يصلوا العشا ساعتين ثلاثة ..

قال مأمون : « عجائب .. حتى يوم فرحه .. داعريس الليلة .. »

قال الخفير : « ما هو حيطلع من صلاة العشا هو وزملاؤه ييجوا على هنا يكتبوا الكتاب ويقوم واخدها وداخل على شقته الى بناها فوق الجراج دى .. الفقائرى خالص دى .. »

نظر مأمون الى الشقة وقال : « لا فقارى ولا حاجة » .
 وكانت الشقة مبنية وحدها فوق الجراج الملاصق للقصر كأنها برج
 أو معبد صغير جميل أنيق . وقال الخفير : « الاستاذ جميل بعث
 لك دعوه ؟ » . قال مأمون وقد نشف ريقه : « لا والله بس أنا
 يعنى مش عايز دعوه » . قال الخفير بهرج كبير : « ما أظنشر
 ياسى مأمون .. أنا بس عامل عليك انت .. أنا سمعته بودنى
 بيقول : الى أنا دعيت بلسانى هو الى يحضر » قال مأمون : « على
 كل حال أنا فاهم جميل وبأخذه على قد عقله » ثم بدت عليه الحيرة .
 نظر فى ساعته ، ثم فى الخفير قائلا : « على كل حال أروح أصلى
 العشا هناك معاهم لحد ما ييجوا » . قال الخفير : « وماله » .
 قال مأمون : « أمال مين الى جوه ؟ » . قال الخفير : « شوية نسوان
 من العيلتين » . قال مأمون : « والعروسة ؟ » . قال الخفير :
 « مستخينة » . قال مأمون : « على خيرة الله » ..

ثم مضى بى على شاطئ قناة صغيرة خلف القصر ، فاذا بأنوار
 مبهرة تنكشف على البعد فوق مئذنة أنيقة كمسلة فرعونية . واذا
 بنا بعد مسيرة قصيرة أمام مسجد جديد لامع باهظ التكليف
 حقا . كان محتويا من الداخل على بضع عشرات من المصلين يتركون
 وشخص يبدو أنه الامام يتركع وحده فى الامام . ثم اذا برجل
 يقف ويقيم الصلاة بالصيغة المعتادة الغنائية ، على أثره وقف
 الجميع واصطفوا فى عدة صفوف ثم نوى الامام وكبر فرفعوا أيديهم
 بجوار أذانهم وكبروا وراه ثم شرعوا فى الصلاة ..

دخل مأمون يجرى فتوضأ بسرعة وجاء يجرى أيضا لاحقا
 بالصفوف وهى تشرع فى السجود صائحا : ان الله مع الصابرين ،
 فتانى الامام فى سجدته فتانوا بالتالى حتى تمكن مأمون من أن
 ينوى الصلاة ويسجد معهم . اما أنا فلم اجرؤ على الدخول لسبب
 تلقائى بل أقعيت على باب المسجد أتأمل أجمل وأروع مشهد
 يمكن أن تراه فى حياتك ، مشهد الصلاة الجماعية وما تضيفه على
 الأفتدة من خشوع حقيقى ..

على اننى فوجئت بشيان ملتحن يدخلون فى اثر بعضهم دون
ان يبدو عليهم اللهوجة ، بل انهم يتركون الصلاة والمصلين ويتركون
فرادى فى أماكن بعيدة مزورة عن الصفوف ، ثم انهم يسلمون على
بعضهم بعضا كلما تلاقوا فى الطريق . كان يبدو أن ثمة رابطة
خفية تجمع بينهم وتربط عرى المودة فيهم ، فظلت عينى تلاحقهم
وأنا أحاول التكهّن بشخصية جميل بينهم فلم أستطع لانهم كانوا
جميعا على نسق واحد بنفس اللحية ونفس الملامح التى تحس ان
صاحبها قهرها بنفسه لتكون خاشعة هكذا ، ونفس الخطوط ونفس
التمتة .. حتى اذا ما انتهى الامام من الصلاة وسلم ذات اليمين
وذات الشمال شرع أهل الصفوف الخلفية يختمون الصلاة فرادى ،
ثم انهم صاروا ينصرفون واحدا وراء الآخر ، وكان الامام آخر
المنصرفين . وخرج مأمون هو الآخر بعد الصلاة وليس حذاء واعتلى
صدغ الباب الرخامى المؤهل للجلوس ، وراح يتابع معى من بقوا
فى المسجد .. فاذا بهم ينهون تركعهم الفردى ويقبلون نحو بعضهم
فيتصافحون فى التحام ودود هادئ . واذا بشاب تبارك الخلاق
فيما خلق ، يتهادى بخطوه الرزين ووجهه الأبيض المشوب بحمرة
يصنع من لحيته الطويلة السوداء هيبة ورهبة كأنه وجه الحسين بن
على كما تتخيله ريشة الرسام فى الرسم الايرانى الشائع . تطرت
فى ملامحه ولامح مأمون واستحضرت ملامح كل من الجدة معزوزة
والجدة الثانية فاكتشفت رتوشا واضحة جدا فى ملامحهم جميعا وكلها
تذكرنى بدم بسيمه ولامحها فعرفت ان هذا هو جميل وان هؤلاء هم
رفاقه ، لكننى لم أعرف لماذا هم قاطعوا صلاة الجماعة وأدوا الصلاة
وحدهم كأنهم قوم آخرون ذوو دين مختلف وعقيدة مختلفة . على أن
مأمون قال لى انهم يفعلون ذلك باعتبار انهم هم الجماعة الأصلية ومن
عدهم خارجون مارقون . فبين صفوف المصلين من هو متعلم أو
موظف فى الجمعية أو تاجر أو شيخ من حملة العالمية ، وفيهم
تومرجيه وسائقوا جرارات وكلهم مستثيرون الى حد التعامل مع
أدوات المدينة الغربية التى أنتجها الكفار ، وكلهم تبعوا لذلك

يراعون حق الله فى العبادة بالشكل الذى يرضى الله ومن الصعب الحكم بأنهم قوم كافرون .. ألا ما أغرب ما يدور فى عقول الشباب، انه الفراغ والجهل وسوء التربية ، ليس منهم بالطبع ، بل من آبائهم الذين بعثرت الثورة الأزرقية مابقى فى نفوسهم من كيانات انسانية زعزعها الاستعمار على مدى التاريخ .

ثم ان مأمون .. قطع حديثه وقد شعر بما يشبه الغثيان وأشار الى بالانصراف ثم دلقى نفسه على الأرض بملل ، ومضى بى خلف المسجد الجامع لنرى فى ضوء القمر القرية الأسمنتية رؤية شاملة فإذا هى مدينة آخذة بدورها فى التضخم . أشار اليها « مأمون » قائلا : « غدا تصبح هذه المدينة متحفا يضم ناسا لا هم بالرجال ولا هم بالنساء ، لا هم بالازارقة ولا بالأجانب ، بل نفوس بزميطة ومجتمع متنافر لا ينتج شيئا لهذه الأرض .. غدا يصبح الوادى الأخضر أرضا مسفلته يشتريها من يكون قادرا على طرد سكانها منها الى حيث لا مكان » ..

وكنت أظن اننا سنودع القرية ، لكننى وجدت « مأمون » قد لف بنا حولها عدة مرات ، ثم اتخذ طريقه الى القصر من جديد وقد صمم على أن يؤدى واجبه نحو صديقه مهما كانت الاسباب ، فإذا كان الطرف الآخر يرفضه فانه هو شخصيا لا يصح ان يقصر فى واجبه نحوه ، انه سيظل يؤمن بالدم ، بان الدم لا يصير ماء ، وما فى عروقه من دم هو نفس الدم الذى يجرى فى عروق جميل مهما كان الأمر ..

صرنا امام القصر من الناحية الخلفية ، فسمعنا لفظا حادا يتصاعد من الداخل ، فعرفنا ان المجموعة قد انتهت صلاة العشاء على طريقتها الخاصة ثم عادت لتكتب الكتاب ويتم الدخلة على طريقتها الخاصة أيضا . صفق « مأمون » بيديه قائلا : « يالى

هنا « . فلم يجب أحد . فصاح مأمون بأعلى صوته : « يا أستاذ جميل » . فخرجت سيده بضمة ريفية الطابع لكنها افرنجية المظهر تماما ، ترتدى أفسر ثياب كصوفيا لورين فى كل شىء . « عرفت من شكلها ان هذه العروس الهيفاء المتينة البنيان الرقيقة هى أم جميل ، فقلت لنفسى ان منظرها بالفعل يورث الفتنة وان العين لا بد ان تهرب منها خوفا من الاستجابة لنوازع الشيطان .

نزلت الينا عبر درج رخامى ، وصوت كعب حذاءها المعدنى يندق الرخام بايقاع هوانى رصين . سلمت هى على « مأمون » ، قائلة : « شرفت يا أستاذ مأمون » ثم همست فى أذنه انها سمعت صوته فخرجت اليه بسرعة قبل ان تضع على كتفها غطاء وعلى وجهها ستارا وها هى تسلم عليه دون أن تلف يدها بجلباب وهذه جريمة كبرى لو علم بها جميل . فطمأنها « مأمون » باسم انه لن يقول لجميل . ثم انها رجته ان يصعد اليه ويحاول اقناعه بتركهم يفرحون ولو قليلا ، فيأربى هل هى محزنة ؟ ابنتها الوحيد يتزوج وهى فى ليلة دخلته لا تجد نفسها قادرة على الفرح ؟ . ثم غمزت « مأمون » فى ذراعه وانحرفت الى الحديقة لتدخل الجناح الآخر من القصر تلقى نظرة على زوجها المريض المأزوم ..

صعد « مأمون » درج السلم حتى صار امام الباب . طرقه عدة طرقات متوالية حتى خرج اليه « جميل » من داخل الدهليز . عاجله مأمون : السلام عليكم . ومد يده ليسلم مبديا استعدادا ليعانق . غير أن « جميل » لم يمد يده بل تحاشى السلام عليه وقال فى اقتضاب : « عليكم السلام » - ثم انتظر كأنه يقول : أى خدمة ؟ ففاضت الدماء وجه « مأمون » وقال له فى دهشة : « ما توسع أما أدخل » . فقال جميل : « هه » ، ثم وسع قليلا كأنما كانما رغما عنه ..

دخل « مأمون » على حذر واستحياء قاصدا الحجرة الداخلية
فاذا بجميل يسبقه اليها ويدخل هو في أثره . فلما دخل وجد
المجموعة التي كانت تصلي وحدها في المسجد ، فقال : « السلام
عليكم » . فردوا السلام بدون زيادة .. فتقدم منهم ومد يده
ليسلم ، لكن أحدا منهم لم يقم ولم يمد يده ، بل كانوا جميعا
يهزون رموسهم في بلاهة قائلين : « أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا
.. معلش .. معلش » ..

وكنت أوشك أن اعترض على هذا السلوك وأنبح في مأمون
طالباً أن يتركهم وينصرف الى شأنه دونما حرج أو ندم ، لكنه
ابتسم مذكرا اياي بأنه على وعد مع خبر لن يخلفه .. أما التهينة
بالفرح فقد قدمها ولكنها لم تقبل منه .. أما الخبر فانه لا بد ان
يقوله ، ان ملك التنازل عن حقه فلن يملك التنازل عن واجبه .
لا بد ان ينقذ كرامته ولو بشيء من القسوة ، ليظهر لهؤلاء جميعا
انه جاء لحبر هام بصرف النظر عن التهينة .. فقال لجميل :
« تسمح يا جميل عايزك في كلمتين مهمين » فنهض جميل على
مضض . ثم عاد فجلس قائلا : « استنى شويه » . وانتبه مأمون
الى أن المأذون قد بدأ يكتب الكتاب ، فجلس مأمون على طرف كرسي
بجوار الباب ، معطيا للجميع نصف ظهره ونصف اهتمامه ، وبدأ
ساعتها مسكينا وحيدا معذبا ..

فلما انتهى المأذون من قولة مبروك انشق السكون المطبق
فجأة عن زغرودة رنانة بدت في هذا الموات كأنها دوى القنابل .
وهنا انتفض الجميع واقفين باستثناء المأذون ، كانوا أصابهم مس
من الشيطان وركبت العقاريت شابا كان متواريا بجوار المأذون يأمر
وينهى فصار يشتم ويلعن ويوبخ ويستنكر ان يحدث هذا الكفر في
بيت جميل بالذات ، وكان « جميل » يعتذر ويتوسل اليه ان يقبل
اعتذاره ، لكنه من فرط الغضب كان ينتفض ، وكانوا جميعا
ينتفضون لانتفاضه ، فعرفت ان هذا الشاب لا بد أن يكون هو
أميرهم أو كبيرهم أو سلطانهم .

فى الحال خرج جميل الى الطرقة ، فوجد مجموعة من النساء يقفن كاشباح من الفوضى المذعورة . صرخ فيهم كأنه يلفظ انفاسه : « مين الى عمل العملة السوده دى ؟ مين ؟ مين ؟ » . فقالت أمه بكل عشم وثقة : « أنا يا جميل .. أنا الى زغرطت » . صرخ غيها بقوة : « تبقى كافرة .. أنا قلت مش عايز كلام من ده .. قلت ولا لا ؟ » . قالت أمه : « طب حتى زغرطة واحدة مفياش حاجة يا جميل .. مش لازم نفرح ببك يا حبيبى ؟ » . صرخ والدما تقفز من وجهه : « مش عايز .. مش عايز » . قالت الأم لتندارى كسفتها : « طب ما تزعقش كده .. حاسب علينا شويه » . فصرخ بعنف وشراسة : « اطلعى بره » . فشاحت فى وجهه واستدارت خارجة وقد بدا عليها انها لن تدخل عليه ثانية الى الأبد ..

ودخل « جميل » ثانية وهو يخفى توتره بابتسامة اعتذار للموجودين الذين تقبلوا ذلك شاكرين سعداء جلس بينهم بره ثم نهض ثانية وقال لمأمون : « أيوه يا مأمون عايز تقول ايه تعالى » ، ثم تقدمه خارجا . فظل مأمون يمشى وراءه حتى الباب الخارجى ، وعنده وقف جميل ففضل مأمون ان يقول خبره من خارج البيت فتقدم خارجا وهو يقول فى صدق حقيقى ودون أى شبهة خبت : « أنا أسف يا جميل لازم أقول لك الخبر مهما كانت الظروف غير ملائمة .. لاننا لازم نتصرف واننت بالذات لازم تكون معاه فى التصرف ده » . قال جميل فى استنكار وتوجس : « خير غيه ايه ؟ .. » . فاقترب مأمون من اذن جميل وهمس له بالخبر . فاذا بوجه جميل يصير كاللاوطايه الطاييه ، واذا هو يصرخ فيه بلهجة حاسمة لا تقبل المراجعة : « اطلع بره .. مش عايز أشوفك » . وكان مع ذلك يوشك ان يبكى من فرط التأثر . لهذا نظر مأمون اليه بأشفاق وصار يبتعد عنه فى استمزاز ..

فلما صار خارج السور بصق من قرف على ما تخيل انه زهور حقيقية فاذا بها نبات من فساء الكلاب . وحين استدار ناظرا الى الخلف من جديد رأى جميلا يتهاوى فى وقفته فيسند رأسه على حافة افريز الشرفة ويندمج فى بكاء مكتوم . فاحس مأمون بشئ من الفرح الغريب ، ثم توقف فى مكانه يمارس الشعور بالفرح على هزيمة جميل التى اخذت شكل انتصار الكبرياء ، ولم يستأنف السير الا بعد أن رأى جميل يجفف دمه ويختفى داخل القصر من جديد .

٤

امتد الصمت أمامنا على الطريق الزراعى . وكان منظر « مأمون » وهو يمشى أمامى يذكرنى بمشية خالته بسيمة ، حتى تكوينه الجسدى قريب الشبه جدا من تكوين جسمها مع فارق حاسم بين الذكورة والأنوثة . وكان ثمة بناء كبير يقترب ، بدأ سوره الاسمنتى العالى بجوارنا وظل يمتد عشرات الكيلومترات . وكنت أظن أننا سنمشيه كله لكن مأمون انحرف الى طريق جانبى . فبعد خطوات صرنا فى مواجهتها - المزروعة .

أهذه اذن هى مزرعة عبد الجبار ؟ قال مأمون ان الأرض المحيطة بها كلها ومساحتها ثلاثمائة فدان قد أصبحت ملكا للمزرعة ، تنتج لخدمة المزرعة . منظر المزرعة يوحى كأنك أمام مشروع قومى شاهق مثل مصانع المحلة مثلا أو كفر الدوار فى المدن الصناعية بالديار المصرية الشقيقة . توقعت لذلك أن يكون ها هنا مساكن لعشرات الآلاف من العمال . لكن « مأمون » سخر من خيالى قائلا ان أحدا من القرية أو القرى المجاورة لم يشتغل فى هذه المزرعة ولم يستفد منها ، فكل رجالها وعمالها خبراء أجانب يقبضون بالعملة الصعبة وتنقلهم السيارات وتردهم فى ساعات ، وكذلك منتجاتها تخرج هى الأخرى فى السيارات الكبيرة الى حيث لا يعرف أحد ، وعلى فكرة - هكذا يقول مأمون - فان اقتصار كل من يعمل فى

المزرعة على الأجانب الخبراء جعل أهل القرية والقرى المجاورة يشيرون أن المزرعة تزرع أصنافا من السميّات المجهولة أو القنابل أو ما إلى ذلك ، وزعم اننى ضحكت من خيال الصامة حين يريد الانتقام على طريقته من كل شيء يجهل تفاصيله ، الا اننى أدت قولهم فى عقلى فوجدته يشير الى احتمالات شديدة الخطورة لو درسناها ..

ثم أضاف مأمون قائلا ان مثل هذه الشركات الاستثمارية المتعددة الجنسيات هي فى الواقع نوع من الأمراض الطفيلية تعيش على حساب البيئة لا تغذيها بشيء ولا تفيدھا بشيء بل هي تستفدها .. نعم نعم ان أهله من بنى الأزرق فيهم خصلة لا أدري ان كانت فضيلة أم رذيلة لكنها أصيلة فيهم ، تلك هي اعطاء الثقة بلا حدود للأبناء وللأهل والأقارب المتعلمين .. يقينى أن ذلك يعد تعبيرا عن حبهم الكامن وتقديرهم الأصل للعلم وأهله باعتبارهم رجال الحكمة والمعرفة .. ولهذا قيل : لا تعلموا أولاد السفلة العلم . وقول كهذا من رسول عظيم كسيدنا محمد لم ينطق أبدا عن هوى ، لهو جدير بالنظر والاعتبار ، بل انه بمثابة تشريع يقوم على رؤية مستقبلية شديدة العمق والنفاذ ، لكان رسول الله محمد صلواته عليه قد رأى منذ ما يصل الى ألف وخمسمائة عام ان ابتذال العلم لابد يؤدى الى كارثة تنذر باقتراب الجحيم ، مع ملاحظة ان العلم الذى يقصده رسولنا العظيم هو معرفة أسرار وكنه الأشياء ومنطقها ، ذلك ان السفلة أن عرفوا هذه الأسرار الجليلة انحطوا بها الى دركهم واستخدموها لمصلحتهم الخصوصية الشخصية ضد الآخرين وهم عزل من سلاح المعرفة .

باب الحديد

★ القضبان والنقران ونشأة الطفيان

قال « مامون » :

– « لست أدري أمن سوء الحظ أم من حسنه ان أولد في نفس القرية التى ولد فيها من قبل عبد الجبار . لكننى واثق ان اهتمامى بظاهرة عبد الجبار كان سيدهمنى حتى لو كنت من دولته المجاورة . . فما بالك وأنا أسير كل يوم بل كل لحظة بين آثار طفولته وحكايا صباه التى تناقضت بشكل لم يسبق له مثيل أبدا ، ذلك ان ازدواج الشخصية أصيل فى شخصيته من قديم .

« الحال والد كما تقول أمثالنا . ووالد عبد الجبار الحقيقى هو خاله . أما أبوه الأصلى فرجل لايزال موجودا حتى الآن فى

نفس بيتهم القديم لم يطرأ عليه أى تغير أو تبدل مظهرى رغم ان عشرات القواديس تصب أموالا فى خزائنه • الشيء الذى تغير فيه وينمو معه باستمرار هو الفطرسة والنتانة • يضمن عليك بالقاء السلام ان كنت من صفوف الدهماء ، وكل البلدة فى نظره تقريبا دهماء بما فيهم نقطة البوليس والمحكمة والمدرسة ، ويبخل عليك برد السلام ان كان مدخلك لا ينبئ عن منفعة له • لا يضيع وقته فى شتم أو توبيخ أو عراك ، انما الأمر ينتهى عنده بنظرة ، أو شخطة ، أو زومة صغيرة ، وربما بصقه • • ولهذا فله خدم خصوصيون يحملونه ، هم جميعا من أولاد بناته المتطوعين بدافع من أهماتهم فى كشف سر من أسرار ممتلكاته يبقى فى حساباتها عند تقسيم الميراث ذات يوم • • لهذا أيضا فرغم صلفه وقبح تصرفاته وبنو الفساطه الجارحة القارصة فان الاولاد يتبارون فى تلبية أوامره والاستئثار بحبه ورضاء ، أولاد الخالات يبدو بينهم الأمر طبيعيا ودودا . لكنه يخفى تيارات تحيته من الأحقاد لا سبيل الى محوها بعد ذلك مطلقا .



• • « كان فقيرا ذات يوم لا تزال تحفظه ذاكرة بعض المعمرين فى البلدة • وكان يعمل تمليا فى بيت مفتش الرى الانجليزى • التملى درجة أدنى من النفر ومن الأجرى فى قرانا القديمة • فاذا كان النفر يعمل عندك بأجر معلوم لزم من محدود ، واذا كان النفر أو الاجرى يتطلب وجوده ان تبعث انت فى استدعائه للشغل فى عمل يتطلب أياما تحت اشرافك ان كان نفرا ، أو لقضاء حاجة وقتيه سريعة ان كان أجيرا ، والاتفاق مع كليهما بشكل ما ، فان التملى شخص يتطوع بالخدمة المجانية الشاملة دون ان تكلفه انت بذلك ، ولا يطلب منك أجرا محددا على عمل بعينه ، انما بالبركة ، وانت تجده أمامك فى كل لحظة من البيت الى المكتب الى توصيل الأولاد ، الى توصيل الخطابات الى غسيل الركوبة الى ما شئت من أعمال ،

وانت تراه جوهريا بالنسبة لك فتتعلق به ، وتراه محتاجا للطعام
فتطعمه ، وللكسوة فتكسوه ، وللحب فتعطيه له خالصا كخلوص
نيته وأكثر .

« لكن مفتش الرى الانجليزى لا يفهم فى مثل هذه العلاقات
الأزرقية الأصيلة انما هو يراه مجرد خادم من أمة ذليلة تحتلها
بلاده ، وانه من المفروض عليه أن يفعل . ويقول أصدقاؤه المعجائز
ان المفتش الانجليزى اكتشف ان الرجل كان يفعل ذلك لا لكرم
فيه بل لخسة أصيلة فى طبيعه ، اذ كان يكشف عن أطماع صغيرة
دنيئة فقرر المفتش ان يقسو عليه فى المعاملة والا يعطيه سوى ما يسد
الرمق ، فان أظهر تمردا اغراه بالقليل ثم عاد فقتل عليه ، ولم يكن
والد عبد الجبار ليتمرّد رغم الهوان ، ذلك انه كان يتكسب من وراء
مفتش الرى بطريقته الخاصة . . فيكفى ان يلمح لبعض المخالفين
لقوانين الرى من المزارعين وأصحاب الأراضى بأن المفتش قد علم
بالمخالفة وزعل منها آخر زعل . حينئذ تدخل الخشية الى قلوب
المخالفين ، فتتحرك فيهم دوافع الشفقة أو نوازع الخوف فيمنحونه
بقشيشا .

« شيئا فشيئا تطاولت رموس هذه المعاملة فى نفس الرجل
الخسيس وأخذت تبحث لنفسها عن وسيلة ما ، تحولها من بقشيش
خاضع لمزاج الشخص الى اتاوة رسمية واجبة السداد ؟ فكان يقدمه
الحافى وجلبابه المترهل لا يتورع عن طرق باب أحد الاعيان الكبار
فى الليل فيصحيه من النوم هامسا فى أذنه ان سعادة المفتش قد
علم الآن بأن أولاده قد ارتكبوا مخالفة كبيرة أو انهم بسبيل
ارتكابها ، فى الحال يتذكر الرجل صاحب الأرض ان أولاده بالفعل
يقومون الليلة بالرى فيقول « طب وبعدين ؟ » . فيقول
والد عبد الجبار : « على العموم أنا هديته بكلمتين وفهمته انكم ناس
ولاد أصول بس هو مصمم يطسكم المخالفة بأى شكل يظهر ان جماعة
فلان الفلانى هيه الى زقاه عليكم عشان تعطلكم والعيال يقعدوا لهم

يومين في الحبس ٠٠ هو ناوى يقطع الميه بعد عشر دقائق ٠٠
بس أنا قلت له مفيش داعى أنا حاروح أجيب لك قرشين واجى ،

« وهكذا يجد صاحب الأرض نفسه مرحبا كل الترحيب بالهدية الصغيرة أو حتى الكبيرة بدلا من التعطيل ومناطحة الحكومة .
وهكذا أيضا لم يسلم واحد فى لعب كله من عملية ابتزاز رهيبه قام بها والد عبد الجبار حتى أطلقوا عليه فيما بينهم اسم النقرزان ، وكانوا يقرنونه بالظروف الغبراء وبالفلس وسوء الطالع فيقول الواحد منهم اذا دهمته مصيبة : « بس وطب على النقرزان نص الليل » ، أو يقول عن مبلغ صرفه فى شىء طارىء غير متوقع : « جاني النقرزان خدhem قلت عليه العوض » ، ذلك ان النقرزان – أى والد عبد الجبار – كان يريد ان يضفى على شخصيته سمة مميزة ، فلم يكن يطرق بقبضة يده على الباب أو الشباك كما يفعل الدهماء ، بل كان يقف بعيدا ويمد عصاه التى هى فى الأصل عود لبلاب غليظ ، ثم ينقر بها نقرا خفيفا متقطعا أول الأمر ثم متواصلا ، ولا بد لمن يكون فى الداخل ان يفرج عن نفسه فى الحال قبل ان يشرع النقرزان فى التواصل والا فقد يصيبه الجنون .

« الهدايا المبعوثة للمفتش الرى الانجليزى يكاد يشكل من نوعياتها سوق قرية متكامل ، فغير النقود الصريحة كان النقرزان يتسول للمفتش مقادير من القمح والأرز والذرة والسمن واللبن والزبد والخرفان المذبوحة وأقفاص الفاكهة من حدائقهم . ولذا فان « النقرزان » ملم بأيام أسواق كافة القرى المجاورة . فى يوم كل سوق فى كل قرية بعيدة لابد ان يزوغ من بيت المفتش ويرحل لساعات قليلة . وربما التقاه أحد من أهل بلدته ، فانه يسلم عليه ولا يسأل عن مجيئه اذ لابد انه جاء لغرض ما يخص حضرة المفتش . لكنه فى الواقع يكون يباشر أولادا راحوا يبيعون له ما جاء به وهو واقف الى بعيد .

« أما الأولاد الذين يقومون بالبيع له فانهم طائفة من كافة القرى
اتخذوا من ذلك مهنة يستخدمون فيها مواهبهم الخاصة فى البيع
والاقتناع بوسائل وأشكال وطرائق متعددة ، ابتداء من بيع فيل
وجاموسة الى بيع ساعة مسروقة تجد عيالا أولاد حرام يصنعون
للشيء قيمة ويأتونك بشئنه ربما فى لحظات نظير عمولة يسمونها
العرق . والثقة فيهم من الجمهور البائع والمشتري تصل الى حد
الموافقة على انتظارهم فى البيت أو فى المقهى بالنقد ، وقد تصل
بالكاد الى حد الوقوف بجواره من بعيد لبعيد . وكان « النقرزان »
فى الأصل واحدا من هؤلاء الأولاد قبل ان يرمى بجثته على بيت
مفتش الرى الانجليزى .

« ويقولون ان اولادا من أولئك السماسرة قد أثروا من وراء
عمولات النقرزان فما بالك بما جمعه النقرزان ؟ » .

« . فى ذلك الزمن كان النقرزان قد تزوج من « مبروكة
الشيالة » ، كانت ست بيت بحق ولكنها حملت لقب العريانة لأن
آبائها كان شهيرا بالعريان وكانت جميلة الى حد ما ،
ولكن أجمل ما فيها بالتأكيد كونها رضيت بالزواج من النقرزان
واحتمال الحياة معه . ولم يكن قد دفعه الى الزواج منها سوى كثرة
الأموال التى سالت بين يديه بلا انقطاع فانخدع بها وتصور ان
الزواج هو مجرد القدرة على دفع مهر ومؤخر صداق وتكليف جهاز .
أيام العزوبية كان يقضيها بأى شئ . اما وفى رقبته زوجة فانه
مطالب بالصرف ، وانه لقادر على الصرف ولكن أخشى ما يخشاه ان
تظهر النعمة عليه ، ان النعمة ان ظهرت عليه فلا بد ان يصل خبرها
الى حضرة المفتش ويقول له من أين لك هذا ؟ أو يصل الى الذين
يدفعون الهدايا باسم المفتش فيشكون فى أمره ويعمدون الى فضحه .
وهكذا تعلم النقرزان كيف يرى الحاجة الى الصرف ماسة ومع ذلك
لا يصرف ، ربما كانت زوجته أو ابنه فى حالة احتضار وهو من غرط
تعوده على تمثيل دور المفلس المعدم قد اندمج فى الدور اندماجا

باطنيا متينا ، وقد يلهمه الله في آخر لحظة فينهض زاعما انه سيقصد باب الله في محنته هذه ، فيقوم ويختفي وقتا يقصر أو يطول يعود بعده زاعما ان رحمة الله الواسعة قد أدركته بسلفة من صديق .

« مع ذلك فان مفتش الرى الانجليزى قد علم بما يفعله النقرزان في الخفاء على حسابه . فجاء به ذات ليلة ووبخه وضيق عليه الخناق وهو يمين في الانكار . ودعاه النقرزان الى منزله ليرى بنفسه قلبى المفتش الدعوة فى استفزاز ولكنه اشماز من وساخة الدار وفقرها فخرج متاففا وأمره بالآ يريه وجهه فى القرية مرة أخرى والا سلمه للشرطة . وهذا هو السر فى ان عائلة عبد الجبار قد استوطنت هذه المنطقة البعيدة عن مساكن القرية القديمة ، اذ أن النقرزان كان قد نزل عند انذار المفتش وجمع حوائجه وزوجته واختار هذه البقعة البعيدة وفرض نفسه خفيرا عليها ، ففرح به صاحب الأرض فتركه يقيم لنفسه عشه ينام فيها ، فاذا به بعد سنوات قليلة يضطر الى ان يبيعه قطعة الأرض كلها ، اذ مرض فجأة مرضا خبيثا صرف فيه كل مدخراته ، وحين فكر فى بيع هذه القطعة من الأرض لينفق ثمنها على عملية جراحية فى الخارج ، - على الأرجح فى مصر - فوجىء بان الكثيرين يهربون من شرائها لكى تقل قيمتها المادية خاصة وان المبلغ المطلوب فيها كبير ، وفى اللحظة التى يئس فيها صاحبها من بيعها طب عليه النقرزان وفى جيبه مبلغ حدده بنفسه لنفسه ثمنا للأرض كلها ، رضى به صاحبها على مضض ، ودفعه أجرا للعملية الجراحية ومات بعدها بقليل - وكانت هذه القطعة من الأرض هى النواة الأولى لثروة النقرزان .

« لكن « النقرزان » رغم تنامى ثروته وتحرره من المفتش الانجليزى لم يستطع الخلاص من مرض البخل الذى أصابه ، فكانت الخلافات بينه وبين أولاده تصل دائما الى عنان السماء ، وتتدخل الوسائط لفضها فى الوقت المناسب . وكانت ولا تزال أربح تجارة

بالنسبة له هي تجارة المحاصيل الزراعية والتقاوى والبذور وكل ما يمكن تخزينه في زمن المواسم لزمن القحط أو الاحتياج ، أو تخزينه لصنع القحط واستغلاله .

« من هذا الأب النقرزان انحدر عبد الجبار الكبير . ولم يكن مقدرا له أو لأحد من اخوته أن يدخل المدارس أو حتى يصير أفنديا أصلا . بل ان الأب كان يتعشم ان يستريح على حسابهم وان يجيء اليوم الذى يرى فيه ابنه ماشيا جواره بالكميال حيث يفرش فى السوق ويشترى الحبوب نفسه ولوحده . وكان الطفل عبد الجبار قد امتثل لهذا الأمر بالفعل وتمرس طفلا بطلوع الأسواق ومساومة النساء اللاتي يبعن كيلات القمح ليتسوقن بشمنها أشياء أخرى ، بل ومساومة رجال كبار على شراء أردب وأردبين ، مقلدا فى ذلك شقيقه الأكبر منه الذى صار مؤهلا لذلك دون غيره من المهن .

« الأخ الأكبر وحده هو الذى فاته قطار التعليم فكان يختلف الى كتاب القرية أحيانا حتى تعلم فك الحط وقراءة الجرنان فصار بذلك وريثا لمهنته التجارة عن جدارة .

« على أن مبروكة العريانه كانت قد اكتفت بانجاب ابنه الأكبر ، لم يتسع صدرها ولا صبرها فتركت له الدار ولحقت بأبيها الذى ترقى بنفسه باثعا سريعا فى البندر ، فزوجها من عربجي حنطور صديقه ، ووجد كل منهما فى الآخر ونيسا وأصبحت مبروكة الشياطة بفضلها تلبس المخرق وتجيد الرمح وفرد الملاء كاحسن ما يكون . وإما النقرزان فانه بعد ان استراح منها غير مظهره وأصبح يلبس التنظيف ويأكل الثمين ، وطلع الحجاز ، وطلعت له زبيبة الصلاة فى جبهته بسرعة ، ودفع قدرا من المال رموا به مسجد القرية وجددوه ليحتل منه ايوانا مستقلا يصلى فيه أوقاته كلها حاضرة ، وحين يصلى ينزوى مشتملًا كأنه وحده الجدير بالوقوف أمام الله . ثم انه قرر أن يهاجر من المدينة

نفسها ، فخطب الأنسة دولت ابنة محمد أفندى خلاف الذى كان موظفا بالدائرة السنية ومات ، وأخت صلاح الدين أفندى الذى يركب عربة ملاكى فى مشاويره باعتباره - كما يقول عن نفسه دائما - من رجال الأعمال .

« حقيقة الأمر ان صلاح الدين أفندى خلاف ، خال عبد الجبار ، لم يكن من رجال الأعمال ولا حتى من الرجال أصلا . انما كان يمارس نوعا عجيبا غريبا من السمسرة أو من التهريب أو الخسة قل ما شئت فى وصفه . كان مثل صهره تماما فى النوعية والنمطية وبلا أدنى اختلاف سوى المظهر من ناحية والطبقة التى هو موضوع فيها من ناحية أخرى .

« صلاح الدين أفندى خلاف يعمل و الآخر تمليا ولكن على مستوى أرقى وفى معية الجيش الانجليزى المحتل لأرض الازارقة فى ذلك الزمن ، واحدا ضمن عشرات المئات من التملية أمثاله فى نفس المعية على درجات ومستويات متباينة . . فهو اذا كان ضمن فريق مهمته - التى لم يكلفه بها أحد - السعى فى الأسواق والحارات والأماكن والطرق يقضون طلبات لأعضاء هيئة الجيش تخص حياتهم الشخصية ومنازلهم ابتداء من توصيل الطفلة الى المدرسة وانتهاء بتوصيل المومس الأزرقية الى الشقة التى يديرها أيضا لحضرة الضابط أو سيادة اللواء أو سعادة المندوب . . فثمة أيضا من تكون مهمتهم - التى لم يكلفهم بها أحد كذلك - التفاوض باسم شخصيات كبيرة جدا فى الجيش المحتل ، مع زعماء الأحزاب والسياسيين اللامعين وبعض المسئولين الكبار ورجال العائلات الكبيرة المؤثرة فى رأى العام أو عدد الأصوات . . يتفاوضون معهم على حلول معنية لقضايا معينة أو لمشاكل ملحة أو لمسائل عطروحة . ولأنهم وجوه مألوفة فى المحيطين معا ، ولأنهم وضعوا أنفسهم من الأول فى خدمة هؤلاء بعينهم واشتهروا بذلك فى الأوساط الاجتماعية ، فان ذلك يعطيهم جواز المرور الى المجتمعات

العليا والمجتمعات المغلقة وبين الدوائر ٠٠ كما يعطيهم الجراءة العظيمة في أن يجلس الواحد منهم معك في مكتبك الرسمي وأنت دولة الزعيم مثلا فيناددك واضعا ساقا على ساقا مثلك وهدخنا أمامك سجائر ربما أفخر من سجائرك وأغلى ، ذلك انه قد امتلأ بالثقة في انك سوف ترتب من شخصيات عديدة تعرف انه يعمل في خدمتهم وانه تبعا لذلك حماية • بل ان الجراءة الحقيقية ليست في هذا ، انما هي ان يبيل مثل هذا الصعلوك كأنه صديقك الأكبر منك ، ثم يهمس في اذنك قائلا بكل بساطة انه يستطيع أن يحل لك الأمر الفلاني أو القضية الفلانية أو المازق الجماهيرى الفلاني مع المندوب السامى مثلا مثلا - اذا انت تنازلت عن كذا وكيت ٠٠ ثم انه هو وشطارته معك بعد ذلك ، لأنك بالتأكيد ستعتدل في جلستك فورا وتتهيا للتفكير الجدى فى اقتراحه الجرى البسيط ، وحينئذ تكون قد وقعت فى قبضته ، ان كان ولدا مرقعا فان حجم تنازلاتك سوف يتزايد حسب لباقته وقدرته على اختيار الزوايا المناسبة للتحديث فى الموضوع وهكذا - ثم بعد أن يتأكد من موافقتك يأخذ فى التدبير للانفراد بالمسئول الكبير الذى هو يملك الحل والربط أو هو الطرف الجوهري ، وباعتباره أحد خدمه المخلصين الأتباء فانه يحكى له على هيئة نكتة : كيف التقى بفلان باشا فى مكان ما وكيف جاءت سيرة الموضوع الفلانى فحدث له كذا وكيف ابدى الاستعداد لكذا وكيت - الطرف الجوهري قد يضحك للنكتة وقد لا يضحك ولكنه سوف يتوقف بالتأكيد عند حجم المكاسب التى قد تؤول اليه اذا ما تحولت هذه النكتة الى واقع •

• وهكذا فان الرسائل يبدأ رحلة ما تسميه اليوم فى عصرنا برحلة المكوك لكنها فى الخفاء ، بين محتلين وبين ناس فقصدوا الوشيعة السحرية التى تربطهم بأهلهم وبأرضهم ففقدوا تبعا لذلك شرفهم وصاروا يبيعون فى السر مالا يملكون ليستمروا أوقاتا

أطول يمتلكون • وكم طابت للمراسيل أكلات هنيئة دفعت الأجيال
تكاليفها الباهظة جوعا وحرمانا وتشريدا •



• • • صلاح الدين أفندى خلاف كان يتطلع الى مثل هذه
المستويات الشاهقة من التملية الكبار ، الذين اخترعوا للمهنة أسماء
جديدة براقة تصلح وحدها سببا للتضحية بكل المقدسات • ولذلك
لم يكن يعطى عقله اجازة فى السلب والنهب ، كان شحاذا يرتدى
القبعة والفراك المخلوع عن أجساد أسياده الانجليز ، يمسك العصا
الابنوس مثل الباشوات ، تنطوى ملامح وجهه الرقيقة اللطيفة
على دماء باردة جافة ، يستدرج الضابط الانجليزى الكبير الى سوق
المدينة أو شوارعها أو حواربها الجانبية ، يمشى الى جواره
مستعرضا نفسه حتى يتأكد الجميع من انه صديق لسيادة
الضابط ، ثم يستدرجه أيضا ليزور به بعض الأصدقاء والأعيان ،
يعرف بهم فى طريقة ملفوفة لا يفهم الضابط مغزاها انما يفهمها
أهل البلد • • ثم أنه بعد ذلك يصبح من حقه أن يمر على السوق
فيتسوق ما يشاء لحضرة الضابط ، أو على الأعيان وكبار التجار
ليقترض مبلغا بسيطا فكة لحضرة الضابط ريثما يذهب الى الدار
ويعود • • ثم انه أيضا كان يضع يده على نقطة الضعف فى ضابطه
ليتاجر بها كيفما يشاء ، فان كانت الانحراف فدواؤه الرشوة
يجمعها له ولا يعطيه منها سوى نسبة ضئيلة ، وان كانت النساء
فتأخذ يعيثن على حسنة فسادا بين بنات الناس وحریمهم والضعفاء
اللاثي لا حول لاهلهم ولا طول ، ولا يورد له مع ذلك الا احدى
السناكيح بعد ان يكون قد باعها لعشرات الجنود السكارى والطلاب
أبناء المدارس الأجنبية •

• • • صلاح الدين أفندى خلاف ضحك على أحد الضباط وأخذ منه
حميلاته الملاكى الفيات ذات الرقارف وكابينة تشبه مبنى النقطة
الثابتة ، مقابل امرأة ريفية كانت تعمل فى خدمة أبيه فتنازل له

عنها نهائيا . صلاح هذا كان فاجرا متعمدا الخلق الى أبعد الحدود كما تروى عنه الحوادث والأساطير فى قرانا . كان يعرف تفاصيل مخازن التموين الخاصة بالجيش الانجليزى فى معظم المعسكرات ، ويعرف محتوياتها وما قد وصل اليها وما قد خرج منها . وكان الى ذلك يعرف شبكة من اللصوص الأشقياء ذوى المظهر النظيف . . فيبلغهم بأمر المخازن أولا بأول . . ويضع لكل منهم خطة دقيقة لكيفية الهجوم على المخزن وتهريب ما فيه من سلع . وباعتباره صاحب كل شئ فانه يأخذ حقه على الناشف مقدما ، ففرق اللصوص ثقتى فى خططه وفى نتائجها من حيث كل شئ . وكل أهله وأصدقائه المقربين حين يضبطونه متلبسا بفعل كهذا يلومونه برفق فيرد قائلا انه يفعل ذلك فيهم لانهم محتلين كفرقة سرقونا وليس حراما أن نسرقهم فهم بضاعتنا ردت إلينا !! .

• ولو ان الأمر هكذا فحسب فلربما انخدع فيه بعض أصدقائه وصدقوا ان سرقاته هذه نوعا من المقاومة ضد المحتل الأجنبى . لكن صلاح لم يكن بالذى يضيع فرصة للكسب فى الوجه الآخر لفعلته ، اذ هو يذهب فى اليوم التالى للسرقة ، ويختل بالمسؤولين، ويتباحث معهم فى أمر المسروقات ، ويرسم لهم - متطوعا كاقترح - خططا للقبض على مجموعات من الأولاد ليكون اللصوص الفاعلون من بينهم . ويتم بالفعل القبض على المجموعة التعيسة التى تأكل علقة تشرف بها على الموت يعترف على أثرها اللصوص . وكان أصدقائه المقربون اذا ضبطوه متلبسا بفعلته كهذه يقول لهم قبل ان يلوموه انه لم يشأ ان يخالف ضميره ، فهو يعرف ان هؤلاء الأولاد لصوص ، واللصوص يجب أن يأخذوا جزاءهم !! .

• وكان اذا نجا من اللصوص أحد والتقاء صدفة بادر هو بلوم اللص على ضعفه واعترافه ، ثم ان اللص لن يكون قد تطرق الشك الى نفسه فى صلاح لأنه ليس من الذكاء الشيطاني بحيث يربط بين الخطة المحكمة والتبليغ عنها من مجهول محكم . لذلك فمن

المرجح ان صلاح أفندى خلف سيقنع اللص ان ذلك المجهول لا بد أن يكون الولد فلان أو الولد علان من أصدقائه المنشقين . المرجح كذلك ان اللص لن يجد غضاضة في التعامل مع صلاح مرة أخرى وثانية وثالثة وإلى مالا نهاية .

« كان لصلاح بيت في عزبة الحولى ، عزبة هى كلها عبارة عن البيت وحوله دماطل وخراريج على حياة دور وأكواخ ، من أعمال المدينة ، يصلون اليها بالركائب وهو بيت تنازلت عنه الدائرة لموظفها الوفى فأقام فيه صلاح وجعل منه تقليدا ساذجا منسوخا لبيوت الباشوات ، وكل محتوياته مخلوعة من بيوت سابقة وعليها بصمات ناس كثار وأمراض ناس كثار وعرق ناس كثار وذكريات ناس كثار . حتى ان صلاح أفندى خلاف كان يتشكل تشكيلات نفسية عجيبة كلما تنقل من حجرة الى حجرة بل من ركن الى ركن فى بيته ذاك ، فقد يفرض عليه هذا الكرسي ان يجلس جلسة باشا أو زعيم وقد يفرض عليه هذا الصالون ان يجلس فى دبلوماسية متخيلا نفسه مع ناس من علية القوم ، وقد تفرض عليه المرأة شكلا معيناً والسرير نوما معيناً والشفرة أن تطل على الجماهير خطيباً أو يقف منادياً على الخدم .

« ورغم انه فى الأصل خادم ابن خادم فانه كان يستعير فى حديثه دائما صوت الارستقراطية ولهجتها وخنفتها ولثفتها ، التكلم من الحلق والأنف والرقبة المبالغ فيها والفطرسية . غير أنه لم يكن ينجح تماما فى أى من هذه المشاهد ، لأن شكله كان رغم الفراق والقبعة شكل الخدم وسلوكه رغم التحفظات الشديدة سلوك الخدم .



« وعلى الرغم من أن النقرزان والد عبد الجبار قد صار من كبار الملاك فى الناحية وتكومت فى خزينته أموال تشتترى

ضباعا ، الا انه كان يشعر دائما بالضعف كلما وطئت أقدامه بيت صلاح أفندي خلاف أو كلما تحدث مع أحد من أهله بله أن يتحدث مع صلاح نفسه . ذلك ان النقرزان لا يستطيع ان ينسى أصله أو ينسى انه تطلع الى أهل هذا البيت ودفع أموالا كثيرة وساق وسائل كثيرة لكي ينتمى اليه ، ولا ينسى كذلك انه أخذ أربعين وعشرين ضلعا تمثلت في الست دولت ، التي نظفته ونجرتها وقومت من سلوكه وجعلته رجلا محترما ذا مهابة ، وعلمته الأدب حقا . وكان أبنائه كلهم يميلون الى أهمهم ويحبون رؤية خالهم ويحبون تقليد لباسه وكلامه ولهجته وعنظرتة الفارغة .

« وذات عام ذهبت الست دولت هي وأبنائها وزوجها لقضاء العيد في بيتهم لدى أخيها صلاح أفندي . فلما انتهى العيد وتهيأوا للعودة كان عبد الجبار وهو ابن العاشرة تقريبا قد تعلق بخاله وتعلق به خاله ، ولم تجد الأسرة مغرا من العودة بدونه . فرحت الام ان يبقى الولد مع خاله لكي يكون ذريعة ترسل بسببه لأخيها كثيرا من الأشياء التي يحتاجها في وحدته بعد ان تخلى عن خادمته وأهداها للضابط الانجليزى مقابل الاستيلاء على سيارته والتقل بها دون ملكية رسمية .

« الحقه خاله بالمدرسة الابتدائية في البندر ، المدينة الواقعة على ضفة فرع للنهر الأزرقى . طول النهار هو فى المدينة ، يخرج من المدرسة ليذهب الى خاله على المقهى حيث يرافقه اينما ذهب . يكتشف الولد ان خاله يرتاد مجتمعات غريبة ، من بيوت الأسر حيث يخترقهما بعشيم زائد عن الحد ، الى مقار احزاب يتسقط اخبارا أو يذيع اخبارا ، الى منزل الحاكم العسكرى الانجليزى للمدينة حيث يؤدى خدمات بيتيه من قبيل سقى الحديقة بالخرطوم أو تشذيبها ، أو الاسراع هو بالقهوة للبيك ، أو الاسراع الى الصيدلية لشراء دواء الهانم الصغيرة ..

« يجد عبد الجبار نفسه بين مجتمعات عدة يحس خلالها بدونية

أصله . وفى كل مكان يقدمه خاله للناس قائلا فى تفاخر :
« ابن أختى .. فى الابتدائية » فيتطوع الناس بمجاملة خاله
فيمتحنون عبد الجبار فى الانجليزية ويخاطبونه بها فى تحد
لتمرين لسانه ..

« فى يوم كان عبد الجبار قادما من المدرسة ، وكان يتسكع فى
شوارع المدينة منجذبا الى المحلات بأنواعها غير المألوفة لديه ..
أدهشه وألذه ان يجد ان كافة الاشياء لها محلات فى المدينة . يحلو
له ان يقف ويتأمل ويرى أهل بلدته والبلاد المجاورة وهم يدخلون
هذه المحلات ويشتررون منها أشياء ومنقولات وأثاث وعطارة .
كان يحلو له ان يقف هو الآخر ويشترى ، ليس هذه الأشياء
الثقيلة ، بل يشتري أى شئ ، المهم ان يشتري . ذلك أن رفاقه
فى المدرسة وفى الشوارع طول النهار يمارسون الشراء ، وكم
وقف طويلا أمام عربة « الكانتين » يتفرج على أطباق الملهبية التى
تنهال بين يدى الأولاد جميلة الشكل يسيل لها لعابه ، كم تاق
الى شراء قلم رصاص أو كراس من المكتبة التى تحوى أشياء يشتريها
الأولاد . ولم يكن يجد فى جيبه قرشا يدفعها رغم بذلته الكاملة
ببنطلونها القصير وطربوشه القصير الغامق وحذائه الاستك . وكان
موقنا من ان أباه الذى يستهجن فكرة التعليم فى المدارس لن يقتنع
أبدا بأن يرسل له مصروفا لليد فى المدينة ، بله ان يؤجر له
مسكنا . لكنه كان يعرف أن أمه ترسل لخاله سرا بعض الأموال
التي تدخرها من بيع الدجاج والبيض تربية يدها فضلا
عن الطعام الناشف . وكان يفكر وهو عائد فى آخر المساء مع
خاله كل يوم أن يسأله عن بعض قروش سلف ، فكان خاله يرد
عليه من حلقه وهو يقود العربة : « عايزها تعمل بيها ايه ؟ انت
حتتلعلم الفساد ؟ » ، فقال : « لا .. عايز اشتري أدوات هندسية
وشويه حاجات » . فقال خاله صلاح : « بس كده ؟ الصبح
نتصرف » ..

« وفي الصباح ركبا السيارة معا ، وقبل ان ينزله عند المدرسة كما تعود ذهب مباشرة الى بيت الحاكم العسكري للمدينة الذى كان قد التحق بخدمته . فدخل السراية بالسيارة ثم نزل فنزل الصبي عبد الجبار . ومشى فمشى وراءه فى انزواء خجل نحو باب المسكن ، وكانوا بالكاد قد تهيأوا للفقور وشمس الصباح فى لون التمسر هندى تنسكب من نافذة مقابلة للباب حيث اطلت الزوجة الانجليزية الحمراء التى انعكست عليه انعكاسات الشمس فطار لب الولد . قالت : « هالوبنجور كامن » . فدخل خاله وقال : « تعال يا عبده » ، فدخل « عبده » يتعثر والزوجة تحييه قائلة : « أبدو .. أو .. أبدو .. ازيك يا أبدو » ، وهو ملخوم لا يعرف كيف يرد قال خاله مستخدما الاشارة بأصبعيه : « ابن اختي » ، ففهمت الزوجة وأحمر وجهها أكثر وابتسمت قائلة : « آ .. ها » ، وأشارت اليهما ان يدخلوا . فتقدم الخال يتبعه الصبي والزوجة تقول : « أين كنت بالأمس ؟ » كان الرجل يسأل عنك كان لديه بعض الاصدقاء واحتاجوا لزجاجات الجعة فى آخر الليل » .

« فقال صلاح وهو يجلس مباشرة على مائدة الطعام انه سوا الله - أحس بحاجة الرجل اليه بالفعل فى لحظة معينة من الليل ، وكان يوشك ان يجنىء من تلقاء نفسه ليرى ماذا عساه يكون طلبه له ، غير انه خشى ان يطرق عليه الباب فى آخر الليل .. ثم شرع يأكل مع الاطفال دون ان يدعوهم أحد فبدا ذلك شيئا طبيعيا ، وقال : « تعالى كل يا عبده .. اقعد افطر » ، وعلى استحياء قليل تقدم « عبده » ثم عاد فنظر فى وجه خاله فلم يجد أى أثر للخجل أو لأى شعور آخر ، فنسى هو الآخر ملامح وجهه وشرع ينهل من أشياء كان يراها فى دكاكين المدينة واكتشف فجأة أنها موجودة فى البيوت أيضا ، والأولاد يفضون عنها الأغلفة الأنيقة الثمينة ويأكلونها فيفعل مثلهم ولكنه يستخسر الغلاف الثمين فيبقيه فى يديه برهة ثم يتخلى مضطرا ويدوق الشيء فاذا به طعم جميل من الجبن والزبد

واللبين ، وآخر اذا به حلوى تشتعل منها فروة الرأس لذة ، وثالث ورابع ، وعسل نحل وعيش يصلح غموسا لعيشهم فى البلد ، كل هذا وحليب بعده شاي ثم قهوة ثم فطائر ثم فوجي « عبده » انه مطلوب منه القيام ومفادرة هذه اللجنة ٠٠ يومها كاد يبكي من الغيظ ، ولولا طوله وبذاته وابتدائيته لضرب الارض بقدمه صائحا : « أنا حافضل هنا » لكنه سلم أمره لله وشرع يمشى ، فاذا بخاله صلاح يتذكر فجأة فينظر الى الهانم الصغيرة قائلا لها ان عبده محتاج لأدوات هندسية وبعض الأقلام والمساطر . فدهشت الهانم الصغيرة وبدأ عليها الحزن من اجله ، وقالت انها ستهديه اشيائها وتشتري بدلا منها ، ثم نهضت فى الحال وتفاقرت نحو غرفتها ، وكان عبده يهم بأن يعترض أو يتشكر أو يفعل أى شيء لكنه نظر فى وجه خاله فتذكر أنه يجب ان ينسى هو الآخر ملامح وجهه ، ينساها حتى وهو يراه فى المرأة أمامه ، وكان فى اعماقه مرجبا غاية الترحيب بهذا الخاطر بالذات ، اذ ان شكل وجهه كان فى الواقع - ومن ناحية أخرى - لا يسره أبدا ٠٠

« وامتدت يده بقليل جدا من التردد ، ثم بحماس مفاجيء أخذت الادوات الهندسية فاذا هى كثيرة وجميلة ومتينة ، فاستبد به الفرح . وكان الرجل الكبير قد خرج من الباب الجانبى فلمحق به السيدى فى حين تخلف عبده ، اذ لمح فى عين الزوجة الحمراء نظرة تقول له : « استنى يا عبده » . وفعلا اثمر تلكؤه اذ ان السيدة غابت قليلا ثم خرجت مطبقة اليد على شيء غمزته به فى يده ، فاذا به ورقة نقود . فارتعشت أوصاله وهم بالجرى ، فنزعت هى قطعة بسبوسة كبيرة لفتها فى ورقة واعطتها له ، فأخذها واندفع يهرول حيث وقف الرجل الكبير يملئ على خاله بعض الأوامر ، وخاله متهدل الجسم فى وقفته يهز رأسه بين الفينة والفينة قائلا : حاضر ٠٠ حاضر وانتهى الرجل من أوامره ثم مضى نحو السيارة التى ينتظره بها السائق فى مدخل باب السور ، لكشفه

عاد فالتفت ناظرا الى عبده ثم لوى شفتيه فى اشمئزاز باسم ثم مضى ، وحاول عبده أن يفهم معنى لموجة شفاه الرجل الكبير ، ولكن لو تذكر صورته كأفندى صغير يرتدى بذلة وطربوشا وحذاء ويمسك كتبنا وكراريسا وبيده الأخرى قطعة بسبوسة يحرص عليها حرصا يضاعف من لحمته - لو أنه تذكر صورته هذه لحظت ذلك لما احتاج الى معاناة فى التفسير ، لكنه كان ساعتهما قد فقد الاحساس بالمرأة • وحين ركب بجوار خاله فى العربة الكحيانة نظر اليه مبتسما وقال : « مبسوط يا عم ؟ » فهز رأسه من فرط الامتنان •

• ثم انه قد عشق زيارة هذه السراية سواء مع خاله أو لوحده • صار يتطوع بالتكفل بالبكوات الصغار ، يلف بهم فى الشوارع وعند الكورنيش وفى المنتزهات ، يفرجهم على القرد وعلى صلاة الجمعة وعلى المراكب والصيادين ، يملأ بطونهم من سخام الشوارع الذى يباع فوق العربات على هيئة حلوى ومرطبات ومشروبات ، يشتري لهم كل ما فى نفسه ، كان يقنعهم بأن المصروف لو بقى فى يده هو لكان أفضل ، والا فهو غير مسئول عما يحدث لهم من العيال الازارقة الاشقياء ، سوف يضللونهم ويفرون بهم ويسلبونهم ، أنه يعرف العيال أبناء هذه المدن المحدوفة فى البرارى ، اشقياء ولصوص ومتشردين ، نفس العبارات التى قد سمع خاله يقولها لاحد الشبان الاجانب ، وقد تذكرها واعاد ترديدها للصبيبة ، اذ أنه رأى الشاب الاجنبى يوافق خاله ويعطيه قيادة سياحته • وأيما كان الأمر فقد كان الأولاد مسرورين وغير معطين لمسألة المصروف بالألا ، فان يكون معه أو معهم أمر لم يطرأ على بالهم •• انما هم مندمجون فى الفرجة على ما يثير خيالهم ••

• ثم ان عبده لم يكتف بأن يكون سميرا ونديما للأولاد متقربا الى عقولهم بما يدرسه فى المدرسة الابتدائية من لغة وعلوم ورياضة تجعل منه خادما مستنيرا يسهل تكليفه بهسام كثيرة ومتنوعة ،

ويعيش بذلك على حسابهم ، يلبس من ملابسه المخلوعة ويأكل من فضلاتهم ، بل انه انتهى الى البيت تماما وصار لا يراه خاله الا لاما . وكان على صغره قد أصبح ولدا « أوروبا » ، كأنه عجوز ، فالسنوات القليلة التي قضاها في المدينة علمته الصياغة واللف والتطفل على كل شيء يسأل فيه وعنه وعن اسعاره لا شيء الا ليقبس بالسعر بعد الشيء عنه أو قربه منه . الست هانم تريد اصلاح سور الحديقة يا أبدو . يكون تحت قدميها . ثم ينطلق الى مكان بعيد جدا ليأتي لها بواحد من المتخصصين فعلا في أسوار الجنان والاسلاك الشائكة ، واذ هو يقول للصنايعي منذ البداية ان الست هانم هي التي تريد ، فان الصنايعي بكل صراحة يقول له : « الحديد بكذا . . والسلك بكذا . . وعرقى في التركيب أو البناء كذا » يحسبها « عبده » في نفسه ويذهب ليسأل في دكاكين الاسلاك الشائكة والحديد عن أسعار الأمتار والوحدات ، فيجد أن الصنايعي قد بالغ في رفع السعر وفي تقدير عرقه . مع ذلك يأخذ الصنايعي من يده ويذهب به الى الست هانم ليتفق معها وجها لوجه . . من هنا لهما يتكلفوا كذا . . خلاص ؟ . . هاتي الفلوس يا ست هانم . الست هانم تعطى التكاليف لعبده وتتركه يشرف على العملية . يقبضها في جيبه ثم ينطلق مع الصنايعي الى الخلاء لشراء الحديد والاسلاك . وعندما يبتعدان تماما عن البيت يفتعل « عبده » خلافا بينه وبين الصنايعي ، كأن يدخل على الاتفاق تعديلا لم يكن وارادا ، يزعم ان المطلوب عشرين حديدة لا عشر ، ويصر على ذلك ويتشبث برأيه ، حينئذ يزهق الصنايعي ويرى ان العقاب الصالح له ان يتركه ويمشي رافضا الشغلانه من أساسها . وهذا عين ما يريده « عبده » . شقى هو ابن شقى ، يتصنع أنه لاص ، وأنه غاضب من انسحاب الصنايعي ، وان هذا أقصى عقاب يوقعه عليه ، كل ذلك ليثير حمية الصنايعي كي يمعن في الانسحاب نهائيا . ثم اذ يرى الصنايعي قد اختفى بالفعل يتخذ طريقه الى محل الحديد والاسلاك . فيشتري بنفسه الحديد والاسلاك التي

حددها الصنایعی ، ثم يستأجر عربة بخمس قروش تنقلها الى البيت . وحين تطل الست هانم من الشرفة وترى الاشياء قد وصلت بدون الصنایعی يعاجلها قائلا ان الرجل طلع ابن ، رجع في كلامه في السكة وطلب كذا وكذا وتملن قائلًا كذا ، وفاعلا كذا ، وأنه تركه وانصرف بعد شراء الأشياء . فتلوى الست هانم شفيتها أسفا من هذه الورطة . فبكل رجولية يدخل هو قائلا : « ملعون أبوه .. أنا الى حاعملها بنفسی ثم يدخل فيخلع هدومه ويبقى بالقائلة والسروال ، ويتحول الى عامل يفتح بالمنقرة ويدق الحديد ، وكلما رأى أحدا من أنفار الحی أو رجاله أو عياله يقول : « بإيدك والنبي معانا » . ينبت في الحال بين المارة المدعوین للعمل من هو أكثر خبرة بدق الحديد أو تشبيك الأسلاك . وبعد وقت قصير يكون قد أسلم العمل شيئا فشيئا لناس تفهم فيه ، وينخلع هو ، ويروح يهنكر حولهم ويشجع ويلاحظ ، وبالمرة يدرس وجوههم ، فوجه هذا الجدع يتم عن أنه شهم وقد خدم لوجه الجدع فمقداره الشكر بجدعنه ، وهذا وجه ، يتم عن انتظار لكنه ذكى خجول فمقداره الايهام بالصدقة - نخدمك في الافراح يا فلان ، وينطق اسمه مجردا - وهذا وجه يتم عن الحاجة والا فالسراية عرضة للتلبیخ الغوغائی المزعج ، فخمس قروش تجعله يرقص طربا . ثم ان الست هانم بعد ساعات تجد ان السور قد تجدد بالفعل كأحسن ما يكون فيزداد ، اعجابها بعبدہ ، فيقول لها أنه لولا الرجال لما فعل شيئا ، انهم كل شيء وقد نفحتهم جميعا اجرهم ومشوا مبسوطین ، كم دفعت يا آبدو ؟ .. خلاص يا ست هانم كم دفعت يا آبدو ؟ .. خلی علينا يا ست هانم .. كم دفعت يا آبدو ؟ .. كذا .. وأی رقم ينطقه تعطيه له باسمه .



« اكتشف « عبده » وهو طالب في الثانوية أنه لا يحب ، ليس له محبوبة تشغل باله وخياله ويتحدث عنها لرفاقه . ولم يكن يعرف

أنه قد ألغى هذه الناحية من حسابه منذ البكور ، فاعتبر ان الشبان زملاء أغبياء موهومين . وكان قد عجز عن اكتشاف بنات تحبه طالما أنه وهو طالب الثانوية المحترم لا يتورع عن الجرى وراء الست هانم كالجرو الصغير ، ويفتح لها الباب وينظف لها زجاج السيارة ، ويمسح حذاء الولد ، ويذهب ليشتري الأشياء نيابة عنها وعنهم ، ذلك ان عادة الشراء بنفسه قد تأصلت فيه وأصبحت تمنحه متعة عظيمة ، ان يشتري حتى بحساب الآخرين للآخرين . وليس مصدر المتعة ارضاءه لنزعة الشراء كتنفيس عن عقدة قديمة فحسب بل من كونها تدر عليه دخلا كبيرا حتى أصبح وهو طالب فى الثانوية يستطيع الاستغناء عن مصروف ابيه بل يصبح هو نفسه ذا مال ولو الى حد قليل لكنه لذيذ فائق اللذة . ليل نهار لا يكف ولا يضيع فرصة . زملاؤه من فريق الكرة يريدون ملابس معينة ، ينط هو ، يشتريها بمعرفته ويسمسر من كل ناحية وبشكل سحرى . . أصبح شريكا فى الكانتين . تجيء الاجازة فيذهب ليستريح فى قريتهم كطالب . تراه القرية فتزداد انبهارا به . انه بهدومه النظيفة يستنكف الجلوس فى القرية معتمدا على نفقات أبيه الرأسمالى بل هو ما شاء الله متعلم يتكسب بعلمه وذكاؤه وها هو ذا - يا حلاوة - قد اشتغل فى الاجازة فراح يعمل كاتبا للأفكار فى الوسية بماهية كالموظفين . .

« وكان أبوه يرى هذا فيزداد زهوا ويشجعه قائلا : « الشاطر الى يكسب بجده عنته . . لا عيب سوى قلتهم فى الجيب - يقصد الفلوس - كده أنا مبسوط منك قوى يا عبده . . على الاقل الواحد يقدر يستلف منك . . مش دلوقت يعنى دا لو ربنا والعياذ بالله حوجنا . » الواقع ان أحدا منهما لم يحتج الى الآخر احتياجا ماديا . لكن الأب النقرزان هو الذى عادت عليه شطارة ابنه بكثير من الراحة والزهو . فمنذ سنوات والست هانم لا تستغنى أبدا عن أبود ، هو يدها اليمنى وهو عينها على أبناء جنسه عند التعامل معهم ،

ولذا فقد استغنت له عن حجرة فى حديقة البيت بجوار الجنائنى ، ثم استأجرت له شقة من غرفتين وصالة بشرقتين على الشارع آخر أبهة ، تدفع هى ايجارها شهريا بضع برايز فى الشهر ، وفرشتها له بمخلفات من عندها • عبده لا يبيت فيها الا لاما ، اذ هو طول النهار اما فى المدرسة أو لدى الست هانم وكثيرا ما يمسى به الوقت فى خدمة الرجل الكبير فعند خروجه يمر على الجنائنى ليملك معه ساهرا حتى الصباح يشربان الشاى ويتحدثان ويلعبان الورق ويحششان ويبيت معه فماذا يفعل بشقة كهذه ، فليؤجرها ، ولكن هل يؤجرها بملاليم أو بضعة برايز ، مبلغ ما اتفهه ، يستطيع ان يأخذه من ورائها فى جمعة واحدة أو ربما ليلة أو ليلتين ، وذلك لا يكلفه الاتصال بسمسار أو وسيط ، ولماذا سمسار ؟ ان السمسار قد يكون غيبا أو فى وجهه بعض دم فيخفض سعر الشقة ويبتذلها أو يسوى سمعتها ، أنه هو نفسه أحسن سمسار ، الأمر يحتاج فقط الى مشية على كورنيش النهر ساعة أو بعض ساعة ، حتما سيقابله ضابط أو مهندس أو تاجر أو طالب ابن ذوات بيده صيد يبحث له عن مكان ، ابتسامة فسلام فكلام فتلميح فعندى لكن صاحبها يؤجرها فى الليلة بكذا لمدة ساعة أو ساعتين مع ضمان الحراسة والتأمين ، ربما لا يمر أكثر من ربع ساعة تكون بعدها العربة الحنطور قد اقبلت تقرع الاسفلت بايقاع بهيج ، لينزل ثلاثتهم على مبعدة قليلة من البيت ثم يتقدم هو ليفتح الشقة ويرتب فرشها ثم يقف بالباب فى انتظار الضيفين ، اللذان يتقدمان الى الداخل وقد امتدت يد الضيف بالمبلغ المتفق عليه ، يتلقفه عبده ثم يغلق الباب عليهما بالافتتاح ويمضى ليغيب ساعتين أو ثلاث يقضيها لدى الست هانم فيضمن أكلا وشاى وادوات مذاكرة بالمجان ، ثم يعود الى التأخير فى العودة • فلعل البغى تخاف من العودة آخر الليل وحدها فتقبل المبيت معه هو حتى الصباح بدون أجر فى مقابل ان يلقى ما تبقى فيها بقية المساء ، رغم ثقته بأن ذلك حين يحدث صدفة فدائما ينتهى بغم ونكد ، اذ دائما تنقلب المرأة عليه فجأة من الميل الى الصد ومن الترحيب الى الرفض

وبغضه ، دائما يتوقع ان تستاء المرأة حين يبدأ يجامعها فاذا هي تستاء فعلا دون ان يدري لذلك سببا ، لكنه دائما يحاول ولا يزال يعتقد ان هناك من سترضى له بسلاسة اذا ما صار قادرا على دفع النقود بسخاء ..



« لقد كان لتلك الشقة المدنسة صيتا عظيما فى قريننا وكانوا يحجون اليها فى كل مناسبة . ذلك ان النقرزان كان يمشى فى القرية مزهوا متفاخرا يتوكأ على العصا يدخل دكان البقالة ليشتري ورقة دخان ويقف ليغمرطها ويلف لنفسه سيجارة ، يجلس على رصيف دكان القماش ليلعب الطاولة مع القمامشى أخ شيخ البلد. فان تطرق الى سمعه من هنا أو هناك حديث عن ناس سيذهبون الى المدينة لسبب من الاسباب فانه يرفع رأسه فى عظمة متواضعه ليقول بهدوء الفلاسفة : خير ؟ . فيقولون : خير . فيقول كأنه يصدر فرمانا بالحرية : « اذا عاوزين أى حاجة من البندر ابقوا فوتوا على الواد فى البيت . . اعتبروه بيتكم يعنى بدال ما تكلفوا نفسكم لوكانده » ، ثم يستأنف ما كان فيه وينسى تماما انه قال هذا . . لانه كان اذا تصادف وسافر هو الى ابنه فى المدينة يوم خميس ووجد أحدا من أبناء القرية عنده فانه يقيم الدنيا ولا يقعدھا . ويقولون أنه ذات يوم طرد خالتي بسيمه من شقة ابنه فى المدينة . يالها من سنين . لقد ظلت السنين الفاتئة قائمة على الدوام اجيالا طويلة من خلال هذه الحدودة فقط التى يحكونها عن طرد خالتي بسيمه من شقة عبده ، أو جبار كما تعود الناس على مناداته تيمنا بأساتذته الذين قال انهم ينادونه هكذا . حتى لقد ألف الناس فى تلك الواقعة أغنية عاشت سنين طويلة :

« دارك فين يا بسيمه	دارى دار عبد الجبار ،
« رايحه فين يا بسيمه	رايحه أزور عبد الجبار ،
« رايحه تزورى ولا تحطى	رقبة أهلك المجزار ،

« هذه الأغنية ظلمت أسمعها وقتا طويلا في الأفراح وفي الغيطان ولم أكن أعرف ان المقصود ببسيمة هذه خالتي بسيمه . لا أحد يتصور مدى سعادتي وتعاستي في نفس الوقت يوم علمت هذه المعلومة ، اقشعر منها بدني ووقف شعر رأسي ، ثم ان الآلام حطمتني بعد ذلك .. ذلك ان معرفتي لم تكن كاملة وهذا أشد أنواع المعرفة خطورة ، انها نوع من المعلومات التي لا يرحب الانسان أبدا بأن يعرفها بل أن يكون سعيدا بمعرفتها يكفي انني عرفتھا صدفة ، اذ كنت مع جدى فى فرح أحد أصدقائه من بلدة مجاورة ، وكان ليلتها فى أعلى مزاج ، ورحب بنا أهل الفرح وأكرمونا ، وتوهجت المغنية وغنت : « رايحه فين يا بسيمه » ، فاذا بالجمهور كله يشرع فى التراقص معها والمشاركة فى الغناء واذا بجدى الذى كان فى أقصى درجات الفرح قد انهار باكيا بحرقة ، واذا بناس كبار يلتفون حوله : « مالك يا خليل ؟ » . شاركتم الدهشة ، فان يغنى أحد أغنية رايحة فين يا بسيمه أمر مألوف جدا وعادى ، وأنا نفسى قد أردده بيني وبين نفسى فى اعجاب ، فهل بكى جدى خليل من كثرة المشاركة فى الانفعال مع الفرح ؟ .. هكذا تصور البعض لكن جدى خليل كان متوترا عصبيا يردد بصوت مكتوم قائلا : « أبدا .. هما عارفين ان أنا هنا وقاصدين يهزأونى » .. هما مين الى يهزؤك ؟ .. عيلة النقرزان » .. يهزؤك ليه عيلة النقرزان ؟ » .. « أهو ما أعرفش .. لكن هما الى موصيين البنت المغنية تغنى الأغنية دى بالذات عشان يكبسونى بيها !! » ، ثم يعتصر نفسه باكيا حتى خفت عليه واحتضنته وغادرننا الفرح منكسرين . وفى طريق العودة كان لا يزال منفعلًا متوترًا وضعيفا ، فاستطعت ان أجمع خيوط معنى يقول ان عائلة عبد الجبار كثيرا ما يداعبون جدى خليل بهذه الأغنية التي يعرفون معا مناسبة تأليفها ..

« العجيب اننى بعدها لم أنجح مطلقا فى استدرار شئ جديد

عن تلك الواقعة بل انه نسي انها حدثت وراجعني ، ثم انه تسلىح بالطرش المفاجيء . كل ما تمكنت من جمعه من معلومات حول مناسبة هذه الأغنية ان النقرزان بعد عودته من احدى سفراته لابنه جلس يلعب الطاولة على الرصيف ويلف السجائر في الدكان كالعادة ويحكى متاخرا كيف انه أنقذ الولد منها - أى من خالتي بسيمه - حيث انها كانت كما هو واضح - يقول - تعرفه من مدة وتسرح به وتضحك عليه : تصوروا هذه البنت الشيطانة وجراتها وفجرها حيث انتقته ولدا يستأهل مثل ابني ولولا ستر الله وحضورى فى اللحظة المناسبة لسيطرت على الولد وأحكمت شباكها حوله . فيقول من يسمعه من الجالسين : « ولكن هل ضبطتهما معا متلبسين يا حاج نقرزان ؟ » . فيقول مشوحا فى غطرسة : « ان الله حليم ستار » . فيدققون ، ويقررونه ولو بالعافية ، كأنهم جميعا يريدون مجامعة خالتي بسيمه من خلال الواقعة الواقعية التى حدثت بالفعل وتحققت ..

» ثم انهم بعد تلك الواقعة ينسجون بأخيلتهم حواديت وأساطير حول خالتي بسيمه فى شبابها وصباها ، تؤكد كلها ان فلان الفلانى جامعها ، والولد علان أكلها ، والولد ترتان رافقها من وراء زوجها هريدى ، وقائع يحكونها تشبه الحقائق التى كأنهم رأوها بأعينهم . لكنهم دائما كانوا يستدركون قائلين : « والله أعلم .. يمكن محصلش .. الظلم حرام برضه » . ذلك ان كلا منهم كان يتمنى أن يهتبلها لنفسه فى عز شبابه ولذا فهو يتخيل نفسه فى صور الآخر الذى يختاره ليحكى عنه على أساس ان ذاك الآخر ربما كان أكفا منه مظهرا أو خلقا أو مركزا . وكانوا يخلصون ضميرهم بعد الخوض فى لحمها بقولهم الله أعلم ، اذ هم فى أعماقهم يدركون انهم يحكون مجرد خيال أو اشاعات متنامية .. فما بالك وهذا رجل كبير المقام والسن يحكى فى الدكاكين كيف طرد هذه البنت الملعونة من شقة ابنه فى لحظة خطيرة ؟ لكن النقرزان لم يزد عن

قوله ان الله حلیم ستار ، وظن انه بذلك قد أرضى الله واستغفر من الذنب . فتكفل خيال الجماعة بما يتكفل به عادة حين ينشغل بمسألة ، تكفل بأحياء الواقعة وتكميلها على النحو الواقعي المنطقي .

« كان من الممكن أن أنسى خالتي بسيمة أنا الآخر وأتجاهلها كما فعل غيرى من أهلها . لكن كل من نسأها دفع في المقابل ثمنا باهظا جدا . . فهذا عمى طاهر اقتنع ببغائها واعتبرها عارا عليه أن ينسأ ، لكنه نسى مع نسيانه أن سبيل النجاح الوحيد لنسيان العار هو أنك تتصرف من منطلق التسليم بالعار ، أى أن عمى طاهر تيقن من أن احدا فى الدنيا لن يصدق شرفه ومن ثم صار الشرف فى نظره عملة زائفة تصرف كأن العار لاصق به لا محالة ، وكان ان أصبح لا شئ هناك يعز عليه أو يثير انفعاله أو نخوته أو خوفه سوى شئ واحد هو نقصان الرصيد أو ازدياده ، صار حيوانا ماديا يجمع النقود بكافة الوسائل ، يجمع ما لن يستفيد به سوى الاغراب وابناء السبيل . »

« أما جدى خليل فقد انكسرت صلابته فقوى على إحمها لحاما صلبا من طاقة الصبر عنده . لكنه لحام يسيح عند اشتداد الحرارة فيخلخل الكسر وتصبح نفسه أجزاء متناثرة من الصعب جمعها ثانية ، لكنه يجمعها ، اذ يغيب عن الوعي ساعات برادته حسبما يحتاج اللحم من برودة يتصلب معها من جديد . وأما جدتى فانها فقدت صلتها بكل شئ تقريبا الا بالله سبحانه وقرآنه ، كانها رأت أن تعتذر له مدى الحياة عن خطيئة تسبب فيها جمالها البائد ، لقد خلقها سبحانه جميلة الجميلات ، ثم خلقت سبحانه - هكذا تردد جدتى دائما فى صلواتها - ابنتى جميلة جمالا مشتعلا بالنار صنع فيها وفيهم وفى الجميع ما صنع : سبحانه جلت قدرتك أنت جميل ولا تحب غير الجميل ، فان كانت بسيمة قد حادت بجمالك نعمتك عن جادة الصواب فسامحها يارب دنيا وآخره ، فهى فى النهاية بعض جمالك وبعض ما تبدعه فينا من

صنع وصنيع • سبحانك أعطيتها الجمال ولكنها يارب مسكينة
لم تقو على رد الوحوش والغيلان •• أكل ذنبها يارب انها كانت
آية من آياتك فى الجمال ؟ •• مسكينة لقد قاومت على قدر
ما قاومت ، ولا بد انها بذلت أقصى ما فيها من قوة ، فان كانت قد
انهزمت ووقعت فى الاحوال فاغفر لها انها ظلت تقاوم ، واغفر لها
انها وحيدة ويتيمة وغلبانة •• وأنت وحدك تعلم ان كانت لا تزال
على قيد الحياة أم صعدت روحها اليك ••

« وهكذا وهكذا خذ من صلوات جدتى ما تشاء دون ملل ،
شغلتها تسبيحها ، نذرنا بقية عمرها ان تظل تصلى وتستغفر عن
ذنبها يوم فرطت فى دم ابنتها وألجأتها الى الهرب ، ان تظل بقية
عمرها تصم الأذن عن كل مكروه حتى يرضى عنها الله ويسامحها
ويسامح ابنتها التى لم تعد تعرف عنها خبرا أى خبر منذ سنوات
وسنوات ••

« هذه المعاناة وهذا العناء كنت أستطيع أن أدفعه من عمرى لو
أنه سيوصلنى بالفعل الى خالتى بسيمه أو يعرفنى شيئا حقيقيا
عنها وعن مصيرها بحقائق دامغة • الزمن وحده كان يستطيع أن
ينسينى مسألة خالتى بسيمه الى الابد ، لولا سببين قويين لم أعد
أستطيع مقاومتهما ، هذه الأغنية •• ولامحى ، فالأغنية لا تزال
تعيش كأنها تتحدانى وحدى • كذلك كلما ذهبت الى مكان فيه
أقارب لى يطلع دائما من يقول لى : على فكرة أنت شبه خالتك بسيمه
تماما ••

« اندهش قليلا ثم امتعض ، فكل أقاربنى الكبار يؤكدون لى ان
فى وجهى كثيرا جدا من دهائها وبعض رائحتها وخيلائها • حتى
أهى أنا ، هى الأخرى كانت قد أحببتنى كما تقول - لهذا السبب
نفسه مع انها هى نفسها لم تر أختها خالتى بسيمه ، انما جدتى
قالت لها وهى تهشكنى اننى صورة طبق الأصل من خالته بسيمه •

ولقد نشأت عندي عقدة قديمة خاصة بعد ان عرفت بشكل او باخر الوجه السيء من سمعة خالتي بسيمه وأتوقع ان كل من يرانى حتى من الغرباء سوف يقولون لى : انت شبه خالتك بسيمه ..

لكن الطريف اننى ذات يوم ليس بالبعيد جلست أشرب شايا فى بوفيه الكلية فى العاصمة ، فصاحبتنى فتاة لطيفة وجلست معى ، ثم راحت تتأمل فى ملامحى بامعان حتى خشيت ان تنطلق بالجملة المعهودة ، فاذا بها تنطق قائلة : « على فكرة انت فيك شبه كبير جدا من الفنانة رشا الحضرى .. انت تقرب لها ؟ » . صمعتنى المفارقة فقلت ضاحكا : « لا والله .. ولا تربطنى بها اى صلة .. حتى أغانيها لا أحبها .. وحتى صورها فى المجلات المصورة الملونة لا احبها لما فيها من خلاعة وافتتان .. ولا اظن اننى صاحبها فى يوم من الايام » . ثم اننى ظللت اضحك شهور طويلة على حس هذه النكتة ، متخيلا اننى فى المستقبل قد التقى بمن يقول لى : انت شبه مارلين مونرو أو جاكلين كيندى .. اليست هذه مصيبة ؟ من سوء بختى لا يشبهوننى الا بالنساء ..

« أترانى قريب الشبه بالنساء فعلا أم انها لعنة خالتي بسيمه ؟ » أغلب اليقين عندي اننى رجل بكل ما تحمله الكلمة من معنى . والتصاق شكلى بشكل خالتي بسيمه ليس معناه اننى نسائى الملامح والسلوك حتى يكون الشبه متطابقا الى هذا الحد ، بل ان معناه الحقيقى اننى دون الآخرين قد انطبع على وجهى وعلى صدرى صليب خالتي بسيمه ، لقد كتب على الى الأبد أن أظل أبحث فيها وفى قضية تشردها ثم عودتها مقتولة على هذا النحو .

٢

واستطرد مامون :

« ترى هل يتذكر عبد الجبار اليوم هذه الأغنية ؟ انه لابد أن يكون قد سمعها من قبل ، فقد ألغت هذه الأغنية ابان فترة طلبه

للعلم فى الثانوى أو فى الجامعة تقريبا • كان ذلك فى أواخر الأربعينات ، وهو على الأرجح كان طالبا بكلية الهندسة ، التى دخلها بواسطة من الست هانم وكان يسافر ثلاث أو أربع أيام فى الأسبوع الى الاسكندرية ، ويعود الى شقته فى البندر لىبقى بعض أيام تحت امرة الست هانم وطلبتها التى لا تنفد ••

« اننى فى الواقع قد عجزت عن التحقق من تاريخ ميلاد الأغنية ، هل ألفت بعد هرب خالتى بسيمة مباشرة ؟ أم بعده بكثير ؟ أم فى أثناء بقائها فى القرية ؟ • لكن المرجح عندى انها ألفت وتداونها الناس بمناسبة هرب خالتى بسيمة واختفائها عن الأنظار • هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان كثيرا من العقلاء والكبار الذين جذبوا احترام ، الناس ، كانوا اذا جاءت هذه السيرة صدفة بادروا بتصحيح تاريخ جوهرى ينفى عن عبد الجبار أى صلة له بالأغنية ، ويؤيدون ذلك قائلين ان عبد الجبار طول شبابه وصباه لم يعرف مسألة الحب والغرام هذه مع أى انसानة ، وانه كان شديد الأدب لا يرفع عينيه فى واحدة ، ويصلى الفرض بفرضه ، وأما الحادثة المزعومة التى رواها أبوه النقرزان فهى كذبة من قبيل التفاخر والفشخرة الكدابة ، أو هى زلة لسان ، والدليل على ذلك ان النقرزان نفسه قد سئل بعد ذلك فى تلك الواقعة فنفاها تماما وأنب الذى سألته تأييبا كاد يصل الى حد الضرب وقال : كيف يمكن أن يكون ابنى دنيثا الى هذا الحد ؟ ••

« ومن ناحية ثالثة فان أدب عبد الجبار وحسن سلوكه مسألة يعترف بها الجميع من معاصريه وزملائه ، بل انهم يضربون به المثل فى الأدب والحياء اللذان يؤديان بالضرورة الى هذا النجاح وهذا التفوق • ولا يذكر أحد منهم أبدا انه سمع عن عبد الجبار كلمة سوء أو عرف عنه سلوكا يفضب الله •• الكذب خيبة يا جماعة ••

« معنى ذلك أن شبهة وجود علاقة غرامية بين عبد الجبار وخالتى بسيمة فى زمن الصبا ، شبهة ضعيفة جدا ، أنا شخصا

لا أصدقها ولا أتصورها ، لسبب بسيط هو أن عبد الجبار منذ تخرجه فى كلية الهندسة وحتى سنوات قريبة كان يعيش حياة مكشوفة للجميع وخاصة نحن أبناء قريته ، اذ أنه حين يريد أن يفعل شيئا بالغ السرية فانه يلجأ الى استراحته السرية فى قريتنا وهى على بعد عشر كيلومترات منها ولا شئ حولها سوى حدائق وأسوار من داخلها حدائق وأسوار ..

« والمرجح طبقا للواقع والمنطق أن تكون خالتى بسيمة مجرد حدث عارض مر به فى الطريق دون أن يترك فيه أو فيها أثرا ولكن خيال الجميع هو الذى حولها الى ملحمة ينفس بها عن أشياء خاصة بهم . على أية حال فلست معنيا بالبحث فى أمر هذه العلاقة الآن ، لثقتى من أن خالتى بسيمة وعبد الجبار قد ذهب كل منهما فى طريق يصعب فيه التلاقى .. فها هو ذا عبد الجبار يفتتح الطرق والكبارى والمنشآت ويعاشر ملوكا وأباطرة .. وها هى ذى خالتى بسيمة قد عادت كما ذهبت وجثتها ترقد الآن فى الثلجة . أما مشوار خالتى بسيمة الذى قطعته طول حياتها فانى غير ملم به ولا أعرف عنه أى شئ على الاطلاق . أما مشوار عبد الجبار فهو نار على علم ، وقصة حياته وكفاحه انجيل يحفظه الأولاد . أنت لا تدري مقدار الفرح فى البلدة يوم تخرجه ، حتى أبوه فى تلك الليلة بسط يديه لأول مرة فى حياته ودفع نفقات من أجل الاحتفال بحصول ابنه على البكالوريوس – كلمة تدرب على نطقها كثيرا حتى أصبح له مذاق خاص فى نطقها – ولكن يقولون انه جلس ليلتها بجوار ابنه بين المحتفلين يعيد على رأسه صداعا : دفعت كذا لفلان تصور ؟ .. وصرفت كذا فى كذا فتخيل ؟ .. حتى هب فيه عبد الجبار كأنه يوبخ رجلا لا يعرفه : « يا أخى صدعتنا .. الى صرفته خده ع الصرمة ومتفلقناش » . فيعتذر الأب بكل كلاحة قائلا : « لا ما أقصدش .. أنا بس باوريك معزتك عندى » ..

« لكن عبده – وقد لقب بالباشمهندس من قبل تخرجه بسنوات

لم يعد محتاجا لأحد من ذويه - ثم انه لن ينتظر الشغل يجيء لحد عنده ، سوف يذهب هو الى الشغل أينما كان . الغريب انه مع ذلك لم يسع الى الشغل أبدا ، لأن الشغل كان دائما يجيء لحد عنده بالفعل . ذلك انه قبل تخرجه بسنة كان ذاهبا الى تقطيش الوسية فرأى الناظر يساوم أحد البنائين على ترميم الاسطبل . فدخل بينهما ، وطرده البناء برفق شديد ثم اختلج بالناظر فأقنعه ان الاسطبل كله في حاجة الى اعادة بناء على الطريقة الحديثة ، وراح يكلمه بالأمطار والمقاييس والمصطلحات الأجنبية البراقة التي يموت الأزارقة في جلددهم عند سماعها ، حتى ارتعب الناظر ووافق راضيا . فاحتسب له التكاليف الشاملة ، ثم قبضها كاملة ، فهو مهندس شاب لا رأسمال لديه وهو سيخدم فقط . وظل الناظر ينتظر أن يجيء عمال ليهدموا الجدران كلها ليبدأ مكانها بناء جديد . ولكن ذلك لم يحدث ، كل ما هناك ان اثنين من عمال البناء حضرا بصحبة عربية أو اثنين من الطوب ، وفهم الناظر في الحال ان الباشامهندس ضحك عليه واستغفله حيث قبض ثمن عملية بدون عملية . لكنه بعد صباحين أو ثلاث فوجيء بأن الاسطبل قد تغيرت كل معالمه بالفعل واتخذ شكلا جديدا ومدخلا جديدا وفراغات جديدة ، حيث قد أضيفت أبواب واختصرت شباييك وبُنيت أضلاع اتصلت بأضلاع ثم طلى كل ذلك بالأسمنت والجير . فسافرت سمعته بذلك الى كل التفاتيش في كل البلدان . .

« وفور تخرجه كانت صفقة من الجيش الانجليزى في انتظاره، عمليات في جميع الوحدات ، والجيش في حاجة دائما الى أبنية من جميع الأنواع والأحجام والأسعار وغرف المراقبة الى جانب انشاء طرق وتعبيد أخرى ورصف غيرها وهكذا من مقاولات لا تنفد . وكان للست هانم وزوجها دخلا كبيرا في تعبيد الطرق أمام عبد الجبار فلم يشاركه أحد في جميع احتياجات الجيش ومقاولاته . وحيث كان المفروض انه مهندس فحسب وانه سيحتاج لمقاولين

يفهمون في جزئيات التنفيذ واقتصادياته وأسعار مواده اذا به يدخل مهندسا مقاولا معا في نفس الشخصية في نفس الصفقة . وليس معنى ذلك ان العمليات التي قام بها لم تحتاج الى مقاولين غيره من أهل المهن المتخصصة ، بل ان كل خصيصة قام بتنفيذها مقاول ما له أنفاره النوعيين الخصوصيين ، لكنهم جميعا مقاولون من الباطن ، من باطنه هو ، يكلفهم باعتباره صاحب العمل الأصلي ، أى بشخصية الجيش الانجليزى ، أى ان جميع الأجور وأسعار المواد تدفع ناقصة نسبة مخيفة وبطرق مبتكرة فى التهديد والتلويح بالقوة ..

« شاطرا كان مخيفا ، لكأنه الشيطان تجسد فى حركات مادية لكنها لفرط ذكائها ودربتها وسرعتها تبدو مجرد اشارات لاسلكية يبعثها ويستقبلها لتتحول بعد برهة الى ناس تهد أو تبني أو تحفر أو تسفلت ، انه بارع فى خلق عمل يكدح فيه الجميع كدحا ويحصل هو وحده على أجره . ومشهورا كان الى حد النجومية فى جميع وحدات ومعسكرات الجيش الانجليزى على امتداد طول البلاد وعرضها ، وربما كان اتصاله برجال الثورة الازرقية قد جاء من هنا اذ انه حسبما يشاع خدعهم فى أمر ما ..

لم يكن غبيا ليتجاهل ما حوله من حركات اجتماعية تناهض المحتل . لذلك فانه أراد أن يضرب المثل فى الوطنية . فجاء ذات يوم من بعثة عمل خارج البلاد فى مدينة السويس ، كان رغم دمامة وجهه جميل الهندام لامع الشخصية ، هناك نمط فى بلادنا يلعب من بين ذوى الوجوه الدميمة أو العاهات ، فكثيرا ما ترى وجهها دميما جدا توطن النفس على ألا يكون لك به صلة ، فاذا به حين يحدثك تكتشف لباقة وجمالا مقريا بتقليده وتقليد حتى نواقصه فى النطق أو عاداته المصاحبة للكلام وان كانت بذيئة . هكذا كان عبد الجبار حين دعى كل شبان البلدة فى دوار بيتهم . يومها نظر فى الشباب الحضور وأحس بسعادة فائقة اذ وجد بينهم شبانا من الوفدين والاخوان المسلمين ومن هم بلا انتماء ، فى الحال جمع ذهنه ،

واستحضر خطبة يثق انها تعجب شبان الوفد كما تعجب شبان الاخوان ، أما الآخرون فان أى شئ سوف يعجبهم . وبالفعل صفق له هؤلاء وأولئك بكل حماس ، ذلك انه ردد كل شعارات الوفد والاخوان وأضاف اليها شعارات جديدة برامة يرفعها نفر من الوفد الجديد ومصر الفتاة والماركسيين . فتعالى الهتاف يشق الفضاء الساكن . واذا هدا الهتاف شرع هو فى طرح اقتراحه : بتكوين جمعية من الفدائيين تعمل لحماية الوطن واغلاق راحة الغزاة ، ولم يجرى بسيرة الانجليز أبدا رغم انه كرر كلمات الغزاة والمحتل الأجنبى والاستعمار وما الى ذلك من ألفاظ كانت مستحدثة فى قاموس الحياة والكلام اليومى ..

« واذا كان المفروض ان مثل هذه الجمعيات يدفع أعضاؤها اشتراكات فان جمعيته لن يكون مطلوبا من أعضائها ثمة اشتراكات ، لأنه - سى عبده - سيتكفل بوضع رأسمال للجمعية من جيبه الخاص . فيتعالى التصفيق والهتاف مرة أخرى لبلدهم . ثم انه بدأ فى الحال فافتتح باب الانضمام وتطوع ولد من أقاربه بتحضير كشف امثلا عن آخره بأسماء الأعضاء . وهنا وقعوا جميعا على أوراق ولوائح وقال لهم عبده ان هذه هى الجمعية التأسيسية وانهم بعد ذلك يجب أن يضعوا شروطا وقيودا للانضمام تمنع عن الجمعية أعدادا من الانتهازيين والتافهين فأحس الأعضاء بزهو كبير جدا ونفخوا صدورهم من الفرح ..

« اشتهرت الجمعية فى نطاق المديرية كلها وأصبح الانضمام اليها بين شباب القرى نوعا من الشهادة بحسن المستوى فى فهم النضال والعمل السياسى المثقف ، الذى ينبذ شغل العصابات والتخريب ويميل الى فلسفة الشغل البناء ، ان فلسفة الجمعية وشعارها المسجل : « اعمل فى وقت فراغك .. حتى لو لصالح عدوك » ، والمذكرات التفسيرية لهذا الشعار يحفظها نجباء الأعضاء من الشبان القياديين ويطنبون فى مدح عقيدتهم التى هى فى الأصل.

تقديس للعمل الذى يحبه الله خاصة وان المستعمر سوف يجلو ذات يوم عن البلاد فتثول ملكية هذه الأبنية الينا . وعلى هذا فقد انضم الى الجمعية شبان من الأعيان والخياطين والنجارين والبرادعية والتجار ..

» ثم ان الأمر سار بعد ذلك على نحو طريف ، حيث قسمت الجمعية الى فرق بحسب نوعية الصناعة والمهنة ، أطلق على كل فرقة اسم له معنى سياسى ، فهذه فرقة ذك الاستعمار أى الفلاحين، وهذه فرقة تنفيض البلاد من غبار المستعمر - أى البرادعية والمنجدين ، وهذه فرقة مسح اللوح من قدم الدخيل - أى النجارين . وهكذا وهكذا ثم عين عبد الجبار لكل فرقة قائدا أعطاه سلطاته العليا بحيث لاراد لكلامه أو ابطاء فى تنفيذ أوامره .. فنحن لا نلعب ، انما نحن نعمل عملا خطيرا يتعلق بالمصير . شهورا وراء شهور من التنظيمات والانتخابات زاط فيها الأولاد واحلو منظرهم وقد اندمجوا فجأة فى جدية رجولية رصينة غير مازحة ، ويدعون لأنفسهم ويتناقشون بعبارات فصيحة براقة ويخلبون لب الأباء ويمارسون الاحساس الجميل بالانشغال ولمعان النجوم فى الآفاق ..

بعد أن تهيأ كل ذلك أذيع ان عبد الجبار سوف يجيء ليجتمع بهم لتوزيع خطط العمل الفدائى عليهم . وكانوا وخاصة قوادهم وهم ينشرون خبر مجيئه لهذا الغرض يحسون بارتجافة القلب لحفة سريعة عميقة كلما شعروا باقتراب اللحظة الفعلية التى تتحقق فيها كلمة فدائى هذه ببريقها المتوهج فى خيالهم ، يحسون وكأنها لحظة الموت واقفة فى انتظارهم حيث هم يسعون اليها بظلفهم ، لكنهم سرعان ما ينسون هذه اللحظة حتى لا تهتز شخصياتهم أمام الآخرين بعد كل هذه الدعاية والخطب .. يا الهى كم حمل هذا الأثر من خطب تنوء بحملها الجبال ..

» المهم ان عبد الجبار جاء بعد أن رسم لنفسه المقدمة المناسبة التى ابتدعوا لها تسميات أجنبية جديدة كان يسمونها «البرستيج» .

ومعناها أن يأخذ النجم وضعه اللائق به من تكريم الجماعة واستقبالهم . وعبد الجبار نجم سابق من صفوه ، ابتداء من كونه يتعلم فى الخارج ، مروراً بكونه يستغنى عن ثراء أبيه ، ويضع لنفسه ثراء وهذه ميزة وكل الآباء يشجعون عليها ، وانتهاء بحادثة خالتي بسيمة التى أشاعها النقرزان ، وفى ذلك الوقت ساهمت فى شهرته كانه من أبطال الحوادث الغرامية ، نعم فلقد كانت هذه الأغنية قد ساهمت بقدر كبير فى تهيئة الشباب كلهم للاقتداء به وتقليده على الرغم من أن مضارها الأصلية هو وصم عبد الجبار بسوء السلوك ، الا أن الأغنية - رايحة فبن يا بسيمة - غطت هذا الجانب فظهر عبد الجبار فى خيال أولاد قريته كانه نجم أسطورى من نجوم المواويل . أليس غريباً وطريفاً ان الأغنية التى ألقت للتنديد بسلوك فتاة خاطئة مارقة ، يهدف تبشيع فعلتها وفعلته فى أنظار كافة البنات والصبيان ، اليس من الغريب انها تضى على عبد الجبار نوعاً من النبل رغم ندالة موقفه ، وتخلق منه مثلاً يلوذ به الشباب ؟ ..

« أيا ما كان الأمر فإن عبد الجبار خطب فى الأولاد يومها خطبة رسمت وجهة نظر الجمعية وطريقة تنفيذ عملياتها . ان فلسفة العمل فى الجمعية هى - بعد تقديس فكرة العمل أولاً : « اعرف عدوك » ، وبناء على هذه الفلسفة فإن طريق العمل يكون : التسلسل الى قلب العدو والعمل من داخله . ولهذا فقد قرر وضع خطة بأن تقوم كافة فرق الجمعية بالانتشار بين أضلاع العدو وفى أحشاء حياته ، لكى يتجسسوا عليه ويجمعون أخباراً ومعلومات معينة يبلغونها لرئيس الفرقة الذى يبلغها بدوره لرئيس الجمعية أولاً بأول ، كمن يتولى - بناء عليها - وضع خطط لآبادة جنود العدو وإتارة جنونهم ..

« حينذاك أحس القواد بفرح عظيم انبسطت له أساريرهم وضاعت الخفة القلبية المفزعة حيث اتضح لهم أن العمل الفدائى

ليس بالعنف الذى كانوا يتصورونه ، فأكدوا له أنهم وفرقهم تحت امرته فى كل لحظة . فوزع على كل قائد مبلغا من النقود السميكة المخزخشة فى بهجة وقال لهم ان هذا هو تموين الفرق وعلى كل قائد أن يطعم به فريقه طوال أيام العمل ، وانه قد حسب جيدا حجم النفقات التى يمكن أن تصرفها كل فرقة فى الأكل والشرب والدخان والفسح ، وازاد عليه ما يفيض بعد النفقات ، ومع ذلك فان احتاجوا لشيء آخر فليتصلوا بأحد رجاله فى أى مكان . .

« وهكذا بدأ العمل ، اذ جاءت عربة جرار فاقلتهم جميعا ثم وزعتهم على أماكن متعددة متباعدة جدا . ثم ان كل فرقة منهم فوجئت بأنها جاءت لتعمل عملا بحق وحقيقى فى معسكرات الجيش الانجليزى ومنشأته ، وبغاية القسوة ، حيث يتأمر عليهم جنود وضباط وناس لا هم بالجنود ولا بالضباط ولكنهم يشوطون فيهم بالشلاليت وبنفس البذاءة يشتمون أمهاتهم . وفى البداية قالوا لأنفسهم انهم لو كانوا يعملون هذا العمل فى غير هذا المكان بالأجر لما رضوا بالصبر على هذا الظلم ، فشحنهم القواد بأن العمل الوطنى ليس لعبة وأن عليهم أن يصبروا فى سبيل جمع معلومات وأخبار تفيد قضية الوطن . فاستأنفوا الصبر . وعاد الطلاب منهم الى مدارسهم ثم رجعوا ثانية فى فترة الاجازة اذ هم على الأقل يأكلون ويشربون ويشاهدون أشياء جديدة تنسيهم بعض الشيء قسوة العمل . .

لكن الصبر طال وطال . وفوجئوا جميعا ولكن على حد بأن قسوة العمل وعرقه تهد حيلهم وتحيلهم الى خرق بالية ترمى على الفراش فاقدة الوعي لا هى جمعت معلومات ولا هى مؤهلة لجمع شىء ، ثم ان المعلومات التى بهرهم فى الأول انهم يعرفونها ويدخرونها لا بلاغها مصاغة الصياغة المناسبة اكتشفوا بطول البقاء انها ليست تدخل فى نطاق المعلومات أصلا انما هى تفاصيل واقع يومى كبير وعات . وحتى الأذكىء منهم الذين جمعوا بالفعل

ما يسمى بالمعلومات أنساهم الارهاق جميع المعلومات والمعارف التي حصلها طول حياته . الا أن الزمن كان قد طال بهم على حبلين يفتلان على المدى البعيد في حبل واحد ، فالشعور بالخطأ والتمرد يأخذ وقتا حتى يقتنع الفرد باعلانه اذ هو موهوم لا يزال بقضية الوطن ، ومعنى تمرده على العمل ها هنا انه يبيع قضية الوطن ويفرط فيها . ولابد أن يمر وقت طويل حتى ينتقل نفس الشعور من فرد الى فرد ومن فرقة الى فرقة ، اذ انهم كشراذم متباعدة يظنون موهومين ببطولة الآخرين ، ثم ان الشعور بأنهم لا يجدون الاكل في الخلاء المدني كانت تغذية في نفوسهم أخبار وافدة تقول بأن البلاد لم يعد فيها عمل ، لم يعد فيها خير ، لم يعد فيها انسانية ، وكان ثمة قوة اعلامية مجهولة تريد أن ترسخ في اعتقادهم ان البقاء في هذه المنافي هو اعظم اختيار بالنسبة لهم .

» لكن الثورة المصرية المباركة حين قامت اشاعت في الشرق الأزرق نورا وحرية . وازاحت اخواننا من اعلان التمرد على عبد الجبار والتنكر لقضية الوطن . اذ ما لبثت الثورة الازرقية ان قامت في اثرها . وبفضلها عرف اخواننا هؤلاء ان عبد الجبار لم يكن في الواقع زعيما وطنيا كما أوهمهم ، انما هو مجرد مقاول للانفار ، عرفوا ذلك من الثورة الثقافية التي اشاعتها الثورة المصرية في المنطقة ، فجرائد كثيرة تفضح العملاء وكتب زهيدة الثمن تنقل المعلومات والمعارف الواسعة واذاعات توصلهم بالعالم عبر مؤشر كمود الكبريت . ثم ان الزمن أخذ يجري كالاكسبريس لا يتوقف امام صغار المحطات ، وفي كل يوم انباء جديدة متجددة واحداث مهولة واقعة ، وجبايرة تنهزم في لمح البصر ، وعائلات كبيرة متسلطة تنخلع أظافرها ، وقد نسي الناس لبعضهم البعض كثيرا من الأحقاد والثرات ، ومن بينها نارهم لدى عبد الجبار الذي باعهم للعدو خدما أذلاء وقبض هو ثمن المقالة . .

عل ان البعض كان يستبد به الحق فيفكر في الانتقام من

عبد الجبار ، فيظل عمرا طويلا في حالة جنونية دنيكشوتية • ورغم ذلك كان ثمة من يرى هذه الحالة منتشرة ويظل هو الآخر يسير اليها بالتهديد المتواصل والصوت المرتفع • ذلك ان ثمة أملا في الواقع كان يداعب خيالهم ، اذ يتوهم الواحد منهم ان صوته وتهديده قد يبلغ اذن عبد الجبار فيطلبه ويعينه في عمل مريح كما فعل مع معظم قواده ••

« ما يدير الرأس حقا أنني التقيت بواحد من قواده السابقين يعمل في وظيفة كبيرة جدا في إحدى شركات س عبده ، وجاذبته الحديث بلطف متوقعا أنه يعرف عبد الجبار حق المعرفة ويلتقي به كثيرا ، فاذا به - وهو في عمر أبي - يقول لي بنبرة صادقة أن عبد الجبار لا يعرفه ، اذ أنه لم يره منذ ذلك التاريخ الذي مات واندفن، وأنه عني في إحدى شركاته بواسطة من أحد رجال الثورة الازرقية ، وأنه في المرات العديدة التي التقي به فيها رفض عبد الجبار أن يتذكره أو يتذكر أنه كان يوما واحدا من قواده ، » •

٣

ابتعد مأمون كثيرا حيث راح يسرع في خطوه وأنا ألهم خلفه كأنني أبحث عن خيط الحديث الذي انقطع • وكان ايقاع نبض مأمون قد ارتفع فجأة فيما هو يفز السير عدوا • فنظرت حوالى فعرفت أننا قد سرنا مسافات شاسعة كفيلة بافساد موتور عربية فيات ٢٨ ، حتى لقد غادرنا القرية وعديدا من القرى وصرنا في البندر حيث يوجد مركز الشرطة • أخذت أهو هو ، وناس تقذفني بالحجارة دونما سبب فاعود ، والشمس كالبيضة فقسمت على أديم السماء فتناثر صفارها وأطل منه رأس الكتكوت مشتتلا • رغم أنني مشيت منزويا مهزوما فان طائفة من الكلاب الطائمة هرولت نحوي بأقصى سرعة ناشرة عدوى الحماس بين الآخرين ، فاذا هم يحيطونني وينهلون على تمزيقا وتلطيشا ، وصوت عوائى لا يبلغ اذن مأمون ، الذي ابتعد عني كثيرا بل دخل في مبنى متميز الشكل ••

من فضل الله يوجد دائما من يظهر فى لحظات النهش النابحة
 ليقول : « امشى .. بس ياكلب منك له » ثم يفض الاشتباك بطوبة
 أو ببوز حدائه أو بشومة غليظة . فما أن حدث هذا حتى اندفعت
 أجرى مهيض الساق أرفعها من الألم . ولقد استغربت من فرط
 الألم أن يوجد كل هذا السرب من الكلاب الضالة فى هذه البقعة
 وحدها رغم أننا لسنا فى منطقة سوق مثلا تكثر فيه العظام
 والنفايات . لكننى بعد أقل من برهة عرفت السبب الذى جمعهم
 هاهنا . ثم ضحكت ، اذ وضع لى أن نقيبهم على شونه ، ولسوف
 يظنون هكذا بجهلهم يحرسون وهما بولائم قادمة عما قليل ، والوهم
 مبنى على هذه الرائحة التى تسلفت الى خياشيمى وهى ذات نكهة
 ليست فقط فاتحة للشهية بل للشراسة والسعار ، تلك هى رائحة
 الجيفة ، التى توجد هاهنا مبطنة براائحة ما أعرف أنه عقار اسمه
 الفورمالين ..

هى عادتى وليس لى خيار فيها : أن أنجذب بدورى نحو هذه
 الرائحة انجذابا أين منه انجذاب المتصوفة ، يسيل لعابى ويحدونى
 الشوق الى الخيال البديع فى أكلة دسمة تاريخية . لم يكن ثمة
 بيوت كثيرة فالمدينة الحقيقية لاتزال تظهر صغيرة من بعيد . عند
 بيت معين يقف فى الحلاء بعيدا توقفت وقد أسكرتنى نكهة الرائحة
 تماما . فقفزت داخلا ، فاذا ببوز حذاء حديدى يشوطنى فى فمى ،
 فاندفعت أصرخ من الألم واندفعت أجرى فزعا بدون وعى . حتى
 اذا ما صرت بعيدا بعض الشيء هويت أعوى وأناؤه وأبكى ، واذا
 بكلب عجوز لطيف الشكل يهرول نحوى . فقدرت أن منظرى فى
 محنتى سوف يرد عدوانه عنى . لكن الكلب العجوز كان لطيفا
 بحق ، اذ راح يتشمم جرحى ويلق بعض مايسيل من دم . وكان
 حريا بأن يواصل اللعق بلذة فائقة ، أما وقد اكتشف أنها دماء
 كلب مثله فقد اشمأز ومسح لسانه فى الأرض وفى فروتى ، ثم
 رفع أماميته وربت على ظهرى فى رفق قائلا بحنان أبوى : « أصلك
 مفش .. غبى .. جأى مندفع كده منتأش عارف انت داخل

فين ٠٠ دى المشرحة يا حمار ٠٠ الى بيخزنوا فيها جثث اسيادنا
الآدميين ٠٠ ع العموم تعيش وتاخذ غيرها ٠٠ قوم ، ٠ فآخذت
أحاول النهوض والنار تلسعنى فمكت العجوز يتألمنى برهة طويلة
مشفقا على ثم أوما لى بالانتظار حتى أستريح ٠٠

وفيما أنا ألث وأتاوه رأيتنى فجأة أنتفض حيث شمنت رائحة
الأسطى حسنين وروائح أخرى أعرفها جيدا ٠ اعتدلت جالسا
أترنج ، يقف شعرى ، اذا بى أرى الجد خليل بذات نفسه - جد
مأمون - يلف حول مبنى المشرحة ، ويتلكا ، وييده جهاز تسجيل ،
وصوت أحمد عدوية يلعلع قائلا : سلامتها أم حسن ٠٠ وخلفها
مباشرة جملة من غناء سيف الماوردى ، فما يكاد سيف يستطرد
مغنيا حتى تركب عليه رشاش الخضرى ، كأن يدا تلعب بمؤشر
المحطات ٠ لكن الجد خليل كان يتلفت حواليه كالمطارد ، ويحاول
الاختباء عن عيون تراقبه فى الخفاء ، ثم اذا به يختفى فجأة كان
الأرض انشقت وابتلمته ٠ بعدها بلحظات طويلة ظهر مأمون خارجا
من المشرحة وهو يجفف دموعه ويبدو أنه مهان حتى النخاع ٠
فآخذت أعوى فى طلبه ، فانتبه الى ، فجاء يعزىنى فى بلوى ٠
وجلس يتفحص فكى ويجفف الدم بمنديله ، وأنا ألوى بوزى صائحا
ليس من الألم ولكن لأنبيه الى أن الأسطى حسنين الذى أحضر جثة
خالته بسيمة قد مر من هنا الآن وما هو ذا يمشى بصحبة بعض
المخبرين وضباط الشرطة ٠ لكن مأمون كان مستغرقا تماما فى
تطبيب جرحى ٠٠

ثم أنه أشار لى فتبعته الى مبنى المشرحة من جديد حيث يقف
مأمون مع تمورجى عجوز فينفحه سيجارة سوبر لم يجد فى العلبة
غيرها لنفسه فرماها وزعم أنه معه علبة أخرى ٠ وكنت أحس كأنه
يرشو هذا الرجل الطيب لكى يترفق بجثمان خالته فلا يعرضها
للامتهان ٠ وهو لم يقل هذا طبعا ، لكن التمورجى فهم من تلقاء
نفسه ما يسعى اليه مأمون بواسطة السيجارة فصار يطمئنه على
جثة المرحومة ويزعم أنها فى الحفظ والصون كأنها أخته ٠ وهنا

بكى مأمون لا أدري لم ؟ فقال التمورجى وهو يتجاهل بكاء مأمون
أن عليه ان كان يريد استلام الجثة حقا ودفنها على مسئوليته فى
مقابر العائلة فعليه أن يسرع فى اتخاذ الاجراءات والحصول على
التصاريح اللازمة والا فبعد ساعات قليلة سيؤمر بدفنها فى مقابر
الصدقة فبكى مأمون من جديد ولكن فى تشنجات متقطعة جارفة ،
وينزرد وجهه الجميل ويزداد حمرة ، وتمتلى عيناه الجميلتان
- الجميلتان حقا - بدموع تسبح فى خوف وضعف واسترحام
واستغاث . وهنا شوح التمورجى قائلا : « يوه بقى .. ماتخليك
راجل امال .. امال حتعمل الحاجات دى كلها ازاى ؟ .. مش تفوق
كده وتروق ؟ » ثم استدار وانصرف ..

وقف مأمون حائرا عاجزا ، وقال من بين شهقاته المكتومة انه
ذهب الى مركز الشرطة فلم يجد به أحدا فماذا عليه أن يفعل
الآن ؟ ..

ثم انه اتجه الى مبنى يقع فى نفس الاتجاه الذى تقع فيه المشرحة
ولكن الى بعيد قرب مدخل المدينة فاذا به مركز الشرطة . دخلنا
نركض على حذر فى طرقة مظلمة كابية مليئة بالحجرات المكتوب عليها
أسماء رتب شاغلها . توقفنا فى حجرة النوبتجى القصير ذى
الشوارب المتراقصة دوما . وكان يتهاى لغفوة حين دخلنا ، فأشار
الى مأمون فى احترام أن يأتى . فذهبنا اليه ، فقال له : « يابنى
لا تتعب نفسك اليوم . فالجميع هاهنا مشغول اليوم بأعداد المراسيم
لاستقبال عبد الجبار بيك .. اليوم لن تجد أحدا يعاونك على تحقيق
أو استصدار تصاريح النيابة والطبيب الشرعى وما تعرفه من ذلك ..
اتكل على الله يا ولدى » ..

وكان لابد لمأمون أن يتكل على الله وينصرف تاركا لدموعه
العنان . لكنه ارتد خطوة وسأل الشاويش النوبتجى عن سبب هذه
الزيارة المفاجئة التى يقوم بها عبد الجبار فى المنطقة ؟ . فنظر اليه
الشاويش النوبتجى فى استنكار كأنه يتهمه بالجهل ، وفعلنا نطقها

ولكن بلطف قائلا : « انت حضرتك منتاش عايش فى البلد ؟ ..
عبد الجبار كل يوم والثانى هنا بيفتح مشاريع استثمارية تخدم
المنطقة تخدم خطط التنمية .. وتقول ما المناسبة ؟ .. انه لا يمر
اسبوع الا ويزور المنطقة لسبب من الاسباب » . ثم أهمل مامون
كأنه سحب تقديره السابق له . ومرة أخرى وقف مامون عاجزا
لا يملك حتى السيطرة على دموعه ..



قال مامون :

— « قلت لك أن فتاة من زميلاتي فى الكلية فاجأتني ذات يوم
قائلة أن فى شبها كبيرا من المطربة رشا الحضرى . أقول لك الحق ،
يومها كدت أوافق الفتاة لعل ذلك النسب يكون سببا فى علاقة حلوة
أقيمها مع الفتاة فانا من فرط الجفاف الذى أعيشه وانعدام الأصدقاء
فى كل مكان أصبحت اشتاق لمثل هذه العلاقات ، وياحبذا لو كانت
فتاة سمراء خمرية مثل هذه . لكن أقسم باننى اغتظت من تشبيهي
بواحدة كرشا الحضرى . يومها تأملت فى وجه الفتاة برهة اقتنعت
خلالها بأن النعيم كله يمكن أن يتواجد لى بجوارها . وخطر لى أن
أكتب ، الأأنفى ، والا أؤكد ، لكننى استنكفت .. رشا الحضرى ؟ ..
تلك المهربة التى صنعوا منها مطربة لأنها مجرد خادمة سرير لأحد
رجال الثورة الازرقية ؟ ..

« لكن الفتاة لم تقتنع برفضى . فعادت مرة أخرى وسألتنى .
وكننت أحس أنها دبرت لاصطيادى فى البوفيه وحدى ، وكان
احساسى بذلك يسعدنى ويشعل نار الشبق فى نفسى . فوطنت
النفس على الاحتفاظ بها . ورأيتنى رغما عنى ورغم احتقارى لشخصية
رشا الحضرى وللانتماء اليها بأى سبب ، أحاول الغاء المسحة الفلاحية
الحشنة عن مظهرى ليكون انتسابى لرشا الحضرى قابلا للتصديق
ثم اننى طلبت للفتاة قهوة رغم عدم تأكدى من اكمال ثمن القهوةتين

فى جيبى ، ودعوت الفتاة للجلوس قائلا : « اظن حضرتك وجهت الى هذا السؤال من قبل » . ثم ابتسمت هى الأخرى ودققت النظر فى عينى بعينين ساحرتين متشككتين فى كل ما سأقوله مقدما ، ثم قالت : « مفيش داعى للانكار .. تنكر ليه ؟ .. أنا عارفه الحساسية الى عندك .. لكن مهما كان الانسان مايتنكرش لقرايبه » . انجمصت بقهوتى كالرجال المهمين قائلا : « معناه ايه الكلام ده ؟ » فتلعمت هى قليلا ، ثم انطلقت فى الحديث بكل سهولة وجراة قائلة ان موقف رشا الحضرى من بعض رجال الثورة الازرقية وموقف رجال الثورة الازرقية من بعضهم البعض فى الآونة الأخيرة ثم ما يشاع عنها من اشتغالها بالتهريب لصالحها ولصالح بعض المهربين الكبار من تجار المخدرات أو المتاجرين بمناصبهم ، كل ذلك يشكل حساسية خطيرة أى نعم ولكننا - هى وأنا - جيل آخر ليس علينا أن نحمل وزر ومسئولية جيل أكبر خاصة اذا كانت شخصية انحرافية ..

« ارتعشت ، حتى لقد خيل الى أننى قريب لرشا الحضرى بالفعل ، وكلام الفتاة الجميلة وصدق لهجتها فيهما قدر كبير من الجاذبية . ولقد انجذبت اليها بالفعل فتركته تنساب فى الحديث وأنا أومىء بالموافقة أو التأييد المؤقت من حين الى حين كأننى فى موقف أقارب رشا الحضرى بالفعل . ثم أن الفتاة الجميلة شربت آخر رشقة فى الفنجان وهزته وقلبته فوق الطبق ثم نظرت فيه بانفعال عميق ثم قلبته على وجهه ثانية ونهضت قائلة كأنها تأمر خادمها : « قوم ، لكنه أمر رقيق حتى ليرحب الانسان أن يكون خادمه بالفعل . أحسست بوجهى ركية نار ولسانى يخرج منها منسلخا : « يعنى ايه أقوم ؟ » قالت بابتسامة خطيرة : « عايزاك » . ما أجمل هذه الكلمة بل ما أسعدها . قلت : « حاضر » ونهضت واقفا أعدت فى بنطلونى الكتان المتقيح عند الركبتين ، وأضع يدي فى جيبى وأتركها تروح وتجيء بحثا عن القروش والملاليم ، وركية النار تصاعد السننها الى رأسى فتطلق لها حارقا ..

« قالت الفتاة باسمه ساخرة في براءة جيبة : « انت بتعمل ايه؟ » فلم أرد ، انما أوهمتني أنني انتهيت من البحث بأن أمسكت ورقة الحساب وتقدمت نحو الآلة الحاسبة التي تتركني فتاتها أشرب أولا ثم أدفع بعد ذلك . امتدت يد الفتاة الجميلة على كتفي كالحساية وسحبتنى من قفاى قائلة : « رايح فين ؟ التفتت ركية النار اليها بعينين ملتفتين ولسان يقول من حلق جاف : « حادف الحساب » . فامتدت يدها وعدلتنى فى مواجهتها . ورغم أنى فكرت فى الثورة عليها بغضب فأننى ما أن واجهتها حتى أسعدنى كل السعادة أن تلعب معى هذه الصبية الفائرة الناضجة الثمينة كما نلعب فى الحارة طفلين سعيدين . قالت : « الى يقعد معاى مايدفعش حسابات . . انت نايم ولا ايه ؟ » كان المزاج فى عينيها ولامحها الجميلة السمراء ، لكننى نظرت ثانية لعاملة الآلة الحاسبة فقالت لى : « الحساب وصل ، فاغتظت ، واتجهت اليها قائلا : « وصل امتى بقى . . لا لا أنا لازم أدفع . . أنا الى عازم » . قالت عاملة الآلة وهى تميل على أذنى ان هذه هى الأنسة « راندا » ، وهى صاحبة كل شىء هاهنا لو عزمت الجامعة كلها فلن تدفع ، ان رأسمال البوفيه كله من تبرعها ، فضلا عن التأسيس ، أما بقشيشاتهم فلها معدل آخر . .

« ظننتها تمزح هى الأخرى واننى وقعت ضحية لفتاتين شقيتين تريدان الهزء بى كفلاح متواضع انما هو طالع فيها حبتين كما يقولون . . لولا أننى واثق من عاملة الآلة فهى صديقتى الحميمة التى تحدثنى كلما انفردت بى عن نفسها وأهلها وزملائها حديث العارف الخبير كأنها وكالة أنباء كاملة . وأكلت عاملة الآلة انها لاتمزح ، واننى من الآن لن أدفع شيئا ثمنا لأن شىء أطلبه من البوفيه طالما ان قد ظهر أننى من أصدقاء الأنسة « راندا » وما أقلهم . وقفت مذهولا لبرهة . وكانت الأنسة « راندا » قد سيقتنى متقدمة بببطء نحو الباب واضعة يديها فى خاصرتيها ، فبدت كأن الله يستهدفنى بإبداعه المذهل يريد أن يصرعنى قتيلا فى الحال ، وكل هذه الفتنة الدسمة العميقة لم تبلغ العشرين من عمرها بعد . قلت : « لحظة واحدة من فضلك

يا آنسة راندا ، ، واستدردت أنظر في المرأة المجاورة لعاملة الآلة وهي تتابعني بوجه جميل أيضا لكن نصفه حاقه ونصفه مسحوق ، ثم تقول لي في همس ينبىء عن كثير من التمنى : « حضرتك ماتعرفهاش ولا ايه ٠٠ دى بنت أخت عبد الجبار بيك ٠٠ انها الوحيدة الي عايشه معاه على طول ٠٠ حتى أبو راندا عايش معاهم فى نفس البيت ٠٠ أصل عبد الجبار بيك مبيآمنش حد على نفسه غيرها ، ٠ وبعد أن أطلت مدة تسريع شعري قليلا ريشما تنتهى عاملة الآلة من حديثها الهامس استدردت مجيبا اياها بهزة رأسى وابتسامة كالعادة ، ثم مضيت خلف الآنسة راندا كأننى أرقص فوق أرض من الفلين ٠٠

« مضيت بجوارها صامتا كالمقبوض عليه فى سرقة غسيل الجيران . تمنيت لو أن عاملة الآلة لم تقل لى شيئا عن راندا ٠ لقد استأت جدا من هذه المعلومات ولذلك فقد صدمت وأحسست كأن سعادتى أصبحت محدودة جدا ، وكل الطرق فيها مسدودة ٠ على اننى رحت أختلس النظرات الى جسد « راندا » كأننى أبحث عن تصور لشخصية أمها التى نسمع عنها فى قريتنا من قديم كأنها أسطورة هى الأخرى ، فأم راندا هى أسعد اخوتها جميعا خاصة البنات لأنها ولدت فى زمن توقفت فيه الأم عن الولادة وظنت أن قدرتها قد انتهت ، لذلك حينما ولدت « فهيمة » أم « راندا » كان الخبر قد اخضوضر فى كل أنحاء الأسرة وصاروا يسعدون بأى قادم جديد يشاركهم كل هذا الهناء والنعيم ٠ وقد تسلم عبد الجبار شقيقته فهيمة تلك وهو على مشارف النجومية لتتولى خدمته ، فأحضر لها المدرسين والضيوف من علية القوم حتى جعلوا منها سسيمة بمعنى الكلمة ٠ فلما تزوج عبد الجبار لم يكن قد اكتشف أن أخته « فهيمة » قد أصبحت منه بمنزلة الأم أو أكبر ، اذ هى فى نظره أحلى من رأى ومن عاشر فى حياته ، هى الوحيدة التى تفهمه على حقيقته ولا تؤنبه ولا تشيل منه ولا تلوى بوزها ، الوحيدة التى تفهم طلباته ومزاجه ولفته وسلوكه ، وتعامل معها بكفاءة عالية حتى أصبح وجودها أمرا جوهريا فى قلب داره ، لدرجة انها تزوجت واحدا أليفا طيبا من نفس العائلة يعيش

معه في نفس البيت ومنصبه أنه تقريبا شبه حارس لعبد الجبار
في سفياته ..

« وصيت «فهيمة» أم «راند» يدوي في قريتنا ليل نهار من
خلال عائلتهم الكبيرة المتسعة باستمرار . فنسمع من حين الى حين
أنها أمرت ببناء كذا وفعل كذا ، وأن عبد الجبار حين عرضت عليه
الوزارة ذات يوم رفضها لولا أن فهيمة أقنعتة بالموافقة في آخر لحظة ،
وهكذا وهكذا . هذه اذن هي « راندا » بنت « فهيمة » ؟ .. أى
خيال هذا ؟ .. لكنه مع الأسف خيال سقيم اذ أنه سيهوى بي من
حالى بعد لحظات قليلة مصطدما بصخور الواقع . اننى مستعد لدفع
عمري كله دون قيد أو شرط اذا كان ذلك في جوار الأنسة راندا .
الوديعة الرقيقة المشعة بالسحر . ها أنذا أمشي بجوارها والكل يرانى
سائرا بجوارها فيقفوننى بنظرات ثاقبة مستطلعة مندهشة حاقدة
متشككة مراقبة . وأنا أنتهز أى فرصة فأرسل التحيات والسلامات
لبعض من أراهم من المعارف أو شبه الأصدقاء ، أحبيهم بكل بساطة
وأبتسم خجلا كأننى أقول علنا : لا تحسدوننى على شيء فأنا في
سراب واضح المعالم وكذبة مبنية على افتراء محض .. ان الأنسة
راندا أيها السادة أقامت جسر الود معى متوهمة اننى أحد أقارب
المطربة المبتذلة الشهيرة رشا الحضري وأنا ليس يرضينى هذا
الشرف . ثم استطرد في نفس ساخرا : ماذا تكون صورتى بعد هذه
الحفاوة لو علمت الأنسة راندا اننى ابن واحد من دهما قريتهم التي
لم ترها هي تقريبا في حياتها بل ماذا لو علمت اننى من عائلة بسيمة
التي لا شك سمعت أمها بسيرتها أو سمعت على الأقل بالأغنية
المشهورة ومناسبتها ..

« كنت في دوامة عميقة شديدة الدوار . فرغم أننى من زوار
البوفيه باعتبارى ريفي مغترب الا أننى لم أكن قد لاحظت الأنسة
راندا أو سمعت عنها قبل أن تقتحمنى هي أول مرة . وها أنذا أرى
اننى سأسمع الكثير بعد ذلك في البوفيه وفي المدرجات عن سيرتى .

« تجاوزنا سور الكلية ، واكتشفت أن «راند» طوال الطريق تحيى وتبتسم لعشرات ينتحون لها تبجيلا . فما أن صرنا على رصيف الكلية من الخارج حتى هرع المنادى مهولا نحو سيارة مرسيديس تمساحة وصار يمسح زجاجها ويطوقها بالفوطة ثم فتح الباب فتقدمت « راند » وهزت رأسها شاكرة ثم ركبت فيما هى تشير لى أن أركب . ففتحت الباب وركبت بجوارها وقد ارتفعت فروة رأسى واقشعر جلدى من فرط اللذة برائحة الأنثى فى العطر الفاخر ورائحة مقاعد السيارة . غلب من السجائر الأجنبية متناثرة فى اامال حول الكراسى . أخرجت علبتى السوبر التى تفحصت وتكرمشت وأخرجت منها سيجارة كالدودة متكرمشة معوجة ، وأخذت أقوم اعوجاجها وقطع الخشب التى بداخلها توخزنى فى أصابعى وتخرق الورقة فاكتب ، لكننى مع ذلك أشعلتها وبقيت صامتا . فلما استويينا على طريق الصحراء نظرت الأنسة نحو سيجارتى فى اشمئناط جميل ثم مدت أصابع يمينها وأخذتها قائلة : « تسمح ؟ فتركت السيجارة ، فاذا بها تطوح بها فى الشارع وتقول أمرة : « قدامك السجائر النضيفة . » تسيبها ليه وتشرب القرف ؟ » ثم دفعت بيدها احدى اللعب فى اتجاهى قائلة فى بساطة : « بطلوا العقد دى بقى » . ففهمت من هذه العبارة وحدها أن الأنسة « راند » تقصد جماعة الذين يزعمون الثقافة الرفيعة ويتحدثون عن حقوق الانسان والعدالة الاجتماعية والديموقراطية ويسمونهم بالماركسيين ظلما وعدوانا - على الماركسية لا على الزملاء بالطبع . ولا بد أن الأنسة « راند » رأتنى ذات مرة أتناقش بحماس وأردد عبارات كبيرة فظننتنى منهم .

« لذلك ابتسمت من تعليقها وتناولت اللعبة ببساطة وأشعلت منها سيجارة فقالت هى : « ولع لى واحدة » : فأشعلت سيجارة أخرى على الفور أشعلت بدورها كل كيانى لمجرد شعورى بأن شفتى احتوتا نفس المساحة التى ستحتويها شفتاها بعدى ، ففعلت حركة كوميدية أطلت بها سيجارتها باقية بين شفتى لبرهة ثم قدمتها لها ثم عدت فجذبتها ووضعتها بين شفتى مرة أخرى ثم سلمتها لها

ضاحكا . فضحكت هي الاخرى ضحكة قصيرة ووضعت السيجارة
بين شفتيها وتفرغت للقيادة . قلت لها : « حضرتك بتدخني ؟ » .
قالت : « أحيانا » . فأشرت الى العلب قائلا : « ماهو باين » ثم
ضحكنا .

توقفت عند كازينو فى قلب الصحراء . ما أن يدخله الانسان
حتى يفقد شعوره بالمدينة . يجلس فيه طوائف كثيرة من ناس فخام
متعجرفين ، أجانب « مصريين وسعوديين وكويتيين ، وبعض الأزارقة
المنتمين اليهم بسبب أو بآخر ويبدو مع ذلك كأنهم الأسياد الحقيقيين .
وكان من الواضح أن الأنسة راندا معروفة هاهنا الى هذا القدر الكبير
من التحية والالتيان بالبرتقال دونما طلب ، وبعده فطائر وشاي
كأنهم يستعرضون ما عندهم ولنا أن نأكل أو لا نأكل طالما أننا سندفع
نفقات هذا الاستعراض » .

وقالت راندا :

— « استاذ مأمون . . اذا لم تكن ابن رشا الخضرى فانت ابن
أختها أو أخوها أو ابن أخيها . . المرجح يا استاذ انك شقيقها ان لم
تكن ابنها من أب قديم مثلا اعتبرته هي ماضيا كريها فتكررت له كما
يحدث عادة بين مثل هذه الفنانات . . نعم . . فنفس العينين ونفس
الدم وسحبة الوجه بل نفس العود والروح . . أنت ابنها حتى
لو لم تلدك أو أخوها حتى لو لم تكن من نفس الرحم قد نزلت . .
أنا للعلم رأيته كثيرا جدا يا استاذ مأمون . . دعوناها كثيرا فى أفراح
لا نهاية لها بمبالغ كبيرة . . هي على فكرة انसानه طيبة جدا ونقية
جدا وانسانه الى أقصى ما تتصور ، ورقيقة أرق من أرفع نساء
البيوتات فى المعاملة والذوق القطرى . . لذلك هي تصلح أن تكون
صديقة لى ، لكننى أوجل ذلك الآن لأسباب . . استاذ مأمون . .
أنا آسفة . . أعرف أنك ممن يسمونهم باليساريين ، وأنت على شئ
من الثقافة والموهبة ، أظنك تكتب اغنيات أو مقالات أو ما أشبه . .
أنت حر طبعا ، ومن حقك أن يكون لك رأى معارض للحكومة لكل

شيء .. ليس هذا مما يعنيني في شيء .. كل ما في الأمر انني أريد أن أقول لك كلمة بهذا الشأن : لا يكون يساريا حقا من ينكر صلته بأحد حتى لو كان هذا الأحدهم سيء السمعة .. وعموما فأنا الملح في عينيك شعورا بالموافقة على كل ما أقول .. وأدرك كم أنت مستاء لأنني ضيقك عليك الخناق وقدتك الى الاعتراف بأنك من لحم ودم رشا الحضري .. لهذا فأنا سعيدة .. وأشكرك على هذا الصفاء الذي تبديه ، انه هو الآخر دليل وحده على قرابتك المتينة برشا الحضري ان نفس الصفاء يطل من نفس العينين بنفس الدهشة الفلاحية المتطلعة .. واستطيع أن أؤكد لك أنك لو حرصت على هذا الصفاء معي فسوف لا أنساك أبدا بل ربما ساعدتك على اجتياز أى عقبات في حياتك العملية فيما بعد ..

ارتعدت مفاصلي من الخوف .. قلت لها :

– « أرى انك يا آنسة راندا مشغولة بأمر معين .. ولا شك انني لو كان .. »
قاطعتني بسرعة :

– « أعتقد أنك في امكانك الكثير ولكن أرجوك لا تقاطعني ودعني أكمل كلامي .. انني فعلا مشغولة بأمر معين .. ولست وحدى .. أن أمي تحمل هي الأخرى هذا الأمر وأمنيتي أن تساعدني في إعادة الراحة اليها من جديد ، على الأقل بصفتك أديب ذو نزعة انسانية محضة كما يقال عادة .. »

قلت مندفعاً وراء فضولي :

– خير يا آنسة ؟ .. ما هذا الأمر ؟ ..

تحول الجمال الرائع العظيم في ملامح وجهها الى موجات حقد دافقة بالشر والتوعد ..

وقالت الأنسة رائدا :

« ان المطربة رشا الحضرى تسلط أسلحتها الفاتنة ، على خالى ٠ وهى تدعى أنها لا تعرف ٠٠ وقد عملت أُمى الى دعوتها فى عدة أفراح لأقارب لنا ثم جالستها قبل الغناء وبعده ، ودخلتها فى الحديث مرات عدة وبطرق متنوعة ، فاكتشفت أن رشا الحضرى - التى يعشقها خالى عبد الجبار - يخلو ذهنها تماما من أى شىء عن خالى عبد الجبار ٠٠ لم تسمع عنه الا أطبافا تجيء وتختفى من ذاكرتها ٠٠ وان كان ذلك صحيحا فان رشا الحضرى هذه سطحية العقل بل متخلفة عقليا ٠٠ فهل يعقل أن مطربة شهيرة ذاتة الصيت ولها صلات كثيرة بكثير من رجال الثورة الازرقية وأذئابهم وأذيالهم . لا تعرف عبد الجبار أكبر شخصية اقتصادية فى الشرق الازرق ٠٠٩ أستاذ مأمون ٠٠ لاتندهش ٠٠ ان أمك هذه أو شقيقتك أو عمك لا تفكير لها مطلقا ولا تعرف فى أى مدارس تعلمت أو فى أى عصر تعيش هذه الغافلة ٠٠ أنراها مجرد قطعة فلين يحتضنها الموج فى عليائه كلما صعد ؟ ٠٠ أنا بنفسى جالستها وبعثت لها النقاط مجزية وانفردت بها بحجة أننى من هواة الطرب ٠٠ ثم ناقشتها فى كثير من الامور السياسية والثقافية والفنية والاجتماعية ، ففوجئت أن رصيدها من كل هذه المعارف ضئيل ضئيل رغم أنها تحفظ الألحان بسرعة فائقة وتؤديها ببراعة ودربة تهيج أعصاب الجمهور ٠٠ فى البداية - آسفة يا أستاذ مأمون - قلت انها من أصل فلاحى واضح ، وأنها مكاراة تدعى الهبالة على العبط ، ظنا منها انها بذلك تنجو من القيل والقال وتتفادى الرعب الذى أحدثته الثورة الازرقية فى البلاد بتخوينهم وتجريمهم وما الى ذلك ٠٠ لكننى صاحبها فترة ليست بالقصيرة ، أكلها فى التليفون كثيرا وأدعوها للعشاء وتدعونى لحفل وننفرد ببعضنا أوقاتا لا بأس بها ، وأوجه لها امتحانات كثيرة دون أن تدري فاكتشف انها مسكينة الى أقصى ما تتصور ، غلبانة رغم أن شكلها يوحى بالفجر ، لاتعرف شيئا عن أى شىء الا الذين يعاشرونها

وتعاشرهم وتتعامل معهم بشكل مباشر ، هؤلاء فقط هم الذين
يرسخون في ذهنها ، حتى أنا ، تصور ، وأنا ابن شقيقة عبد الجبار
التي التقت بها كثيرا في مناسبات عدة كنت أضطر في كل مرة الى
تذكيرها باسم خالي ، الذي لم يكن في ذهنها أبدا أكثر من كونه أحد
الأثرياء الكبار وهو تارة اسمه عبد الجبار وتارة عبد الواحد وأخرى
عبد الوهاب وهكذا .. أنتظر من فضلك يا أستاذ مأمون .. اننى
أطمح في أن تساعدنى في فهم شخصيتها نظرا لخطورة الأمر .. ان
وجودها في حياة خالى سوف يثير حولى كثيرا من الشوشرة ووجع
الدماغ .. لهذا فأنى قلقه .. ولقد فكرت أوى في حل ، لكن ظهر
بطلانه . اذ فكرت أوى لو كانت رشا الحضرى طامعة في ثروة خالى
وتدبر لتهبها بشكل أو بآخر فانها - أوى - على استعداد لأن تدفع
لها مبلغا ثميناً بشرط أن تخرج من حياته نهائيا .. وكان أمامنا
مشكلة هى : كيف نتفاهم مع رشا في هذا الأمر ؟ اننا غير متأكدين
من أنها على صلة - من جانبها - بخالى .. ونخشى أن ساومناها في
هذا الأمر بصراحة ومن وراء ستار أن ننبهها الى نقطة ضعف فينا
تدأب على استغلالها بعد ذلك .. وأننا لفى حيرة شديدة .. الا خالى
عبد الجبار فانه لا يقيم للأمر وزنا في الظاهر ولا يشغل باله بأى
شىء .. »

وجدتنى مضطرا للدفاع عن رشا الحضرى . وقلت في غضب
واستياء :

- « ما ذنب رشا الحضرى هاهنا بحق الشيطان .. اسمحوا لى
فانا في هذا الأمر بالذات مضطر الى الدفاع عن رشا الحضرى ..
فها أنت قد اكتشفت انها متخلفة عقليا ، وأنها بلا دائرة معارف
ثقافية أو اجتماعية أو سياسية أو تاريخية أو ما شاكل ذلك ، وهذه
محنة الأميين والأزارقة لأنهم لم يجدوا من يربيههم .. وقد وضع لك
بشكل قاطع أن رشا لا تنوى حتى أن تتذكر اسم خالك على الحقيقة ،
وليس بمعقول أن تفتعل الى هذا الحد وتمثل الى هذا الحد ... كون
خالك لمؤاخذه من مجانيين رشا الحضرى - أقصد عشاقها - الى حد

يدفعه - مثلا مثلا - الى اقتناء شرائطها وصورها وما الى ذلك من امور فهذا ليس ذنب رشا الخضرى أبدا » .

ظهر الاستياء الشديد على وجه الأنسة راندا لأننى صورت خالها على هذه الصورة . لكنها سرعان ما نسيت ذلك وبدأ عليها الضعف والرجاء وقالت :

- « آسفة . . لست أحب أن نتبادل التجريح . . وأنا فى الواقع آسفة مرة أخرى . . فربما أكون من الانفعال قد تحدثت عن قريبتك بشئ مزعج . . ولكن لكى تقدر أسفى حق قدره . استمع الى هذه القصة . . .

قالت الأنسة راندا :

- « كانت أمى عروسا حين رأت نفسها مسئولة مسئولية كاملة عن خالى عبد الجبار . . وكانت تحب خالى عبد الجبار أكثر من حبها لأى مخلوق آخر . حتى ذلك الذى من المفروض أن يكون زوجها فى يوم . . وكنت أنا فى طفولتى أحرار فى سلوكها نحوه . . فلما دخلت الجامعة ودرست الآداب اكتشفت التفسير الحقيقى لموقف أمى . . . اكتشفت أن هناك عقدة يسمونها عقدة اليكترا ، ومنشؤها - على ما أذكر - تلك الأسطورة العالمية المسماة بأوريست ، حيث ثبت من موقف شقيقته اليكترا تجاهه أن الفتاة يمكن أن تحب أخاها حبها لحبيبها الآخر ، أو الذى مفروض أنه آخر ، المنفصل عن لحمها ودمها . . وعموما فإن هذه العقدة ليست ترجع الى تلك الأسطورة بل هى ترجع الى بدائية الانسان حين كان الرجل يحب أخته الشقيقة فيتزوجها . . ان ما يسمونه بعقدة اليكترا هو بقايا ذلك السلوك البدائى فى الانسان . . لست أدافع عن أمى ، فليتنى فى عظمتها . . لقد لاكت الألسن سيرتها فى محيط الأصدقاء والمعارف ثم انتشر ذلك فى بعض الأوساط . . ومصدر توترهم جميعا هو تلك السيطرة الكاملة التى فرضتها أمى على خالى ، ومدى الضعف الشديد الذى

يعتريه بجاهها : هو طفل أمامها لا يملك أى حراك ، وكان ذلك عن حب شديد شديد .. الحاقدون الموتورون من المحيطين بنا - الى كل يوم قاعدين فى بيتنا ويطلعونوا يجيبونا فى سبرتنا - لا يعرفون شيئا اسمه عقدة اليكترا ، ولا يفهمون فى هذه المسائل .. ان أمى فى نظرهم - بكل وضوح - « تعشق » خالى عبد الجبار وربما كانت تعاشره مباشرة الأزواج .. أقولها لك قبل أن تسمعها من الآخرين .. وحقيقة الأمر يا أستاذ مأمون ان أمى قد أغدقت من حبها على خالى ما جعلنا كلنا حتى نحن أولادها نفسار من خالى ونكاد فى بعض اللحظات نكرهه ونحقد عليه لأنه يأخذ كل عنايتها وكل عواطفها ..

.. « فى يوم تركتنى أبكى حتى انقطع نفسى ، وهى فى حجرته تطيب له نفسه وجراح أصدقائه ، لم تخرج من عنده الا راضية النفس متوردة بالنشوة لأن خالى قد رضى وهدأت جراحه ونام .. لم تتذكرنى الا بعد وقت .. لكننى بعد أن كبرت يا أخ مأمون فهمت كل شيء وتحررت من كثير من المعتقدات البالية .. وعرفت أن المسألة كلها تنحصر فى أن أمى مصابة بعقدة اليكترا .. وهى لا ذنب لها فى ذلك ولا تملك الشفاء من عقدها مهما احتوت خالى عبد الجبار احتواء تاما وعرفت كل صغيرة وكبيرة من أسرارها ان كان له تجاهها أسرار ..

.. « جبارة هى أمى يما يقولون يا أستاذ مأمون .. قد تندهش كما اندهش الآخرون اذا عرفت انها عقل مدبر من أكبر العقول الرياضية ، لا يباريها أحد فى الحساب والوصول الى النتيجة فى لمح البصر ، تتعامل مع جيوش جرارة من الارقام تضربها فى بعضها وتجمعها وتطرحها أين منها الكمبيوتر ، ان الكمبيوتر هو مصدر المراجعة الموثوق منه عند خالى لحظة التحاسب وأمى هى مصدر المراجعة الأعلى من الكمبيوتر .. هى قد اضطرت لأن تكون كذلك من فرط حرصها البالغ على متابعة ثروة خالى وملاحقتها بالمليم فى كل مكان فى أى دولة .. ثمة مبالغ فى بنوك معينة لا تصرف الا بتوقيعها هى .

وهكذا ٠٠ ثم انها يا استاذ مأمون ترسم مشاريعا تبدو لك جنونية ، لكنها تبتسم في استهتار قائلة : « وايه يعنى ؟ ٠٠ عبد الجبار حينفذها » ٠٠ وبالفعل ينفذها خالى ٠٠ ان رسم المشروع فى نظرها ليس الهندسة ولا المسائل الفنية ، انما هى ترسم طريقة للايقاع بشركات كبيرة وتدخلها شريكة معها بنسبة معينة فى مقابل قيامها بتصميم الشئ الفلانى أو تنفيذ الشئ الفلانى ٠٠ فى العادة ينجح خالى فى ضم أى شركة تتعاون معها وجعلها جزءا من شركاته .

٠٠ « منذ أن علمنا أن أمى بالنسبة له كل شئ وهو بالنسبة لها كل شئ تقاضينا جميعا عن كل شئ ، طالما أننا مباح لنا فعل كل شئ والاستمتاع بكل شئ فى الحياة كما نهوى ونرغب ، بشرط أن نضع لأنفسنا القواعد الأخلاقية المناسبة والقوانين التى تحفظ الكرامة وتحميها ٠٠ طالما وجدت من يحمى ظهرك بأمواله وقواه فأنت آمن ، هكذا نعتقد يا استاذ مأمون ، ونعتقد أن غير ذلك من الاعتقادات مجرد فلسفة لا تصلح لسد الرمق ٠٠ لا تراجعنى فأنت حر فى رأيك ٠٠ المهم أرجو أن أكون قد دافعت عن موقف أمى بما فيه الكفاية ٠٠ أقصد أنه ليس دفاعا ٠٠ لكن أقول قد وضحت موقفها بعض الشئ حتى تكون انت على بينة من شئ قد تفاجأ به فيما بعد ، فأنت تعرف أن الشخصيات الاجتماعية الكبيرة معرضة دائما للخوض فى سيرتها خصوصا الشخصيات الهامة جدا ذات العلاقات الدولية المتشعبة مثل خالى . أنت تعرف أنهم أشاعوا عنه الكثير والكثير فى السنوات الماضية ٠٠ قالوا انه ابتنى القلل والمساكن الفاخرة للحكام بالبحان ، وحقيقة الأمر انه أخذ تكاليفها فحسب ولكن من بعض الجهات الرسمية واعتبر أنه لا يجب أن يتاجر على رجال عظماء ، وحقيقة الأمر كذلك - كما لعلك أن تعرف يا استاذ مأمون - هى أن الألسن الشيوعية المنحلة تقف لحالى بالمرصاد وتشنع عليه أسخف التشنيعات ، غير أن خالى لا يقيم لهم وزنا ، بل لا يهتز من روسيا نفسها ، انه واثق أنه لو سلط عليها أمى فسوف تهزمها ٠٠

« هم قوم منحلون كما تعرف يا أستاذ مأمون .. ولكن الله دائما يقف مع خالي ان لم يكن من أجله فمن أجل المشاريع القومية العظيمة التي لولاها ما كانت الحياة في وادي الازرق .. وقد تعودنا أن نستمتع الى كافة التشنيعات على كل لون وكل مستوى .. تصور يا أستاذ مأمون اننا من كثرة تعودنا على الاشاعات كنا في كثير من الأحوال يختلط علينا الأمر ، بين الواقع والاشاعة .. فمظم الاشاعات عشناها كواقع ، ومعظم الواقع عشناه كاشاعات لذيدة .. الا أن يقولوا ان أمي « تعشق » خالي عبد الجبار عشقا من ذلك النوع الذي في دماغهم .. ليكن .. حتى هذه الاشاعة أرادوا لها أن تتحول الى واقع . ثم انها قد جرحتنا وانتهى الأمر ولم نعد نبالي ان كانت واقعا أم هي مجرد اشاعة تستند على شيء من الواقع .. ثم اننا واثقين في نفس الوقت من شرف أمنا وخالتنا وأهل أسرنا جميعا .. ان خالي كما تعرف ليس بالذي يتعذر الى مستوى الحيوان وهو يملك أن يكون « دون جوان » القرن العشرين – بفلوسه ومركزه ..

« آه لقد تشئت ذهني يا أستاذ مأمون ويبدو أنني منفعة .. لأسباب كثيرة .. اشرب قهوة أخرى معي .. اسمع .. ليمون ومعه قهوة .. ليكن .. دخن من هذه السجائر .. دخن .. لقد أنست اليك يا أستاذ مأمون .. أنت فعلا فيك شيء يجذب النفس اليها ويدعوها الى التصريح والمكاشفة ، كأنني أتوقع أن تكون أنت أيضا وراءك مثل ماورائي من حكايات مثيرة .. أنا للعالم محدودة الصلات كما تعرف ، لكنني بارعة في اكتشاف معدن الناس الحقيقي مهما دهنوا وجوهم بطلاء من الذهب .. دخن .. أحب أن تتعامل معي كأختك ، نساعد بعضنا بعضا في حل أزماتنا النفسية .. أنت بالطبع محتاج الى صديقة تواخيك أنا أيضا محتاجة الى صديق يؤاخي ، أي يشعر بما أنا فيه .. فليس لي من اخوة صبيان .. كل اخوتي بنات صفار .. ورغم أنني حرمت من الأمومة الحقيقية فأنني – شيء غريب – أحمل في أعماقي نفس أم كبيرة .. ما أسعدني وهم يقولون أنني دفعت مبلغ كذا ليستفيد ناس ..

تقول أمي اننى سأكون من رواد الحركة النسائية الحديثة وتقصد الحركة التى تدعو لأن يحكم النساء العالم بعد أن جرب الرجال دورهم ففشلوا وملأوا الكون بالدمار والحروب .. لكن تحدثنى الأم التى فى اننى لن أحصل على حبيب يحبنى حقاً ، بقدر ما سيكون من نصيبى الوقوع فى طوفان أحبه أنا لمجرد أنه يفدى فى نفسى مشاعر الأمومة بنجاح ، وسيكون على حينئذ أن أتحمّل سخافاتى وأتجرع أمراضه ومرارة مذاق شخصه على الدوام وبلا ضجر ، ألسنت أنا التى اختارت ذلك دون أن تدري ؟ ..

.. « اشرب يا أخى مأمون .. الغريب كل الغرابة يا مأمون يا أخى اننى رغم احتقارى لأمى - أقصد رغم أنه من المفروض حسب الإشاعات القوية أن أحتقر أمى لعلاقتها بخالى وأهلها لأبى تماماً حتى أصبح ونحن معه نعانى الكثير من الجفاف .. فأننى مع ذلك أحبها وأحنو عليها ، فلعلها هى الأخرى قد حرمت الأمومة من صغرها مع أنها تهيأت لممارسة دور الأم فادته كما ينبغى .. مهما كان الأمر فأننى حين احتوى رأسها الكبيرة بين ذراعى فى حنان أراها تنهمر باكية وتتحوّل الى طفلة ودیعة وأرانى مدفوعة بشعور من اللذة يأخذ فى التناهى والتسامى كأننى قد صرت أمها الحقيقية فأدعوها الى طرح مشاكلها الخاصة بكل صراحة . وأسألها عن تعلقاتها ، ولكنها تنهمر باكية ولا تحكى أى شىء ، وبهذا يظل الحاجز القائم فاصلاً بينها وبين أمومتى .. بل اننى فى اللحظة التى تتصل الأمومة فى بالابنة فيها وتشرع هى تحكى بعض همومها الخاصة بالخوف من تمرد خالى عليها ، لا تجاوز القشور السطحية الواشية بأشياء مثيرة ، اذ هى تدعى فى الحال لمقابلة خالى ، ان مجرد وجوده فى البيت يجعلها قائمة على قدم وساق حتى يخلد هو الى النوم ، وتكون هى دائماً آخر من يراه قبل النوم بعد أن تستأذن زوجها الاستئذان الأخير متجهة الى حجرتها الخاصة ..

« أنت مثقف يا أخ مأمون ومتحرر الفكر ولهذا فأنا أتحدث أملك

بلا حرج عن مثل هذه الأمور ، وأنا واثقة أنك لن تحتقرنى بل ستزداد منى اقترابا وتشاركنى فى موقفى .. أنا لست غبية أو مبتذلة .. أنا اخترت ولدا مثقفا لأفنى له بحقيقة مشاعرى .. أخ مأمون .. ان كان فى أمومتى مطمئن أو شرخ فيكون فى نقطة ضعفى التى لا أملك التغلب عليها أبدا .. تلك هى أننى أشفق على أمى وأعيش تجاهها موقف الأم بكل حذافيره ، فان كانت لم تغلح فى أداء الدور نحوى فسوف أفلح أنا فى أدائه نحوها .. انها فى نظرى مسكينة لم تعيش حياتها أبدا .. ان عمق المسؤولية وحجم التوتر الذى تعيشه فوق ما يحتمل البشر .. لا أظن مطلقا انها سعيدة فى حياتها .. اللهم أن تكون لذتها العظمى هى أن تظل مانحة معطاء هكذا على الدوام دون أن تأخذ أو تفكر فى الأخذ - لا أقصد الأخذ المادى - انها تحرق نفسها دون أن تدرك فى سبيل أن يحيا كيان انسانى معين ، وقد نسيت نفسها ودب الشيب فى رأسها وصارت تقضى أوقاتا طويلة أمام المرأة بل صارت تزمع مباراتى فى الشباب وتكثر من الانفعال على ومحاولة كسر أنفى حتى لا آتية عليها جمالا ..

.. « لا أدري سر موقفها العصبى منى حين أكون متألقة الجمال .. ان قلت انها وهى على مشارف سن اليأس قد بدأت تغار من أنوثتى ونضجى فى صورة خوف مبالغ فيه على وعلى عرضى وشرفى وسلوكى حتى لتحملنى مسئولية جمالى .. ان قلت ان ذلك وضع شبه طبيعى بالنسبة لآى امرأة فى سن اليأس ، يبقى شئ واحد أراها مبالغة فيه الى أقصى حد ، ذلك أنها لا تكون مسرورة أبدا حين ترانى فى لحظة صفاء مع خالى عبد الجبار .. هذا شئ حرت فى تفسيره يا أستاذ مأمون .. لا أعرف كيف صرت ألتفت لهذا الأمر ، ولكننى كنت مجبرة على ملاحظة أن أمى دائما أبدا تؤجل طلباتى لمواعيد اللقاء بخالى فى لحظة مناسبة .. حتى ان التليفون ورددت أنا بالصدفة تتركنى هى برهة ثم سرعان ما تقبض على السماعه لتكمل الرد .. وكنت ألجأ الى محاولاتى الخاصة فاتصل بخالى فى أى رقم

وادعوه للمقابلة الضرورية : « عايزاك ياخالى .. وماله يا حبيبتي الساعة كذا خليكى سهرانة لحد ما ارجع » .. وكنت أفعل .. فاذا أمى ينتابها غضب الى حافة الرغبة العميقة فى التدمير لولا أننى أحتويها فى الحال .. ثم اننى بدأت بعد ذلك لألاحظ أنها غير مريحة على الإطلاق بأن افراد فى جلسة مع خالى الا لدقائق معدودة وتحت رقابة خفية .. أنا أقرأ روايات كثيرة يا استاذ مأمون ، ولكننى أبدا لم أجد نموذجا فى غرابة أمى ، ولهذا فأنا مدينة للروايات بتهياة عقلى للتوازن وملاقات الأمور ببساطة وبداهة .. الا أمى فهى عقدة عويصة فى حياتى وسوف تظل كذلك حتى بعد أن تموت بعد عمر طويل باذن الله ..

.. « تزعم أن خالى مرهق الذهن والبدن ولا يزال أمامه واجبات الزامية حيث يلتقى بأولاده ومشاكلهم التى لا تنضب وشواغل مستقبلهم وحيث يلتقى بزوجته ، وحيث يكون قد بقيت فيه حياة لتصفية ختامية فيكون مع أمى .. انه بالفعل شئ يرهق البدن بل يهد الجبال ، أن يظل المرء طول اليوم يجتمع بناس ويحضر جلسات ويسافر ويفتح ويناقش ويفض منازعات ويبقى فيه بعد ذلك متسع لأى ممارسة .. انهم بالفعل لناس جبابرة يا أخى مأمون أليس كذلك ؟ .. يخيل الى أن جيلنا ليس بهذه القوة أبدا .. اننى أدوخ من فرط تخيلى لحدوث هذا ، فما بالك بالممارسة ؟ .. جملة اعتراضية اسمح لى بها ، تلك هى أننى واثقة أيضا من أنك سوف تقدر موقفى على خير وجه ، سوف لن تتوهم أن علاقة حب أو ما شاكل ذلك من العلاقات الشبانية أو الروائية يمكن أن تقوم بيننا .. فمبدئيا لن يقوم بيننا زواج لسبب بسيط هو أن طرق العشق والغرام مسدودة بيننا .. وأنا واثقة من أنك تعلم هذا ، ليس لأسباب طبية وما الى ذلك ، بل لأنك مثقف ناضج ولا تؤمن بعصر الحواديت .. انتهت جملتى الاعتراضية .. هات سيجارة ..

.. « هذه أول مرة فى حياتى أشعر فيها بالانطلاق والحيوية

ولهذا أحب التدخين الآن .. قد لا تعلم أنني جلست هذا من أول ما رأيتك ، فمن النظرة الأولى وضعتك تحت الاختبار وعلمت من كافة مصادري أنك طيب تقى وفى حالك بقدر ما أنت مستنير ، وأنت تميل الى العزلة والسرхан المطلق حيث يتجههم وجهك وتتقلص ملامحه كأنك تحمل هم عار خطير أو هم كسوة الأولاد فى العيد .. فلما بلغتني هذه الصورة عنك ضحكك كثيرا وحدثت نوع الهم الذى يكون شاغلك ، لملك لا تعرف أنني جلست فى مواجهتك من بعيد أنا ومجموعة الصحاب نضحك ضحكا مكتوما ونفعل حركات لطيفة تهسد بها الى ايقاظك وأنت غير موجود على ظهر الأرض .. أنا الوحيدة التى أحسنت تفسير حالتك هذه الدائمة ، أنت أيضا تعيش فى مأساة عميقة تطفو همومها على وجهك وتسلبك من المكان والزمان .. هكذا قلت لنفسى طبعا ثم اننى عرفت أن هذه المأساة لابد أن تكون رشا الحضرى التى لا تستطيع أن تهرب من شبهها .. لقد تأكدت من مراقبتى لك انك تعاني ، وقدرت أن سبب المعاناة هو رغبتك الدفينة فى الانسلاخ عن المطربة رشا الحضرى لسوء سلوكها ولكونها عار عليك فى وسط طلاب سليطى اللسان انك فى أعماقك تحقرها وتنفى كل صلة لك بها ومن المؤكد أن لها اسما تحمله شهادة الميلاد غير اسم شهرتها الفنى . انت كما يبدو لى قد وطنت العزم على أن تتبرا منها ، ولبسك هذا الدور فصرت شبه مقتنع بأنك لست قريبا حقا .. لكن ليس على أنا .. ها أنذا أجرك الى الحديث عن نفسك فأكاشفك بالحديث عن نفسى ولكنك ثقيل بحق .. ان ذكائى لا يخيب .. هكذا تقول عيناك ، وحدسى لا يكذب .. ولسوف أظل بك حتى أجعلك من فرط الحرارة ترمى عن جسمك هذا الغطاء .

.. « اشرب قهوتك .. اشعل سيجارة لى .. هكذا يجب أن تبسم والابتسامة مقدمة لازاحة الغطاء .. خذ راحتك واعتبر نفسك فى حضرة أخت شقيقة مأزومة مثلك .. ان القلق يتعاظم لدى أمى .. صدقنى يا أخ مامون .. اننى كثيرا ما أترك صفحات احدى الروايات وأبأمل وجهها وحالتها فجأة فيخيل الى أنها تذوى من فرط

القلق على نفسها وعلى خالى من جراء قريبتك .. ان كان فى حياة أمى خطر يهددها أو نقطة ضعف قاتلة فهو استمرار شبح قريبتك فى أفق حياتها كأنه حدة استهبط من السماء فجأة ذات لحظة معينة لتنقض عليه فتخطفه وترحل محلقة فى البعيد اللامرئى ..

.. « تقول فى نفسك - لاشك - انه مرض نفسى أو نوعا من التوهم الشاذ .. أقول لك : لا .. بل انه واقع جائم بالفعل مع الأسف يا أخ مأمون .. ياربى .. أتدرى ؟ .. ربما كان على أن أعترف بالواقع .. وحينئذ - ومع كل الأسف - سأكون مرغمة على التسليم بالصورة التى رسمتها أنت لخالى حين قلت انه من مجانين رشا الحضرى .. انه بالفعل لا وصف له سوى هذه العبارة .. فرغم أن خالى يؤكد قولاً وفعلاً أنه لا علاقة له بهذه المطربة ولم يتشرف برؤيتها شخصياً ولا يعنى بجمع أى معلومات عنها ، ورغم أن أمى تحاصره حصاراً دقيقاً حتى عند سفره الى الخارج تكون هى بنفسها فى نسعين فى المائة من رحلاته الخارجية وبقية الرحلات تكون هى ملمة خلالها بتحركات رشا الحضرى .. ألم أقل لك أنها جبارة ؟ ..

.. « ولكنها يا قلبى قد باتت لا تحمل من كثرة المسئولية والجهد والقلق المتواصل . وسبب القلق الرئيسى عندها أنها قد وثقت وعن يقين لا يقبل شكاً أو مكابرة أن خالى عبد الجبار يموت فى جسد رشا الحضرى وتعتريه رجفة وجد صوفى مفاجئ يتحول خلالها الى حيوان شبق غاضب ممتلىء بالرغبة فى الافتراس والانتقام ، حتى انه قد يردد الفاظاً من بين أنيابه قبيحة جداً تحار أمى حين تضبطها وتتساءل هل دافعها الشبق الجنسى أم الرغبة الحادة فى الانتقام والثأر ؟ لكن الهيام والوجد كان هو الأغلب ، أن رآها تغنى فى التليفزيون تركزت عيناه على مواضع معينة فى جسدها ، ويظل يركز ويتعمق فاقد الاحساس بمن حوله فيغمغم ويصبح كالحیوان الهائج المتهيج ثم ينقلب فى الحال - حين ينتبه الى الموجودين - الى ما يشبه الوحش الكسيع ينذر بالفدر والانتقام .. تقول أمى من

بين القشور التي ترميها على صدرى فى لحظات الصفاء وما أندرها ،
أنها سمعت خالى مرات عديدة يغمغم لنفسه قائلاً بكل وضوح « هى ..
هى بعينها .. بس ازاي .. حكمتك يارب » ..

« .. هى لاتخجل ، لذلك فاجأته بالسؤال عن معنى التعلق
الغريب ؟ » .. فحالها باسمها الى حكاية تلك البنية المجهولة التي كان
يحبها وهو طالب ثم أكلها الزمن منه فلم يعد يعرف عنها شيئاً ..
لكن أمى ليست عبيطة ، انه كثيراً ما أستشير فى مناسبات عديدة
فى أمر فتيات يريدون تزويجه منهن ، فكان يرد بقوله : انها جميلة
ولكن عيبها انها تشبه فلانة فى كذا ، ولو أنها تشبهها فى كذا
لرضيت بها .. ورغم أن أمى فكرت أيامها طويلاً فى معنى قوله هذا
لدى رؤيته لأى فتاة مقترحة للزواج أو حتى للحب ، فانها لم تصل
الى تفسير لتردده ، ولم تعرف أن كل ذلك الشبه المعين الذى فى
دماغه مرفوضاً أو مقبولاً ؟ .. ففى ذهن خالى شبه معين لفتاة معينة
عجزت أمى عن تخيلها على الوجه الصحيح لتذهب بنفسها وتخطبها
له بأى ثمن .. غير أنه هو نفسه كان حائراً نفس الحيرة .. فلما
تعبوا معه أراد أن يريحهم فتزوج آخر واحدة عرضوها عليه ، وهى
ذات حسب ونسب واثرت كبير وقد استطيناها كلنا ، ولم نر منها أى
مشاكل أو اعوجاج ، ثم انها قبل كل شئ وبعد كل شئ تخضع
خضوعاً مطلقاً ودون تدمير لسيطرة أمى على كل من فى هذه المملكة
الكبيرة الواسعة الخيالية التى لا يسمعها الا عقل جبار كعقل أمى ..

« .. والواقع يا أخ مأمون .. هل سئمت ؟ .. عفوا .. الواقع
أن أمى تلك المرأة المتيقظة لميلكتها على الدوام لا تغفل برهة ولا ينام
ذهنها حتى وهى تخطف لحظات نومها ، لم تنم عن حكاية هذه الفاتنة
المجهولة رغم أن خالى قد تزوج وانهاها .. ولكنه أنهاها كمشكلة
قائمة .. وتربصت به أمى ، فاكتشفت أنه لم يقطع علاقته بفاتنته
المجهولة حيث دأب على لعنها فى المنام وفى لحظات استغراقه الجنس
التام .. عرفت أمى ذلك من خلال زوجته المطيعة الطيعة .. عقل

أمي رياضي وعقلية خالي عقلية مقاول موهوب لا أكثر ولا أقل . .
ولقد تأكدت هي من وجود امرأة معينة بلحمها ودمها في حياة خالي ،
ان هذه الملعونة المجهولة كسرت في خالي شيئا عزيزا عليه جدا ،
غالبا جدا ، كسرت فيه رجولته على الأرجح ، وأنها - الملعونة تلك -
كانت ذات فتنة خارقة وعلى الأرجح من بيئة وضيفة أو بمعنى أصح
أقل من ناسه هو وأهله هو ، أو بمعنى أدق كان تودده اليها يعتبر
نزولا منه وخطا بنفسه لم تفهمه ولم تقدر قيمته فصدته صدا غير
انسانى حطم كبريائه تماما وكاد يدمر نفسيته . . أمي ليست
عبيطة . . لقد جمعت هذه الحقائق على مهل وأصرت ليس فقط على
علاجه بل على معرفة من تكون على وجه التحديد هذه المجهولة الملعونة
لتأتى بها أيا كان وضعها أو مركزها ، وتضعها في الأمر وتظل تبصق
في وجهها وتضربها بالصرمة القديمة كلما آن الطعام .



واصل ماهون حديثه :

- « انتهت الآنسة « راندا » من حكايتها واعتدلت في جلستها
معطية ظهرها للحائط بعد ان كان وجهها في مواجهتي تماما عبر
التراييزة . وحط علينا صمت ، كنت خلاله مشغول الذهن أدبر
للخروج بلطف من هذه الورطة التي صرت فيها طرفا أصيلا دون
أن أدري وبدون ذنب . لكن « راندا » مسحت شفطتيها الجميلتين
بمنديل من الورق وبطريقة اثارتنى ، وسألت نفسي متحسرا على
ما في الدنيا من حرمان : هل يستوى النعيم مع الشرف ؟ أقصد
هل يتأتى للانسان على ظهر هذه الدنيا الغريبة ان يقبل مثل هذه
الشفاه ويحتضن مثل هذا الجسد ويمتلك كل هذا البذخ وفي نفس
الوقت يكون محتفظا بطهارته كإنسان شريف لا تشوب ثروته أى
شائبة من السرقة أو النهب أو استغلال الآخرين ؟ ثم سمحت لنفسى
بالتسرع فى الحكم وقلت ان هذا - تقريبا - مستحيل . .

رمت بالمنديل كله فى سلة المهملات • أما أنا فحين أردت مسح شفتى من أثر الجيلاتى صعب على المنديل كله وهو ثلاث راقات فوق بعضها ، فنزعت واحدة مسحت بها شفتى وأصابى ثم رميتها • ونظرت هى نحوى ضاحكة فى صفاء واستغراب وأنا لا أدرى لضحكها سببا • لكننى توقعت ان يكون المنديل هو السبب فقلت لها اننى هكذا تعودت ولهذا فالعلبة تكفينى لبعض الوقت • فعلقت تسألنى اذا ما كنت أرمى العلبة الفارغة فى النهاية أم احتفظ بها ، فضحكت قائلا اننى فى العادة أجمعها وأبيعها للشركة بالجملة • ثم أردت اشعال سيجارة فامتدت يدى بطريقة تلقائية الى علبتى فى جيب الصدر وأخرجتها ، فالتفت عليها «راند» ونزعتهما من يدى وطوحت بها فى الشارع بعيدا ثم اعتدلت جالسة كأن شيئا لم يكن • فالتهمت ركية النار حول اذنى ، لكننى ابتسمت فى شيء يشبه السعادة ، ومددت يدى نحو احدى العلب ، فاذا بيدها الذهبية بغير حل تمتد معترضة طريق يدى قائلة فى احتجاج : « من فضلك •• دى على أنا •• عندك الراجل اهه اشترى منه •• » فصارت ركية النار ترعى فى كيانى ، وهممت بالنهوض غاضبا فى صمت ، لكنها كانت أسرع منى ضاحكة قد تناولت رأسى بين كفيها فدعكته برفق أطار لبي من السعادة والاسترخاء ، ثم أشعلت السيجارة بنفسها وقدمتها لى بنظرة تقطر صاء وبراءة ، وقالت ان فيها بعض الشقاوة البريئة وعلى أن أغفرها لها ان كنت فعلا أرحب بصداقتها ، وأنها قد افتعلت هذه الدعابة البريئة لتختبر احساسى نحوها هل هو طبقى حاقده كما تكتشف دائما لدى من يزعمون صداقتها خاصة ممن يصبغون سلوكهم وحديثهم بألوان يساريه •• أم ان احساسى تجاهها عادى وبرىء وصاف ؟ ••

فلما قرأت هى فى عيني تلهفا لمعرفة نوع احساسى تجاهها كما اكتشفته الآن ، قالت أنه طيب وجميل وأننى لو كنت كذابا دعيا لانفجرت فيها وأفرغت ما على صدرى من صدا ومن عبارات حاقة تجاه الاثرياء •• الخ الخ ••

قلت لها اننى بكل صراحة يا آنسة راندا .. مش قدك -
واضفت اننى لا امتلى بأى مضمون طفيفي .. ان مضمونى هو
نفسى ، هو تجربة حياتى وما قرأته وتعلمته لا أعتنق منه
الا ما يضىء لى تجربتى المموسة ، واننى لأرفع أى شعار ولا أنتمى
لأى جماعة ، بل اننى ناظم على كافة الجماعات وكافة فصائل
اليسار نقمة تكاد تقتلنى ، أحيانا يا آنسة « راندا » أتخيل اننى
أعيش لكى أفضح خراب من سميناهم باليساريين فى تاريخ الثورة
الازرقية ، وكثرة النصايين والمحتالين بينهم الى حد لم يتوفر فى
أى مكان فى أى زمان ، كذلك كل الجمعيات التى تلبس أقنعة دنسة
أو اجتماعية أو فئوية أو رياضية ، واعتبرها جيوبا تؤنمط
الشباب وتشغلهم طول أعمارهم بقضايا فرعية تافهة ، وطالما انها
جمعيات وجماعات وفصائل متشرذمة ومتضادة ومتعادلة ومتنابهة ،
فاننا بهم وبتفشيهم سوف نصبح عما قريب عشرات المئات من
المجموعات لا مجتمعا واحدا .. أصبحت يا آنسة راندا أكتشف
فى كل يوم هياكل ورقية كانت مصورة لنا كآلهة عظمى ، ولأنهم
جميعا انفراديين فرديين فانهم بلا محتوى ، ولذا فها هم يتفرغون
للتفسيح والهزء بالقيم ، أطراف تتبادل النصائح ، فئة تنتقم من
فئة ، ناس تجرم ناسا أو تكفرهم ، مفكرون يعتذرون عن أفكارهم
السابقة طول حياتهم فى كلمة صغيرة ، ثوريون يتنكرون لادوارهم
العظيمة ، مظلومون يتنازلون عن حقوقهم جهلا بالطريق اليها ،
آخرون يسلبون لأنفسهم حقوقا وتعويضات ، والأبرياء من الشبان
أمثالنا الذين جاء بهم نصيبهم الاسود فى مرحلة الانقلاب من
النقيض الى النقيض ، يصيبهم الآن وباء الهجرة أو الانحراف
أو الاجرام أو التطلع الى السلطة بأخس الوسائل ، لقد شبننا ونحن
نفهم الأمور على نحو معين فاذا بنا فجأة نكتشف ان الطريق مسدود
ببحر لا نهاية له وعلى من يريد السباحة منا فليسبح معتمدا على
نفسه .. ذلك اننا يا آنسة راندا قوم من الدهماء تتفشى الأمية
بينهم وأردنا من جسارتنا أن تقلد الدولة المصرية فى ثورتها دون

أن يكون لدينا ما لدى دولة مصر الشقيقة من امكانيات ، صحيح ان كل ثورة تقلد الأخرى كثيرا ، وان الثورة المصرية قلدت الثورة الفرنسية ، ولكن مصر فى النهاية صاحبة أعرق حضارة على وجه الأرض عمرها أكثر من سبعة آلاف عام ، ومهما كانت نسبة الامية فيها كبيرة فان أهلها جميعا مستنيرون ويمارسون الديمقراطية كسلوك قويم عريق ٠٠ اما نحن يا دولة بنى الأزرق فما هو تراثنا الثورى وما هى حضارتنا لكى نقوم بثورة ؟ ٠ لقد كان مضحكا بالفعل ان تنبرى الفرق المثقفة عندنا وتروح تكتب وتنظر وتفلسف كأنها بين الشعب الفرنسى مثلا ، ويستبرج ضميرها ببساطة شديدة اذا هيأت الجماهير لأمر أو اذا وافق الجماهير على شئ كأنهم كانوا متاكدين ان جماهيرهم ملمة الماما كافيا بهذه القوانين وهذه الصياغات وهذه النظم ٠٠ وكان الاجدر بهم لكى تكون مسئوليتهم على مستوى الضمير المستريح أن يتفرغوا أولا لتثقيف الجماهير ومحو أميتها ٠ لكن من يثقف من ؟ لم يكن هناك وقت للثقافة يا آنسه ، نسيت الثورة نفسها وامتدت الى الخارج ، خيل اليها ان اللحاق بايقاع العصر معناه توسيع مناطق النفوذ وفرض الزعامة على منطقة اوسع ٠ وهكذا فان النظم التى وضعتها الثورة الازرقية فى الداخل على وجاعتها كان لابد ان تفضل وان يسرق الكبار مناصبهم ويسرق الصغار مقاعدهم ويتبجح الدهماء ٠٠ اننى يا آنسه راندا انتمى الى جيل جديد يرى أن الأمور يجب ان يعاد فيها بالنظر من جديد ٠٠ اننا بحاجة الى اعادة دراسة التاريخ المعاصر وفرزه لكى ننتخبه أو نرفضه ، نبحث فيه بلا حرج ونتقبل رائحة نتنه ونواجه عار آبائنا وأجدادنا بالشجاعة ونعترف به فى قوة ، وشرفنا أننا قد نرفضه ، وبرفضه نمحوه ، لكى نكون على يقين بأننا نرفض ما وجب رفضه ونبقى ما استحق البقاء ٠

استمعت الآنسة راندا الى كلامى بكل دقة وانتباه وهدوء ٠ ثم قالت باسمه تعليقا على خطبتى الطويلة الجوفاء : « هذا كلام

ثورى » • قلت باسماء بدورى : « لكن ٠٠ ولكننى لن أشتغل
بالسياسة طول حياتى » • قالت : « لماذا ؟ » قلت : لأن الانسان
يستطيع أن يخلم الناس والأهل كلهم عن طريق العمل الثقافى
بشكل أفضل من العمل السياسى ، ان الشعب الأزرقى فى حاجة
الى من يبصرونه بالتاريخ على حقيقته ، ومن ينيرون له ظلام
المعلومات وتكاثفها وشراستها ، ومن يخلصون له وللمعلومة ، الشعب
الأزرقى محتاج الى مثقفين من نوع خاص لا يشغلهم العمل السياسى
ولا ترهبهم قوة البطش السياسى مهما كان ٠٠ ثم ان العمل
الثقافى المخلص للأمة وللناس والأهل كاهل اذا سار بسلامة فانه
يهيئ عملا سياسيا عظيما ، اذ أن أرض الثقافة المستنيرة تطرد
من ساحة السياسة كل مدع سفاح • ثم قلت : وعلى أى حال
يا آنسة راندا فاننا لا نزال فى مرحلة التحصيل ولسنا سوى جهلة
بسطاء يتحدثون بقامة مرتفعة •

ابتسمت « راندا » وقالت انها كانت بالفعل قد فهمت
شخصيتى على حقيقتها قبل هذا الاحتكاك واننى كما توقعت
لا أشغل نفسى بالعمل السياسى وأنها اطمأنت الى وهكذا ٠٠
ثم استطردت قائلة اننى بعد هذه الاندماجة اللطيفة السريعة يجب
أن أكون وسيطا جيدا بينها وبين الفنانة رشا - وأحسست أنها
تطلق عليها هذا اللقب مجاملة لى - ثم خرجت بالموضوع من جديد
وقلت بتلقائية : « مالى وهذا الموضوع ؟ » • فنظرت لى باسماء
كأننى شجعته ، فاستطردت تحكى •

قالت الآنسة راندا :

- لقد وصل الحال بخالى الى درجة تهديد بالانهيار ، اذ انه
صرح لأمى ذات ليلة قريبة انه يفكر فى الزواج من رشا الخضرى
٠٠ كادت أمى تصفعه بالكف على وجهه ٠٠ فبكل ضعف قال لها
انه فكر طويلا فلم يجد مفرأ من الاستحواذ عليها ، انه لن يستريح

فى حياته الا وقد امتلكها بين يديه « يفعل » بها ما يشاء ، وهذا التملك لن يكون الا بالزواج ، على الأقل الزواج بشكله الرسمى المظهرى الذى يضعها تحت أمرته تحت سيطرته تحت ارادته .. لقد فكر انه يستطيع ان يفتح معها ملف العشق والوصال بأى ثمن ، ولن يكون باهظا مهما بهظ ، لكن ذلك لن يمتعه ولن يريعه لأنها ستكون طليقة تفعل ما تهوى .. و .. وقعت أمى صريعة مريضة من يومها .. أصابها الهزال يا أستاذ مأمون ، وأصبحت عصبية . فامتنع خالى عن ذكر السيرة مرة أخرى ، ولكنه أصبح عصبيا بدوره متوترا على الدوام ، بل تؤكد أمى ان شخصيته قد تغيرت تقريبا ، وان ثمة حجاب سقط بينه وبينها وبين الجميع ، ثمة أشياء غامضة قد أصبح يخفيها ، ثمة أسرار فى عينيه وفى انشغاله وتشتت ذهنه لا يريد ان يفضها .

.. تقول أمى انها كلما صرحت له بذلك لوى شفتيه قائلا : « هذه حال ليست غريبة على و انت تعرفينها جيدا » .. وترتعد أمى ارتعادا ، لأن هذه الحالة لم تكن تعتريه فى العادة الا قبيل الاستعداد لشيء كبير خطير كامتحان اليسانس مثلا أو دراسة مشروع كبير أو الخلاص من أزمة مادية أو سياسية خطيرة ، حيث كان يصل الى درجة من الانعزال داخل النفس والتوقع والانكماش كأنه يتجمع لينفرد أو لينقض .. استغربت أمى المسكينة أنه كان قد تخلص من تلك العادة فى سنوات الازدهار ، حيث استقامت شخصيته وسلسلت وأصبحت كمن تحققت لها كافة الأمنيات .. أما الآن فان الوقت طال عليه بهذه الحالة الغريبة وأصبح كالبائس المسجون بأمنيات كثيرة لم يحققها بعد .. تصور ان أمى بطولة لسانها قالتها له ؟ .. قالت له : « من يراك مهموما هكذا يتصور أنك لم تحقق شيئا فى الحياة » .

.. أنتصور ماذا قال لها يا أستاذ مأمون ؟ .. وقف مسمرا فى مكانه أمام المرأة ، ناظرا إليها فى تصميم ملء بغضب مكتوم :

« كل الامنيات تحققت بالنسبة لى الا أمنية واحدة .. اذا لم تتحقق .. فكاننى لم أحقق شيئا » .. قالت له أمى فى توتر : « دى لازم أمنية خطيرة جدا يا عبد الجبار » .. فاذا به يقول فى بساطة شديدة : « نعم خطيرة بل فى منتهى الخطورة .. على الأقل بالنسبة لمستقبل أنا وشخصيتى أنا .. ان كل النجاح الذى حققته فى حياتى لم يفلح فى مداواة جرح فيها ، جرح اتضح لى الآن انه غائر فى نفسى ونافذ الى العمق فى الداخل .. اذا لم اداوى هذا الجرح بعملية جراحية فسوف أظل طول حياتى أحس اننى مجرد آلة بشرية حسنة الحظ اوتيت فرصا كثيرة للكسب فكسبت .. بكل أسف - وليغضبكم هذا القول أو يجعلنى صغيرا فى أنظاركم - لم أحس أبدا اننى سعيد فى حياتى .. اننى أحس ان ثمة أمر كبير جدا كان مؤجلا فى أعماق أعماقى ، واننى ادخرته عن عمد ونسيتته عن عمد حتى أستطيع أن أشق طريقى فى الحياة ، ولأنه أمر كبير فان مشاعرى كلها كانت هى الأخرى مؤجلة حتى انتهى من هذا الأمر . حتى أصفى حسابه فى نفسى .. وكنت أعرف عن يقين ان اليوم سيجىء لمقابلة هذا الأمر ، وكنت أظن انه حين يجىء سيرانى واقفا له فى العراء انتظره لاطبق فيه ابطا لابط .. فاذا به حين جاء وأصبح سهلا أرانى فى أوضاع متغيرة تماما ، وأفاجأ اننى أسد حبيس فى قفص من الذهب لا يملك الخروج لملاقاة هذا الأمر » .

.. لحظتها قالت أمى فى تسليم : « عبد الجبار .. عايز تتجوز رشا الخضرى اتجوزها اتجوزها ياخويا .. محدش حاشك .. بس لما تجرجرك فى تهم وتمرمط بشخصيتك فى الأرض تبقى ساعتها تعرف انك نزلت بمستواك برغبتك ومرغت نفسك فى التراب بارادتك .. لما تنزل بنفسك لمستوى يلعب بيك الكورة ساعتها تبقى تفوق وتلوم نفسك بنفسك .. انما دلوقت عايز تخطبها أروح أنا أخطبها لك ياخويه » .. وهنا انكسرت نظرة خالى على رباط العنق ، وفكه من جديد بعصبية شديدة ، ولهت قليلا ، ثم ارتدى سترته بدون ربطة العنق ، وتقدم نحو أمى فى ضعف

قائلا كأنه يعتذر عن انفعاله : « مع الاسف ان كلامك صحيح
 يفهمه .. صحيح فيه الميه .. وأنا مش ممكن حاتصرف من غير
 ما آخذ رأيك فى المسألة دى بالذات .. بس أرجوكى قدرى الموقف
 الى أنا فيه .. معلش .. أنا حا عالج نفسى بنفسى .. عن
 اذنك » .. فرببت أمدى على خده فى حنان ، وعدلت له رباط العنق
 فامتثل لها كالطفل ، ثم ربت من جديد على ظهره قائلة :
 مع السلامة ياخويه » .. فخرج خالى بعد أن طبع على وجهها قبلته
 اليومية .



قال مامون :

- ثم ان الآنسة راندا كفت عن الحديث وبدا عليها الانفعال ،
 وكانت عزيزتى كمشروع كاتب روائى قد انسأقت وراء راندا
 وأنستنى ما أنا فيه وما سيطلب منى بناء على كل هذه الحكايا
 المؤثرة المؤلة . وانست الى صمتها قليلا ، واستقل ذهنى لبرهة
 أقنعنى فيها بان مسألة ان أكون روائيا هذه مسألة جنونية ولسنا
 نحن قدها ، واننى لن أوتى من القدرة والخيال ما يوازى واقعا
 كهذا وتجربة كهذه . ثم فوجئت براندا تمسك يدى الاثنتين
 وتحتويهما فى جنان قائلة :

- « اعمل معروف يا مامون يا أخى .. ساعدنى .. أنا عاوزه
 أساعد ماما .. تبقى أنقذت رشا .. وأبقى أنقذت ماما .. صراحة
 اذا اتضح ان قريبتك بتحاول تتصل بخالى ، أو اذا هو اتصل بيها
 وهى رحبت وفتحت له صدرها ، يمكن تحصل حاجات مش كويسه
 .. يمكن يموت فيها ناس والعياذ بالله .. عايزاك تفهمها انها
 ما لهاش أى دعوه بخالى .. ولو هو حاول الاتصال بيها خليها
 تصده .. فيه اشاعات قوية بتقول انها اطلقت من جوزها
 الاخرانى وفيه اشاعات بتقول لا ، »

قلت أنا :

- « وفيه اشاعات بتقول انها اختفت من الحياة الفنية خالص »
فصاحت هي بسرعة :

- « الخوف من هنا .. أنا أيضا أريد أن أعرف منك هي راحت فين وأخبارها ايه بالضبط .. يمكن يكون ده الى خلاني أصمم أقابلك بأى شكل وأعرف منك .. أين اختفت أين راحت ؟ أرجوك قل لى .. الخوف أن يكون خالى وراء اختفائها هذا .. أن يكون قد اتصل بها وأخفاها .. ان جميع أرقام تليفوناتها لاترد .. ولكن خادمتها ردت على مرة وقالت انها فى الحجاز تؤدى - الفريضة » ..

قلت : « جايز .. كل شىء جايز »

وكادت السكينة تقوم وتقبلنى وتفعل كل ما أريده فى سبيل ان أحكى لها شيئا عن رشا الخضرى . كدت استخدم النذالة قليلا فى سبيل ان تزداد هى رجاء فتحضننى . لكنها حين أوشكت ان تفعل ذلك بالفعل اقشعر بدنى ودفعتها عن نفسى خوف الوقوع فى عار مجهول ، وقلت برفق : « من فضلك .. اهدئى .. واستمعى الى فقد تفاجأين بمفاجآت غير ساره » .

اذا بها تمتد كالمنهارة . وقالت مطوحة أصبعها الجميل فى وجهى بانذار شديد اللهجة لطيف : « بس من فضلك .. حذار أن تنكر قرابتها والا قتلتنى .. قد لا تدري ماذا يمكن أن يحصل لى » . أشفقت منها عليها . أغمضت عينى وقلت تصميمك على ايجاد صلة قرابة بينى وبين شخصية أنا لم أرها فى حياتى أبدا ولا تربطنى بها أى صلة على الاطلاق ، حتى صلة الاعجاب ليست موجودة » .

قالت راندا وقد غاضت السماء في وجهها :

— « ماذا قلت ؟ .. تنكر صلتك بها ؟ » ..

قلت بهدوء وتصميم :

— « أقسم بالله العظيم يا آنسة راندا .. وبكل المقدمات اننى لست من أقارب رشا الخضرى ، وان الأمر كله مجرد التشابه القوى كما تقولين .. وهذا شيء تملكين وحدك الحكم عليه لأنك شاهدت رشا بعينك وجلست معها أما أنا فلم يحدث لى هذا الشرف عدم المؤاخذه .. الواقع يا آنسة راندا أننى صرت أخشى من عقدة على وشك ان تصيبنى من كثرة تشبيهى بناس كلهم سيدات .. فلست أنت وحدك الذى يلاحظ الشبه .. فهناك من شبهنى بخالتي بسيمة التى لم أرها ولم ترنى فيا له من توافق عجيب .. هل أنا صاحب شكل نسائى يا آنسة راندا ؟ » .

لكن الآنسة راندا لم تكن موجودة وان بقى جسدها متماصكا، اذ أنى نظرت فى عينيها أبحث عن رد فلم أجد حتى عينيها ، انما وجدت حبتين منطقتين من السواد الفاحم تسبحان فى صفار بيضة مقلية ، ولم أجد ملامح وجهها ، انما وجدت سطحا شاحبا على وشك ان يتشقق .. مع ذلك كانت لاتزال تتشبث بأهداب حياة فى الأمل، بل حاولت الابتسام قائلة بصوت شاحب مهزول : « اذن فأنت لست حقا من عائلتها » . هززت رأسى فى تأكيد وأخذت أتأنيء وأضيف : « ولا من عائلة تعرف عائلتها ، ولا أعرف حتى ان كانت لها عائلة أم انها نبتة شيطانية » . فتراجعت بذقنها الى الخلف باسمه فى شحوب قائلة فى استحياء باسم : « تحلف على المصحف » . فبكل جرأة مددت يدى وسحبت المصحف الذهبى الكبير المستقر بين مفترق الجبلين على صدرها ، وأطبقت عليه قائلا : « وحق هذا المصحف الشريف أننى لا أمت بأى صلة قريى لرشا الخضرى » . ثم تركت المصحف ، فدبت الحياة فى عينيها وقالت : « لا ..

المصحف ده ما ينفعش .. ده مجرد تمثال صغير .. المصحف
الحقيقي أهه ، ، ثم أخرجت من حقيبة يدها الصغيرة مصحفا
صغيرا مجلدا بالذهب ، قدمته لى ، فاستغرقت فى الفرجة عليه
مبهورا من شكله ودقة تكفيته بالذهب ، ثم وضعت عليه يدى
قائلا : « وحق هذا المصحف الشريف اننى لا صلة لى برشا الخضرى
من قريب أو بعيد » ، ثم أعدت اليها المصحف وأنا فى غاية الاشفاق
من الصدمة . وضعت مصحفها قائلة فى هزال شديد :
« خلاص يا مأمون .. أنا مصداك .. متشكره انك سمعتنى على
أى حال .. وأنا مهما كان تحت أمرك .. اعتبرنى صديقة تدجأ
اليها فى كل أزمة تتعرض لها » . شكرتها من أعماقى وأشعلت
سيجارة من علبتها . وبقينا صامتين لوقت طويل . ثم انها تئاءبت
ونظرت فى ساعتها فقلت : « نمشى ؟ » : فأشارت للنادل ، والى ان
جاء كانت هى قد رمت على التراييزة ورقتين من فئة العشرين جنيهه .
ثم مضت فمشيت بجوارها صامتا .

فلما ركبنا السيارة لاحظت ان يدها ترتعش قليلا ولكنها
تتماسك . وطلعت السيارة فى سلام واستوت على الطريق فى زحف
رزين كأنها هى الأخرى حزينة معنا . ثم أشعلت سيجارة بولاعة
العربية وقالت :

- « على فكرة يا مأمون .. أنا لست نادمة على أى شىء حكيت
لك .. أبدا .. كان يمكن أن أندم وأحس انى بقيت عريانة قدام
واحد متطفل وفضولى .. لو انى حكيت لواحد غيرك .. أما أنت
يا مأمون فلا .. بالعكس لقد استرحت وهدأت أعصابى ..
لا أحس انى خسرت بل كسبت صديقا عزيزا » .

انفشخت أنا مبتسما فى خجل وقلت : « اشمعننى أنا يعنى
.. ما يمكن آكون زى أى واحد » .

فلم تنظر الى ، بل رفعت يدها وصارت تهز أصبعها فى
الهواء نافية قائلة : « لا لا لا .. أبدا .. أنت مختلف يا مأمون ..

لو كنت شخصا انتهازيا أو نصابا أو رخيص المعدن كنت وافقتنى
على انك قريب رشاش الخضرى ، وربما كنت اختلقت قصصا
توهمنى بها .. انت انسان جدير بالصدقة فعلا يا مأمون .

ثم أردفت بعد برهة : « طريقك فين يا مأمون ؟ »
فقلت لها : « باب الحديد »

نظرت فى مندهشة : « تسكن هناك ؟ »

قلت : « لا .. أنا أمكث فى العاصمة يوما أو يومين أبיתהما
عند بعض الأصدقاء المحبين للأدب والقراءة مثل ، أو فى إحدى
اللوكاندات ان ساءت العلاقة بيننا وهى كثيرا ما تسوء بسبب
اختلافنا فى الآراء وكل منا يعتبر نفسه أكبر موهبة من
يوسف ادريس .. أنا فى الأصل موظف صغير فى مدينة البندر ..
وأزوغ من العمل ثلاثة أيام فى الاسبوع أمارس فيها التلمذة » .

وطوال كلامى كانت الأنسة راندا لا تنى تنظر الى مندهشة
تارة ومعجبة تارة أخرى ، واذا بها تقول فى نبرة صادقة :
« طب .. انت مرتبط بميعاد معين .. قطر مثلا أو حاجة ؟ » .
قلت : « لا فى الواقع .. ولكنى أستطيع الرجوع فى قطار
الحادية عشرة مساء وأبيت فى البندر فى حجرة استأجرها هناك
أنا وثلاث من زملائى فى العمل .. وأسافر الى قريتى مساء كل
خميس لاعود مساء الجمعة أو صبيحة السبت » . فابتسمت
هى بكثير من التقدير ، ثم قالت : « مش حنتأخر كثير » .



توقف مأمون عن الحديث برهة وقفز ، فقفزت وراءه
ثم نظرت ورائى فوجدتنا قد تخطينا قناة عريضة نوعا . ووقف
« مأمون » مستندا الى جذع شجرة وصدره يعلو ويهبط وأنا أتابعه
نفضه لاهثا مدليا لسانى من غرط الشعور بثقل الحمل الذى ألقاه

مأمون على كاهلي ، فما بالك به ؟ • وكنت أخشى ان يضيع منا جبل الحديث وهو شديد الأهمية ، فاخذت أحاصر مأمون وأتقافز أمامه قاطعا عليه الطريق ، أحجم وأتمسح فيه مطوحا ذيلي الى أسفل كأنني أرجوه ألا يتحرك من هاهنا قبل أن يلحم خيط الحديث الذي انقطع بنا في سيارة الأنسة راندا •

فقال مأمون :

- ثم ان السيارة انحرفت عن الطريق الى طرق جانبية خرجت منها الى طرق عمومية أخرى • • فاشرفنا على منشأة شبه جديدة لكن أكوام القدم متراكمة حولها • توقفت السيارة أمام عمارة جميلة هائلة يقشعر منها البدن • وزمرت ، فجاء بواب يجرى منحيا يقول : « أهلا ست هانم » • قالت : « المعلم فلان موجود ؟ » • قال البواب : « أيوه ياست هانم » • قالت : « انده له » • فانطلق البواب يجرى مهرولا ثم غاب في الداخل حوالي خمس دقائق جاء بعدها المعلم يهرول ويكمل ارتداء ثيابه البلدية الفضفاضة • نظر في السيارة فاشغا حنكه بما أظن انه ابتسامة عريضة ، قائلا : « أهلا ست هانم » • فترددت الأنسة راندا السيارة قائلا : « اتفضل ياست هانم » • فترددت الأنسة راندا قليلا ثم نظرت الى قائلة : « طب اتفضل معايه » ففتحت الباب ونزلت صاغرا • ولففت لأسلم على المعلم الذي استهده لي بيد عريضة كأنه ينوى ان يضعني في جيبه •

رأيتني أنا والأنسة معلقين في كفيه وهو يتقدم بنا سائرا نحو العمارة ، حتى اذا ما دخلنا فوجئنا بحجرة كبيرة مفتوحة كمندرة ريفية قصد بها ان تكون مكتبا فصارت متحفا عبيطا لمقتنيات هبلاء المنظر • دلفنا اليها ثم جلسنا وجاء البواب حاملا صينية عليها زجاجتين من السينالكو ساختين ، وقال المعلم فلان وهو يشير لنا ان نتجرعها : « خير يا ست هانم • • داحنا زارنا النبي » •

اعتدلت راندا فى جلستها وعزمت على المعلم بسيجارة « دانهل »
فاعتذر قائلا انه يشرب الروثمان ولا يغير ولكنه مع ذلك سياخذ
منها سيجارة ، ثم انه أشعل لنا جميعا . وكنت ألح وراء نظرة
عينيه ثمة خوف من أمر مجهول خطير ، وكان يتعجل أن تفصح
الآنسة عن غرضها من هذه الزيارة المفاجئة . أخيرا قالت الآنسة
راندا : « عايزين شقة صغيرة أو حتى أوضه بمنافعها بس تكون
حلوة زى حضرتك كده » . استراح وجه المعلم وقال : « عشان مين
ياست هانم ؟ » . أشارت نحوى قائلة اننى أحلز ملائها وأحد
أقارب والدها - من البلد - ولهذا فهى جاءت بنفسها من أجل .
وهنا نظر المعلم نحوى فى تأمل طويل ثم قال : « أهلا وسهلا ..
عينى .. هات عقد ياد » . فبعد برهة وجيزة دخل الولد فاذا به
أفندى يريد فى كل خطوة ان يقول أنا فى الثانوية أو انا جامعى ،
قدم للمعلم عقدا ثم جلس بجواره شاهرا قلمه . ونظر المعلم نحوى
ثانية وأخذ يتأملنى قائلا : « اسم سعادتك ايه » ، فأملت اسمى
الثلاثى بتلقائية ، ورأيت على وجه راندا كأنها تفاجأ به لأول مرة
وتتشرب ايقاعه وحروفه .

ثم ان الولد الأفندى قدم لى العقد لكى أوقع عليه مشيرا لى
على موضع التوقيع فوقعت باسمى كاملا واضحا . ثم اذا بالولد
الأفندى يبرز دفتر ايصالات ويأخذ فى الكتابة ثم يتوقف ناظرا
للمعلم الذى يتردد هو الآخر ناظرا لى من بعيد ثم الى الآنسة ، ثم
انه مال نحوها طالبا أذنها فقدمتها ببساطة فظل يكور شفثيه
ويفتحهما ويكح وينفس عن غضب فى هياة مزاح ومزاح جوهره
غضب ، فى حين ترد الآنسة على كل ذلك بهزة رأس أو تاتاة
أو غمزة نفى . حينئذ بدأت أفيق من الحلم وأنتبه الى المأزق .
فطلبت الكلمة ، فاستكتتنى الآنسة بتشويحة حاسمة . ثم امثل
المعلم ومال نحو الولد الأفندى مبرطما بكلام كتبه الولد الأفندى
ثم نزع الايصال وأعطاه لى فأخذه ونظرته فاذا هو محرر بمبلغ

عشرين جنيه ايجار شهرين احدهما تأمين فظهر التردد على وجهي وتحسست جيوبى وحاولت التكلم لكن الأنسة عادت فهدأتني بحركة يدها قائلة : « شيل الوصل فى جيبك » فوضعتة فى جيبى ، فقالت : « تقوم تتفرج على الشقة ؟ » قلت : « نعم » . فنهض الرجل وأشار لى فتقدمت وراء الولد الأفندى بجوار الحجرة التى تجلس فيها الى الداخل فى ممر بينها وبين السلم والأسانسير . ثم توقفنا عند باب فتحة الولد الأفندى فاذا به حجرة بها سرير وترابيزة وكرسیين وقطعة كلیم رخيص ، لكن الحجرة نظيفة مدهونة بالزيت ، وملحق بها حمام ومطبخ ودورة مياه جدرانها كلها من القيشانى الأبيض . قال الولد الأفندى : « مش قد المقام لكن اهو بقى . . ده الموجود » . قلت : « فل خالص آخر فل » . واستدردت عائدا ، فنزع المفتاح وأعطاه لى قائلا : « عشرة خير ان شاء الله » . فابتسمت وهزرت رأسى شاكرًا ومضيت . وفى اللحظة التى دخلت فيها الحجرة كان المعلم ملخوما فى قراءة شيك انتهت راندا من توقيعه ، ولما رآنى دسه فى جيبه مشوحا بالأمر لله ، ففهمت ان الأنسة راندا قد أعطته هذا المبلغ على سبيل خلو الرحل .

ثم بدأ الفأر يلعب فى عبي . ورغم اننى غادرت العمارة وبيدى مفتاح شقة فى عاصمة بنى الأزرق دون أن أدفع شيئا وفى زمن يدفع فيه الناس اعراضهم مقابل مأوى أو مخدع فاننى رغم ذلك لم أكن سعيدا ، لم أكن أريد اقناع نفسى بأخذ الأمر مأخذ الجد . ولما ركبت السيارة بجوار راندا لتوصلنى الى باب الحديد نبهت على بالا أفتح أى كلام حول هذا الموضوع وآلا أحاول تفسيره بأى تفسير . والواقع اننى لم أكن مستعدا لهذا أو لذاك فبقيت صامتا الى أن دخلت بى السيارة ميدان باب الحديد فسلمت على الأنسة راندا بكثير من المودة والتقدير ثم نزلت متجها الى المحطة لأركب القطار الى البندر كاننى لم أعد الا ضيفا بالنسبة له .

أقول لك الحق اننى لم اهدأ من الصدمة الا فى قريتنا حيث
ذلك الرجل المجهول الهوية الذى تعود ان يدس رأسه بجوارى
على السرير ويقرصنى فى كل شىء قرصات موجعة لكنها تنير
بصيرتى بعد ذلك ، واذا التقيت بهذا الرجل المجهول وهو الوحيد
الذى يشبهنى فى كل شىء علمت منه ان الأمر ليس خالصا لوجه
الصداقة أو حتى الحب . ان مثل هذه الرومانسية لم تعد موجودة
فى الدنيا فقد انتهى زمنها ، فما الذى تهدف به الأنسة راندا من
 وراء كل هذه التضحية من أجلى ؟ صحيح انها فى حسابها لا تعتبر
أكثر من صفر ولكن لماذا ؟ ربما تريد ان تشتريك لتصمت عن
الغو ببعض ما حكته لك ؟ أو ربما هى تدبر لاستغلال شبهه برشا
الخضرى فى أمر جلل ؟ .

لكن كل هذه المخاطر لم تكن ثقيلة الوطء على ، انما كان
الهم الأكبر فى نظرى لحظتها هو : كيف أقبل فى النهاية ان أعيش
فى مسن أجرته لى فتاة ودفعت ايجاره من حر مالها ؟! .. انها ليست
أى فتاة والظرف ليس أى طرف ، أى اننى لابد أن أكون مأجورا
أو مباعا على أى وضع .. وهكذا قررت فى الحال فسخ هذا العقد
الذى أرى انه سيكون فى حقيقة الأمر تعاقدًا على ما هو أكبر من
شقة ، والأمر ببساطة يمكن ان يتم بالتليفون لصاحب العمارة .
ثم عدت فتأملت من الوضع ، هذه تكون اهانة لراندا التى عاملتنى
بشكل كريم ، ولابد أن يكون الفسخ معها هى والا كنت جلفًا
بلطجيا خسيسا .

كان الأمر عصيبا وصعبا ، فلما تذكرت ان فى جيبى اتصال
بشهر هدأت نفسى قائلا اننى خلال هذا الشهر أكون قد استطعت
جلية الأمر وبانت لى النوايا ، ثم أترك الشقة آخر الشهر على أية
حال ولكن بعد ان أكون قد اقنعت راندا بعدم احتياجى الحقيقى
للشقة .

غير ان الشهر جر شهرا والآخر جر أشهر طوالا ، حتى انتهت
شهور الدراسة والعجيب اننى لم أر الأنسة راندا خلالها أبدا
ولم أجرؤ على البحث عن تليفون لها وان وجدته فلست أجرؤ على
طلبها . وكانت ندرة اللقاء بها قد دفعتنى الى المبيت فى الشقة
ليال كثيرة متواصلة علنى أجد لها أو أسمع أخبارا عنها ولكن
دون جدوى .

لكننى لاحظت ظاهرتين عجيبتين جدا ، الأولى هى فتح
البواب وأهله بتواجدى فى الشقة مهما كان معى من أصدقاء
وزملاء ، حتى ليخدمنا البواب وأولاده وأحيانا الولد الأفندى خدمات
كبيرة وبصدر رحب ودون انتظار لبقشيش . الثانية هى ادعاؤهم
الدائم بأنهم لا يعرفون كلما سألتهم عن الأنسة راندا ، حتى
أوهمنى فى بعض الأحيان أنهم يسمعون اسمها لأول مرة .
وسرعان ما اكتشفت اللؤم وراء هذا الادعاء ففهمت أنهم لا يرجون
بأى حديث عن الأنسة راندا لا من قريب ولا من بعيد . اما الظاهرة
الأولى فلم أفهما إلا بعد حين ، اذ فوجئت مرة بالولد الأفندى يركب
نفس الاتوبيس الذى اركبه كل مرة وأنه ينزل فى نفس المحطة
التي أنزل فيها وان ذلك يحدث من فترة سابقة . ثم فوجئت مرة
بزوجة البواب تنظف لى الشقة كالعادة وتسالننى عن اخبار رشا
الخضرى بشكل غير مباشر وأحيانا ببساطة الواثقة من اننى احمل
اخبارها ، كذلك فوجئت بأن ابنة البواب الصغيرة تفتش فى
أوراقى الخاصة بسذاجة مريبة جدا . كذلك فوجئت بالمعلم نفسه
يتصيدنى من حين الى حين ويدعونى لشرب حجرين على الشيشة
فى المكتب ، فألبى الدعوة ، واكتشف أن الحجرة من الداخل
مرسومة بشكل غريب ، اذ أن حوائطها مجوفة من نواح كثيرة
بأشكال الايوانات والنوافذ على شكل نوافذ المساجد . فلما شربت
الحجرين مع المعلم أول مرة كان الحشيش فيها زاعقا وقويا فبدأ
التنكيك من أول نفس ، وسألت المعلم ان كانت هذه الحجرة قد

انتزعت من مسجد قديم هي الاخرى كما انتزعت هذه الاشياء ؟ وهل اشتراها من المزداد مثلا ؟ • فضحك المعلم ضحكة تقول ان نكتتي سخيفة ، ثم هز يده البضة أمامي مشوحا ، شارحا لى كيف أنه صمم الحجرة فى الأصل باعتبارها مسجداً يمنح العمارة امتيازات كثيرة ، فلما اكتملت العمارة وجد ان ثلاثة أرباع سكانها من الأجانب أصحاب شركات الاستثمار لا يؤمنون بالصلاة ، والرابع الباقي من السكان يفضل الصلاة فى عمله حيث انهم لا يعودون أبداً ولا بد انهم مهاجرون فى الداخل أو فى الخارج ، فعلام المسجد اذن ؟ • هكذا سأل نفسه ثم أبقاه معلقا فترة طويلة فلما لم يسأله أحد أو يستفسر منه أحد حوله الى شقة هي التى أجرتها وحجرة هي هذه التى نجلس فيها افليست فائدة بزمتك ؟ • ثم انه عبر كثير من الانفاس بينما جاء بسيرة رشا الخضرى عشرات المرات وسألنى عن عمارتها الفلانية ماذا فعلت بها وعن محلها التجارى الفلانى ماذا بشأنه وعن شركة السيارات هل باعتها أم لا تزال تبحث عن مشتر •• الخ هذه الموضوعات التى أفاجا بأبنى آخر من يهتم بها أو يشغل نفسه بأمرها ••

قل أننى فوجئت بأبنى محاصر بجيوش تقودها رغبة دفينه ملحة فى الكشف عن مدى صلتى برشا الخضرى ؛ مفترضة مقدما اننى قد أمكر بها وأنفى قرابتها وأنجح فى تمثيل ذلك • وقد حدث ان حيانى البواب ذات مرة فى ابتسامة كبيرة قائلا : « شفتك معاها يا بيه •• مش كان واجب تنزل تشرب قهوة ؟ • لكن دى ست طيبه قوى يا بيه والله العظيم •• أنا باحبها ومن عشاقها قوى قوى • فتسمرت واقفا اقول له : « هي مين يا جدع انت ؟ • فقال ببساطة صفيقه : « الفنانة رشا الخضرى يا بيه واحنا تايهين عنها ؟ • صحت فيه بعنف : « امتى الكلام ده ؟ • فقال : « امبارح يا بيه ساعة ما كانت بتوصلك بالعربية » فاذا بى انفجر ضاحكا فى جنون ، حيث تذكرت ان معيدة فى كليتنا

تسكن على امتداد هذه المنشأة وان الصدفة وحدها أوقفتنى بجوارها قليلا حتى جاء زوجها ليأخذها بعربته ، فباعتبارى فى طريقهما ركبت فتكرم الرجل بتوصيلى الى مدخل العمارة ، ثم ان هذه الزميلة المعيدة لم يكن يربط بينها وبين رشا الخضرى أى شبه على الاطلاق ، مع ذلك فان البواب لم يرها هى بل رأى رشا الخضرى . المهم اننى بعد ان دمعت عينائى من الضحك المؤلم حاولت افهام البواب بحقيقة الامر فكان يهز رأسه مرددا : « هيه .. أيوه » ، ولكن شيئا راسخا فى عينيه يقول انه لن يتنازل عن اعتقاده بأن رشا الخضرى بنفسها أوصلتني بعربتها لحد البيت ..

فى اليوم التالى قررت الاختفاء تماما من عاصمة بنى الأزرق برمتها . لكن قدرتى على ذلك استمرت أسبوعا واحدا اضطرت بعده الى زيارة الشقة لعشرات الاسباب الحلوة التى ربطتني بها كمركز ومقر جميلين ، وكنت بفضلها قد أرتبطت ببعض جهات اترجم لها أوراقا ورسائل وقوائم وفواتير نظير مبالغ لطيفة ، وجهات لا تستنكر حين اتقدم لها كفاص وروائى ناشئ ، ويسهر معى فى الشقة ناس وأصدقاء يجي بهم اصدقاء فأتعرف على ناس باستمرار أنتفع من علاقتهم بما يسمح لى بدفع ايجار الشقة شهريا ..

بعد ذلك الاسبوع مباشرة تصادف ان ذهبت الى الكلية فوجدت الآنسة راندا هناك فى حجرة يبلغنى صوتها وضحكها ، فلم أقو على مفادرة المكان دون ان أراها وترانى . فتقدمت نحو حجرة العميد وسللت رأسى من وراء الحاجز القطيفى فوقعت عينى على عينها . فاستمهلتنى بيدها ثم استأذنت وجاءت بسرعة فى رشاقة . فلما خرجت سلمت على فى شئ من القلق غطتته بقبضة يدها حول يدي وقالت مندفعة : « خير .. فيه ايه ؟ .. حصل ايه ؟ » قلت : « أبدا .. فيه ايه .. تقصدى ايه ؟ » قالت

دون تدبير : « فيه حاجة حصلت لك لا قدر الله ؟ » . قلت : « لا » . قالت : « أصلك غايب عن الشقة بقالك أسبوع » . فقلت : « مفيش حاجة كنت فى البلد » . ثم ذعرت فجأة ، اذ كيف علمت بالحبر وهى منقطعة الصلة بى منذ شهر ؟ . وحيداً . أدركت انها فى الواقع على اتصال تام بى عبر جيش من الخدم الرعاع ، وان الأنسة راندا هذه ليست طفلة بريئة كما كنت اتصور ، انها مؤسسة كاملة من الجواسيس والعيون والعلاقات لا قبل لأمثالى بصدها أو الزوغان منها ، وان الأنسة راندا هذه الجميلة الفاتنة الى حد مذهل هى أيضاً شريرة الى حد مذهل . أين منها عشرات الملعونات البارزات من أمثال رشا الخضرى أو بمبه كشر أو ما شاكل ذلك من شهيرات النساء . كل أولئك تفاقية بالنسبة لها ، انها لغادرة وفاجرة ، لم تصدق يمينى لها على المصحف ، وكانت بالتأكيد - وهى بهذه الصورة - تستطيع أن تستطلع شهادة ميلادى حيثما كانت وتأتى بكل صغيرة وكبيرة عن أهلى ، لكنها فيما يبدو أرادت أن تضعنى فى أحد سجونها تحت المجهر لتستخدمنى فى عرض ما فى لحظة ما . ترى ما الذى تديره لى هذه الداهية الكبيرة ؟ . اننى وكنت قد ختمت بأصابعى العشرة أن أمها أدهى شخصية على ظهر أرض البلاد ، أعود الآن فأسحب هذه الثقة لأضعها طائماً فى ابنتها راندا فأقول انها أدهى بكثير جداً من أمها . .

وهكذا قررت أن أنتقم من نفسى لنفسى ، أى أن أواجه الموقف بشجاعة فأنزع نفسى من السجن غير مبال بما قد يصيبنى الانتزاع من جسروح وفروح ودماء ، هى جروح أو قروح لابد ان يشفيها الطبيب ذات يوم ، أما البقاء فى مثل السجن - هذا السجن بالذات - فان قروحه لا تداوى وليس ثمة من شفاء لها . .

ثم جذبت الأنسة راندا برفق قائلاً : « عايزك فى موضوع مهم » . فانجذبت معى بسهولة ثم استندارت عائدة بسرعة فحيث العميد وارتدت عائدة فى حماس كبير . حدثت انها قد داخلها

بعض الامر فى ان اكشف عن سرى وانتهى وأعترف اننى أنسلخ بالفعل من جلدة رشا الخضرى وبناء عليه فالأمر كذا وكيت ، وكنت ألح ذلك الأمل قائما فى عينيها وهى تغرينى أثناء المسير بسهرة هنا أو أخرى هناك ، فان أعصابى فيما يبدو على غير ما يرام ، وان شيئا لابد قد أصابنى وكدرنى ولهذا فهى أول من يعنى بالوقوف معى كما وعدت ، وتسهيل وتيسير كل ما أراه مقبدا . اقتراحات بسهرات ترددت فى رحابها أسماء أماكن كبيرة خيالية اسمع عنها فى الجرائد ، وهذا المكان يتميز بكذا وذلك يتميز بكيت واننى أستطيع أن أختار ما يوافق هواى ويرضى أعصابى المضطربة مهما كان الثمن . .

الحق لله كدت أحس اننى بالفعل مضطرب الأعصاب وفى أزمة رهيبة تحتاج لمثل ما تقترح هى بل اننى دلست على نفسى قائلا لها ان ما أريد قوله يحتاج لواحد من هذه الأماكن . لكننى وهى تضع يدها فى يدي كأننا خطيبين انتابنى رعب هائل هائج لمجرد احساسى بأنى قد أسلست قيادى لراندا . وأدركت اننى ان جلست فى واحدة من هذه السهرات المقترحة فاننى لن أسلوها ابدا ، ومن ثم لن استغنى عن اتفاق راندا ، وبناء عليه قد أضطر الى بيع نفسى على الدوام حتى يرخص قدرى شيئا فشيئا فأصبح بلا سعر ولا قيمة . فتوقفت عند السيارة قائلا فى اضطراب :

- « آنسة راندا . . أنا آسف . . الموضوع الى أنا عايزك فيه ما يستاهلش الاهتمام ده كله . . أنا بس عايز اقول لك . . انى خلاص معدتش محتاج للشقة . . خسارة تفضل فاضيه . . ان كان حضرتك تقدرى تستفيدى بيها فأدى عقدها . . لانك فى الواقع صاحبته الحقيقية حتى لو كان العقد باسمى . . أنا اشكرك . . الاجازة خلاص حتبدا وأنا ربما انتقل للجامعة بشاع

المحافظة الى احنا تبعها .. فالف الف شكر يا آنسة راندا ..
انا مش عارف اودى جميلك غين ، ..

ثم سربت يدي بالعقد من النافذة نحوها ، وكانت هي قد
اومأت لى باسمه وتركنتنى أتكلم بل وتركنتنى أضمح العقد فى
تابلون السيارة ، ثم دخلت هي وفتحت مسوجر الباب ايدانا لى
بان افتحه وأدخل . هي لم تصوب لى أكثر من نظرة ، فهمت منها
أن تصرفى هذا خشن وغلظ ويخلو من كل ذوق . أبدا لم يكن
للانثى فى عيني قدرا يماثل قدر التعنيف والاقناع باننى يجب ان
اعتذر عما حدث على الاقل بركوبى السيارة . وهكذا ركبت
وانطلقت السيارة ، وأخذت أحس شيئا فشيئا ان الجلوس بجوار
راندا فى سيارة خاصة تقودها هي املة كبيرة جدا لامثالى ممن
يميشون فى الحواري والقرى التي تشبه الى حد كبير صناديق
النفاية وهكذا أيضا لم أنطق بحرف طول الطريق . لكن أجمل
شيء اننى تخلصت من العقد كأنه وثيقة الاتهام ..

وكانت السيارة متجهة الى مكان ما فى الصحراء الشرقية
البعيدة . لكن نظرة ذكية شقية مذهلة لمت فى عيني الآنسة
راندا فجأة ، وبدأ كأنها تذكرت شيئا هاما وخطيرا جدا . طرقت
بأصبعيها قائلة فى مرح عظيم : « بس .. هي .. على النعمة هي » .
قلت فى فضول : « هي ايه ؟ » . قالت وقد تحولت الى بسمه
كفتحة النهر : « السهرة الجميلة .. افكرتها .. حتسهر سهرة
بقى ياد يا مامون .. ياد يا استاذ مامون .. عمرك ما سهرتها
فى حياتك .. وعلى فكرة .. لو ماكنتش عزيز على يا مامون ..
ماكنتش ودبتك هنا . بس انا اتفقت معاك على أننا حنعيش
اصدقاء .. وأنا التزمت .. لأن اخلاقى وتربيتى تحتم على
الالتزام بوعدى .. وحافضل فى موقف الصديق المستعد للتضحية
المقدور عليها .. أما اذا الطرف الآخر أراد أن يركل هذه الصداقة

برجله ويتنكر لها فهذا شأنه ، ولست اظن ان اخلاقياته تسمح له بذلك ، ..

اقشعر بدنى . أحسست اننى لست فقط فى سجن بل قد دخلت تقريبا فيما يشبه الرحم ، وها أنذا فى مستوى رطب حنون لا مثيل لمناخه . فهل يمكننى الخلاص ؟ وكيف ؟ . قلت فى نفسى : « اصبر على الاقل هذه السهرة لكيلا تكون ندلا فى نظرها ، ثم انقطع بعد ذلك شيئا فشيئا عنها الى ان يفصلكمما الزمن من تلقائه . وهكذا ظللت صامتا حتى وصلنا الى جبل المقطم . للعلم فجبل المقطم هذا اسم مستعار ، استعارته عاصمة بنى الازرق من القاهرة المعز على سبيل التقليد الساذج الاعمى . ولما لم اكن قد زرت فى حياتى مقطم القاهرة المعز فأننى اعترف ان مقطم عاصمة بنى الازرق ليس رديئا وليس ساذجا بل هو جميل جدا الا اننا دائما هكذا يا اولاد بنى الازرق : نسفه من أحيائنا القومية كما نسفه من اشياءنا الخاصة تجاه النموذج الذى نقلده ..

وقالت الآنسة راندا ونحن ندخل الحى الجميل انها مدعوة لحفل عيد ميلاد احدى صديقاتها العزيزات جدا وهى من المحتمل ان تكون زميلتى فى نفس المدرج وسوف اراها على أية حال ، ثم اضافت قائلة : « وسوف ترى أمى .. نعم فهى مدعوة هى الاخرى ولا بد ان تذهب » . ثم اضافت بعد برهة تنبهنى الى أنها كانت ستضحى بهذه المناسبة المهمة فى سبيل ان تقضى الوقت معى فى أى مكان . ثم أقبلت علينا بناية مزدانة بالنيون ، وكانت طلّاع المساء تهل محملة بأريج العطور والزهور والثراء السائب ..



ركنت الآنسة راندا بجوار الباب ثم نزلت وتركت السيارة مفتوحة ، وقالت للبواب : « مساء الخير » . فانحنى لها . ثم

صعدنا سلما مواجهها فصرنا فى بهو مستطيل عريض تطل عليه الستائر المخملية المفتوحة ، الذوق مرتفع جدا ، الى درجة تشى بأرستقراطية قديمة مستنيرة . أنا دائما - والحق يقال - لا أنزعج من المظاهر ولا من الثراء المادى الا بين ايدى الاخساء والبلطجية ومنعدى الضمير حتى ولو كان المال ورثهم من اجيال بعيدة ، لان المظاهر عندهم تكون فشخرة كذابة والثراء المادى سفه . انما يعجبني حقا ان تكون مظاهر الثراء ليست مجرد مظاهر للثراء بقدر ما هى تمثيل لقيم ومعان وأبعاد ومراكز يتمتع بها اهل هذا البيت أو ذاك . ويعجبني الثراء حين اكتشف أنه حرية فى الاتفاق على الاثر العظيم بلا حدود ..

الحق ان المظهر خدعنى وتصورتنى فى ضيافة أسرة ازرقية أصيلة قديمة ، بالفعل قرأت لافتة نحاسية كبيرة على الباب عرفت منها أننا فى بيت أسرة يشتهر من بينها أسماء عديدة فى جميع الوجوه والانشطة تقريبا وعلى مدى اجيال طويلة ، فمنهم الوزير ورئيس الوزراء والشاعر الكبير والممثل الشهير وفيها أيضا البائس العظيم والمتمرد الحلو ..

من أول ما دخلنا بدأنا جدول ترحيب وسلام وأشواق استمر ما يزيد عن نصف ساعة . فما كدنا ننتهى من اهل البيت وحدهم وهم كما بدا لى أكثر من عشر أسر تقريبا تحت اسم كبير . حتى استأنفنا من جديد القيام والاستقبال . جاءت صديقة راندا وجلست بجوارنا ، ونظرت راندا الى كل منا وقالت : « هل أنا محتاجة لتقديم كل منكما الى الآخر ؟ » . وقالت نظرة صديقتها لنظرتى أنا بالفعل نعرف بعضنا ولكننا فى حاجة الى التشرف بمعرفة الاسماء فحسب ، اذ أننى وصديقتها طالبان فى سنة واحدة فى قسم واحد وكثيرا ما آراها وترانى . هزت صديقتها رأسها اللطيف وعينيهما العسلينين كأنهما صدفتين فى كل منهما لؤلؤة ، ثم قالت بلباقة : « انا باهى » . فابتسمت راندا قائلة لها :

« ما تنصبيش عليه بقى .. قوليله اسمك الحقيقى » . ورنه
 ضحكة شارك فيها كل من حولنا ، وقالت « باهى » متحدية :
 « قصدتها تقول لك ان اسمى بهيه .. واحنا مختصرينه لباهى ..
 على كل حال مش مشكلتى .. انتو الى اختصرتوا .. ان كان على
 أنا شخصيا أموت فى اسم بهيه .. ده اسم جميل وشيك وله
 معناه . بهيه » . فعلق ولد شاب مقلدا محمد العزبى : « بهيا ..
 ا .. ا .. ا .. وعيون .. و .. و .. و .. وضحكنا جميعا
 فى مسرح ، ثم قلت : « أنا أشاركك الاعجاب باسم بهيه ..
 ومع ذلك فاختصاره الى باهى جميل أيضا .. أما أنا فاسمى
 مأمون » . ورحبوا جميعا بنبرة صادقة : « اهلا وسهلا .. تشرفنا
 يا أستاذ مأمون » . فبدأت ارتبك لشعورى بأننى صرت مهبط
 الانظار ، فلا بد لاي شاب يجرى مع راندا فى حفل كهذا ان يكون
 مهبط الانظار ..

بدأت كذلك اغترق فى خجلى . وخفت من الانعزال فحاولت
 الاندماج بأى شكل . استجبت لدعوة على كأس رغم تحريمى
 للشرب على نفسى .. ماشى . ولم أشرب غيره ، لأن الدنيا انقلبت
 بعده مباشرة ولم يعد أحد مستولا عن أحد . هاجت الدنيا وماجت
 فى هذا المربع الصغير ، حيث انزاحت ستارة فى مواجهتنا وظهر
 من خلفها منصة مسرح انيقة مفروشة بالسجاد العجمى . وظهرت
 فرقة موسيقية كاملة لا تدرى من أين دخلت وجلست تداعب
 الاوتار . لكن لو دققنا النظر خلال مر صغير بين ستارتين لوجدنا
 طريقة تتصل شرفاتها العريضة بشرفات بيت خلفى كبير . وتذكرت
 اننى كنت اقتيدت الى هذا البيت الخلفى السحرى منذ ساعات
 حيث تناولنا العشاء على مائدة ولها عشرة امتار فى عشر صفوف
 متوازية فيها من الخرفان الى العصافير وقلاع الحلوى . وكنت افتقد
 راندا لافاقات كثيرة ، انظر احيانا فافاجأ بها جوارى وأحيانا فافاجأ
 بها غير موجودة . « النمر » أخذت تتعاقب فوق المنصة : « هانى

شاكر ، ليلي جمال ، على عليوه ، نبوت الغفير ، أحمد بلطية ..
اكل ذلك من أجل عيد ميلاد « باهى ؟ » .. ياله من شيء غير
عظيم .. يجب ان اسحب تقديري لهذه الابهة وأغير نظرتي
للقوم ..

لكن اندرامة الاحتفالية نفاجتني بأشياء كثيرة لا أفضل
رؤيتها ، من صور فاضحة على هيئة رقص ولعب وتفاريح ، وسكر
بين ، ومجموعات صغيرة مكثفة في هذا المربع الصغير ببراعة فائقة ،
ناس تمارس الرقص المتهتك ، بجوارهم آخرون يتكلمون في العملة
واسعارها ، بجوارهم شاب وجيه ينصب على امرأة ثرية لكي يوقعها
في غرامة ، بجوارهما طالبان فقيرتان من زميلاتنا في الكلية يرددون
الانفاظ وتعبيرا خارجة لم يكن يظهرهما ليوحى بها أبدا ، والمغنى
ينزل متجولا بين الصفوف الثملة المنسلخة مرددا : « حبه فوق
وحبه تحت » ، وبتلقى النقوط بسخاء كأنه صندوق النذور ..

ثم حدثت موجة من الانتباه المفاجيء تنقلت بين الجميع ، اذ
تبادلوا الهمسات قائلين لبعضهم البعض : « وصلت ؟ ..
وصلت » . ثم ارتدت الموجة من جديد قائلة : « بس مش حتغنى
.. جايه تنهى بس .. مش عامله حسابها على المغنى » . قلت
لنفسى ان هذه الحفاوة يليق بواحدة كفايزة أحمد أو وردة أو نجدة
من بقايا مطربات الديار المصرية الشقيقة . ولم استبعد ان تكون
احدهن صديقة لاهل هذا البيت أو مستفيدة بشكل من الاشكال .
وفي تلك اللحظة كان الولد الواقف على المنصة قد فقد كل الحواجز
الفاصلة بين الاشياء ، بين ما يقال وما لا يقال ، فراح يهدر بنكات
يُسمِئ منمها البدن ، لكننى لاحظت أن كل من هاهنا لا يسمئ
لانهم جميعا في قلب الاشمئزاز غارقون ، أنهم بعض هذا
الاشمئزاز ..

وصل بى القرف الى حد لا احتمله ، كأنما المطلوب منى ان
أخرج من هدمى بل من شخصيتى كلها . من حسن الحظ تلفت

جوارى فرأيت رائدا جالسة تغمزنى قائلة : « تعالى » . فقممت معها فى الحال . قالت فيما نسير بين الحشد : « حنقعد بعيد عن الزيتلة دى شويه .. جوه » . قلت : « أحسن » ومضيت وراءها . سرنا طويلا جدا بين أبواب ومداخل وسلالم كأننا نمشى فى شارع لا ينتهى . ثم هبطنا سلما ومضينا فى طرقة صغيرة رفيعة . ثم عدنا فصعدنا سلما فى نهايتها ومضينا فى بهو مربع ذى نافذة على اليمين ، نظرت عبر ستائر هذه النافذة فرأيت نافذة مشابهة تماما فى كل شىء وأشباح الحفل تبدو خلفها ..

حودنا الى اليسار وسط أضواء هادئة تنبعث من أماكن شبه مجهولة فى الجدران المبطنة بالخشب الثمين . وكان ثمة لفظ احتفالى فى كل الحجرات المطلة على البهو المربع كأنما جاءت المدينة كلها تحتفل بعيد ميلاد « باهى » فكرت اننى حين ألقاها بعد ذلك سأقول لها : « يا بهية وخبرينى عن حقيقة الأمر » . فى آخر حجرة وهى أكبر الحجرات كما يبدو كان ثمة صالون كبير جدا فاخر جدا يجلس فيه رهط كبير من المحتفلين ميزت فيهم « باهى » . التى نهضت واستقبلتنى مرحبة من جديد لتجلسنى مكانها بجوار السيدات الفاتنات ، وقدمتنى قائلة اننى صديقتها وزميل دراستها الاستاذ مأمون عكاشة واننى من لوامع الزملاء بنشاطى الادبى والطلابى .. الخ . فهتف الجميع فى نبرة ودودة : « تشرفنا » . فرفعت يدى بالتحية مارا برأسى فى اتجاههم جميعا . وكان أول شعور يعترينى بين هذه الكوكبة نساء وشباب وصبيان وعجائز هو شعورى بأننى قد صرت محط الانظار حقا . الجميع يبحلقون فى كأنهم يتفرجون على نجم ، وكنت كلما ركزت النظر فى عين تبحلق فى ابتسم صاحبها فى صفاء وقال : أهلا وسهلا فأقول : أهلا ، ثم أغوص فى خجلى من جديد ..

مررت بنظرات سريعة لعدة مرات على أوجه جميع الجالسين وفى كل مرة اكتشف شيئا جديدا فيها . وكان بصرى يعود من

جولته ليتلكا دائما عند السيدة الجالسة قبالتى ، فأحس ان بصرى قد استراح قليلا ووجد فى وجهها ما يفرى بالتأمل . بعد تلكؤ طويل ووسط بعض التعليقات الغامضة تيقنت من أنها « فهميه » أم « راندا » . سررت اذ وجدت شيئا يشغلنى ، فأخذت أدرس ملامحها وأتخيل ما حكته راندا عنها . لكن راندا قطعت على الخيط مشيرة الى أمها قائلة : « والدتى .. اظن واضح » . قلت : « واضح » ، ثم أنزلت ساقى عن الأخرى وهممت بالنهوض قائلا : « اهلا يا افندم » ، فلما استجابت لحركتى هى الأخرى نهضت بالفعل وذهبت اليها فوقفت فى احترام شديد وسلمت على بحرارة ، ثم عدت الى كرسى خجلا لا أرفع وجهى عن الأرض . جلست فى مكانى ، وقد لاحظت أثناء عودتى أن جلستى محصورة بين سيدتين . جاءتنى الصينية عليها كافة المشروبات ، فاخترت فنجان قهورة . وقالت راندا : « عايزين نسمع حاجة » . وقالت « فهميه » . أمها : « بيقولوا الاستاذ مامون شاعر وأديب .. يسمعنا حاجة تحيه لباهى » فضحك بصوت عال وقلت دون ان انظر فيها اننى لا اكتب الشعر ولم اكن اعرف المناسبة من قبل . وقالت باهى ناظرة تجاهى : « احنا كلنا طمعانين فى صوت الفنانة رشا » . وهزأت رأسى موافقا أنا الآخر ظنا منى ان بينهم هاوية للفناء اسمها رشا . لكن صوتا أليفا استمع اليه كثيرا فى الراديو والتليفزيون انساب من جوار اذنى مباشرة يقول : « اسمحو لى .. أنا متأسفه خالص .. صوتى تعبان وواخده برد » . لويت رقبتى فى اتجاه الصوت فاذا بهذه التى تجلس لصقى مباشرة هى المطربة الشهيرة رشا الخضرى ، ثم اننى ظللت معوج الرقبة تجاهها لوقت طويل جدا وهى تحاول الاعتذار من جديد عن الفناء وتبتسم من شدة بحلقنتى فيها . وجاء الولد الذى كان قد علق على اسم بهيه فى الأول ، وبلهجة مسرحية قال لى : « ما تيجى نقعد هنا عشان يبقى الوش فى الوش وتعرف تتفرج كويس » . فأردت تسخيفه فقلت

بالفعل واتجهت الى مكانه بجوار فهميه أم رائدا فجلست فصرت
فى مواجهة رشا الخضرى مباشرة ..

ثم ابتسمت فى خجل ، اذ اكتشفت سر الانظار التى كانت
مركزة على ، هى اذن كانت مركزة على اتجاه رشا الخضرى . هذه
اذن هى رشا الخضرى . كان وجهها ملفوفا فى ايشارب بنفسجى
غامق وجسدها ملفوف فى معطف من الفرو الثمين ، يبدو وجهها
منه كزهرة البنفسج ، كانت ثمة ظلال من هموم ومشاكل ومآسى
عويصة تبدو من بعيد جدا فى خلفية هذا الصفاء . هى بالفعل
جذابة جدا لدرجة اننى لم أعد مستريحا فى جلستى منذ تركت
جوارها ، لقد كان اشعاعها اذن هو الذى طوقنى وجعلنى أكن
واهدا . الآن تمنيت ان يرجع الولد فى كلامه ويعود الى مطرحة ،
فى عينيها الرهيبتين شئ بل أشياء كثيرة جدا لا يبرزها التصوير
أبدا ، ان جمال وجهها وعينيها ابرع بكثير جدا من ابرع مصور فى
الوجود ، حقا لقد عجزت الكاميرات الحساسة عن التقاط هذا
الدفق من الحيوية والجاذبية يجرى ليس فقط فى وجهها بل وفى
وجوه كل من تقع عينيه عليه . حينئذ أحببت رشا الخضرى حبا
جارفا ابن ساعته . غنهضت واقفا وأشرت الى الولد اياه قائلا
بلطف : « من فضلك .. خذ مطرحك وادبنى مطرعى ، . فضحك
الجميع فى سعادة وقال الولد بغمزة لم افهم لها معنى : « ليه
بقى ما كده كويس » . قلت له : « لا ياعم .. أنا مش حاقدر اتفرج
على وش الفنانة رشا أكثر من كده » . فتغامزت نساء عرفت من
غمزهن انهن عاهرات لا شك ، وقالت احدهن بعهر : « ليه
يا قلب امك .. أنت ما تعرفهاش قبل كده ؟ » . قلت فى تحد
غير مقصود : « أبدا والله العظيم .. انتوا ما بتصدقوش ليه ؟ ..
دى أول مرة اتشرف فيها برؤية الفنانة رشا » . وابتسمت رشا
فوق خجل وامتنان وقال الولد : « لا يعنى عايز تلبد » . قلت :
« الله أعلم بالسرائر » . قالوا جميعا : « معلوم » وجلست ألا

قائلا : « اهلا يا مدام رشا .. دى فرصة سعيدة فعلا .. أنا
باشكر الآنسة راندا والظروف الطيبة » . هزت رأسها قائلة فى
اقتضاب : « شكرا » . ثم لاحظت أن الجميع قد انتظر برهة عميقة
متوترة . وكنت أبادلهم خلالها النظر مستغربا بل منتظرا أنسا
الآخر ..

تدخلت « باهى » فى ذكاء ، وأشارت بيديها فى حركة مسرحية
وشرعت تغنى احدى اغنيات رشا الخضرى ، فغنى الجميع معها ،
ثم رددوا وكرروا ، فاضطرت رشا الى الاندماج معهم فى مرج جميل
يفغر للأغنية ابتذال معانيها وعدم أصالة لحنها ، وصوتها رغم
ضعف امكانياته حزين مليء بالشجن المبكى . فى الحقيقة استغربت
جدا ان يكون الميكروفون هو الآخر يقلل من حلاوة هذا الشجن
المبحوح ؟ أتراه عجز حقا أم فضح عيوب صوتها فضاعت نبرته
الجميلة ؟ أتراها تكون مجرد مغنية خصوصية تغنى لواحد بعينه
فقط ؟ . لكننى عبرت عن رضائى قائلا : « ما شاء الله .. ايه
الحلاوة دى » . وقالت باهى : « على فكرة يا مدام رشا .. الاستاذ
مأمون مكانش معجب بصوتك .. من محاسن الحفلة أنها كسبت
صوت » فكانما ألفت فى الجو صاعقة ، لكن نكته كسب الصوت
سرعان ما فجرت ضحكة كبيرة ..

وهنا نظرت رشا الخضرى فى عيني نظرة ناقبة كادت
تصرعنى ، نظرة توحى كأننى أعرفها من قبل كأننى تلقيتها من
قبل كأن لغة مشتركة تقوم من قديم بينى وبين هاتين العينين .
انهما على التحديد عيني أمى أنا بلا زيادة ولا نقصان سرقتهما هذه
الفنانة المتبرجة المتبذلة . سلطت عيني فى عينيها كأننى أبحث
فيهما عن شيء يخصنى ، فاصطدمت بنفس هذه النظرة المرهقة
التي كثيرا ما وجهتها أمى لى فى لحظات الشعور بالمأساة . ثم اننى
تذكرت الشبه المزعوم بينى وبينها فوجدته فى العينين أكثر وأعظم
وأشد رهبة .. فعلا ان لهؤلاء جميعا الحق فى الفرجة دلى بدمشة

للمقارنة بينى وبينها • اقول الحق أننى نظرت نحو الأنسة راندا
باسما وقلت لها : « فعلا يا آنسة راندا •• معاكى حق •• أنا لو
مطرحك مش هاصدق غير كده » • فابتسمت راندا وهزت رأسها •
وكننت أريد ان اضيف قائلا لها ان التشابه الحق ليس بينى وبين
الفنانة رشا الخضرى •• بل بينها هى وبين أمى ، نفس النظرة
نفس البروفيل نفس الرقبة ونوع الشعر ونفرة الصدر والقوام
وكل شئ فى جسدها كأنها نسخة طبق الاصل منها •• أكاد
أظنها هى لولا تأكدي من موتها ••

ثم اذا بى أميل نحو الفنانة رشا الخضرى قائلا فى صدق
وصراحة : « آمال حضرتك منين يا مدام رشا ؟ » • وهنا انتبه
الجميع كان على رؤوسهم الجراد • وقالت الفنانة رشا أنها - كما
سمعت من أمها - ليست من الجنس الأزرقى انما هى من أب تركى
وأم حبشية أما هى نفسها فقد ولدت فى احدى قرى الصعيد الاعلى
لنهر الأزرق فاعتبرت نفسها أزرقية خاصة أن أباه وأمها مدفونان
فى قريتهم بالصعيد الاعلى لنهر الأزرق • فهز الجميع رؤوسهم
موافقين ، وقال الولد الذى تبادل معى المكان : « و حضرتك منين
يا أستاذ مأمون » • الحقيقة خفت لبرهة ، فلو قلت اننى من قرية
كذا بالوجه البحرى لعرف الجميع اننى ببلديات عبد الجبار بيك
وتهتز صورتي فأصبح واحدا يلتمس القربى من عبد الجبار •
لكننى اخترت اسم البندر الذى تتبعه قريتي وزعمت اننى منه هو
نفسه • فلم يعلق على ذلك أحد ••

انتبهت فجأة على صينية كبيرة من الفضة المزخرفة مطروحة
أمام رشا تتعاقب فوقها الهدايا من مظاريف بها أوراق نقد الى بعض
التحف الثمينة • وراقبتها رشا الخضرى فانقرجت عنها أزمة البرد
وانطلق صوتها مغنيا كما لم يش من قبل ، وبدأت فى اعلى درجات
المرح البرى الضاحك ••

وبعد أن استراحت قليلا وشربت عصير الفراولة باللبن ،
اعتدلت « فهميه » أم « راندا » قائلة :

- « شوفى بقى يا ست رشا .. احنا بصراحة بنشكرك
قوى قوى ونتمنى نخدمك فى الافراح .. بس احنا بقى .. لينا
خدمه عندك » ..

رفعت رشا عينيها عن صينية الهدايا قائلة فى ترحيب مبتذل
رخيص :

- « قوى قوى .. دانا خدامتك .. انتوا تأمروا بس » .

وقالت فهميه هانم : « أصل الولد ابن سلفى .. ما شاء
الله كان فى أوروبا بيدرس مزيكه .. ومتخرج من معهد الموسيقى
العربية .. وله نشاط .. ونفسه يسمعك لحن من تلحينه .. اذا
عجبك نبقه نشوف اذا كان ممكن يعنى تغنيه وتشجيمه واحنا
عينا لاي تكاليف يتكلفها » . وقالت رشا الخضرى والكذب واضح
فى عينيها : « ليه لا .. دانا حتى ما بيهمنيش الاسماء .. كان
الأول .. دلوقت ممكن اغنى للمجنين شبان .. بس على شرط يكون
لحن شيك ويخيش » . وهنا تقدم الولد المذكور ، فاذا به قصير
القامة أكرش دميم الوجه منساب الشعر فى اهمال متقن على
جبهته . بيده عود ثمين . ونظر لى مستأذنا فى احتلال مكانى فلم
أجد مفرا من التنحي عنه . وقالت راندا : « تعالى مكانى » ، وذهبت
هى الى جوار أمها وجلست أنا مكانها ففصت فى لهب عظيم .

احتل الشاب بعوده مكانى . وقال وهو يرفع فخذه على
الكرسى ليريح العود فوقه ، أنه لم يتفرنج فى الحانه ولم يتأثر
بالاشكال الاجنبية انما هو سياخذ الاعمال الفولكلورية العتيقة
ويجلوها ويوزعها بمقتضيات لحنية جديدة . وقال كذلك أنه تطبقا
لوجهة نظره سوف يسمعها هذا اللحن الذى أخذه من أعماق اعماق
التربة الازرقية فى قراها البعيدة وخلق منه عملا فنيا رشيقا

وجميلا ومضمون النجاح . قالت رشا وقلنا جميعا : « نسمع ،
 فأخذ صاحبنا يد وزن أوتاره ثم يبدأ فى عزف مقدمة «وسيقية
 مبهجة جدا وجميلة جدا اذ هى مألوفة لى جدا ، بدليل اننى أترنم
 مع ايقاعها دون ان استطيع ترجمته الى كلام مع ان كلامه كان
 فى ذاكرتى ، ثم اذا بالملحن يذهلنى ويخدر اعصابى بأول كلمة
 نطق بها ، اذ راح لفرط ذهولى يردد :

« رايحه فين يا بسيمه رايحه أزور عبد الجبار ،
 « دارك فين يا بسيمه دارى دار عبد الجبار ،
 « رايحه تزورى ولا تحطى رقبة أهلك للجزار ،
 « ولا حتيجى وجايه العار ؟ رايحه فين رايحه فين »

صفق كل الحاضرين فى حماس شديد الا أنا ، حتى رشا
 الخضرى صفقت هى الاخرى من فرط الإعجاب ، وقالت : « تأليف
 مين الكلام الحلو ده ؟ » . فقال الملحن : « تأليف واحد غلبان
 كده بيتردد على معهد الموسيقى .. يظهر أنه كان حلاق ولا مانى
 عارف بس موهوب وطيب » . قالت رشا : « اسمه ايه » . قال
 الملحن : « اسمه حسن أبو غلفه » . ضحكت قائلة : « عجائب ..
 دا واد بيعرف يالف ايه .. دأنا ماكنتش مقتنعة بيه » . فاستأنف
 الملحن عزف المقدمة من جديد وما كاد يدخل فى الفناء حتى كانت

رشا قد بدأت تردد معه النحن كلمة كلمة حرفا حرفا ، ودار هو
 والجميع يغنون معها ثم يستخذ بهم الطرب فيرددون : يا عينى ..
 يا سلام . وفى المرة الثالثة رددت رشا اللحن وحدها وهو يصاحبها
 بالعود . ثم قالت ان اللحن جميل جدا وانها سوف تظل طـول
 عمرها تغنيه لنفسها اعجابا به ، لكنه ليس من لونها ، أنها لا تريد
 تقديم هذا النوع الريفى المحض لكىلا تدعى إحدى المطربات الأقل
 منها مستوى انها تقلدها فى لونها ، الا أنها - هكذا قالت وهى
 تنهيا للنهوض - سوف يسعدها أن تتلقى الحانا جديدة من سيادته

وأنها سوف يسعدها أن تغنى له لحنا فى القريب • ووقفت ،
 ووقف الجميع وسلمت على بعضهم وتجاهلتنى ثم مضت ، فإذا
 بالآنسة باهى تغطى الصينية الفضية بإشارب جميل فاخر وتمضى
 به وراء رشا • ثم اذا برشا تتوقف بعد خطوة وترتد عائدة الى
 قائلة فى اعتذار ساحر : « آسفة • ما سلمتش عليك • • أنسا
 سعيدة قوى الليلة دى • • حاكون سعيدة أكثر لو سمعتنى صوتك
 فى التليفون • • أهلا وسهلا » • ثم سلمت على بحرارة فأحسست
 ان قلبى كله يستكين فى يدها بهدوء • لكننى نظرت فى حاجبيها
 الرفيعين المتأهين للتراقص فى فجور فعاودنى الاحساس بشيء من
 الاشمزاز وسحبت يدى مؤكدا لصاحبتها كذبا اننى سوف أتصل
 بها بلا شك • •

وكانت « باهى » قد انتهزت الفرصة وهبطت بالهدية الى عربة
 رشا وضعتها فيها وأغلقت الباب • ثم ان رشا غابت وودعوها فى
 حفاوة • وقلت لراندا اننى يجب أن أنصرف فهل تأذن لى ؟ قالت
 نعم ، ثم مالت على أمها وتهايمست ببعض حوار ، ثم عادت الى
 قائلة : « تفضل » • فمقت وسلمت على السيدة فهيمة وعلى الباقيين
 ومضيت وراندا فى أثرى ، ثم تقدمتنى هى الى السيارة •



كنت مدووشا جدا من كثرة ما دار ، فلم أنبس بحرف •
 وفوجئت بأن السيارة تقف بى عند العمارة ، وبأننى أنزل شاكرا
 ومع السلامة وتصبحى على خير • ثم تقدمت وفتحت شقتى وارتميت
 على السرير كأننى أغوص فى بحر من رغبة الصابون ذى الرائحة
 الجميلة ، فها أنذا قد استرحمت من حمل ثقيل ، هاهى ذى - راندا
 قد تأكدت اننى لست من عائلة رشا الخضرى ولا أمت اليها بأى
 سبب ، فماذا يكون مصير هذه العلاقة ؟ • وقلت ان الأمر الآن يسمح
 لى بقبول السكنى فى هذه الشقة ، وأما راندا فان مسار كل منا
 فى الحياة سوف يتباعد عن الآخر دون ريب ، ثم نمت • وظللت

نائما عدة أسابيع لا أحتمل التفكير في هذا الموضوع . ولم تتصل
بى الآنسة راندا ولم أتصل بها .



ثم ان الدراسة قد بدأت من جديد وصرت ألتقى براندا كل يوم
تقريبا فنكتفى بتبادل التحية الباسمة الودودة وينصرف كل منا الى
حال سبيله . وكان الله قد أكرمنى بأعمال يتجمع من وزائها ايجار
ومصروف لا بأس به يسند المرتب الحكومى . وكانت الشقة قد
أكسبتنى رونقا وأبهة بين الطلاب . وأصبحت شقتى لا تخلو على
الدوام من زملاء أصدقاء وأثرياء وآخرين فقراء ولكنهم جددان .
وأصبحنا نبيت فى ندوة لنصحو على ندوة ، ويتبارى الشعراء
والقصاصون فى قراءة أشعار لهم وقصص ، وينبرى لها نقاد من
بيننا متعرضين لها برعوس موضوعات كبيرة وقضايا مهولة .

الى أن ظهر فى شقتى هذه من يدير شرائط سيف الماوردى
ويدعو لها ويكتب دراسات عنها . فداخلتنى فرحة كبيرة وقلت
للتخلص منهم ان سيف الماوردى هذا هو خالى ولكن من أم أخرى .
فقالوا كيف . فقلت متفاخرا : أقسم بالله انه خالى ، واسمه الحقيقى
ليس سيف ولا ماوردى . اسمه هريدى خليل هريدى ، ثم تدمت
بعد ذلك على نطقى بالاسم الحقيقى حتى لو كان ذلك لصديق .
ثم قالوا : اذن فهيا بنا اليه . . انهم يحضرون مجلسه جماعات دون
أن يكونوا معروفين لبعضهم البعض ، فجماعة تأتى بجماعة وهكذا .
لكنهم جميعا يأخذون معهم بعض الهدايا من مأكولات ومشروبات
وفواكه ، وقد يتركون فى يده بعض الجنيهاات مكافأة له على جرائه
وموهبته التى سخرها للمعارضة السياسية بواسطة الفناء . قلت
لهم وأنا جده أسف اننى لا أعرف مسكنه واننى منذ سنوات طويلة
لم أره لظروف خاصة . قال واحد من خصائى أنه يعرف مسكنه
ومستعد لتوصيلنا . قلت اننى مستعد للذهاب معهم اليه لمشاهدته
على الأقل . فقال صديقى هذا : ما رأيكم لو دعواناه الى شقتنا هذه

لنحتفل فيها على راحتنا ويكون هو ملكا لنا وحدنا نسجل منه ما نشاء ونكرمه آخر كرم حتى يجود بأحلى ما عنده ؟ - وقال صديق آخر من المشهورين بيننا بالخبيث - والعجيب انه موهوب - ان شرائط سيف الماوردى تدر الآن دخلا عظيما لبعض المخترفين ، وانه آخر من يستفيد من عائدها المادى . قلت : كيف ؟ - قال لا . سيف الماوردى شخص بلا شخصية فى الواقع وانه فوق ذلك جاهل تمام الجهل وليس يعرف من أمور التعامل مع المثقفين أو التجار شيئا ، كما لا يعرف لغاتهم ، وذلك انه قد تعود على تلقى المنح التى يخيل له دائما انها أكثر مما يستحق ، فلم يعد قادرا على شغل نفسه بتنظيم حياته واستثمار مواهبه الرائجة ..

ازدادت دهشتى وقلت لهم أن شرائطه نادرة وغير موجودة فكيف تكون رائجة ؟ - قال الخبيث ان مثل شرائطه تروج فى الخفاء كالمخدرات ، ولذلك فان الشيء الوحيد المتوفر فى البلاد بكثرة هو الشيء الممنوع أو المحرم ، ومن يبيع شرائط سيف يأخذ فوق ثمنها ثمنا آخر ، ثمن كونها ممنوعة ، والمشتري يشعر بفداحة ثمنها فيشعر بعظم أهميتها وخطورتها فيستمتع اليها ربما فى السر وحده أو مع أصفىاء ، ولا يعيرها والا ضبطت باعتبارها منشورات سياسية تشجع على قذف النظام الأزرقى بالطوب والحجارة بغية هدمه أو تشويبه حتى يصبح آيلا للسقوط . فأضاف الصديق الذى يعرف مسكن سيف ان الحكومة هى التى تشجع على ترويج شرائط سيف الماوردى لأنه يمتص غضب الناس ولهم بالانتقاد . وان شرائطه متوفرة فى كل مكان لكن معظمها سئ التسجيل . وميزة ان ندعو سيف الماوردى للقضاء هنا أن نحصل على تسجيلات نقية صافية لا يشوبها هياج أو لغط . فقال الصديق الخبيث بلهجة ذات معنى ان هذا مطلوب بالفعل لكى يجد المشترون نسخا تستحق الدفع الثمين !! ..

قلت أنا ان الأوساط جميعها يمكن أن يتواجد فيها من يتاجر

بأى شيء غير صالح للتجارة . لكننى أوقن ان الأشياء دائما لا تأخذ وجهها الصحيح أبدا نتيجة لوجود التجار والمقارمين الكبار ، انهم فئة طاغية باغية تحترف المتاجرة ولو بمصائر الشعوب بأكملها ، ولانهم أذكى وأقوياء بشكل ما فانهم ينجحون فى تغيير وجه الأشياء بالعب جهنمية ، وعلينا نحن يا من نؤمن بدور الثقافة أن نتبصر أمر هؤلاء قبل كل شيء ونبصر الناس بهم . فلم يعلق أحد .

فقلت : هل تلهشون اذا قلت لكم اننى لم أعد معجبا بأغنيات سيف الماوردى ؟ . قالوا فى تشكك : ألهذا لم تتصل به من قبل ؟ .

قلت : ربما ولكننى لم أعد معجبا بأغانيه ولا بشخصيته نفسها ، لقد استمعت الى الشرائط التى عرضت علينا الآن ، والى غيرها فى مناسبات سابقة كثيرة جدا ، وآخر كلام أستطيع أن أقوله بشأن هذه الأغاني انها لم تعد تبهرنى كما كانت ، قد أجدنى منساقا الى ترديده بعض أنغامها ، ولكن من قبيل استحلاء النغم أو الايقاع . وهذه نصوص متناثرة كما نعلم ، بعضها ردود فعل لعصر سابق . وبعضها تعبير عن العصر الحالى ، فلا نجد سوى كلاما مزبلا زبلحة شعبية فى صورة فنية لطيفة ، وهذه الزبلحة - أى تشويه الجميل المتسقى بشيء دخيل اقتضته الضرورة - لها أسماء كثيرة فى قاموسنا العامى اذا أردنا ترجمة غير حرفية أو مدلولا قريبا الى الذهن ، قل انها من الرديح يجوز ، نوعا من التريقة يجوز ، نوعا من تلعب الحواجب وتطليح اللسان يجوز ، انه غناء الزعر المنسحقين المنحطين غناء من تحت عقب الباب ، غناء الخدم الذين يستنجدون بأى قوة . يعرفون مقصدا أنها لن تهب - اذا هبت - لنجدهم بل للتسسيد عليهم ، فليس فى الأرض قوة تهب لنجدة المظلومين أبدا أبدا أبدا ، هذه حقيقة ينبغى أن تكون فى وضوح الشمس يستظل بها الكافة ، ان العواء والصراخ حتى وهو يتحول الى غناء كهذا الغناء يصبح اغراء للقوى الخارجية المتحفزة ، يصبح جذبا ، يصبح هو الصوت الشبحى الذى يناديها قائلا : تعالى واركبىنى وطوحى ساقيك على مؤخرة أبائى وأجدادى وأمهاتى . ما هكذا يكون الغناء أبدا . .

ان ما بهرنى فيه سابقا هو اكتشافه ان للغناء ثمة دور حاسم يسمو به عن الترفيه الرخيص ٠٠ لكن قدرة المؤلف والمغنى وقفت عند هذا الحد فحسب ولم تتقدم ، ولانهما ليس وراءهما ثقافة عظيمة توارى الدور فان تيار الاعجاب - وهو تلقائي دهمائي خشن - جرفها بلذة فائقة الى التنفيس عما فى صدور الجماهير من آهات مكبوتة ، مثلها كمثل الخبر بمواضع الاكلان فى جسدك فيروح يهرش لك فيها وأنت تتلذذ ، وهو يهرش وأنت تتلذذ ، وسوف ترعى فى جسدك البثور والدمامل والفرغرينات ويؤوب جسدك الى جده أيوب من جديد ولكن بدون سيادة أو عظمة . صحيح ان الأغنية الشعبية فى تاريخ الشعب الأزرقى كانت فى معظمها نوعا من المعارضة أو الاحتجاج ، ولكنها كانت قبل هذا وفوق هذا تحمل مضمونا انسانيا محسوما وقويا ، ولم تكن تستهدف أشخاصا بعينهم للتنديد بهم أو فضحهم ٠٠ وانى لاحتر دور كل هذه الأغنيات الماوردية الى حله الازدراء . وأعتبر أن مثقفى بنى الأزرق مجرد دهماء فى حقل الثقافة ، فرغم أسمائهم الكبيرة وسمعتهم الرنانة يشجعون ظواهر ومعتقدات وأوضاع وأشياء من شأنها دائما تثبيت الشئ وترسيخه بل وخلق وضع له دون أن تدرى ، أو لعلها تدرى فيحق لنا حينئذ أن نعتبرهم جميعا خونة للشعب ولأنفسهم ٠٠ لكل هذا فانا - اسمحوا لى - ضد كل فن أو أدب أو كلمة تساهم فى اشاعة مناخ الهزيمة والضعف ، ضد كل فن أو أدب يساهم فى تجهيل الناس أو خداعهم ، ضد - بالأحرى - الأدب والفن الذى ينتجه المذهبون من شيوخيين ودينيين وعقائديين وما الى ذلك وأمقت الذين ينتجونه لأنهم سخروا مواهبهم فى توسيع رقعة التحيز لأفكار بعينها أو عقائد بعينها أو عصور بعينها أى أنهم أجروا ليس فقط فى حق أنفسهم بالحكم عليها بالانحصار والتوقع والتخلف ، بل فى حق الناس الذين تأثروا بفنونهم وآدابهم فاستضامت فترات وتعمت فترات ، وسادت أفكار وماتت أفكار ، وخطر ذلك انه يؤدى الى تجزئ الانسان وتمزيقه .

وكانت هذه الخطبة الانشائية التي تخلو في نظري من كل معنى قد خلبت لب الأصدقاء فعرفت أنهم غلبة الى حد ما ، ليس لمحدودية ثقافتهم فحسب بل لأن نصف مواهبهم تضيق في الكيد بعضهم لبعض ، وافتعال فصول ونوادير شيطانية للتسفيه من قيمة بعضهم بعض ومن أصل بعضهم بعض ، مجموعة أحسن عن يقين رغم اجتماعنا في شقتي اننا لم ولن نجتمع في يوم من الايام على شيء حقيقي ٠٠ أفليس مثلهم الأعلى أغنيات على هذه الشرائط كتبت ولحنت خصيصا لشنتم واحد واتهامه بالخيانة ، أليس طريقا وفوريا انهم يبالغون في الاعجاب بهذه الشرائط وما عليها ، دون أن يلاحظوا ان أسماء بعض الشخصيات اللامعة وردت في بعض الأغاني باعتبارها المثل الأعلى في الثورية ، ووردت في أغنيات أخرى حديثة باعتبارها شخصيات زرية خائنة وضيعة ؟ فاذا كانت الأغنية الأولى قد أعطت الدليل المقنع على ثورية هذا الشخص في حين قدمت الأغنية الثانية الدليل المقنع على خيائته وانحطاطه فأين الحقيقة تكون ؟ ان سلاح الفن لا يصلح الا للتمجيد فحسب ، ولهذا فالواجب أن نختار قيما نجسدها ونصنع لها تمثالا ، وليست قيمة الفنان في انه يعرف كيف يتفنن ، انما قيمته في مدى وعيه بخطورة السلاح الذي وجهه الله ٠

ان مأساة جيلنا انه لم يجد له اخوة كبار يؤنسونه وحشته ويبادلونه بث الأسرار والمعارف ، فوجئنا بأن علينا أن نتصل رأسا بالآلهة ، المسيطرين الكبار من جيل الخمسينات . فكيف نستطيع الوصول اليهم أصلا وهم في عليائهم بله أن تقترب منهم ، انهم آباء فرضوا علينا فرضا وليس ثمة من معابر أو قناطر بيننا وبينهم حتى سيف الماوردي يعتبر نفسه آلهة متواضعا يسير بين البشر ٠ وأكبر أثر تركه فينا صراع جيل الخمسينات مع جيل الستينات هو أن كثرت بيننا عيوبهم المتورمة ، التحمس بلا ثورية حقيقية وبلا مضمون سياسي حقيقي وبلا مبادئ حقيقية ، القسوة والعنف في معاملة بعضهم لبعض ٠٠

ثم أنهيت كلامي قائلا : اننى مع ذلك موافق على دعوة خالى
سيف الماوردى الى شسقتى ، والتعرف عليه ان أمكن ، اذ اننى
- تقريبا - لم أعهذ أنذكر شكله الا من خلال حكاياهم عنه فى بلدتنا
يوم زارها خلصة فى أواسط الستينات ..

ويبدو أننى قد أثرت فضولهم ، اذ رأيتهم جميعا يهتفون
برغبة الذهاب اليه فى نفس الليلة ، ليس برغبة توجيه الدعوة
اليه ، بل بحب استطلاع مما يمكن أن يحدث بيننا لحظة اللقاء ..



عاصمة بنى الأزرق تحمل ملامح كثيرة من القاهرة المعز . فهذه
الأخيرة هى الأعرق والأقوم . لكن المساوى والمهاوى التى يحفل
بها النموذج المقلد - بفتح اللام - لا يتحمل نتيجتها الباهظة فى
العادة الا النموذج المقلد - بكسر اللام ، ولهذا فان الأحياء المملوكية
منتشرة جدا فى عاصمة بنى الأزرق ، مجرد ديكور قديم . فاذا
كانت القاهرة المعز هى التى رأيت هذا التاريخ وعاشته أحداثا واقعة ،
فان عاصمة بنى الأزرق تعيش التاريخ تاريخا تمنع فى تقليده
واعادة تمثيله من جديد فترة وراء فترة وبأمانة الراغبين فى الابقاء
على هذا التاريخ العظيم حيا قائما ..

وهكذا دخلت مع الأصدقاء حيا مملوكيا قرأت أسماء الكثير
من لافتاته الزرقاء فى كتب التاريخ ، الحى حافل بالباعة والبضائع
والأموال على الأرض والأرصعة متناثرة . عن يميننا ميدان المشهد
الأزرقى . وعن يسارنا حى الكرابيج الذى قيل انه كان يستوطنه
جماعة تحترف صنع الكرابيج التى يحضر لشراؤها سياح من جميع
أنحاء البلاد ..

دخلنا فى حارة أفضت بنا الى حارة ثم عطفة ثم حودة ثم
اختراق بوابات ودهاليز ، حتى صرنا فى حارة طويلة عريضة يخيم
على جوها ارهاب خفى غريب ، والناس تتحرش ببعضها ، والمطاوى

مشرفة على الدوام ، وثمة ترايبيزات متناثرة عليها قطع الحشيش بأصنافه والأفيون بأنواعه . فذعرت ، وهمسوا فى أذنى قائلين أننا فى حى تجارة الحشيش ومركزها الرئيسى فى البلاد ، وأن علينا أن نسير مؤدبين وفى حالنا درءا للحكومة أو للبلطجية . وهكذا أغلقنا الآذان عن كل الدعوات التى وجهت إلينا ونحن سائرون قائلة : « اتفرج يابيه .. عندى حشيش طازة حلو .. شوف واتفرج .. زيت ما اتخلطش لسه .. اتفضل يابيه .. احنا عندنا مبدأ ترجيع الحشيش الى ما يعجبكش حتى بعد ما تشربه كمان ، .. فلا نلتفت الى أحد أى التفات ، وإن كانت نوازعنا قد تمت أن يحصل كل منا على قطعة . وحين مال الولد الذى يعرف المسكن قائلا ان علينا - على فكرة - بشراء قطعة حشيش كبيرة نحى بها سيف الماوردى ، وجد ترحيبا عظيما واستعدادا لدفع الفلوس فى الحال . ووجدنا ان جميع الناس تتوقف وتتفرج وتقلب وتختار وتشتري بكل بساطة . وقفنا نحن أيضا وتفرجنا واشترينا ربع أوقية وقطعة أفيون صغيرة لزوم السهر بثلاثين جنيه . ثم رحبنا جميعا - ولأول مرة - أن تظل هذه الأمانة فى حوزة الصديق ليقدمها حين الخروج من منطقة الخطر ..

غير انه دخل بنا فى حارة جانبية قدرة جدا . تنتهى نظافتها عند بيت على زاوية لتبدأ فى الحودة بيوت عبارة عن هياكل بنائية فقط ، بعضها يميل على بعض ويتمرد . بدأت أفقد الثقة فى أن يكون ثمة بشرها هنا يسكنون ، اذ هبطنا صحن دار مظلمة تماما وشرعنا فى صعود سلم متآكل قمى كتيب ، وصديقى حامل الحشيش يصيح بنا فى ذعر : حاسب .. دماغك .. فيه بسطة فوقك .. حنود .. يمين .. شمال على طول .. يمين تانى .. أيوه .. اطلع .. شمال وانزل .. أيوه .. وطى راسك شوية ، .. وهكذا حتى اصطدمت رؤوسنا عشرات المرات كأننا مجموعة من

الديلمان تزحف بين فراغات الصخور الجوفية • فلما انفتح أمام طرقاتنا باب قسء نظرنا فى الضوء العليل المنبعث من لمبة جاز نمرة خمسة فى الحجرة التى تواجهنا على بعد خطوتين فى ممر تمشى فيه بجانبك فقط ، وعشرات من الأفندية المثقفين والطلاب والصحفيين يجلسون فوق بعضهم كيفما اتفق ، اذ لا أثاث فى الحجرة سوى سرير حديلى سفرى مفروش بطبقة من العرق المتجلد المتصلب ، يجلس فوقه سيف الماوردى بعوده وبجواره المؤلف الحلو ، ومجموعة من الرجال والنساء ، وتناثر الباقون على الأرض فوق جرائد مفروشة ودكك خشبية خشنة ..

بهرت • لا يمكن أن يكون هذا سيف الماوردى • لقد سمعت أنه يعيش فى شقة لطيفة عيشة نظيفة كريمة ، ولم أكن أتصور أبدا أن يعيش هذه العيشة المنحلة • وكنت أبكى من الشعور بالانسحاق • وقال صديقى حامل الحشيش ان سيف الماوردى قد طرد من جميع الشقق التى اتسمت له فيما قبل لأسباب متعددة • وكانت الحكومة قد طار لها مرارا وسجنته مرارا ، وضيق عليه خناق الزوار ، فصار لا يجد حتى قوت يومه ، وهذه الحجرة التى يقيم فيها ليست حجرته انما هى حجرة ولد من هذه الحارة ورثها عن أمه وليس له شغلة ولا مشغلة فى الأصل سوى السمسرة بريزة أو شلن من وراء ربع قرش يشتريه لك ، ولما جاء ناس يسألون عن حجرة لهذا الرجل الغلبان سيف تلقفه لعله يعيش من ورائه ، وبالفعل فوجئ بأن سيف الماوردى هذا مهم وله جمهور غفير يجئ بالخير ، ولكنه يجئ أيضا بالحكومة فى كل لحظة لتأخذهم الى الحبس فالمعتقل شهورا •• على أن الزوار سرعان ما مسحوا من الولد وأوهموه أنه فنان حقيقى ذو قضية لمجرد انه رسم أمامهم زخرفة يدارى بها شكل دولاب الحائط القبيح ، فاذا به قد رسم لوحة كما قالوا ، واذا بهم ينشرونها فى الصحف ، ويتكلمون عنه باعتباره فنان ، واذا به يطلق العنان لخياله الأهوج

المعوق في رسم تخاريف لا معنى لها ولكنهم يعاملونها باحترام هازيء
ويشترونها منه ببعض نقود .. فأصبح يتقبل الاعتقال ويسعى
اليه سعيدا ، وصار مرافقا لسيف الماوردي أينما ذهب ، وعمرت
حقيبتة بالبشيشات وعمر ذهنه بالألفاظ والتعابير البراقة التي
يردها بلا وعي أو قصد أو إرادة ..

حينئذ قلت للصديق اذ روى لي ، اننى أرجوه ألا يجيء بسيرة
قرايى لسيف حتى لا يعرضه ذلك للحرج أمامي .. نعم لست
أحب أن يعرف سيف اننى ابن شقيقته الآن لأنه لا يود أن أراه فى
مثل هذه الحالة المنحطة . وأنذرت صديقى ان هو قلمنى بهذا
الاعتبار فسوف أكذبه . فوعد الصديق بعدم فتح هذه السيرة .



أخذنا نعد الترتيبات اللازمة لزيارة سيف الماوردي لشقتى .
كنت أحس بخوف عميق لمجرد انتشار الخبر بين الزملاء . حتى
ذلك الشاب الذى كان قد علق على اسم بهية مقلدا محمد العزبي ،
التقيت به فاذا هو شقيق بهية واذا هو ملم بالخبر . ودعوته على
الحضور ، وقلت له ان سيف الماوردي سوف يحضر الى شقتى
ليس باعتباره المبنى الملعون للفناء بل لانه أحد أقاربي سيجيء
لزيارتي فحسب . ودعائى هو على شرب « حاجة ساقعة » فى
مكان ما فرحبت على الفور ..

انطلق بسيارته الى مكان بعيد ساحر فى سفح إحدى الهضاب
الجبلية الجميلة . وأخرج من حقيبة السيارة كراسى حديدية
كالأسرة مطبقة كالحقيبة وتنفرد بفرش من الشمع المتين . كما
أخرج أيضا ثلاثة صغرة وزجاجة ويسكى وبعض المأكولات المعلبة .
شربنا وأكلنا واستمعنا الى الموسيقى الأجنبية بل ونسينا الغرض
من اللقاء ان كان ثمة غرض آخر . وواقع الأمر اننى خلال اللقاء
حصلت على اجابات شافية لعدة من الأسئلة التى كانت تدور فى
ذهنى . أهمها ما أثر به حول حفل عيد الميلاد .. يا .. كان ولدا

لطيفا حقا ، ولو ان شخصيتي فارغة فراغ شخصيته لأصبح من أعز أصدقائي . لقد سب الحفل وأصحابه وكل ما جرى فيه . حيث قد كلفهم الحفل مبالغ طائلة حرمتهم من مصروف جانبى كثير . والسبب أمه ، فهي صديقة لأم راندا ، وهي تسعى دائما لكسب صلة هذه السيدة باستمرار معتقدة ان أخاها عبد الجبار بماله من سلطات داهمة يعتبر ثروة اضافية بالنسبة لهم . ولان أمه فوق ذلك تعرف الفنانة رشا الخضرى اذ هي جارة مباشرة لهم وتعرف عنها كثيرا من المضايقات ويحدث بينهما الكثير من المجاملات لهذا فقد تلقت أمه وعدا من أم فهيمة بالحضور اذا حضرت رشا الخضرى ، وهذا معناه أن ينفق أبوه كل هذه المبالغ ويدفع لكل هؤلاء المطربين والراقصات لكي يكون الحفل مشرفا يليق بحضور رجل عبد الجبار . قلت من فزع : « هل حضر عبد الجبار الى الحفل ؟ » . قال الولد اللطيف : « نعم . . . كنت نائما يومها ؟ » . ثم أضاف وهو يزغدننى بكأس :

- « لقد حضر وحضر . . . وجلس برهة انهيار فيها وفقد توازنه وصار يضحك ويلمع . . . ويفعل حركات كالأطفال الأشقياء . . . كل ذلك - تصور - بمجرد رؤيته وجه رشا الخضرى من بعيد وعبر فتحة بين ستارتين . . . فما بالك لو جالسها ورأها كاملة ؟ . . . المسكين تلقى الأمر بالانصراف من همسة جاءت بها راندا . . . فمضى زاعما ان موعدا مع ضيف هام قد حان . . . لكنه قبل أن ينهض . . . كانت رسالة منه قد أعطيت للفنانة رشا الخضرى وبقية المشاركين فى الحفل . . . أما الآخرون فانه أعطاهم نقوطهم عينا بعين عبر أمناء . . . أما رسالة رشا الخضرى فقد أخذتها أنا لتوصيلها وكانت . . . أتندى كم ؟ . . . عشرة آلاف جنيه . . . باعتبارى ابن الأسرة الأمين فانه قد اصطفانى فى السر على جنب وأوصانى بأن أختلس لحظة انفراد بالفنانة رشا الخضرى وأعكمها هذا المبلغ كهدية خاصة من عبد الجبار بك . . . من كثرة الفرح شهقت يا أخى يا مأمون . . . قال لى سيادته وهو يسلمنى اللفة الكبيرة فى جرنان استخرجه من

شبهة السيارة : ماتنساش ياليم .. اوعى تنسى تقول لها تتصل
بى .. قلت له : حاضر يا أونكل .. اطمئن يا أونكل .. تأبطت
اللفة .. اختفيت بها فى حجرتى الخاصة .. فككتها سقط منها
خطاب عليه عدد من النمر السرية لتليفونات الخفية .. الذى جعلنى
افتح اللفة أصلا يجعلنى أفتح الخطاب .. فلما قرأته قررت اختلاس
الأمانة كلها نكاية فيه .. لكننى تنازلت عن بضعة مئات منها
وضعتها فى نفس اللفة الكبيرة ثم دخلت فوضعتها على الصينية بين
الهدايا وهمست فى أذن رشا همسة مضغمة لا تقول أى شىء محدد
.. فهزت رأسها وقالت شكرا .. وبهذا قد أشهدت الجميع على
أننى سلمت لرشا لفة جرنان كبيرة واننى همست باسم صاحب
الهدية الذى عرف الحاضرون بالإيحاء أنها من البيك الكبير ..
فنظروا الى فهيمة ورائدا نظرة ذات معنى ثم ابتسموا ..

جرعت الكأس كله كأننى سكير أصيل ، وجذبت « ليم » من
ذراعه قائلا :

- « انتظر ياليم .. أنت قلت الآن انك فتحت الخطاب ..
فما الذى كان فيه .. ان ما فيه لهام جدا بالنسبة لى .. نعم قل
لى بربك ماذا كان فى الخطاب ؟ » ..

فشوح « ليم » بذراعه الرفيعة واكتس وجهه الدقيق المسمس
حمرة قانية ، ثم قال :

- « مراعاة عجوز متهتك لا أكثر ولا أقل » ..

قلت بحماس يقرب من الغضب :

- « ماذا قال بالتحديد .. بالحرف الواحد ان أمكن ؟ » ..
تفكر « ليم » بعض الوقت . ثم صب لنفسه ملحقى كأس
جرعه وأشعل سيجارة . وكان مضطجما على الأرض ببنطلونه
الجينز الفاخر والقميص على اللحم ، وقال كأنه عجوز حكيم يدلى
بأوصاف طفل تائه :

– « كلام من قبيل يا حبة القلب ، يا لؤلؤة العين ، يا جوهرة
الفؤاد .. أهديك أغنية أنا من ضيع في الأوهام عمره .. اننى
أنتظر لقاءك على أحر من الجمر .. فبادرى بالاتصال بى .. سأنتقلك
الى دنيا من الأسرار لو قبلت الارتباط بى .. أقيم لك شقة فى
أمريكا ، فى سويسرا ، فى القمر لو أردت ... الخ .. الخ » ..

ثم شد نفسا عميقا من السيجارة فهمت منه انه فى غاية
الضيق من هذه الأسرة وهذه العلاقات غير الطبيعية وهؤلاء البشر
المرضى بأمراض يصعب علاجها فقلت له :

– وهل أعطيتها الخطاب يا ليم ؟

قال ملتفتا الى فى استنكار شديد :

– « لا طبعا » ..

ثم اضاف مبررا غضبه :

– « لقد كنت أتحرج من توصيل الأمانة لشبهة أن يكون فيها
جانبا من القوادة .. فماذا يكون موقفى وقد تأكلت من الخطاب ؟
ان دورى هو القواد لا أزيد ولا أقل .. لقد مزقت الخطاب طبعا –
انهم ناس رخاض ياعم مأمون .. فى يدهم الأموال كأنها الجبال ..
ولا مانع لديهم من دفعها كلها مقابل ارضاء رغبة رخيصة منحطة
.. عليهم اللعنة » ..

يومذاك شعرت ان « ليم » ، أو عبد الحليم – هو أصدق
نموذج يمكن أن تخلفه بيئة كهذه ، وانه يمكن أن يكون صديق فكاهة
أتفرج من خلاله على أسوأ ما سوف يراه وادى الأزرق بعد ذلك
من أجيال . وكنت أهدف من وراء تلبيتى لدعواه أن يدعو أخته
باهى وصديقتها « راندا » لتشریفى بالزيارة فى شقتى ، للاستفادة
بنفوذ راندا اذا ما حدثت أشياء غير سارة .. ولكننى بعد لقائى
ذاك بليم قررت الا أدعوهم الى شىء على الاطلاق .

★ ★ ★

اكتظت الشقة عن آخرها بمجموعة سيف الماوردى وحدها .

القادمين معه من أتباع وعشاق وحامل عود ونافخ نار وحامل جوزة وحامل حشيش . قل ان مدخل العمارة كله قد انتهك تقريبا وامتلأ بالكراسى الاضافية المستعارة من البواب على مضض . وبقي باب الشقة مفتوحا . ثم لم يعجبني ذلك المشهد فاعتذرت لصاحب العمارة وللپواب وزعمت انه حفل عيد ميلادى وكل سنة وهو طيب والعقبى للأنجال ، فقتل شاربه من الانيساط وجاء ليجلس معه قليلا على سبيل التحية . فوجد ان الشقة قد انقلبت الى غرزة غريبة تمتلىء بناس من كل لون يتناحرون على الشرب والتوليع ونوع التعميرة ويشيرون ضجيجا فارغا ، والجو يمتلىء بعواصف من الدخان الأزرق الكثيف تحجب الكثير جدا من الملامح والوجوه . . . سيف الماوردى يتقافز فى جلسته مع العود مغنيا والجمع من الحفلة يردد خلفه ويشيع كل ذلك جوا من البهجة المحفوفة بالخطر . ثم ان صراخ الكلمات فى الأغاني صار أوضح من الألحان وأكثر طغيانا فتجسد الخطر . هم يغنون أى نعم ، ولكن عبارات خطيرة تفرق لاعنة حكاما ومسئولين ومنعدة بأوضاع وهكذا ، وأجهزة تسجيل تعمل بلا انقطاع ، لو فرغنا شرائطها لوجدنا غابة من الأصوات البوهيمية تختلط فيها الكلمات بالصخب الطائش بالنكت البذيئة بالتعليقات الجارحة بكرة الجوزة بكل ما فى اللحظة من تفكك وتلن . .

استأذن صاحب العمارة ومضى لينام . وبعد خروجه بنصف ساعة أو أقل قليلا فوجئنا بطائفة من أمناء الشرطة والضباط يقتحموننا ثم يطوقوننا بحزام حديدى ويتم تفتيشنا بكل غلظة ، حتى البنات الحاضرات تم تفتيشهن ببذاءة وتم تجريهجن عن عمد ، وتم التحفظ على أجهزة التسجيل والشرائط والجوزة والحجارة وقطع الحشيش الموجودة . ثم تم شحننا فى عربة البوليس . وفى القسم وجهت لى تهمة مذهلة : « أنت متهم باقتحام شقة الغير وإقامة حفل

غير مشروع بها ، تبغى من ورائه التآمر على النظام ومحاولة قلب نظام الحكم » ..

صحت من ذهول :

— « كيف يا سعادة البيك ؟ .. لقد كنت أحتفل بعيد ميلادى فى قلب شقتى .. وكل هؤلاء الأصدقاء حضروا للتهنئة .. كونهم بالفوا فى اظهار الفرح » لا يعنى هذا الاتهام » ..

قال المحقق :

— « لقد كذبت فى نقطتين هامتين كذبا صريحا .. الأولى انك احتفلت هذا اليوم فى حين ان تاريخ ميلادك المسون فى بطاقتك يرجع الى قبل يوم الاحتفال بشهور طويلة .. فهل تحتفل بأثر رجعى ؟ .. النقطة الثانية انك ادعيت انها شقتك » ..
رحت . وقعت من طولى . تجاهلت حكاية تاريخ الميلاد وشبظت فى النقطة الثانية قائلا :

— « لست ادعى .. هى شقتى .. باسمى » ..

قال المحقق :

— « معك عقد ؟ » ..

قلت : « نعم » . قال : « أرنيه » . فبحثت فى جيوبى وذاكرتى ثم حط الذهول على ، اذ تذكرت اننى رميت بالعقد فى سيارة الآنسة راندا ولم أسترده لسذاجتى . فقلت له ببساطة : « آسف .. »
العقد مع الآنسة راندا ابنة شقيقه عبد الجبار .. كنت معها فى سيارتها الخاصة ونسيته فيها .

قال المحقق :

— « لا يا أستاذ .. العقد انت تنازلت عنه فى يوم كذا .. وتم نمزيقه مع المالك ، واسترد المالك شقته .. لكنه تركها لك

أياما حتى تدبر شأنك .. ولكنك لم تدبر .. واقتحمت الشقة
عنوة وادعيت انك لا زلت تملكها .. ثم انك بكل بجاجة أقمت
حفلك فيها .. ثم ان الحفل مشبوه اذ يقوم باحيائه شلة ، من
الخارجين على النظام الذين سبق اتهامهم في عشرات القضايا
المشابهة .. ثم ان ما ضبط على الشرائط يثبت ان الحفل كان لغرض
واحد فقط هو التشهير بالنظام ورجاله والتنديد بحياتهم الخاصة
وتجريحهم بعبارات يعاقب عليها القانون ، ..

الحقيقة لم أجد ثمة جدوى من مراجعته في هذا الكلام .
لكننى بكل صلق حكيت له قصة الشقة من أساسها ، واعترفت له
اننى ضد كل ما حاولت هذه الشرائط أن تذيبه وضد حتى أسلوب
وطريقة اذاعته ، ووقعت بامضائى على اننى برئ حتى من عزومة
سيف الماوردى وأن صاحب الدعوة هو أحد أصدقائى واننى قبلت
دعوته ورحبت بحضور الماوردى ، واننى رغم كل ذلك لا أكون متهما
بشيء ، لأننى لم أتفق مع المغنى على الغناء وان رحبت بفنائه ، ولا على
كلام معين يفتيه وان علمت ان غناؤه معارض ، فكل واحد له رأيه
ويرتحمل مسئوليته وطريقة اذاعته . الخ ..

المهم اننى لخبطلت لخبطة كبيرة في كل شيء ، وخلطت من
فرط الخوف بين أشياء كثيرة لا جامع بينها ولا رابط . فقد كنت
حتى وقت القبض على فى شقتى أتصور ان مسألة ابداء الرأى هذه
عمل محترم ، وان المواطنين خاصة المثقفين يعاملون معاملة خاصة
حين التعرض لهم ، وان ثمة فرق بينهم وبين المجرمين ، اذ هم على
الأقل أصحاب رأى ، أى على الأقل يعرفون الحد الأدنى من
حقوقهم الدستورية تجاه الدولة ، فضلا عن انهم أهل فضيلة ونزاهة
.. كذلك كنت أظن ان ما يشاع عن معاملة المسجونين السياسيين
وما قد قرأته من شهادات كتبها خريجو سجون ما قبل ثورة
بشنس - فالثورات عندنا أحيانا تتعاقب بتعاقب الشهور - ان كل
ذلك محض افتراء مبالغ فيه بهدف الاساءة الى النظام الذى سجنهم

٠٠ فاذا بى يا جدع ارانى يوم القبض على مربوطا من قميصى فى قميص الآخر فى فسستان الأخرى وهكذا ٠ وكنت طول عمرى يضطرب قلبى فزعا أن ترانى أمى أو أحد معارفى وأنا مقيد اليد بالكلبشات فى تهمة سرقة أو تحر ٠ ولا أدرى لماذا كنت أخشى ذلك وأقيم له حسابا ولكننى أظن انها راجعة لكثرة رؤيتى لأولاد متشردين مقبوض عليهم على هذا النحو ، وأعترف كذلك ان هذه الخشية من مثل هذا المنظر هى التى أيقظت اهتمامى على الدوام بأن أكون شيئا مهما فى المجتمع الأزرقى أتعلم وأحمل الشهادات العالية واشتغل بالتعبير وهكذا ٠ ترى ما الذى كانت تفعله أمى لو رأتنى وأنا الطالب الجامعى المحترم مقيدا ليس فقط بقيد حديدى بل مربوطا من قميصى امعانا فى الهزء بى والتقليل من شأنى واشعارى بأننى أقل حتى من حرامى الفسيل ٠٠

ثم اننا يومها دافعنا عن أنفسنا داخل التخشيبية بين المتشردين وأرباب السوابق ٠ دافعنا قدر الامكان ولكن الضباط والمعاونون لم يتركوا لنا شيئا نعتز به امامهم ، ابتداء من فروج أمهاتنا وانتهاء بمؤخراتنا التى أعلنوا لنا وللجميع اننا نستخدمها فى غير أغراضها الطبيعية ٠ وبعده انفلاق الأبواب حدثت معركة دامية بيننا وبين أرباب السوابق والمتشردين لهذا السبب الأخير عينه ، استعملت فيه المدى والأمواس والجرادل وتحطمت الأجساد تماما ٠ وقال الضابط الذى فتح الباب علينا ونحن جثث هاملة انه سيعرف أسماء الذين استنفروا نزلاء التخشيبية وأقاموا الشغب بينهم وسيرمى بهم فى جب ٠ ثم أفلق الباب ثانية ٠ وهنا تقدم ثلاثة ولدان من زملائنا المشهورين بالبلاقة والقدرة على جذب الأصدقاء عزموا على الموجودين كلهم بالسجائر والود ، فاستجابوا جميعا للمبادرة ٠ ولم يمس وقت طويل حتى كان الثلاثة قد أقنعوا الجميع أنهم أخوة لهم وأنهم جئ بهم الى هنا من أجل كذا وكيت ، فالتحموا جميعا فى ملح البصر وتبادلوا العناق والاحترام وصار المتشردون وأرباب

السوابق ينوبون عنا فى الاحتجاج على المعاملة وسوء الطعام ،
واكتشفنا ان لهم قدرة رهيبه فى ردع الشرطة بوسائل غريبه ..

على أية حال لقد فوجئنا بأن البعض قد صدر الأمر باستمرار
حبسه أربعين يوما آخرين . وكنت أنا من بين الذين أفرج عنهم .
وقيل ان الأنسة راندا هى التى توسطت بنفوذها للإفراج عني
ولكننى لم أتصل بها حتى لأشكرها ، ويوم الإفراج عني كان
يوم عيد وبداية عذاب جديد ، اذ فوجئت بأننى مفصول من العمل
لتجاوز نسبة الغياب فكان على أن أقدم التبريرات اللازمة لإلغاء
قرار الفصل . ولم يكن فى جيبى مليم واحد أتحرك به ، فاقترضت
من جدتى معزوزة عشر جنيهات . ولم يكن هذا هو مصدر العذاب،
انما العذاب الحق هو شعورى بالمهانة ، شعورى بأننى لم أعد ولن
أكون - محترما بعد ذلك أبدا ، لقد انكسرت بداخلى أشياء وقيم
وتنهورت مسائل كثيرة ، وباختصار لم أعد أنا هو أنا قبل القبض
على .. لكننى أيقنت بعد ذلك ان ذلك العذاب كان ارهاصا بميلاد
شخصيتى الجديدة التى أصبحتنا الآن ، وأعنى بها شخصية الراى
الحر الذى لا بد أن أعتنقه وأدافع عنه وأفسره بعشرات الأدوات
والاشكال الفنية .. اخترت أن أقف فى جوار العدالة فى مواجهة
الظلم والظلم بجميع أنواعها وأشكالهما ، مقتنعا بأن الخوف من
بطش الطغيان هو مساهمة فى الطغيان ، وان مواجهة الطغيان هى
أولى محاولات هدم الطغيان وإيقاف بطشه .

باب السد

★ كيف يمكن أن تتصالح السماء في العروق ؟

١

انتبهت فاذا « بمأمون » قد أشرف بنا على منطقة فسيحة تميزت عن بقية الأرض بوجود كثير من الأجهزة المرتفعة الغامضة ، والأبراج الحديدية العالية ، وارتال من السيارات المتنوعة الأشكال والالوان والمراكات ، من فئاطيس الى ملاكى وجيب وما الى ذلك . تقف متناثرة هنا وهناك ، وثمة سور من الأسلاك الشائكة تبدو أطراف حديدة من بعيد جدا حيث ينتهى البصر ، وثمة أيضا أبنية صغيرة جميلة مزركشة بالالوان يسكنها - لاشك - مهندسون وخبراء . وكان منظرى قد أصبح غير سار أبدا ، اذ حُزمت وراء « مأمون » من أراض زراعية مروية حديثا ، وعبر قنوات صغيرة .

وبجوار مستنقعات مليئة بالزفارة الجيبة فلما توقفنا بعد سير طويل أمام هذه المساحة المميزة فوجئت بأن كل المستنقعات والألواح التي خوضت فيها قد علقّت بجسدي وبطنى وكل فروتى، حتى صرت مقرّزا جدا ، ورحت مع ذلك ألحس فروتى بخجل وأدعك بوزى فى عنقى وأخلص قدمى من متعلقات سخيفة رذلة ، وصرت ألّهت ولسانى ممتد أمامى كضابط الإيقاع ..

« مأمون » ولد جدع كما حدثت وأى جدع ، ولد يستاهل السلامة بحق وهو من فضل الله على وكرمه .. فمن فى عصرنا هذا يضيع وقته مع كلب مثلى محشو بالمعلومات أى نعم ولمم بجحافل من الأسرار هذا صحيح ويعرف عن ماضى قضية « مأمون » مالمو أبرز منه كلمة واحدة لانحلت كل العقد فى حياة « مأمون » ووصلت قضية مقتل خالته بسيمة الى حلول هذا مؤكد ، لكننى فى النهاية كلب بمعنى اننى لا أملك بله أستطيع قول شيء أو تفسير شيء أو توضيح شيء . اسمحوا لى فأنا لا أدرى - والله - ان كانت هذه صفة كلبية أصيلة أم اننا معشر الكلاب قد اكتسبناها بطول عشتنا مع بنى البشر بوجه عام وبنى الازرق منهم على وجه خاص . وعهدنا بالأسرار والمعارف انها كلما انقضت أمام الفعل دفعته الى الإمام وبصرته ونورته الا بين جنس الكلاب .

وباعتبارى من جنس الكلاب القارئى فاننى أصبحت أومن برأى تكون فى داخلى عمليا طوال خبرتى العمرية والحياتية ، هو أن جنس الكلاب تنحصر كل قدراته العقلية فى المعارف الوجدانية، ان ذاكرة الكلاب ليست فى رموسهم بل فى قلوبهم انها ذاكرة وجدانية خالصة ولذلك فان الكلب منا لا يقطع صلته الانسانية بأحد من البشر أبدا ، الا اذا بادر البشر بافقادنا هذه الذاكرة ، لكننا مع ذلك نظل أرفع مستوى منه وأعمق انسانية وأعرق حضارة ، اذ أننا حتى اذا فعل بنا صاحبنا ذلك لا نرتد عليه غدرا أو تمزيقا بل اننا قد نكتفى بأن ندير له ظهرنا وننطلق عنه الى

غير رجعة • وذاكرة القلوب أو الذاكرة الوجدانية تختلف عن الذاكرة الذهنية فى شىء جميل غاية الجمال ، ذلك هو أن الذاكرة الوجدانية لا يعلق بها أثر لجرح أو فعل غادر ، اذ انها سرعان ما تلتئم صلتها كأن ما حدث لم يحدث . بمعنى أننى لو طردنى صاحبى مهانا متخنا بالجراح وغبت عنه شهورا أو حتى سنوات ورأيت من جديد فاننى لابد أن أرتى عليه بالأحضان وتسقط فى الحال تلك الفترة الزمنية التى غبتا عنه مهما كان طولها كأنها لم تكن ..

دون جنس الكلاب أرانى مهموما بهذه القضية الخطيرة : قضية علاقتنا بالأسرار التى نعرفها ونراها ، والمعارف التى نحصلها بكثافة ، ثم لا نستفيد بها • وإذا كان قد قضى علينا بأن نعجز عن الاستفادة بها فنظل الى الأبد كلابا • فهل يا ترى بإمكاننا أن نفيد بها أسيادنا من بنى البشر ؟ • انهم - بنو البشر - يستفيدون كثيرا جدا بذاكرتنا الوجدانية وينظمون عملية استخدامهم لها بدربة فائقة ، ابتداء من التعرف على المجرمين والقتلة وكشف آثارهم وانتهاء بتربيتى كمثل للوفاء وحفظ العشرة • وان ما أستطيع الجزم به اننى كلب رأيت وعشت من الأحداث والأسرار ما يكاد يخرج بى عن كلبيتى • اننا معشر الكلاب حين نذوق دم العدوان بلساننا نفقد ذاكرتنا تماما ، ونصاب بما يسمونه السعار اذ ربما هبرنا لحم من يطعموننا ، وسر ذلك أن الكلب منا جبل على استعذاب طعم العدوان واشتهائه فى أى عروق جرى ، وربما كان صاحبى وسيدى الذى يطعمنى قد تغيرت نفسه على فجرت فى أمعائه جراثيم الخوف منى والعدوان على فاشم رائحتها فيصيبنى الهياج تماما ويظل يصيبنى متصاعدا كلما سخنت الدماء أمامى بجراثيم الخوف والعدوان ، فان بادر بالهجوم على بآلة حادة أو بأى شىء كنت أسرع منه فى رد العدوان بشراسة قد تسيل دمه ، وهنا تقع الكارثة ، وتكون محققة اذا ما طال دمه طرف لسانى وذقت

فيه طعم العدوان ، اذ استحل لحمه على الفور ولحم بنى جنسه
من كل من يعترض طريقى الهارب بعدوان ، ولقد تصيبني رصاصة
أو أقع فى حصار داهم يودى بحياتى ويحولنى الى جيفة تصلح
طعاما مستساغا لبنى جنس ، ولكن ذلك لن يكون مؤلما لى بعد
ذلك بالتأكيد ، لأننى استجبت لجبلتى الطبيعية فى وتحولت الى
طعام يتغذى به بعض بنى جنس فلم اذهب هباء على أى حال ..

لم تطل وحدتى ، اذ أقبل « مأمون » نحوى بعد ما لف ودار
حول احدى البنايات . وكان مهموما ، لكنه نظر فى نظرة شملتني
بعطفها ، ثم سحبنى من عنقى ومضى محنى القامة تجاه ساقية على
مبعدة . ثم رفعنى وغطسنى فى القناة المنسربة من الساقية ،
وبكتلة من الأوراق والأعشاب الخشنة صار يدعك جسدى ورأسى
وقدمى حتى فهمت لأول مرة معنى الكلمة الأجنبية التى يرددها بنو
الأزرق دائما بعد الاستحمام : « رفرش » . واذا أمرنى « مأمون »
باشارة منه قفزت فوق طارة الساقية وجلست فى قلب شعاع
الشمس المنصب على الساقية . أحسست أن غشاوات كثيرة قد
انزاحت عن عيني ، وعم الصفاء كل شيء ، ونظرت كأننى أقول :
« أين ذهبت بنا يا مأمون ؟ » . فجلس « مأمون » بجوارى قائلا
اننا فى المنطقة التى سيشرفها عبد الجبار اليوم بالزيارة . فاعدت
النظر حولى ، فرأيت ان كثيرا من الأشجار والنخيل قد تحولت
بقدره قادر الى صفوف من العساكر يسمونها فى بنى الأزرق عساكر
الهجوم الفرکشى نسبة الى انها منوطة بفرکشة أى تجمع وأى تكتل
وأى عصلجة .

أشار اليهم « مأمون » وهو يتسم فى سخرية مريرة ويقول :

— « يقولون فى قريتنا على سبيل التنكيت ، والتبكيك عند
بنى الأزرق يعنى التنكيد والتبكيك ، أن فرقة من هذه العساكر
كلفتم بفض أى تجمع فى البلدة ، فاذا بها تقتحم مجلس أسرة

كبيرة معروفة فى البلدة بكثرة شبانها ورجالها وأولادها ونسائها
 أيضا ٠٠ وتصر الفرقة على فضها بالقوة ٠٠ يقال ان رب الأسرة
 كان رجلا حكيما ساخرا ٠٠ أراد أن يساعد الفرقة على أداء واجبها
 دون عسلجة أو غباوة ٠٠ لكن الفرقة لاتنى تهاجم مجلس الأسرة
 فى حملات تصدر صيحات همجية يقلدها الأطفال ضاحكين بغطيان
 الحلل والعصى القصيرة ٠٠ فما كان من رب الأسرة الا أن استدعى
 مندوبين منهم وأجلسهما معه على باب بيته وجيء لهم بالشاي
 لا رشوة بل تعبيرا عن الواجب تجاههم ٠٠ وباتفاق مع المندوبين
 صنع ثلاثتهم مكتب أمن فرعى خاص لا شبهة فيه ولا خيانة ٠٠
 وتمين على كل من يدخل داره أن يبرز بطاقته الشخصية فان كان
 لا يحمل لقب الاسرة يمنع من الدخول نهائيا ٠٠ وقد حدث ٠٠
 وفى ظرف ساعات قليلة كانت الدار قد امتلأت وصارت تعج
 بالصبيان والشبان والرجال ومع ذلك لا يزال الليل يحمل أبناء
 لم تعد بعد ٠٠ وكان أحد المندوبين قد انساق وراء ما فى الموقف
 من طابع مسرحى فأصابه الشعور بالعظمة والأهمية ونتيجة لكل
 هذا الترحيب ٠٠ فاذا به ينظر فى الدار نظرة تشكك غريب ،
 ويقول لرب الدار فى استرابة : أوافق أنت ان كل هؤلاء أولادك
 وأحفادك قال رب الدار : ألم تر بعينك بطاقتهم وشهادات
 ميلادهم ؟ ٠٠ فعاد المندوب يهز رأسه متشككا ويقول : ولكن كيف
 سمحت لنفسك بالتكاثر هكذا الى حد هذا التجمع الكبير المخيف ؟
 لابد أنك تتآمر ضد النظام ٠٠ فتعال ٠٠ وأصر على اقتياده الى
 المخفر ليضع بنفسه حدا ٠٠ فابتسم ضابط المخفر وضحك حتى
 استلقى على قفاه ٠٠ وكان من المفروض أن يوبخ مندوبه ويعتذر
 للرجل ، لكنه بسرعة أدار منطق المندوب فى رأسه ٠ فخيّل اليه
 أنه يحمل بعض الوجاهة فانطلق يضحك من جديد ، وفى غضب
 مصطنع صاح فى مندوبه أن : عيب مالكوش دعوة ببيوت الناس
 فاهم ولا لا ؟ ، وصاح فى رب الدار أن : وانت يا راجل مفيش
 داعى للتجمهر محبكتش يعنى تتجمعوا كلكم كل يوم فى ساعة

واحدة ٠٠ ثم حولها الى نكتة تدعو الى الابتسام قائلا : مش خايفين
تتحسدوا ؟ ٠٠

ثم اندفع « مأمون » فى ضحك مكتوم . فواكبته بمجموعة
من الحركات المبتهجة لكنها مبطنة بالخوف من تواجدها هنا حيث
نصير هدفا لفرق الهجوم الفرشى . اننى ككلب أصيل أرى من
واجبى الانصراف عن هذه المنطقة برمتها والا فأننى كمن يقف أمام
القطار السريع . وهكذا أخذت أتمسح فى « مأمون » راجيا اياه أن
ينهض لنفادر هذا المكان . فأخذ يربت على ، ويجفف ما بقى مبتلا
فى فروتى وذيلى ، ويقول فى صوت دافئ أنه لابد أن يقابل حضرة
المأمور أو أحدا من المسئولين اليوم لاستصدار أمر بإيقاف دفن جثة
خالته فى مقابر الصدقة ، والدعوة الى فتح محضر وإجراء تحقيق
وتحريات حول ظروف موتها وعودتها على هذا النحو ، وقال انه
بعد قليل سوف يأتى عبد الجبار - ليفتح هاهنا مشروع حفر
للبحث عن بترول تأكد وجوده فى هذه البقعة من قرى بنى الأزرق،
ويعلم الله ان كان ذلك حقيقيا أو هو مجرد وهم بالشراء المعاصر ؟
ولكن الذى يعيننا الآن ان عبد الجبار سيجيء ويمضى بعد ساعة أو
ساعات ، ومن حسن الحظ - لا تخف - فانه سيجيء ويمضى من
طريق آخر بعيد ، ونحن الآن فى الساحة التى لا أهمية لها بالنسبة
لأى شيء ، وان وجودنا نفسه لا أهمية له من قريب أو بعيد ، كل
ما فى الأمر اننا بعد انتهاء الموكب سنتسرب الى أحد ضباط المركز
الكبار ، ونستحلفه بانسانيته أن يسمح شكوانا ويقدر ظروفنا ،
ورجاءنا وأن يتفضل مشكورا بمساعدتنا قدر الامكان ، ولابد أن
خطورة الظرف الذى نحن فيه ستشفع لنا ما نفعل ، ذلك والا فانهم
جميعا سينصرفون من هنا الى بيوتهم فتضيع علينا ساعات قد ننقذ
فيها جثمان خالتي ٠٠

لا أعرف ان كانت الطمأنينة قد داخلتنى عن اقتناع أو بمجرد
لمسات يد « مأمون » على جلدى وأعصابى ، وكان الوقت يمضى

ببطء وحرارة الشمس لاسعة في الصيف . وكان مأمون يتزحزح
بى شيئا فشيئا نحو بقعة ظليلة في حوض الساقية الذى يشبه
حوض البانيو الى حد كبير . فاضطجع فيه متمددا ، كأنه نائم في
البانيو ، نفس الضجعة التى كانت عليها جثة خالته بسيمة يوم
اكتشفت في بئر ساقية كهذه ، وكان مستوحدا تماما ، يشعر
بكثير من الكآبة ويقاومها بكثير من الابتسام والبهجة المصطنعة
ويحاول نسيان الوقت حتى لا يتعذب بالانتظار . وقفزت أنا فوق
جسده فنزلت باركا على صدره بالعرض فلم أشعر بأنى في حاجة
الى الاعتدال ، فبقيت مستجيبا لمداعباته وصوته الذى راح ينساب
في أذنى بغرائب مدهشة يقشعر لها بدنى ، اذ اكتشف من خلالها
كيف يكاد « مأمون » يضى الى ذاكرة انكلاب شيئا فشيئا دون أن
يدرى ، اذ ها هو ذا بكل ما يحكيه يثبت بما لا يدع مجالا للشك انه
عرف كثيرا من جوهر الأسرار ، بل عرف نواة كثير من الملقظات ،
لقد انكشفت أمامه أسرار خاصة ليس فقط بقضية خالته بسيمة
ولا بقضيته هو فحسب بل بقضية كل بنى الازرق برمتهم ، ولكن
كل ما عرفه من أسرار ومعلومات وأحداث يظل مجرد معلومات
ومحض أحداث عابرة طالما بقى مأمون عاجزا عن ربط بعض الأزمنة
ببعض الأمكنة . ان نجاتك يا مأمون ، أو بمعنى أصح نجاحك في
ربط أوراق قضيتك هذه مرهون بتخليصك من الذاكرة الكلبية ،
لتصبح قادرا على رؤية الزمان الماضى فى الزمن الحالى ، تصبح
قادرا على رؤية الزمان فى المكان والمكان فى الزمان ..

اننى ليسعدنى أن أقوم بدور نحوه يتفوق بى فوق ذاكرتى
الكلبية وينجو بمأمون من شرك الذاكرة الكلبية التى ربى عليها
بمنهج الفترات الزمنية المتسلطة ، منهج أن كل فترة تستهدف
أول ما تستهدف تلك الفترة التى سبقتها ، محاولة مسحها من
الوجود والغائها من حساب الزمن .. فتنطبع شخصيات الأولاد
بطابع غريب فادح هو التعود على التنكر للماضى والتخلص من

مستوليته على الدوام ، فكل ماضى ملعون بالضرورة وعليه وحده تقع مسئوليات كافة الكوارث ، والشباب ما يكاد يشب حتى يكون مدربا على أن يعمل بمعزل عن الماضى حتى ولو كان ماضيا مجيدا ، اذ ما أسهل ما يتغير وينس ، بمعنى أصبح لا يصبح لديهم أى احساس بالتاريخ أو بالأصالة ومن ثم يفقدون الاحساس بما يسمى الوطن . وسر حبي لمأمون انه معنى بالبحث فى ماضيه رغم انه ماضى مبعثر مجزأ مرغم علمه ما فيه من تقزز وعار بمجرد بحثه فيه ، لأن البحث شرف وعلو ، أما التناكر للماضى فهو العار بعينه ، وهو تكويس للعار أبد الدهر ، وربما يكون قد شاع فى صورة عار ما ليس بعار فحينئذ ينقلب وجه العار ، وربما يكون العار الحقيقى ما كان دائما هو الأخفى . كذلك من أسباب حبي لمأمون ايمانه بأن اتصال التاريخ على عاره أكثر شرفا بكثير من الفصل بين فتراته لتعتيم فترة وتزييف أخرى لحساب الحاضر وهكذا مما يحدث كثيرا فى مناهج بنى الأزرق . .

على أن عمق المأساة فى قضية مأمون انها غير متصلة الحلقات تكاد تصبح بلا تاريخ على الاطلاق فى حوزته . كل ما يعرفه عن حياة خالته بسيمة مجرد حكايا وحواديت أو وقائع تشبه الأساطير حدثت فى أزمنة متعددة فى أمكنة متعددة ومعظمها مجهولة الأماكن أو مجهولة الأزمنة . لقد ورث باختياره قضية بلا أوراق وبلا مستندات لأنها بلا تاريخ موثق بين يديه . لكن مأمون قد بدأ يقول أشياء تكشف لى ايمانه بكثير من حقائق تبدو كالأساطير هى الأخرى ، هى حقائق فى نظره ، اذ يقول انه منذ أصيب بشبه المرحومة لم يعد له خيار ، ان التشابه بينه وبين خالته يثبت ان دماء الأجناس البشرية تكون عبقرية فى وضع بصمتها الدامغة على وجوه قادمة بعد أزمنة طويلة تكرر بها أشكالها ووجوها بنصها وظلالها عاشت قبل ذلك بسنوات طويلة ، ليس غراما بالتكرار - فى حد ذاته فليس من ثراء الطبيعة التكرار ، بل لكى ترشد بصمة الشكل الى بقايا دماغها خلف أشكال طبق الأصل منها كانت الأزمنة قد بعثرتها

فى أماكن عدة وحجبت بينها الأحداث والمسافات والمشاحنات
ورخيص الرغبات ؟ واذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
تخيروا لنطفكم فان العرق دساس ، واذا يقول العامة أن العرق يمد
الى سابع جد ، واذا نكتشف نحن حقيقة ذلك على مدى الأجيال ..
أفليس من المحتمل أن تكون فصائل بعينها من الأجناس البشرية
أو جميع الفصائل فى جميع الأجناس ، تحتوى على اشعاعات
وذبذبات تنادى بها بقاياها وأصولها المتبددة فى أماكن متباينة
فى أزمنة عدة ؟ ..

ان طلبتم رأى ككلب فائنى اجزم أنا الآخر بذلك . اذ ان
صلتى بجميع البشر والأجناس انما تقوم على حاسة الشم ، كل
صداقاتى وعلاقاتى تقوم على قدرة أنفى على اختبار نوعية الدماء
وما يجرى بداخلها من أنواع الجراثيم والخلايا والمكونات .
وعموما فان قدرة بنى البشر لا تزال تكشف عن كثير من الأسرار
والمعلومات الكونية المذهلة . لقد قرأت ان آلة تصوير حديثة
تستطيع أن تصور أثرك على الكرسي بعد أن تقوم انت من عليه
وتمضى ، ولو نظرت فى الصورة لوجدت هيكلا ضوئيا يتشكل
بشكل جلستك قبل أن تقوم مباشرة ، ذلك هو الاشعاع الضوئى
الذى يتركه جسم الانسان فى أى مكان يحل به ، ويقال ان ذلك
الاشعاع يبقى فى المكان مدة طويلة . وتجري الابحاث لمعرفة أين
يذهب ، وتميل بعض الآراء الى انه لا يذهب بل يمكث فى نفس
المكان .. ورأى أن ذلك قد يفسر اشتياق الانسان لزيارة
أماكن سبق أن زارها ، انه فى الواقع يزور اشعاعه الذى تركه
فيها من قبل ، ان اشعاعه يناديه ، واذا لم يكن الانسان قد زار
مكانا من قبل واشتاق لزيارته فلا بد أن يكون له فيه بقايا اشعاع
أو أصول اشعاع لدماء من أهله المجهولين هذا وحده ما يجعلنى
أظن ان مثل هذا الاشعاع يكون بعض الأسباب التى يتحرك بها
مأمون مدفوعا للتردد على أمكنة بعينها .

قال « مأمون » :

— منذ شهور قليلة كنت قد اقتنعت بأن جدى خليل يتمنى من أعماقه لو اننى سافرت ذات يوم وبحثت عن خالى فى المدينة الكبيرة الواسعة التى أتعلم فى جامعتها • هو لم يقل لى ذلك أبداً، ولكنه كان دائماً كلما انفرد بى فى لحظة صفاء يستدرجنى فى الحديث عن المدينة ، فاكشفت من فرط شغفه بالمدينة انه يحبها لدرجة التقديس ، فلما بحثت فى تفسير منطقى يجعل جدى خليل يحب المدينة الى هذا الحد رغم انها تستلب كل شىء ، لم أجد تفسيراً واحد معقولاً سوى أن ابنه هريدى يعيش فيها لامعا تحت اسم سيف الماوردى ويحارب الحكومة وتحاربه الحكومة ، كانت المدينة فى نظرة تعنى سيف وصوته القاطع للرقاب تلتهم عين جدى وتسبحان فى بحيرة صافية جدا من دموع الفرح ، ويلتجم فيهما ضوء مزهو فيه ذكاء عميق وثقة لا حدود لها حين ينطق كلمة : سيف • ودائماً أبداً وبدون مناسبة يضع يده على اذنه صائحا تجاهك : ماذا ؟ • • • أقلت سيف ؟ ظننتك تقول سيف • • ودائماً أبداً اذا جاءت سيرة المدينة أمامه بأخبار سوء يصبح هو فى دعر : وسيف ؟ — كان فناء المدينة سيكون « سيف » ونساؤها يكون « سيف » — •

صراحة كنت أحس بالخجل من نفسى — كيف أعيش فى نفس المدينة مع خالى سيف ولا أحاول الاتصال به أو زيارته والتقرب اليه والعيش فى كنفه ؟ • صحيح ما الذى معنى من ذلك طوال السنوات الفائتة ؟ بل ما الذى جمد قلبى ونشغه الى حد أن يدعى هو الى شقتى ثم لا أعترف عليه ولا أعرفه بنفسى ؟ • • أية قسوة هذه بل أى عبث هذا ؟ • • هل كتب على بطاقات دماننا المسماة علميا بالجننيات أن تظل بذورنا مغتربة حتى داخل الجسد الواحد ؟

حتى وان تلاقى وتعارفت ؟ أياكون الاغتراب صفة موروثة فى الدم حتى ان أبناءه بعلم أو بغير علم يساهمون فى تهتك العلاقات وعدم التآمر أبدا ؟ ٠٠ انه اذن يكون دما ملعونا ٠٠ ولكن كيف يستوى هذا مع كونه دم ذكى شفاف ومن شفافيته يتعرف على بقاياه وأصوله فى ناس معينين ، لا ليقيم أواصر الود بل ليمنعه من أى تلاحم انساني ٠٠ يا الهى أياكون هناك مثل هذا النوع من الدماء وأكون أنا منتسبا اليه ؟ ٠٠

اعترف بأننى كنت أحب أغانى خالى سيف أول ما سمعتها ، بل لقد بهرتنى كما بهرت الكثيرين . وكنت دائما أحب ماضيه الممثل فى شخصية هريدى خليل هريدى ، وأعتبرها لم تغترب كثيرا ، وانها ربما امتدت طبيعيا فى شخصية سيف الماوردى ، لكننى لا أدري لماذا كلما كبرت قليلا وعرفت نفرا يسيرا انقطعت بداخل عروق انسانية يتضح انها كانت فى الأصل واهية ، وأصابنى الاحتقار لجوانب كثيرة من تراثى العائلى والشخصى من بين ما احتقرته بشدة ودون قصد منى خالى بشخصيته : هريدى وسيف ، أى اننى كرهت هريدى واحتقرت سيف ٠٠ ربما بسبب خالتي بسيمة وما أحسه من حقد عليه لئذالته تجاهها . اعترف اننى حين علمت انه تخلى عنها فى أول مفترق طرق نقت عليه نقمة شديدة واعتبرته أول مجرم فى حياة خالتي بسيمة . هو مجرم بدون شك أراد أو لم يرد ، سيان عندى ان كان قد مارس جرمه بوعى أو بغير وعى ، بارادة أو بدون ارادة ، كل ذلك لا يعفيه من جرمه . أليس من الطريف المحزن أن يصبح هذا الشخص علما على الوطنية فى أنظار فئة لا بأس بها من المجتمع ؟ . ما يزيدينى احتقارا له انه ليس علما ولا يحزنون ، انه مجرد لافتة لا حول لها ولا قوة تحملها الأيدي المتركبة وهو نفسه لا يعتبر نفسه بطلا قوميا والعياذ بالله ، انما هو باعترافه وجد نفسه فى قلب الدور مرتديا ثيابه والملقن أمامه جاهز ، فلعب

الدور فصفق له الجمهور فركب فوق اكتاف الجمهور وأصبح مسرعا قائما بذاته تستأجره عقول أكثر ذكاء واستنارة .

ويوم أن قبض علينا جميعا في شقتي كان هو يردد اسمي بطلاقة وقد حفظه عن ظهر قلب باعتباري صاحب الثقة الداعي : الطالب الجامعي الأستاذ مامون عكاشة . . وهكذا في كل تحقيق . وكان الجبن المتأصل في نفسه لا يزال متأصلا وإن اتخذ مظهره من صلابة المثقفين أهل الرأي الذهن لا يتذللون ولا يترخصون في الادلاء بالأقوال ، وكنت أضحك من أعماقي ، وأبحث عن أصل القناع الذي استعاره ووجهه على مقاس وجهه وهيكله بالضبط فوجدته رجلا محترما من أقطاب الوفد في قرينتنا ، اذ فتحت طفولتنا على وقفات الحادة مع العمد والمأمور والحكام ، كان فلاحا مستنيرا فصيحاً وذا شخصية ، وهكذا كان خالي سيف وهو يقف في التحقيق متكلماً ، ولكن لأن بي بعض دعائه فقد لمحت الرعشة في ساقيه عنيفة سريعة الى حد الاختفاء . أما وهو يضني في شقتي فأنني لم أتح لنفسي فرصة الانفراد به أبداً حتى لا أضعف وأعرفه بنفسه قبل أن أفهم أبعاد شخصيته ، فشغلت نفسي بمراقبة الجو - وما كان أغباني بالطبع - ومتابعة الطالب العاجلة ، وكنت أندمج معه أحيانا اندماجا كاملا لدقائق معدودة مع شعوري بأن كثيرا من النصب والاحتياال في تلحينه ، بمعنى أن ما يجب أن يقال بصوت جهير ولهجة خشنة يقوله هو برقة واستيلاء وتذلل كأنه يبكي . ولأن جمهور بنى الأزرق يصفق لكل من يبكي فانه كان يصفق ، ولم تكن تأخذني أنغامه إلا لكونه أخذا من تراث قرينتنا الغنائي ، وكنت أعجب لمجرد انه تذكره واستفاد به في نقل كلمات سياسية

من هذا القبيل ، الا أنه كان يلوى عنق اللحن الشعبي فجأة ويدخل به في حودة مفاجئة يراها ختاماً مناسباً لجملة أو كلمة . فيزداد إعجابي لذكائه في التصرف بغير دراسة منهجية ، ولكن لا أعطيه

احترامى أبدا ، لأنه غير خلاق وغير أصيل ، انه كائن طفيلي يعيش على حياة فن أصيل . .

ليكن كل هذا صحيحا أو مجرد أحقاد مبالغ فيها الا أننى أتعجب الآن كيف يمكن لأى سبب فى الدنيا أيا كانت نوعيته أن يجعل الانسان يلفظ دماءه ويحتقرها ؟ . . ان أية اسباب فى الوجود لا ينبغى أن تكون قائمة بينى وبين أى أحد من أقاربنى حتى ولو رفعوا هم جسور الود عني . فليكن فى حوزتى جسر صناعى أمله أنا عبر البحور والمسافات الفاصلة بيننا حتى أصل الى أحد أقاربنى قائلا : « اذى الصحة آمال » . . فيقول بكل برود وتقل دم : أهلا أهلا عاش من شافك . ليكن ، فلو أن جسور الود كانت قائمة بيننا الآن لوجدت جثة خالتي بسيمة من يدفنها فى اكرام وقيم على روحها الصلوات . والأحرى بى ان أقول : لو كانت جسور الود قائمة بيننا لما عادت جثة خالتي بسيمة على هذا النحو بل لما اغتربت أبدا ولا اغتربت دماؤنا . لنفرض ان جدى خليل مات الآن ؟ أيموت ويدفن كخرقة بالية وابنه علم من أعلام عاصمة بنى الأزرق الملاعب ؟ . اليس من الأفضل أن يكون ابنه على علم بالأمور حتى لو تصرف حيالها بنذالة ؟ . ان علم الاتصال به يعتبر نذالة من جانبى لأنه سيحتج بأنه مشغول وفى ظروف بالغة الحساسية . ومع يقينى انه سيظل ينصب علينا بهذه الحجة الرخيصة الى ما لا نهاية طالما أنه أمن فى التنكر لأبيه ونسيان بلدته . نكتنى مع ذلك لابد أن أنفى عن دهائى تهمة المروق والصد والاعتراب . سأحاول ان أثبت ان الدم الذى يجرى فى عروقى دم ذكى وغير منحط أبدا . لقد انتسبت الى هذا الدم بأى سبب ، ولن يكون لى دور فى الحياة الا بأن أنتشر بانتسابى اليه ، وسوف أنتشر بانتسابى اليه بأن انتسب اليه ، فبى سوف أعلو به وبغيرى قد انحط قدره فهذا ليس من شأنه ، انه فى النهاية دمي ، دمي أنا ، يجرى فى عروقى وفى عروق أشخاص آخرين ، هو دمي حتى وان عاشت به نفوس كريهة وضيعة ،

ولا يسمم الدم ويحرقه سوى وضاعة النفوس ..

حقيقة لقد اكتشفت - بعد لآى كما يقولون - أن ميراث الدم وحده هو الذى يضع فى صفحة وجهى قليلا من الحياة ، ويرغمنى على الإبقاء على أهلى وعشيرتى والتنازل عن كل شئ فى سبيل ان نكون - فى أسوأ الأحوال - صافين على البعد ، فى سبيل ان يظل هيكل الأسرة قائما . فعلى كثرة ما عانيت برغم صغر سننى تيقنت تماما من ان انسانا بلا أسرة انما هو شئ مهمل تماما مهما حقق من نجاح وارتفاع شأن فى الحياة وعلو مركز وما شئت من ذلك . أترى لو تحقق لواحد منا كل هذه الاملة واكتشف انه فى النهاية مجرد فرع فى الهواء ، مجرد لوح من قارب أو سفينة تحطمت على متن أمواج هوجاء ، فدفعه الريح السريع المخادع الى ذرى عالية فى أمواج فائقة ثم اذ به يصل من العلو والرشاقة والتفرد ما لا يستطيع الوصول اليه أعظم القوارب ، مع ذلك اذا بنفس الريح الهوج تهبط به فى منحدر يلقي به على شاطئ أو فى بحر عميق ..

لا يصعد ولا يبقى فى ضمير الأمم على مدى الأجيال سوى من كانت الأسرة فى دمائهم . لو فتشت فى حياة عظماء التاريخ بحثا عن سر عظمتهم الحارقة فستجد ان الذى وضع بذور العظمة فى نفوس العظماء هو حبهم لدمائهم الذى تتكون منه الأسرة الصغيرة ثم الكبيرة . كل العظماء كانوا يحاولون فى الأصل خلق شئ تنتفع به الأسرة ، وأسرته ليست أهل بيته فحسب ، بل لناس يرون أنفسهم على أشكالهم ويسمعون فى الليل صرخات كالتى كانت فى بيتهم .. ولقد فعلوا أشياء عظيمة لأنهم أحبوا أمهاتهم وخالاتهم وأبائهم وأعمامهم وأولاد الشقيقات .

اننى وقد تأكدت من ان اخفاء التاريخ ودفن الفترات وكتمان الذكريات هو أول وأكبر جرم يقع فى حق الانسان ، وان أفظع ميراث يمكن أن يرثه انسان هو قضية ليس فى حوزته من أوراقها

قصاصة واحدة .. كان على ان أبادر بإقامة الصلوات مع كافة الأطراف وعلى رأسها خالي سيف أو هريدى خليل هريدى .. انه أول مصدر من مصادر التاريخ يجب أن أبحثه : متى انقطعت الصلة بينه وبين خالتي بسيمة ؟ وهل انقطعت ؟ وهل انقطعت ثم سعى هو بعد ذلك الى لقائها ؟ وما الأمر على وجه اليقين ؟ ..

وهكذا دخلت وحدى الى ذلك الحى المملوكى العجيب ، الذى هو خليط عجيب من أزمنة متعددة متباعدة ، ومن حوارى وخرائب وعمائر ومساجد ومحلات شهيرة فى الأطعمة وحمامات نادرة ووكلات عظيمة البنيان يحتلها الصياغ وقطاع الطرق . بيوت متلاحمة تميل على بعضها البعض بكل همومها . فى المواجهة خرابة ، وبجوارها مسجد آيل للسقوط ، وفى ضلع منه بوتيك غنى . طوائف من البشر على مختلف الأشكال والألوان بعربات فارهة وحناطير وكارو ، وصخب وعرق وهياج وعنف ..

فى مطعم السلامة طيببت جراح نفسى بنصف كيلو كباب دفعة واحدة ، ودفعت نصف أجرى فى أسبوع فأنشال العرق الساخن على وجهى كأنه ينوح على ما ضاع منه بلا أمل فى عائد مواز . جلست على مقهى قريب وطلبت قهوة وشيشه ثم قرأت الجرائد كلها بامعان . ولاحظت اننى لم أنظر فى ساعتى ولم أشعر بأى ملل ، بل أحس أننى سوف أجلس على هذا المقهى طويلا وسأجىء له كثيرا ، بالتحديد هذا المكان المثلث الأضلاع من المقهى حيث تصبح الجلسة على الرصيف والطراوة شيئا كالحلم ، كل سكان هذه البيوت رائحون غادون أمامى فى مواجهة مطعم الكباب الذى يطلق مهرجان رائحة كبابية صارخة ، والأطفال يحملون أطباق الفول المدمس ووضعوا فوقها الأرغفة البلدية كأنها قطع من خدود الشمس هبطت فوق الأطباق مظلة بحزم الفجل والبقدونس والبصل ، موكب لا ينتهى من نساء تتعارك طول النهار مع الباعة حول قرش تعريفه فوق سعر « الأوطه » ، وحول استكراد الكوجي

لها في قرشين ، وحول استنكارها لحجم الشيء المباع ، وهكذا
دوشة لا تنتهي ولكنها تفجر في البشر طاقات هائلة من الابداع
والامتناع ..

كانت هذه اول مرة أقعد فيها . ثم لما تكررت زياراتي للحى
نفسه بررت ذلك باستحسانى للكبابجى رغم سوء أخلاق عماله
وسوء النقود فى يدى . ثم اننى بعد اعتياد طويل للزيارات
اكتشفت ان خالى سيف الماوردى يسكن فى هذه المنطقة بل فى
هذه البقعة على وجه التحديد . وحين تذكرت ذلك ضحكت ساخرا
وقلت لنفسى : ألم تكن تعلم انه يسكن هنا ؟ . ثم أجبت على نفسى
قائلا نعم ولكن هذا لم يدر بخلدى يوم انجذبت لهذا المكان . ثم
اننى وجدتنى أتلف على العودة الى الحى كأننى أحد سكانه
الأصليين ، فأجلس على نفس المقهى وأقرأ الكتب وحدى مع الجرائد
والمجلات ، أو أكتب بعض الخواطر . ومع ذلك لم أتصل بسيف
الماوردى رغم اننى صرت تقريبا معروفا فى المقهى والحى ورغم أننى
كنت أرى وجوها كثيرة معروفة متخذة طريقها الى مسكنه ؟ ..

الى أن دأب على الجلوس قبالتى فى المقهى شاب فى مثل سننى
خيل الى انه مخبر سرى من مخبرى الطلاب مدفوع لمتابعتى .
فأردت ان أتحدثه باقامة الود معه حتى يريحنى من القلق ويأخذ
ما يشاء من معلومات . لكنه فى الحق سعى الى التعرف على ، اذ
شرعت مرة أدفع حساب القهوة فقال الجرسون : « الحساب وصل ..
دفعه الاستاذ طارق وبيقول لك كمان تشرب آيه ؟ » . فنظرت
اليه شاكرا . فانتقل وجاء نحوى باسمه يقول : « أظن مش
عارفنى » . نهضت واقفا وسلمت عليه : « شكلك مش غريب
على » . قال على الفور : « احنا زملاء فى نفس القسم فى الكلية » .
قلت : « أهلا وسهلا .. تشرب آيه ؟ » . قال معترضا : « لا ..
دى قهوتنا » . قلت له : « انت جاي لسيف الماوردى ؟ » . قال
باسما : « أنا سباكن هنا .. بيتنا على الناصية دى » . قلت فى

بعض تشبكك : « أهلا وسهلا فرصة سعيدة » . قال : « أهلا بيك .. انت جاي لقريبتك ؟ .. على فكرة احنا ساكنين معاها فى نفس البيت » . قلت من خوف : « قريبتى مين خير يارب ؟ » . قال : « اوعى ما تكونش قريبها » . عاودتنى العقدة القديمة ، قلت فى شحوب : « أنا عارف .. لا بد حاطلع شبه واحد ثانية .. ما أنا موعود .. دايمًا يتضح انى شبه حد .. ولازم تكون واحدة ست .. حاجه غريبة والله » ..

فنظرت « طارق » فى وجهى نظرة اندهاش واستنكار : « حاجة غريبة صحيح .. الى يعرفها ويشوفها لازم يقول انك قريبها قرابة جامدة .. لدرجة انى توقعت تكون بتجيلها .. من أول ما بدأت أشوفك هنا ما لقتش أى مبرر غير كده » . قلت له مندهشا : « هى مين يا طارق ؟ » . قال طارق : « ست بتعه .. ربنا يخليها ويديها كمان وكمان .. ست طيبة قوى .. عايشة معانا هنا بقى لها سنين طويلة .. كانت اتجوزت واحد كبير وعاشت معاه فى الخارج طلع مش ولابد سابته وجت على شقتها القديمة وبدأت حياتها لوحدها من أول وجديد » . قلت فى تعجل وتوتر : « شغلتها ايه ولا ظروفا ايه هى روعه ؟ » . قال طارق . « أنا ما يهمنى شغلها .. أنا بقى .. اسمح لى فى النقطة دى .. كل واحد حر يشتغل زى ما هو عايز .. محدش عارف مين الى ربنا راضى عنه .. لكن احنا نعرف ان فيه ناس سيرتها كويسه ومع ذلك معندهاش انسانية ولا ايمان ولا أى رحمه .. لكن ست بتعه » . قلت بضيق صدر حاولت اخفاه : « بتشتغل أيه يعنى ؟ » . قال طارق : « بيقولوا بتبيع حشيش وبتهرب مخدرات .. وساعات يقولوا بتهرب نسوان .. وربنا يستر على ولايانا .. لكن احنا الحق لله ما شغناش منها حاجة وحشه .. انما يظهر سيرتها كده لأنها متزوجة راجل غرزجى أصله صايغ قديم .. اسمه كحكوك .. طول عمره لبط فى لبط .. هو الى سوء سمعتها .. لكن الناس وكل جيرانها بيحترمواها وهى بتعمل خير كثير قوى » ..

تفكرت قليلا وقلت : « هيه » • ويبدو أن لهجنى كانت تحصل قدرا كبيرا من الأسى ، اذ أن « طارق » نظر نحوى نظرة ذات معنى ثم قال : « أظن دلوقت تقدر تعترف بالقراءة الى بينك وبينها •• ان كنت لمؤاخذه مستعر منها •• احنا ناس نمجيك قوى •• سيبك من وسط الجامعة والمجتمعات اياها •• الخير كله هنا والحلاوة كلها هنا والأصل كله هنا •• قريبتك باسم الله ما شاء الله خيرها على أهل الحنة كلهم •• فيه عيال هنا من أهل الحنة بتتعلم على حسابها •• وأسر عايشه على حسابها •• ربنا يديها ويديك •• لو ما كانش راضى عليها مكانش خلاها مبسوطه كده » ••

فى ذلك اليوم اكتفيت بهذا القدر • وقررت عدم المجيء مرة أخرى هربا مما يمكن ان أتورط فيه من مشاكل بسبب هذا الشبه الغريب العجيب . ذلك أن كل من ظهر أننى أشبهه اتضح انه محاط بمخاطر لا قبل لى بها • فمن يحمينى من خطر هذه البتعة لو ظللت ارتاد الحى ؟ أليس من المحتمل ان تجيشنى بلوى بسببها ؟ كل شئ محتمل بالطبع ولهذا يجب ان اختفى ••

لكننى رغما عنى عدت فى اليوم التالى ، بل وسألت الجرسون عن « طارق » وكان الجرسون يقول انه يسأل عنى هو الآخر • أحسست ان طارق يحبنى بنفس القدر الذى يجب به شخصية البتعة ، هل لمجرد اننى أشبهها ؟ أم لأننى كما يقول شخصية مريحة وجذابة ولبقه ؟ • أيا ما كان الأمر فأننى قد قبلت عزومته على الغداء فى بيته حيث تعرفت على أهله وعلى •• البتعة •• ست بعنه ••



كانت جميلة جمالا أقوى من ان يتركها فى مثل هذه البيئة أو مثل هذه السيرة أو مثل هذه الأعمال • وكانت هى قد صعدت الى الشقة العليا بدعوة من أم طارق لتسهر معهم قليلا حتى يعود

زوجها المعلم كحكوح آخر الليل ، ترتدى فستانا بسيطا فاخرا جدا لا يليق الا بسيطة مجتمع من الطراز الأول ، لكنها تلتف مع ذلك بملاءة لف وكلما تهدلت الملاءة عن رأسها أو كتفها أو صدرها سارعت بعديلها واحكامها من جديد ، وتعصب رأسها بمنديل بأويه وشعرها مسرح تسريحة أولاد البلد كأنه شعر لم يذهب الى الكوافير أبدا . وكانت بسيطة ، تخفى صفحة وجهها توترا أبديا ، وتنظر عينها في الانسان بتمعن كأنها تدرسه قبل أن تتبادل معه كلمة ، وتنظر وراءها باستمرار ، وتنزعج من أى نقر غير مهذب على الأسباب . .

حين جلست معنا في صالة صديقى سألت بعض أسئلة عن أشياء فهمت منها أن ست بتة كثيرا ما تعطف على جيرانها بهدايا مثل راديو صغير أو فستان أو قطعة قماش أو بعض نقود . تمعنت فيها جيدا ، فوجدتها كبيرة الشبه بالفنانة رشا الخضرى ، لولا غلظة في وجهها قليلا ، وفي الطبع وفي بعض اختلافات جانبية، واللهجة أيضا بما فيها من تطجين بلدى . وقالت هى بشئ كثير من التبدل الحلو : « بتبص فى كده ليه ياد ؟ » . قلت : « باتشبه على حضرتك . . فيكى شبه من الفنانة رشا الخضرى » . قالت باسمه كأنها سمعت هذا التشبيه آلاف المرات : « وانت فيك شبه من أمى . . ها . . » . ثم ضحكت ضحكة فى ايقاع ضحكة الحشاشين فقط . وضحكت أنا بصوت عال وصحت فى غاية الألم : « برضه فى شبه من واحدة ست ؟ » . فقالت : « يخلق من الشبه أربعين » . قلت : « فعلا . . هذا صحيح مائة فى المائة » . وأردفت هى : « الا بالمناسبة . . هى فىن دلوقت . . ما عاد لهاش حس ولا خبر ؟ » . قلت : « صحيح . . بقى لها مدة مختفية تماما » . وقال طارق : « الله أعلم . . أصلها اتجوزت واحد كبير من رجال الثورة الأزرقية ومنعها من شغل الفن » . وقالت البتة : « غلطانة . . لو كنت منها كنت رفضت . . حد يبيع فنه بالجواز ؟ » .

حينئذ مال « طارق » على أذنى وهمس قائلا : « يقولون أنها هي الأخرى .. ست بتة .. كانت تشتغل بالفن » . صحت قائلا : « صحيح ياست بتة .. لسه بتشتغل بالفن ؟ » . قالت مشوكة بيديها المتلثين بالفوايش الذهب كانها معرض جواهرجى ثرى : « ما تفكرناش بقى » ، وكانت مثل طفلة جبيه ننعى عروستها الضائعة : « كنت غاوية .. بس طلعت لى مقصوفة الرقبة رشا الخضرى دى فى البخت .. قلت مابدهاش .. الى قلدوا عبد الحليم كلهم سقطوا حتى الى صوتهم أحلى من صوته - ثم ضحكت - وأنا كمان صوتى على قدى » . أحسست أنها بريئة وطيبة الى حد كبير ، وصافية الى حد لا يمكن الشك فيه . الى حد يقنعك ان مثلها لا يصلح للشهرة وأنها لا تملك غير رشا الخضرى ولا علاقاتها ولا مواهبها الشخصية . كانت الى الطابع البلدى أقرب . شكلها شكل مارلين مونرو مضافا اليه خفة الدم الأزرقى ، لكن طبعها وسلوكها طبع وسلوك معلمة ان سلطت فيك عينيهما أرغمتك على الخضوع المطلق . لهجتها خليط من حذقة أهل الفن ورقة أهل البيوتات الكبيرة وتطجين أهل الحوارى والأزقة ، هو خليط فذ قد لا يجتمع ولكنه فى شخصيتها متنسق وباعث على احساس بالطرافة اللامعة والاثارة الجامحة ، لكأنك أمام تمثال يعبر عن الجنس بأجمل وأجلى معانيه ، وانه ثمين الصنع وليس حوله من يفهم قيمته ، وهنا يتسلل اليك وحلك الغرور ، متصورا أن بإمكانك الاستحواز عليه . ان الانسان أول ما يرى هذه الست لا بد أن يقع ضحية الاغراء بأن يكون هو المنقذ لها من الضلال . ولا بد أن جميع من عذبتهم وعذبوها فى الحياة كانت تدفعهم واحدة من رغبتين باطنيتين تجاهها: الوهم بانقاذها من الضلال أو الرغبة فى اختلاس لحسة أو لحستين من هذا الطعام المراق .. وكلاهما كان من نفسه فى ضلال ..

سألت صديقى « طارق » فيما نقف فى بلكونة شقتهم : « كم

رجلا فى حياة ست. بتعة ؟ » . قال طارق كأنه يدافع عن أمه :
« اثنان فقط لا غير .. وعلى سنة الله ورسوله .. أحدهما عذبها
فعدبته حتى طلقها غيايبا خارج البلاد .. والثانى مات فى السجن
من فترة قليلة » . ثم استدرج ضاحكا : « هم فى الواقع ثلاثة ..
الثالث هو كحكوح .. وهو الذى سوف يميتها فى سجنه هو » .
ثم أضاف موضعا ان كحكوح شخصية كاريكاتيرية قاسية فارغة من
كل المحتويات للعاطفية والانسانية وما الى ذلك ، وأنه ثور هائج
لا يكف عن اعتلائها ليل نهار متوهما أنه بهذا الأمر وحده يهزم
جسدها ويمنعه من اشتهاه أحد آخر ، ولأنه خسيس وست بتعة
اصيلة ، مجرم وهى خيرة ، قواد وهى مصون ، فان العلاقة بينهما
دائما ليست على ما يرام ..

وأشار طارق بأصبعه نحو الأرض قائلا : أنظر . فنظرت
فوجدت عربية مرسيدس فاخرة مركونة تحت بلكونة ست بتعة .
قال طارق : « هذه سيارتها .. ويوم نراها مركونة هكذا باحكام
تحت البلكونة نعرف ان العلاقة ساءت بين الزوجين فسحبت هى
سيارتها الخاصة وتركته يتحرك بسيارته الفيات . سألته : « ولكن
ما الذى يكرهها على العيش مع رجل كهذا ؟ » . شوح طارق وقال
ان هذه هى حكمة الله التى لا ينبغي أن نراجعها فيها ، وأن أقوالا
كثيرة تتناثر فى الحارة والحي كله تشبه الأساطير ، عن علاقة ست
بتعة بكحكوح ، وعلاقة كحكوح بناس معينين من جميع فئات المجتمع .
يقولون انه هو الذى التقط ست بتعة ذات يوم من طريق الضلال
وجعلها تتوب وتحج الى بيت الله ، أما كيف يجعل منها مؤمنة نقية
هكذا فى حين يظل هو كافرا حتى نخاعه فهذه أيضا حكمة يعلمها
الله ، يقولون أيضا أن زوجها الذى مات فى السجن كان أحد
صبيانها وأنهما معا كانا يعملان كصبيين فى بعض مشاريع المهندس
المقاول الكبير عبد الجبار ، وأن هذه النقطة هى الوحيدة التى
يرشحها أهل المدينة سببا للثروة التى تهبط على هؤلاء الناس
باستمرار ، لكننى - هكذا يستطرد طارق - سألتها ذات يوم فى قليل

من الخبث عن مدى صلتها بالمهندس عبد الجبار ففوجئت بأنها لا تعرف من هو المهندس عبد الجبار ولا تعرف شيئا عن مدى قوته أو سطوته أو علاقاته . ولما كنت قد تربيت معظم سنى طفولتى فى حجر الست بتعة فى أول عهدنا بالسكنى فى بيتنا ، فاننى خير من يفهمها ، وقد فهمت أنها بالفعل صديقة وأنها لا تعرفه ، فى حين أننى تأكدت ومن قبلى تأكد أبى وأصدقائه أن زوجها المرحوم وزوجها الحالى يعرفان عبد الجبار معرفة وثيقة ويعملان لحسابه فى كثير من المشروعات .

ثم دخلت أم طارق بالشاى لنا . فسألها طارق عن زائر الست بتعة الذى تجلس معه فى الحجرة المجاورة . فقالت فى غموض : لا . لا أحد . فاهتم طارق أكثر وقال يستحقها على التصريح : « قولى . . فربما كانت محتاجة الى مساعدة » . ونظر لى مفسرا قوله بأنه هو وأخوته تعودوا منذ طفولتهم أن يقوموا بخدمات للست بتعة ، وأنها حتى الآن لا تتورع أن ترسل أباه نفسه فى طلب من الدكان ، اذ أن خيرها عليهم بلا حدود . لكن أم طارق ترددت فى الإفصاح عن زائر الست بتعة ولكن فى شيء من الاثارة اللطيفة . فأشار طارق نحوى قائلا : « الأستاذ مأمون مش غريب » . فقالت مؤيدة : « أيوه دا باين عليه زى ما يكون ابنها » ثم ابتسمت : دى واحدة ست يمكن انت عارفها . صاح طارق مستوضحا كأنه عرفها : « سمراء يا حلم الطفولة ؟ » . ابتسمت أمه قائلة : « النبى انت فايق » . ثم خرجت .

قال طارق : « سمراء يا حلم الطفولة هذه هى ست وسيلة . . هى الأخرى من أساطين النساء فى هذا الحى كله ، وشخصيتها قوية الى حد لا ينهزم أبدا . . ولو تعرض أعتى الرجال لما تعرضت له لاقلب الى أنثى فى أول شوط ، أما هى فلا يطرف لها جفن . . يكفى أنها كانت زوجة كحكوح » .

هفت قائلا كأننى للغت : « كحكوح زوج الست بتعة ؟ » .

قال طارق : « نعم .. كانت هى الرجل الذى فى شخصيته ،
الذى خدع به الناس طويلا بحركات شهمة وكريمة ونبيلة كان
يفعلها فى الواقع ليعطو بها فى نظرها .. فلما غدر بها - الله
يفغره - حزن عليها الناس كلهم ونقموا على كحكوح أكبر نقمة ،
لأنهم عرفوا خسته » .

قلت لطارق : « فكيف يفدر بها وهى مسند شخصيته ؟ » ..
قال طارق : « كان يريد أن يتخلص منها ، لأنها كانت تحب
الحاج شحات أبى شافية حبا عميقا صادقا وهو أحد صبيانه ..
وكان يريد أن يتخلص من أبى شافية ، لانه كان يحب البتعة ويموت
فى هواها .. ففكر أنه لو تخلص من الاثنين فى ضربة واحدة يكون
قد أصبح متوحدا فى الساحة ويتلقف البتعة على حجره .. وفعلا ..
تمكن من ذلك بخطة جهنمية أودت بست وسيلة وأبى شافية معا
الى المؤبد .. فمات أبو شافية .. وبقيت الست وسيلة حتى نفذت
حكمها الا قليلا حيث أفرج عنها بعفو صدر من رئيس الجمهورية
عن ذوى الأخلاق المثالية فى السجون » ..

خيل الى أن « طارق » يروى أساطير من ألف ليلة وليلة .
وتعجبت من أن يعيش فى هذه العاصمة عدة عصور فى زمن واحد
فى نفس المكان - ان زمن النتيجة الورقية المعلقة على الحائط ليس
يجرى وحده بل انه مجرد وعاء تعيش فيه أزمنة عديدة من عصور
سابقة وربما أخرى لاحقة .

وقال « طارق » :

-- « الناس طول هذه السنين كانوا يزورون الست وسيلة فى
السجن كل أسبوع ويقدمون لها العطايا .. بل ان معلمين كبارا
من تجار الحشيش والخردة كانوا يزورونها فى السجن ويعشمنها
بأنهم فى انتظارها حتى تخرج ليتم الزواج .. لكنها .. تصور
يا مأمون .. لم تقبل أى عطية من أى واحد اشبتمت رائحة الوغد

فيه ٠٠ ولم تكن تقبل المعطية الا من فقراء الناس وأنزهم عن
 الغرض ٠٠ ربما تندم يا مأمون حين أقول لك شيئا سوف تراه
 كالسينما ٠٠ هل قرأت رواية أو دخلت فيلما يتحدث عن أم في
 روسيا كانت تشجع الأولاد كلهم على الثورة دون أن تدري من أمر
 ذلك شيئا الا غريزة الامومة الطاغية ؟ ٠٠ لكنك لو سمعت عن
 الست وسيلة ما سمعنا ورأيت ما رأينا لاعتبرت ان تلك الأم شيئا
 ساذجا جدا بالقياس الى ست وسيلة ٠٠ لقد كان الشبان والرجال
 يذهبون لزيارة أقاربهم فيجلبونها عملة السجن ، ويجدون أنفسهم
 مدفوعين للسؤال عنها وقضاء الوقت المخصص للزيارة كله معها هي
 دون أن يشعروا ٠٠ وكانوا يعتذرون عن ذلك لأهلهم وأنفسهم
 قائلين أن فيها شيئا يشجعهم على حب الحياة وتسهيلها ٠٠ لذلك
 لم يكن ثمة من أوامر السجن يسرى عليها ، ولم يحدث أن اعترضها
 حارس أو ضابط أو مأمور . بل كانوا جميعا ينزلون عند رغبتها
 ويخدمونها طائعين اذ أنها خلقت لهم من سجن النساء واحة ظليلة .
 وأنشأت مصلى وأقامت حفلات غنى فيها سجينات ٠٠ كل شاب جلس
 معها تحول بعد الزيارة الرابعة الى زوج مستقيم أو شخص ناجح ٠٠
 فان سألت أحدهم : ماذا كانت تقول لك بالضبط من كلام أو تعصبه
 فيك من شعور ٠٠ يعجز عن قول شيء محدد ٠٠ ان شبانا كثيرين
 جدا في هذا الحي العريض لم يكن عندهم أى مانع من أن يتزوجوا
 من الست وسيلة اذا لم يكن ثمة مانع لديها ٠٠ ذلك أنها يا مأمون
 رغم انها على مشارف الخمسين من العمر لا تزال تحمل قوام وصدر
 وخصر فتاة في العشرين أو أكثر قليلا ، شكلها شكل أميرة حتى
 وهي في الملاة اللف ٠٠ فان تركت الملاة في البيت خرجت من
 قمقمها سمراء في حمراء كأنها وهج الذهب ٠٠ أما عقلها فيزن رجالا
 ورجالا ٠٠

ثم ضحكنا بصوت عال لا ندري لم . وهمس « طارق » في
 أذني : « على فكرة ٠٠ يقال ان بعض المسئولين عن سجن النساء
 عرض عليها الزواج العرفي ٠٠ فرفضت بشدة ، وامعانا في تأديبه

قالت له : ولا حتى الرسمي ، . ثم ضحكنا ثانية وقهقه طارق بصوته الأجوف اللطيف . وهمس مرة أخرى في أذني بكثير من دفء شبق : « أنا شخصيا لا أمانع في الزواج منها لو رضيت هي ، . لكنني كنت مشغولا بأمر آخر ، فسألت طارق : « ولكن ماكنه العلاقة الحالية بين الست وسييلة زوجة كحكوح سابقا . والست بتعة زوجة كحكوح حاليا ؟ » فقال طارق أن الست بتعة بصرف النظر عن كونها زوجة كحكوح فهي صديقة قديمة للست وسييلة . وإن الست وسييلة والست بتعة كلاهما قد عرف أنه وقع ضحية مجرم واحد عبقرى في الاجرام هو كحكوح . . لكن كلاهما - بتعة ووسيلة - لا تملكان القدرة على الكره أو الغدر أبدا ، هذه مأساتهما في هذه الدنيا ، ولذلك فإن كل منهما تعرف أن غدرا من جانبها لن يقع وإن الله وحده سوف يتدخل بعدالته للفصل في هذا المقدر عليهما . .

ثم استطرده طارق :

- . الست بتعة رجل يعجبك . . لقد عيشت وسييلة خلال سجنها حياة كأنها جنات النعيم . . الهدايا الكبيرة والأموال والكيوف لكل من له على وسييلة سيطرة ولو من بعيد . . غير أن هذا لم يحدث إلا مؤخرا جدا بعد أن اكتشفت الست بتعة مؤامرة كحكوح العميقة . . وما هي ذى الست وسييلة قد خرجت من السجن على غير توقع . . ومنذ أن طلقها كحكوح في سجنها وهي تعرف أن الست بتعة سوف تكون حصنا آمينا لها . . وبالفعل تحقق لها ذلك . . فالست بتعة هي التي استقبلتها يوم خروجها من السجن . . وجهزت لها غرفة مفروشة في شقة في أحد الأحياء التي تعرف فيها ناسا أمناء . . وصارت تمل الست وسييلة بالنقود لتنفق على نفسها بكل ارتياح . . شهور طويلة مرت ولم يحدث أن ضجرت الست بتعة من الانفاق على وسييلة واعطائها ثيابها القديمة وشراء جديدة اضافية وهكذا . .

ودخلت أم طارق مرة أخرى ونبهت علينا هامسة بفحيح ،
 ان علينا أن نخفض من صوتنا لأنه يصل الى الحجرة الجانبية حيث
 تجلس الست بتعة مع الست وسيلة • ثم نظرت الى ابنتها فى تأنيب
 وتحقير مرير قائلة : « احنا مش قلنا كلام فى الموضوع ده لا ؟ » •
 فاشاح عنها قائلا : « يا ماما أنا مش عيل صغير •• ثم ده صاحبى » •
 فشوحت هى الأخرى نحوه فى تهديد ثم خرجت • فقال : « أمى
 تخشى أن نتحدث معا ، أنا وأنت ، عن فعل الخير الذى تنوى الست
 بتعة أن تفعله » • قلت : « كيف ؟ » • قال : « أمى ، كأم ، نعرف
 انك كزميل لى فى الجامعة ، فهناك اذن حساسية لو تحدثنا
 فيه » •

ازداد الأمر غموضا واستغلاقا • كنت أشاركه فى شرب
 سيجارة الحشيش التى يدخنها بشراهة ، ولكننى أحجمت • وقلت
 له : « ان كنت تخشى شيئا فلا تقل شيئا » • الا انه نظر فى وجهى
 قائلا :

- « ست بتعة تسعى لفعل خير كبير جدا ، لو انكشف فربما
 يستثير ضدها ما لا قبل لها باحتماله •• اذ أنها قد بدأت تسعى
 فى تنسيق حياة سيف الماوردى وانتشاله من وهدة الانحطاط التى
 يعيشها •• وقد اختارت له عروسا بالفعل •• وهذه العروس هى
 الست وسيلة خريجة السجن وزوجة كحكوج سابقا •• تصور ••
 هذه لا يستطيع اقامتها سوى شيطان أو ملاك •• هل يداخلك الآن
 شك فى أن الست بتعة تريد أن تلتقى لسيف الماوردى امرأة من
 أرباب السوابق ، خدمة لصديقتها واعفاء لنفسها من البنقات ؟ ••
 ولكن لا •• الواقع ينفى ذلك تماما •• لقد استطاعت الست بتعة
 أن تهدى سيف الماوردى هدية عظيمة جدا جدا •• انها خير من فهم
 سيف الماوردى فى الحى •• كل الناس ها هنا من أول ما جىء
 به ساكنا لاحدى الغرف القديمة الآيلة للسقوط وهم يستنكرون
 صوته ولا يستسيخون غناؤه ويتعجبون من هؤلاء الذين يضيفون

وقتهم فى الاحتفال به .. لكن الست بتعة حين سمعت عنه من خارج
الحى وعلمت بأنه يسكن فى الحى سعت الى الاستماع اليه ، فجاء
لها ببعض شرائط خاصة سجلها بعض أصدقائه .. وكان ذلك
متأخرا جدا بعد أن كان سيف الماوردى قد أصبح نجما لامعا يذكر
اسمه فى خطب رسمية ضمن من يشككون عدوانا على النظام ..
حتى هذه الخطبة وهذه المعلومة لم تكن قد علمت بها الست بتعة ..
لقد عرفت سيف الماوردى حين أصبح يعيش فى الخفاء بلا زاد ،
بعد أكثر من عشرين عام على شهرته ، وبعد ان استثمره المستثمرون
وزيفه المزيفون وكسبوا من ورائه ما كسبوا ، كان هو قد بدأ يعي
دوره ويقتنع انه بالفعل يجب أن يكون معارضا للنظام على الدوام .
بالغناء ، ليس لقضايا اجتماعية أو انسانية محددة بل لمجرد
المعارضة والانتقام - على الأقل - لما لحق به من اهانات ، لكنه مع
ذلك ظل أغنية جميلة لمن يريد أن يعلن تمرده ووعبه الثقافى من
أهل الأحياء الشعبية التى يسمونها عادة بالأحياء الوطنية الا أنه منذ
سكن ها هنا فى هذه الحجرة التى لم تكن مؤهلة للسكنى أصلا كان
قد نبت من يهتمون به من جديد ويعطفون عليه ويدعونه للاحتفالات
السرية مقابل أجر مقنع ، ومن ينفق على تنظيف حجرته وتجميلها
بعض الشيء ، على أسوأ الأحوال فإنه يدعى للغناء فى بعض أفراح
الطلاب أو المثقفين المقيمين خارج البلاد .. وفى هذه السنوات
الآخيرة فى السبعينات عرفته الست بتعة .. ألم أقل لك انها طيبة
ومنزلة بقدر ما هى متألقة وثرية ؟ ..

.. « ولقد عزمته فى شقتها .. ويومها ثار كحكوح وهذر
بالغضب الأهوج فى عرض الحارة أمام الجميع كأنه يعلن للحكومة
ذات العيون المجهولة براءته من هذه الخطيئة .. الست بتعة أرجل
منه .. تركته فى الحارة يهذى وتحدثه بدعوة سيف الماوردى
وبعض الأصدقاء من فئات عجيبة لا تدري كيف اجتمعوا .. يالها
من ليلة .. العمارة كلها كانت تخلم فى الحفل .. وسيف الماوردى

بصوته الأجنس غير المدرب كان مع ذلك جذابا مذهلا ملمعا ، مشعشعا على آخر الطاقة ، كأنه يغنى فى قُرعة ، وترك عند الست بتعة أنقى وأجمل تسجيلاته ٠٠ حوالى أربع شرائط بأربع ساعات غنى فيها منتخبا كبيرا من مراحل حياته الفنية التى مثلته وشهرته طوال هذه السنين ٠٠ أما أنا ٠٠ فقد اشتغلت فى تلك الليلة غرزجيا من أجل عيون الحفل والجمع السعيد ٠٠ وواقع الأمر اننى كنت أنا الآخر قد عشقت أغانى سيف الماوردى وبدأت أحفظها وأغنيها فى المناسبات ٠٠ وكانت الست بتعة تروح وتجيء فى ابتهاج عظيم . ومن حين الى حين تدخل الى مجلس الصحبة وتقول كأنها طه حسين أو سهير القلماوى : « ياسلام يا سلام ٠٠ يا لها من عظمة ٠٠ أنت فنان كبير والله يا أستاذ سيف » ٠٠ فيحنى سيف قامته باسم فى امتنان سعيد « متشكر قوى ياست هانم ٠٠ ربنا مايحرمناش منك ٠٠ وانتى وطنية قوى ياست هانم دا ايه الحلاوة الشعبية دى ، ٠٠ سيف أيضا كان نكته ٠٠ ثم انها سألته : « ياترى حضرتك من أنهو بلد يا أستاذ سيف ؟ » ٠٠ فقال انه من العاصمة نفسها ٠٠ ولد هو وأبوه وجده فى نفس هذه العاصمة ولا يعرف من أى جنس هو بين الأجناس العديدة التى استوطنت العاصمة ولكنه يرجع انه من أصل كردى جاء مع صلاح الدين الأيوبى ٠٠ وفى نهاية الحفل وقف سيف الماوردى أمام الست بتعة كتلميذ نجيب خجل من فرط إعجاب أمه به ٠٠ وقالت الست بتعة وهى تنظر اليه فى تقدير : « دى أسعد ليلة عندى يا سيف ٠٠ ومن هنا ورايح اعتبرنى أختك ٠٠ أى طلبات أى خدمات أنا موجودة ٠٠ مايهمكنش من كحكوح ٠٠ دا جلع فالصو متاكلش من كلامه » ٠٠ فانحنى سيف شاكرا وهو غير متصور أن هذه الست البلدى المشهورة فى الحى يمكن أن تكون حساسة الى هذا الحد ، ذلك انها - فتك فى الكلام - كانت فى كل دخلة عليه تبدى إعجابا بالنفمة واللازمة وتستخدم كل مصطلحات الفنانين العارفين فياها من معجبة لقطه سخى بها الزمن عليه ٠٠ فتك فى الكلام أيضا -

لقد غنى لها سيف من بين أغنياته أغنية هزا فيها برشا الخضرى
وفضح الذين تحمسوا لها وقلموها وفرضوها مطربة على الجماهير ،
ولا تسلم عن سعادة الست بتعة بهذه الأغنية ، الوحيدة التى
استعادته اياها أكثر من ثلاث مرات ، وكانت تخرج الى الصالة
ونضببطها متلبسة بهز وسطها مع النغمة فى ابتهاج باسم ، فابتهجنا
نحن الآخرون وعرفنا أن سيف قد انتقم لها من شخصية رشا الخضرى
التي أحبطت آمالها الفنية واعترضت طريقها .. المهم انها فى
النهاية سلمت عليه وفى جوف كفها عشر ورقات من فئة العشرين
مطبعة .. فقبض عليها وصار يبعث عبارات الشكر والامتنان طوال
نزوله من درجات السلم » ..

.. « منذ ذلك اليوم استنام سيف الماوردى لعطف الست
بتعة هو الآخر .. ولما كان معظمهم قد انفضوا من حوله فى
السنوات الأخيرة فان المسكين فى حال لا يحسد عليها .. كان يبعث
المراسيل الى الست بتعة بطلبات فلا تردهم خائبين .. الى أن خرجت
الست وسيلة من السجن وتلقفتها الست بتعة فى حضنها من وراء
ظهر كحكوح .. فعزمته على حفل فى شقة أحد أصدقائها المهرين
الذين أدعت له أنهم من رجال المجتمع .. وأخذت معها ست وسيلة
.. وتركبتها تقود الحفل وتسهر على راحته .. كنت فى هذا الحفل
أيضا .. فأنا على وجه التقريب أتحرك وراء الست بتعة كظلها
الا اذا هى أومات الى بأنها اليوم غير محتاجة الى .. نوع من الوفاء
فلولاها ما دخلت الجامعة .. لا تسلمنى عما فعلته الست وسيلة
بأدعفة المحتفلين على الاطلاق .. ما أن دخلت بفستانها البسيط
الثمين حاملة صواني الأطعمة حتى بدت كملكة فرعونية تنازلت عن
عرشها لتخضع حبیبها .. وظلت هى رهن الإشارة لكل من طلب ماء
مثلجا أو قهوة أو ليمونا .. فما تكاد تظهر حتى ينتعش الجميع
ويدب فيهم نشاط وحيوية .. كان ذلك الحفل أروع حفل أقامه
سيف الماوردى فى حياته .. أتدرى لماذا ؟ .. لأنه لأول مرة فى

حياته لا يغنى أغنيات سياسية ولا انتقادية ، بل شرد في حداثق
العشق بمواويله الجمراء وآهاته المذبذبة الأبدية ، حتى لقد اهتز
من نشيجه الحلو كافة ما فى الشقة من أثاث وستائر وجدران ..
تسجيلات هذا الحفل - للعلم - تجدها عند واحد بعينه فى حارة
القللية .. والبست بتعة لم تكلف نفسها مشقة عرض الأمر على
سيف .. انما هو الذى بادر بالاتصال بها وقال انه يرجوها السعى
فى زواجه من الفاتنة السمراء .. فحكى له قصتها بالتفصيل فلم
يعن بالاستماع اليها .. فوعدت بالتفكير فى ذلك » ..

وقدم لى « طارق » ذبالة بقيت فى السيجارة قائلا : « نفس » ..

فأخذتها وجذبت بقاياها وأطفأتها . ولمحت حركة غير عادية فى
الصالة الصغيرة الضيقة . وتناهت الى روائح عذبة ، لكن « طارق »
جذبني من جديد قائلا : « لو فهمت قصد الست بتعة من تزويج
ست وسيلة لسيف الماوردى لعرفت أنها خطة جهنمية جدا » ..

قلت بلهفة : « كيف ؟ » ..

أشعل « طارق » سيجارة ثم قال :

- « ان ست بتعة تريد لسيف الماوردى أن يقلع عن الغناء
السياسى ضد الحكومة نهائيا .. هذا أمر تعجز عنه الحكومة
نفسها .. لكن ست وسيلة سوف تخلق من سيف الماوردى انسانا
آخر تماما .. هى لن تمنعه من الغناء ضد الحكومة فى الواقع بل
ستنظم له شخصيته وترتبها .. تسقيه معنى الاستقرار كزوج
ينبغى أن يعود لزوجه فى المساء كل يوم ، وكرجل يستخسر انقضاء
ساعة خلف أسوار السجن بل فى أى مكان ليس فيه الست
وسيلة .. ان الست وسيلة سوف تربط سيف بالحياة ربطا
وتسقيه معنى الحرص عليها .. حينئذ سوف يهدأ كثيرا ، اذ تتوفر
له أشياء كثيرة مفتقرة فى حياته ، ويتوفرها سوف تلتهم مواهبه
وتغير صيغتها ، وربما تضع الحانا وطنية أيضا ولكن بشكل

لا يأخذ صيغة المعارضة .. تريد له الست بتعة أن يصبح فنانا
 لا مهيجا جماهيريا ولا داعية سياسيا .. ليس هذا من تصوراتى ،
 بل هكذا سمعت ست بتعة تقول له ذات حفل صغير على الضيق ..
 أتعرف يا مامون .. لقد أحسستنا كلنا ان الست بتعة تحب الاثنين
 حبا كبيرا جدا : وسيلة وسيف .. ولذا فهي سوف تنفق أموالا
 كبيرة فى تهيئة عش لهما » ..

وصمت « طارق » ، وانشغل فى تقليب أوراقه بحثا عن شىء
 ثم قال ان جوابا وصله من البنات التى يحبها وسوف يقرأه على ،
 لكى أساعده - بما لدى من عبارات جميلة وأسلوب جميل - فى
 كتابة رد يسجدها . تمنيت ألا يجد الخطاب ، لاننى لن أقوم بهذه
 المهمة أبدا . من حسن الحظ دخلت أمه ووجهت الى نظرة حرجة
 فيما تقول لابنها :

- « وبعدين يا ولده .. ست بتعة عايزاك فى مشوار » ..

قال طارق : « عينى » ، ثم نهض قائلا : « عن اذنك » . وغاب
 مع أمه فى الداخل برهة طويلة ثم اذا بصوته ينادينى : « اذا سمحت
 يا أستاذ مامون » فقممت على استحياء ودلفت الى الصالة ، فقال :
 « تعال » . فرفعت بصرى فاذا بى محتاج لقوة هائلة أحتمل بها
 ما أرى من ضوء واشعاع : أميرتان من أعرق أمراء العالم القديم
 الحديث ، لا أحد فى الأرض يحمل هذه الكمية من الجمال والكبرياء
 الطبيعى الجارف للقاصم : الست بتعة والست وسيلة امرأتان على
 مشارف الخمسين كأنهما فى مقتبل العمر ، كأن الكرة الأرضية
 يجب أن تقسم بينهما بعدالة وقسطاس ..

اقتربت منهما فى خجل . بالله ، هل كانت هذه زوجة
 كحكوح ؟ وبالله هل هذه الأخرى زوجة كحكوح ؟ . مدت الست
 بتعة يدها وسلمت على ، فسلمت بحرارة ، وتمنيت لو بقيت يدي
 فى يدها طويلا . فلما سلمت على ست وسيلة أفتابنى نفس

الاحساس ونفس الشعور . وقال طارق يقممنى : « زميلي وصديقي الأستاذ مأمون » ، ثم يقممنها : « الست بتعة .. الست وسيلة » ، واحتوتنى وسيلة فى صدر كأنه وجه الرغيف يرتفع فى قلب القرن ، واحتوتنى بتعة بنظرة قادمة تسبح من أعالي البحار . وقالت الست بتعة : « طارق بيثق فيك .. وأنا كمان ما أعرفش ليه حبيتك ووثقت فيك .. عشان كله وافقت على انك ببقى صديقى » . قلت لها صاغرا : « دا شيء يشرفنى ياست بتعة » . فنظرت فى ساعتها وقالت : « طب يلا بينا بسرعة عشان نيحى بسرعة » . وانتزعت الملاة اللف وألقت بها الى وسيلة ، وأخذت هى « روبا » سترت به كل جسدها ثم أشارت لنا ، فنزلنا طارق وأنا نسبقها الى سيارتها المركونة تحت شرفة شقتها .

بدربة فائقة لم أكن أتوقعها من الست بتعة خرجت السيارة الفارعة المصقولة من بين حوار وأزقة ضيقة ، ثم زاغت بين زحام الشوارع العمومية ثم استقلت الطريق العمومى الى منشأة جديدة متاخمة لميدان المشهد الازرقى ..

نزلنا أمام عمارة عالية ، ثم دخلناها وركبنا الأسانسير حتى آخر دور ثم صعدنا على أقدامنا الى السطح فاذا بشقة جميلة جدا ومفتوحة على سطح العمارة وقالت الست بتعة لوسيلة : ما رأيك ؟ . وقالت وسيله : فل خالص آخر حلاوة . ثم اننا طرقتا باب الشقة فانفتحت فاذا بها من الداخل جميلة ومجهزة بعفش وأثاث لائق جدا ، وبعض ابتاع من مقاطيع سيف الماوردى ، ثم سيف الماوردى نفسه ثم الماذون ..

سلمتا عليهم جميعا . واطلقت ست بتعة زغرودة بلديسة ريفية رائعة رائقة . ثم جلسنا وسط مظاهر فرحة نشأت فجأة كأنهم غير مصدقين قبل حضورنا . ثم همس صديقى طارق فى اذنى قائلا ان الست بتعة هى التى استأجرت هذه الشقة لسيف من

نفسها اذ أن العمارة ملكها والله أعلم . ثم استقامت جلسة ضميمنا كمائلة واحدة : سيف الماوردى وست بتعة وست وسيلة والمأذون وصديقى طارق ، وأتباع الماوردى منغمسون فى المطبخ يعدون طعاما وشرابا . ثم اذا بها جلسة لعقد القران . ثم اذا بعقد القران ينم ، واذا بى انا وصديقى طارق نشهد عليه دون كافة الموجودين . وكنت وانا أوقع عقد زواج خالى سيف الماوردى أحس بشعور وهزة داخلية تمنعنى من التصريح له بأن أباه خليل هريدى بعد هربه وموت أمه حزنا عليه تزوج من جدتى أم بسيمه زوجته السابقة فانجبت له أمى كل ذلك دون أن يعلم سيف وبناء عليه فهو خالى دون أن يعلم . العجيب اننى يومها لم أجد رغبة قوية فى التعرف عليه والكشف عن شخصيتى ، احساسا منى بأنه طالما رفضنى ورفض الانتماء الى أهله أهلى فاننى يجب على الأقل ألا أرحب بانتمائى اليه ، وهكذا تماذيت فى استغفال نفسى تاركا انكشاف الامر للمجهول . على لئننى كنت أوقن من أن الست وسيلة هى أكبر هدية اعطيت لخالى سيف وانها سوف تغير مسار شخصيته لا بد ، أوقن من ذلك لمجرد رؤيتها واكتشاف ما فى وجهها من نبالة ..

ليلتها احتفلنا أعظم احتفال بدخلة سيف الماوردى على الست وسيلة . غنى سيف وغنت الست بتعة مقلدة مها صبرى تارة وشريفة فاضل تارة أخرى ووردة تارة ثالثة . وأكلنا وشربنا وفرحنا حتى النخاع ، ثم عدنا فى بداية النصف الأول من اليوم التالى فى سيارة الست بتعة . ونزلنا عند بيتها وقالت لى : « أنا عاوزاك يا مأمون » . فقلت كأننى طارق أو أحد اخوته : « تحت أمرك يا ست هانم » . وانصعت اليها . ورأيتها تفتح حقيبة يدها فمددت يدى بسرعة غاضبة وأوقفت حركة يدها قائلا : « فيه حاجة ؟ » . قالت : « عايزه أعطيك هدية » . قلت : « أرجوك .. بلاش اهانة » . قالت : « مش فلوس » . قلت : « ولا أى حاجة » . فقالت باسمه : « اوعى ياد يا شبه أمى ياد .. باقول لك أنت

شبه أمي .. والمصحف شبهها .. مش هزار .. ثم أزاحت يدي
بفضب رفيق قائلة : « اوعى » ، ثم أخرجت من الحقيبة ولاعة
رونسن ثمينة غالية تساوى عشرين جنيهها .. فتقبلتها شاكرا .. ثم
أوصتني باننى يجب أن أكون على اتصال دائم بها سواء مع طارق
أو وحدي ..

غيرأننى لم أكن أستطيع الاستقرار تماما فى العاصمة فورائى
وظيفة وقرية وأهل أعنى بهم .. لكننى كنت قد قررت بينى وبين
نفسى أن أعاود الاتصال بالست بتعة هانم فى فرص أخرى كثيرة ..
ولم يمنعنى من ذلك سوى اقتراب الامتحانات وهروبى من جسو
سيف ومنطقته برمتها .. وبعد اجتياز الامتحان عاودنى الحنين الى
المنطقة من جديد .. وانجذبت الى بيت صديقى طارق بعد شهور
طويلة لم أره خلالها ..

وجدت جوا من الحزن والخطر يخيم على البيت ، ولا أثر
للسيارة هناك .. فحدست أن تكون الست بتعة فى مشوار أو على
سفر .. حتى صديقى طارق نفسه لم يكن موجودا بالبيت لمدة
مرات وبشكل يدعو للريبة .. وأخيرا تربصت به فتصيدته على
المقهى .. فاحتضنى وجلس جوارى كالمهزوم قائلا :

— « مش الست بتعة مقبوض عليها ؟ » ..

قلت ملعورا : « كيف ؟ لماذا ؟ » ..

قال « طارق » :

— « لا نعرف .. ولكننا صحونا ذات يوم فلم نجدها ولم نجد
السيارة .. وكان زوجها النطع كحكوح قد قطع صلته بها وقيل
انهما انفصلا .. لكن لم تمض بضعة أيام .. وكنا لا نزال ساهرين
تندارس فيما بيننا أخبار الست بتعة وهل يمكن أن تكون قد
اختطفت مثلا ؟ — اذا بنا تفاجأ بمجموعة من الرجال يفتحون شقتها

فى الهزيع الأخير من الليل .. فنزلنا نستوضحهم الأمر .. فقالوا أنهم من مباحث أمن الدولة ، وأبرزوا بطاقتهم .. ونزل أبى وقطع الشارع وخرجت أمى وأخوتى الى البلكوكة لاستجلاء الأمر فتبين لنا ان عربة الهجوم الفرشى المكتظة بالفرق ترابط عند مدخل الشارع .. فانزونا جميعا فى الأركان .. ولم نسال بعد ذلك أبدا عن أى شىء .. اذ ان الاشاعات أكدت أن السبت بتعة قد انكشف المستور وراءها فظهر انها كانت على علاقة مريبة ببعض الشخصيات السياسية والاجرامية المعروفة والمراقبة ، وبأنها متهمه فى كذا وكيت من عشرات التهم التى تكفى الواحدة منها لوضع كل ممتلكاتها تحت الحراسة ووضعها فى نفسها فى حبل المشنقة .. وكنا نظن ان انقلاب الحكومة عليها هكذا يرجع الى علمهم بتشجيعها لواحد يفارضهم . ويعمل على فضحهم .. لكننا اكتشفنا أكبر من ذلك بكثير جدا وانهم يدخرون لها عشرات التهم المخفية من قديم ..

ولاحظت ان صديقى « طارق » يريد أن ينهى الحديث بأى شكل لكى ينصرف الى حال سبيله من شدة الخوف . فسألته : « وأين توجد السبت بتعة ؟ » . قال « طارق » كأنه يستهجننى : « فى السجن طبعا » . قلت له : « أى سجن ؟ » . قال : « سجن الاستقبال .. المعتقل السياسى » . ثم سلم على وانصرف ، فأحسست بحزن كثيف . ورأيت الحزن يتكاثف على الشارع كله حتى أولئك الذين يهبرون الكباب فى شراهة على رأس الشارع . فتركت الحى كله ضائق الصدر معتكر المزاج . لم أجد مكانا آخر يصلح للانتماء اليه فى هذه اللحظة ، فكل مكان قد احتله ناس فى يدهم نفقات باهظة ، جميع الأماكن تزدهم بزخم كربه مهين ساحق للانسانية ، لا يملك الانسان ان يختار أى شىء أو يميل الى أى شىء أو يتمنى أى شىء أو ينتظر أى شىء أو يؤمل فى الوصول الى شىء بل حتى لا يثق فى امكانية انتقاله من هذا الحى

وسط هذا الزحام الهمجي الى حى آخر بله أن يكون له حى ..

واذ وقف سائق الأجرة مستجيبا لتذلى قال انه ذاهب الى المكان الفلانى . فتذكرت ان لى بعض شأن فى هذه المنطقة التى ذكرها . وأمام فرحتى بوجود المواصلة ركبت بجوار السائق فاستأنف السير فى صمت . فلما استرحت قليلا فكرت فيما يقودنى الى هذه المنطقة رغم ثقتى فى استحالة العودة منها بسهولة ؟ . على اننى حين أعطيت ما طلبه دون مناقشة ومضيت أدب فى المنطقة السكنية الجديدة . جلست على أول مقهى وطلبت الشاي والشيشة ثم رحت أفكر : هل جئت الى هذه المنطقة فى حقيقة الأمر مدفوعا برغبة أصيلة وملحة فى الكشف عن شخصيتى لسيف الماوردى ؟ لأطمئن عليه مثلا هل قبض عليه مع الست بتة ؟ أم لأطلع على جلية أمرى معتذرا بأنى لم أكن أعرف أو لم أكن أريد وقد أردت فليغفر لى ؟ . ان الرغبة فى صلة الرحم والدم شيء أصيل وجميل ولا موجب للاعتذار عنها بأى سبب . ان جدى خليل هريدى يجب أن يشعر بأبنة فى أواخر سنى عمره لعل شخصيته تعتلد وتستقيم ، وسيف يجب أن يعود الى رشده فيتذكر أباه ويرتد اليه صاغرا ..

ووجدتني امام البيت الذى يسكنه سيف .. فتحت لى الفاتنة السمراء . أبدا ليست هذه زوجة رجل بسيط ، انما هى زوجة ملك ، يقول لك قوامها الملفوف ومظهرها انفاق الكبرياء ان قف مكانك مؤدبا مهذبا قبل ان تمثل بين يدي زوجها سيدك وتاج رأسك . أبدا لا يسكن ان تكون هذه الرصانة والسلاسة قد عاشت مع حثالة المجرمين فى الحياة والسجن على السواء .. انها لم تفادر قصر الملكة برهة واحدة ولم تكف عن الأمر والنهى برهة واحدة . واذ تمنعت قليلا فى وجهى ابتسمت فكانما الدنيا كلها قد رضيت عني ، وهزت رأسها أن تفضل . فدخلت . فاذا بأريج حياة كاملة يكاد يعصف برأسى من التشوة ، رائحة الاستقرار

والتوقد والاشتعال العاطفي ، والنظافة الشفافة • العود قابع في
أحد الأركان ، والستائر الجميلة تداعبه • سيف بيك الماوردى -
ما أسعده - يضطجع في حجرة النوم ، وهى سوف تبلفه حالا •
وككل من يبلغ نبأ زوارهم في السرير جاء الشاى طليعته ، ثم
مضت برهة طويلة دخلت لها الست وسيلة - أقصد الامبراطورة
وسيلة وسرحت شعرها فى وقار واحترام ثم جلست قبالتى
قائلة : « أهلا وسهلا أيه الاخبار ؟ » يا للطرافه ، هى الأخرى
تسأل عن الاخبار • ثم جاء سيف مرتديا الروب دى شامبر
الفزدقى ، ودعائم الصلحة بادية على وجهه ، فسلم على بحرارة
وجلس بجوارى • ومضت وسيلة • وقال سيف انه كان يتصورنى
- يوم القبض علينا معا فى شقتى - من عائلة الفنانة رشا الخضرى
فاذا بى من عائلة الست بتة فىا للتوافق العجيب وأهلا بى
وسهلا • فلم يعجبني منظر خلوده المتوردة ولا غلظة احساسه ،
فقلت له اننى كنت مسافرا الى البلد فلما عدت ذهبت لزيارة صديقى
طارق فعلمت ان الست بتة قد قبضت عليها مباحث أمن الدولة
فهل لديه أخبار تصحح هذه الاخبار المزعجة ؟ • فقال فيما يشبه
الجملة الاعتراضية : « ولكن هل حضرتك من أقارب الست بتة ؟ »
قلت : « لا فى الواقع ، ولا من أقارب رشا الخضرى ، لكننى تعرفت
على الست بتة مؤخرا بواسطة زميل الدراسة طارق مرزوق » •
فقال وهو يشعل سيجارة أجنبية : « اذلا كان يهيك أمرها فأننى
قرأت اسمها بالفعل فى كشوف المقبوض عليهم مؤخرا • • وكنت
أخشى أن يكون ذلك بسببى • • لكننى تحررت فعلمت أن فى
الأمر قضايا أخرى كثيرة تتعلق باتصالاتها بشخصيات كبيرة ضخمة
• • وهى مسائل غامضة لم تتضح الى الآن ، ولا أظن انها ستتضح
بسهولة • • وربنا يستر علينا جميعا » • •

ثم دخلت الملكة الفرعونية النوبية حاملة صينية القهوة
كاننى فى حضرة الزعيم سعد زغلول • شربت القهوة كاننى ألهم

الست وسيلة مذابة فيها . وجلست هي قبالتى مدارية ركبتهما بطرف فلسطين كفتاة خجولة . ما تزال . كان فى عينيهما حزن عميق جدا تكشفته شيئا فشيئا . وكانت تغيب فى شروود ويرتسم على صفحة وجهها تعبيرات مخيفة ، ثم اذا بها تهلل قائلة : « آه لو كنت أعرف أين هي الآن ست بتة .. لكان اتصالى بها أمرا ميسورا .. » ولو اتصلت بها لعرفت حقيقة السبب . واذا عرفت فلا بد أن أقف معها حتى تنجو من الكارثة بعون الله .. لكن آه لو أعرف .. مصيبتنا جميعا اننا لا نعرف كثيرا من الأشياء ، ولو عرفناها فربما انقلب كل شيء رأسا على عقب ، .. »

وقال سيف وهو يشرب القهوة فى شيء قريب من الانسداد الضاحك : « بلاش الكلام ده يا وسيلة .. خليكى عاقله شويه ، »

فبدأ على الملكة ما يشبه التوتر والخوف من شيء غامض ، وصارت تلوح بيدها حول رأسها فى استفهام مبهم ، وسيف يترجم حركتها قائلا : « أنا معاكى أنا قلت المسألة غامضة .. ومسيرنا نعرف .. احنا معنى حنسيبها لوحدها ؟ » . ونطق صوت فى داخل : « وفيه حد ينسى أبوه السنين دى كلها يا هريدى ؟ فيه حد كان ينسى مراته فى المولد فى الزحمة ويجيله قلب يقعد من غيرها من غير ما يعرف هي راحت فىن عامله آيه ؟ فيه حد يعمل كده الا أنت يا هريدى ؟ .. لكن مين عارف .. يمكن سيف الماورى يصلح غلطة هريدى .. الانسان بتخلقه الثقافة والمعرفة .. وينقيه الفن ويصفيه .. لكن ، .. »

وجاءنى صوت الملكة يقول : « ان عشت يا أخ مامون فانى سوف أعرف كل شيء عن الست بتة .. سوف تكون شغلتى الآن هي البحث عن مكانها والاتصال بها وزيارتها بأى ثمن .. وسوف أساعدها بكل ما أستطيع اذا ما كان فى الأمر محاكمة أو قضاء ، » فأحسست أن هذا كلام الملكة ، وانها لن تنقذه أبدا ، ان العظمة

والسلوك العظيم كلاهما ليس ينبع من إطار المنصب أو المركز أو العلم أو الثقافة الجوّاء ، إنما هو سلوك تحدده الشخصية نفسها بإرادتها ، وإرادتها هي شخصيتها . وهنا داخلني الاطمئنان وأشعلت سيجارة ونهضت - أقصد فوجئت بنهوضي واقفا أقول : « طيب .. استأذن » . فلما فوجئت بأنني قد استأذنت بالفعل داهمني شعور غريب بأنني ربما أكون شخصيتين مختلفتين ، لكنني متأكد من أنني مشطور الشعور ، فحيث جئت للالتحام يدمني ها أنذا أتجه نحو الباب خارجا وفي داخلي شعور مرتفع بأن جماعتي نافذة إلى الخروج خوف الاجترار على حزمة ناس غرباء عني تماما ..

كان ذلك منذ بضعة أسابيع . وعدت من العاصمة ضائقا لأحضر فرح « جميل » وأبقى بالبلدة أياما . وكنت ألوم كثيرا من أقاربي مثل جميل وأخوته وغيرهم على كونهم لا يسألون عني ولا يهتمون بوجودي في البلدة ، لكنني في لحظة الوصول إلى الغضب منهم تذكرت أنني شهدت عقد زواج خالي سيف وعزمته في شقتي وقبض علينا معا والتقينا كثيرا ولم أشأ أن اكشف له عن صلة القربى بيني وبينه .. فأتزق من شعوري بالوضاعة ، وازداد اشفاقا على الناس أجمعين ، فكل الدماء مسمومة على ما يبدو ..

لكن آه لو تدري ما طرأ على الآن وجعلني أحس بالحاجة العاطفية لأن يكون معي رجلا كسيف الماوردي . انني مصمم على المضي في طريق ربما كان فيه حتفى ، وأعرف أنه مخوف بالمخاطر لكنني أحب مخاطره وأطلبها لتكشف لى عن سر جوهرى ومبدى أصالته . هذا دور قد اخترته لنفسى بحض ارادتي : أن أفتح ملف خالتي بسيمه وأبحث فى تاريخها ووثائق حياتها لأصل إلى مصدر قتلها وعودتها على هذا النحو إلى قريتها . هو دور أعرفه ولن أطلب أحدا يحارب معي ، إنما أنا محتاج فقط إلى روافد من المعرفة . وهنا سوف أتخلى لأول مرة عن ذاتى وعن إرادتها

الشخصية ، سأنهار وأعترف بانتمائي لسيف لا لشيء الا لسكى
أحصل منه أو عن طريقه على بعض الحقائق ، أليس زوجها ؟ إنه
فى حقيقة الأمر أول طرف يجب أن يكون مسئولاً ومعيّناً فى هذه
القضية .

٣

•• وانتفض « مأمون » قاعدا فى حوض الساقية وهو يشعر
بالنشاط المفاجئ والرغبة فى الوجود . أما أنا فقد أخذت أحجم
حوله معبرا عن شعورى بأصالة العلاقة بيننا . فها هو ذا « مأمون »
يكشف أن صلتة بى قديمة وأنه سبق أن رأى على الأقل مرة فى
صحبة سيدتى . وليست صلتة بى وحدها هى القديمة ، بل إن
صلته بالموضوع كله أقدم ، بل وأكثر أصالة بطبيعة الحال . ولكن
هل يكفي أن يكون المرء طرفاً أصيلاً فى القضية لكى تقام القضية ؟
لا بالقطع . لأن تفاصيل الجريمة فى قضية مأمون هى تفاصيله
هو نفسه التى تمزقت من قبل أن يولد وألقى بكل منها فى سلة
مهمات بعيدة . هكذا أصبحت أفهم « مأمون » ولكن فهمى له
يشكل مأساة خاصة بالنسبة لى فوق مأساته هو الشخصية .
فمأساة مأمون هى كيفية تعرفه على أشلائه المبعثرة فى وادى بنى
الأزرق . أما مأساتى أنا فهى أنى ككلب أمين وفى على أن أساعده
فى التعرف على أشلائه ومعالم حقوقه التى أعرفها . أليس فيه
بعض ما فى ؟ أليست مأساته تشبه بعض مأساتى ؟ أنا نفسى
لا أذكر من طفولتى كلها سوى مشهد أمى وهى تهرع صارخة
مشجوجة الرأس بنبوت عدوانى همجى حقير بدون أى ذنب جنته
ثم تهوى فى المستنقع النتن بين أعشاب الحلفاء . أنا الآخر رأيت
أشلائى وهى تتمزق بالفعل وتنحدر الى مستنقع الجيف •• هو
كذلك قدر له أن يرى أشلاءه وهى منحدره بالفعل كذلك فى
مستنقع الجيف ••

وإذا كان قد قدر على أن أجد إلى هذا الوجود قلباً مفتتاً
الذاكرة لا يملك الحق أو القدرة على موهبة التعبير ، فأننى وفاء
لكليتي فقط وليس لى ادعاءات أخرى ، سوف أحاول مساعدة
مأمون بقدر الامكان على التعرف على تاريخه المجهول ..

لكننى فجأة وجدت الدنيا قد انقلبت . صحيح ان فرق الهجوم
الفركتشى لم تكن ظاهرة لنا ، الا ان وفودا كبيرة من الأفندية
والضباط قد زحفوا نحونا يتحدثون فى لفظ مرتفع . رفعت رأسى
فوق الساقية فعرفت ان « مأمون » قد خدعنى ، اذ وضعنى فى
قلب المنطقة المحظورة وادعى اننا خارجها . نهض « مأمون » واقفا
يعدل نفسه ويبتسم قائلا : « اهلا وسهلا » ، ثم معتذرا :
« لمؤاخذه راحت على نومى » . ونظر له ضابط الشرطة فى ريبه
واستنكار ، وسكت على مضض ، اذ ان أفنديا شابا متحذلقا
يرتدى بذلة كاملة تقدم نحو « مأمون » مسلما : « اهلا أستاذ
مأمون » ، ثم نظر الى الوفد الذى معه : « مأمون عكاشه طالب
جامعى من خيرة شباب البلد .. هو الى ساعدنى فى مصادر
الدكتوراه بتاعتى .. اهلا يا أستاذ مأمون بتعمل آيه هنا ؟ » .

قال مأمون : « أبدا يا دكتور على .. الواقع أنا فى ظروف
مش كويسه ومشيت أنفس عن نفسى من كتر الهم » . قال ضابط
الشرطة فى لهجة ذات معنى : « وما لقتش مكان تتنفس فيه غير
هنا .. اشمعنى هنا يعنى ؟ » . دهش مأمون ، وقال الدكتور
على : « معلش يا حضرة للضابط .. مأمون أخ مش بتاع كده
ولا كده .. ولد شريف وبيجب بلده .. بس لازم ميعرفش ان
المنطقة عليها ظروف استثنائية وممنوع تواجد المدنيين فيها » .
أسرع مأمون قائلا : « فعلا والله يا دكتور .. ولو حضرة الضابط
عرف ظروفى يمكن يقدرها .. الواقع أنا تايه مش دارى بأى حاجة
.. اعذرولى .. جئة خالتى وصلت من يومين ثلاثة وحيدفئوها فى
مقابر الصدقة .. وأنا الوحيد من عائلتها أريد أن أستلم جثتها وأفتح

محضر ولا أجد أحدا يتعاون معي . . يقول لي ماذا أفعل . . وهنا خف بعض الجفاف على الوجوه ، وقال الضابط مدافعا عن نفسه في لهجة تائيپ متذكية : « طب وايش عرفك بقى يا خويا ان المحضر حقييد ضد مجهول ؟ » . .

وهنا ارتفعت موجة الحركة مصحوبة برعب وخوف وتذلل ، حيث ان موكب عبد الجبار نفسه قد اقتحمهم ومعهم الخبراء والمهندسون يشرحون له خواص المنطقة ويشرح لهم مميزاتها . . وكانت يد عبد الجبار تشير الى وجود الساقية كاحدى المعالم المطلوب ازلتها ، حين برز له وجه مأمون مباشرة ، لحظتها تعلق نظرتي بمأمون لبرهة طويلة وكاد يبتسم له كأنه تعرف عليه ، لكنه اعتقل ابتسامته وتجاهله . . وتقدم ضابط اكبر صائحا : « فيه أيه ؟ أيه الجدد ده ؟ » بتشتغل أيه يا أخ ؟ بيعمل أيه هنا ده ؟ » . . وهنا توقف الموكب فى قليل من الخوف والتشكك ، فقال الضابط الكبير : « اتفضلوا انتوا سعادتكم » . فقال عبد الجبار مبتسما : « مش مهم بس فيه أيه ؟ » . قال الدكتور على ناظرا الى مأمون كأنه يقدم له اكبر خدمة فى حياته : « الموضوع وما فيه يا أفندم . . مفيش حاجة . . حصل لبس صغير . . الأستاذ مأمون طالب فى كلية الآداب وأديب ومتطور ومتقف » . قال عبد الجبار بشئ يشبه الخوف مع التقدير المزيف : « طالب فى الجامعة ؟ » . قال الدكتور على : « أيوه بس هو فى ظرف قاسى » . قال عبد الجبار وقد أستعد لشيء شهم : « خير يا مأمون يا ابنى . . قول ما يهكمش . . انت بلدياتى . . يعنى أخويا الصغير . . انا تحت أمرك فى كل الى انت عايزه » .

قال مأمون وهو على وشك البكاء : « لا يا أفندم العفو انا مش عايز أى حاجة » . قال عبد الجبار فى اهتمام : « أمال أيه الحكاية ؟ » . قال الدكتور على : « من يومين تلاته يا أفندم . . جثة خالته وصلت البلد بشكل غريب . . وفى ظروف أغرب . .

والبلدة كلها عارفه .. وهو الوحيد من أهلها وعازي يستلمها ..
وخايف أحسن خلاص حيدفنها في مدافن الصدقة .. فمش
عارف يعمل آيه أو يتصل بمين .. فاندهل .. فضل ماشي من
امبارح .. لحد ما تعب نام هنا .. وماكانش يعرف ان فيه زيارة
ولا أى حاجة .. هو كان ماشي في الليل تاية .. حتى ميعرفش
دخل هنا ازاي .. ده صاحبي وأنا عارفه كويس قوى .. شخص
شريف وصافي ..

وأوشك الدكتور على أن يبكي من فرط التأثر ، أقصد من
فرط مهارته في تمثيل التأثر . وصار الضابط الكبير يركز بصره
فى مأمون ويهم بانهاء الموقف ، لكن عبد الجبار قال له متأثرا :

- « لحظة من فضلك .. الجنة دى .. اعتبروها قطعة منى
أنا .. أرجوكم .. عاملوها كأنكم بتعاملوني أنا شخصيا ..
المرحومة دى ست طيبة من دون شك .. تعرفوا ليه مع انى لسه
ما أعرفش هي مين ولا اسمها ايه ؟ .. لأن ربنا أراد يستزها في
مرواحها .. ألهم الشاب اللطيف ده انه يمشى عشان يقابلنى ..
أنا يا مأمون يا ابنى .. تقديرا لظروفك .. حافيك من أى
متاعب .. »

وهنا نظر الضابط الكبير الى ضابط صغير فامتطى سيارة
نصف نقل وانطلق يجرى بها نحو البلدة . ثم ان عبد الجبار نظر
فى شخص خلفه ، فتراجع ثم انفصل وامتطى سيارة انطلق بها
خلف السيارة النصف نقل . ثم نظر عبد الجبار فى مأمون :

- « كن مطمئنا غاية الاطمئنان .. من هذه اللحظة سوف
يبدأ رجال فى بناء مقبرة فخيمة تليق بالمرحومة خالتك .. يشيع
جثمانها من مسجدى فى البلدة ، ويقام عليها العزاء فى أفخم
سرادق بجوار المسجد ، حيث يقرأ القرآن مشاهير القراء .. اليس
هذا ما يرضيك يا مأمون ؟ .. اذهب انت الآن وشاركهم فى أى

شيء تراه أو فاجلس في السرايق لاستقبال المعزين .. لعلك في الجامعة سمعت عنى أقوالا ما انزل الله بها من سلطان ، وربما كنت في إحدى الجماعات أو الجمعيات أو المنظمات وحينئذ يكون ترائك حافلا بالاكاذيب عنى .. أعرف هذا .. لكننى يا ولدى لست سفاحا ولست لصا ولا تاجرا .. أنا رجل يعمل ليستفيد الآخرون ويفيدون .. لست أعبد المال .. إنما أعبد بلادى ، وأمنى لها للازدهار والنماء .. ولم أرد أحدا طرق بابى .. لسوف اعتبر ان هذه الكلمة وهذا اللقاء القدرى غير المقصود بيننا جزءا من خطبتى في هذه المناسبة .. نعم ليكن ما حدث الآن جزءا من زيارتى لا نفرط فيه .. هكذا أراد الله وأنا لم أسع الى المنظره أو الدعاية إنما أنا وضعت فجأة أمام محك يفضح حقيقة شخصيتى .. وأنا أنتهز هذه الفرصة وأقول لكل من يهاجمنى بدوافع سياسية أو بأحقاد طبقية : أنا مستعد لانفاق كل أموالى فى وجوه الخير .. ان أعمالى كلها تتسم بالقومية والوطنية الخالصة .. و .. خالك هذه القريبة العائدة يا مأمون ليست تدفن معززة مكرمة فحسب بل انها ستكون سببا فى انشاء مسجد جديد أقيمه فى البلدة على نفقتى بجوار البقعة التى يدفن فيها جثمان خالك .. ولنسمه جامع العائدة ، لتكون بذلك قد حققنا مصلحة قومية جماعية ، وفى نفس الوقت يظل المسجد قائما لأجيال طويلة يذكرها بأن كل عائدة الى وطنها شريفة طيبة سوف تجد لنفسها مثل هذا التكريم .

ووجد « مأمون » نفسه فى دوامة : آلات تصوير تحاصره بين الجميع ، أضواء متوهجة ، قفزات وحركات بهلوانية وناس تكتب وآخرون يحملون الميكروفونات . حاول هو أن يعترض ، فلم يجد للاعتراض سبيلا . حاول أن يشكر سيادته على فعله ويتحفظ على مسألة دفنها هذه ، فمسألة أن يقام حولها مسجد ومقبرة فاخرة وما الى ذلك هذه مسألة غير مقبولة من أساسها اذ أن خالته تكون

بذلك تكون قد دفنت في مداخل الصدقة ، أى تكون قد تحققت
المساواة بالفعل فما الذى سعى اليه اذن ؟ أكان يسمى لدفنها فى
مقابر الصدقة محاطة بكل هذه الفضيحة العالمية ؟ ليت اذن تركها
تدفن فى السر .. كان يريد أن يقول ان دفنها فى غير مدفن
أسرتها لن يشفى غليله مدى الحياة ، وأى تفخيم لدفنها ان هو
الا مساومة رخيصة أو مزايدة على جسد ، فكيف وهو الذى لم يقبل
دفنها فى مقابر الصدقة يقبل ان تقام على جسدها المزايدات ؟ ..

لكنه لم يجد نفسه فى الدوامة الجارفة . سرعان ما حملته
الدوامة الى عربة فاخرة واختفى الموكب خلف ظهره وهو بين مجموعة
من الرجال العتاة كالمقبوض عليه معززا مكرما ، حتى أنا سمحوا
لى بالركوب معه لكى يوافق ويكون مبسوطا . وفى الطريق هم
بالصياح عدة مرات قائلا فى تندر : « أرجوكم .. أنا مش عايز
الجميل دى .. أنا حاتصرف انا .. معايه فلوس .. معايا على
الاقل دفنها وخرجتها وقرأنها .. فأرجوكم ساعدوني بس على
استلام الجثة والتصريح بالدفن وماالكوش دعوة » . ولكن أحدا لم
يعطه الفرصة فى الكلام أبدا ، وبشكل فكاكى غريب ، فمن قائل
بعضم كبير : « ياأخى ما تسكت » ، ومن قائل فى عتاب : « ياأخى
خلاص الراجل سجل على نفسه » ، ومن قائل : « مفيهاش حاجة
ياخونا » . ومأمون يتابع كل ذلك ويكاد يبتسم من فرط الشعور
بالفيظ الدفين . أخيرا استسلم مأمون للقوى الضاغطة واسترخى
فى مقعده كأنما ليفكر فى حل للخلاص . وزحفت أنا فوق صدره
وتسلقت كتفيه كأننى أواسيه . فأحسست انه يستريح قليلا
ويضع يده على ظهرى .. فسمعت صوته فى اعماقه يسرى وكان
كأنه موجه الى : ..

قال مأمون :

« الجميع .. بلا استثناء .. طول عمرى احتقرهم .. لم

اكبر أحب أن يروني أبدا في هذا الموقف .. هم يركبون معي الآن
 باعتبارهم من أهل متكلمين بي وبفض احزاني .. هم الذين سيتولون
 الاتفاق على الجنازة من جنيه لآلف .. هم الذين سيشرعون من غد
 في حفر أساس المسجد بجوار المقبرة التي سيقومونها اليوم على عجل
 .. وهم الذين سيستفيدون من المقاومة كلها .. انهم أولئك الذين
 أصبحوا فجأة من رجال عبد الجبار .. لعله وجد فيهم والدانا تحب
 المكسب ولغير المكسب لا ينعنون .. لعله وجد فيهم أعوانا خلصاء
 له فأعذق عليهم وأتاح لهم فرص المكسب واسعة .. أما الدكتور
 على فحدث عنه ولا حرج .. هو الآن من جملة الوفد الطليعي الذي
 يتقدم المؤكب لتفليل ما يعترضه من مفاجات مثل .. لقد أصبح
 دكتورا. وإذا عدة مناصب ومهام في البلدة ويريد امتطاء العمل
 السياسي لتحقيق طموحات شاذة .. انه شخص نافع ومفيد جدا
 لكل من يريد استخدامه .. انه مرشح لأن يكون موضوعا لواحدة
 من أجمل الروايات التي سأكتبها يوما .. يكفي انه حصل على
 شهادة الماجستير والدكتوراه من جامعة السلخانة أكبر جامعات
 بني الأزرق طرأ في موضوعين عميقين جدا .. فباعتباره طالبا في
 قسم اللغة الأزرية فإنه تقدم لنيل درجة الماجستير ببحث في
 الغاء كلمة « ليه » .. أو لماذا باللغة العربية الفصحى .. وموجز
 بحثه ان اللغة كائن حي كالجسد يستغنى عن كثير من الحروف
 والألفاظ والتعابير التي لم يعد لها وجودا في الحياة المعاصرة
 وأصبح تقريبا لا محل لها من الاعراب .. اذ ما معنى كلمة ليه ؟
 أو لماذا ؟ .. نعم ما معنى ان تقول لماذا ؟ انك حتى لم تعد تقولها
 لانك لم تعد محتاجا لقولها أصلا ، ليس لانك لن تجد لها جوابا
 بل لأنها لم تعد متداولة في القاموس اليومي أصلا .. وقد نوقشت
 الرسالة في احتفال .. وحصل بموجبها على درجة جيد جدا ..
 فما كان منه إلا أن سجل « الدكتوراه » في موضوع أغرب يعتبر
 في نظره - أكاديميا - استكمالا للبحث السابق .. وكان البحث
 في الغاء الجملة الاعتراضية من الأساليب الكتابية المعاصرة ، اذ

أنها هي الأخرى ذخيلة على الأساليب ، أليس اسمها اعتراضية ؟
نعم انها كاللقمة في الزور تقطع استرسال الجملة بشرطة قليلة
الذوق مغيظة . لتقول كلمة أو جملة لا طلعت ولا نزلت ، ثم تعود
فتسك بنفس الشرطة .. ان سماحة اللغة الأزرقية لا تقبل هذا
النوع من الدخولات تحت أى سبب ، فهي لغة تنبو بنفسها دائما
عن الهوى ، كما وأن الأسلوب الأزرقى بطبيعة تكوينه ضد أى
اعتراض بجملة صغرت أو كبرت .. ونوقشت الرسالة أيضا
وحصل بموجبها على درجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى
فبالله وسط نماذج كهذه كيف يمكن لمثلئ ان يوجد ؟

توقفت السيارة عند مبنى المشرحة .. ونزلوا .. وكانت
الأوراق قد سبقتهم الى التجهيز .. وتقدم جماعة وطلبوا أن يذهب
مأمون معهم للأطمئنان على المقبرة .. فقال مأمون : لا .. سأبقى هنا
لحين خروجها من هذا المكان .. ثم ظل يروح ويجيء فى توقظ
ويختفى خلسة فى الشوارع الجانبية ليميل على عربة أجرة ، ويعود
خائبا .. لحق بهم وهم يخرجون بالجثمان الى السيارة .. فاندفع
نحوهم بكل قوة وتصدى لحامل الجثمان كائلا وقد انتصب فى
جسدهم مارد قوى :

- « خلاص .. لحد هنا انتهت مهمتكم .. متشكر جدا
أنا صاحب اللحم وأنا الى حاله واستره .. كتر خيركم .. »
فاستاءوا جميعا .. وربت عليه بعضهم ، ودفعه آخرون ،
وصاح أحدهم فى استنكار : « شيلوه من هنا .. دا حرام ..
ما تقفش فى طريق ميت .. وأخذ بعضهم يدفعه بشدة .. فانتفض
كالأسد الذبيح ولطش فى الجميع بيديه صائحا من أعماقه :

- « مالكوش دعوه .. ادوئى جثنى .. هو بالمافية .. أما
برود .. محدش يعترض طريقى بأقول لسكرم .. يا بوليس ..
يا مخابرات .. يا عالم .. أنا مش عايز حد غيرى يدفع لحمنى فى

مدافن الصدقة .. أنا عايش على وش الدنيا ، ولحمى لازم أدفنه
فى مدفن أهلى ، ..

فوجدوا أنه قد أساء التصرف ، فاندفع بعضهم وحمله عنوة
وهو يغلفص ويضربهم برجليه وذراعيه وأنا أنبح من أعماقى وأهشش
وأخربش . تقدم أقوامهم ولوى ذراعه فاستدار اليه مأمون وضربه
بالبونية فى وجهه ، فطوقه الولد الأقوى وظل يضربه بالدماغ فى
رأسه وأنفه وبالركبة فى أماكن حساسة حتى فقد مأمون الوعى
وتجندل على الأرض . فاندفع نحوه من حملة بسرعة الى سيارة جرت
به الى المستشفى الأميرى وأنا فى أثرها . وهناك سمعت من الأطباء
أنه مصاب بحالة هياج عصبى خطير وأنهم سيحقنونه بمخدر ثم
ان حالة قلبه غير مطمئنة ..

ولما توصلت الى سريره فى المستشفى رأيته مريضاً بالفعل .
ولا أدري كم يوماً مر على بقاء مأمون فى المستشفى . ولكننى بعد
وقت طويل فوجئت به ينظر الى فى بشاشة كأنه يرانى لأول مرة .
بعد قليل غادرنا المستشفى الى البلدة ولكننا فوجئنا بأن مأمون
يجب أن يمر على مركز الشرطة ليدلى بأقوال ، فمكثنا ساعات
هناك . ثم انطلق مأمون يجرى لى حيث دفنت جثة خالته ، فوجد
مكاناً فى مدخل البلدة فيما بين المقابر والبلدة ، وكان فى هذه
البقعة بقايا بناء كنيسة متهدمة ، كان ثمة من يعمل فى ترميمها ،
وعلى مبعده نحو المقابر ، كانت ثمة مقبرة صغيرة قد أقيمت وامتد
حولها سور كبير ، وثمة من يقوم بالبناء فى المسجد المقترح . توقف
مأمون عند المقبرة وقرأ الفاتحة فى خشوع وصفاء مشوب بالدموع ،
ثم عاد فقرأ بعض آيات كريمات . ثم مشينا ، وعدنا الى مركز
الشرطة من جديد حيث جلس مأمون مع محقق مدنى لفترة طويلة
سرعان ما انضم اليه محققون آخرون انهلوا على مأمون بالأسئلة
واقترح الاجوبة كأنه المتهم . وقال المحقق : « سوف نصل الى
الفاعل الحقيقى بأسرع مما تتصور » . فنظر مأمون فى عينيه فرأى
ثقة كبيرة فيما يقول .

باب القرافة

★ مامون ينقل القضية من مدائن الصدقة

١

أمضى مامون في القرية عدة أيام أخرى مهزولا منبوذا مرذولا ، ولم يجرى ليعزيه أحد ، بل ان جميع أقاربه وأصدقائهم كانوا اذا رأوه حولوا وجوههم الى الأرض تعففا من وجهه أن تقع عليه نظراتهم ، حتى جدته معزوزة الطيبة معه دخل عليها الدكان صدفة ليشتري سجائر فصاحت فيه بكل غلظة كأنها لبؤة شرسة « مفيش .. معندناش » ، وحتى جده خليل ، كان مقبلا عليه في الليل وهو جالس وحده فوق المصطبة يجفف دمه فلم يلق عليه السلام ، فدخل وراه الى القاعة ، فلم يعبأ به أبدا ولم يعرض عينيه لعينيه أبدا ، وكان محمر الوجه في غضب مكبوت أسيف

لا ينطق . فتركه « مأمون » ودخل الى جدته ، فراها مندمجة فى صلاتها فى تمتة حماسية غير واضحة ، وكانت تنظر اليه ولكن كأنها لا تراه مطلقا . فتركها ومضى نحو جده مرة أخرى يريد أن يحدثه ، فإذا بجده قد استغرق فى النوم مغطيا وجهه باللحاف . فرجع مأمون الى المصطبة ساهرا طوال الليل ..

وكنت أريد أن أنبهه الى أن الرحيل أمر واجب وضرورى ، وعلاج فورى ، لكننى كنت أراه مشغولا بمسألة مسيطرة عليه تماما . كان صوتا فى أعماقه يهدر وأسمعه .. يقول :

- « لسوف أنبذكم أنا الآخر .. ولكن لن أنصرف من هذه البلدة قبل أن أنقل خالتى الى مدافن أهلها .. مزيدا من الاهانة لكم أيها القوم الفامضون القساة .. تنبذوننى ، تعتبروننى مردولا .. الا اننى رضيت بدفن لحمى فى مقابر الصدقة وعلى نفقة رجل غريب ؟ ولكى يتخذ من جثمانها مناسبة دعائية ؟ أم لأننى تسببت فى ايقاط جراحكم القديمة ؟ المرجح عندى أيها القوم القساة أنكم تنقمون على فضحكم .. وهذه نذالة .. حسن .. فاليكم المزيد من الفضائح ان كنتم لا تحبون .. ان ما هو فضائح فى نظركم هو قمة الشرف والرجولة فى نظرى .. سوف أنقل جثمان خالتى الى مقابر أهلها فى مهرجان أقيم وحدى ، وأقدم فيه العزاء لنفسى بنفسى ، لسوف أكسر القاعدة التى سارت على نهجها دماؤكم منذ أجيال طويلة .. لسوف أثبت ولو لمرة واحدة انها دماء متألفة ، وانها يمكن أن تنادى بعضها فتجيب .. ان للدماء الذكية لا ترتبط بأصل الانسان أو طبقته انما يتمثل ذكاؤها فى نبل نفوسها حتى ولو كانت لشخصيات فقيرة عادية .. ان كان نقل جثمانها الى مقبرة أهلها فيه فضيحة ثانية لكم فاعذرونى .. فلست مفرما بتعذيبكم ولست ضاديا أغرم بتعذيب نفسى .. انما أنا مضطر .. فلو تزكيتها مدفونة فى مقابر الصدقة فسوف أجدنى مساقا الى

دفن قضيتها برمتها وراء حاجز العار وستار النسيان .. وهذا ما لن يكون ، ..

بعدها انغلق الصوت في صدره تماما وآب الى شخير وشخير ، فأمنت عليه وجلست متيقظا فوق المصطبة اقتصد في النباح قدر الامكان ، وأكثر من الحركة والوثب ومعالجة الطوارئ بانقضاض مفاجيء صامت وحممة . الى أن أصبح الصباح وفتح مأمون عينيه ثم تمطع ودخل فغسل وجهه وغير ثيابه وبدأ رغم هزاله في منتهى النظارة والحيوية والشباب . ثم أخذ من الصندوق الكبير قرقوشة مضغها ، ثم أخذ واحدة أخرى وأخرى ومضى يقضم . ثم تذكر فعاد وأخذ ثلاث أخرى ورمى بواحدة تجاهى فنزلت بين فكى . ومضيت أقرقشها وهو يرسل الى بالثانية ثم الثالثة وكانت طرية لدنية لذيفة ، أليست من قمح بنى الازرق الجميل ؟ . ثم مضينا فاخرقنا القرية القديمة الى القرية الأسمنتية الجديدة ثم وقفنا بين جمع تحت ظل جدار عرفت أنه مبنى المدرسة الجديدة . وجاءت عربة الاتوبيس التى ركبناها جميعا الى البندر ..



تقع مدينة البندر على ضفاف فرع كبير من النهر الازرقى العظيم . جميلة محندقة . يسكنها قطب كبير من أقطاب الصوفية . هى على التحديد المدينة التى ضاعت فيها خالته بسيمة في المولد . وأشار لى مأمون الى ميدان الجامع الذى يقام فيه المولد ، والمكان الذى لا تزال تقام فيه السراذقات والسيركات . ثم توجه مأمون الى مبنى كلاسيكى جميل عرفت لأول وهلة انه المكتبة التى يعمل بها ..

دخل من فوره على رجل فى مكتبه منفرد ، فغاب عنده قليلا ثم خرج باسم ، والتقى ببعض زملاء وانتحى بهم جانبا . وكتب وريقات ودار بها فى عدة حجرات بين عديد من الموظفين يؤشرون

عليها ثم اتجه بها الى الصراف فقبض ما أظن انه سلفة شهيرين
أو أكثر ..

ثم اننا عدنا الى نفس القرية ثانية في نفس اليوم ، حيث
قصد « مأمون » الى دار يعرفها ثم اتفق مع رجل يسكنها ودفع له
مبلغا معيناً ، وقصد الى دار أخرى واتفق مع رجل فيها ودفع له
مبلغاً . ثم انه اندفع بعد ذلك الى موقف السيارات فاستقل منها
واحدة الى البندر من جديد حيث ذهب الى مركز الشرطة ، وقدم
عريضة للنيابة يستصدرها تصريحاً له ينقل جثمان خالته الى مقابر
أهلها ارضاء لمشاعرهم التي هاجت وهددت بتفاقم الأمر وما الى ذلك
وأن هذا الأمر يظل عاراً وسبة في أنظار الأسر من القرويين . قرأها
المأمور ونصحها بعدم قلقلة الموتى ، وبعدم فتح المقابر عليهم مرة
أخرى ، وأن الأمر لن يتم بسهولة . فأصر مأمون وهدد بفضيحة
وينقل الجثمان عنوة . فتركه المأمور وشأنه : فلما قرأها رجل
النيابة وافق على الطلب منعا للمشاكل وفضا للمنازعات . ووعد
« مأمون » أن يتم ذلك في هدوء ..

ثم عدنا الى القرية في صبيحة اليوم التالى حيث اتجه « مأمون »
مباشرة الى مقابر القرية . خرمننا فيها طويلاً حتى وصلنا الى مقبرة
عائلتهم فوجدنا الرجل الذى قابلناه من قبل يعمل فى ترميمها
بالأسمنت والجير والطوب ، ويستعد عماله للحفر ، فطمأنه مأمون
بأن كل شيء على ما يرام . ثم اندفع خارج المقابر حيث توجه الى
مسكن الرجل الثانى وأبلغه ان يأخذ عماله ويذهب لا استخراج
الجثمان من المقبرة وحمله الى مقبرة العائلة ، ثم انطلق مأمون جرياً
الى مبنى نقطة الشرطة الخاصة بالقرية حيث قابل معاون وعرض
عليه موافقة النيابة واستصدر منه اذننا بفتح المقبرة تحت اشراف
الشرطة . وخرجنا بصحبة شاويش طويل الشاربين ..

استسمحه « مأمون » فى الطريق عدة مرات حود خلالها على

ناس وسلم عليهم وتكلم بدون مناسبة مجرد اعلامهم بما يحدث .
 وكانوا جميعا يعجبون كيف تمكن هذا الولد الجرىء من فعل هذا
 الشيء الجنونى وكيف سمحوا له بذلك وهكذا . ولهذا فقد كان
 مأمون يمشى فى زهو كبير كأنه يريد أن يتحدى كل أجهزة التصوير
 التى سبق أن صورت الحديث . وكان على الشرطى أن يواصل معه
 السير الى المقبرة ارضاء للضمير على الأقل ، وهو فى الواقع
 سينصرف اذا ما قبضت يده على الورقة المالية أم ربع جنيه ، التى
 امسك مأمون عن دفعها له حتى يصل الى هناك ويراه الناس ويعرفوا
 ان الامر رسمى . مع أول ضربة فأس هرش الشرطى يده وتناهب
 وطلب الاتكال على الله ، فعلى مضى اعطاء مأمون الورقة المالية
 مطبقة فى هيئة سلام . ومضى العمال يفتحون .

ظهر باب الفسقية . فتقدم الحانوتى وانحنى داخلا يتحسس
 مكانه ، ثم اذا به يرتد صائحا فى ذعر : « أعوذ بالله من الشيطان
 الرجيم . . بسم الله الرحمن الرحيم . . لا إله الا الله » . ثم وقف
 بالباب يرتعش من رعدة قوية ، حتى تسمر الجميع حوله ، وتصلب
 مأمون فى قرفصته وداخ وكاد يقع فى الحفرة ، وقالوا جميعا بعد
 برهة طويلة جدا : « ايه . . فيه ايه ؟ » . فقال الحانوتى وهو
 لا يزال يرتجف : « مفيش جثة هنا . . الطربة فاضية خالص » .
 قالوا جميعا : « إزاي ؟ » . قال الحانوتى : « تعالوا شوفوا » .
 وانتقلت الرجة الى مأمون وصار ينتفض باكيا حتى وقع بالفعل
 فى الحفرة . لكنهم ساندوه فتماسك واقفا غارقا فى التراب
 الناعم ، وقد أحس بخنجر ينفذ فى قلبه ، لقد وقع فى خديعة اذن .
 انه لم ير لحظة الدفن ، فهل يكون قد عاش فى وهم ؟ غير انه
 كان لا يزال يتشبث بتشككه فى للحانوتى ، فوقف بباب الفسقية
 يرتجف بل ينتفض ، ويقول : « بتكلم جد ؟ » قال الحانوتى
 ببساطة : « ادخل شوف . . ادخل متخافش » . أهى مؤامرة عليه
 ليدخل المقبرة فيهيلون عليه التراب ؟ أهو قدر أن يدفن حيا
 بجوار جثمان خالته التى تلبسته كأنها لعنة أصابته ؟

وقال الحانوتي : « أرجوك تدخل .. ادخل شوف » . يدخل ؟ كيف ؟ . ثم انه مال ونظر في داخل الفسقية . فشجعه الحانوتي بأن يدخل أمامه وغاب في الفسقية وناداه من الداخل صائحا : « تعال .. تعالوا انتوا يا اخوانا شوفوا » ورقبة مأمون تميل شيئا فشيئا وتندفن داخل الفسقية شيئا فشيئا . ورغم أن عينيه المتأبكل الفراغ الذي فيها الا أنه تشجع دفعة واحدة ودخل محني القامة يبحث في الأرض بيديه فلا يجد أثرا لأى شىء فيها على الاطلاق . فانفجر يبكي بصوت عالى مليء بالنواح والعجز والضغط على الأنياب ..

وقال الحانوتي وهو يدفعه : « لا .. مش هنا .. تعال بنس » . وأخرجه . ثم وقفوا جميعا يتباحثون في هدوء ويطلبون من مأمون أن يكف عن اثاره فضيحة حتى يتمكنوا من معرفة السر . وضاحت به دائرتهم ثم تركوا التراب كما هو تمهيدا لابلاغ الشرطة والمعاينة . وبقي العمال جالسين حائرين في انتظار أن تجيء الشرطة وتأخذ أقوالهم ، ومأمون منهار فوق كومة التراب يبكي وينتفض في صمت ..

واذا به بعد برهة طويلة وفي قمة حيرته وانعدام قدرته على التحرك ، يرى رجلا مقبلا نحوه تبين فيه الرجل المكلف ببناء المقبرة ، وكان صاحب الوجه يلمع في عينيه شىء يشبه الذهول أو الجنون . ثملقى على الجميع نظرة كأنه يخرجهم بها من حيرتهم ولكنها مع ذلك غامضة . وتقسم من مأمون وجلس بجواره ، ثم مال على أذنه وهمس فيها ، وظل يهمس لوقت طويل ، ووجه مأمون يهدأ شيئا فشيئا وأعصابه تنشد ، حتى استطاع أن يقف ويمشى خطواتين ملتقطا أنفاسه . وإذا به يشير الى العمال الواقفين قائلا : « خلاص يا جماعة » وراح يدفع بقدمه التراب : « رجعوا كل حاجة زى ماكانت الى عمله ربنا هو الى كان .. دى حكمته .. الله أعلم بالغيب » . ثم مضى . وراح العمال يهيلون التراب من جديد كما كان . وعلى

مبعدة منهم كان ثمة عمال آخريين يواصلون البناء فى المسجد لا علاقة لهم بأى شىء آخر حولهم ، كان كلا منهم قائما بذاته لم يكتشف الآخر بعد ..

ثم ان مأمون مضى مع الرجل البناء حتى وصلنا الى المقابر وهو صامت لا يقوى على الكلام . حتى اذا وصلا سحبه البناء من ذراعه برفق وميل كتفه ومال معه ونظرا معا على ضوء ولاعة البناء ، فرأينا صندوقا خشبيا مزركشا ملفوفا بالملاء الخضراء ينام مستريحا فى الفسقية ، مع أن مقبرتهم لم تكن قد استقبلت أحدا قبل سنوات بعيدة ، وكان مكتوبا على الصندوق بالبوية الملونة : « الله أكبر .. هذه جثة بسيمة أحمد ربيع زوجة هريدى خليل هريدى » . فامر « مأمون » باغلاق الفسقية والانتهاه من كل شىء على ما يرام .. ودفع كافة التفقات عن طيب خاطر ومضى معتمدا على الله . وكان من فرط الدهشة والانبهار بما حدث يمشى دون أن يرى أحدا . ولو أنه تلفت حواله قليلا لرأى جده « خليل » يختبئ فى منحدر الحلفاء حتى لا يراه أحد . فلما وقعت عيني فى عيني الجد خليل صدفه استرحمنى بنظرة ضارعة ألا أنبع ، فاستجبت لضارعه وهضيت أنا الآخر لا ألوى على شىء ..



وكننت أظن أن « مأمون » سيتخذ طريقه الى المدينة مباشرة بعد انتهائه من هذه المهمة . لكننى فوجئت به يتجه الى بعض البيوت ويتفق مع بعض الناس . وكان المساء قد أقبل حين استأنف « مأمون » جلسته على مصطبة الدار الخارجية ، وبجواره جلس الشيخ ابراهيم الكردى والشيخ مصطفى غلوش يتناوبان قراءة القرآن . فجاء على صوتهما بعض الجيران وجلسوا مع مأمون قليلا لكن أحدا لم يقل له : البقية فى حياتك . وكانت جدته تدخل وتخرج بالشاى والماء دون أن تعرف لماذا يقيم مأمون هذا الحفل القرآنى الصغير . وهكذا ظل مأمون ساهرا حتى الفجر فذهب وصلى فى المسجد جماعة ، وعاد الى الدار فايقظ جدته من غفوة صباحية

قصيرة . ودخل فاحضر سبتا صغيرا وضع فيه بعض الأرغفة وبعض القراقيش . وظننت جدته - كما قد بدا لي - أنه يأخذ بعض الزوادة ليسافر بها ، فقالت باسمه إنها قد اشتاقت لتوصيله بالزوادة مثل زمان ، فقال انها ستقوم بتوصيله أى نعم ولكن الى مكان قريب . .

ظلت جدته العجوز تمشي بجواره حاملة « السبت » والشمس الحمراء تتكسر أشعتها على الأرض والأعشاب . فلما رأت مأمون يحود الى المقابر توقفت مندهشة وقالت : « ايه يا مأمون ؟ » ، فمال على أذنها وصاح مبلغا اياها انه رأى أمه فى المنام زعلانه . وأنها طلبت أن يزورها هو وجدته بالرحمة . فأقبلت العجوز نحو المقابر فى ابتسامة بلهاء وصارت تقرأ وتتمتم . ولما توقفت عند مقبرتهم راحت تتفرس فيها بتشكك ، فطمأنها مأمون انه اكراما لأمه قام بترميم المقبرة . فصارت جدته تلمس على المقبرة بيدين حنونتين وهى بتسمل وتحول بلا توقف . اما هو فقد انتهى من قراءة بعض الآيات وجلس ينادى كل من مر من أمامه ليعطيه رغيفا وبعض قراقيش . .

مكثنا فى المقابل حتى الضحى . ثم عادت الجدة وحدها وسافر مأمون الى البندر حيث مكثنا هناك بضعة أيام حصل مأمون خلالها على اجازته السنوية ، حيث أمضاها كلها فى البندر متنقلا بين مكاتب المحامين المشهورين والمغمورين ، يطرح عليهم قضية شبيهة بقضية خالته بسيمة ويأخذ مشورتهم فيها ، ويشترى كتباً فى القانون يقرأ بعض صفحات منها ويرميها ، ثم يسافر الى عاصمة المحافظة ويحاول أن يخلق لنفسه عملا آخر بين الناس حتى ولو كان جرسونا فى مقهى لبضع أسابيع ، وقد جرب بالفعل ولكنه سئم ، فعاد الى قريته من جديد بعد رحلة مضنية عجفاء ليحتفل بذكرى الأربعين لحالته بسيمة . . وفى الصباح جمع ثيابه وخرج . وكان لابد أن يمر على مشروع المسجد الجديد الذى يقوم العمل فيه . ولقد دهشنا غاية الدهشة ، اذ رأينا أن بعضهم قد استولى على المقبرة اياها وصنع فيها كشكا يبيع بعض البضائع الجاهزة المهربة

من بورسعيد ، وشرائط الكاسيت ، وجهاز لتجريب الشرائط عليه
لا يكف عن الصياح . توقف مأمون أمام المقبرة البوتيك نصبه
الشأى لا يدري أيتسم مشجعا أم يبصق متألما . لكنه تقدم ونظر
فى مجموعة الشرائط المعروضة للبيع فوجد من بينها شرائط لرشا
الحضرى ويوسف الماوردى .

٢

دخلنا العاصمة الازرقية قبل مدخل المساء ببضع ساعات .
كنت من الابتهاج بالعودة الى العاصمة أتراقص وأتباعد عن مأمون
لمسافات طويلة ثم أرتد اليه . فنحن معشر الكلاب من بنى الازرق
تضربنا المدينة قدر ما تضربنا ومع ذلك نبتهج للوهلة الاولى حين
نراها بعد غيبة . .

لاحظت أن مأمون يتابع خطواتى بكل دقة وحساسية ، فاطمان
بأى . واذا دخلنا للشارع العمومى المزدحم توقف مأمون ليمارس
لعبة المهانة باستيقاف عربة آجرة . لكننى صرت أجرى الى بعيد
وأوقف نابجا فى اتجاهه وحده . وكان يظن اننى أوبخ الجميع
بنباحى على هذه الفوضى الهائلة حتى لبساح لكل نذل رخيص
ابن أن يمارس تعذيبه للناس واراقة ماء وجوههم وتهديم
كراماتهم . فلما رأنى مركزا النباح تجاهه بصوت أعلى تصور أننى
أدعوه لمقاطعة أسباب المواصلات اذا كانت على عرجها تكلفه كرامته
وتهدد انسانيته . وكان ينادينى قائلا : « طب بس ماتزعاش
دلوقت ربنا يحلها ونلاقى مواصلة بأى شكل . . ولا عايز تغدر بى
وترجع لوحدك ؟ » . خلاص بطل ازعاج ، وأنا لا أكف عن النباح
تجاهه فى هوة بلهاء مبهمه ترتفع ثم تنخفض ثم ترتفع . فتركنى
وشأنى فى استسلام حذر ، وانصرف لشأنه ويالها من شئون فى
شئون من داخل شئون . . كان الله فى عونك يا مأمون ، انك داخل
شرقة من الهوم تتوقف فيها على محطات لم تكن تريدها وتركب
مواصلات لم تكن تحبها ، ويرمى بك فى بؤرة فتجاهد للخلاص منها

حتى تصل الى المستنقع الذى يليها .. مأساتك هذه يا مأمون أمامك فانظر اليها بدلا من الاستغراق فيها ، نعم فيها أنت ذا قد صرت فى بؤرة مأساتك على وجه الحقيقة ، مأساتك انك ممزق المواصلات : ان رق بك الاحساس أو حدى بك الهوى أو كابذك الشوق الى الوصال فان ذلك مستحيل وأى مستحيل .. ان بينك وبين نفسك فواصل لا حصر لها ، ابتداء من محو فترات كاملة من تاريخ أهلك وماضيك ، وانتهاء بشوارع صاخبة الضجيج والعنف والاستهتار واللامبالاة .. فكيف بك يا مأمون تريد أن تصل الى لب الحقيقة فى قضية ليس فى حوزتك من أوراقها قصاصة واحدة أو معلومة حقيقية واحدة .. كيف تحلم بالوصول الى هذا وأنت عاجز عن الوصول الى مكان ثمة ياويك ؟ .. هذا قد أصبح أمرا محققا .. فان تلتقى حتى بنفسك مع نفسك هذا محال ، انك بالكاد تصير على الدوام مجننا للدفاع عن حياتك ضد مختلف الأخطار الداهية بلا وعى أو تفاهم أو رحمة .. أتريد بعد ذلك يا مأمون أن توصل بين أشلاء لحم قضيتك لتعيد ضمه حتى تدب فيه الحياة من جديد ؟ .. انك تحلم بالمستحيل .. ان أشلاء لحم قضيتك موزعة بين مجموعة عصور وأزمنة مختلفة وأمكنة بعينها وناس بعينها ، بدول قامت ثم دالت وأخرى وثبت ثم ضعفت وغيرها اعتلت ثم ضلت ، فكيف تتعرف على إبرتك وسط كل هذا الركام المترب ؟ .. العجيب العجيب انك غارق فى لحم قضيتك تماما ، بين وثائقه ، لكنك لا تعرف ، لأنك مثل دودة صغيرة نشأت من هذا الركام وظلت تسعى بينه عمياء لا تدري ..

كل هذا كان يتضمنه نبأى أى نعم ، ولكننى كنت أقضد به أن ينزل مأمون عن فكرة سيارة الأجرة بل أن يعدل عن كل مشوار فى دماغه ويأتى معى ، يمضى خلفى أنا حيث أقوده الى ما أشاء أن يعرف عنه شيئا . لكن .. هب .. تحققت المعجزة وتوقفت سيارة فركبناها .

إذا بمأمون يقتادني الى المكان الذي أريد أن أقتاده اليه .
في الواقع لم أكن أتوقع منه هذا . كنت أتوقع أن يبحث عن مكان
ياويه ليبدأ في تدبير أموره ، أما أن يتجه من باب الحديد مباشرة
الى الحي الذي تسكن فيه الست بتعة فهذا مالم يخطر لي على بال ..
كانما هو حيه الذي فيه بيته وأهله .

صرت أجرى أمامه بتودة وأنظر خلفي لاتابعه فأجده يتابع
السير خلفي . ثم اننى حودت في حارة فحود ورائي وكان قد
شرع يحود في غيرها تمويها علي . فما أن صرت في مدخل الجارة
حتى اندفعت أجرى لاهنا من الفرح منجذبا الى رائحة البيت القديم
الذي شهدت بنفسى أيام عزه ، بيت الست بتعه . ثم اننى وقفت
على عتبة البيت وصرت أنبح ، ثم استدرت فوجدت مأمون يقف
ناظرا الى فاغر الفم من الدهشة والذهول . ثم اذا به يقترب مني
وعلى وجهه تعبير منبهر مستضاء بأشياء ومعان لا حصر لها . وبدأ
على ملامحه أنه يقول : « حلو الكلام ده .. شيء مذهل صحيح لكن
دى حلاوته .. بقى انت تعرف البيت ده بالتحديد ؟ .. هيه ..
يارب .. مش معقول .. ده يبقى لفز .. لو اللمحة الى طرأت
على مخي دلوقت تطلع صحيحة أبقى وقعت في أكبر لفز في
حياتي .. أبقى وقعت في أسطورة الكنز .. أبقى في منطق
السينما الازرقية وتمثيلات التليفزيون » ..

ثم بقى مسمرا في مكانه المصلوب ، نبحت فيه كأننى أقول :
« مالك » . فنظر في قائلا : « مائة عام من السينما على هذا النحو
المعروف وما تقدمه من محتويات مشابهة ، يلبيها ثلاثون عاما من
التليفزيون يقوم بانضاجها ونثرها في كافة للبيوت الازرقية حتى
كفورها وعزبها ، كل هذا لابد أن يقيم واقعا على هذا النحو نفسه
في السنوات الأخيرة من القرن العشرين الميلادى واوائل الخماس
عشر الهجرى .. لن استغرب شيئا في هذا .. سأصدق أى بادرة
وأى لمحة يشي بها الواقع حتى ينقضها واقع جديد ولا أقول

يحتويها ٠٠ ان ما اراه على شاشة السينما عبر شاشة التليفزيون في أى مكان وأرفضه بشدة وأسخر منه مرير السخرية ٠٠ أفاجأ بأنه ليس فقط واقعا في الشوارع الأزرقى والحياة الازرقية بل هو واقعى أنا شخصيا ؟ ٠٠ انه لشيء عجيب حقا ٠٠ أواقع تنقله تمثيلات وأفلام ميلودرامية سمجة ؟ أم تمثيلات وأفلام ميلودرامية سمجة قد أنشأت ورسخت واقعا ميلودراميا سخيفا سمجا ؟ ٠٠ ليكن ٠٠ لابد أن يكون عقلى مرنا كالواقع ، ميلودراميا كالواقع ، وربما سمجا وسخيفا أيضا كالواقع ، ٠٠

ولما رايت « مأمون » بهم بالمضى سبقتة جريا على السلم الذى طالما قفزت عليه ونمت فوق بلاطه وشمشمت فى صفائح زبالته . السلم هو نفسه والرائحة هى نفسها وكل شيء هاهنا لا يزال هو نفسه ، الا رائحة الست بتة ، ولهذا فعند باب شقتها وقفت أخمش بابه بأظافرى وأعوى . ويعلو صوت بكائى ونواحى على نباحى . ثم ان الذكرى كانت تتسرب الى خياشيمى شيئا فشيئا فيصيبنى الهياج شوقا الى الماضى الجميل ، وأحاول تذكير الذكريات بنفسى ، وبما كنا نفعله من حركات فرحة مرحة على هذه الدرجات فى سنى الازدهار حيث كل يوم فراخ ورومى وبط وماعز فى شقة سيدتى بتة وزوجها كحكوح ٠٠ لم يكونوا يستخدمون الثلاجة فى مسألة اللحوم هذه . كله صابيح بصابع وطازة ، ما كان أحلاها من أيام . انها الفترة الوحيدة التى عرفت فيها فى حياتى معنى التعفف لكثرة الفيض ، الآن لا أحد يريد أن يفتح لى ، بل ان كلابا من أجيال جديدة كادت تستغربنى فى الطريق على السلم ، لكننى أخذتهم فى عشرة أونطة واحتويتهم بحركاتى العجوزة وأفهمتهم أن الضيف هم لا أنا ، ما أذكاهم وأشقاهم ، ذكاء دود الأزقة ، يسألوننى مظهرى لا يهامى بأن للدار لم يعد فيها خير يستاهل القتال وخسران الود ، صحيح أن جو البيت كله قد أصبح يخلو تماما من رائحة اللحوم والمقليات والمشويات ، وصفائح الزبالة قد تغير محتواها

وصار أوراقا نظيفة مكورة ועلبا فارغة بدون نكهة ، لكنه لايرال فى نظرى عامرا بالذكریات الحلوة ، انهم أغبياء سذج ، فما أبحث عنه هو زادى الحقيقى ، هو ذكرياتى هاهنا ، ولحظات الكرم التى عشتها ، حتى ان لم أجدها فان كرمها الباقى بداخل سوف يقوم بالواجب ..

نسيت « مامون » طوال هذه البرهة .. طالما تذكرته بحثت عن رائحته التى تاهت بين روائح حشد من الذكريات .. فوجدته قد واصل صعود السلم نحو شقة صديقه « طارق » وقد وقف فى منتصف الدرج يتابعنى فى تأمل ذاهل وقد غاب من ذهنه عن كل وعى . نبحت فى تنبيهه . فنظر الى ، ثم نادانى بإشارة فقفزت نحوه وواصل صعوده حتى شقة صديقه طارق . طرق بابها فى رقة مرتين ، ثم هبط ثانية عدة درجات ، وانتظر . انفتح الباب وأطلت منه الأم قائلة : « أهلا يابنى فينك من زمان » . فقال مامون : « طارق موجود ؟ » . قالت : « حظك حلو كان بيلبس ونازل .. كلم ياتارق صاحبك الأستاذ مامون » . فأخذت أصيح بقوة ابتهاجى كأننى أصبح به قائلا : « ها - طارق ياويكا » . وجاء صوت طارق الذى أعرفه جيدا : « مامون ؟ مش معقول » . فصرت أهو هو . فقالت الأم وطارق معا فى نفس واحد : « غريبة .. الكلب أهه » . وأضافت الأم : « كلبها القديم .. يا حرام .. ايه الى رجعت الساعة دى .. حكمتك يارب » . وكان طارق يكمل ارتداء القميص حين خطا متخرجاً خارج الباب مصفقا بالسلام على مامون فى نصف ترحيب لكنه على النبرة : « ده كلام ؟ .. نسيتنا خالص ؟ » . وجذب مامون فدخل معه فقفزت خلفه تلقائيا ودخلت . نفس الشقة المطابقة لشقة سيدتى ، ونفس الجو ونفس الناس ..

وقفوا ثلاثتهم ذاهلين حولى : الأم وابنها ومامون ، وعلى وجوههم نفس التعبير ، نفس الشعور بشئ خارج شارخ قد حدث . قالت الأم مصفقة بكفيها فى عجب : « هو كلبها .. حاتوه عنه ؟ .. ياترى

كنت فين وهي غاييه ؟ » وقال طارق وهو يفكر في عمق شرير :
 « الكلب ده بقى له حوالى شهر غايب .. اشمعنى مييجيش الا
 النهارده ؟ .. ويبقى أكيد كان معاها يوم بيوم » . ونظر الى مأمون :
 « انت قابلت الكلب ده فين ؟ » . أحس مأمون أنه وقع في ورطة ،
 قال بكل اهتمام وبراءة : « انتوا تعرفوا الكلب ده قبل كده ؟ » .
 قالت الأم في استنكار متراجمة بذقتها : « اييه .. كله الا ده ..
 دا الكلب ده بالذات عشرة عمر » . وقال طارق في شقاوة خطيرة :
 « تعرفه انت كمان يا مأمون ؟ » . قال مأمون : « هو كلب مين
 بالضبط ؟ » . صاح طارق بشيء من الخشونة : « تعرفه قبيل
 كده ؟ » قال مأمون في حاجة أحزنتنى : « الحقيقة هو كلب لطيف
 قوى .. بصيت في يوم لقيته جنبى فى البلد » . صاحت الأم وابنها
 فى اهتمام شديد : « بلدكم ؟ » . قال مأمون : « ايوه » . غابيت
 الأم فى شرود طيب ، وشوح طارق بيده حول فمه مرددا : « الله ؟ » ،
 ثم لمعت فى عينيه شقاوة ذكية ، قال : « بس .. بس .. بس ..
 يبقى هو ولف عليك يوم ماكنت بتيجى عندنا .. حاكم الكلاب دى
 عشرية قوى .. ومشى أى واحد تحبه أو ترمى نفسها عليه .. لا ..
 الى تستطيه بس .. الى تحب ريحته .. شوف انت بقى الى راح
 وراك البلد من غير ما تشعر .. كلب أصيل والله .. شوفى له
 حاجة ياكلها يامه » . وسحب مأمون الى غرفته قائلا : « دا ياسيدى
 كلب المرحومة » ..

قال « مأمون مصعوقا » مرحومة مين ؟ » ..

قال طارق فى تأثر شديد جدا : « ست بتعة » ..

صاح مأمون : « ماتت ؟ » ..

ثم كاد يبكى ، فبكى طارق بدلا منه وقال : « نعم .. ماتت

فى المعتقل .. ماتت المسكينة بالسكتة القلبية » ..

وشهق مأمون قائلا : « لا حول ولا قوة الا بالله .. الله

الله يرحمها » ..

فقال طارق وهو يعدل ثيابه : « تصور .. اتضح انها كانت مسكينة .. معندهاش أى حاجة .. كل حاجة كانت متباعة لشركات استثمارية أجنبية .. رصيدها فى البنك لقوه صفر .. للنهاردة الحبر وصل مع ان جبتها لسه ما اندفنتش .. راح فين ماتعرفش .. الله أعلم .. بيقولوا كان عليها حجوزات قديمة .. وديون قديمة .. والحكومة صادرت الى صادرة .. وهى كمان الله يرحمها كانت ايدها فرطه ، كانت بتصرف من غير حساب .. كل الى سابته حاجات بسيطة ما تذكرش بالنسبة لثروتها .. آنت للمخفى كحكوح .. بما فيها العربية المرسيدس والشقة ومحل آثار صغير وشقة ثانية صغيرة .. كل ده ورثه كحكوح خلاص ، .. »

غرق « مامون » فى ذهول . ثم صاح فجاءه : « الكلب ده .. كلب الست بتة ؟ » . قال طارق مؤكدا : « أى نعم .. داحنا متربين سوا هنا » . وراح مامون ينظر فى ملامحي مدققا لعلنى اكون قد تغيرت فى الطريق بكلب آخر . وكانت الدنيا تلور فى عينيه ، وصوت فى صدره يهدر : « مش ممكن .. دى معقولة .. ودى معقولة .. يكون كلب خالتي بسيمة .. وكلب الست بتة .. دى جايزه ودى جايزه .. لو كلب الست بتة يبقى صحيح ولف على وسافر ورايا البلد مرة من غير ما أشعر .. مع ان ده صعب .. لكن الأصعب منه أن يكون كلب خالتي بسيمة » ..

ورفع مامون صوته يسأل : « وأين ستدفن جثة الست بتة ؟ » . قال طارق : « فى مقبرتها ها هنا .. لقد كانت المرحومة تقيم المقابر للناس على نفقتها وكان حريا بها أن تبني لنفسها واحدة .. كانت المرحومة مشغولة البال دائما بمسألة دفنها وخرجتها .. وتحدث عنها كثيرا ، .. »

وصاح مامون : « متى ستشيع جنازتها ؟ » .. »

صاح طارق بنفس الحماس : « ولكن كيف جاء الكلب هذه

اللحظة بالذات ؟ ألم يكن معك في البلد ؟ يعنى جاء معك .. فهل تكون الأقدار قد دفعته الى المجيء ليودع صاحبته الوداع الأخير ؟ .. ام أن صلة خفية بين الأرواح وبعضها سيان في الكلاب أو في البشر وأنها لا تنقطع حتى على البعد ؟ .. هذا جائز وهذا جائز .. لكنه لشيء جميل بالفعل أن يتواجد ذكر الست بتعة وتعم الحي راثحتها وسيرتها فيكتمل كل شيء حتى بكلبها الغائب عنها .. انها لسيدة طيبة بكل تأكيد » . ثم هز كتفيه كأنه ليس مقتنعا تماما بما قال ..

ثم ان طارق لبس السترة فصار أفنديا مسمسما محبوبك المظهر يدعو للاحترام وقال مأمون : « تحب أن تحضر الجنائز بالطبع » . قال مأمون : « بكل تأكيد » . ونهض متقدما وراء طارق ..

نزلت أجرى في المقدمة حتى عتبة الباب ، حيث تركت القيادة لطارق الذى حود بنا في الحارة الجانبية الخلفية فاذا هي على اتساعها قد سدت من آخرها وتحولت الى سرادق ممثلي بالكراسي في صفوف متراصة ، وثمة فراشين يدورون بالقهوة المرفوضة مقدما ، ورجال في زى محترم يقفون في المدخل لتلقى العزاء كلما أقبل أحد ، وفقهه يقرأ . تقدم « طارق » ودخل فسلم على الجميع وفعل مأمون مثله ثم جلسا معا في عمق السرادق صامتين ولجيمين . فلما اطمانت ارتددت عائدا الى البيت من جديد اتفافز في ضيق مزاج ، اذ بدأت رائحة كجكوح تنفذ الى خياشيمي بزخمها المقرز المريب . مع ذلك ما أن لمحته يدخل الشقة حتى قفزت نحوه وداعبته فلم يعبا بي ، وكان باب الشقة قد انفتح واندفعت منه تلال من السواد الرادح بالصوت الجياني متفجعا : « يا دهوتى .. ي .. ماكانش يومك يا اختى .. يا حبة عيني .. ي .. يامؤمنة ومصلية .. يافاتحة بيوت يتامي ياست بتعة .. يا أميرة » . وثمة صبيات وولدان يتباكون ويمسكون المناديل ويرددون عبارات الترحم على الست بتعة . ثم اذا بالضجة ترتفع فجأة الى أعلى درجة ، يعقبها خروج أربع رجال يحملون جسدا

متخشباً ملفوفاً بكوفرتة خضراء ويمشون به على حذر ، وفي جلال مهيب نزلوا به الدرجات ثم تقدموا الى خشبة النعش فوضوه فيها وطرحوا على النعش ملأة كبيرة طوقته وربطوها من جميع الجهات . ثم تقدم الرجال فحملوا النعش ووضوا به . ثم توقفوا عند السرادق برهة حيث تجمع الرجال وأدوا الصلاة على النعش . ثم استأنفوا حمله من جديد ووضوا ، فمضينا خلفهم جميعاً في صفوف متحاذية متخاشعة متزاحمة . .

سرنا على هذا النحو حتى وصلنا الشارع العمومي فاخترقناه وبعد مسيرة طويلة بين مرتفعات جبلية مخيفة أشرقنا على القرافة التي تحفل ببيوت ومدائن وقباب ثمينة . اخترق موكب الجنائز هذه المقابر فوصل الى مقبرة أنيقة جداً عبارة عن بيت مدهون بالزيت باللوان اردوازية كابية ، مكون من غرفتين يفصل بينهما حوش كبير مليء بالأشجار العتيقة . حجرة فيها الأرائك والكراسي وحجرة فيها الدفن . تراجع الجميع كثيراً . وجلسوا متناثرين هنا وهناك . أما كحكوح وصحابه وبعض النساء فقد جلسوا في الحجرة . وكنت واقفاً في الحوش أرقبهم . وكانت حجرة الدفن قد تجهزت وتم فحت الأرض . كذلك جاء الطربي وأخذ تصريح الدفن . ثم ان الجشنة دخلت أمام الجميع الى مثواها الأخير وتم الردم عليها ثم خرج كحكوح وسلم على البعض ، وبدأ الجميع في الانصراف ، وسمعت طارق يقول للمأمون : « متخافش على ركس حيرجع لوحده » .

لم يبق من الجميع سوى كحكوح وسيدتين وبعض الشبان من حاملي المطاوى والناضورجية الذين أعرف شخصياتهم . ودخل كحكوح الى الحوش واقترب مني وأعاد النظر في ذاхла ، ثم هم يرفع رجله ليضربني بها في مؤخرتي ، لكنه تراجع وتركني في حالي ثم دخل الى حجرة الدفن فتسللت وراءه ، فرأيت يلف حول المقبرة ويتوقف خلفها في شيء كالتلصص ، ثم يتقرفص ويرفع عن الأرض بلاطتين متجاورتين ، فاذا تحتها فجوة عميقة مظلمة . نظر

خلالها مشعلا ولاعته ، ثم زام ، ودمدم بصوت خفيض مسلولخ
يائس : « برضه معنديش ثقة فيكم ياولاد لازم أشوف
واتأكد بنفسى » . ثم رفع أربع بلاطات أخرى فاذا تحتها أرض ،
فمد أصبعه ونزع بظفره طرف هذه الأرض فاذا هى مربع من الحديد
الصلب أخذ شكل الأرض ، ما أن ارتفع حتى ظهر تحتة فجوة
كمحطات التقوية الكهربائية فى شوارع العاصمة ، ثم اذا بكحكوح
يهبط فيها نازل بل ويمشى فى الغيب دلخلها . فجئت أنا ألتصص
ومدبت بوزى برقبتي كلها فى الفجوة الكبيرة فرأيتها سردابا ينتهى
بعد أمتار طويلة بشكل فسقية دفن . ورأيت كحكوح يفك عن الجثمان
الملاء الخضراء فاذا هى ليست تضم جثماننا ، بل تضم تابوتا على شكل
قائمة الجسم البشرى ، رفع غطاءه المستطيل فاذا بطرب الحشيش
مرتصة بجوار بعضها فى ترتيب دقيق . صار يعدها فوق السطح
طولا وعرضا ثم بالعمق ثم يجمع ويضرب وي طرح ويشرد مفكرا .
فيفاجأ برأس مدلاة من الفجوة فينفزع صائحا فى حقد : « امشى
داهيه تخرب بيتك .. انت ايه الى جابك دلوقت .. ماتروح فى
داهية بعيد عننا . اخنا ناقصينك ؟ » فرفعت بوزى عن الفجوة ،
واستدرت أهوه فى فروغ بال خوفا من انفجار شرايين مخي .

باب السلطنة

★ من دخل غرزة كحكوج فهو آمن !

فى اليوم التالى مباشرة لم يطق مأمون صبرا • كان قد أهضى الليل كله فى صحبة صديقه « طارق » • وكنت قد لحقت بهما آخر الليل حينما عاد كحكوج الى السراىق لينهى سردقته بربع أخير من القرآن ، بينما يتحاسب مع بعض القائمين بالأمر ، وسلم على الجميع وطيب خاطر الجميع ، وسلم على « طارق » • وأراد أن يحتويه كما كانت المرحومة تحتويه ، فقال له : « رايح فين ؟ » • فنظر طارق الى مأمون قائلا : « معايا واحد صاحبى ضيف عندى » • فقام كحكوج بصوت كظيم هفتان : « ه • • • م • • • طب اسبقونى على القهوة • • • خلى دى معاك » وغمز طارق بقطعة حشيش صغيرة كبيرة ، طواها طارق فى كفه وجذب مأمون فى شئ من الابتهاج

قائلا : « شوف بقى .. انت لازم تخرج من الحالة دى .. تعالى
نغرفش بقى بقية الليل .. انت معزوم على حسابى » ..

لم يعتذر مأمون ، فأسلس قياده لطارق ، الذى مضى به فى
نفس الطريق الذى أعرفه ، حيث لا تزال غرزة صاحبه كحكوح
قائمة فى مكانها نفسه . سمعت طارق يقول لمأمون ان هذه الغرزة
هى الشيء الوحيد الباقي من ممتلكات كحكوح . وكان قد باعه عدة
مرات فلا يستطيع المشتري وضع يده أبدا فيلجأ الى عشرات المحاولات
الودية والقضائية فلا يفلح لأنه يتوه فى مغارة من الأوراق وتعدد
المستوليات وعدم وضوح الملكية الحقيقية وما الى ذلك من مشاكل
يعرفها كحكوح ويسلطها عليهم حتى يفقدوا الأمل فيطلبون التنازل
عن الشراء ولو نقصت نقودهم النصف ، والواقع ان نقودهم تنقص
كلها اذ تضيق عليهم ولا يعرفون كيفية التصرف معه .. لكنها
الآن - الغرزة - قد استقرت بين يديه وقام بكل جراءة فانفق عليها
حوالى ثلاثين أو أربعين ألف باكو ..

فانطلقت أجرى تجاهها . فاذا بى اكتشف اننى لم أكن قد
جئت الى هذا المكان منذ نقيمت على صاحبه الاصلى كحكوح وانتميت
الى سيدتى وسيلة ثم الى سيدتى بتعة . فهل حدث كل هذا التغيير
فى هذه الفترة البسيطة ؟ أهى شرعة الشركات الاستثمارية ؟ أم
هى قدرة رأس المال الأجنبي ؟ ..

وقال طارق :

- « لقد بيعت المنطقة كلها لشركة استثمارية قررت ان تبنيها
ناطحات سحاب .. وتم تسريح أهلها جميعا بالقوة الى أماكن فى
منشآت جديدة من تلك التى يسمونها الايواء .. الا كحكوح ..
لا تدري هل صدفة أم بتدبير ، حسن حظ أم قوة نفوذ .. ولكن
الجميع سرحوا الا كحكوح ظل محتفظا بفرزته .. وهى بالطبع
ليست مدونة فى أى أوراق رسمية كفرزة .. انما هى مجرد ربوة

عالية تأخذ الطابع الأثري العتيق .. يقول كحكوح متفخرا إنه أقنع الشركة أن تبقى على هذه الربوة كمظهر سياحي ، فالكلورى ، آمال يا سيد .. وهكذا ساق الهبل على الشيطنة ، فكان يقيم شعارا من المشمع والكتان حول كراسيه وترابيزاته ليحجب العملية كلها عن الأنظار بعد أن هدمت المباني القديمة كلها من حولها ، وبقيت هى فى الهواء الطلق مكشوفة لكل العابرين .. ما رأيك يا مامون فى أنها تحولت الى شئ ساحر .. حتى الذين ينثرون على وجودها ، حتى المنوطين بمهمة ازالتها رسميا بالقوة حين يجسئون فيها يرون ان التفریط فيها خطر كبير ، وانها قاعدة تمنح الهدوء والسكينة بهواء خرافى رطب .. كحكوح يا مأمون يا أخى ليس وحده النصاب المحتال .. بل ان الشركة الكبرى نفسها نصصابة مثله وأكثر احتيالا .. ولكن على من ؟ على كحكوح ؟ ياخى ددهه .. لقد نصبت الشركة على الدولة واتضح ان المدينة السكينة المزعومة - التى أخليت من أجلها المنطقة - لم تكن سوى مشروع فندق كبير جدا فى قلب العاصمة يتمتع بمزايا عديدة تتيح زوارا بسيارات لا حصر لها . ومجموعة المباني التى أقيمت حول الفندق السياحي الكبير ان هى الا محلات على طراز معين تخدم الفندق وزواره ، وتؤجرها الشركة للمواطنين الذين يفرض عليهم نوع المحل وبضائعه ونظام البيع فيه ، أى أن الشركة تستأجر لمحاتها عمالا من الازارقة الغلابة يدفعون ثمن بنائها وهم فى الحق لا يملكون .. كحكوح سيدهم فى هذا المضمار .. كان الفندق يبنى أمام غرخته مباشرة ، فشرع هو الآخر يبنى .. كان مشهدا طريفا جدا يا مأمون .. الفندق بكل حاله وهيلمانه فى جانب .. وكحكوح بربوته العالية فى جانب آخر .. طريقة المباني سابقة التجهيز سرعان ما رفعت القوام وركبت الجدران .. كحكوح هو الآخر ما أسرع ما أقام مبنى صغير من دور واحد ، وأحاطه بحديقة غناء فعلا .. وضع للربوة مطالع مسفلته فى عدة اتجاهات .. وأنت تجيء من أى ناحية فتصعد على راحتك هكذا وتدخل فاذا بك فى كازينو غارق فى غاية

ناشئة من الأشجار والأزهار والورود .. يقوم على تشغيله بضعة ولدان في غير صخب ولا ضجيج ، اذ هم يقدمون لك البيرة المثلجة والجيلاتى والشاى والقهوة ، وأطباق الاسكالوب والبوفتيك والدجاج المشوى والكباب .. المكان ذو وضع خاص لا يؤمه العائلات الازرقية ، لكن لا بأس من خواجية سائحة ولا بأس من شبان ازارقة يصطحبون بعض الفتيات .. ولذا فلا زحام ، اذ أن الأسعار هنا سياحية فوق السياحية بأضعاف مضاعفة .. انك تحتجز نفسك - وأنت فى قلب العاصمة - فى غابة حقيقية تفصلك عن الوجود كله وتوهمك بالتوحد فى الحياة .. وان دخلت وجلست فانك تجد اعدادا كبيرة من للشبان ذوى المزاج الخاص يتخذون طريقهم عبر سرداب ضيق يقف عليه فتوة حيث ينفذون من باب سحرى الى حيث يختفون تماما .. من هذا السرداب سندخل يامامون .. لا شأن لنا بالكازينو طبعاً .. أم انك تحب الجلوس فيه قليلا ؟ .. رأى أن ندخل على الشرب فوراً ، الى الغرزة ، فقد خرب دماغى من كثرة البكاء » .

وهكذا فان طارق - اقتادنا الى البناية من الخلف . فتجاوزنا مدخل الكازينو ودخلنا من باب العمال ، الذين تعرفوا على طارق فتركوه . وبينما نحن نسير عبر السرداب الضيق الذى بنى بالقيشاني قال طارق :

« كل من يدخلون هاهنا معروفون لهم بحكم التقادم والخبرة .. هكذا يسمحون لهم » .

هذه اذن هي القعدة الداخلية السرية ؟ . وجدت كأننى دخلت دائرة أنيقة مبنية من الرخام . تتوسطها دائرة رخامية مزروعة بالزهور والورود وبها نافورة ثمة كراسى خيزران وترايبيزات رخامية بحوامل حديدية ، ومنصة فى ركن بعيد عليها أكوام وأكوام من حجارة الجوزة والقطع الخشبية ذات المسامير . خلفها أولاد يقومون

بتحصيتها وتسهيلها • ولأننا أصحاب مطرح فقد أهملونا قليلا •
أما الذين كانوا يدخلون من الزبائن فكان الولد يلحق بهم فيطلب
السزبون منه قائلا : « نص قرش » ، أو : « قرش » ، أو « ربع
أوقية » • ويجب طلبه في الحال • أما ان طلب أقة فما أكثر يأكل
من ورائها عيشا فعليه بانتظار المعلم كحكوح في لحظة مناسبة ••

وجاء الولد بالمعسل وشرع « طارق » يوقع بامضاء للحشيش
على الحجارة وبدأنا نشرب ، أقصد أنهما يشربان وأنا أشم الدخان
فأبتهج مثلهما • ثم أن القعدة كلها سرعان ما امتلأت عن آخرها
بمجموعة من شلل صار من الواضح انهم جميعا يعوفون بعضهم ،
وانهم زبائن دائمون يجتمعون هاهنا كثيرا في الهزيع الاخير من
الليل • وأربع ولدان بالجوزة يسهرون على السقيا والمجاميع تبادل
التعليقات الساخرة اللاسعة ، والضحكات العالية ترتفع الى عنان
جدران الفندق السياحي الكبير الذي يطل مباشرة على قعدتهم
الصيفية الشتوية الساحرة ذات الأضواء الخافتة والتليفزيون الملون
يعرض شرائط الفيديو المتنوعة ••

لم تمض أكثر من ساعة حتى كان مأمون قد عرفهم جميعا عبر
التماسي المتبادلة والتعارف السريع ، وعبر طارق والولد الذي يسقى
هم نجوم القعدة اللامعين الذين من الواضح أنهم مصدر الانفاق على
المجاميع بسخاء ، كانوا هكذا على الترتيب لابتداء من الترابيزة
المجاورة لترابيزة طارق ومأمون : ولد أزرقى ابن حرام يعمل مرشدا
سياحيا بدون مؤهلات وقد تصيد جماعة من السياح اليهود وجاء
يحشش على حسابهم ويأخذ تموينه •• نجم الترابيزة الثانية رجل
شكله شكل بواب وطبعه وحواره ولهجته في الحديث لا تدل اطلاقا
عن هذا النمط ، لكنك تشعر بأهميته حين تعلم انه تاجر عملة
ولديه كشك صغير ولديه حظيرة مواشي حلابة وهو الى ذلك بواب
بالفعل في إحدى العمارات الكبيرة التي يضع كشكه على بابها ••
نجم الترابيزة الثالثة الولد « توتو » ، يعمل مع أحد أمراء الجزيرة

العربية ، اما ما نوع العمل وتفاصيله فليس من حقك أن تعرفه ،
انما لأنك مش غريب فانه شبه وكيل للامير فى البلاد الازرقية يقوم
بتخليص خدمات له ومصالح ومهام ، وهو يصرف عن سعة باذخة
جدا جدا .. نجم الترابيزة الرابعة رجل تاجر خرده لديه عمارات
سكنية .. الخ ..

فى طلعة الصبح سأل مأمون : لماذا لم يأت كحكوح كما
وعد ؟ • فأخبره طارق بأنه ليس من المهم أن يعود وانه حسنا
ما فعل ، أحيانا يحلو له أن ينكد على الساهرين بدون أى سبب
الا ارضاء لمزاجه الشيطاني • ثم أشار طارق الى لافتة مكتوبة على
رأس السرداب بالبلاط القيشاني الملون ، قرأها مأمون فاذا هى :
(من دخل غرزة كحكوح فهو آمن) • فضحك مأمون حتى دمعت
عيناه • وقال طارق :

— « مع هذه اللافتة الواثقة من نفسها .. فانه كثيرا
ما يصيح : يلا يا أفندى انت وهو أحسن الجو مش كويس ..
الحكومة بتمر .. فيقول له أحدهم : وهذه اللافتة أين سرها ؟
فيشوح قائلا : واحنا برضه يكون عندنا نظر .. العجيب انه
لا أحد يجرو على دخول هذا المكان الا برغبة كحكوح ورضائه ، ..

وقال مأمون :

— « شئ فى منتهى الجنون .. مجتمع كحكوح ، ..
وكان الاسى قد عاد يغلف وجهه حين شرع ينزل عن الربوة
مع صديقه طارق ..

وقال مأمون :

— « عايزين نشترى الجرايد ،

فقال طارق :

- « ونفطر فول وطعمية » ..

فقال مأمون :

- « وأخذ بعضى وأسافر » ..

ومضيا معا فى اتجاه المشهد الازرقى .

مأمون لا يطبق الصفحات الأولى فى جرائد بنى الازرق القومية .. لكن طارق يقرأها . وإذا به يطبق على الجرنال فى دهشة كبيرة ويصيح جاحظ العينين :

- « ايه .. معقولة ؟ .. مش ممكن .. يا نهار اسود ؟ » .

قال مأمون فزعا :

- « الحرب قامت ؟ » ..

فعرض عليه الجرنال ذاهلا يشير الى خبر كبير فى الصفحة الأولى حول صورة لسيف الماوردى . انعقد جبين مأمون وتحول الى جمرة ملتهبة بمجرد وقوع بصره على المانشئات الكبيرة التى تقول :

(القبض على سيف الماوردى فى جريمة غامضة) .

(سيف الماوردى متهم بقتل زوجته الفلاحة بسيمة أحمد ربيع) .

(سيف الماوردى ليس اسمه سيف ولا مواردى .. بل اسمه هريدى خليل هريدى) .

(المتهم يدبر للجريمة تدبيرا محكما يكشف عن شخصية مجرم أصيل متأصل) .

ثم ان مأمون لم يشأ قراءة الموضوع . بل طوى الجرنال فى شعور شديد بالتقزز والقرف واليأس . ونهض متوترا يرتعش من

الغضب المكتوم والقهر والذهول والمفاجأة • وودع طارق على عجل •
ونظر خلفه فعرفت انه يطلبني فاندفعت وراءه أجرى ..

أتاح لنا الصباح المبكر سيارة أقلتنا الى شقة سيف الماوردى •
وانفتح بابها عن الست وسيلة بوجه ملفوف بالطرحة السوداء •
ولكنه بارز القوة والتصميم والشجاعة • قالت باسمه فى حزن :
« اتفضل » • فدخلنا • وقال مأمون : « منذ متى قبض على خالى
سيف ؟ - ثم استدرك فى فزع - الأستاذ سيف أقصد ؟ » •
فثقبته بنظرة ذات معنى كأنها كشفت أحد أسرارهِ الكامنة • ثم
جلست قائلة : « منذ بضعة أيام .. ولم أتمكن من الاتصال به ..
لكننى سوف أتصل به .. لن تستطيع جدران أو قوة أن تمنعنى
عنه » • وقال مأمون فى حذر : « هل علمت شيئاً عن زوجته هذه
المزعومة ؟ » • قالت وسيلة : « لقد لفقوها له .. نعم لفقوها له » •
قال مأمون : « ألم يحك لك شيئاً عن زوجة سابقة فى حياته ؟ » •
قالت : « لا .. لم يحدثنى عن شئ » • وهى قصة من اختراعهم ..

ثم حط عليهما صمت عميق مؤسف مؤلم ، قطعه مأمون
بنشيج حاد • ثم مضى وأبدى الرغبة فى الانصراف • لكنها احتوته
فى حضنها وقبلت رأسه • فاستسلم لها • فقالت : « عايز تقول
حاجة ؟ أنا حاسة انك عايز تتكلم » • قال مأمون فى ضعف حقيقى :
« نعم .. عايز أتكلم .. عايز واحد صديق يحبنى وأحبه عشان
أفرغ اللى فى قلبى كله قدامه » • فربتت على ظهره قائلة : « أنا
يا حبيبى .. أنا صديقك الوحيد .. خليك معايه .. أنا برضه
عايز أتكلم معاك .. اعتبرنى والدتك .. اسمع .. تعالى ننزل
سوا .. نتمشى .. نشم هوا .. نتفصح » • فمضى مأمون وراءها
كطفلها الصغير • وكان يحس كأنه يمشى بجوار فتاته التى داعبت
أحلامه وخياله ، فكان ينتفض من الفرح • وكان السياح يملكون
شوارع العاصمة ويحتلون كل أماكنها ومراقفها ، فاختارت وسيلة
أن يكون مشيهم بين شعاب الجبل • وكان الجو جميلاً حقاً والهدوء

سائده • وكان مأمون قد بدأ يحكى لها - وبكل صراحة وصفاء - عن حالته بسيمة وخاله هريدى • • وهى تستمع اليه بكل دقة • • وكان من حقى عند هذه اللحظة أن أشعر بغاية الاطمئنان ، ولكننى كنت قد بدأت أشعر من جديد بالحنق والغضب • فمبدئيا ، أو من أن اجتماع مأمون بالست وسيلة هو البداية الصحيحة المبشرة بتجميع خيوط القضية كلها ، وعلى يديهما معا قد تتجمع أشلاء المأساة • • ولكن المؤكد أن ذلك سيستغرق وقتا ربما يطول ويطول • بل وربما أدى تراكم الأسرار فى الصدور الى مزيد من الأسرار كما يحدث دائما فى تاريخ بنى الأزرق بوجه عام • •

وكان بإمكانى - لو لم اكن كلبا - أن أختصر عليهما كل الوقت والجهد وأحكى لهما التفاصيل التى تتجمع بناء عليها خيوط القضية وأشلاء المأساة • لكننى مع الأسف كلب نشأت لا أملك القدرة على القول حتى وإن تعلمتها ، ولا أجرؤ على التصريح بشئ حتى وإن عرفت الكثير ، ولا على البوح وإن أمرت به • فى اعتقادى ان الكثيرين غيرى قد رأوا هذه التفاصيل نفسها ألوا بها وبكل شئ • • فمن كان منكم يعرفها ولا يكشف له عنها فانه يكون كلبا مثل • • أما أنا فلم أعد قادرا على ممارسة هذه المشاعر الضاربة فى نخاعى ، لم أعد أطيق القدرة على الاختزان • وهذا هو السر فى أن مأمون والست وسيلة أصبحا فى اليوم التالى فلم يجدهانى • أشعر انهما سيحسان بكثير من الأسف لفقدى • ولكننى أشعر ان مأمون سيحدثها كثيرا عني ، وستحدثه كثيرا عني ، وستتصل الخواطر وتلمع الأفكار • • وستنتفتح كل أبواب هذه التفرية المدهشة على بعضها ، وتصبح مكشوفة لهما وللجميع ان عاجلا أو آجلا • • ولكننى من نفس هذه الابواب قد ودعتهم فى الفجر وانطلقت الى حيث يشدنى شوق عارم لمكان ما ورائحة ما • • فما ان وصلته حتى تبينت انه تلك الربوة المرتفعة التى لا زلت أذكرها فى طفولتى

يوم انضربت فوقها أمي بالنبوت وهوت الى قاع المستنقع . الملىء
بالحلفاء . ها انذا أجرى وأجرى فوق القمة نفسها ثم انداح فى
المنحدر . هاويا الى قاع المستنقع نفس المستنقع . لست متحققا مما
اذا كنت مندفعاً باشعاع أمي حيث ذابت هنا ذات عام بعيد ، أم
اننى وجدت رائحة المستنقع أقل كثافة من مستنقع الحياة بين بنى
الأزرق الملايعب ، ولدرجة الجذب ؟ .. أغلب الظن انه كذلك .

ختم .

(المعادى - ١٩٨٠)

فهرس

٥	• • • • •	اهداء • • • • •
٧	• • • • •	- باب الشارح • • • • •
١٥	• • • • •	- الباب الكبير • • • • •
٣٨	• • • • •	- باب السلامة • • • • •
٦١	• • • • •	- باب الحرمك • • • • •
١٦٥	• • • • •	- الباب العتيق • • • • •
١٨٠	• • • • •	- باب الفتوح • • • • •
١٩٤	• • • • •	- باب الريح • • • • •
٢٢٥	• • • • •	- باب الحرق • • • • •
٢٤٢	• • • • •	- باب القنطرة • • • • •
٢٧٤	• • • • •	- باب الحدم • • • • •
٣٠٤	• • • • •	- باب الحديد • • • • •
٤١٥	• • • • •	- باب السد • • • • •
٤٦٣	• • • • •	- باب القرافة • • • • •
٤٨١	• • • • •	- باب السلطنة • • • • •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٣٦١٢

ISBN ٦ - ٦١٨ - ٠١ - ٩٧٧ -

السطار

هل هذه الرواية سيرة شعبية عربية بشكل عصري ؟
هل هي ألف ليلة وليلة جديدة كتبها مؤلفها الروائي
الكبير خيرى شلى فى صورة تستلهم روح الليالى القديمة
بليال جديدة ؟
هل هي هزلية روائية حديثة ؟

ربما انطبقت على رواية السطار كل هذه الأوصاف .
ولكنها فى النهاية عمل فنى شديد الخطورة والأهمية يضاف
إلى منجزات الكاتب الفنية وإلى منجزات الرواية العربية
الحديثة .

Bibliotheca Alexandrina



0533643

مطابع الهيئة المصرية

٢١٠ قرشاً